حكايات كانتربري



تأليف

چيفري تشوسر

ترجمة وتقديم وتعليق

د. مجدي وهبة

د. عبد الحميد يونس



حكايات كانتربرى

تأليف

چيوفرى تشوسر

ترجمة وتقديم وتعليق

د. مجدى وهبة ـ د. عبد الحميد يونس



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٣

مقــدمـة

حياة تشوسر

لا يعرف بالضبط تاريخ ميلاد تشوسر ، الا أنه فى سنة ١٣٨٦ شهد فى قضية ، رفعت ضده ، بأنه تجاوز سن الأربعين ، الأمر الذى يدل على أنه قد ولد بين عامى ١٣٤٠ ، ١٣٤٥ تقريبا وكان أبوه تاجر نبيذ مقتدرا ، وأمه من أسرة عريقة ريفية ، وكان عمها مديرا لدار صك النقود فى لندن . كما كانت هذه السيدة متزوجة قبل زواجها من أبى الشاعر من موظف بالبلاط الملكى ، ويبدو أن هذه الصلة القديمة بالقصر الملكى رفعت أم جيفرى تشوسر الصبى الى أن تحاول أن تتوسط له فى العمل بالقصر الملكى ، والترقى فى ذلك السلك منذ صباه . وفى سنة ١٣٥٧ استطاعت أن تلحقه غلاما لزوجة ليونيل دوق كلازنس ، الابن الثانى للملك ادوارد الثالث ، ويلاحظ أن عمله كفلاح فى القصر لم يكن وقتئذ مجرد خدمة منزلية ، بل كان بمثابة مدرسة للفروسية ، اذ كان يطلب من الغلام أن يتعلم فنون الحرب ، والشعر ، والموسيقى ، والمبارزة على الخيل ، واللغة الفرنسية ، لغة الأرستقراطية والقصر ، وبعض مبادىء اللغـــة اللاتينية . فكان غلمان القصور الملكية يمثلون شــبه مدرسة لأولاد العلية من القوم ، واعدادهم لتقلدهم مناصب هامــة بالدولة فى الســلك الدبلوماسى أو الادارى أو العسكرى ، وأثناء وجوده فى خدمة الأميرة لفت انتباه أخى زوجها المسمى جون أف جونت ودوق لانكستر الذى مقدرا له فيما بعد أن يقود تمردا ضد الملك رتشارد الثانى الذى خلف ادوارد الثالث ، وســاعد على تنصيب ابنه ملكا باسم هنرى الرابع . وكانت رعاية چون أف جونت لجيفرى تشوسر من أهم الدعائم ، التى استند اليها فى حياته العامة . ويبدو أن شاعرنا الفتى قد انضم الى الحملة العسكرية ، التى قادها الملك ادوارد الثانى ضد ملك فرنسا سنة ١٣٥٩ ، وأسر تشــوسر فيها ، وبقى فى الأسر ســنة تقريبــا ، حــتى دفعت له الدية فى أول مارس سنة ١٣٦٠ . والمعروف أن الملك ادوارد الثالث

تبرع بستة عشر جنيها من قيمة الدية · ولكى نفهم أهمية هذا المبلغ يكفى أن نضربه فى خمسين حتى نقف على قيمته بالعملة الآن (٨٠٠) ج · ثم عاد الى انجلترا ، ولم نسمع عنه شيئا الا فى سنة ١٣٦٦ ، السنة التى توفى فيها أبوه ، وتزوجت أمه للمرة الثالثة ، وتزوج هو بدوره من فتاة عرفها فى أوساط البلاط الملكى ، اسمها فليبا ، كانت أختها وقتئذ عشيقة لجون أف جوتت ، وأما لأربعة من أولاده غير الشرعيين ،حتى قدر لها فيما بعد أن تصبح زوجته الثالثة · والواضح أن زواج تشوسر هذا كان من شأنه أن يقوى مركزه فى البلاط الملكى ، وخاصة أن عروسه كانت وصيفة للملكة نفسها · وفى السنة التالية (أى فى سنة ١٣٦٧) تسمع عنه مرة أخرى حين منحه الملك مرتبا مدى الحياة مقدرا بعشرين ماركا فى السنة · واذا عرفنا أن المارك وقتئذ يقدر بثلثى جنيه ، ثم نضرب ذلك فى خمسين يكون الناتج ٧٤٠ جنيها تقريبا فى السنة ، كما عينه الملك تابعا له بمرسوم خاص وصفه فيه بأنه « خادمنا المحبوب للغاية » (dilectus vallectus noster) ، وكان هذا الوصف يطلق على أخص توابع الملك لديه ، ويبدو أنه حظى بثقة عالية ، اذ أن الملك أرسله فى مهمة دبلوماسية دقيقة ، دامت سنتين بعد سنة ١٣٧٠ ليتفاوض مع حكومة جمهورية جنوا المستقلة حول تخصيص ميناء انجليزى لتجارتها فى انجلترا ، كما يبدو أنه استغل اقامته فى ايطاليا ليسافر من جنوا الى فلورنسا ، حيث تعرف على روائع الأدب الايطالى المعاصر لدانتى وبتراركا وبوكاتشيو · وهناك احتمال قوى أنه قابل الأخير حينذاك · وبعد عودته الى انجلترا عين جيفرى تشوسر مراقبا عاما لجمرك بضائع الصوف والجلود فى ميناء لندن · غير أن ثقة الملك بتشوسر جعلته يستغل قدراته الدبلوماسية بارساله فى مهام سرية خاصة الى فرنسا طوال سنة ١٣٧٦ · وفى يونيو سنة ١٣٧٧ توفى الملك ادوارد الثالث بعد حكم دام خمسين سنة ، وخلفه حفيده رتشارد الثانى ، ولم يتجاوز العاشرة من عمره · على أن منزلة تشوسر لم تتغير بهذا التغيير ، واستمر مراقبا للجمارك مع حصوله على المرتب الخاص من الخاصة الملكية ، وفى سنة ١٣٧٨ أرسل فى بعثة الى ميلانو ، حيث تفاوض مع دوق المدينة حول توسطه فى انهاء الحرب بين الانجليز والفرنسيين ، ونسمع عنه مرة ثانية فى سنة ١٣٨١ ، حينما أرسل الى فرنسا ليتفاوض فى أمر زواج الملك رتشارد الثانى من احدى بنات ملك فرنسا ، كمحاولة لانهاء الحروب المستمرة بين البلدين ، الا أن هذه المحاولات فشلت ، وتزوج الملك فى السنة التالية من

آن أميرة بوهيميا (مقاطعة فى تشيكوسلوفاكيا الآن) . أما تشوسر فبعد عودته الى انجلترا فقد عين فى وظائف ببلاده لم تترك الفرصة للقيام بمفاوضات طويلة الأجل بالخارج ، اذ عين فى سنة ١٣٨٣ مراقبا للجمارك على النبيذ وسلع أخرى . وفى سنة ١٣٨٥ عين له نائب ، قام بأغلب مهامه الادارية ، الأمر الذى سمح له بأن يتفرغ لعمله الأدبى أكثر من ذى قبل ، ولكن فى سنة ١٣٨٦ ، نتيجة لدسيسة بالقصر الملكى ، فقد وظيفته هذه والمسكن الذى كان مرتبطا به فى آن واحد ، غير أنه عين قاضيا للأمور العاجلة فى مقاطعة كنت ، تعويضا عما جرى له ، ثم انتخب عضوا فى البرلمان عن المقاطعة نفسها وحياته بعد ذلك كانت بمثابة تدهور من قمة الثقة الملكية الى الفقر والرجاء غير المستجاب من قبل الملك والعظماء حوله . ثم ماتت زوجته فى سنة ١٣٨٧ ، وتفاقمت ديونه بعد ذلك ، وقبض عليه فى سنة ١٣٨٨ ، حتى يفى بالتزاماته المالية . وفجأة رضى عنه الملك فعينه مراقبا عاما للأشغال الملكية (وهى وظيفة تقابل وظيفة وزير أشغال ومرافق عمومية فى الوقت الحاضر) . وجلبت له هذه الوظيفة شيئا من الاطمئنان المالى ، غير أنها أثقلت كاهله بالتزامات ومهام كثيرة تستدعى سفره الى كل أنحاء البلاد . وفى سنة ١٣٩٠ ، أثناء احدى رحلاته العملية من أجل وظيفته هاجمه قطاع الطرق ، وجردوه من كل ما يملك ، فامتلأ قلبه يأسا بعد ذلك وطلب من الملك أن يعفيه من عمله ، وأن يمنحه معاشا صغيرا يسمح له بالحياة الكريمة والتفرغ للأدب والعلم ، فعينه الملك نائب مدير لادارة الغابات الملكية فى مقاطعة سمرست ، واستمر على هذا النحو يتنقل بين مسكنه المتواضع فى لندن ومقر عمله فى الريف حتى مات فى ٢٥ من أكتوبر سنة ١٤٠٠ بعد أن أعترف بعمله الأدبى وامتيازه كشاعر بالانجليزية ، الأمر الذى سمح بدفنه فيما يسمى بركن الشعراء بكنيسة وستمنسر الكبرى .

هذه حياة موظف بالدولة خضع لتقلبات الدهر وأهواء الملوك لا تدل دلالة واضحة على أنها حياة شاعر أو أديب . ويمكن أن تتصور حياته الأدبية بمثابة انتاج يتسلل من خلال مهام الدولة المختلفة ، دبلوماسية كانت أو ادارية لابد أنها شغلت أغلب وقته ، وهذا أمر يبعث على الاعجاب لاستطاعته القيام بمجهود أدبى ضخم منثور وسط أنشطة من نوع آخر مختلف تماما . وكما سنرى عند عرضنا لانتاجه الأدبى أن هذا الموظف المكافح المشغول الى أقصى حد استطاع أن يصبح أبا للأدب الانجليزى ابان تحول اللغة الانجليزية من لهجة عامية محلية الى لغة قومية أدبية محترمة .

انتاج تشوسر الأدبى (عدا حكايات كانتربرى)

بالرغم من أن حياة تشوسر كانت موجهة فى أغلبها الى الأعمال الادارية والسياسية ، الا أنه استطاع مع ذلك أن يؤلف قدرا من الأعمال الأدبية ، بعث محترفى الأدب الى الغيرة منها • ومع تذييلنا لهذا القسم بقائمة كاملة لأعماله ، الا أننا سنعرض هنا لبعض الروائع التى كتبها ، والتى اصاطلح مؤرخو الأدب على أنها فجر الأدب الانجليزى عبر العصور • وفى سبيل التعرض لهذه الأعمال الرئيسية لشاعرنا سنقسم حياته الأدبية الى ثلاث مراحل : الأولى تستغرق المدة من أواخر العقد السابع حتى أوائل العقد التاسع من القرن الرابع عشر ، والثانية هى العقد التاسع نفسه ، والثالثة والأخيرة تمتد من سنة ١٣٩٠ تقريبا الى وفاته سنة ١٤٠٠ ، وفيها كرس أغلب جهوده لكتابة حكايات كانتربرى • أما المرحلة الأولى فهى تلك التى أجمع النقاد على أنه تأثر فيها بالتيار الفرنسى الغالب فى الأدب الأوربى حين ذلك ، والذى ستعرض له من كلامنا عن المؤثرات الأدبية على تشوسر ، وتشمل هذه المرحلة ثلاث قصائد طويلة من نوع القصص الرمزى هى : « كتاب الدوقة » (The Boke of the Duchesse) « ودار المشهرة » (The Hous of Fame) و « برلمان الطيور » (The Parlement of Foules)

ولقد ألف كتاب الدوقة متأثرا فيه بالتقاليد الشعرية الفرنسية ، وعارضا كلفه الشديد بتقليد الحب الرفيع (amour Courtois) السائد حين ذاك فى الآداب القومية ، وحفظه الدقيق للآداب اللاتينية الشائعة وقتذاك وخاصة كتاب « مسخ الكائنات » للشاعر الرومانى أوڤيد •

وهذه القصيدة تتألف من ألف وثلاثمائة بيت ثمانى المقاطع ، وكتبها سنة ١٣٦٩ كمرتبة رمزية بمناسبة موت زوجة راعيه جون أف جونت الأولى ، المسماة السيدة بلانش (Blanche) (أى البيضاء) • والتزم الشاعر فى هذه القصيدة بالمصطلح الأدبى للرؤيا الشاعرة ، حيث يرقد شاعر فى غاية غناء يوما من أيام الربيع (فى شهر مايو غالبا) ، فيحلم ويكون موضوع القصيدة هو ما رأى فى هذا الحلم • وهنا ينام الشاعر ، ويرى نفسه عضوا فى حملة يقودها امبراطور رومانى هو أكتافيانوس • وبينما هو يطارد أحد الوعول يلتقى فجأة بفارس يرتدى ثيابا سوداء ، يبكى فقدان مالكة فؤاده ، ثم ينطلق الفارس فيصف مناقبها وفضائلها وجمالها البالغ وكيفية مغازلتهما فى الماضى • ويتضح من وصفة هذا أن المغازلة التى حظى بها لهذه السيدة هى من صميم تقليد الحب الرفيع ، الذى نعرض له بمناسبة الكلام عن « رواية الوردة » (Roman de la Rose) ، وهى من أهم الروائع الأدبية التى تأثر بها شعر تشوسر ومعاصريه • وتنهال أسئلة الشاعر على الفارس الباكى ، ويتضح من أجوبته أن المتوفاة هى زوجته ، وهذا أمر غريب ، لأن المغازلات لم تكن وقتئذ

مألوفة بين الزوجين . وبعد قليل ينضم الى الشاعر رفقة الصيادين ، الذين كانوا قد ابتعدوا عنه مدة قليلة فى الغابة ، ثم يسمع دقات الساعة معلنة الثانية عشرة ، ويستيقظ فجأة وفى يده كتاب كان يقرؤه قبل نومه ، وهو كتاب « مسخ الكائنات » للشاعر أوفيد ، مفتوحا عند حكاية « سيكس وألكيونيه » (بالجزء الحادى عشر (١) . ولهذه الأسطورة صلة مباشرة بموضوع المرتبة اذ أنها تروى حكاية ألكيونيه ، التى مات زوجها سيكس غرقا فى البحر ، وقد رأت ألكيونيه هذه مصير زوجها فى المقام ، ولما استيقظت وجدت جثته ملقاة على الشاطىء فألقت بنفسها من شدة تأثرها وحزنها ، ولكن الآلهه أشفقوا عليهما فحولوهما الى طائرين تسكن بأمرهما أمواج البحار كلما أرادا أن يقيما عشا لهما .

وهذه القصيدة تعتبر أول عمل طموح لتشوسر ، قام به متأثرا بالتيارات الأدبية السائدة وقتئذ ، وخاصة تلك التى وردت له من فرنسا .

أما قصيدته الثانية فهى مزيج من مؤثرات فرنسية ولاتينية بالاضافة الى شعر دانتى ومعاصريه الايطاليين ، وهنا يلجأ الشاعر ، مثلما فعل من قبل ، الى الحيلة الأدبية أى الرؤيا فى المنام . وهذه القصيدة سماها « دار الشهرة » (The House of Fame) ، وهى تتألف من ألف وثمانين بيتا ثمانى المقاطع . وأغلب الظن أنه ألفها فى وقت ما ، بين سنتى ١٣٧٢ ، ١٣٧٦ ، وان كان لم يصل الى نهايتها ، وفى هذه القصيدة يرى الشاعر فى المنام أنه يزور معبد الالهة فينوس الرومانية ، ربة الفتنة والجمال منقوشا على جدرانه حكاية هروب اينياس من مدينة طروادة بعد سقوطها فى أيدى الاغريق ، ووصوله بسفنه الى شواطىء قرطاجة ، حيث تستقبله ملكا البلاد ، وتهيم بحبه ، ويعدها بالتزوج منه غير أنه يخونها فى آخر لحظة ، وينطلق مبحرا نحو شواطىء ايطاليا ، حيث قدر له أن يضع أسس الحضارة الرومانية حسب (ملحمة فرجيل) ، فتجن الملكة ريدو ، عندما ترى سفنه من بعد مغادرة الشواطىء ، فتلقى بنفسها فوق المحرقة وتموت .

وبعد ذلك يجىء نسر ضخم يختطف الشاعر بمخالبه ، وينقله الى دار الشهرة ، حيث يصادف زحاما كبيرا ممن يلتمسون الشهرة والمجد فى جميع المجالات ، من أدباء وجنود وساسة وغيرهم ، وتتوسطهم ملكة عظيمة اسمها الشهرة ، توزع المجد والسمعة السيئة ، كما يروق لها . ثم يرفعه النسر من جديد ، ويدعه فى « دار الشائعات » ، حيث تصادفه جموع من البحارة والحجاج والرحالة والسحرة وبائعى شهادات الغفران الكنائسى ، وغيرهم من جملة الأخبار الكاذبة ، وحينئذ تقف القصيدة دون أن تصل الى نهاية .

---

(١) أنظر الترجمة العربية للدكتور ثروت عكاشة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧١ .

ومن المؤثرات الأدبية على هذه القصيدة الشعر الفرنسى المعاصر لتشوسر ، الذى كان يجمع بين الالتزام بتقليد الحب الرفيع ، وبين التكلف فى التعبير ، واظهار علم الشاعر بأنواع من المعرفة المختلفة ، واقحام هذه المعلومات فى ثنايا النص ، بمناسبة أو بغير مناسبة • غير أنه كان هناك أثر جديد ، يظهر هنا فى شعر تشوسر ، هو الأدب الايطالى ، وخاصة أدب دانتى • وحتى الرسوم الجدرانية ، التى تمثل حكاية اينياس ، المأخوذة من ملحمة فرجيل ، أتت له من خلال اعجابه بالتزام دانتى ، لاستناده دائما الى فرجيل ، بوصفه أعظم شعراء اللاتينية ، وقد لقبه دانتى « بمجد جميع الشعراء ونورهم المضىء » • ولا شك أيضا أن النسر الذى يختطف الشاعر الحالم فى القصيدة أخذ من النشيد التاسع فى « مطهر » Purgatone دانتى •

أما عمل تشوسر ، الذى ظهر بعد هذه القصيدة ، واسمه « برلمان الطيور » فهو كذلك امتداد لتقليد الرؤيا الشاعرة ، التى كان تشوسر يضعها نموذجا له في منهجه الشعرى ، منذ أول انتاجه الأدبى • والقصيدة هنا تتألف من سبعمائة بيت ، تلتزم بالقافية المسماة « بالملكية » ، وهى نوع من القوافى الانجليزية ، سميت كذلك نسبة الى الملك جيمس (أو يعقوب) الأول ملك اسكتلندا ، لأنه استعملها فى قصيدته الطويلة « سفر الملك (The Kingis Quair) ١٤٢٣م) ، غير أن الفضل الحقيقى فى ابتكار هذا النوع من القافية يرجع قبل ذلك الى شاعرنا تشوسر فى القصيدة التى نحن بصددها وهى تتكون من مجموعات شعرية ، كل منها ذو سبعة أبيات عشرية المقاطع طبقا للنموذج الآتى :

أ ـ ب ـ ا ـ ب ـ ب ـ ج ـ ج •

وأغلب الظن أن تشوسر قد كتب هذه القصيدة فى وقت ما بين عامى ١٣٧٢ و١٣٨٦ • وتبدأ القصيدة بتصور الشاعر وهو يقرأ كتابا لشيشيرون اسمه حلم اسكيبيو (Somnium Scipionis) مزودا بتعليق للفيلسوف الرومانى ماكروبيوس • وهذا كتاب لعب دورا كبيرا فى تشكيل تقليد الرؤية الشعرية عند شعراء العصور الوسطى • ويحكى هذا الكتاب أن القائد الرومانى الشاب اسكيبيو ، فاتح مستعمرات افريقية (أى قرطاجة) ، (Scipio Africanus) كان نائما ذات ليلة ، زار فيها قصر الملك ماسينسا أحد ملوك ليبيا ، وبينما كان اسكيبيو نائما طافت به روح أبيه ، وحدثته عن مستقبله فى الحياة ، وناشدته الالتزام بالفضيلة والوطنية ، واهمال المجد الدنيوى ، الذى لا يوصل الى جنة الخلد • وتفيض هذه الروح فى وصف مصير البشر بعد الموت • أما الشاعر تشوسر فهو يقرأ الكتاب ثم ينام بدوره حالما أن روح أبى اسكيبيوس تمثل أمامه وتقوده الى حديقة كبرى مسورة ، ترتفع فوق بابها عبارة منقوشة ، تشرح وجهى العشق الدنيوى : وجه الحب السعيد المبنى على الحب المتبادل ، ووجه العشق المزيف الناتج عن الكبرياء والأنانية ، ثم يدفعه اسكيبيو الى داخل

الحديقة ، التى تتصف بكل جمال الطبيعة ، وتعكس الصفات المختلفة للحديقة الرمزية المسورة التى وصفت فى رواية « الوردة » ، ثم يتقدم الشاعر الحالم الى أعماق الحديقة حيث يجد معبدا مشيدا من النحاس يجد الجوفيه مخيفا وغريبا فى آن واحد ، ويسمع تنهدات العشاق تتصاعد منه ، ثم يجتمع بالاله بريابوس بداخله وهو اله الحدائق والخصوبة وعضو التذكير عند الرومان . ثم يرى الالهة فينوس ، ربة الحب والجمال ، وهى متكئة على أريكة فى أردية شفافة تكشف عن الكثير من مفاتنها ، ويرى شابين ساجدين أمامها يستنجدان بها . كما ترى على الجدران حكايات منقوشة لنساء قضين فى سبيل العشق . ثم يخرج من المعبد ويرى الهة الطبيعة تتوسط الحديقة ، وترأس اجتماعا سنويا للطيور ، فى مناسبة ذكرى القديس فالنتينو ، راعى الحب والأحباب ، (فى الأساطير المسيحية لا الوثنية) . وجدير بالملاحظة هنا أن الشاعر يخلط بين التراث الكلاسيكى الوثنى والفلكلور المسيحى ، كما كان يفعل ذلك شعراء العصور الوسطى عامة . وفى هذا المجلس ، الذى ترأسه ربة الطبيعة أنواع مختلفة من الطيور المتواضعة كالبط والأوز ، تشهد قضية خطبة أنثى نسر عريقة من ثلاثة نسور ذوى حيثية وباع . وكل من هؤلاء يفتخر بصفاته ، ويطالب بأحقيته فى التزوج منها ، ويتقدم كل من الطيور الحاضرة بابداء الرأى فى المفاضلة بين هذه النسور ، والمطالبة بتبسيط النقاش وصبغه بصبغة الحياة اليومية . فتتدخل ربة الطبيعة هنا ، وتسكتهم جميعا تاركة حرية الاختيار لانثى النسر التى تعتذر عن عدم قبول أى واحد من خطابها ، بدعوى أنها لا تريد خدمة الهة الحب (أى التفكير فى موضوع الحب) قبل مرور سنة كاملة على الأقل . وبعد ذلك تخصص ربة الطبيعة لكل زوج من هذه الطيور أنثاه ، فيتصاعد نشيد السعادة من مجلس الطيور هذا ، وتغرد ابتهاجا بقدوم الصيف . ويبدو أن الغناء كان رنانا ، حيث أيقظ الشاعر ، وجعله يعود ثانية الى مواصلة القراءة بحثا عن الحقيقة . وهناك احتمال أن تكون هذه القصيدة الرمزية قد ألفها تشوسر فى مناسبة سياسية حقيقية هى خطبة « آن » ، أميرة بوهيميا من ملوك وأمراء كثيرين فى أوربا ، وان كان الملك رتشارد الثانى هو الذى فاز بها فى النهاية . كما يلاحظ أن تشوسر قد حذا هنا ، فى هذه القصيدة ، حذو شعراء عصره فى التباهى بأنه يعلم أنواعا من المعرفة لا تمت للأدب بصلة ، مثال ذلك ايراد قوائم طويلة بأسماء الأشجار والأعشاب والطيور المختلفة . أما مغزى القصيدة فيكمن فى أمرين : أحدهما فلسفى بحت ــ وقد عولج رمزيا ــ وهو مدى حرية الاختيار فى عالم تحكمه الطبيعة ، وثانيهما التضارب بين الفلسفات المختلفة . للحب الرفيع ، ممثلة فى كلام النسور الثلاثة ، والتباين بين كل ذلك وعالم الفكر المتواضع الواقعى المنطقى ، الذى يمثله مجلس الطيور ، التى تنتمى الى طبقة أدنى من طبقة النسور .

أما ما كتبه من الشعر من ذلك فيرى عدد كبير من المؤرخين والنقاد أنه

خير ما كتبه ، وأنه ليسمو الى منزلة أول رائعة حقيقية فى الشعر الانجليزى · والبعض يرى أنه خير حتى من حكايات كانتربرى · واسم هذه الرائعة «ترويلوس وكريسايدى » (Troilus and Criseyde) وأغلب الظن أنه كتبها فى وقت ما من النصف الأول من الثمانينيات فى القرن الرابع عشر · وتجمع هذه القصيدة القصصية الطويلة بين المأساة السائدة فى العصور الوسطى والمتأثرة بفلسفة كتاب « سلوى الفلسفة » التى سنشرحها فيما بعد ، وبين فلسفة « الحب الرفيع » ، المتأثرة بكتاب رواية « الوردة » التى سنشرحها شرحا خاصا فيما بعد ويجدر بنا هنا أن نلخص أحداث هذه القصيدة التى تدور فى أثناء حرب طروادة ، موضوع ملحمة الالياذة لهوميروس ، ويلاحظ كما سنشرح ذلك فيما بعد ، أن المصادر المباشرة لهذه القصيدة نبعت من الشعر الفرنسى والايطالى فى العصور الوسطى ، ولم يأت أى ذكر لأحداثها فى ملحمة هوميروس ·

تبدأ القصيدة بأن كالخاس ، أحد الكهنة العرافين عند الطرواديين ، استشعر أن مدينة طرواده تتقدم نحو الهزيمة على يد الاغريق المحاصرين لها ، فهرب ذات ليلة الى معسكر الاغريق تاركا وراءه بنته الجميلة الأرملة الشابة « كريسايدى » ·

وذات يوم كان مواطنو طروادة يقيمون شعائر أعياد الربيع ، ومن بين هؤلاء ترويلوس ، أحد أمراء البيت المالك ، فوقع نظره على كريسايدى ، وهام بحبها هياما شديدا · وبعد اصابته بمرض الحب هذا ، الذى كان ترويلوس قبل ذلك يزدريه ويعتبره من سمات الرجل الضعيف ، ذهب الى المعبد يتضرع الى الآلهة ليشفوه من الحب · ثم أنغمس فى معمعة المعارك كى ينسى حبه ، ثم تقابل مع صديق له كهل اسمه بانداروس ، وفاتحه فى حبه ، فتطوع صديقه بأن يكون وسيطا ورسولا منه الى حبيبته ، وخاصة أنه كان عما لها ، فزارها باندوس حفل عشاء عند أخى ترويلوس دعا فيها الحبيبين ، وبعد العشاء التى زارها من أجلها ، وهى أن ترويلوس متيم بحبها ، وأن أمله أن يظهر لها طهارة حبه ، فبدأت من ناحيتها تميل نحوه ، وخاصة بعد أن رأته ذات يوم يقود جنوده فى الطريق العام بعد انتصاره على الاغريق · وبناء على ايحاء باندراوس عبر ترويلوس عن حبه فى خطاب حمله اليها عمها ، وردت هى بدورها ردا كله حرص واحتشام ، واستمرت المراسلات على هذا النحو ، حتى أعد باندراوس حفل عشاء عند أخى ترويلوس دعا فيها الحبيبين ، وبعد العشاء سمحت كريسايدى لترويلوس أن يكون فى خدمتها العاطفية الشريفة ، حسب دستور الحب الرفيع وقواعده ·

ثم جمع باندراوس بين الحبيبين فى بيته ذات ليلة مطيرة ، فحالت الأمطار دون عودة كريسيدى الى منزلها ، فقضت الليلة مع عشيقها ، واستسلمت لرغبته . ثم منحته حليتها رمزا للحب بينهما ·

أن يقر ذات يوم قامت معركة كبرى بين الاغريق والطرواديين واستطاع كالخاس
أحد الو قادة الاغريق أثناء تبادل الأسرى أن يرسلوا كريسايدى نظير تحرير
وأن أ بطال الطرواديين • وترتب على ذلك أن العشيقين افترقا على الرغم منهما ،
وبعد م ضباط الاغريق ، المدعو ديوميد ، وصل الى المدينة ليردها لأبيهـــا •
ترويلو ور بعض الزمن استطاع ديوميد أن يغرر بها ، فأعطاها جوادا من جياد
س هدية لها ، وأعطته حلية كان ترويلوس قد منحها اياها •

ديوميد فى معركة شرسة لمح ترويلوس حليتــه هــذه معلقة بدرع انتزع من
يبارز ، ففطن الى ما حدث ، والى خيانة حبيبته ، فحاول عبثا أكثر من مرة أن
الاغريق يوميد كى يقتله ، غير أنه لم ينجح بل قتل هو على يد أخيل بطـــل
•

ملتزما هذه القصيدة يمكن اعتبارها أطول قصيدة لتشوسر • ويلاحظ أنه كتبها
قبل ، نظام صعب القوافى ، ألا وهو نظام القافية الملكية التى ذكرناها من
طويل ربما يتعلق بقصيدة برلمان الطيور • ولموضوع هــذه القصــيدة تاريخ
أكثر ما مصادرها وللأشكال التى اتخذتها بعد قصيدة تشوسر ، الذى اعتمــد
عشر الم اعتمد على مصدرين هامين : أحدهما الشاعر الفرنسى فى القرن الثانى
بالفرنس سمى « بنوا دى سان مور » (Benoît de Saint Maure) فى قصــيدته
الشاعر ية القديمة ، المسماة « رواية طروادة (Le Roman de Troie) وثانيهما
قصيدتي الايطالى المعاصر لتشوسر المسمى « بوكاتشيو » (Boccaccio) فى
أن الموض الروائية « فريسة الحب » أو « قتيل الحب » (Il Filostrato) « ويلاحظ
وع قد عولج بعد تشوسر على يد الشـــاعر الاســـكتلندى هنريسن (Henryson)
ودرايدن (H فى القرن الخامس عشر ، وشكسبير فى مطلع القرن السابع عشر ،
التى تدو فى أواخر نفس القرن • كما يلاحظ أن تشوسر عالج موضوع قصيدته
مسيحيو أحداثها فى مرحلة وثنية ، واضعا نصب عينيه أن مستمعى القصيدة
القصيدة يلتزمون بقواعد الأخلاق المسيحية ، أما تصوير الحب الجدى فى هذه
الذى يقت يوحى بأنه من صميم الوثنية اذ يصور حب امرأة بالقوة والايمان المطلق،
يمجد المرأ على حب دون غيره ، فهناك صلة وثيقة بين تقليد الحب الرفيع الذى
لجمهوره أة بمغالاة تامة ، وبين الوثنية فى أخلاقية الحب ، التى يقدمها تشوسر
يعبدها ع نا ، فيصف كريسايدى كما يراهـــا ترويلوس بأنهـــا بمثابة الهة
يفعل بعض شيقها عبادة • ويفنى فى حبها ، ويمرض ويبكى بكاء مريرا ، كمـــا
الحبيبان ى المتصوفة فى التعبير عن العشق الالهى ، ومن ناحية أخرى يلتزم
الحب الر آداب السرية التامة والاحترام الواجب ، اللذين يقضى بهما تقليـــد
شخصية يع على نحو ما جاء خاصة فى رواية « الوردة » • ويلاحظ كذلك أن
فى رواية ندروس الوسيط تتميز بنفس الصفات التى يتصف بها الوسيط
تصوره عن الوردة ، مضافة الى جو واقعى ، يوحى بروح الفكاهة أحيانا ، التى
أنه مجرد قواد • هذا من حيث الشخصيات التى يلاحظ فيها تطور

كبير من البساطة النفسية ، التى كانت تتميز بها فى مصادرها الأصـلية الفرنسية والايطالية • أما من حيث الحبكة أو سير الأحداث فواضح أنها درس فى أن الانسان مسير لا مخير ، وخاضع لتقلبات الدهر ، كما جاء ذلك فى المحاورة الشهيرة لبويثيوس المسماة « سلوى الفلسفة » ، التى كان تشوسر قد ترجمها قبل تأليفه هذه القصيدة •• على أن خاتمة القصيدة بها درس مسيحى واضح مؤداه أن المأساة تأتى من الاستغراق فى الحب الدنيوى والانحصار فى حدوده ، وأن الحب الالهى هو الذى يجب أن يحل محل الحب للجسد ، الذى لا يتعدى كونه صورة من صور الوثنية المهجـورة • وعنـــدئذ فقط تتغلب النفس على المأساة ، التى تنشأ عن تقلبات الدهر العشوائية •

وآخر قصيدة نعرض لها بشىء من التفصيل هى المسماة « سير السيدات الفاضلات (The legende of Good Women) وقد كتبهاتشوسر بعد سنة ١٣٨٥ ، تعبيرا عن اجلاله للمرأة ، واعتذارا عن اساءته اليها فى ترجمته لرواية « الوردة » وقصيدة « ترويلوس وكريسايدى » ، وكانت خطة هذه السير أن تبدأ بمقدمة ، تتمشى مع تقليد « الرؤيا الشاعرة » ، ثم تنتقل الى سير لتسع عشرة امرأة كن وفيات لاله الحب ، ثم الملكة الكستيس التى ضحت بحياتها فى سبيل انقاذ زوجها ، على ما جاء فى الأساطير اليونانية القديمة • وأهم جزء فى هذه القصيدة المقدمة التى يبدؤها الشاعر بمدح الكتب القديمة لخير الحكماء والفلاسفة • ويقول تشوسر : ان هذه الكتب هى الى جانب تجاربه الشخصية ، هى المصدر الرئيسى لالهامه فى التأليف والكتابة • وهذا يدعونا الى الاستطراد قليلا بالنسبة الى ما يعتبره تشوسر وأغلب معاصريه فى العصور الوسطى مصـــدرين رئيسيين للأدب هما : أولا التجربة أو الخبرة (experience) بمعنى المعرفة أو المهارة التى يستخلصها الانسان من مشاركته فى أحداث الحياة ، أو ملاحظته لها ملاحظة مباشرة ، وثانيا الحقائق ، التى يفيد منها الانسان من الكتب القديمة (auctorite) التى تعتبر ذخيرة للذكريات البشرية ، والحكم التى اســتخلصها البشر عبر العصور المختلفة ، فعلى الأديب فى نظره أن يجمع بين الاثنين • وهذا ما يفسر لنا ، الى حد بعيد ، ولوع تشوسر فى كل أعماله الأدبية بالكثير من الاستشهاد بالنصوص القديمة ، والتباهى بمعلوماته العامة والعلوم القديمة بصفة خاصة ، كالفلك والسيمياء •

ويقول تشوسر فى مقدمته ل « سير السـيدات الفاضلات » ان احترامه للكتب كبير ، الا أنه لا يمكن أن يحول دونه ودون عشقه الذى يكاد يصبح عبادة لزهرة الأقحوان المزدهرة فى شهر مايو ، التى كانت تعتبر فى الشعر الفرنسى حين ذاك رمزا للشمس وللمالكة قلب الشاعر فى قصائد الحب الرفيع • ويعتذر الشاعر عن ضعفه فى المديح الملائم لهذه الزهرة الرمزية • ويصف تشوسر كيف أنه ذهب الى المروج ، ليتأمل هذه الزهرة ، ويستمع الى تغريد العصافير

وشقشقتها فى صباح أحد أيام الربيع الغض • ثم يرقد وينام ويرى رؤيا يتقدم اليه فيها اله الحب مرتديا جلبابا حريريا مطرزا بالأوراق الخضراء ، وتبويجيات الورود الحمراء ، وفوق شعره الذهبى هالة شمسية ، وفى وصف ردائه رمزية بينة ، فالزهرة والورقة يرمزان لتقليدين أو طرفين يتجادلان فى محاورات الحب الرفيع بالعصور الوسطى • ويقود اله الحب الملكة الكستيس المذكورة آنفا نحو الشاعر وهى مرتدية رداءا أخضر ، وهذا أيضا لون رمزى فى محاورات الحب الرفيع ، ووراء الملكة تسع عشر سيدة من طبقة ملكية بدليل أرديتهن الأرجوانية ، يليهن حشد كبير من النساء كلهن شهيدات الوفاء فى الغرام ، فيركع الشاعر أمام اله الحب ، الذى يعنفه تعنيفا شديدا على ظلمه لشرف النسوة فى ترجمته لرواية الوردة وقصيدته ترويلوس وكريسايدى • ولكن الملكة تستشفع له بذكر قصائد تشوسر الأخرى مثل «دار الشهرة» و «كتاب الدوقة» و « مجلس الطيور » و « حكاية بلامون وأركيتى » (التى أصبحت فيما بعد « حكاية الفارس » ضمن حكايات كنتربرى • وتفرض الملكة على تشوسر أن يكفر تكفير عذيا عن ظلمه للحب بأن يحكى حكايات شهيدات الغرام ، فيبدأ عندئذ بكليوبترة ثم تيزبى (Thisbe) من كتاب مسخ الكائنات لأوفيد ، ثم ديدو (Dido) من اينيادة فرجيل ، ثم ميديا Medea وهوبسيبولى (Hypsipyle) من كتاب مسخ الكائنات أيضا ، ثم لوكريتيا (Lucretia) من التاريخ الرومانى القديم ، ثم أريادنى (Ariadne) وفيلوميلا (Philomela) وفيليس (Phyllis) وهيبرمنسترا (Hypermnestra) وكلهن فى كتاب مسخ الكائنات لأوفيد •

ثم توقف دون أن يكمل حكاياته ، ومن الجدير بالملاحظة أن هذه الحكايات كلها مشتقة من قراءاته الواسعة فى الآداب اللاتينية واليونانية ، مع ملاحظة أنه قد استعان أيضا بمصادر أخرى أحدث مثل « كتاب فى النساء الشهيرات » (De Cloribus) (Mulierbus) لبوكاتشيو (Boccaccio) و « التاريخ الطروادى » (Histoira Trojana) لجويدو دا كولونا (Guido de Colonna) ، الأمر الذى يدل على أنه كان يجمع فى قراءاته بين المصادر القديمة ، وبين تلك التى هى أقرب اليه زمنيا ، ولا يفوتنا أخيرا أن نذكر أن هذه القصيدة أول مثال فى تاريخ العروض الانجليزى لاستعمال ما يسمى بالدوبيت الملحمى (heroic couplet) الذى يتألف من بيتين متتالين خماسيى التفعيلة من البحر اليامبى ، متحدى القافية •

واذا استثنينا بعض القصائد القصيرة التى كتبها فى سبيل استعطاف الملوك أو الشكوى من تقلبات الدهر يمكن اعتبار ما ذكرناه حتى الآن أهم مؤلفات تشوسر الشعرية ، ويجدر بنا هنا أن نذكر عدم تقيدنا بالتقسيم الذى ورد فى بعض كتب النقد القديمة ، والذى جعل انتاج تشوسر يمر بمراحل

ثلاث حسب المؤثرات الأجنبية في أدبه ، فكل ما كتب في تقليد الحب الرفيع والرؤيا الشاعرة الرمزية يعتبر من تأثير الأدب الفرنسي المعاصر له ، وما عدا ذلك ، وخاصة ما يتميز برؤيا فلسفية ، أو أسلوب قصصي فيرجعونه الى تأثير ايطالي • وأما حكايات كانتربري ، التي ستعرض لها فيما بعد ، فتعتبر مزيجا من كل المؤثرات الفرنسية والايطالية واللاتينية الكلاسيكية ، متفرقة أو مجتمعة• وقد آثرنا أن نفرد جزءا من مقدمتنا لكل واحد من أهم المؤلفات أو المؤلفين الذين تأثر بهم تشوسر ، بصرف النظر عن التقسيم الزمني لتأثره بآداب أوربية معينة ، فالواقع أن رواية الوردة (الفرنسية الأصل التي قد يكون تشوسر قد ترجمها الى الانجليزية) ، وسلوى الفلسفة للمفكر الروماني بويثيوس (التي ترجمها تشوسر الى الانجليزية) ، وأعمال دانتي وبوكاتشيو (التي تأثر بها كثيرا في مواضع متفرقة من انتاجه الأدبي) ، والمؤلفات العلمية في الفلك والسيمياء ، وملحمة مسخ الكائنات لأوفيد ، وانيادة فرجيل ـ كانت كلها ماثلة في ذهنه وهو يكتب شعره ، مستمدا منها بعض ما يريد ، كلما احتاج اليها •

والى جانب أعماله الشعرية هناك أثران نثريان ، أدخلهما في حكايات كانتربري برغم طولهما نسبيا ، وهما : حكاية مليبي التي نسبها لنفسه ، وموعظة القسيس في موضوع الكبائر السبع • وقد أوردناهما في ترجمتنا ملخصين فقط ، نظرا لطولهما الممل ، واستغراقهما في دقائق اللاهوت المسيحي وعبادته ، الأمر الذي يستلزم شروحا مطولة ، تتجاوز حجم الكتاب •

وهناك عملان نثريان نشير اليهما هنا ، وهما : ترجمته المزودة بهوامش وتعليقات لمحاورة سلوى الفلسفة ، وبحثه في الاسطرلاب ، الذي نقله عن اللاتينية ، والمنقول بدوره من العربية لعالم عراقي أو مصري من أصل يهودي ، عاش في القرن الثاني للهجرة ، وكتب في الرياضة والفلك والتنجيم واسمه « ما شاء الله » ، وعرف في العصور الوسطى الأوربية باسم Messahale واشتهر في المغرب خاصة بكتابه عن صنع الاسطراب وكيفية تشغيله • غير أنه لا يعرف الكثير عن هذا العالم سوى أنه درس الفلك الهندي والفارسي ، وأنه كان من أوائل من استخدموا الاسطرلاب ، وألفوا فيه ، كما كان منجما للخليفة المنصور •

وقد اكتفينا بهذا القدر من العرض لأعمال تشوسر الشعرية والنثرية ، مفردين قسما خاصا لحكايات كانتربري •

حكايات كانتربرى

مما لا شك فيه أن هذه المجموعة القصصية الشعرية من تأليف تشوسر فى أخريات حياته ، وأغلب الظن أن خطته فى أن يضم عدة حكايات ، من أنواع وموضوعات مختلفة ، فى اطار قصصى واحد ، مثلت فى ذهنه بعد سنة ١٣٨٦ ، وهى السنة التى يجمع المؤرخون على أنه ألف فيها مقدمته الشهيرة لسير السيدات الفاضلات . وهناك أدلة على أن تشوسر نفسه قد اشترك فى زيارة دينية لمقبرة القديس الشهير توماس ا. بيكيت فى أوائل سنة ١٣٨٧ استشفاعا بالقديس لشفاء زوجته المريضة مرض الموت ، وهناك احتمال أن رحلته هذه قد ألهمتـه فكرة رسم شخصيات الحجاج المختلفين اجتماعيا وأخلاقيا ، فى رفقة واحدة ، ناسبا لكل منهم قصة مؤلفة من قبل أو كان سيؤلفها فيما بعد . وعلى أية حال فانه قد بدأ مشروعه الطموح وفى جعبته بعض الحكايات المعدة سابقا ، والتى لم تكن مناسبة تماما لشخصيات رواتها . ومع كل هذا فان الخطة الطموح لهذه المجموعة لم تتحقق كاملة فان الاتفاق الذى أبرمه مضيف ألحان مع رفاقه فى نهاية المقدمة العامة ، هى أن كل حاج عليه أن يحكى حكايتين أثناء الرحلة الى كانتربرى ، وحكايتين أثناء العودة ، الا أن الرفقة لم تصل الى كانتربرى ، ولم يحك سوى ثلاثة وعشرين من الحجيج الثلاثين ، كل منهم روى حكاية واحدة . ومع ذلك فان بعض الحكايات لم تكتمل ، وبعضها لم يتناسـب مع راويهـا ، فالبحار مثلا يتكلم أحيانا بصيغة المؤنث ، والراهبة الثانية تصف نفسها بأنها ابن غير جدير بحوار أمه . وهذا يدل على أن تشوسر لم يعد نفسـه لنشر الحكايات ولم يهتم جديا بمراجعة نصه اعدادا لنشره ، بل انه كذلك لم يرتب حكاياته ترتيبا نهائيا ، الأمر الذى جعل الشراح يجتهدون كثيرا فى وضعها

متسلسلة تسلسلا منطقيا ، وان كانوا قد اختلفوا كثيرا فى هذا الأمر ، أما نحن فقد آثرنا الالتزام بالترتيب الأكثر شيوعا ، وهو الذى جاء فى تحقيق روبنسون العالم الأمريكى لأعمـــال تشوسر . وهـــذا الترتيب مبنى على أقوال الرواة أحيانا ، وخاصة تلك التى تشير الى القصة السابقة لقصص كل منهم ، كمـا بنى الاعتماد فى ترتيبه على الأدلة المأخوذة عن بعض الملاحظات الفلكيه ، التى كثيرا ما يعرض لهـا الرواة فى ســياق رواياتهم . ويمكن بذلك استخلاص ترتيب زمنى تقريبى من هذه الملاحظات الفلكية المنثورة فى ثنايا النص .

على أن تشــوسر لم ينفرد بفكرة القصــة الاطارية أو الجـامعة لقصص أخرى ، فانها تقليد أدبى موجود فى أغلب آداب العالم ، اما بوصفها قصة تتفرع عنها قصص أخرى أو بوصفها قصة لمجموعة من الرواة فى أوضاع معينة ، أو لراو واحد تنسب اليهم أو اليه قصص مختلفة . وذلك على نحو ما حدث فى قصص « ألف ليلة وليلة » التى تدخل فى اطار قصصى هو ما دار بين شهرزاد وشهريار . ومن أهم الكتب التى لعبت دورا فى تشكيل الخيال الأدبى العربى بالعصور الوسطى كتاب « مسخ الكائنات » لأوفيد الذى يلجأ الى نفس الحيلة القصصية فى جزئه الرابع ، الا أن حكايات كانتربرى تتميز عن أغلب القصص الجامعة فى أن رواتها أنفسهم يشتركون فى رحلة ويختلف بعضهم عن بعض اجتماعيا وأخلاقيا ومزاجيا ، الأمر الذى يضفى حيوية خاصة على اطار هــذه الحكايات . وهناك شبه بين فكرة هذا الاطار وفــكرة مجمـوعة بوكاتشيو القصصية المسماة « عشرة الأيام » ، الا أن تشوسر فى أغلب الظن لم يكن قد قرأ هذه المجموعة القصصية . وهناك رأى يقول انه قد يكون استلهم فــكرته من مجموعة قصصية سميت بالطرائف (Novelle) ألفت سنة ١٣٧٤ لكاتب ايطالى اسمه Giovanni Sercambi وفيها الاطار نفسه لمجموعة من الحجيج يتسامرون أثناء رحلتهم ، ومع ذلك فان حكايات تشوسر تتميز عن كل ذلـك بأنها تعطى تصويرات حية وفردية لكل من الرواة ، مع ملاحظة تأثر كل منهم بحالته الاجتماعية واضفاء سمات فردية لكل منهم ، ممـــا يجعلهم يتفاعلون تفاعلا مثمرا فى أحاديثهم وخلافاتهم ودسائسهم ، الأمر الذى يعطى فكرة حية عن الحياة اليومية فى المجتمع الانجليزى بأسره فى العصور الوسطى .

ولم يتفق مؤرخو الأدب على طريقة واحدة كمقدمة لحكايات كانتربرى ، فالبعض يفضل أن يشرح اتصالها بقصص أخرى من نفس النوع معرفة بأوربة وقتئذ أو مستمدة من تراث انجليزى شعبى . وهذا الأسلوب فى التحليل يعتمد على الأخذ بالمبدأ القائل بأن الأديب فى العصور الوسطى لم يدع أبدا أصـالة الابتكار كما هى معترف بها فى الآداب الحديثة ، فنظرية الأدب ـ اذا صح أن نسميها هكذا فى العصور الوسطى ـ تقوم على تغليب المهارة الفنية أو ملكة السبك على ابتكار الفكرة أو الموضـوع . وكان معيـار الحكم على الأديب مدى قدرته على الباس موضوع معروف لدى القراء أو المستمعين رداء جديـدا من حســن

اختيار الكلام ، والصور البلاغية الطريفة ، والاستطرادات الدالة على اتساع ثقافة الأديب وعمق معرفته • وهناك مقابل لهذا المذهب عند العرب فى نظرية الجاحظ ، التى مؤداها أن نقد الأثر الأدبى يجب أن يوجه الى آثار الصنعة فيه من جودته تشبيه وحسن استعارة وابتكار صور ، لا الى ما تضمنه من معان وأفكار ، ويكفى أن نطلـــع على شروحنا ومقدماتنا للحكايات المختلفـــة ، التى ترجمناها لكى نتأكد من أن تشوسر لم يأت بقصة واحدة من عنده ، ومع ذلك فان رواياته لهذه القصص هى التى بقيت فى ذاكرة القراء منذ عصره ، ويمكن أن يقال مثل ذلك فيما يتعلق بأعمال شكسبير فى انجلترا ، وبأعمال عمالقة المسرح الكلاسيكى الفرنسى فى القرن السابع عشر مثلا •

وهناك اتجاه آخر فى النقد يرى معالجة حكايات كانتربرى بوصفهـــا مناقشات أو معالجات من جوانب مختلفة ، لموضوعات دالة ، تشـــغل أذهان معاصرى تشوسر بالحاح • ومن أمثلة ذلك موضوع كرامة الأصـــل والخلق وسماتها المختلفة ، التى تتمثل فى شخصية الفـــارس وابن الفـــارس • وفى قصتيهما ، وفى المعالجات القصصية المختلفة الأخرى ، التى تحـــاول أن ترد مفهوم الكرم الى معايير أخلاقية بحتة ، يستطيع أن يشترك فيها علية القوم ومن دونهم على قدم المساواة •

وهناك موضوع آخر شغل بال الشراح وهو الزواج والعلاقة التى يجب أن تسود بين الزوجين من خضوع أو سيطرة أو مصارعة أو رياء أو تغليب حق الذكر على الأنثى أو العكس • وتنبثق من هذا الموضوع فكرة الزنا ، وكيف تعالج قصصيا ، فنجدها فى أغلب الأحيان موضوع حكاية هزلية لا تخلو من الفظاظة أحيانا • كما أنه قيل أيضا ان معالجة الزواج بوصفه صراعا بين زوجين للحصول على السيطرة ما هى الا نقيض موضوع دال آخر هو الحب الرفيع ، الذى شاع فى آداب أوربة كلها طوال العصور الوسطى • ويمكن تلخيص هذا الموضوع بأنه مجموعة القواعد التى تواضع الناس عليها فى أواخر العصور الوســـطى بأوربة الخاصة بما ينبغى أن يتبع من سلوك يتميز بالأدب الرفيع فى مغازلة الفرسان أو الشعراء لكرائم السيدات • ويثير هذا الموضوع فى أذهاننا الشبه الكبير بينه وبين الهوى العذرى عند العرب • وسنعرض لموضوع الحب الرفيع عند الكلام على رواية الوردة بوصفها مصدرا من مصادر أدب تشوسر • وعلى سـبيل المثال ـ لا الحصر ـ هناك موضـــوع آخر اهتم به الشراح والنقاد هو المعالجات النقدية المختلفة ، التى قام بها تشوسر لأخلاقيات أهـــل الكنيسة وسلوكهم ، الأمر الذى جعل البعض يظن أن تشوسر ثائر على الكنيسة الرسمية ، وميال لنظريات التجديد والتقشف ، التى كانت منتشرة وقتئذ بين طائفة من المسيحيين الانجليز ، الذين كانوا يرون أن الكنيسة الرسمية قد خرجت عن رسالتها الدينية الحقة ، وأنها استغرقت فى أمور الدنيا ومغرياتها •

واذا اعتبرنا هـذا التقسـيم الموضوعى قاصرا من حيث تغطيته لكافة الموضوعات والحكايات القصصية الموجودة فى حكايات كانتربرى فاننا نستطيع أن نقر التقسيم الذى لا خلاف عليه ، وهو تقسيم الحكايات حسب أجناسـها الأدبية ، فيمكن مثلا اعتبار حكايات الفارس وابنه مالك الأرض بأنها بعبارة عامة من فصيلة القصة الخيالية ، وهى عبارة عن الرواية الشعرية أو الفقرية ، التى ظهرت فى القرون الوسطى الأوروبية وتجمع موضوعاتها بين المغامرات الفروسية والحب الرفيع ، وروحها عاطفية وخيالية فى آن واحد ٠ أما حكاية الطبيب فهى تدخل تحت فرع من القصة الخيالية ، هو ذلك الذى يتخذ موضوعاته كلهـا من تصور خيالى لتاريخ روما وأساطيرها ٠ وأما حكاية توباس ، التى نسبهـا تشوسر الى نفسه ، وتركها غير كاملة فهى تقليد ساخر للقصص الخيـالية ، التى تعالج موضوعات الفروسية والحب الرفيع ٠ أما عنصر القصص الشعبى المحلى فنجده ممثلا فى حكاية رجل القانون وامرأة باث والراهب الجوال والمحضر الكنسى وعالم اكسفورد ومتعهد المؤن ، وهى كما يبدو تكون الجزء الأكبر من حكايات كانتربرى ٠ وبوصفها شعبية لابد أن تكون لها نظائر ومقـابلات فى التراث الشـعبى العالمى شرقيا كان أم غربيا ٠ وأما حكايات الطحان والطاهى والبحار وناظر الضيعة فهى تندرج دون شك تحت جنس « الفابليو » الذى هو عبارة عن حكاية شعرية هزلية قصيرة تتميز غالبـا بالمجون والاسـتهتار ، وقد كانت شائعة فى فرنسا أثنـاء القرنين الثانى عشر والثالث عشر ٠ وأما حكاية القسيس وبائع شهادات الغفران فهى من نوع الموعظة المستندة الى أمثلة قصصية لابراز العبرة فيهما ، وأما حكاية رئيسة الدير والراهبة الثانية فهى مشتقتان من سير القديسين ، التى كانت منتشرة حين ذاك ، كما كانت فى أغلب الأحيان تفرض على الناس تلاوتها بصوت عال حتى يعتبر بها المستمعون ٠ ومن أشهر نماذج هذا النوع ما سمى بالسير الذهبية (Legenda Aurea) التى جمعها باللاتينية الراهب الايطالى يعقوب الفوراجينى (Jacques de Voragine) القرن الثـالث عشر ، وأصبحت هذه المخطوطة أولى الكتب ، التى طبعت فى فرنسا ، بعد اختراع فن الطباعة ٠ وأما حكاية الراهب فهى مجموعة من القصص الأخلاقية ، التى تصور فهم العصور الوسطى لمعنى المأساة المتأثر الى حد بعيد بفلسفة بويثيوس ، فى كتابه المشهور « سلوى الفلسفة » الذى سنعرض له فيما بعد ٠ وأما حكاية ميليبى فهى نوع من القصة الرمزية المشتملة على شـخصيات ليست سـوى معان مجسدة تحمل فى ثناياها عبرة ، يغلب أن تكون أخلاقية أو دينية ، بعيدة عن المعنى الظاهرى لها ٠ وأما حكاية قسيس دير الراهبات فهى مشتقة (بغض النظر عن اسـتطراداتها الفلسـفية) من جنس أدبى كان منتشرا حين ذاك هو القصص الحيوانى ٠ وهى شبيهة بما عرفه الشرق من أمثال « كليلة ودمنة » ، فكانت تصور شخصيات من الحيوان المتقمص خصائص البشر من خبث ومكر وفضائل وأخلاق بصفة عامة ، كما كانت هذه القصص نوعا من الحكاية الرمزية المقصود بها نقد المجتمع عامة والكنيسة خاصة فى العصور الوسطى الأوروبية،

الا أن موضوع الحكاية ، التى نحن بصددها هنا يتميز بمعالجته لطبيعة العلاقة الزوجية · وأخيرا وليس آخرا يمكن اعتبار حكاية خادم القمص ، التى تصف حيل وخداع العرافين وعلماء السيمياء ، حكاية أصيلة أصالة تامة لا تنتمى الى أية نماذج أدبية أخرى ، بل غالبا ما كانت ثمرة ملاحظات شـــخصية لتشوسر نفســـه ·

ومهما قيل من نظريات وافتراضات خاصة بالأجناس الأدبية التى تنتمى لها حكايات كانتربرى ، فان هذه الحكايات قد أضفى عليها تشوسر من الطرافة ما جعلها تدخل التراث العالمى بوصفها رائعة أدبية قائمة بذاتها ، وهذا ما دفعنا الى ترجمتها الى اللغة العربية بالرغم مما يتخللها من عقبات فكرية وحضارية تتعلق بظهورهما فى عصر بعيد كل البعد عن عصرنا من حيث القيم والمعايير الأدبية وفلسفة الحياة ، وبصرف النظر عن صعوبة نقل تراث شعرى من لغة انجليزية عتيقة أسلوبها مقصود به الالقاء أكثر من القراءة ، وكذلك البيئة التى ألفت من أجلها أغلب ما تكون من النبلاء والارستقراطية الفكرية السائدة وقتئذ ، والتى كانت قادرة على ادراك المعانى الخفية والتوريات والعبر الرمزية أكثر مما نستطيع الآن ، ما لم تزود بشروح وتعليقات مفسرة للنص · ونعتقد أن هذا التحدى فى نقل أثر من عصر قديم ولغة عتيقة ومعان ترتبط ارتباطا وثيقا بالمعتقدات المسيحية القديمة الى لغة عربية خلفيتها الحضارة الاسلامية ، فضلا عن أن نظرة اللغة العربية الى العالم المعاصر فيها الى جانب تراثها الاسلامى ادراك واع لتحديات العصر ولمدنية علمانية دنيوية بعيدة كل البعد عن العالم الفكرى والروحى ، الذى عاش فيه تشوسر فى القرن الرابع عشر ، وهـــذا هو ما يفسر ندرة ترجمات حكايات كانتربرى الى اللغة العربية · فديننا كبير للبحاثة الشاب ماهر شفيق فريد الذى استطاع أن يحصر ما جاء باللغة العربية عن تشوسر وأعماله عامة فيما يأتى : فأولا — ظهرت صفحات عن تشوسر فى المؤلفين الآتيين :

١ — « فى الأدب الانجليزى » لمحمود محمود (مكتبة النهضـــة المصرية سنة ١٩٦٥) ·

٢ — « أعلام الأدب الانجليزى » لكامل عبد المجيد وفؤاد فهمى (الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٥) ·

ثانيا : ظهرت بعض الصفحات المترجمة عن شعر تشوسر فى الكتب الآتية :

• « موجز تاريخ الأدب الانجليزى » لا يفورا يفانز ، ترجمة الدكتور شوقى السكرى والدكتور عبد الله عبد الحافظ (مكتبة الانجلو المصرية ، الطبعـــة الثانية سنة ١٩٦٠) ·

« عمالقة الأدب » (الجزء الثانى) لبرتون راسكو ، ترجمة ومراجعة درينى خشبة وأحمد قاسم جودة (مؤسسة روز اليوسف سنة ١٩٦١) ٠

« الأدب الانجليزى » لبول دوتان (والمترجم مجهول – دار الفكر العربى سنة ١٩٤٨) ٠

ترجمة للتوزيع الخاص ، قام بها الاستاذ ماهر شفيق فريد لحكاية « رئيسة الدير » عن أصل هو نفسه ترجمة انجليزية شعرية حديثة قام بها نفيل كوجهل ٠

وعلى أية حال فرجاؤنا أن نضع بين أيدى قراء العربية نصا يعتبر فاتحة الأدب الانجليزى باتفاق الجميع ٠

ولا يبقى علينا بهذا الصدد الا أن نعرض لبعض المؤثرات الأدبية الهامة التى كان تشوسر يرجع اليها باستمرار ، وذلك لكى نقيس نجاحه فى اضفاء ثوب جديد على فكرة معروفة ، ولندرك مدى اتصاله بالتراث الأدبى الأوربى ، الذى كان يعتبر ملكا مشاعا لكل مثقفى الغرب فى العصور الوسطى الأوربية ٠

مؤلفات أثرت فى أدب تشوسر

رواية الوردة (Le Roman de la Rose)

هذه قصيدة طويلة تشمل ما يربو على اثنين وعشرين ألف بيت ثمانية المقاطع ، كل بيتين منهما لهما قافية واحدة ، والجزء الأول من هذه القصيدة كتبه سنة ١٢٣٧ م تقريبا عالم فرنسى شاب ، اسمه جيوم دى لوريس (Guillaume de Lorris)الا أن هذاالجزء لم يتعد أربعة آلاف ومائة وخمسين بيتا ، ثم مات مؤلفه فجأة ، قبل أن يكمله ٠ وبعد موته بأربعين سنة كتب شاعر آخر اسمه جان دى مون (Jean de Meung) جزءا مكملا له فى ثمانية عشر ألف بيت ،فكملت القصيدة ، بعد استطرادات فلسفية وعلمية وسياسية مختلفة الروح تماما عن الجزء الأول ٠

وهذا الجزء الأول بمثابة دستور لفن الحب الرفيع معبر عنه بقصة رمزية ، شخصياتها كلها معان مجسدة ، وفيه يقول الشاعر : انه ذات يوم جميل من شهر مايو ، وهو فى العشرين من عمره ، رقد تحت شجرة ورأى الحلم الآتى : جاء الى حديقة مسورة بجدار كبير رسم على الوجه الخارجى له صور رمزية لكل أنواع الشقاء والرذيلة اللتين تعترضان حياة الانسان ، مثل الكراهية والحسد والأحزان والشيخوخة والرياء والفقر وما الى ذلك ٠ والغرض من ذلك الايحاء بأن كل ذلك لا وجود له داخل أسوار الحديقة ٠ ولما سمع

الشـاعر تغريد العصافير بحث عن مدخل للحديقة حتى اكتشـف بابا صغيرا تحرسه فتاة جميلة ، اسمها الكسل ، فقالت له : ان الحديقة ملك لرجل عظيم اسمه السيد رب بهجة • ثم دخل الشاعر الحديقة ولمح صاحبهـا برفقة ربة السرور واله الحب نفسه ، الذى كان يتبعه شاب وسيم يحمل قوسـه وكنانة سهامه يدعى الجميل • وكان يسير أيضا الى جانبهم رفقة من السيدات الجميلات يدعين الفتنة والثراء والسخاء وكرم الخلق والأدب الجم • ثم يتأمل الشـاعر الحديقة ويصفها وصفا مفصلا ، حتى لمح شجيرة ورد جميلة ، فأراد أن يقطف أجمل براعيمها (وهذا بطبيعة الحال رمز للعشيقة الجميلة المتمنعة) ، فحاول القطف ولم يستطع ، فجرحه اله الحب بسهامه الساحرة ، التى أخرجت كل خاطر من فؤاده سوى الولوع بقطف الوردة • فأصبح بعد ذلك عبدا لاله الحب ، الذى فرض عليه دستورا للحب الرفيع ، لا يستطيع بدونه أن يبلغ مأربه • وبعد ذلك يتقرجح العاشق بين الاقدام والتردد ، وذلك بتدخل شـخصيات رمزية ، تمثل أهواء المعشوقة وحالاتها النفسية ، مثـل الترحيب والخجل والنميمة والخوف وشدة الحرص على السمعة • وبعد محاولة فاشلة لتقبيل البرعم ، يعترض طريقه رب الحكمة ، ويحاول أن يثنيه عن أغراضه الشهوانية ، ولكن حججه تقع على آذان غير مصغية ، ويلتقى الشـاعر عندئذ بربتى الكرم والشفقة ، ثم الالهة فينوس ربة الحب والجمال عند الرومان اللاتى يمهدن له الطريق للحصول على قبلة واحدة من الوردة ، الا أن النميمة شهدت ما حدث ، وأثارت شغبا بالحديقة ، فجاء جنود الحسد ، وسجنوا ربة الترحاب فى سجن منيع ، سوروا شجيرة الورد بأسوار جديدة ، وعينوا عجوزا شمطاء حارسة لها ، فانفجر العاشق باكيا ، وأطال النحيب ولكن •• وهنا انقطع كلام الشاعر فجأة حتى استأنفه الشاعر الثانى الذى ذكرناه بأسلوب مختلف تماما • ومع ذلك يجب أن نلاحظ أن ما لخصناه هو الذى لعب دورا كبيرا فى تشكيـل الذوق الشعرى الرمزى ، الذى ساد فى أغلب أنحاء أوربة الغربية فى العصور الوسطى ، من رؤيا شاعرة ، ووصف للربيع فى صباح يوم من أيام شهر مايو ، ووصف لحديقة جميلة ، وتجسيد لمعان مجردة ، وما الى ذلك ، من الصيغ الشعرية ، التى تواضع عليها شعراء العصور الوسطى ، لعبت نفس الدور الذى لعبه بكاء الأطلال أو الغزل فى الشعر العربى •

ان دستور الحب الذى فرضه الهه على الشاعر فى حلمه هو ، بلا شك ، أهل ما ورد فى هذا الجزء من رواية الوردة بالنسبة لجمهور القراء الارستقراطيين وقتئذ ، ولا بأس من تلخيص مبادىء هذا الدستور فيما يلى :

أولا : ان الشعور بالعشق مزيج من الألم والبهجة فى آن واحد ، بل الغالب فيه شبه شعور بالغناء رمزه سهم اله الحب النافذ الى قلب العاشق ، وقـد أدى هذا الى شبه مصطلح شعرى هو نحيب الشاعر العاشق والتعبير عن يأسه ، وعن اصابته بمرض شديد ، يجعله على شفا الموت ، ولا يشفيه منه سـوى

ابتسامة من عشيقته ، وهذه الشفقة من جانب السيدة المحبوبة غير مشروطة ، فهي مرة تتمتع بحرية كاملة في أن تشفق أو لا تشفق وعلى المحب أن يقبل هذا القضاء في سرية تامة ، دون أن يجاهر بحبه ، حفاظا على شرف السيدة وأمانها الاجتماعي · ومما لا شك فيه أيضا أن هذا الحب لا وجود له في اطار العلاقة الزوجية الا نادرا أو مصادفة ، لأن المهم في هذا الحب هو شدة الألم الكامن فيه مع تقنعه وراء أدب وفروسية واحترام لا ينفذ من خلاله الوجدان الجارف المعذب ، وكان الزواج في العصور الوسطى بمثابة عقد بين رجل وامرأة ، موضوعه ليس الحب المتبادل ، وانما طاعة المرأة للرجل وحرية الرجل في أن يقضي شهوته منها متى شاء ، كما أن الزيجة سر من أسرار الكنيسة المسيحية ، الغرض منه ضمان التكاثر من غير زنا ولا فجور · وأما دستور الحب الرفيع فكان يفترض من قلب الأوضاع الموجودة في الزواج اذ أن السيادة فيه للمرأة لا للرجل ، والطاعة فيه فرض على العاشق خاصة أن من سمات العاشق أن يكون حبه يائسا ، ولا يقابل بحب الا بمحض حرية السيدة · ويترتب على كل هذه الالتزامات المفروضة على العاشق أن ينتهج سلوكا معينا ، ارتسمت سماته على مر الزمان في المجتمعات الراقية المتمركزة حول قصور الملوك ، فكان يتحتم على العاشق مثلا أن يكون ملتزما بكل ما يتسم به الفارس المثالي من بسالة وكرم وأدب ورقة وأناقة في الثياب ونظافة وتجنب البخل والكذب والمجون وألا ينتظر أي عطف من معشوقته ، مع استمرار عشقه لها · وهذه المقومات للعاشق المثالي كانت متصلة الى حد ما بما ينتظر من فارس عريق السلالة ، الا أنها كانت في متناول أي شاعر أو شاب مستعد للخضوع لدستور هذا الحب · وقد اختلف النقاد في رد هذا المصطلح الشعري الى أصول تاريخية · فالبعض يرده الى محاولة التقنين لكتاب فن الهوى للشاعر الروماني أوفيد مع تحويره تحويرا أخلاقيا بعيدا عن الفجور والاستهتار ، والبعض يرد عبادة السيدة في الحب الرفيع الى التيار الديني الجارف في تقديس العذراء مريم بشيء من المغالاة في عبادات ذلك العصر ، وهو الأمر الذي أدى الى شبه تمازج بين الشوق المتصوف نحو أم المسيح وبين تمجيد المعشوقة في الحب الرفيع ·

وعلى أية حال فهناك تفسير اجتماعي أيضا لهذا التقليد ، هو ظروف الحياة الناتجة عن الحروب الصليبية وسفر الفرسان والنبلاء الى فلسطين في حملات عسكرية ، قد تدوم سنين طويلة وترك زوجاتهم في قصورهن من غير ترفيه ولا سلوى ، الأمر الذي شجع الشعراء الجوالين على أن يمتدحوا هؤلاء السيدات مدحا مغالى فيه قد يتخلله بعض المغازلة الخفية التي تصرف ذهن السيدة عن وحشتها ، وقد تقع فريسة للشاعر المداح ، وان لم يحدث ذلك ، فانها سوف تغدق عليه المال والطعام ·

الا أن تقليد الحب الرفيع له بلا شك جذور أندلسية تهم قارئ العربية بصفة خاصة · اذ ظهر أولا في جنوب فرنسا على يد شعراء التروبادور في

أوائل القرن الثانى عشر ، وهم الذين ينظمون الشعر الغنائى الغزلى بلغة جنوب فرنسا • وأغلب قصائدهم كانت توجه الى احدى السيدات الشريفات تعبيرا فى أسلوب رقيق عن الولاء والاعجاب • ومن السمات الرئيسية للحب الذى كان يتغنى به التبعية المتواضعة لمحبوبة مستهترة قاسية ، والمدح المسرف لجمال السيدة ، والتزام أسلوب يرمز الى أن العشق غير مشروع لبعده عن العلاقة الروحية ، والالحاح فى الوقت نفسه على طهارة ذلك الحب لبعده عن العلاقة الجنسية المباشرة (فى أغلب الأحيان) • وكانت قصائد التروبادور بعضها يلحن ويكون فنونا مختلفة فى الصيغ الشعرية ، الا أن مؤرخى الأدب يجمعون على أن هذه الصيغ الشعرية لها جذور واضحة فى الموشحات الأندلسية وفى شعر الغزل العربى عامة ، وقد يكون للهوى العذرى أيضا أثر بعيد على هذا النوع من القصائد الغزلية فى أوربة •

ومما يلاحظ أيضا أنه فى أواخر القرن الثانى عشر كتب أديب فرنسى معروف اسمه بصيغته اللاتينية اندرياس كابيلانوس (Andreas Copellanus) موسوعة باللاتينية عن القواعد التى يجب مراعاتها أثناء المغازلة حسب دستور الحب الرفيع سماها « فى الحب أو فى فن الحب بأسلوب كريم » (De Amore seu De Arte haneste Amandi)

وكل هذا يتعلق فى الواقع بالجزء الأول من رواية الوردة • أما الجزء الثانى الذى كتبه جان دى مون ، وهو الأطول بكثير ، فلا يتضمن شيئا قط من الحب الرفيع ، بل تصبح على يده مغامرة البحث عن الوردة مجرد تحايل للاتيان بموضوعات فلسفية مختلفة خاصة بروح العصر من شكاوى سياسية الى هجاء لرجال الكنيسة المنعمين ، الى تفنيد لحجج الرهبان الجوالين ، الى الدعوة للعودة الى أصول الدين المتقشفة الطاهرة ، ومع ذلك فان مؤلف هذا الجزء الذى يستغرق أكثر من ١٨٠٠٠ بيت يستمر فى القصص الرمزى الذى بدأه سلفه بالرغم من الاستطرادات الكثيرة التى تعترض سير القصص • فالعاشق يحاصر قلعة الوردة بمساعدة النفاق مجسدا فى شكل راهب مسيحى ، ويتغلب على « النميمة » التى تعترض طريقه • أما الحارسة العجوز الشمطاء فيجذبها نحوه وتصبح مدافعة عنه ، وكذلك ربة الطبيعة تضع قواها تحت تصرفه • وتجىء فينوس ــ الهة الحب والجمال ــ بسيف من نار تدفع عنه تجسيدات الخوف والحياء والحشمة المتكلفة ، وبذلك يستطيع الشاعر أن يحصل على الوردة ــ الا أن أهمية هذا الجزء تكمن فى الاستطرادات الطويلة ، التى يظهر فيها المؤلف درايته بأعمال أرسطو وأفلاطون وبأغلب روائع الأدب اللاتينى القديم ، كما أنه يظهر دراية خاصة بالمؤرخين والفلاسفة الذين شكلوا روح العصر الوسيط ، مثل بويثيوس وأبيلارد وروجربيكون • كما يلاحظ أن هجاءه للنساء ــ وهو من الموضوعات المتداولة فى العصور الوسطى ــ هو بمثابة قالب لدستور الحب الرفيع رأسا على عقب ــ على أن لب فلسفته يتجلى عندما تظهر ربة الطبيعة

فى القصـــــة ، وتأمر العاشق بأن يطيع أوامرها ، فكأن المؤلف يقول : ان كل ما هو مخالف لطبيعة الأشياء مشين فاسد ، وأن هذا هو المعيار الذى يجب أن يحكم بمقتضاه على كل النظم البشرية الاجتماعية من أديان وعلاقات وقوانين ٠

وقد نسبت الى تشوسر ترجمة رواية الوردة ، خاصة أنه اعترف بذلك فى مقدمته لسير « السيدات الفاضلات » ، ولكن يبدو أن الترجمة الموجودة لم تكن كلها من عمله ، وأغلب الظن أن تشوسر ، اذا كان قد ترجم ، لم يترجم الا جانبا من الجزء الأول المنسوب الى جيوم دى لوريس ، أما الجزء الثانى ، وقد ترجمت فقرات منه الى الانجليزية ، فالواضح أنها من عمل غيره ٠ ومع ذلـك فان ما جاء فى مقدمة سيدة بات لحكايتها متشيع الى حد بعيد بهجاء النساء ، الذى ورد فى الجزء الثانى من حكاية الوردة ٠ وعلى أية حال فان هذا الموضوع من الموضوعات المطروقة فى آداب العصور الوسطى ، ومن الصعب نسبتها الى مصدر واحد معين ٠

سلوى الفلسفة :

هذه المحاورة من أشهر الأعمال التى كتبها الفيلسوف الرومانى أنيكوس مانليوس ســـيفيرنيوس بويثيوس (Boethius) ، الذى عاش من سنـــة ٤٨٠م تقريبا الى ٥٢٤م ٠ وكان بويثبوس موظفـا كبيرا فى عصر الامبراطور القوطى لدولة روما القربية ثيودوريكوس (Theodoricus) ، ولكنه اتهـم بالخيانة وبالاتصال السرى مع امبراطور الدولة الشرقية ، فحكم عليه بالاعدام ، ثم سجن مدة طويلة بقلعة منيعة فى مدينة بافيا الايطالية ، وعذب تعذيبا قاسيا أدى الى وفاته ٠٠ وبالرغم من أنه كان مسيحيا فانه كلف بفلســفة الاغريق القديمة ، فبدأ فى أوقات الفراغ من عمله الرسمى يترجم المؤلفات الكاملة لأرسطو وأفلاطون ، وكان غرضه من ذلك أن يحين التوافق الجوهرى بين فلسفتيهمـا وعدم تعارضهما مع الدين المسيحى الجديد ٠ ولم يبق من أعماله لنا ســوى ترجمة لاتينية مفسرة لكتاب المنطق لأرسطو ٠ ويضاف الى ذلك أنه قام أيضا بترجمة بعض أعمال فرفيريوس الصـورى (٢٣ ـ ٤٠٤ م) الـذى كان من أتبـــاع الأفلاطونية الجديدة ، وأحب تلميـــذ لأفلوطين ، وكان له الدور الأول فى نشر تعاليم أستاذه ، لا سيما كتابه « التساعيات » ٠ أما العرب فقد عرفوا فرفيريوس بكتابه « ايســاغوجى » المعروف باســم « المقولات الخمس » ، وهو المختصر المنسوب الى أثير الدين الايهرى ٠ وكلمة ايســاغوجى يونانية ومعناها المقدمة ٠

الا أن أشهر أعمال بوثينيوس هى المحاورة المشهـــورة باسم « سلوى الفلسفة » (Consolatio Philosophiae) ، التى كتبها فى الســجن انتظارا لاعدامه ٠ وتتألف هذه المحاورة من خمسة أجزاء من النثر الممزوج بالشعر ،

وفي بدايتها تأتى ربات الفنون الى الفيلسوف الأسير وتملى عليه مرثية فى البكاء على حاله اذ أنه سقط من منزلته العليا كقنصل فى الدولة الرومانية الى سجين معذب ينتظر تنفيذ حكم الاعدام عليه • وهذا ما يجعله يسرد قائمة لجميع الآلام وألوان الشقاء التى تصيب الانسان فى حياته • ثم تأتى سيدة وقور تصرف ربات الفنون من أمام السجين وتأخذ فى محاورته لتسرى عنه • وتدعى هذه السيدة « الفلسفة (أو الحكمة) » ، وهى بطبيعة الحال شخصية رمزية ، فتبدأ بأن تسرد له كل ألوان الشقاء والتعذيب التى قاساها أشهر الفلاسفة من أمثال سقراط نفسه وتدعوه الى أن يكاشفها بهمومه ، وعندئذ يشرح السجين كيف كان موظفا رفيع المقام عفيف اللسان ، أمينا مخلصا للامبراطور ، وكيف قوبلت أمانته بالظلم والشقاء ، فترد عليه « الفلسفة بأن ما نعم به فى الحياة يفوق كثيرا ما تعرض له من آلام لها ، وتسأله لماذا يشكو فقدان مجد أو ثراء وهو يعلم تماما أن هذه ان هى الا أباطيل خداعة • فى حين أن الخير الوحيد هو الخالق عز وجل • ثم يسأل السجين كيف يتأتى أن يكون بعض البشر سعداء والبعض الآخر أشقياء ، وأن الخير قد لا يجازى بالخير ، وأن الشر قد لا يعاقب عليه فى ظل اله عادل عليم وهاب ، فترد عليه الفلسفة قائلة : ان التوزيع غير العادل للخير والشر ما هو الا توزيع ظاهرى ، كما أن العناية الالهية تعطى دائما ما يستحقه الانسان من خير وشر ولو لم يدرك ذلك فى وقته • فيجيب السجين قائلا • ان معنى ذلك أن كل شيء مقدر ومن ثم لا توجد حرية للارادة البشرية ، وبالتالى لا فضيلة ولا رذيلة ، مادام كل ما يحدث لا يقع الا جبرا • فترد عليه الفلسفة بأن العلم المسبق بالحدث لا يعنى حدوثه حتما ، وأن المعرفة المسبقة المعصومة من الخطأ لأحداث مستقبلة لا تعنى بالضرورة وقوعها ، بل هى مجرد دليل على تلك الضرورة • ولكن يجب أن يلاحظ أيضا أن الحتمية لا تكون الا فى حالة العلم المسبق ، ولكن اذا كان العلم معاصرا للحدث فلن يستطيع عندئذ أن يكيف الحدث المعلوم • والواقع أن علم الله لا يرتبط بحدود الزمن ، فهو يرى الأشياء فى حاضر أبدى ممتد الى ما لا نهاية • والقياس على ذلك مخيلة الانسان التى تدرك الأشياء ادراكا يختلف تماما عن ادراك العقل لها ، ولا شك أن ادراك الاله يختلف عن ادراك عقولنا • وبما أن فهمنا وتعقلنا ضعيفان فاننا لا نستطيع أن ننكر على الاله ادراكا أسمى من ادراكنا ، اذ أننا حتى فى حدود نفوسنا لا نستطيع أن ندع ضعف الحواس ينكر وجود الخيال ولا أن ندع ضعف الخيال ينكر وجود الاستدلال ، ولا أن ندع ضعف الاستدلال ينكر وجود الذكاء •

ويلاحظ أن محاورة الفلسفة والسجين تتعرض فى كثير من حججها لمعنى لم يكن مطروقا فى الفلسفات الوثنية ، ولا فى علوم الدين المسيحى ، هو تصور وجود محرك غير ارادى منبثق من الضرورة الموجودة فى نظام الخليقة ، وهوما سماه فيلسوفنا مجازا بربة الحظ • ووظيفتها تحريك الأحداث حركة لا ارادية ، كأنها تنفيذ من حيث لا تدرى ، أوامر الاله فى خليقته • وهذا

المفهوم المجازى هو الذى جعله تشوسر ومعاصروه أساسا لنظريتهم فى المأساة ٠ وهذا الأساس هو اعتبار ربة الحظ ترفع بعض الناس رفعا عشوائيا الى قمة السعادة والمجد ، ثم تدفعهم بعد ذلك الى قاع الشقاء بلا سبب ومن غير ذنب جنوه ، كأنها فى تصور الأدباء حين ذاك ملكة معصوبة العينين تدير ساقية ترفع عليها أبطالا بصفة مؤقتة ، ثم تهبط بهم أسفل سافلين بنفس الحركة ٠ وبرغم أن بويثيوس كان مسيحيا الا أن هذه المجازات لا تمت الى الايمان المسيحى بسبب « فسلوى الفلسفة » محاورة كتبها من منطلق فلسفى بحت ، قد نصفه بالرواقية المتطرفة ، الا أن التأثير المسيحى تغلغل فى الحجج المتبادلة بين الشخصيتين من خلال مناقشة أخلاقيات المواقف المؤلمة للانسان فى محنه المختلفة ٠ وكانت سلوى الفلسفة من أهم المؤثرات فى آداب العصور الوسطى وفكرها ، وهناك أكثر من أربعمائة مخطوطة كتبت بين القرن السادس الميلادى والقرن الرابع عشر ، الذى عاش فيه تشوسر ٠ بل ان هذه المحاورة ضمن أربعة من أمهات الكتب ، التى اختارها الملك الفريد ، الذى بشر انجلترا كلها بالمسيحية لنقلها من اللاتينية الى اللغة الانجليزية القديمة بقلمه هو نفسه ٠ كما أن تشوسر بدوره نقل هذا الكتاب الى اللغة الانجليزية الوسطى ناسجا على منوال جان ديمون ، مؤلف الجزء الثانى من رواية الوردة ، الذى تنقلها الى اللغة الفرنسية ٠ وأغلب الظن أن تشوسر قد ترجمها حوالى سنة ١٣٨٠ ، قبيل كتابته لقصيدة ترويلوس الطويلة ، وقبيل كتابته أيضا لحكاية الفارس المقتبسة من رواية شعرية كان قد كتبها بوكاتشيو بالايطالية فى شبابه ٠

وختاما يلاحظ أن رواج سلوى الفلسفة لم يتجه بانتهاء العصور الوسطى٠ بل امتد الى أواخر عصر النهضة بدليل أن الملكة اليزابث الأولى نفسها قد قامت بدورها بترجمة هذه المحاورة الفلسفية الشهيرة الى اللغة الانجليزية الحديثة ٠ فهى اذن نص جوهرى لفهم طرق التفكير فى أوربا الغربية منذ أوائل العصور الوسطى حتى أواخر عصر نهضتها ٠

دانتى وبوكاتشيو :

من المعروف عن حياة تشوسر أنه سافر فى مهمات دبلوماسية الى ايطاليا مرتين : أولاهما سنة ١٣٧٢ ، وثانيتهما سنة ١٣٧٨ ٠ وهناك احتمال قوى أنه اتصل بالأدب الايطالى فى أثناء رحلتيه هاتين ٠ وكان دانتى قد مات سنة ١٣٢١ الا أن أعماله كانت تدرس فى كل أنحاء ايطاليا بوصفها أول أثر أدبى هام باللغة الايطالية ، التى أصبحت لغة قومية عامة بالنسبة لكل أنحاء البلاد منذ قرن على الأقل ، وعندما زار تشوسر ايطاليا كانت جامعة فلورنسا قد أسست كرسيا أستاذيا باسم دانتى ، وأول من ألقى محاضرة من هذا المنبر هو بوكاتشيو نفسه معاصر تشوسر ، الذى يحتمل أنه التقى به أثناء رحلته الأولى ٠ وعلى أية حال من الغريب أن تشوسر قد أشار مرتين فى شعره الى دينه الأدبى لبترارکا

(فى حكاية عالم أكسفورد ، وفى حكايته للزباء ضمن حكاية الراهب) فى حين أنه لا توجد أدلة مطلقا على المامه بأعمـال بترازكا ، وأن كثيرا من أدبه مدين لأعمال بوكاتشيو فى موضوعاته ، من غير أن يشير اليه حتى مرة واحدة .
أما دانتى فهناك مواضع فى شعر تشوسر ، نستطيع أن نذكرها على سبيـل الحصر ، أثر دانتى فيها واضح ومباشر : النقش المنحوت فوق رتاج المجلس فى قصيدة « برلمان الطيور » وهو صدى للكلمة المنقوشة فوق باب الجحيم فى « الكوميديا الالهية » . والابتهال للعذراء مريم الذى يكاد يكون ترجمة لابتهال ورد فى كتاب « الفردوس » (النشيد ٣٣) ، وجاء فى مقـدمتى حـكايتى « رئيسة الدير » و « الراهبة الثانية » ، ومناقشة أساس الخلق الكريم واتصاله برفعة المنزلة فى حكاية « امرأة باث » التى استوحاها تشـوسر من كتـاب «المائدة الحافلة » (Convivio) لدانتى ، حـكاية الكونت اوجولينـو فى « حكاية الراهب » المشتقة من « جحيم دانتى » أما قصيدة « ترويلوس » فنجدها أيضا مدينة لدانتى ، عندما يفوز البطل بحب كريسيدى « الكتاب الثـالث ، البيت ١٢٦١ وما بعده » المشتق من مديح العذراء مريم فى النشيد الثـالث والثلاثين من فردوس دانتى . وكذلك مديح الثالوث المقدس الذى جاء فى آخر قصيدة ترويلوس والمشتق من كتاب الفردوس (النشيد الرابع عشر) . ويلاحظ عامة أن تشوسر هو أول شاعر انجليزى استعمل القافية الثلاثية ، التى ابتدعها دانتى لنظم «الكوميديا الالهية» ، وظهر هذا الاستعمال فى قصيدة مبكرة لتشوسر هى « الشكوى الى سيدته » . وعلى أية حال فان روح دانتى تحلق بصفة خاصة على قصيدة « دار الشهرة » لتشوسر التى أشرنا اليها فيما قبل .

أما جيوفينى بوكاتشيو (١٣١٣ ـ ١٣٧٥ م) فقد عاصره تشوسر ولو أنه لم يذكره قط بالاسم ، الا أنه قد وقف ، بلا شك ، على أعماله الأدبية أثنـاء رحلته الثانية الى ايطاليا . والغالب أنه لم يقتبس فكرة الاطار العام لحكايات كانتربرى من مجموعة قصص بوكاتشيو المسماة حكايات عشرة الأيام الا أن « ملحمة ثيسيوس » (Teseida) لبوكاتشيو لها صدى واضح فى الموضوعات القصصية ، التى عالجها تشوسر فى « حكاية الفارس » و « برلمان الطيور » و « مقدمة سير السيدات الفاضلات » و « حكاية المالك » وبعض المواضع فى « ملحمة ترويلوس » . كذلك يلاحظ أن المصور المباشر لهذه الملحمة هو قصيدة قصصية طويلة لبوكاتشيو اسمها : « صريع الحب » (Il Filostrato) . أما حكاية « المالك » فهى مشتقة بوضوح من قصـيدة « متيم العشـق (Il Filocolo) لبوكاتشيو أيضا ، كما أنه يلاحظ أن حكاية « الراهب » مع اقتباسها الكثير من كتـاب بوكاتشيو النثرى باللاتينية المسـمى « فى مآسى زلات الرجـال » (De casibus virorum) ، بل انه قد جعل هـذا العنوان باللاتينية عنوانا ثانويا لحكاية « الراهب » .

وهنـاك أدلة كثيرة على تأثير كتاب آخـر بالنثر اللاتينى لبوكاتشيو فى

وصف الخرافات اليونانية القديمة اسمه « فى سلالة الآلهة » De geneologia (deorum) استمد منه تشوسر الكثير من اشـــاراته المختلفة لهـــذه الخرافات والأساطير ضمن كتاباته • وكان المقصود بذلك ، كما أشرنا من قبل ، اظهار علم الشاعر وثقافته الواسعه • ومن المهم أن يلاحظ أيضا أن كتاب بوكاتشيو هذا قد لعب نفس الدور الذى لعبه كتاب « مسخ الكائنات » لأوفيد بوصفه كنزا تستمد منه الحكايات والأساطير والخرافات القديمة ، التى كانت تستغل فى العصور الوسطى موضوعات تقبل المعالجات القصصية المتجددة •

مسخ الكائنات للشاعر الرومانى أوفيد :

كان هذا الكتاب أكبر مخزن للأساطير اليونانية والرومانية قرأها الأدباء والفنانون ، منذ العصور الوسطى حتى آخر عصر النهضة ، كما كانت مصدرا لعدد لا حصر له من القصائد والتماثيل والتصاوير والمسرحيات فى ذلك الوقت • فكان هذا الكتاب يدرس فى كل مدارس العصور الوسطى ، باعتباره احدى الوسائل الرئيسة لتعليم مبادىء اللغة اللاتينية ، ولم يكن هناك وقتئذ من المثقفين أحد لم يحفظ أجزاء كبيرة من هذه الملحمة ، وكان هذا الكتاب فى مفهوم أدباء العصور الوسطى أهم شأنا من الانيادة لفرجيل أو قصائد هوراس المختلفة ، التى قدر لها فيما بعد أن تلعب دورا هاما فى تشكيل الذوق الأدبى الكلاسيكى المحدث • ومن غريب هذا الأمر أن كتاب مسخ الكائنات يصور خرافات وأساطير كلها من عصر الوثنية وتتعارض بطبيعة الحال مع المعتقدات المسيحية • الأمر الذى أدى الى محاولات كثيرة للتغلب على هذه المفارقة ، فجمعوا بعض النصوص من « مسخ الكائنات مضيفين اليها تفسيرات رمزية طويلة تربط بقدر الامكان بين الأســاطير التى دونها أوفيد والقصص فى الكتاب المقدس ، بل ذهب بعض الكتاب الدينيين الى أبعد من ذلـك • فثمة نص فرنسى قـديم من أوائل القرن الرابع عشر تقريبا بعنوان « أوفيد مهذبا » (Ovide Moralisé) وقد جاء فى هذا الكتاب سرد لبعض أساطير أوفيد مزودة بعبر أخلاقية ومقابلات من علم اللاهوت ومن الكتاب المقدس •

وتنقسم هذه الأساطير عند أوفيد الى خمسة عشر جزءا من مجموعات من الأبيات السداسية التفعيلة • وفيها يحكى الشاعر ما حدث للبشر من تغيرات فى الشكل وتحولات اعجازية نتيجة لاتصال الآلهة بهم فى الأساطير اليونانية والرومانية ، ولكن الغرض الغالب من هذه المجموعة القصصية هـــو تدوين الخرافات اليونانية والرومانية بشكل أدبى مقبول • فيبدأ بتحول حالة الســديم الذى عم الكون الى نظام كونى محدد خاضع لنواميس معينة • ثم ينتقل الى قصص غالبية الأساطير المعروفة فى وقته حتى ضم لها بعض الأساطير الرومانية الحديثة نسبيا ، والخاصة بتأسيس مدينة روما ، وختم ملحمته بتأليه يوليوس قيصر

فى وقت أوفيد نفسه • ولا يوجد أى ربط واضح بين القصص بعضها مع بعض ، ولا أى تأويل أخلاقى أو دينى أبعد من مجرد الترفيه والتعبير الأدبى الجميل •

أما عن تأثير أوفيد على تشوسر فهو متعدد المظاهر ، شأنه فى ذلك شأن التأثير الأوفيدى على أغلب أدباء العصر الوسيط • فقصيدة أوفيد المسماة « البطلات » (Heroides) التى تتناول عددا من الرسائل الشعرية كتبها على لسان نساء شاعت مآسى غرامهن فى عالم الأساطير القديمة لا شك أنها لعبت دورا هاما فى بلورة فكرة النساء الفاضلات ، التى نظمها تشوسر ولكن مسخ الكائنات كان بمثابة موسوعة أسطورية يستمد منها تشوسر أمثلته وبعض تراكيبه المجازية والأسلوبية ، بل ان هناك أماكن كثيرة فى حكايات كانتربرى تتضمن حكما وأقوالا سافرة ترجع الى مسخ الكائنات •

ونود أن نلفت نظر القارىء العربى الى الترجمة العربية الدقيقة التى قام بها الدكتور ثروت عكاشه لملحمة أوفيد ، والتى نشرت بالهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧١ حيث انها تعتبر أول جهد من نوعه فى هذا المجال يمتاز بصيغته العربية الرصينة • وبذلك تزودت المكتبة العربية بنص لعب دورا هاما فى تشكيل الخيال الأدبى الغربى منذ العصر الوسيط ، وتناولته أقلام المترجمين والأدباء فى كل اللغات الأوربية حديثها وقديمها •

كتب علوم البلاغة فى العصر الوسيط :

نظرية الأدب فى العصور الوسطى لم تكن قائمة على فكرة الأصالة أو الابداع الفنى بل كان أساسها براعة الصنع والمهارة فى تحويل موضوع مألوف الى أثر أدبى طريف ، فكان الاعتماد فى ذلك على علوم البلاغة المختلفة المتوارثة منذ عهد الرومان ، بل ان هذه العلوم كانت احدى العلوم الثلاثة الاساسية (trivium) التى كانت جزءا من الدراسة التمهيدية بجامعات العصور الوسطى بأوربا بالاضافة الى النحو والمنطق ، وأهم الكتب اللاتينية التى كانت تدرس فى هذه الجامعات ثلاثة : بحث شيشرون « فى الابتكار » (De inventione) والكتب الأربعة المسماة « علوم البلاغة المهداة الى هيرينيوس » Rhetorica (ad Herrenium ، التى يرجع تاريخها الى سنة ٨٦ تقريبا قبل الميلاد « والرسالة الشعرية الى بيزو » أو « فن الشعر » لهوراس (ويلاحظ أن الدكتور لويس عوض قام فى عصرنا بترجمة عربية رائعة لهذا الأثر الشعرى التعليمى ، الذى لعب فى أوربا بالنسبة لفن الأدب الدور الذى لعبته « الفية ابن مالك بالنسبة للنحو عند العرب) • وان هذه الكتب القديمة كانت تهتم بصفة خاصة بالقواعد التى تساعد على جعل الكلام قادرا على اقناع سامعه ، فكانت اذن بمثابة دستور لعلم الخطابة ، ولما انتقلت هذه القواعد الى النثر الفنى أصبحت

تطبق عناصر الخطابة على أصول كتابة هذا النوع من النثر ، فأصبحت البلاغة في النثر ثم في الشعر تقتصر على العناصر الثلاثة الأولى من عناصر الخطابة الخمسة المتواضع عليها وهي : ابتكار الحجج أو الموضوعات (inventio) وتنسيق الكلام (dispositio) وأسلوب الكلام (elocutio) وحفظ الخطبة عن ظهر قلب (memoric) وأسلوب أدائها (pronuntatio) ومنذ العصور الوسطى بأوربا أخذت علوم البلاغة تهتم الى جانب ذلك بالأسلوب بصفة خاصة أي بالعنصر الثالث مما ذكرنا ، وخاصة بصورة اللفظية (Schmata) وبصوره البيانية (tropes) • وأهم علماء البلاغة الذين كتبوا باللاتينية في العصور الوسطى معتمدين على الكتب القديمة : متى ديفاندوم (Matthien de Vendôme) الذى كتب فنا للنظم (Ars versificatoria) منتصف القرن الثاني عشر ، وجفروا دى فانسوف (Geoffroi de Vinsauf) ، الذى كتب فنا لعلوم البلاغة في الشعر نظما باللاتينية سماه « فن كتابة الشعر الجديد (Poetria nova) وكان ذلك في أوائل القرن الثالث عشر •

ويلاحظ أن تشوسر أشار بصريح العبارة بأنه قرأ لهذين العالمين وعلى العموم فان أغلب علماء البلاغة في ذلك الوقت كانوا يقسمون ارشاداتهم في التأليف الأدبي الى الأقسام الآتية : أولا ، فن تنسيق الكلام ، ويشمل طرق البدء والاستمرار والختام ، ثم ما سموه بالافاضة أو التفريع ، وهو التوسع في شرح عبارة موجزة أو موضوع معروف بأساليب بلاغية مختلفة ، تشمل وسائل متباينة ، كاعادة الكلام بأسلوب آخر ، والاطناب ، والكناية عن الموصوف أو الصفة أو النسبة ، وكل أنواع التشبيه ، والاستعارة ، والالتفات ، أو مخاطبة الغائب ، وعبارات التعجب ، وتجسيد المعاني ومعاملتها معاملة الأحياء الناطقين (وخير مثالين لذلك : « محاورة « سلوى الفلسفة » لبويثيوس ، وكتاب « شكوى ربة الطبيعة » De Planctu Naturae لألان دى ليل (Alain de lille) والاستطراد والوصف الذى يتفرع الى وصف أشخاص وأشياء ومشاهد ، وأخيرا وسائل الايجاز ، أما فن الأسلوب نفسه فكان خاضعا أيضا لقواعد تعليمية خاصة ، لا داعي للتعرض لها الآن ، ويكفي أن نشير الى أن كل هذه العلوم كانت تدرس على خير وجه في جامعتين فرنسيتين هما باريس وأورليان •

ولا شك أن علوم البلاغة كانت تتصل اتصالا وثيقا بفن نظم الشعر ، فان الشاعر الايطالي دانتي مثلا عرف القصيدة بأنها قطعة من البلاغة معالجة علاجا موسيقيا ، وعرف الشعراء بأنهم أولئك الذين يكتبون القصائد تطبيقا لقواعد علوم البلاغة ، التي تدرس في الجامعات ، وعندما مدح تشوسر الشاعر الايطالي بتراركا لم يجد أعظم من أن يصفه بأنه عالم في البلاغة ، أما الشعراء الفرنسيون المعاصرون لتشوسر فقصارى ما قالوه في مدحه أنه مترجم شريف ، وسيد من سادة علوم البلاغة • وهذا الاهتمام بالبلاغة أساسه نظرية الشعر في العصور الوسطى القائلة بأن العبرة بالصنعة لا بالابتكار ، فكان علماء البلاغة يفترضون

دائما أن الشاعر يعمل على أساس مصدر معروف ، ولذلك كان اهتمامهم بتنسيق الكلام ، وخاصة بالطرق المختلفة فى الاستهلال بالقصيدة ، كما اهتموا أيضا بالايجاز والتفريع على قدم المساواة ، لأنهما طريقتان مفيدتان فى تغيير معالم الأصل ، وابراز براعة الشاعر فى هذا التغيير · وأساس ذلك كله أن وظيفة الشعر كانت فى نظرهم الاقناع لا عن طريق المقولات المنطقية والحجج الذهنية ، وانما عن طريق اثارة العواطف بالكلام المنسق وجذب الاعجاب بالمجاز والتشبيه ·

أما تشوسر فيمكن اعتبار أعماله الشعرية مثالا مصورا لأغلب قواعد علوم البلاغة المعروفة فى وقته · ويلاحظ أنه شكر صراحة جفروا دى فانسوف (Geoffroi de Vinsauf) على ارشاداته الثمينة أثناء قصه لحكاية « قسيس الراهبات » · كما أنه طبق الوسائل الست الاستهلالية فى أماكن متفرقة فى انتاجه الشعرى ، وأنه طبق الوسائل الثمان للتفريع على أغلب قصائده · وهذا ينطبق أيضا على طرقه فى وصف الأشخاص والأماكن وعلى أسلوب بلاغى مميز وقتئذ ، هو ما كان يسمى بالانشغال (occupatio) (وهو قريب الشبه جدا بالالتفات فى البلاغة العربية) ، ومؤدى هذا الانشغال أن الشاعر يتظاهر بالملل أو بشدة الانشغال ، لكى يوقف الاستمرار فيما هو بصدده منتقلا الى موضوع آخر ، وقد يستغل تشوسر الانشغال أحيانا بقصد التطويل ، وذلك بأن ينفى اهتمامه بموضوع ما ، مع اطالته له أثناء نفيه للاهتمام به · ومما يؤسف له أن المجال لا يتسع لضرب أمثلة عديدة تشير الى أن تشوسر ، كان شعره كله تطبيقا لقواعد البلاغة ، ويكفينا أن نقول : ان جمهور مستمعيه وقرائه فى زمنه اعتبروه مالكا لزمام البلاغة ·

لغة تشوسر :

تنتمى اللغة الانجليزية الى أسرة اللغات الجرمانية المنتمية بدورها الى فصيلة اللغات الهندية الأوربية · ويمكن القول بأن ميلاد اللغة الانجليزية البعيد يرجع الى القرون الثلاثة الأولى للميلاد حينما بدأت القبائل الأوربية تغزو الجزر البريطانية ، التى كانت فى ذلك الحين عامرة بسكان كلتيين ، تحت حكم رومانى ، فكان الشعب وقتئذ يتكلم لهجات كلتية مختلفة ، لم تصل الينا الا من خلال لهجات ويلز واسكندا وكور نول وايرلندا : أما لغة الحكم والمحاكم فكانت اللاتينية · وفى المرحلة بين القرنين الرابع والسادس تفتت الدولة الرومانية وقويت القبائل الجرمانية ، التى غزت بريطانيا ، وتغلبت على الحضارة الكلتية الموجودة ، كما برزت ثلاث من القبائل الجرمانية هى : الأنجلى والسكسون والجوت ، ثم اندمجت وكونت الأغلبية فى بريطانيا مقسمة البلاد الى ممالك ودويلات ،

وأصبحت الثقافة الغالبة فى ذلك الوقت هى ثقافة الشمال ، التى يمكن اعتبارها منبع اللغة الانجليزية القديمة ، التى سميت أحيانا بالأنجلو السكسونية • ويلاحظ أن هذه اللغة كانت أقرب الى اللهجات الجرمانية القديمة منها الى اللغة الانجليزية ، كما نعرفها الآن • وبعد القرن الثامن أصبحت القبائل الاسكندنافية تغزو شمال بريطانيا ، وتفرض قانونها بل لهجاتها ونظم حكمها عليها ، وأخذت اللغة الاسكندنافية وممالكها ترحل جنوبا ، حيث امتزجت بالعناصر اللاتينية الباقية من أيام الرومان ، وبعد قليل أصبحت احدى الممالك الانجلو سكسونية هى الغالبة ، وهى مملكة وسكس • ومنذ ٨٣٠ م أخذت كل هذه الممالك الانجلو سكسونية تقدم فروض الطاعة لملك وسكس ، وذلك خاصة فى عهد الملك الفريد الأكبر (٨٧١ _ ٨٩٩ م) ، فقد أصبحت وسكس يومئذ معقل العلم والثقافة والحضارة ، والوثائق التى أمكن العثور عليها تثبت أن لهجة وسكس (أو السكسونية الغربية) تعتبر اللهجة الغالبة فى النصوص الانجليزية القديمة التى وصلت الينا • ويجب أن نشير هنا الى أن اللغة الانجليزية كما نعرفها الآن قد خضعت لتطورات تاريخية تختلف أشد الاختلاف عن التطورات ، التى خضعت لها لغتنا العربية ، حيث وصلت الى قمة نضجها منذ ظهور الاسلام ، ثم أخذت بعده بقليل تعقد لها القواعد ، وتوضع لها المعاجم بينما ظلت الانجليزية فى تطور مستمر •

وقد استقر العلماء على تقسيم تطور اللغة الانجليزية الى ثلاث مراحل : الانجليزية القديمة (Old English) أو الأنجلو سكسونية (Anglo-Saxon) وهى تشمل اللهجات الجرمانية المختلفة ، التى كانت سائدة فى انجلترا منذ منتصف القرن الخامس ، حتى منتصف القرن الحادى عشر ، حين استطاع الغزاة النورمانديون أن يطوروا اللغة الانجليزية بادخال عدد كبير من المفردات الاسكندنافية والفرنسية فيها ، وأن يبرزوها فى شكل جديد اصطلح العلماء على تسميته بالانجليزية الوسطى (Middle English)

ولم تأخذ الانجليزية الوسطى شكلها المكتوب المعروف الا منذ منتصف القرن الثانى عشر بعد أن وطد النورمانديون أقدامهم فى البلاد ، واستطاعوا أن ينشروا حضارتهم فى كل أنحاء انجلترا • وبقيت الحال هكذا حتى منتصف القرن الخامس عشر ، حينما تولد ما نسميه بالانجليزية الحديثة المبكرة Eoabs Modeon English التى يمكن اعتبارها الأساس الحقيقى للانجليزية التى كتب بها الأدب الانجليزى ، منذ عصر النهضة حتى اليوم ، مع ملاحظة تطورات وتعديلات أدخلت عليها من وقت لآخر •

واذا كانت اللغة الانجليزية القديمة لغة اعرابية على نحو ما كانت عليه اللغات الجرمانية ، فان الانجليزية الوسطى تمتاز بتحررها الى حد كبير من حركات الاعراب حتى اقتصرت كلها على الحرف E فى آخر الكلمة ليحل محل

حركات الاعراب • وقد أدى هذا الى وضع حدود للحرية فى ترتيب الكلمات فى الجملة . حتى يتضح المعنى المقصود • ويضاف الى ذلك أن النساخ لم يكونوا وقتئذ من الانجليز عادة ، بل كانوا فى الغالب من الرهبان الفرنسيين أو النورمانديين ، فكان من أثر ذلك أن اضطرب هجاء الكلمات ، اذ كان كل ناسخ يكتب الكلمة متأثرا بطريقة الهجاء فى لغته هو • وكان ذلك على نقيض الانجليزية القديمة التى كان هجاؤها متمشيا مع نطقها ، فكل حرف فيها ينطق يكتب من غير أن تسقط أو تزيد حروف ، وذلك بخلاف الانجليزية الحديثة التى ظهرت فيها فروق بين نطق بعض كلماتها وكتابته مرجعه الى مرحلة الانجليزية الوسطى التى كان يكتب بها شاعرنا تشوسر •

ويلاحظ أن حياة تشوسر صادفت الاضمحلال البطىء لسيطرة اللغة الفرنسية فى ميادين السياسة والقانون والكنيسة بسبب تاريخى هام هو بدء فقدان الملك البريطانى النورماندى الأصل لممتلكاته فى فرنسا ، وذلك ما أدى الى نشوب حرب المائة سنة ، الا أنه يلاحظ أن الانفصال بين بريطانيا والقارة الأوربية أدى بدوره الى ظهور أشياء ثلاثة : ازدياد الشعور القومى الانجليزى حتى فى نفوس من كانوا من أصل نورماندى ، وبروز طبقة متوسطة من التجار والاداريين فى المدن الانجليزية ، قابله هبوط فى أهمية السادة الاقطاعيين المنشغلين فى الحروب الأجنبية ، وبدء ظهور أدب يكتب بالانجليزية الوسطى دون اللاتينية أو الفرنسية ، يخاطب جمهورا لا يفهم لغة غيرها ، بل يفخر بلغته القومية •

وكانت هذه لغة تشوسر التى يمكن أن تعلق عليها باختصار بالغ بأنها هى اللهجة التى كانت سائدة فى لندن حينذاك ، وكان مقدرا أن تصبح أساس اللغة الأدبية فى انجلترا ، وكان نطقها قريبا من نطق الفرنسية أو اللاتينية كما ينطقها الفرنسيون ، الا أن هذا النطق ينطبق على كلمات وفدت الى اللغة من أصولها الجرمانية ، ومن غزاة فرنسيين وأسكاندنافيين •

تشوسر والعلوم فى عصره :

من مميزات الشعر فى العصر الوسيط ، كما قدمنا ، أنه كان يعتبر ميدانا لاظهار القدرة البلاغية ، الى جانب أنه معرض لكل أنواع المعرفة التى يلم بها الشاعر ، فقد يكون الشعر قصصيا أو رمزيا أو أخلاقيا فلسفيا ، ومع ذلك يحس الشاعر بالتزام نحو نقل بعض ألوان المعرفة من خلال شعره الى القارىء ، وذلك لفرضين : أحدهما تبسيط العلوم ونشرها فى قالب مقبول جذاب ، وثانيهما ، اظهار قدرة الشاعر على أن يكون موسوعى المعرفة • وهذا كله سمة واضحة فى شعر تشوسر ، فهو لا يدع فرصة تمر دون أن يشير الى معلومة فلكية أو فيزيائية أو كيميائية فى غضون كلامه •

ولعل من الأجدر بنا أن نقف على الرؤية العامة للكون التى كانت سائدة في العصور الوسطى ، والتى كانت موروثة من بطليموس السكندرى عالم الرياضة والفلك ، الذى عاش بمصر فى القرن الثانى الميلادى ، والذى نقل كتابه ، فى علم الهيئة ، تحت اسم « المجسطى » ، ومن العربية الى اللاتينية ، فأصبح أساسا لكل علم كونى فى أوربة ، حتى منتصف القرن الخامس عشر • وخلاصة هذه النظرية أن الأرض مركز الكون وثانية ، تدور حولها سبعة كواكب ، كل فى مدارها • وأول هذه المدارات مدار القمر وهو أقربها الى الأرض • وكان الاعتقاد سائدا بأن كل ما يوجد القمر خاضع لقانون التغير كما عرفه أرسطو بأنه حركة وتغير ، حجما ونوعا ، ومادة وجوهرا ، حسب نواميس التولد والذبول • فالفناء تحت القمر وفوق أديم الأرض ، أما ما فوق القمر فكانت الأجسام كلهـا من عنصر لا يفنى ولا يزول ، ولا يتغير بالانتقال من مكان الى آخر • ويلى مدار القمر مدار عطارد ثم الزهرة ثم الشمس ثم المريخ ثم المشترى ثم زحل • ثم بعد مدار زحل المنطقة التى كان بهـا الاجرام الثـابتة والتى سـميت بالمحرك الأول (Primum Mobile) ، الذى يحركه الله ، فتنتقل حركته فى اتجاهات عكسية من مدار الى مدار حتى مدار القمر •

أما الأرض الثابتة نفسها فكانت جزءا من مناطق أربع : أعلاها (ويعلو الغلاف الجوى للأرض) منطقة النار ، تليها منطقة الهواء ، وهى فى الغـلاف الجوى ، ثم أسفلها منطقتا الماء والتربة ، وهما فوق وتحت أديم الأرض • وكان الاعتقاد السائد أن هذه العناصر الأربعة الجوهرية مقومات المادة بأسرها ، وأن هذه العناصر تتصل بها صفات هى : الحرارة والبرودة والرطوبة والجفاف التى بوساطتها ندرك العناصر نفسها ، وهى لا يمكن ادراكها الا بوساطة هـذه الصفات • أما الأشياء والأحياء فى الخليقة فكان كل منها مكونا من العناصر الأربعة بنسب متباينة ، بحيث لا يتغلب عنصر على آخر ، والا أودى بهذا الشىء أو الكائن الحى • وكانت هذه النظرية أساس علم الطب فى العصور الوسطى وعلم السيمياء أو الكيمياء القديمة ، فكان الطبيب يوجه أغلب اهتمامه الى محاولة الابقاء على شىء من التوازن بين الصفات العنصرية فى جسم المريض • وكانت هذه العناصر فى الجسـم البشرى اسـمها الأخلاط ، وهى الدم ، والبلغم ، والصفراء ، والسوداء • وكان يعتقد أن هذه الأخلاط اذا تسـاوت تماما فى جسم الانسان اسـتطاع أن يعيش الى الأبد ، غير أن العناية الالهية تدخلت ، لتجعل هذا الاتزان مختلا بعض الشىء ، حتى لا يفلت الحى من الفناء المقدر • وكان للأخلاط اتصال وثيق بعناصر الطبيعة ، فالمعروف أن النار ساخنة جافة ، والهواء ساخن رطب ، والماء بارد رطب ، والأرض باردة جافة ، فكانت النار اذن على صلة بالصفراء والهواء بالدم والماء بالبلغم والأرض أو التربة بالسوداء •

وكانت هذه النظرية الطبية تقرن أن أمراض الجسم والحالات النفسية كلها نتيجة لنوع العلاقة بين الأخلاط بعضها مع بعض . اذ تتصاعد من هذه الأخلاط ما يشبه الأبخرة التى تصعد الى المخ ، فتؤدى الى خلل فى التوازن العقلى نتيجة لتغلب خلط على غيره ، الأمر الذى يؤثر مباشرة فى سلوك الانسان . فاذا امتزجت الأخلاط امتزاجا شبه سوى ، أدى ذلك الى المزاج الكامل المتزن ، ولكن اذا تغلب خلط على غيره أدى ذلك الى تغلب مزاج أو حالة نفسية على غيرها . ولذلك امتد معنى الخلط ليشمل المزاج .

وبناء على ذلك اذا كان الخلط الغالب هو الدم سمى المزاج دمويا ، وسماته المرح والطيبة وشدة العشق والتفاؤل ، واذا كان الخلط الغالب هو البلغم سمى المزاج بلغميا واتسم صاحبه بالجبن والبلادة والكسل وضعف الفطنة . واذا كان الخلط الغالب الصفراء سمى المزاج صفراويا واتسم صاحبه بالعناد والضجر وسرعة الغضب والنزوع الى أخذ الثأر ، أما صاحب المزاج السوداوى فسمته الاسراف فى التأمل والاكتئاب والتكلف والنهم وحب الهجاء . الأمر الذى يبين لنا الاتصالات الوثيقة القائمة بين دراسة السيمياء والطب القديم وعلم الفراسة (وهو عبارة عن علم النفس فى حالته البدائية) فى العصور الوسطى . ويدفعنا هذا الى القول ان وحدة العلوم كانت هى النظرية حين ذاك .

ولا شك أن جميع هذه العلوم استغلها تشوسر فى تصوير شخصياته ، وفى تفسير بعض السمات السلوكية ، التى اتصفت بها شخصيات رواة الحكايات والحكايات نفسها على قدم المساواة . فمثلا من الواضح أن المضيف دموى المزاج ، وأن الطحان صفراوى ، كما هو الحال بالنسبة لسيدة باث . أما عالم اكسفورد فهو بلغمى مثله فى ذلك مثل الطبيب . وأما ناظر الضيعة ، فبالرغم من أن تشوسر يصفه بأنه رجل نحيف كثير الغضب ، أى صفراوى المزاج ، الا أن بقية وصفه له تدل دلالة قاطعة على أنه سوداوى المزاج ، مثل بائع شهادات الغفران . ولا يدع تشوسر فرصة لكى يبين علاقة الفلك القديم بسمات الخلق الفردى ، واتصال الكواكب وبروج السماء بالأمزجة المختلفة ، فكان زحل مثلا لبروده وجفافه متصلا بالسوداء ، وكان المريخ الساخن الجاف متصلا بالصفراء ، وان أولئك الذين يولدون تحت طالع القمر يكونون بلغميين فى أمزجتهم . وكان تشوسر دائما يجعل قصصه وشخصياتها مسببات ترجع الى عوامل فلكية . ويلاحظ أن الفلك القديم الذى كان تشوسر عالما به ليس سوى التنجيم فى اصطلاحنا الحديث . ذلك أن التفرقة بين الفلك والتنجيم لم تصبح واضحة الا بعد القرن السابع عشر للميلاد . وكانت لهذه التأثيرات الفلكية أثر كبير فى تحديد أوقات النهار وتواريخ الأحداث التى كان يقصها تشوسر أو رواته ، فنجده دائما يشير الى بروج السماء والفيض الفلكى الذى يضفونه على مصير البشرية ، فحكايات

كانتربرى تبدأ مثلا من برج الحمل ، وهناك اشارات دائمة الى الجوزاء والعقرب والقوس والحوت وما الى ذلك · لكن هناك بروجا أربعة كان يهتم بها بصفة خاصة لاتصالها بالأمزجة البشرية ، ولاقترانها بمرحلة الانتقال من موسم الى موسم · فالحمل يبشر بالربيع ، ويتصف بالدفء والرطوبة وبالمزاج الدموى · وأما برج السرطان فكان يبشر بالصيف ، وهو ساخن جاف ، ومتصل بالصفراء ، وأما الميزان فكان تقدمة للخريف ، وهو بارد جاف ، ومتصل بالسوداء · وأما الجدى فهو نذير الشتاء ، وهو بارد رطب ، ومتصل بالبلغم · وكان الطب وقتئذ يأخذ فى اعتباره حساب الطالع عندما يقرر الدواء المناسب ·

وبهذه المناسبة كان الطب يميز بين ثلاثة أنواع من الروح فى جسم الانسان ، يحتل كل منها مكانا مختارا فى جزء من ذلك الجسم · وسمى أشدها صفاء وأكثرها تبخرا بالروح النفسية لاتصالها الوثيق بنفس الانسان ، وكان المخ مقرها ، وتوزع تأثيرها من خلال العضلات والأعصاب ، فتعتبر مصدر الحركة والحس · ثم تليها روح الحياة التى كان مقرها القلب ، وتبعث الحياة فى أعضاء الجسم من خلال الأوردة · وثالثها ما سميت بالروح الطبيعية ومقرها الكبد ووظيفتها تمثل الطعام ، ثم توزيعه كطاقة من خلال العروق ، أما الدم فقبل اكتشاف الدورة الدموية فى أوائل القرن السابع عشر الميلادى كان علماء الطب القديم يحذون حذو جالينوس فى اعتبار الدم نوعين : طبيعيا وحيويا كل منهما يسير فى نظام مستقل من الأوردة أو العروق · فالعروق تحمل الدم المغذى للجسم، والأوردة تحمل الدم المغذى للنفس ·

وكان لكل من هذه الأرواح الثلاث وظيفة مميزة : أولاها أنها مصدر القدرة النفسية التى كانت تظهر فى أنشطة ذهنية كالتمييز الرشيد والقرار بالحكم والابتكار والحركات الارادية وملكة الحس التى تعمل من خلال الحواس الخمس المدركة · واتفق علماء الطب القديم على أن المقدرة النفسية تتحكم فى ملكات ذهنية ثلاث : المخيلة فى جبين الرأس ، والمنطق فى المخ ، والذاكرة فى المخيخ · أما القدرة الحيوية فكانت تشترك مع القدرة الطبيعية فى ادارة وظائف الأعضاء وتجديد الأنسجة وتمثل الطعام · فالروح الطبيعية مثلا كانت مسئولة عن وظائف أربع اهتم بها الطب القديم اهتماما خاصا هى : الشهية ، والاحتفاظ بالطعام فى المعدة وعملية الهضم وعملية طرد نفايات الطعام · ويكون الطرد بالنسبة لبقايا الطعام وبالنسبة لأى بقايا أخرى تبقى فى الجسم أو أحد أعظم أكثر مما يجب ، وذلك كالدم الفاسد أو بلغم الرئتين ، وهذا ما قضى على أركيتى فى حكاية الفارس ·

وفى ضوء هذه النظرية الطبية كان لابد أن يبحث الطبيب القديم عن دواء خفى يشفى من كل مرض ويطيل حياة الانسان ، وهذا ما جعله يلجأ الى معاونة علم السيمياء (الكيمياء القديمة) الذى كان يبشر بالكشف عن المادة التى تقوم

بهذه الوظيفة الشافية • وانقسمت تلك المادة الى ما سموه بالأحجار الثلاثة •
سموا الأول منها بالحجر النباتى (lapis vegetabilis) وكان المفروض أن فيه
شفاء عاما لكل الأمراض الى حد أنه يضفى الخلود على صاحبه بشرط ألا يصاب
بحادث أو قتل عمد ، أما الحجر الثانى فكان اسمه الحجر الحيوى
(lapis animalis) ، وكانت وظيفته أن يهذب ويرهف الحواس والادراك
عامة ، وأما الثالث فكان اسمه حجر الفلاسفة ، وكانت وظيفته أن يطهر الجماد
والمعادن الخسيسة ليحولها الى فضه أو ذهب • وهذا الحجر الأخير هو الذى
أثار خيال أغلب العلماء فى العصور الوسطى ، واحتل مكان الصدارة فى بحوثهم ،
واختلط فى كتاباتهم باكسير الحياة الأبدية • ولا شك أن حكاية خادم القمص
لا تعدو كونها هجوما ساخرا على مثل هذه المعتقدات الواهية • وأساس هذه
النظرية أن الذهب أنفس المعادن وأعلاها مرتبة ، ويحتل فى عالم الجماد محل
الشمس بين الكواكب ، والملك بين رعاياه وفرسانه • ومعنى ذلك أن الخليفة
كان ينظر اليها بوصفها طبقات ، فيها القمة والحضيض ، ويحاول كل ما هو
أسفل الرقى والصعود • وأما العناية الالهية فتحافظ على الأشياء والأحياء فى
طبقاتها مع السماح أحيانا ولسبب غير معروف بصعود طبقة أعلى مما هى فيها •
فاذا نظرنا الى عالم المعاجم وجدنا الفضة تحت الذهب ، والنحاس تحت الفضة ،
والقصدير أسفل النحاس ، والرصاص تحت القصدير ، والكل يحاول أن
يرقى الى مرتبة الذهب ، وذلك لضعفها فى الصفاء الذى يتحقق فى الذهب
فقط • فاعتبر علماء السيمياء أن المعادن يمكن أن تصفو شيئا فشيئا حتى تتحول
الى ذهب بشرط تأثير الكواكب وبعض العمليات الكيميائية التى يصفها خادم
القمص بالتفصيل فى حكايته • وأما عن الكواكب فيقول لنا نفس الخادم بأن
الشمس مرتبطة بالذهب ، والقمر بالفضة والمريخ بالحديد ، وعطارد بالزئبق ،
وزحل بالرصاص ، والمشترى بالقصدير والزهرة بالنحاس • وبذلك ترتبط
بدورها بمراحل سبع فى معالجة المعدن الخسيس للبحث عن حجر الفلاسفة
وأكسير الحياة ، ويلاحظ أن الفشل المتكرر فى تحويل المعدن الخسيس الى ذهب
لم يثبط من همة الباحثين عن الثراء الفاحش وحياة الخلود • وواضح من كل
ذلك أن الاتصال وثيق جدا بين الخلفية العلمية لتشوسر وغيره من أدباء العصور
الوسطى والعلوم العربية الاسلامية التى ازدهرت فى العصر العباسى •

التراث الشعبي العربي في حكايات كانتربرى

يعد جيوفرى تشوسر من أبرز المعالم ، التى تشخص فجر عصر النهضة فى الأدب الانجليزى • ومن المشهور عند مؤرخى الأدب الانجليزى أن « لهجة شرق ميدلاند ، التى استعملها تشوسر ، أصبحت لغة انجلترا الأدبية ، وكانت مفرداتها قد كثرت الى الحد ، الذى يتيح لها التعبير عن جمال الفكر ومناهجه ، وهكذا صارت لغة الحديث عند الانجليز للمرة الأولى وسيلة الفن الأدبى العظيم » • (١) وحكايات كانتربرى ، التى كانت بمثابة مرحلة النضج فى سيرته الأدبية ، تكشف عن طابع العصر ، الذى امتزجت فيه خلاصة الآداب الأوروبية ، مع النزوع الى محاكاة الروائع اليونانية واللاتينية الكلاسية •

وكل من يدرس حكايات كانتربرى لتشوسر ، يواجه ظاهرة عامة ، فقد كان من الأحكام الدارجة أن الآداب الأوروبية فى أواخر القرون الوسطى ، ومنها بطبيعة الحال أدب تشوسر ، محصورة فى بيئة محدودة بوطن أو قومية • ولكن حكايات كانتربرى ، مثلها فى ذلك مثل أدب دانتى وبوكاشيو ، تتجاوز بريطانيا الى العالمية •

وان سيرة تشوسر تحكى فى ذاتها اتصال الأدب الانجليزى بالآداب الفرنسية والايطالية والاسبانية ، بل والألمانية أيضا • وأى تحليل لحكايات كانتربرى يكشف عن هذه الحقيقة ، كما يكشف عن اتصال الغرب بالشرق • والحروب التى اشتجرت على أساس دينى بين العالم الأوروبى المسيحى وبين العالم العربى الاسلامى ، قد أثمرت عناصر ثقافية وفكرية وأدبية فى الآداب الأوروبية بعامة ، والأدب الانجليزى فى القرن الرابع عشر الميلادى وما تلاه بخاصة •

---

(١) قصة الحضارة ، ول ديورانت ، الترجمة العربية ج ٢٢ ص ١٠٧ •

ويعرف عصر تشوسر فى انجلترا ، بل وفى أوروبا ، بأنه عصر الفروسية ، التى غلبت على الكثير من مقومات السلوك عند الفرد والجماعة ، فلقد أصبحت هذه الفروسية نظاما اجتماعيا له أعرافه وتقاليده ، وهذه الفروسية هى التى كان يصدر عنها المجتمع العربى الاسلامى أيضا فى تلك المرحلة ، ولعلها كانت أعرق عند العرب منها عند الأوروبيين ·

ولا يستطيع دارس للآداب الأوروبية والعربية أن يغفل الفروسية · ولقد اشتهرت الفرس فى المجتمع العربى منذ الجاهلية · والواقع أن « الفرس » قد صاغت الحياة بربوع الجزيرة العربية دهرا طويلا ، وتكاد تكون قديمة قدم الأخبار والروايات العربية · ومن المسلم به أن الفرس اعتبرت مقياسا من مقاييس الوجاهة بين الجماعات البدوية والحضرية على السواء · ومثل العرب فى ذلك مثل الجماعات الأوروبية ــ ومنها الانجليزية بطبيعة الحال ــ وليس من شك فى أن الأمراء وذوى اليسار هم الذين كانوا يملكون الأفراس ·

وبلغ من أصالة الفروسية عند العرب أن اللغة العربية زخرت بالألفاظ الدالة على أوصاف الفرس وأجزائها ومراحل عمرها ونتاجها · وعرفت بيئات خاصة بوفرة الأفراس ، واشتهر آحاد بالخبرة العملية المرتبطة بتربية الأفراس ، وحرص المعنيون بالفرس على أصالتها وحمايتها من الهجنة ، وحفظ هؤلاء المربون أنساب أفراسهم بالضبط ·

واذا كانت الخلافات والمعارك قد اشتجرت حول الربوع والمياه وبعض المال ، فانها قد اشتجرت أيضا من أجل التنافس على الأفراس ، ومن الشواهد الدالة على ذلك حرب داحس والغبراء ·

واستمرت هذه الفروسية فى العصر الجاهلى وصدر الاسلام ، واستوعبت العصر الأموى ، وظلت تطبع الحياة بطابعها فى البيئات ، التى احتفظت ببداوتها وفتوتها طوال العصر العباسى ، ولا تزال هذه الفروسية موجودة فى بيئات معينة من العالم العربى ·

وكانت الفروسية فى انجلترا مجتمعا له عراقته ومكانته · وكان الفتى يدرب على الفروسية منذ نعومة أظفاره ، ويمر بمراحل مختلفة ، تبدأ بأن يحمل درع الفارس أو سلاحه ، ويصحبه فى المعارك ، وتنتهى بتنصيبه فارسا باحتفال مهيب · ويعد تاريخ الفرسان هو بعينه تاريخ المملكة ، فقد اعتمد الملك كل الاعتماد على الفرسان ، كما أن أصحاب الاقطاعيات منهم كانوا يؤثرون فى أصحاب السلطان · وترددت أخبار الوقائع والأحداث والعلاقات الخاصة بالنابهين والمشاهير من الفرسان · وبالغت الذاكرة الشعبية بتلك الأخبار ، وحولت بعضها الى قصص ونوادر وخوارق ، وهو ما نجد عناصر منه فى آداب ذلك

العصر • وحفلت حكايات كانتربرى بحلقات من تلك القصص ، التى تجاوزت العصر والبيئة وأصبحت من الروائع الأدبية العالمية •

وفى حكايات كانتربرى صورة ناطقة عن شخصية فارس ، يقدمها لنا تشوسر بقوله : « كان هناك فارس فاضل شريف • ومنذ امتطاء صهوات جياده فى الحملات الحربية ، كان ولوعا بالفروسية ، معروفا بالاخلاص والشرف والكرم وآداب اللياقة • وكان مقداما كل الاقدام فى حروب مليكه ، يخوض غمارها ، متفوقا على كل فارس آخر ، وذلك فى دار المسيحية ، وفى دار الكفر ، وكان دائما مكرما لصفاته النبيلة • ولقد شارك فى معركة الاسكندرية عند فتحها ، وكم من مرة ترأس مائدة الفرسان مقدما عليهم جميعا فى أمم بروسيا ، وكثيرا ما خاض غمار الغزوات فى أقطار لتوانيا وروسيا ، ولم يناظره فى ذلك مسيحى آخر من نفس الطبقة ، وحضر حصار مدينة الجزيرة بمملكة غرناطة ، كما حارب فى غزوات بنى مرين بالمغرب » •

وتتسع الخريطة أمام الفارس ، فنجد انتصاراته فى ألمانيا وروسيا والأندلس ومصر وبلاد المغرب • واجتمعت تجارب الفارس ومشاعره وعلاقاته ، الى جانب الشخصيات المتعددة ، المختلفة النزعات والأهواء •

وكان جيوفرى تشوسر من الطبقة الوسطى ، ويحكم عليه الانجليز بأنه كان رجلا يمثل الجانب المرح من انجلترا •

ويقول ول ديورانت عنه فى كتابه قصة الحضارة انه كان « رجلا قادرا على أن يطوى فى قلبه متاعب الحياة الطبيعية ، وأن يرسم وخزها فى مرح متسامح ، ويصور جميع مراحل المجتمع الانجليزى بريشة جد عريضة كريشة هوميروس وروح شهوانية كروح رابليه » (١) •

ويتسم شعره بأنه كان يصدر عن فراسته وخبرته بأنماط الرجال والنساء ، كما صورها فى حكايات كانتربرى من ناحية ، ومعرفته المتعمقة بالأدب والتاريخ من ناحية أخرى •

ولا نبالغ اذا قلنا ان النصف الثانى من القرن الرابع عشر هو مرحلة الانتقال من غلبة القرون الوسطى الى فجر النهضة الأوروبية • وهذه المرحلة جعلت أدب تشوسر أوروبيا ، لا فى حوافز ابداعه فحسب ، لكن فى استقرار اللغات الوطنية أو القومية • وهو الاستقرار الذى سبقته موجات متلاحقة من تأثير هذه اللغة أو تلك • وتأريخ الأدب الانجليزى يسلم بأن اللغة الفرنسية ظلت هى اللغة الرسمية للملكة الانجليزية ردحا من الزمن • ثم نشأت على الأيام لهجة جديدة ، أساسها ألمانى ، يمتزج بكلمات وصيغ غالية • ولما نشبت الحرب

---

(١) قصة الحضارة • تاليف ول ديورانت الترحمة العربية ج ٢٢ ، ص ٩٦ •

بين الانجليز والفرنسيين قوى الشعور الوطنى عند الانجليز فأعلن عام ١٣٦١ أن اللغة الانجليزية هى لغة القانون والمحاكم · ومنذ ذاك عبر الشعراء عن تجاربهم وتخيلاتهم باللغة الانجليزية · ومن هنا أصبحت حكايات كانتربرى هى الذروة الفنية الأولى فى التعبير عن العاطفة والجمال فى الأدب الانجليزى ابان القرن الرابع عشر ·

ويتضاعف تأثير الأدب الفرنسى فى ابداع تشوسر ، لأنه ، كما يقول الذين ترجموا لحياته ، فرنسى الأصل ، ويدل على هذا اسمه ومعناه الاسكاف وربما كان اسمه فى الأصل شوساير · وهذا التأثير الفرنسى واضح كل الوضوح فى قصائده الأولى · يضاف الى هذا أن الأدب الانجليزى بعامة ، قد تأثر بالمد الحضارى الفرنسى ، الذى غلب على انجلترا · وكان الشعر هو أظهر أمارات الثقافة وقتذاك فى فرنسا ، اذ تألفت فيها جماعات للشعر ، واحتفلت تولوز به ، بانشاء أكاديمية فنية له وأقيمت مباريات عامة تحت رعاية هذه الأكاديمية لتشجيع فن الشعراء الجوالين « التروبادور » ·

تأثر تشوسر بهذا الجو الشعرى الفرنسى ، ولكنه لم يقتصر على ذلك · فقد كان من التقاليد المرعية فى تلك الأيام ايفاد الأدباء فى مهام سياسية خارج الجزيرة البريطانية · وعلى هذا أرسل تشوسر فى مهمة الى جنوة عام ١٣٧٢ والى ميلان عام ١٣٧٨ ، ولعله التقى فى ايطاليا ببوكاشيو أو بترارك · وليس من شك فى أن هذه الفرصة التى أتاحت له السفر الى ايطاليا ، كانت نقطة تحول واضحة فى ابداعه ، اذ أنه استطاع أن ينهل من الثقافة الايطالية ، التى كانت تفوق انجلترا فى هذا المجال · واتسعت تجربته الأدبية ، واجتذبته الآداب الكلاسية بعامة ، واللاتينية بخاصة ·

وعمل تشوسر على تقليد من سبقوه من الشعراء الفرنسيين والايطاليين . وتوسل بالترجمة فى أحسن قصائده الفذة ، وهى ترويلوس وكريسيدا ، « فاستعار من الفلستراتو لبوكاشيو ٢٧٣٠ بيتا ، وأضاف ٥٦٩٦ بيتا من مصدر آخر أو صاغها بنفسه · ولم يبذل محاولة ما ليخدع القارىء عن هذه الحقيقة ، فهو يذكر مصدره مرارا ، ويعتذر عن عدم ترجمته بأسره (٣) ·

ومنظومة ترويلوس وكريسيدا أول قصيدة قصصية عظيمة باللغة الانجليزية ، على الرغم مما وجه اليها من نقد · وقد وصفها روزيتى بقوله : « لعلها أجمل قصيدة قصصية على شىء من الطول فى اللغة الانجليزية » · ويحكم بعض النقاد على هذه القصيدة بأن طولها يبعث على الملل ، ذلك لأن العاطفة من أهم مقومات الشعر ، وتصويرها المطول فى قصيدة تتجاوز ثمانية آلاف بيت يذهب بحرارتها ، ويبعث الملل فى نفس قارئها أو المستمع اليها ، ويتخرج

---

(١) المصدر السابق ص ٩٨ ·

عباراتها من اطار الشعر الى النثر ، ويجعل ايقاعها رتيبا آليا . ومعذلك فان اعتماد تشوسر فى نظمها على الخطابية والبلاغة لم ينقص من حكم بعض المتذوقين والنقاد بجمال هذه القصيدة .

وحكايات كانتربرى تسجل للشاعر تحكمه البارع فى النظم ، لأن هذه القصيدة القصصية المسهبة تجمع بين الصورة والفكرة والموسيقى ، ونحن نخطىء اذا حكمنا عليهـا بالوزن والقافية وحدهما ، ذلك لأن جهورية الحكاية والسرد ضاعفت من عنصر الموسيقى ، وهو ما يجعلها ثمرة القصص الشعبى ، وما يرجح تأثير الشعراء الجوالين (التروبادور) فى الانشاد ، الذى يستوعب الايقاع والنبر واللحن جميعا .

ولم تعد الأحكام النقدية لروائع الشـعر الأوروبى فى مرحـلة التمهيد للنهضة مجرد اعتراف بالعبقرية الفنية ، ذلك لأن هذه الروائع كانت هى الحوافز على النهضة ، يقال ذلك عن دانتى وبوكاشيو وتشوسر . وأصبح واضحا عند الكثيرين من مؤرخى الأدب ونقاده أن هذه الروائع لم تفد من النماذج الكلاسية أو المعتبرة ، بقدر ما أفادت من التراث الشعبى ، سواء أكان ذلك فى الأصول اليونانية أو اللاتينية ، أو فى التجارب الفرنسـية أو الألمانية أو الانجليزيـة . والتراث الشـعبى أدل على تبادل التأثر والتأثير من التراث الكلاسى المصقول . وهو ما يلفتنا الى محاولة الكشف من المؤثرات العربية والشرقية فى تشوسر ومعاصريه من الأدباء الأوروبيين .

ولقد عرف الشعر العربى تجديدا فى نظمه وتقفيته ، هو الموشح . ومهما اختلف مؤرخو الأدب حول نشأة هذا الفن ، فان الذى لا شك فيه هو أن هذا القالب الشعرى الجديد انما اشتهر فى الأندلس ، مما يدل على أن الحضارة الأندلسية ، التى قوى فيها عامل التأثر والتأثير بين التقاليد الأدبية العربية ، وبين الذوق الغربى ، أثمرت الموشح ، الذى يتسم بتطويع النظم للغناء ، بحيث تتتابع فيه أدوار متصلة النغم والايقاع ، وهو بذلك يشبه الوشاح الذى يتوشح به المرء ، فيتصل طرفاه ويكونان دائرة واحدة .

أما فى الابداع المتوسل باللهجات العامية ، فاننا نواجه « الزجل » ، وهو أيضا من التطورات التى تكشـف عن امتزاج الحضـارات ، ولقد ظهر الزجل تقليدا للموشحة ، اذ « استحسن العامة التوشيح ، فنسجوا على منواله ، جاعلين لغتهم الحضرية موضع اللغة العربية » (١) . وقد خرجوا على الوزن الواحد العربى فى القصـيدة الزجلية الى مقطوعـات مختلفة القوافى والأوزان ، وذلك مسايرة لمقتضيات اللحن والغناء .

---

(١) د. عبد العزيز الأهوانى ، الزجل فى الأندلس ص ٦ .

« وليس من شك فى أن الشبه كبير بين التوشيح والزجل فى أكثر من ناحية ، وخاصة في الشكل الخارجى ، وفى الأوزان ونظام القوافى ، وكذلك فى بعض موضوعات القول والمعانى » (١) ٠

واذا كان الدارسون قد اختلفوا حول نشـأة التوشـيح والزجل وأيهما أسبق ، فانهم لا يكادون يختلفون فى القول بوجود أصل مشترك بينهما ، ظهر فى الأندلس ٠ وهذا الأصل هو الذى حافظ ، فى الوقت نفسه ، على التوشيح والزجل ، وعاون على تطويرهما ، وهو « الأغنية الشعبية » ٠

والحق « اننا لسنا فى حاجة لأن نثبت أن اسبانيا الاسلامية لابد أن تكون قد عرفت الأغنية الشعبية ، مصوغة فى لغة عامية عربية وفى لغة رومية ، كان يتحدث بها كثير من المسلمين فى تلك البلاد ، منذ دخل الاسلام اليها ، ولكننا فى حاجة لأن نتوسـع فيما نميل اليه من القول من أن الفنـان المثقف ـ وهو الوشاح ثم الزجال ـ قد استفاد من هذا الفن الشعبى ، واستغله ، ليخرج منه فنا جديدا ، يغزو البيئات المثقفة ، ويوفق بين ما ألفته هذه البيئات من شـعر عربى قديم ، ومن تقاليد أدبية ، وبين ما عرفته البيئة الشعبية من فن كان له سلطان فى الحياة الخاصة لهؤلاء المثقفين » (٢) ٠

وظل تأثير الأدب الأندلسى قويا ابان القرنين الثالث عشر والرابع عشر ٠ ومن الضرورى أن يطبق المنهج المقارن على موسيقى الشعر عند تشوسر ، فان اختياره لحلقات متتابعة هو الذى جعله يستطيع أن يبدع مطولة تتألف من مجموعات شعرية ، كل منها يتكون من سبعة أبيات عشرية المقاطع ٠ ولقد بذل الشاعر جهدا خارقا فى طول قصصه وتنوعها ، وربما كان ذلك هو السـبب فى بعض التكلف والمعاناة اللذين نجدهما فى أجزاء من مطولاته ٠ ومع ذلك فان التصوير والتشخيص وتسلسل الوحدات جعل نظمه أقرب الى الرواية القصصية الموقعة منه الى المناجاة المعبرة عن عواطف الشاعر ٠

وان تحول تشـوسر ومعاصريه الى لهجات اقليمية أو شـعبية ، هو الذى أخرجهم من اطار الصيغ اللاتينية الجامدة الى الحياة اليومية ، فاستخدمت فى القصائد عبارات مألوفة بين الناس ، ومرددة فى أحاديثهم اليومية ، وأغانيهم الشعبية ٠ ثم ارتفع بهذا الأداء الى الروائع الدالة على مرحلة أدبية قومية ٠ ولعل ظاهرة الشعراء الجوالين (التروبادور) كانت من سـمات مرحلة التحول من القرون الوسطى الى عصر النهضـة ، وهى المرحـلة التى أبدع فيهـا تشـوسر ومعاصروه الروائع ، التى تعد من معالم الآداب القومية الأوروبية ٠

---

(١) المصدر السابق ص ٢ ٠

(٢) المصدر السابق ، ص ٣ ٠

وليس من شك فى أن أولئك الشعراء الجوالين قد استحدثوا ثورة فى الآداب الأوروبية ، ولم يكن تأثيرهم مقصورا على المجال الجغرافى الذى ظهروا فيه ، وهو فرنسا وايطاليا وأسبانيا ، كما أن هذا التأثير امتد بعد فترة ازدهارهم التى بدأت من نهاية القرن الحادى عشر حتى العقد الأخير من القرن الثالث عشر • ومصطلح تروبادور صيغة فرنسية • ويطلق على جماعة من الشعراء كانوا ينظمون قصائد جديده بقوالب شعرية جديدة • والشاعر الجوال (التروبادور) قد يكون أميرا عظيما ، أو مغامرا جوالا يحترف الغناء •

وكان لهؤلاء الشعراء أثر اجتماعى لم يكن للحياة به عهد من قبل فى تاريخ شعر القرون الوسطى ، بأوروبا • وكانوا يتمتعون بقدر كبير من الحرية فى الحديث ، ولم يجدوا حرجا فى أن يتعرضوا للشئون السياسية ، ومثلوا أخلاقيات الفرسان ، فأحاطوا سيدات البلاط الملكى بجو تشيع فيه الرقة والظرف •• وكان التروبادور ، مثله فى ذلك مثل الفارس ، يصحب معه غلاما يؤنسه، ويسرى عنه ، ويمتعه بتلحين كلماته ، وكثيرا ما كان يترنم بأغانيه • واشتهر فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر نحو ٤٠٠ من التروبادور • وأصبح التروبادور بمثابة مذهب ابداعى ، انبثقت منه كل مقومات الغنائية الأوروبية الجديدة •

ولا يزال قدر كبير من نصوص أغانيهم محفوظا فى المخطوطات الى الآن • وأهم قالب شعرى استخدموه هو الأغنية وكانت تتألف من خمس أو ست أبيات مع خرجة • و استخدم التروبادور أيضا الأغنية الراقصة مع القفلة • وتتسم القصيدة الرعوية بأنها تعبر عن غزل الفارس بفتاة من الرعاة • ومن أغانى التروبادور التقليدية أغنية الصباح (ألبا) ، وتتضمن تحذيرا للعاشقين بأن عين الزوج ترقبهما وأنه على وشك أن يفاجئهما • وظهرت فى أخريات عهد التروبادر أغنية المساء ، وهى تماثل أغنية الصباح فى الشكل والمضمون • ومن أغانيهم ضرب قام على الحوار بين شخصين أو أكثر حول أمور تدور حول الحب والدين والتأمل فيما وراء الطبيعة ، وقد تتخذ أسلوب الهجاء والسخرية • والاقليمية التى غلبت على لغة التروبادور لم تؤثر فى قوة الأثر على تطور الآداب الأوروبية •

واحتفل المستشرقون بتأثر شعر التروبادور بالابداع الأندلسى فى الموشحة والزجل • ومن الأحكام المرددة ما ذهب اليه المستشرق الاسبانى جوليان ريبيرا من وجود شعر غنائى باللاتينية الدارجة أو الاسبانية القديمة ، فى ظل الحكم العربى الأندلسى قبل أن يظهر الأدب الغنائى الأوروبى على أيدى الشعراء الجوالين (التروبادور) فى القرن الثانى عشر الميلادى ، « بل ان جوليان ريبيرا مضى الى أبعد من ذلك فى بحثه ، اذ أكد أن هذا الشعر الغنائى الاسبانى القديم ، ربيب الأندلسيين المسلمين ، كان هو المورد الذى استقى منه شعراء التروبادور

الفرنسيون ، وهو الذى انبثقت عنه سائر أنواع ذلك الشعر فى القارة الأوربية » (١) ٠

وأكد ريبيرا أن الشعراء البروفانسيين الفرنسيين (شعراء التروبادور) وهم أول من يعود اليهم الفضل فى ظهور الشعر الغنائى فى أوروبا ، كانوا يحاكون ما أبدعه الوشاحون والزجالون الأندلسيون ، الذين سبقوهم فى هذا الاتجاه بمائتى سنة على الأقل ٠ وفى هذا الجو الأدبى ظهر أثر الموشحات الأندلسية والزجل فى انجلترا ، باعتبارها امتدادا طبيعيا لنزوع العبقرية الانجليزية الى القومية فى اختيار اللغة ، وان كان قد صور الحوافز المختلفة فى مرحلة بداية التحول من العصور الوسطى الى عصر النهضة ٠

ووازن كثير من الباحثين بين الموشحات والأزجال من ناحية ، وبين شعر التروبادور من ناحية أخرى ، وسجلوا وجوه التشابه الكثيرة فى الشكل والمضمون بينهما ، ولم يعد هناك خلاف حول التأثير الايجابى الواضح للشعر العربى الأندلسى على الشعر الغنائى الأوروبى ، الذى تجاوز اسبانيا وجنوب فرنسا الى انجلترا ٠

وحكايات كانتربرى ، التى تعد من معالم الروائع فى الأدب الانجليزى ، هى من جنس أدبى ، يعد من أعرق أشكال الابداع المتوسل بالكلمة فى التاريخ الانسانى ٠ وهذه الحكايات فيها ما يساير نمو الكائن الانسانى ، تجسيما وتشخيصا ، وفيها ما يتمثله أو ينقله من كائن آخر ، أو بيئة اجتماعية أخرى ٠ وكل من يؤرخ لآداب الشعوب تواجهه ظاهرة الحكاية ، التى يبدعها ، لأنه سيجد فيها عناصر ، لها شبه فى أدب أمة أخرى أو عصر آخر ٠ وان استعراض حكايات كانتربرى يستدعى بالضرورة محاولة الموازنة بين ملامح ما رواه تشوسر فى عصره ، وبين ما اشتهر به قصاص آخر فى حضارة معاصرة ، أو سابقة ٠ وقد مهد الدارسون لكل من يطبق منهج الأدب المقارن على حكايات تشوسر بشواهد كثيرة ، تؤكد أو ترجح هذا الأصل أو ذاك للحكايات على اختلاف شخوصها وأحداثها ووظائفها ٠

والمحور الرئيسى للأدب القصصى هو الراوى أو القصاص ، وهو الذى يبرز الأسلوب والوظيفة معا ٠ ولقد عرف التراث الشرقى الحكيم الذى يعظ أحد الملوك ، بحكايات الحيوان ، وأشهرها مجموعة « كليلة ودمنة » ، التى يرويها « بيدبا » الفيلسوف للملك « دبشليم » الهندى ٠ كما عرف حكايات « ألف ليلة وليلة » ، وفيها تروى شهر زاد للملك شهريار حكايات مشوقة ومثيرة ،

---

(١) د٠ سهير القلماوى ، د٠ محمود على مكى ، الفصل الأول « فى الأدب » ، كتاب أثر العرب والاسلام فى النهضة الأوروبية ، ص ٣٧ ٠

تستوعب كل انتباه الملك ، وتستهدف صرفه عن التهور والجور ، وتتضمن التسلية والموعظة فى وقت واحد • وبيدبا وشهر زاد شخصيتان خياليتان يربطان حلقات الحكايات فى « كليلة ودمنة » و « ألف ليلة وليلة » •

أما تشوسر فكان هو المحور الرئيسى المباشر لحكاياته ، فقد التقى بتسعة وعشرين حاجا فى خان « الرداء الفضفاض » فى مدينة سذرك ، وهو يتأهب للقيام بأداء مناسك الحج فى مدينة كانتربرى • وكان هؤلاء الحجاج من « فئات مختلفة التقوا بمحض المصادفة فى الطريق ، وكانوا جميعا من الحجيج الذين يسعون الى كنتربرى على صهوات جيادهم » • وكان منهم الفارس ، وابنه حامل الدروع ، والخولى الخاص به ، وراهبة كانت رئيسة دير ، وراهبة أخرى تقوم مقام أمينة سرها ، وراهب وظيفته الاشراف على أملاك الدير ، وراهب جوال مرح لعوب ، وتاجر ، وعالم من أكسفورد نذر نفسه من قديم الزمان لعلوم المنطق ، ومحام واع حكيم ، وفى صحبته رجل من ملاك الأرض ، وتاجر خردوات ونجار ونساج وصباغ وناسج سجاجيد ، وبحار أتى من أقصى الغرب ، وطبيب ليس له مثيل فى كل أنحاء العالم اذا تكلم فى موضوعات الطب والجراحة ، وملم بقواعد التنجيم ، وعقيلة طيبة من ضواحى مدينة « نات » ، ورجل دين فاضل ، وفلاح ، وناظر ضيعة ، وطحان ومحضر محكمة ، وبائع لصكوك الغفران ، ومتعهد للمؤن لاحدى كليات الحقوق •

كانت الغاية المباشرة لحكايات كانتربرى هى التسلية ، واعترف تشوسر بأنه لم يسجل على الرغم من أنه كان يقدم شخوصه لكى يروى كل منهم قصته بنفسه •

وكان المؤلف يستجمع الوقائع والقصص ، وينظمها بينه وبين نفسه ، لا كما يقوم الراوى فى الأدب الشعبى بالمزاوجة بين الرواية وتمثل الشخصية أمام جماهير المستمعين •

وحكايات الحيوان على قلتها فى مجموعة حكايات كانتربرى ترجح تأثير كتاب كليلة ودمنة ، الذى يعود الفضل فى تعريف الأوروبيين به الى ترجمته العربية عن الفهلوية • وجدير بالذكر أن هذه الترجمة العربية نقلت الاسبانية مباشرة فى منتصف القرن الثالث عشر ، « ولم تكن هذه الترجمة الاسبانية مجهولة فى أوروبا ، اذ على أساسها تمت الترجمة الفرنسية ، التى قام بها الطبيب ريمون دى بيتريه فى سنة ١٣١٣ (١) وسرعان ما اشتهرت هذه المجموعة من حكايات الحيوان فى أوروبا ، حتى تجاوزت الطبقات الخاصة الى البيئات الشعبية •

---

(١) المصدر السابق ص ٧٦ •

ولم تكن حكاية الحيوان هى التى استوعبت مجموعة كانتربرى ، ولكنها استغلتها من تراث شعبى أوربى ، أو نقلتها من الرائعة العالمية وهى « كليلة ودمنة » التى كانت اللغة العربية صاحبة الفضل الأكبر فى المحافظة عليها ونقلها عن طريق الترجمة أو الاقتباس باللغات الأوربية · واحتفال الوجدان الشعبى بحكاية الحيوان وما فيها من رمز ، وما يمكن أن توجه الأفراد والجماعات الى القيم الأخلاقية · وأى كان الخلاف فى الأصل الكلاسى أو الشعبى فان ذلك لم يمنع تأثير الحضارة الشرقية بصفة عامة ، والعربية بصفة خاصة فى الأدب الانجليزى ابان الفترة التى عاشها جيوفرى تشوسر ، ومن المشهور عند المهتمين بحكايات الحيوان أن البيئة الجغرافية تنقل بعض الحكايات عن الفرس والهنود ، عبر اللغة العربية متأثرة بخيال الأوطان التى تختلف عن الشعوب الشرقية ، حتى أن هذا الخيال ينقل حكاية كاملة عن كليلة ودمنة أو غيرها ثم يستدعى بالخيال كائنا آخر من عالم الحيوان يوصى بالصفات التى تشخصه فى العلاقة والحدث ، وهو عنصر يؤكد النقل مع الاعتراف ببواعث الخيال فى الأقاليم الباردة بأوربا · والمتخصصون فى حكاية الحيوان بمنهج الادب المقارن يعرفون هذه الحقيقة ولابد من تطبيقها على الشواهد القليلة من رموز الحيوان فى حكاية كانتربرى ·

وثمة رائعة عالمية أخرى من روائع الأدب القصصى يعود الفضل فى ابداعها وتجميعها الى الشعب العربى واللغة العربية ، وهى قصص « ألف ليلة وليلة » وهذه المجموعة المتكاملة أثمرها المأثور الأدبى فى مراحل طويلة ، وفى بيئات وحضارات تتباعد أوطانها وعصورها · وتكاملها يدل على أن تبادل التأثر والتأثير فيه من المرونة والتواصل ، ما لا تدل عليه البيئات الجغرافية والأحداث التاريخية التى حفزت الى البعد وعدم الاتصال من ناحية ، والاختلاف فى القوام الحضارى للشعوب من ناحية أخرى ·

وأقترن التأثير العربى المباشر بحكايات ألف ليلة وليلة · وتسلسل هذه الحكايات على أساس كل وحدة زمنية فى السرد وهى الليلة ، لم يحل بين الدارسين المتخصصين ، وبين تصنيف هذه الليالى على أساس أصولها الحضارية، فمنها ما هو هندى أو فارسى ومنها ما هو بغدادى أو مصرى ، وهى حلقات تكشف فى الوقت نفسه عن الحوافز والوظائف التى لتلك الحكايات · فمنها علبة السحر وتجاوز الواقع الى العجيب أو الخارق ، ومنها ما يعنى بالعظة والاعتبار ، ومنها ما يستهدف مجرد تزجية الفراغ ، ومنها ما يبرر سلوك طبقات اجتماعية معينة فى صراعها مع الملك أو السلطان ـ هناك الأصل الهندى والفارسى وما اشتهرت به ، وهناك الشطار الأذكياء أصحاب الحيلة ومنها السحرة بقدراتهم الخارقة ·· الخ ·

وما من دارس لحكايات كانتربرى أو متذوق لما تحكيه من أهداف ، وما تصوره من شخصيات الا ويتذكر على الفور حكايات ألف ليلة وليلة وهى

التى عرفت فى أوربا وانجلترا بأنها « الليالى العربية » Arabian Nights ٠
ولا ريب فى أن هذه المجموعة عرفت واشتهرت فى أوربا قبل تشوسر بأمد غير قصير ، وأنها اقتبست أو ترجمت وحدات منها الى الآداب الأسبانية والفرنسية والانجليزية وغيرها ٠

والمصدر الشعبى للحكاية يفرض على المؤلف المعروف أو المجهول أن يعتمد على المأثور من المعتقدات ، التى يؤمن بها الانسان ٠ ويعد رجل الدين شخصية بارزة ومؤثرة من شخصيات هذه الحكايات ٠ والعقلية الشعبية تنقل صـــورة الكاهن القديم مع شىء من التطور الى الذين يتخذون الدين حرفة لهم فى الحياة ٠ وفى حكايات كانتربرى نماذج واضحة تصور هــــذه الأنماط ، التى تتشابه بالكهنة فى الحضارات القديمة ٠ وفى ألف ليلة وليلة حكايات شخوصها من تلك الأنماط ٠ وأى تحليل لها يكشف ، على الرغم من اختلاف الديانتين الاسلامية فى ألف ليلة وليلة ، والمسيحية فى حكايات كانتربرى ٠ ونموذج رجل الدين له قدرات خارقه ، وله سلوك يمتاز به ، فهـــو غامض يظهر غــــير ما يبطن ، ويستعين بالحيلة الى جانب المكانة الدينية ، التى جعلته يكاد يحتكر العلم الظاهر والخفى ، وهو يملك ، فى تصور العامة ، أن فى سلطته أن يؤثر فى القـــوى الخفية ، وأن يحقق كل ما يريد أن يحققه لمن يؤمنون به ٠

والحكاية الشعبية ، كما تبدو فى الشرق أو الغرب تكشف الستار عن الخفى من الكائنات المؤثرة فى الحياة والطبيعة والكون ٠ ويلتقى فيها البطـــل بالشياطين والعفاريت والأرواح الخفية ٠ وكما يكتسب الكاهن أو رجل الدين ، أو المقدر له أن يحقق حدثا خارقا ، وسائل وأدوات تأتمر بما يطلب منهـــا ، وتحققه دون نظر الى قانون طبيعى أو طاقة حية محدودة ، وهى صفة توجد فى العقلية الشعبية ، وتصورها الحكايات ، على اختلاف الشعوب والعصور ، ومن معالمها البارزة ما تصوره الليالى العربية وحكايات كانتربرى ، دون خلاف كبير فى الشكل والمضمون ٠

وأهم فارق بين الليالى وحكايات كانتربرى هو أن مصادر الأولى وبيئاتها تختلف باختلاف الحضارات ، والثانية تعرض شخصيات قدر لها أن تلتقى فى فترة محددة ومكان معين ٠ ومع ذلك فان الخيال الشعبى يكاد يكون واحدا ، لأنه يصور شخصيات ونماذج من طبقات مختلفة ، تتباين فيها المهن ٠ والمثالية الأخلاقية تفرق بوضوح بين الخير والشر ، ولكنها مع ذلك تصطدم بالرغبـات والآمال ٠٠ ومع هذا كله نجد المرأة فى حكايات كانتربرى وفى الليالى ، تقـــوم بدور العاشقة ، ويتناحر على الظفر بها الأبطال ٠ والمرأة فى التراث الشـــعبى ايجابية تبذل جهدها للوصول الى حبيبها ، ولا تجد بأسا من أن تلجأ الى الحيلة فى سبيل تحقيق غاية الغايات بالنسبة اليها ٠

لقد كانت تجربة جيوفرى تشوسر فى ابداع حكايـات كانتربرى ثمرة مكابدته للحياة ، كما عبرت عنها سيرته وأنشطته وعلاقاته ، وأهم من هـــذا كله آثاره التى جمعت بين الفكر والأدب ۰ وان مطالعاته ورحلاته هى التى أعانته على أن يخوض هذه التجربة ، التى مزج فيها بين الواقع والخيال ۰ وهو ، وان برز فى تاريخ الأدب الانجليزى كمعلم رئيسى من معالمه فى فترة التحـول الى عصر النهضة ، الا أنه سيظل شاهدا على تأثير الأدب الشعبى فى ابداع الروائع الممتازة والمعبرة عن عبقريات لها مقوماتها الخاصة بها ۰ وهذه الحقيقة هى التى أعانت على خروج بعض الروائع من اطار الذاتية أو القومية الى العالمية ۰ يضاف الى ذلك تصحيح خطأ ظل الدارسون يتشبثون به فى الأجيال الماضية ، وهو أن خصائص العصر أو البيئة الاجتماعية هى العامل الأول والأخير فى الابداع ۰ وهذه حكايات كانتربرى تنطق بأن حدود الوطن أو القومية أو العصر لا تحصر الروائع فى مجالها ، وليس من الممكن أن نتعرف على حكايات كانتربرى وأمثالها ، دون أن نعترف بتبادل التأثر والتأثير ، لا بين أسبانيا وايطاليا وفرنسا وانجلترا فحسب ، بل بين العالمين المسيحى والعربى الاسلامى أيضا ، مع أن يأخذ الدارس فى حسابه التراث الشرقى الفارسى والهندى وما اليهما ۰۰ ومنهج الأدب المقارن هو الذى يعين على دراسة هذه الحكايات ، بعد الاعتراف بتطورها المباشر عن المأثور الشعبى ۰

مقدمة حكايات كانتربرى

هنا يبدأ كتاب حكايات كانتربرى :

عندما يكون رذاذ شهر ابريل العذب قد تساقط ، واحترق جفاف شهر مارس ، واجتثه من جذوره ، ويكون قد أروى كل شريان بسائل ، يتميز بأنه سبب حياة الزهور .

عندما يكون زفيروس ، رب النسيم الغربى ، قد نفث أنفاسه العطرة وبثها فى كل مرج وغابة حتى قمم الأشجار اللدنة ـ عندما تكون الشمس الفتية(١) قد قطعت نصف مسارها فى برج الجدى ، وتكون صغار الطيور تغرد بأنغامها (والمعروف أنها تنام طوال الليل مفتوحة الأعين ، لأن الطبيعة هى التى تدفعها الى ذلك وتؤثر فى قلوبها) .

عندئذ يتفق الناس لزيارة قبور القديسين وتأدية مناسك الحج ، وعندئذ يسعى حاملو السعف الذين يؤمون بيت المقدس الى شواطىء غريبة ، فيرحلون الى كل مقام عتيق معروف ويقصدون خاصة مدينة كانتربرى ، آتين من جميع أطراف المقاطعات بانجلترا بغية زيارة ذلك الشهيد القديس المبارك ، الذى بادر الى اسعافهم أثناء مرضهم .

حدث ذات يوم من أيام ذلك الموسم ، وانا أجلس فى خان « الرداء الفضفاض »(٢) بمدينة سذرك ، أتأهب للقيام بأداء مناسك الحج فى مدينة كانتربرى ، وقلبى عامر بالخشوع والتقوى ، اذ دخل ذلك الخان ليلا زمرة

من تســعة وعشرين شــخصا ، وهم جميعا من فئات مختلفه ، التقوا بمحض المصادفة فى الطريق ، وكانوا جميعا من الحجيج ، الذين يسعون الى كانتربرى على صهوات جيادهم .

وكانت غرف الخان ومرابط الخيل رحبة ، فلقينا فيه جميعا راحة تامة .

★ ★ ★

وبعد هنيهة ، حينما ذهبت الشمس لترتاح ، وكنت قد تحادثت مع كل واحد من هؤلاء واذا بى أصــبح واحدا منهم ، فبادرت الى النوم لأنهض مبكرا وأواكبهم فى الصباح ، وهذا طبق ما أقول لك بالضبط .

ومادام لدى متسع من الوقت ، قبل أن أمضى فى سرد هذا القصص ، فانى أرى أنه من المعقول أن أروى لك أحوال كل مسافر منهم ، كما كانت تبدو لى ، وأن أذكر الى أى طبقة كان ينتمى كل واحد منهم ، وما كان يرتديه من الزى ، وسأبدأ أولا بالفارس .

كان هناك فارس فاضل شريف . (٤) ومنذ امتطاء صهوات جياده فى الحملات الحربية كان ولوعا بالفروسية معروفا بالاخلاص والشرف والكرم وآداب اللياقة ، وكان مقداما كل الاقدام فى حروب مليكه . (٥) يخوض غمارها متفوقا على كل فارس آخر ، وذلك فى دار المسيحية وفى دار الكفر ، وكان دائما مكرما لصفاته النبيلة . ولقد شارك فى معركة الاسكندرية عند فتحها ، (٦) وكم من مرة ترأس مائدة الفرسان مقدما عليهم جميعا فى آمم بروسيا ، وكثيرا ما خاض غمار الغزوات فى أقطار لتوانيا وروسيا ، ولم يناظره فى ذلك مسيحى آخر من نفس الطبقة ،وحضر حصــار مدينة الجزيرة بمملكة غرناطه ، كما حــارب فى غزوات بنى مرين بالمغرب ، وأسهم فى معارك آياس وآضاليا فى الأناضــول عندما فتحتها الجيوش التى انضم اليها ، واشترك فى حملات عظيمة على ضفاف البحر الكبير (المتوسط) ، وفى خمس عشرة معركة دامية ، وكافح فى سبيل ديننا فى تلمسان ثلاث مرات فى مبارزات فردية ، قتل فى كل مرة منها عدوا . وكان هذا الفارس النبيل قد رفع لواءه أيضا ، دفاعا عن ملك « بلاط » ضد كافر آخر فى بلاد الأتراك ، وكانت فديته فدية ملك فى كل معركة خاضها وكان الى جانب نبله حكيما ، وكان فى سلوكه وأدبه فى وداعة الفتاة البكر ، لم يتلفظ قط بكلمة منكرة أو بذيئة ، يجرح بها أى واحد من الناس ، طوال حياته ، فكان فارسا أصيلا كامل الأخلاق .

واذا عرضت لما كان يرتديه ويمتطيه قلت ان جواده كان أصيلا ، وان لم يكن لعوبا ، كان يرتدى قميصا من نسـيج الفســطاط عليه بقع من الصدأ من

الزرد ، الذى كان يرتديه من قبل ، وكان قد وصل لتوه من رحلاته البعيدة سعيا الى الحج ٠

وكان معه ابنه(٧) ، حامل الدروع وهو شاب وسيم أعزب مرح ، كثير الوقوع فى شباك الغرام مجعد الشعر كأنه قد كواه ، وكان عمره ، على ما اعتقد ، عشرين عاما ، أما قوامه فمتوسط الطول ٠ وكان خفيف الحركة قوى البنية ، وكان قد شارك من حين الى آخر فى حملات الفرسان ، وذلك فى بلاد «الفلمنك» وفى «أرتوا» وفى «بيكردى» (بفرنسا) وكان سلوكه مشرفا برغم قلة خبرته ، آملا أن يحظى باعجاب سيدة غرامة ، وكان رداؤه كله مطرزا وكأنه مرج انتثرت فيه زهور بيضاء وحمراء ، وكان طوال النهار يغنى أو يعزف على الناى ، وكان فى رشاقة شهر مايو (أى الربيع) ، وكان رداؤه قصيرا ، وأكمامه عريضة ، ويعرف جيدا كيف يمطى صهوة الجواد كما تقضى بذلك الأصول ، وكان بارعا فى تلحين الأغانى ، قادرا على نظمها ، وراقصا على دراية أصول الرقص ، كما كان مصورا ماهرا وخطاطا بارعا ٠ وكان عشقه ملتهبا ، فكان لاينام فى الليل الا لماما كما ينام البلبل ، كما كان مهذبا وديعا خدوما ، واعتاد دائما أن يتولى قطع اللحوم على المائدة أمام أبيه ٠

وكان معه الخولى (٨) الخاص به دون غيره من الأتباع وقتذاك لأنه قرر أن يؤدى مناسك الحج على هذا النحو ٠ وكان الخولى يرتدى معطفا أخضر اللون وعلى رأسه قلنسوة من نفس اللون ، ويحمل فى وسطه حزمة من السهام النافذة ، المزودة بريش الطاووس ولم يكن يعز عليه شىء من ذلك ، كان بارعا فى شحذ أسلحته وصيانتها على نحو يليق بأمثاله فما خابت سهامه قط أثناء رميها لقصر ريشها ، وكان يحمل فى يمناه قوسا ضخما ٠ وكان شعر رأسه قصيرا ، ووجهه أسمر من لفحة الشمس ، وكان على المام كامل بكل ما يتعلق بالغابة ، ويحمل فوق ذراعه رباطا ، يقى ساعده ، جميل اللون ، علق الى جانبه سيفا وترسا صغيرا وخنجرا مصقولا لامعا الى جانبه الآخر ، وكان هذا الخنجر مغمدا فى جراب من الجلد المنقوش ، وحده قاطعا كنصل الرمح ، ويحمل على صدره صورة للقديس كريستوفر مصنوعة من الفضة الخاصة ، وبوقا من القرن ، معلقا بحمالة خضراء اللون ٠٠٠ كان من خبراء الغابة بحق على ما أعتقد ٠

وهناك أيضا راهبة (٩) كانت رئيسة دير تميزت بابتسامة هادئة ساذجة ، وكانت اذا أقسمت لا تقسم الا باسم القديس ايليا ، واسمها السيدة اجلنتين (★) ، وكم برعت فى ترتيل القداس ، بغنة تليق به ، وكانت تتكلم الفرنسية بطلاقة ورقة ، كما تعلمت فى مدينة ستراتفورد أتيبو ، فانها فى الواقع لم تعرف اللغة الفرنسية التى كانت شائعة فى باريس ، وعرفت بالأدب

(★) الوردة البرية ٠

الجم على المائدة ، لا تترك فضلة من الطعام تتساقط من شفتيها ، و لاتتخلل أصابعها مرق التوابل واللحوم ، وتتناول الطعام بحذق وأناقة بالغين وتحرص الحرص كله ألا يقع شيء من الطعام على صدرها أثناء تناوله ، وغاية متعتها أن تتبع آداب اللياقة ، وكانت تمسح شفتها العليا بدقة ، حتى لا تترك شائبة من الدهن على حافة الكوب بعد أن تشرب منه ، وكانت تمد يدها للطعام بتؤدة وأدب ، ولقد كانت بحق سيدة لطيفة مرحة دمثة الخلق ، همها أن تحاكى سلوك الناس فى البلاط الملكى ، وأن تكون وقورا فى تعاملها ، جديرة بالتبجيل فى أعين الناس جميعا ، واذا عرضنا لمشاعرها وجدناها عطوفا للغاية ، رقيقة القلب ، تتفجر بالبكاء ، اذا رأت فأرا وقع فى شرك وبخاصة اذا فارق الحياة أو نزف دما ، وكانت تقتنى مجموعة من الجراء تطعمها بالشواء أو باللبن أو بالرقائق ، وكانت تبكى اذا مات أحدها ، أو أوجعه الناس ضربا بالعصا ، لأنها كانت مرهفة المشاعر ذات قلب عطوف ، وكانت ترتدى خمارا مجعد الأطراف ، وأنفها جميل ، وعيناها حادتان تبرقان كالمرآة وفمها صغير ، وشفتاها ناعمتان حمراوان ، وجبينها بلا شك وضاح ، وأنا مستعد أن أقسم أنه كان فى عرض الكف ، ولم تكن قصيرة القامة ، ولاحظت أن معطفها أنيق جدا ، وأنها علقت بذراعها مسبحتين من المرجان الدقيق مزدانتين بحبات كبيرة خضراء اللون ، وكان عندها دبوس من الذهب الخالص على شكل الحرف A متوجا وتحته عبارة « المحبة تغلب كل شيء » (Amor vincit omnia)

وكانت ترافقها راهبة أخرى تقوم مقام أمينة سرها ، وبجوارها أيضا ثلاثة من القساوسة(١٠) .

وهناك راهب(١١) وظيفته الاشراف على أملاك الدير ، ولم يكن هناك من يفضله فى ذلك ، كما كان مشغوفا بكل أنواع الصيد ، فهورجل كامل الرجولة ، جدير بأن يكون رئيسا لدير ، فى حظيرته الكثير من الجياد الأصلية ، واذا امتطى جوادا له كان الناس يسمعون جلجلة لجامه يعلو فوق صفير الرياح ، ويسمعونها بوضوح ، كأنها ناقوس الكنيسة ، التى كانت تابعة للدير الذى كان يرأسه . ولم يهتم ذلك الراهب كثيرا بقواعد الرهبنة التى وضعها القديس ماوروس أو القديس بندكتوس(١٢) بحجة أنها قواعد عتيقة صارمة ، وكان جل اهتمامه ينصب على العالم الحديث . ولم يكن يهتم بتلك الآية التى تقول «ان الصيادين ليسوا من الأتقياء وأن الرهبان خارج الدير كالأسماك خارج الماء »(١٣) الا بقدرما يهتم بدجاجة منتوفة الريش ، وتفسير ذلك أن الكلام موجه الى الراهب الذى يقضى وقته خارج أروقة الدير ، والواقع أن راهبنا هذا لا تساوى هذه الآية فى نظره حتى بلحة من بلح البحر ، وأنا أقول « انه لا بأس برأيه ، وهو قلما يقضى وقته فى الاستذكار ، ولماذا يجن من مزاولة الانكباب على الكتب فى رواق الدير ، أو فى العمل بيديه ، والفلاحة كما قضى بذلك القديس أوغسطنوس(١٤) ؟ فكيف يعمل لدنياه ؟ فلينفرد أوغسطنوس وحده

بعمله . ولذلك كان الراهب فارسا صيادا ممتازا ، لديه من كلاب الصيد ما يجرى بسرعة الطير ، وكان لاهم له الا صيد الأرنب البرى ومطاردته عن طريق التصنت الى وقع أقدامه على الأرض ، وفى سبيل ذلك كان ينفق كل ما يتجمع لديه ، ولما رأيته وجدت كمى ردائه مزدانين بالفراء الرمادى فى طرفيهما ، وكان هذا الفراء أكثر ما يمكن شراؤه قيمة . وفى سبيل ربط قلنسوته أسفل ذقنه كان يقتنى مشبكا من الذهب المصوغ ، وفى طرف هذا المشبك دوائر حلى على شكل العقدة المعروفة باسم « عقدة الهيام » وكان رأسه أصلع يلمع كالمرآة ، وكذلك بشرة وجهه ، وكأنها مسحت بالزيت .. كان سيدا بين الناس ، سمينا جدا متمتعا بصحة تامة ، وكانت عيناه كبيرتين جاحظتين كأنهما تتدحرجان فى رأسه ، وكانتا تتقدان كالنار تحت القدر ، وكان حذاؤه من الجلد اللدن ، وحصانه مسرجا بأثمن السروج ، ولا شك أنه كان قسيسا جميلا عظيما ، ولم يكن لونه شاحبا كأرواح الموتى الشقية ، وكان أشهى طعام يطهى لديه هو البجعة السمينة ، وكانت الفرس التى يمتطيها بنية اللون كثمر العناب .

وكان هناك راهب جوال(١٥) مرح لعوب ، وكان مرخصا له أن يجمع تبرعات من أجل الدير فى حدود اقليمية محددة ، كما كان مظهره ينم عن الوقار ، على أنه لم يكن له نظير فى الطرق الرهبانية الأربعة فى الدعاية ولغة المغازلة ، وكم من فتاة أشرف على تزويجها على نفقته الخاصة (خشية الفضيحة والعار) ، على أنه كان عمادا شريفا للطريقة الرهبانية التى ينتمى اليها ، كما كان محبوبا جدا فى كل المنطقة ، وتربطه صداقة حميمة بأعيانها من أصحاب الأراضى ، وكان يرفع الكلفة مع سيدات فضليات كثيرات بالمدن ، وكانت الكنيسة قد خولته حق سماع الاعتراف ، كما كان يباشر هذه المهمة أكثر مما لو كان قسيسا ، وكان أسلوبه فى الاستماع الى الاعتراف أسلوبا وديعا لطيفا ، كما كان نطقه بالغفران يشرح الصدر . وكان كريما جدا فى فرض الكفارات كلما توقع منحة قيمة ، فالتبرع لدير رهبان فقير دليل واضح على أن الانسان قد اعترف بكل خطاياه ، وكفر عنها ، وعندما كان الانسان يجود بشىء فى هذه الحال ، فان هذا الراهب الجوال كان يعلن على الملأ أنه يعلم تماما بأن هذا الانسان قد تاب ، وكم من رجل قسا قلبه فلم يعد يستطيع البكاء ، ولو كان له ضمير يؤنبه لناب الراهب عنه فى اظهار التوبة ، لذلك فانه بدلا من البكاء والصلاة كان الناس يجودون بالفضة للرهبان الفقراء الجوالين ، وكانت قلنسوته محشوة بالمدى الصغيرة وبالمشابك الأنيقة ليهديها الى السيدات الجميلات ، ولا شك أن صوته مشجعا ، فقد كان يجيد الغناء والعزف على القيثارة ، ولم ينازعه أحد فى حفظ الموشحات وكانت رقبته بيضاء كزهرة الزنبق (١٦) ، ومع ذلك كان قويا كبطل من أبطال المصارعة ، وكان يعرف جيدا كل خان بالمدينة ، بل كل صاحب خان وكل ساق للخمور ، وذلك أكثر مما كان يعرف لوكان سائلا أو مصابا بالجذام ، مع العلم بأن رجلا محترما مثل هذا الراهب لم يكن مما يليق

به أن يصاحب أمثال هؤلاء من الشحاذين ، فليست هذه المعرفة مفيدة ولا مشرفة تدفع الى التقدم والارتقاء ، لذلك فانه كان يتجنب جميع الغوغاء من الفقراء . ولم يكن يتردد الا على الأغنياء أو بائعي الطعام والشراب ، وكان دائما مع كل شخص ، ينتظر أن يجنى منه فائدة ، وكان معه مؤدبا للغاية ووديعا خدوما ، وفى هذه المناسبات لا ترى نظيرا له فى اظهار الفضيلة . ولا شك أن الدير الذى ينتمى اليه لم يكن فيه من يناظره فى مهنة السؤال . فاذا كانت هنـــاك أرملة فقيرة لا تملك سوى فردة حذاء واحدة كان لابد له من أن يأخذ منها ربع فلس (بنى) ، لأنه كان يجيد تلاوة مطلع انجيل يوحنا (١٧) . وكان ما يقتنيه من النقود فى هذه الجولات يزيد كثير عما يحوله بالفعل للدير ، وكان يستطيع أن يظهر من الهيام أكثر مما يفعل كلب ينبح طالبا آنثاه ، وفى مجالس الصلح كانت مساعدته ثمينة جدا ، اذ لم يكن عندئذ مجرد راهب فقير آت من دير ، مهلهل الثياب كالعالم المعدم ، وانما كان يبدو دائما بمظهر السيد العظيم أو البابا نفسه .. وكان معطفه الخارجي ذا طبقتين من الصوف ، مكويا كيا مستديرا كأنه جرس قد خرج توا من قالب الأجراس . وتمشيا مع أخلاقه اللعوبة كان يتلعثم فى الكلام حتى يجعل لغته الانجليزية عذبة على لسانه ، واذا عزف على القيثارة كانت عيناه تلمعان فى رأسه ، بعد انتهائه من الدور ، كما لو كانتا تماما نجمين فى ليلة من ليالى الشتاء شديدة البرودة . وكان هذا الراهب الجوال المرخص له بالشحاذة ، المحترم فى مظهره يسمى « هوبرت » .

وكان هناك تاجر يتفرع شعر ذقنه من أسفل فرعين ، كما كان رداؤه من القماش متعدد الألوان ، وكان يجلس على سرج عال ، وعلى رأسه قبعة من الفرو الفلمنكي ، وحذاؤه مربوط ربطا أنيقا جميلا . وكان دائما يعبر عن آرائه بنبرات رصينة ، ويعلن دائما عن مدى ربحه المتزايد ، وكانت أمنيته الوحيدة أن تتوفر الحراسة فى البحار ضد القراصنة بين ميناءى ميد لبرغ وأورول(١٨) ، كمـــا كان ماهرا فى صفقات التبادل النقدى . وكان هذا التاجر المحترم يستخدم كل ما أوتى من ذكاء فى ألا يدع أحدا يظن أنه مدين ، وذلك بسبب سمو سلوكه وجمال مظهره وتشبثه بمواقفه فى المساومة وفى الأعمال التجارية المشكوك فى صحتها ، ومع ذلك فانه ، والحق يقال ، كان رجلا محترما ، وان كنت فى الواقع لا أعرف اسمه .

وكان هناك أيضا عالم من أكسفورد ، نذر نفسه من قديم الزمان لعلوم المنطق ، وكان حصانه نحيفا جدا كأنه جاروف ، أما هـــو فلم يكن سـمينا ، وأستطيع أن أقسم على قولى هذا ، وكان كأنه أجوف الا أن مظهره أيضا كان يدل على الرزانة وكانت سترته قصيرة ومهلهلة اذ انه لم يكن قد حصل ، حتى ذلك الوقت ، على وظيفة فى الكنيسة ، ولم يكن لبقا فى أساليب الدنيا لكى يتخـذ وظيفة علمانية . وأحب شيء اليه أن يرى بجوار سريره عشرين كتـــابا مجلدة بالجلد الأحمر والأسود لأرســـطو وفلسفته ، وكان ذلك أحب اليه من الأردية

الثمينة أو الكمان أو القيثارة المرحة · ومع أنه كان فيلسوفا (عالمـــا بالغيب والسيمياء) الا أنه لم يكن لديه الا القليل من الذهب فى خزائنه ، وكان ينفق كل ما يجود به عليه أصدقاؤه على الكتب والعلم ، وكان يصلى من أجل أرواح أولئك الذين يجودون بمالهم عليه ، لكى يتابع البحث والعلم · وعلى الرغم من أن همه كله كان محصورا فى الاستذكار والعلم ، فانه لم يكن يفوه بكلمة أكثر مما يجب ، وكان اذا تكلم فانه يتكلم بوقار وخشوع ، وكان كلامه كله مما قل ودل ، يفيض بالحيوية ، ويدل على الرأى السديد ، وكان كلامه كله يدور دائما حول الفضيلة والأخلاق · وكان يسعده أن يتعلم كما كان يسعده أن يعلم ·

وكان هناك محام واع وحكيم ، كثيرا ما تردد على أروقة المحاكم ، كما كان بالاضافة الى ذلك جم « الذكاء » ، واسع العلم ، وحكيما يدفع الناس الى احترامه ، أو على الأقل كان يعطى انطباعا بذلك ، لكثرة ما فى كلامه من حكمة ، وكم من مرة جلس فيها على منصة القضاء فى صدر محكمة الجنايات بحكم القانون أو بالانتداب ، وذلك لسمو حكمته وعلو شأنه ، وكان يتقاضى أتعابا عالية ، وكثيرا ما كان الملك يمنحه الملابس الفاخرة ، وكان ينتهز الفرص ، فيشترى كل ما ينتظر أن تزيد قيمته ، كما كان يبدأ بشراء حق الانتفاع ، ثم ينتهى بتملك العين ذاتها ، ولم يستطع أحد أن يجد ثغرة فى عقود شرائه ، كما لم يكن هناك من يدانيه فى الانشغال ، الا أنه كان فى الحقيقة أقل انشغالا مما يبدو ، وكانت كل القضايا الهامة والأحكام التى صدرت فيها ، بنصها نفسه منذ عهد الملك وليام ، ماثلة فى ذهنه كما كان قديرا على التأليف والكتابة الأدبية ، ولم يكن فى وسع أحد أن ينتقد أسلوبه فى الكتابة ، وكان يحفظ عن ظهر قلب كل قانون صـــدر فى الدولة ، وكان لا يركب جوادا فخما ، ويرتدى معطفا متواضعا من الصوف الملون ، ويتمنطق بحزام من الحرير مزدان بقطع فضية ، ولن أقول لك شيئا أكثر من مظهر هذا الرجـــل ·

وكان فى صحبته رجل من ملاك الأرض ، لحيته بيضاء فى لون زهـــرة اللؤلؤ ، وكان دموى المزاج ، ويحب أن يتناول كل صباح كعكة مبتلة بالنبيذ ودرج فى حياته على أن يعيش حياة ممتعة ، اذ انه فى هذا الأمر الابن البـــار للفيلسوف أبيقور ، ذلك الفيلســـوف الذى كان يرى أن اللذة فى حد ذاتهـــا هى السعادة الكاملة حقا ، وكان بيته مفتوحا للناس فى كل أنحاء المنطقه ويماثل فى كرمه القديس جولياثوس(١٩) ، وبيته لا يخلو أبدا من الخبز والجعة من أفخر الأصناف ، ولم يعرف أن أحدا غيره لديه ما كان عنده من كميات النبيذ المخزون ، ولم يخل بيته أبدا من اللحم المطهو ، ولا الأسماك ولا اللحوم بكـــل أنواعها ، بكميات وفيرة جدا ، الى حد أنه كان يظن أن الأطعمة والأشربة وكل ما تطيب له النفس كانت كهطول الثلج يتساقط فوق منزله · وكان ينـــوع أطعمته ، حسب أصول التقاليد المختلفة ، فكم من حجلة كان يحتفظ بها فى أقفاص بمنزله ، وكم من سمكة أبراميسية وبيقة كان يحتفظ بهمافى برك خاصة

لهذا الغرض · وويل لطاهيه اذا كان مرقه حريفا أو اذا لم تكن أدواته دائما على أتم استعداد ، كانت المائدة ، مثبتة(٢٠) فى بهو بيته ، وعليها دائما ما لذ وطاب ·· وكان يحضر جلسات المجالس الاقليمية بصورة مشرفة ، كأنه من عظماء الأشراف ، وكم من مرة انتخب فارسا(٢١) يمثل المقاطعة التى ينتهى اليها · وكان حزامه أبيض فى لون لبن الفجر ويتدلى منه خنجر قصير وكيس من الحرير ، وقد شغل وظيفة رئيس القرية والمشرف على حساباتها ولم يعرف نظير له فى العظمة كأحد من ملاك الأرض ·

وكان هناك تاجر خردوات ونجار ونساج وصباغ وناسج سجاجيد ، وكانوا جميعا يرتدون زيا موحدا لأنهم ينتمون الى طائفة مهنية واحدة تحظى باحترام بالغ ، وكانت أرديتهم جديدة ومزدانة بزخارف طريفة ، ولم تكن مقابض يداهم من النحاس ، بل كانت من الفضة المطعمة جيدة الصنع ، كما كانت مناطقهم وأكياسهم مطرزة تطريزا محكما ، وكان كل منهم يبدو وكأنه عضو فى مجلس المدينة ، جدير بأن يتربع على منصته فى دار مجلس المدينة ، وكل منهم ، لما يتميز به عن الحكم والوقار ، يبدو جديرا بالانتماء الى المجلس التشريعى للمدينة ، وكان لدى كل منهم ما يكفيه من المال والدخل · وكانت هذه الوظيفة تبدو مناسبة أيضا لزوجاتهم ، ومن منا يستطيع أن يلومهن على التطلع اليها · وكم يصيب المرأة أن تنادى بلقب « يا سيدتى » ، وأن تتقدم الناس فى السهرات وأن ترتدى معطفا وتبدو كأنها ملكة ، وبهذه المناسبة كان يصاحبهم طاه لكى يسلق الدجاج بنخاع العظم ، ويضيف الى ذلك التوابل والخلنجان ، وكان ماهرا فى الحكم على جودة الجعة اللندنية ، كما كان قادرا على قلى اللحوم وشيها وسلقها ، وكان هذا الطاهى خبيرا بطهو اللحم مع الخضر ، ويتقن صنع الفطائر ، ومما يؤسف له فى نظرى أنه كان يحمل على فخذه خراجا كبيرا ، أما فى صنع المهلبية فلم يفقه أحد ·

وكان هناك بحار أتى من أقصى الغرب ، وعلى حد معرفتى كان قادما من مدينة دارتموت (٢٢) ، وكان يمتطى جواد حرس كما لاح لى ، وكان يرتدى رداء من الصوف الخشن يتدلى حتى ركبتيه ، ويحمل خنجرا يتدلى من حبل مربوط ملفوف حول عنقه وابطه · وكانت حرارة الصيف قد لفحت بشرته ، ولا شك فى رأيى أنه كان رجلا كامل الرجولة ، وكم من جرعة نبيذ احتساها من براميله أثناء نوم التاجر فى الرحلة بين ميناء بوردو وانجلترا ، ولم يكن يقيم وزنا كبيرا للضمير ، الشديد الحساسية ، فكان اذا اشترك فى مشاجرة بعرض البحر ، وكانت الغلبة له ، قذف ·· بعدوه الى الماء ليعود الى بيته سابحا ، أما فيما يتعلق بمهارته فى عمله فقد كان خبيرا بحسبان المد والجزر والتيارات البحرية والموانى الآمنة المختلفة وأطوار القمر وقيادة سفينته بحكمة ، ولم يكن له نظير فى ذلك بين ميناءى هل وقرطاجة(٢٣) ، وكان قوى الاحتمال لا يعتريه التعب بسرعة ، وحكيما فى وضع خططه ، وكم من عاصفة بحرية هزت لحيته ، وكان يعرف كل

مأوى على الشواطىء بين جتلند(٢٤) ورأس فنستير ، كما كان ملما الماما تاما بكل خليج بين مقاطعة بريتانيا وأسبانيا وكانت سفينته تسمى « المجدلية » ٠

وكان يصاحبنا طبيب ليس له مثيل فى كل أنحاء العالم اذا تكلم فى موضوعات الطب والجراحة ، وكان ملما الماما تاما بقواعد التنجيم(٢٥) ٠ وكان هذا الطبيب يشرف على مرضاه أثناء اقتران الأجرام السماوية ، حتى يضمن أن يأتى علاجه بالسحر الحلال بخير النتائج ٠ وكم كان ماهرا فى صنع التمائم والأحجبة لمرضاه فى الأوقات التى تكون فيها الكواكب فى الطالع ، حتى يكون لها تأثير ناجح على علاجه ، وكان عالما تماما بأسباب كل مرض من الأمراض ، سواء كان يرجع الى الحرارة أو البرودة أو الرطوبة أو الجفاف ، كما كان يعرف مصدر هذه العلل ، ويعلم بأى مزاج تتأثر ، كان هـذا الرجل بلا شك نطاسيا ماهـرا للغاية عالما بأسباب الامراض ، وقادرا على أن يعطى لكل مريض علاجه ٠ وكان الصيادلة دائما على أتم استعداد لارسال الدواء والبلسم الشافى اليه اذا طلبهما ، لأن كل طرف منهما كان يعمل على زيادة مكاسب الآخر ٠ ولم تكن صداقتهمـا حديثة العهد بأى حال من الأحوال ، وكان هذا الطبيب ملما بعلوم الطب فى كتب ايسكو لابيوس (٢٦) وريوسـكوريدس وروفوس الا فيسى أيضا وهبوقراط القديم وعلى بن العباس وجالينوس وابن سرابيون والرازى وابن سينا وابن رشد وابن ماسويه وقسطنطين الأفريقى وبرنارد جوردون وجلبرت الانجليزى وجون جادزدين ٠ وكان معتدلا فى طعامه لا يصيب أكثر من حاجته وكان ما يتناوله مغذيا سهل الهضم ، وكان لا يهتم كثيرا بقراءة الكتاب المقدس(٢٧) ٠ وكان يرتدى رداء من القماش الأحمر والحرير العجمى الأزرق مبطنـا بالحرير الصقيل ، (تافتا) والحرير الرقيق ولم يكن مسرفا ، وكان يحافظ على كل ما يكتسبه أثناء أوقات انتشار الأوبئة والطاعون ، ولمـا كان من المعروف أن الذهب(٢٨) فى الطب منشط للقلب ، فانه كان بصفة خاصة يحب الذهب ٠

وكان من بين هؤلاء الحجاج عقيلة طيبة من ضواحى مدينة « نات » ، وكانت الى حد ما صماء ، وكان ذلك أمرا يدعو للأسف ، وقد بلغت درجة من المهـارة فى نسج القماش ، جعلتها تفوق فى هذا المجال نساجى « ايبر » جان(٢٩) أنفسهم ولم تكن هناك فى جميع أنحاء الأبرشية سـيدة تجرؤ على أن تتقدمهـا فى القداس(٣٠) ٠ واذا تصادف أن وجدت سيدة يمثل هذه الجرأة فانها كانت تنفجر غضبا الى حد ينسيها كل قواعد المحبة الواجبة بين النـاس ٠ وكانت وشائج رأسها من النسيج الرقيق ، بل انى أستطيع أن أقسم أن ما كانت تضعه منها فوق رأسها فى أيام الأحد يزن ما يقرب من عشرة أرطال ٠ وكانت جواربها من اللون الأحمر الفاقع ومربوطة حول رجليها ربطا محكما ، كما كانت أحذيتها جديدة ، جلدها ناعم رطب ٠ وكان وجهها ينم عن الجرأة ، جميل القسمـات ومشربا بحمرة ، وكانت طوال حياتها سيدة محترمة وقد عقدت قرانها على خمسة من الأزواج فى مدخل الكنيسة(٣١) الى جانب علاقات أخرى ارتبطت بها فى أيام

شبابها (ولكن لا داعي للحديث عن هذا الموضوع في الوقت الحاضر) . وقد زارت بيت المقدس ثلاث مرات ، وعبرت أنهارا كثيرة في رحلاتها المختلفة . وذهبت الى روما والى بولونى والى مزار القديس يعقوب في كومبوشيلا في غاليسيا والى مدينة كولونيا(٣٢) وكانت لها خبرة بأمور السفر في الطرق العامة ، والحق يقال ، ان أسنانها كانت منفرجة(٣٣) ، وكانت تمتطى فرسا أصيلا دون أن تجد في ذلك أية صعوبة ، وكانت طرحتها محكمة الربط حول وجهها وتعلوها قلنسوة عريضة عرض الترس أو المجن .. وكانت ترتدى معطفا طويلا يستر فخذيها العريضتين ، كما كانت تربط على قدميها مهمازين حادين ، وكانت تحب الضحك وقادرة على مبادلة الدعابة والحديث ، اذ وجدت صحبة من الناس . وكانت تعرف علاج الحب(٣٤) اذ أنها كانت خبيرة في تقلبات هذا الفن القديم .

وكان هناك رجل دين فاضل وهو قسيس فقير المدينة ولكنه غنى بالأفكار التقية والأعمال الصالحة . وكان بالاضافة الى ذلك رجلا عالما ، وطالبا للعلم اعتاد أن يعظ وعظا صادقا من انجيل المسيح وكان ينكب على تعليم رعيته في الأبريشية كان طيب الخلق ومجتهدا فيما يعمله الى حد يثير الاعجاب ، واذا انقلبت الأوضاع وتعرض لشدة ، فانه كان يقابلها بالصبر الجميل ، وكم من مرة دلل على ذلك في مناسبات عديدة ، واذا لم تدفع له الزكاة(٣٥) فانه كان لا ينطق بالحرمان الكنسى بل كان يؤثر أن يعطى فقراء أبرشيته من صندوق التبرعات أو حتى من مرتبه المتواضع ، اذ كان يقنع بالقليل . وكان اقليم أبرشيته واسعا جدا والبيوت فيها متباعدة بعضها عن بعض ، ولكنه لم ينقطع (عند سقوط الأمطار أو هبوب العواصف ولا عند حلول الكوارث أو انتشار الأمراض) عن زيارة أبعد من يعدون من رعيته في الأبرشية ، مهما كان شأنه ضئيلا . وكان يمشى على قدميه وفي يده عصا يتوكأ عليها . وكان دائما قدوة صالحة لرعيته بمعنى أنه كان يعمل أولا ولا يعلم الا بعد ذلك . وقد اقتبس من الانجيل تلك الكلمات القائلة بأن الذهب اذا أصيب بالصدأ فما الحال اذن بالنسبة للحديد (٣٦) بل كان يضيف الجديد الى هذا المثل المعروف ، على أن القسيس الذى نثق به اذا كان غير صالح ، فلا عجب أن يصاب الرجل الجاهل بالصدأ . فعار على القسيس الواعى أن تكون الأغنام طاهرة والراعى ملوثا « وعلى القسيس أن يكون قدوة صالحة ، بطهارته حتى تعرف أغنامه كيف تعيش . لم يكن هذا القسيس يتاجر في دخل وظيفته تاركا رعاياه يتمرغون في الوحل ويهرول الى لندن في كتدرائية القديس بولس باحثا هناك عن وظيفة كنسية كبرى أو يخدم نقابة مهنية بعيدا عن أهل قريته(٣٧) ، بل كان يؤثر أن يمكث في قريته ويحافظ على رعيته خير محافظة ، حتى لا يختطف الذئب أحدا من رعيته(٣٨) . وكان راعيا صالحا .. ولم يكن أجيرا يرتزق كلما استطاع . ومع أنه كان تقيا وفاضلا فأنه كان لا يقسو على الآثمين ومرتكبى الخطايا ، ولم يكن متكبرا ولا متغطرسا في كلامه ، وكان دائما يتشبث بالطيبة والتعقل في تعليمه ، وكان كل همه أن يجتذب الناس الى

جنة الخلد بالكلمة العادلة والقدوة الصالحة . واذا وجد شخصا متعنتا لا يتنازل عن كبريائه ، فانه كان ، مهما علا شأنه ، يوبخه توبيخا شديدا . واني لأقسم أنه ليس هناك قسيس يماثله في الطيبة والتقوى . ولم يكن يبغى أن يحظى في الحياة بالاحترام الزائد أو سمو المنزلة ، ولم يكن ضميره فضفاضا ، بل كان يلتزم بتعاليم المسيح وحوارييه الاثنى عشر . وكان يلقن هذه التعاليم ، ولكنه يتبعها بادئا بنفسه .

وكان معه أخوه وهو فلاح ، وهو كثيرا ما سحب عربات من روث البهائم ، وكان حقا من العاملين الكادحين ، وطيبا أيضا يعيش في الدنيا في أمن وسلام ومحبة مع الجميع ، وكان يحب الله حبا ملأ كل شغاف قلبه ، في كل وقت مهما كانت حاله من البهجة أو الأسى ، وكان بعد الله يحب جاره ، كما يحب نفسه وكان يدرس الفلاحة ويحفر المصارف ، ويقلب الأرض بالنيابة عن أى فلاح فقير ، وذلك ابتغاء مرضاة المسيح وبدون أجر ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وكان يدفع الزكاة في مواعيدها بدقة وأمانة سواء أكانت ثمرة كده أم مما يمتلكه . وكان يتمطى فرسه مرتديا معطفا بدون أكمام .

وكان في رفقتهم أيضا ناظر ضيعة وطحان ومحضر محكمة وبائع لوثائق الغفران ومتعهد مؤن في قلبه وأنا نفسى ولم يكن هناك أحد غيرنا .

وبهذه المناسبة فان الطحان ، كان رجلا ضخما ، قوية عضلاته ، مثل عظامه كبيرة عريضة ، وكم من مناسبة أفادته فيها قوته ، وكان اذا تصارع يفوز دائما بجائزة الكبش ، وكان منكباه قصيرين عريضين وجسمه قصيرا بدينا ، وكان قوى البنية(٣٩) ولم يكن هناك باب من صنع الانسان لا يستطيع أن يرفعه من مفاصله أو يخرقه بضربة من رأسه ، وكانت لحيته حمراء مثل شعر الثعلب أو الخنزيرة ، وكانت عريضة كأنها ممحاة . وعلى قمة أنفه ثؤلول ومن فوق الثؤلول خصلة من الشعر الأحمر مثل الشعرات الموجودة داخل أذنى الخنزيرة ، وكان منخراه أسودين عريضين ويحمل بجانبه سيفا وترسا صغيرا .. وكان فمه واسعا كأنه فرن كبير ، وكان ثرثارا كثير المزاح ، وكانت أغلب نكاته تدور حول المجون والدعارة .. وكان حاذقا في سرقة الغلال ، وفرض ثلاثة أضعاف الثمن المستحق ومع ذلك فانه كان طحانا ماهرا جدا ، ابهام يده من الذهب (على رأى المثل)(٤٠) ولم يكن هناك في الواقع ما يدعوه للسرقة . وكان يرتدى معطفا أبيض وقلنسوة زرقاء . وكان ماهرا في العزف على القرب ، واستطاع بعزفه هذا أن يسلينا ، وهو يصاحبنا الى خارج المدينة .

وكان هناك أيضا متعهد المؤن لاحدى كليات الحقوق ، وكان يمكن اعتباره مثالا للمشترين ، وذلك ما أوتى من حكمة ولما كان يتمتع به من خبرة في شراء المؤن ، سواء كان يشترى بالنقد أو بالنسيئة ، فانه كان دائما واعيا يقظا في عقد صفقته بحيث يعود دائما رابحا . فيا أيها الناس ألا ترون أنها نعمة من الله

أن يستطيع ذكاء هذا الرجل الجاهل أن يدخل فى منافسة مع حكمة جمع من العلماء ، لقد كانت وظيفته أن يخدم ثلاثين من السادة القانونيين ، من أكثر الناس خبرة ، وعلما بأمور القانون ، ومن بينهم فى تلك الكلية على الأقل أثنا عشر جديرون بأن يكونوا وكلاء للادارة لأى من السادة الأشراف فى كل أنحاء انجلترا ، وقادرون على أن يجعلوهم يعيشون فى حدود دخلهم دون أن يتورطوا فى الديون وبأسلوب مشرف ، الا اذا كانوا حقا ممن أصابتهم لوثة جنون ، كما كان فى وسعهم أن يجعلوهم يعيشون حياة اقتصادية كما يريدون · وكان فى استطاعتهم أيضا أن يقدموا خدماتهم لمقاطعة بأكملها فى أى عدد من القضايا ، تثار أمام محاكمها · ومع كل ذلك كان فى وسع هذا المتعهد أن يضحك عليهم جميعـــا ·

وكان ناظر الضيعة رجلا نحيفا كثير الغضب ، لحيته حليقة حتى الجذر وناعمة الى أقصى حد ممكن وكان الشعر حول أذنيه حليقا أيضـــا ، أما ناصيته فكانت قصيرة الشعر على نحو ما يفعل القسس · وكانت ساقاه طويلتين جدا وهزيلتين ، كأنهما عصوان الى حد أنك لا ترى فيهما دبلة الساق(٤١) ، وكان خبيرا بالاشراف على الهرى (مخازن الحبوب) وعلى مخزن الفحم ، ولم يكن فى وسع أى مراجع حسابات أن يجد خطأ فى سجلاته ، وكان قادرا على التنبؤ بدقة بنتاج حبوبه وغلته بملاحظة أيام الجفاف وأيام الأمطار ، وكان تحت اشراف هذا الناظر أغنام سيده وأنعامه ومعمل ألبانه وخنازيره وجياده وماشيته ودجاجه ، وكان من صميم عمله الذى نص عليه فى عقده أن يقدم الحسابات لسيده كل سنة · ودرج على ذلك منذ أن كان سيده فى العشرين من عمره ، وكان دائمـــا يحصل ريع سيده فى موعده ، ولم يستطع أن يخدعه أحد فى ذلك ، ولم يفلت أحد من نوابه ولا من المشرفين على المواشى ولا من الخدم فى المزرعة من كشـــف أساليبه فى الخداع ، وكان كل من يعمل تحت اشرافه يخشاه خشيته للموت ، وكان له مسكن جميل فوق ربوة ظليلة ، تكتنفها الأشجار الخضراء · وكان خبيرا فى الافتاء أكثر من سيده ، وكانت مخازنه الخاصة عامرة ، ويعرف كيف يسر سيده بلباقة ، فيعطى سيده من ثروته نفسها ، بل ويقرضه ما هو ملكه ، فيحمله على أن يشكره لذلك ، بل يعطيه معطفا وقلنسوة تقديرا لشهامته ، وكان فى شبابه قد تعلم صنعة مفيدة ، اذ كان نجارا ماهرا ، خبيرا بصنع عجل العربات · وكان هذا الناظر يمتطى الكب (جواد قوى قصير القوائم) ، وكان لونه رماديا أرقش ، ويدعى « سكوت » وكان الناظر يرتدى معطفا طويلا من الفراء ، ويحمل بجانبه سيفا يعلوه الصدأ · وهذا الناظر الذى أتكلم عنه من مقاطعة نورفك من ضواحى مدينة يسميها الناس بوادزويل ، وكان معطفه مشدودا الى وسطه ، على نحـــو ما يفعل الرهبان الجائلون · وكان هذا الناظر طوال رحلتنا يسير فى مؤخـرة ركبنـــا ·

وكان معنا فى ذلك المكان محضر محكمة كنسى ، وجهه محتقن بالدم شديد

الاحمرار كالنار على نحو ما يصور الملائكة الكروبيون(٤٢) ، وكان وجهه مليئـا بالدمامل ، وعيناه ضيقتين ، وكان شهوانيا مثل العصافير(٤٣) ، له جبين أجرب ولحية قليلة الشعر ، وكان الأطفال يفزعون عند رؤية وجهه ، ولم يكن هنـاك زئبق ولا رصاص أبيض ولا كبريت ولا بورق ولا أسبيداج ولا زيت دردى ولا مرهم يمكن أن يظهر وجهه من دماملة البيضاء ، أو من الأورام الناتئة من خده ، وكان مولعا بأكل الثوم والبصل والكرات أيضا · كما كان شغوفا بشراب النبيذ القوى الأحمر فى لون الدم ، وكان اذا شرب يتكلم بصوت عال ويصيح كالمجنون · واذا شرب كفايته من النبيذ لا يتكلم الا باللاتينية ، وكان قد حفظ جملتين أو ثلاثا من الجمل الاصطلاحية بهذه اللغة من قراءاته لنصوص القوانين ، ولا عجب فى ذلك فقد كان يسمع نصوص القوانين تتردد طوال النهار ، والمعروف أن أى طائر من قيق أو زرياب يستطيع أن يصيح باسم « وولتر » كأنه كبير الأحبار نفسه ، ولكن اذا حاول أحد أن يختبره فى غير هذه الجمل يتكشف جهله وتضيع فلسفته كلها ، وكان دائما يصيح باللاتينية « ما هو القانون فى هذا الشأن »(٤٤) · وكان أفاقا عظيم الشأن كريما ، لا يستطيع أحد أن يلتقى بمثيله فى جلسة الندماء ، وكان فى سبيل الحصول على ربع برميل من النبيذ يسمح لصديق له أن يستمتع بعشيقته اثنى عشر شهرا دون أن يجد فى ذلك غضاضة ، وكان قادرا على خداع الحمقى واستغلالهم ، واذا التقى بصديق يسعده ، يشير اليه ألا يخشى بحال من الأحوال قرار الحرمان الكنسى الذى كان ينطق به رئيس الشمامسة فى المحكمة الكنسية ، الا اذا كان ضمير الرجل مخبأ فى كيس نقوده ، فان عقابه فى نظره يكون فى هذا الكيس أيضا · وكان كثيرا ما يردد : « ان جحيم رئيس الشمامسة موجود فى كيس النقود » وكنت أعرف تماما أنه كذاب أشر فى هذا كذبا عظيما ، أو أن كل آثم يجب أن يخشى قرار الحرمان الكنسى خشية كبرى ، لأن هذا القرار يقتل النفس تماما ، كما يفقدها قرار الغفران ، وكان هذا المحضر على وعى تام بالنتائج للقرار الكنسى بوجوب السجن لعدم التوبة · وكان يسيطر على كل فتيات الأسقفية سيطرة تامة ، ويفعل بهن ما يشاء ، كما كان يعرف كيف يخفى أسرارهن، وكان مستشارا لهن فى كل شىء ، وكان يضـع فوق رأسـه اكليلا كبيرا من الزهور ، مثل الأكاليل التى توضع عادة فوق شارة حان الجعة وقد صنع لنفسه ترسا من الكعك ·

وكان يركب بجواره بائع وجيه لشهادات الغفران من دير رونسفال فى لندن(٤٥) ، وكان صديقا له ونديما ، وقد أتى توا من قصر البابا فى روما ، وكان يغنى بصوت عال « تعال ·· تعال يا حبيبى الى ·· » ، وكان المحضر يردد هذه الأغنية بصوته الجهير ، ولم يكن هناك فقير ينافسه فى الصوت الجهير ، وكان لبائع شهادات الغفران هذا شعر أصفر فى لون الشمع ، كان هـذا الشـعر ناعما يتدلى من رأسه لفيفة من الكتان ، وكانت ضفائره القليلة تتدلى فوق كتفيه ولكنها كانت خفيفة ، وبعضها بعيد عن البعض الآخر ، وكأنها خرق من الشعر ،

ومع ذلك فان خفة روحه أملت عليه الا يرتدى قلنسوة ، فطواها فى كيسه ، وكان يعن له أن يمتطى جياده ، وفق آخر صيحة فى أساليب الأناقة الحديثة ، وكان شعره كله أشعث ، ولا يرتدى شيئا سوى قبعة ، وكانت عيناه منتفختين ، كأنهما عينا أرنب برى(٤٦) ٠

وكان قد خاط فوق قبعته صورة لوجه المسيح (٤٧) ٠ وكان كيسه يتدلى أمامه فوق حجره مترعا بشهادات الغفران الآتية توا من روما ٠ وكان له صوت رفيع كصوت الماعز ، وكان له وجه أجرد ، ولم تكن فيه لحية قط ، فذقنه ملساء كأنها محلوقة توا ، وأعتقد ، وصدقونى فى ذلك أنه كان حصانا أو فرسا ، ويلاحظ أنه لم يكن له نظير فى بيع شهادات الغفران من مدينة برك فى أقصى الشمال حتى مدينة وير فى الجنوب(٤٨) ، وكان فى حقيبته كيس وسادة يقول انه قطعة من خمار السيدة العذراء ٠ وقال أيضا انه كان لديه خرقة من قلع زورق بطرس الرسول ، عندما حاول أن يمشى فوق الماء ، حتى رفعه يسوع المسيح، وكان لديه أيضا صليب من النحاس الأصفر ، مرصع بالأحجار الكريمة ، كما كان لديه أيضا فى زجاجة بعض عظام الخنزير ، بصفتها آثارا مقدسة ، وكان يستغل هذه الآثار فى ابتزاز المال من أى شخص فقير يقطن فى الريف ، حتى يستطيع أن يأخذ منه أكثر مما يكتسبه هذا المسكين فى شهرين اثنين ٠ وهكذا كان فى وسعه عن طريق الرياء والخداع أن يضحك عليه ، وأن يجعل من الناس جميعا قرودا يداعبها ، ومع ذلك فانه كان ، والحق يقال ، رجلا محترما من رجال الكنيسة ، قادرا على أن يقرأ فصلا من الكتاب المقدس أثناء القداس أو قصة من قصص الأولياء ، ولكن خير ما كان يفعله هو الترتيل أثناء القيام بطقوس صلاة التقدمة فى القداس وكان يعلم جيدا ، وهو يرتل أنه سيلقى بعد ذلك موعظة ، فعليه اذن أن يكون ذرب اللسان ، حتى يقتنى به الفضة بعد ذلك ، وكان فى هذا قديرا حقا ، مما جعله يرفع صوته فى الترتيل والانشاد البهيج ٠

وها أنذا قد حكيت لكم فى جمل قصيرة أحوال هؤلاء الرفاق ، ومنزلة كل منهم وأرديتهم وعددهم ، وأيضا السبب الذى جمع بينهم ، فى سذك بهذه الحال التى تسمى « التبرد » (السترة القصيرة) ، وهى قريبة من حان « الناقوس » ٠ وقد حان الوقت لكى أقص عليكم ، كيف كان سلوكنا فى تلك الليلة ، التى وصلنا فيها الى الحان ، وبعد ذلك سأقص عليكم ما حدث فى رحلتنا ، وكل ما تبقى من مسيرة حجنا ٠

وبادىء ذى بدء التمس من كرمكم ألا تعتبروا من قبيل سوء الأدب حديثى عن هذا الأمر بوضوح وبساطة راويا لكم ما قالوه من كلمات وكيف كان سلوكهم ، وان كنت لا أستطيع أن أعيد ما قالوه حرفيا ، فأنتم تعلمون مثلما أعلم أن كل من يريد أن يقص قصة نقلا عن شخص آخر عليه أن يكرر كلمات هذا الشخص بأمانة تامة ، وعليه أن ينقل كل كلمة قالها ، مهما بلغت من الغلظة أو الفظاظة ،

والا اضطر أن يروى قصة كاذبة أو يخترع الكلام ، وعليه ألا يخفف من وقع الكلمة، حتى لو كانت تتعلق بأخيه ، فاذا روى عن غيره ، فانه يجدر به أن ينقل الكلام كما هو بدلا من كلام آخر • فالمسيح نفسه تكلم بوضوح وبساطة فى الكتاب المقدس ، وأنتم تعلمون جيدا ألا غضاضة فى ذلك ، وأفلاطون نفسه يقول : (اذا استطاع أحد أن يقرأه) : « يجب أن تكون الكلمة بنت عم العمل »(٤٩) ، لذلك أرجو أن تغفروا لى أننى لم أضع كل واحد من هؤلاء الحجاج فى موضعه بالسلم الاجتماعى ، على النحو الواجب فى هذه المناسبة ، فذكائى قاصر كما يبدو لكم ، وقد رحب صاحب الحان بكل منا خير ترحيب ، وقدم لكل منا طعام العشاء، كما قدم خير ما لذ وطاب من ألوان الطعام ، وكان النبيذ قويا ، وكم سررنا بشربه •

ويلاحظ أن مضيفنا صاحب الحان كان رجلا وسيما ملفتا بمظهره للأنظار ، جديرا بأن يكون مهمندار قصر من قصور كبار الأشراف ، وكان رجلا ضخم البنية عيناه لامعتان ، ولم يكن هناك أحد من الأعيان أكثر منه وسامة فى حى تشيب بلندن(٥٠) ، وكان جريئا فى كلامه حكيما فى قوله مثقفا لا ينقصه شىء قطُ من الرجولة • وكان ، بالاضافة الى ذلك ، رجلا مرحا ، فأخذ يتبادل الدعابة بعد العشاء ، ويتكلم عن أمور مرحة مسلية ، بعد أن سددنا الحساب • فقال لنا : « والآن أيها السادة أقول لكم من صميم قلبى انى أرحب بكم خير ترحيب وأقسم لكم ، وقولى هذا هو الحق ، أنى لم أر فى هذا العام حتى الآن مثل هذه الرفقة المرحة مجتمعة فى آن واحد بهذا الحان ، لذلك أريد أن أقدم لكم أسباب التسلية والمرح ، وأنا أعلم جيدا كيف أقوم بذلك وقد خطر ببالى الآن نوع من أنواع المرح يسليكم خير تسلية ، ولا يتكلفكم شيئا • فأنتم ذاهبون الى كانتربرى « أسأل الله أن يرعاكم فى سفركم وأن يجازيكم الشهيد الولى على نواياكم الطيبة ، وانى لأعلم جيدا أنكم أثناء الطريق تنوون تبادل النوادر المسلية والقصص المرحة • والحق أنه ليس هناك ما يدعو الى السعادة فى أن يلوذ الركاب أثناء السفر بالصمت ، كأنهم أحجار صماء ، ولذلك سأقدم لكم لونا من التسلية كما قلت لكل من قبل ، قد يوفر لكل شيئا من السلوى وراحة النفس • واذا جاز اقتراحى هذا رضاكم بالاجماع ، وقبلتم الأخذ برأيى ، وفعلتم ما أقول لكم ، فانكم ستكونون غدا ، عندما تركبون فى الطريق ، فى منتهى السعادة والمرح ، وأقسم لكم على ذلك بروح أبى المرحوم ، وان لم يحدث ذلك اقطعوا رأسى ، وان وافقتم فارفعوا أيديكم لا تقولوا كلمة أخرى » •

ولم نتوان عن ابداء رأينا ، ولم نر فى الأخذ والرد فائدة ولا حكمة ، لذلك سلمنا برأيه دون جدال وتركناه ينطق بحكمه كما يشاء ، فقال : « أيها السادة انصتوا الى الكلام المفيد ، وأرجو ألا تحتقروا ما سوف أقوله لكم ، واليكم ما أقصده بما قل ودل ووضح من الكلام • على كل واحد منكم ، لكى يجعل الطريق يبدو قصيرا أن يروى قصتين أثناء الرحلة ، وأقصد أن أقول قصتين فى الطريق

الى كانتربرى ، وقصتين أخريين فى طريق العودة(٥١) ، وأن تتناول هـذه القصص حوادث وقعت فى الماضى ، ومن استطاع منكم أن يأتى بخير قصة ، وأعنى بذلك من يستطيع أن يجمع فى قصته بين المغزى الأسمى والتسلية العظمى ، فجزاؤه أن يتناول عشاءه على نفقتى الخاصة هنا فى هذا المكان وجالسا بجوار هذا العمود ، بعد عودتنا من كانتربرى ، وحتى أضفى على روحكم مزيدا من المرح يسعدنى أن أركب معكم فى الطريق ، على نفقتى الخاصة ، وسأكون لكم دليلا ، واذا كان هناك من يعرض على حكمى فجزاؤه أن يدفع كل نفقـات الطـريق اذا اسلمتم برأيى فانبئونى حالا ، دون أن تقولوا كلمة أخرى ، وحينئذ أتأهب للسفر من الآن » ٠

وسلم الجميع بهذا الرأى ، وأقسم كل منا بقلب منشرح أن يرضى بحكم مضيفنا ، بل اننا توسلنا اليه أن يعدنا بالتمسك برأيه ، وأن يكون بمثـابة رئيس لنا وحكم ومقرر للقصص التى نرويها ، وأن يحدد ثمن العشاء الذى يعتبر جزاء لأحسن الرواة ٠ كما قلنا اننا سنحتكم اليه فى أسمى الأمور وأتفهها ٠ وهكذا ، ونحن متفقون ، سلمنا كلنا لرئيسنا ٠ وعندئذ أحضر النبيذ واحتسيناه ، ثم أوى كل منا الى مخدعه بدون توان ٠ وفى الصباح التالى ، عند ما انبلج أول ضوء للشمس ، نهض مضيفنا ، وكان لنا جميعا بمثابة الديك الصائح ، وجمعنا كلنا فى زمرة واحدة وركبنا ، وخرجنا بسرعة أكبر بقليل من الرهو ، حتى وصلنا الى جدول القديس توما (٥٣) ، وهناك قال مضيفنا بعد أن أوقف جواده : « أيها السادة ، انصتوا الى ، اذا أحببتم ، فأنتم تعلمون جيدا ما وعدتمونى به ، وقد سجلت ذلك عليكم ٠ فاذا اتفقت أغنية الصباح مع أغنية الليلة الماضية(٥٣) فدعونا نرى من يكون البادىء بالقصص ، وأقسم أننى لن أحتسى نبيذا أو جعة بعد اليوم ، ان لم أقرر أن من يعترض على حكمى سوف يدفع جميع نفقات الطريق ٠ تعالوا اذن نقترع ، قبل أن نسير قدما فى الطريق ، ان من ينزع أقصر قشة من هـذه الحزمة هو الذى سوف يبدأ » ٠ ثم واصل كلامه قائلا : « أيها الفارس ٠٠ سيدى وزعيمى ! انزع أول قشة ، فهذا هو ما أريد » ٠ ثم قال : (اقتربوا ، تعالى يا سيدتى رئيسة دير الراهبات ، وأنت يا سيدى العالم ، هلا تخليت عن حيائك وخجلك ، وتركت الأحلام والتأمل ، فليأت كل واحد منكم ويقترع » ٠

وعند ذلك أقبل كل واحد منا يقترع ، حتى أقص عليكم ما حدث باختصار ، أقول لكم ان الحقيقة هى أن القرعة كانت من نصيب الفارس نفسه ، سـواء أكان ذلك بمحض الصدفة أم تدبير القضاء والقدر ٠ وقد سر الجميع بهذا الأمر ، وأصبح لزاما عليه أن يقص قصته ، كما يقضى بذلك الاتفاق ، وحسب وعده كما سمعتم ٠ ولماذا أقول أكثر من هذا ؟ ان هذا الرجل الطيب رأى كيف تم الأمر ، ولـما كان حكيما مطيعا ، يريد أن يحافظ على وعـده بمحض ارادته ، فانه بدأ

الكلام على النحو الآتى : .. « مادمت أنا الذى سيبدأ هذه الحلقة فانى أعلن والله أنى أرحب بما أسفرت عنه القرعة ، فهيا بنا نركب ، وانصتوا الى ما سأقوله لـــكم » .

وبهذا الكلام واصلنا الرحيل ، وبدأ هو يروى قصته بنبرات مرحة على النحو الآتى :

هوامش

(١) الاشارة الى أن الشمس « فتية » تدل على أن فصل السنة هو الربيع لأن الشمس تدخل برج الجدى فى ١٢ مارس · وقد اتفق الشراح على أن الانتهاء من نصف المسار يدل على أن التاريخ الذى بدأت فيه هذه الرحلة ١٨ أبريل تقريبا ·

(٢) حيث يوجد قبر القديس توماس آبيكيت (Thomas à Bocket) كبير أساقفة كانتربرى فى القرن الثانى عشر الذى أغتيل أمام الهيكل أثناء الصلاة بفعل فرسان الملك هنرى الثانى يوم ٢٩ من ديسمبر سنة ١١٧٠ ، واعتبرته الكنيسة قديسا سنة ١١٧٣ ·

(٣) كان يوجد بالفعل خان يحمل هذا الاسم فى أواخر القرن الرابع عشر أى فى حياة تشوسر · والكلمة الانجليزية القديمة للرداء الفضفاض « تابارد » (Tabard) أما « سذرك » (Southwar) فتطلق الآن على حى فى مدينة لندن ·

(٤) وصف الفارس يدل (فى رأى غالبية الشراح) على أن تشوسر كان يريد أن يبرز صفاته الطيبة بل أن يعطى صورة مثالية لفضائله بوصفه مثالا للمروءة فى العصور الوسطى · ولكن هناك اتجاه حديث يرى أن الفارس المذكور لا يخرج عن كونه أحد الجنود المرتزقة الذين كانوا يعرضون خدماتهم على أمراء أوربا بل وعلى أمراء العرب فى أفريقيا والشرق الأوسط بعد انتهاء الحروب الصليبية وبعد ظهور أزمة حادة فى المهنة العسكرية وفى زيادة العرض على الطلب فى سوق الخدمة العسكرية · ومع ذلك فالموضوع لا يزال قيد البحث لدى الشراح والمؤرخين ·

(٥) هناك بعض اللبس فى المقصود من كلمة « مليكة » · فهناك من قال ان المقصود «المسيح» اشارة الى الحروب الصليبية ، وهناك من قال ان المقصود هو الأمير أو الملك فى النظام السلمى الاقطاعى ، وهناك رأى ثالث بأن المقصود أى أمير أو حتى رئيس عصابة يستأجر خدمات هذا الفارس المحترف ·

(٦) ان المعارك المشار اليها فى الأبيات القادمة تدل على أنه قد شارك فى حروب الأمراء المسيحيين ضد الأمراء المسلمين فى الشرق الأوسط وفى غيره ·· فحصار الاسكندرية حدث سنة ١٣٦٥ ، وفتح أضاليا كان فى سنة ١٣٦١ وكانت ميناء على الساحل التركى · أما آياس ففتحت سنة ١٣٦٧ ، وهى أهم ميناء فى مملكة أرمينيا · وكانت هذه المدن كلها تحت حكم سلطان تركيا · ولكنه يجب أن يلاحظ أن الحروب بين جيوش السلطان والجيوش الآتية من أوربا لم تكن دائما على نمط واحد من العداء بين المسيحيين والمسلمين فكثيرا ما كان الأمراء المسلمون يتحالفون مع الأمراء المسيحيين مؤقتا للقضاء على أعدائهم وكثيرا ما كان يحدث العكس أيضا · فمعركة « بلاط » مثلا لم تكن بين مسيحيين ومسلمين بالضبط وانما كانت بين أميرين مسلمين تحالف بعض الفرسان المسيحيين مع أحدهما ·

ويلاحظ أن كلمة « الكفار » كان يستعملها تشوسر كناية عن الأتراك المسلمين مثله فى ذلك مثل غالبية الكتاب والشعراء الأوربيين فى العصور الوسطى · وكان العكس أيضا صحيحا · أما المعارك التى أشار اليها الشاعر فى شمال افريقية فكانت تدور أغلبها حوالى سنة ١٣٤٤ الا أنه

يلاحظ أن الفرسان الأوربيين والأمراء والملوك العرب فى هذه المناطق كثيرا ما كانوا يتحولون من حلفاء الى أعداء ثم الى حلفاء من جديد . والعنصر الغالب فى هذه الحروب كان البحث عن المغامرة والغنيمة والفدية خاصة فى أوائل القرن الرابع عشر بعد أن أصبحت حركة الجندية والفروسية غير مرغوب فيها كثيرا فى مدن وأقطار أوربا بعد الأزمة الاقتصادية التى حدثت بعد الحروب الصليبية .

أما المعارك التى خاضها فى شمالى شرق أوربا وعلى حدود الأقطار الروسية فأغلب الظن أنه قد اشترك فى ذلك كعضو فى جماعة « الفرسان التيوتونيين » . وكانت الفرسان فى ذلك الوقت تتميز بالجمع بين المثالية السامية أحيانا والبحث عن المال والمغامرة أحيانا أخرى . ويلاحظ أن أهل لثوانيا قد اعتنقوا المسيحية فى سنة ١٣٨٦ م الأمر الذى دفع بعض الشراح الى القول ان الفارس هنا قد عاد بعد ذلك التاريخ الى انجلترا ليشترك فى رحلة الحج الى مزار القديس توما .

(٧) ان وصف هذا الشاب يوحى بوصف المحب بقصص « الحب الرفيع » فى العصور الوسطى . وهناك وجه شبه بين هذا النوع من الحب الذى ازدهر فى الشعر وفى القصص وبين الهوى العذرى عند العرب . ولابد أن يكون تشوسر قد نسج على منوال وصف المحب فى القصة الشعرية المشهورة وقتئذ أى«رواية الوردة» **Roman de la Rose** التى كتبت أصلا بالفرنسية وترجم بعضها تشوسر . وقد بدأ الشاعر الفرنسى جيوم دى لوريس **Gaillaume de Lorris** كتابة هذه الرواية الشعرية حوالى سنة ١٢٤٠م بأسلوب رمزى واضح حيث يبحث المحب المثالى عن حبيبته المثلى المرموز لها بوردة فى حديقة منيعة . فيعترض طريقه فى البحث عن الوردة عدد كبير من التجسيدات للصفات البشرية وللأحوال النفسية للانسان مثل السماحة والغدر والعقل والخجل والرياء والغيرة الى غير ذلك مما يخالج نفس المحب . (انظر المقدمة العامة للمزيد من الشرح «للحب الرفيع» و «لرواية الوردة» .

(٨) كان لفظ «الخولى» **(Yeoman)** لقبا يطلق على تابع للفارس يقوم بخدمات مماثلة لتلك التى يقوم بها ابن الفارس وحامل درعه . ويلاحظ أن وظيفة الخولى كانت تتنوع حسب الظروف : فقد يكون مجرد تابع يشرف على المواشى والخيل وصيانة عدة الحرب والأسلحة وقد تتحول وظيفته أثناء الحروب الى جندى نشاب أو قواس ويبدو أن الوظيفة الحربية هى التى كان يريد الشاعر أن يشير اليها . أما صورة القديس كريستوفر التى كان يحملها على صدره فهى دليل على أنه كان يعمل حراجيا أيضا لأن القديس المذكور كان راعى الحراج فى ذلك الوقت الا أنه أصبح فيما بعد قديسا راعيا للمسافرين فى الأرياف عامة ونسبت اليه أيضا القدرة على حماية حامل صورته من سوء الحظ والموت الرهيب .

(٩) لا شك أن تشوسر كان يمزج المدح والذم بأسلوب رقيق جدا فى وصفه للراهبة رئيسة الدير على أنه لم يسمح أن يصل لذعه الى حد النقد اللاذع ، فهو يبين أنوثة الراهبة التى لم تختف رغم دخولها الدير وتطلعاتها الاجتماعية البريئة ممثلة فى تكلفها أثناء التحدث بالفرنسية ، وهى لغة البلاط والأرستقراطية عامة ، فى حين أنها لم تتعلم هذه اللغة من أصحابها وانما تعلمتها فى دير انجليزى بمدينة ستراتفورد أتيبو **(Stratford atte Bowe)** حيث كانت اللغة الشائعة هى اللهجة النورماندية . ويلاحظ أيضا أن وصفها بالأدب الجم دليل على أسلوب الشاعر الساخر فى وصف راهبة كان المفروض أنها قد تركت مغريات الحياة الدنيا خلفها عندما دخلت الدير . زد على ذلك أن عطفها المفرط على الحيوان لا يتفق مع ما كان ينتظر منها من العطف على المعاناة البشرية . وأن اهتمام الشاعر بمظهرها الخارجى يتنافى مع التقشف والحشمة المنتظرين فى مثل هذه الراهبة . فكان من المتوقع ألا يظهر جبينها قط من تحت الطرحة . وأخيرا هناك لبس واضح فى عبارة «المحبة تغلب كل شىء» المنقوشة على دبوسها ، اذ أن العبارة اللاتينية مأخوذة بالفعل من أصل دنيوى بحت هو القصيدة الرعوية العاشرة لفرجيل .

(١٠) أثار هؤلاء القساوسة مناقشات كثيرة لدى الشراح . فاذا أخذ بالرأى أن الحجاج عددهم

٢٩ كما هو مذكور فى البيت رقم ٢٤ لا يمكن قبول « ثلاثة من القساوسة » الا اذا زاد مجموع الحجاج الى ٣١ وأغلب الظن أن هذا البيت اضافه أحد النساخ لأنهم لا يذكرون بعد هذه المناسبة .

(١١) وصف الراهب فيه سخرية بينة خاصة فيما يتعلق بالأنشطة المختلفة التى تبعده عن التعبد والزهد .

(١٢) كان القديس بندكتوس (Benedictus) مؤسس الرهبنة فى غرب أوربا بانى أول دير يلتزم بالقواعد التى وضعها للرهبان فى ايطاليا عى قمة تل اسمه « مونتى كاسينو » (Mo nte Cassino) سنة ٥٢٩م . وكان القديس ماوروس (Maurus) تلميذا له .

(١٣) هذه الآية مشكوك فى أصلها ويبدو أنها مأخوذة من كتاب الصلوات المنسوب الى القديس أرمية .

(١٤) هو قديس جزائرى عاش من سنة ٣٤٥ الى ٤٣٠م ـ كان أسقفا لمدينة « هيبو » (عنابة حديثا) وأهم مؤلفاته « كتاب فى مدينة الله » الذى دافع فيه عن النظرية المسيحية فى أحوال الدنيا ، و « الاعترافات » وهى سيرة ذاتية تتميز بالصراحة والروحانية . ولكن رأى أغسطنوس فى الرهبانية جاء فى مصدر آخر هو رسالة طويلة مسماة فى « عمل الرهبان » وموجهة لأورليوس أسقف قرطاجة .

(١٥) الراهب الجوال ـ أو « الأخ » كما يسمى أحيانا ـ يتميز عن الراهب العادى فى أنه لا يشترط أى يعيش فى دير بل يجول فى كل أنحاء البلاد معتمدا على السؤال كمورد للعيش مختلطا بالناس . وكان هؤلاء الرهبان الجوالون ينقسمون الى طرق أربعة هى الدومينيكان ، والفرنسسكان ، والكراملة ، والأغسطينيون . ويلاحظ أنه فى كثير من الأحوال كانوا يؤدون خدمات قيمة للمجتمع بعلمهم ومهاراتهم المختلفة فى مجتمع العصور الوسطى الذى تميز بالجهل والفقر والمرض . فكانوا معلمين وأطباء وكتابا وقائمين عامة بكل ما يحتاج اليه المجتمع من خدمات روحية ومادية فى آن واحد . الا أنه يلاحظ أن مغريات الحياة الحرة فى المجتمع كانت تفسد أخلاق هؤلاء الرهبان فيستغلون أحيانا الفرص المختلفة للنهب والفسق وما الى ذلك .

(١٦) من الواضح جدا أن تشوسر كان يعتمد على كتب الفراسة فى وصف شخصياته ولابد أن يكون قراؤه أو مستمعوه يفهمون فهما جيدا ما يفهم من مثل هذه الأوصاف . فكان من المعروف فى ذلك الوقت أن الرقبة البيضاء والتلعثم دليلان على الفسق .

(١٧) كان الناس فى ذلك الوقت فى أغلب قرى أوربا ينسبون قدرة شبه سحرية الى تلاوة بعض الآيات من الانجيل . وقد اشتهرت الأولى من انجيل يوحنا بمثل هذه القدرة . ومثل ذلك موجود فى أديان أخرى كثيرة .

(١٨) أورول (Orwell) ميناء فى شرق انجلترا كانت تصدر منه الأصواف الى ميناء ميدلبرخ (Middelburg) ى الأراضى المنخفضة . وكان الصوف والجلود من أهم صادرات انجلترا فى العصور الوسطى وتسويقها كان يتم فى ميناء ميدلبرخ .

(١٩) كان القديس جوليانوس (Julianus) راعيا للكرم ، وهناك شك فى أنه عاش بالفعل فى القرن الثالث الميلادى . وهناك احتمال أنه مات سنة ٣١٣م .

(٢٠) تمييزا لها عن الطبليات التى كانت عادة توضع على مساند مؤقتة أثناء الطعام ثم ترفع بعده .

(٢١) هذا لقب ووظيفة يقابلان النائب المنتخب فى مجلس نيابى .

(٢٢) ميناء دارتموث (Dartmouth) المذكورة بالذات هنا اتخذها كثير من الشراح دليلا على أن

الشاعر كان يقصد بحارا معينا بالذات عاش بالفعل فى هذه المدينة وقام فعلا بأكثر ما قام به هذا البحار ، وأنه كان يدعى (Peter Risshenden) • ولكن الأدلة على ذلك ليست قاطعة • والتهمة المقنعة الموجهة له أنه كان يسرق النبيذ لنفسه أثناء حمله من بردوه Bordeaux فى غرب فرنسا الى موانى انجلترا • ويلاحظ أن تجارة النبيذ الأحمر من بردوه كانت من أهم الأنشطة التجارية طوال التاريخ الانجليزى ، وأغلب النبيذ الذى كان يحتسى فى انجلترا كان يأتى من هذا الميناء حيث استوطنت شركات من التجار الانجليز للاشراف على تصدير النبيذ الى بلادهم •

(٢٣) هل (Hull) فى انجلترا و « قرطاجة » فى اسبانيا حيث تحول اسم المدينة الى « قرطاجنة » (Cartagena) وليس المقصود « قرطاج » فى تونس •

(٢٤) جتلند : هناك لبس فيما اذا كان المقصود جزيرة جتلند (Gotland) فى السويد أو شبه جزيرة جوتلند (Jutland) فى الدانمرك • ويحتمل أن الأول هو المقصود لأن عاصمة تلك الجزيرة المسماة Frisby كانت من أهم مراكز التجارة فى ذلك الوقت •

(٢٥) اقتران التنجيم بالطب كان من أهم مقومات الطب فى العصور الوسطى • أما الاشارة الى أسباب الأمراض فهى تدل على الاتصال الوثيق بين العلاج من خلال الأخلاط والأمزجة الأربعة فى الجسم الانسانى وصفات الأبراج والكواكب فكانت بعض الكواكب تتصف بالحرارة أو الرطوبة كما كان هناك اتصال وثيق بين هذه الكواكب والأخلاط فى الدم وبعض المعادن والعناصر الكيماوية المعروفة فى ذلك الوقت •

(٢٦) لم يكتب ايسكولابيوس كتابا فلم يكن طبيبا ولا عالما بل الها وربا للطب عند قدماء الاغريق • أما ديوسكوريدس (Dioscorides) عاش فى القرن الأول الميلادى فى عصر الامبراطور نيرون ، وكان طبيبا يونانيا ملحقا بالجيش الرومانى ، وقد ألف كتابا فى « المـواد الطبيـة » (Peri Hules Iatrikes) فى أجزاء خمسة حيث وصف ما يقرب من ٦٠٠ نبات وصفاتها الطبية ، واعتبر هذا المؤلف مرجعا فى العصور الوسطى الأوربية وعند العرب بالنسبة لعلم الصيدلة • أما روخوس الافيسى فكان عالما يونانيا عاش فى أوائل القرن الثانى الميلادى وكتب تعليقا باليونانية على أعمال هيبوقراط ، كما ألف كتابا فى التشريح • والمعروف عن هيبوقراط (Hippocrates) أنه أبو الطب ومثال للطبيب وصاحب القسم الهيبوقراطى الذى يلتزم به الأطباء حتى اليوم • وقد عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد وان لم تعرف له مؤلفات باقية وأبو الحسن على بن العباس مؤلف فارسى مشهور كتب فى علوم الطب ولقب « بالمجوسى » نسبة الى أصله عاش فى القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى ، وترجم كتابه فى الطب المسمى «كامل الصناعة فى الطب» أو «الكامل» الى اللاتينية تحت اسم « الكتاب الملكى » (Liber Regius) • وبقى هذا الكتاب مرجعا فى الطب فى العصور الوسطى حتى جاء قانون ابن سينا وطغى عليه • وجالينوس كان أشهر علماء الطب عند الغربيين وعند العرب ، وهو يونانى الأصل عمل فى اليونان وفى الدولة الرومانية ، وعاش من سنة ١٢٩م ، وأصبح طبيبا خاصا للامبراطور الرومانى ماركوس أوليوس (Marcus Aurelius) وألف فى كل علوم الطب المعروفة فى عصره •

أما ابن سرابيون فقد يقصد به مؤلف عربى أو أعجمى أو مصرى كتب كثيرا فى شئون الطب واتخذ اسما مستعارا هو « سهراب » وعرف بأسماء أخرى وقتل فى حلب عام ٥٨٧هـ/١١٩١م • ولعله ابن سرافيوم وهو يحيى يوحنا الذى توفى عام ٣١٨هـ/٩٣٠م ، وقد عالج خلفاء الدولة العباسية ووزراءهم فى بغداد • وله « الكناش الكبير » و « الكناش الصغير » بالسريانية وقد نقلا الى العربية ، وترجما الى اللاتينية وطبعا فى بازل فى سويسرا عام ٩٥٠هـ/١٥٤٢م أى بعد وفاة تشوسر بمدة طويلة • أما الرازى فهو أبو بكر محمد بن زكريا الرازى وهو فيلسوف وطبيب وصيدلى ورياضى وموسيقى فارسى ولد فى الرى بالقرب من طهران عام ٢٤٠هـ/٨٥٤م وتوفى بها

عام ٣١٣هـ/٩٢٥م • وأهم مؤلفاته الموسوعة الطبية الصيدلية « الحاوى » وابن سينا هو أبو على الحسين بن عبد الله الفيلسوف الطبيب الكيميائى الرياضى الشاعر والموسيقى الفارسى • ولد قرب بخارى عام ٣٧٠هـ/٩٨٠م وتوفى فى همدان عام ٤٨٢هـ/١٠٢٧م • ومن أشهر مؤلفاته فى الطب « كتاب القانون » • أما ابن رشد فهو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد • وهو فيلسوف وفلكى وطبيب أندلسى • ولد بقرطبة عام ٥١٩هـ/١١٢٥م وتوفى بمراكش عام ٥٩٥هـ/١١٩٨م • وكتابه الوحيد الذى انتقل الينا بأصله العربى هو « تهافت التهافت » ولكن بعض كتبه الأخرى انتقلت الينا من مترجماتها اللاتينية • ولعل المقصود هنا موسوعته الطبية المسماة « الكليات » التى نقد فيها كتابات ابن زهر وابن سينا وقد ترجمت الى اللاتينية فى عام ٦٥٣هـ/١١٢٥م • أما ابن ماسويه فهو زكريا يوحنا الدمشقى المترجم والطبيب الايرانى والسريانى والنسطورى الذى ولد فى جنديسابور بايران عام ١٦٣هـ/٧٧٧م • وتوفى فى بغداد فى عام ٢٤٣هـ/٢٥٧م ورسمه الرشيد رئيسا لبيت الحكمة • وأهم مؤلفاته فى الطب « كتاب التشريح » و « كتاب الجزام » • وقد كتب له تلميذه حنين بن اسحاق « النوادر الطبية » التى ترجمت الى اللاتينية • أما قسطنطين الافريقى فهو طبيب مسلم تونسى تعلم فى بغداد ثم تنصر ومات راهبا فى ايطاليا فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى • وكان من أوائل من نقلوا الى اللاتينية مؤلفات العرب الطبية وقد اقتبس كتابه المسمى Pantegni « الكامل » لأبى الحسن على بن العباس المجوسى مع اغفال مؤلفه الأصلى •

وكان برنارد جوردون (Bernard Gordon) عالما سكوتلانديا وأستاذا للطب فى جامعة مونبلييه (Montpellier) فى فرنسا فى أوائل القرن الرابع عشر وله كتاب مشهور باللاتينية اسمه « زهرة الزنبق فى الطب » (Lilium Medicinae) ظهر فى سنة ١٣٠٥م وفيه اهتمام واضح بالعلاقة بين التنجيم والطب • وجلبرت الانجليزى (Gilbertus Anglicus) الذى عاش فى منتصف القرن الثالث عشر قد يكون أول انجليزى ألف فى الطب ، وأشهر كتاب له « الجامع فى الطب » (Compendium Medicinae) فى سبعة أجزاء (وهو موحى الى حد بعيد من أعمال ابن رشد والرازى وابن سينا) • وجون جادزدين (John Gaddesden) عاش من سنة ١٢٨٠م تقريبا حتى سنة ١٣٦١ ، وله كتاب مشهور اسمه « وردة الطب »

(٢٧) قد اشتهر الأطباء فى العصور الوسطى بضعف العقيدة الدينية بل بالكفر أحيانا وذلك لاهتمامهم بالتنجيم وبالسيماء • زد على ذلك أنهم كانوا يعتمدون الى حد بعيد على كتابات العرب وقدماء الاغريق فى الطب وفى السحر •

(٢٨) هناك بطبيعة الحال سخرية واضحة فى ذكر الذهب • فالمعروف أن « الذهب السائل القابل للشرب » aura potabile كان عنصرا مهما فى الدواء عند علماء العصور الوسطى وذلك خاصة فى علاج أمراض القلب • بل ان علماء السيماء كانوا يحاولون منذ زمن بعيد كشف سر صنع مثل هذا الذهب السائل من عناصر مختلفة بحثا عن طريقة للاغتناء السريع الى جانب البحث عن دواء جديد •

(٢٩) كانت مدينتا « ابر » (Ypres) و « جان » Ghent مركزين مهمين فى العصور الوسطى لتجارة الصوف وتسويقه فى المقاطعات الفلمنكية بالأراضى المنخفضة • وقد شجع الملك ادورد الثالث ملك الانجليز عددا كبيرا من التجار الفلمنكيين على الهجرة الى انجلترا طوال القرن الرابع عشر للاستيطان بها ولتنشيط تجارة الصوف بها خاصة أن انتاج الصوف كان مركزا فى انجلترا •

(٣٠) الأصل فى القداس ألا يكون لأحد حق الأولوية فى العبادة ولكن هذا الغرض منه بيان كبرياء هذه المرأة •

(٣١) كانت العادة فى انجلترا فيما بين القرنين العاشر والسادس عشر أن يتم عقد القران عند بوابة الكنيسة ثم يدخل العروسان الكنيسة للاشتراك فى قداس خاص بزواجهما .

(٣٢) الغرض من الحج أصلا كان زيارة مزار مقدس متصل بقديس ما أو ـ فى حالة القدس ـ بالمسيح نفسه كما كانت أيضا التوبة عن خطيئة ما والتكفير عنها أو طلب الشفاء من مرض ما أو الشكر لله بشفاعة أحد قديسيه . وكانت أهم هذه المزارات للحجاج فى القارة الأوربية كنيسة القديس يعقوب الأكبر فى كومبوستلا (Compostella) بمقاطعة جاليقيا (Galicia) فى شمالى غرب اسبانيا (ولهذا القديس مكانة خاصة لدى الجيوش الكاثوليكية أثناء حروبها مع الدول الاسلامية فى الأندلس) . وكان هناك أيضا مزار فى كنيسة القديس بطرس فى روما (وهى الكنيسة الخاصة بالبابا الكاثوليكى) . وهناك أيضا مزار كنيسة المجوس من المشرق فى مدينة كولونيا بألمانيا . أما بولونى فاغلب الظن أن المقصود بها هنا مدينة بولونى فى شمال فرنسا (Boulogne-sur-mer) حيث توجد كنيسة احتفظ فيها بأيقونة قديمة للسيدة العذراء .

(٣٣) كان انفراج الأسنان فى كتب الفراسة القديمة يدل اما على حسن الظن فى السفر والمغامرة ، واما حسن الحظ فى العشق والحب عامة . كما كان أحيانا يعتبر دليلا على النهم والاقدام والعشق .

(٣٤) اشارة الى قصيدة الشاعر الرومانى (Ovid) فى هذا الموضوع المسماة « علاجات الحب وشفاؤه » (Remedia Amoris)

(٣٥) هى ضريبة العشر فى الكنيسة المسيحية بعبارة أدق . أما النطق بالحرمان الكنسى (أى الحرمان من الاشتراك فى القداس والأسرار القدسية) فلم يكن فى الواقع من اختصاص القسيس بل كان من اختصاص المطران أو الأسقف .

(٣٦) اشارة الى انجيل متى ٥ : ١٩ « فمن نقض احدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا يدعى أصغر فى ملكوت السموات . وأما من عمل وعلم فهذا يدعى عظيما فى ملكوت السموات » .

(٣٧) الدخل الذى يمكن أن ينظره القسيس فى مدينة كبرى مثل لندن كان أكبر بكثير من ذلك الذى يجده فى قريته الفقيرة ، كما أن الطوائف أو النقابات المهنية فى العصور الوسطى كانت تتفاخر بكرمها ورعايتها للقسس الذين يعملون تابعين لها .

(٣٨) اشارة الى انجيل يوحنا ١٠ : ١٢ « وأما الذى هو أجير وليس راعيا وليست الخراف له فيرى الذئب مقبلا ويترك الخراف ويهرب . فيخطف الذئب الخراف ويبددها » .

(٣٩) هناك اتصال وثيق جدا بين هذه الصفات والصفات التى كانت تذكر فى كتب الفراسة المعروفة فى العصور الوسطى وخاصة كتابا موسوعيا يشمل الفراسة اسمه « سر الأسرار » ، وقد ترجم الى أغلب اللغات الأوربية حينذاك كما ترجم الى العربية . فوصف الطحان يدل على أنه ثرثار ولا حياء عنده وكثير المشاجرة وفاسق .

(٤٠) اشارة الى المثل السائر حينذاك بأن « الطحان الأمين له ابهام ذهبى » كناية عن أن الطحان الأمين لا يمكن أن يوجد . وغرض الشاعر ساخر هنا مع أنه يرمى الى أن الطحان كان لديه كثير من الذهب .

(٤١) بالرغم من أن وصف ناظر الضيعة فيه ما يدل على الأوصاف المألوفة فى كتب الفراسة الا أن دقة الوصف هنا قد جعلت بعض الشراح يظنون أن هناك شخصا معينا كان يقصده الشاعر . ولكن الأمر لم يقض فيه حتى الآن . وأهم دليل على اتصاله بشخص معين هو ذكر مقاطعة

Norfolk ومدينـــة Bawdowell ، وهناك نظريات مختلفة خاصة بأشخاص معينين عاشوا فى هذه المدينة الصغيرة ٠

(٤٢) من مصطلحات فن التصوير فى العصور الوسطى تصوير الملائكة الكروبيين باللون الأحمر الصارخ وذلك كناية عن تعلقهم (تشبعهم) بالحب الالهى ٠ أما بقية وصفه فيدل على الجشع والفسق حسب كتب الفراسة ٠ زد على ذلك المرض الجلدى القريب من البرص الذى يغطى وجهه ٠ ويبدو أن المقصود هنا مرض اسمه « آلوبيكيا » (Alopicia)

(٤٣) يلاحظ أن العصفور كان دائما يعتبر شهوانيا وتابعا لالهة الحب فينوس منذ أقدم العصور ٠ ويظهر دائما العصفور بجوار فينوس فى التصويرات المختلفة رمزا للعشق والشهوة ٠ وحبه لأنواع الطعام الحريفة من الأوصاف التى ينص عليها علماء الفراسة فى الدلالة على الشهوة والمجـــون ٠

(٤٤) هذه الكلمات باللاتينية هى Questio Quid juris وهى العبارة اللاتينية الوحيدة التى يعرفها ويستعملها فى كل مناسبة عند الحاجة أو عدمها ٠

(٤٥) حتى المجمع الكنسى المنعقد فى مدينة « ترنت » (Trent) سنة ١٥٦٢م كانت الكنيسة تؤهل بعض القساوسة والعلمانيين لاعطاء شهادات الغفران الالهى ، لمن أبدى الدليل على تفكيره عن خطاياه بعد الاعتراف بها والقيام بالكفارات اللازمة لمثل هذه الخطايا ٠ وأصبحت هذه العملية بطبيعة الحال نوعا من الاستغلال غير المشروع لسذاجة العباد ٠ وكانت هذه البراءات تحمل خاتم البابا ٠ وكان المفروض أن يرد الى البابا ما جلب من أموال على يد بائعيها ، ولكن الحال فى كثير من الأحيان كانت على خلاف ذلك ٠ اذ كان البائع يزور البراءة ويبيعها ثم يحتفظ بثمنها ٠ وفى حالات نادرة كان هؤلاء البائعون الجوالون يقومون بخدمات كنسية مؤقتة فى القرى والمدن التى يمرون بها ٠ ولا شك أن أحد الدوافع الى ظهور الحركة البروتستانتية كان هذا العمل الاستغلالى المشين ٠ وكان كثير من هؤلاء البائعين ملحقين بدير السيدة العذراء من رونسيفال فى لندن الذى كان ملجأ للمكفوفين ومستشفى فى آن واحد حينذاك ٠ ويلاحظ أن هذا الدير لم يكن الا فرعا للدير الأصلى فى اسبانيا بمدينة رونسيفال ، وكثيرا ما كان يتردد عليه الحجاج أثناء رحلتهم الى مزار القديس يعقوب ٠ ومن الجدير بالذكر أن فضائح هذا الدير فى لندن أدت الى غلقه وتصفيته من قبل الملك سنة ١٣٧٩م ٠

(٤٦) ٦٨٤ كل هذه الأوصاف كانت مألوفة للغاية فى كتب الفراسة وتدل على اتصاف صاحبها بالفسق والمجون ٠

(٤٧) ٦٨٥ هذه نسخة مصغرة لصورة وجه المسيح التى ارتسمت على منديل أبيض قيل أن القديسة فيرونيكا (Veronica) قد أعطته للمسيح ليمسح به عرقه الممتزج بالدم وهو يسير فى طريقه حاملا الصليب فى الطريق الى مكان صلبه ٠ وكانت هذه الصورة توضع على القبعة تبركا ٠ ويلاحظ أن الأوصاف المختلفة الآتية بعد ذلك تدل عند علماء الفراسة على اللواط والشـــذوذ الجنسى ٠

(٤٨) برك (Berwick-on-Tweed) مدينة فى الشمال أما وير (Ware) فهى فى الجنوب ولكنها شمال لندن ٠ وقد يكون المقصود مدينة ويرهام (Wareham) فى مقاطعة دورست (Dorset) وأغلب الظن أن أسماء الأماكن هذه لم تذكر الا لضرورة الوزن وتكملة البيت ٠

(٤٩) محاورته المسماة تيمايوس (Timaeus) ٢٩ وأغلب الظن أن تشوسر لم يقرأ أفلاطون فى الأصل بل اقتبس هذا المثل من كتاب بويثيوس (Boethius) فى « سلوى الفلسفة » ٠

أو من «رواية الوردة» (البيت خ١٥٣٩)، Prosa 12, III (De Consolatione Philosophiae)
والمعروف أن تشوسر قد قام بترجمة أولهما وبترجمة جزء كبير من ثانيهما .

(٥٠) هو الآن Cheapside ، وهو من أهم شوارع قلب مدينة لندن .

(٥١) لم تتحقق هذه الأمنية بأن يحكى كل حاج أربع قصص بين الذهاب الى كنتربرى والعودة منهـــا .

(٥٢) وهو عند الميل الثانى فى طريقهم الى كنتربرى .

(٥٣) كناية عن عدم تغيير الرأى .

حكاية الفارس

هنا تبدأ حكاية الفارس(١)

« فى قديم الزمان ، كما تروى لنا قصص التاريخ القديمة ، كان هنـــاك دوق يدعى « ثيسيوس » ، وكان سيدا وحاكما لمدينة آثينا ٠ وكان هذا الدوق فى زمانه فاتحا عظيما ، لم يفقه أحد فى هذا المجال تحت الشمس ٠ وكم من منطقة غنية كسبها اذ أنه بفضل حكمته ، وفروسيته ، فتح كل مملكةالنساء ، التى كانت تسمى فى الماضى سكيذيا(٢) ، كما كان قد تزوج من ملكتها «هيبوليتا» وأحضرها معه الى وطنه فى موكب مجيد عظيم وأحاطها بكل مظـــاهر الاحترام والتبجيل ، وأحضر معها أيضا أختها الجميلة « اميلى » ، وهكذا دعونى أترك هذا الدوق النبيل(٣) يركب الى آثينا على رأس جيشه العظيم ، حاملا كل أسلحته ، ولا شك أنه لولا أنى أخشى أن أطيل عليكم فى سرد الرواية الى درجة الملل لقلت لكم كل ما يتعلق بكيفية فتح مملكة النساء على يد ثيسيوس وفرسانه ، ولحدثتكم عن المعركة الكبرى التى دارت بين الأثينيين والنساء المحاربات (الأمازون) وعن كيفية حصار هيبوليتا ملكة سكيذيا الفاتنة الباسلة ، وعن الوليمة التى أقيمت بمناسبة حفل عرسها ، وعن العاصفة التى هبت عنـــدما عادت مع زوجهـــا الى وطنه ٠

ولكن أرى لزاما على أن أكف عن رواية كل ذلك ، اذ أن أمامى حقلا كبيرا على أن أحرثه ، ويعلم الله أن الثورين اللذين يجران محراثى ضعيفان للغاية ، وبقية قصتى طويلة الى درجة كافية ٠ ولا أريد أن أؤخر أحدا عن السير فى طريقه فى هذه الرحلة ، فليرو كل منكم قصته ، ودعونا نرى من سيفوز بالعشاء ٠ وانى أستأنف الحديث حيث توقفت عنه ٠

ان هذا الدوق الذى حدثتكم عنه ، عندما أوشك أن يصل الى أبواب مدينته محاطا بكل مظاهر عظمته وسلطانه ، لاحظ ، وهو يلقى نظرة جانبية ، أن جماعة من السيدات راكعات فى وسط الطريق كل اثنتين وراء اثنتين ، وكن مرتديات ملابس سوداء ، ولكن أصواتهن كانت ترتفع ، وكن يجهشن بالبكاء الى حد أن أحدا فى الدنيا لم يسمع قط بمثل هذا النحيب وذلك البكاء ، ولم يتوقفن عن البكاء حتى قبض على لجام جواده • وقال « ثيسيوس متسائلا » • من أنتن يا من تعكرن بالبكاء جو فرحى بالعودة ؟ •• ثم قال •• هل تحقدن على لاحتفالى بما نلته من مجد ، وترفعن أصواتكن بالشكوى والبكاء ؟ أو من الذى ثلم شرفكن أو أساء اليكن ؟ قلن لى اذا كان هناك أحد قد ثلم شرفكن ، وقلن لى لماذا يلبسن مثل هذه الثياب السوداء ؟ •

فنهضت كبراهن سنا ، وأخذت تتكلم ثم أغمى عليها وشحب وجهها ، الأمر الذى أثار مزيدا من الأسى والعطف فى قلب كل من رآها ، وبعد قليل قالت •• « يا سيدى يا من وهبه الحظ النصر ومنحه الحق فى أن يعيش فاتحا عظيما • اننا لا نبكى حزنا على ما حققته من مجد وما نلته من شرف عظيم ، بل اننا نتوسل اليك أن تجود علينا بالمساعدة ونلتمس منك الرحمة • نرجوك أن تعطف على أسانا وترثى لحزنا •• دع قطرات من الشفقة تتساقط علينا نحن النساء البائسات لما نعهده فيك من كرم وما تتصف به من مروءة • انك يا سيدى ، والحق يقال لن تجد بيننا واحدة لم تكن فى يوم من الأيام زوجة دوق أو ملك • وها نحن أولا الآن أسيرات كما يتبين ذلك بجلاء • والفضل فى ذلك يرجع الى ربة الحظ وعجلتها الخداعة ، تلك العجلة التى لا تضمن الخير أو دوام الحال (٤) وفى الواقع ها نحن أولاء يا سيدى فى معهد آلهة الرأفة نترقب حضورك منذ أسبوعين • فساعدنا يا سيدى مادام ذلك فى مقدورك • أما أنا ، تلك البائسة التى تراها أمامك باكية منتحبة ، فقد كنت ذات يوم زوجة للملك كابانيوس الذى قتل فى طيبة (٥) • لعناتى على ذلك اليوم الذى قتل فيه ! ونحن كلنا كما ترانا قد تملكنا اليأس بعد أن فقدنا أزواجنا جميعا فى تلك المدينة ، أثناء حصارها والآن فى هذه الساعة (ويل لنا !) ينصب كريون العجوز حاكما مطلقا على مدينة طيبة • ان قلبه ملىء بالغضب والقسوة وقد أراد أن يعبر عن حقده ، ودفعه وظلمه الى أن يفعل المحظور بجثث أزواجنا وسادتنا الذين قتلوا ، فأمر بأن تكون كلها كوما واحدا ، ولم يسمح بأى حال من الأحوال أن تقام لها شعائر الدفن أو الحرق على المحرقة • بل تركها للكلاب تمزقها اربا اربا • « وما ان انتهت من الكلام حتى خررن كلهن ساجدات وبكين بكاء مثيرا للعطف والشفقة وصحن : « ارحمنا ، نحن البائسات ، ودع حزننا ينفذ الى قلبك » •

وعندئذ هبط هـــذا الدوق الكريم من فوق ظهر جواده وقد امتلأ قلبه بالعطف عندما سمع كلامهن ٠ وكاد قلبه أن يتمزق من الرأفة لما رأى النساء فى مثل هذه الحال من البؤس والأسى « تلك النساء اللاتى كن فى وقت ما ينعمن بالجاه والسلطان ورفعهن كلهن بذراعيه وواساهن بقلب كريم ، ثم أقســم بشرفه كفارس أن ينتقم لهن من كريون الحاكم الظالم حتى ترى كل شــعوب اليونان كيف عالج ثيسيوس أمر كريون وكيف نال هذا الكريون ما يستحقه من جزاء بازهاق روحه ٠ ونهض فى الحال دون أن يتريث لحظة أخرى ، ورفع لواءه ، وركب جواده وانطلق الى طيبة على رأس جيشــه ، وأبى أن يدنو من مدينته أثينا كما أبى أن يستريح نصف يوم فى الطريق بل تقدم الى طيبة منذ تلك الليلة ، بعد أن أرسل ملكته هيبوليتا فى رفقة أختها الصغرى اميلى الفاتنة لتمكثا فى مدينة أثينا ، وامتطى صهوة حصانه وسار قدما الى الأمام ٠ وليس هناك شىء آخر يروى فى هذا الأمر ، وكانت الصورة الحمراء للاله المريخ وهــو حامل حربته وترسه تتألق فى علمه الأبيض الكبير وتضىء كل الحقول والمروج فى كل الأنحاء ٠ كما كان درفس رمحه يلمع بما فيه من الذهب الخالص الذى نقشت به صورة المينوتور (وحش له رأس ثور وجسد انسان) الذى كان قتله فى جزيرة كريت ، وهكذا ركب الدوق ٠ هكذا ركب الفاتح وبين جيشه زهرة الفروسية حتى وصل الى طيبة فهبط من فوق ظهر جواده فى مرح حيث قرر أن يشن منه القتال ٠ ولنختصر الكلام فى هذا الأمر ٠ لقد بارز كريون ملك طيبة وصرعه فى قتال شريف ، كما يليق بالفارس فى معركة مفتوحة ، وهزم جيشه وأجبره على الفرار ٠ ثم هاجم المدينة وحطم أسوارها وفتحها ، وهدم الأسوار والسقوف والدعائم وأعاد الى السيدات عظام أزواجهن القتلى حتى تقمن شعائر الدفن حسبما يتراءى لهن ٠ وانه لحديث طويل ممل أن نســتطرد فى وصف صوت النحيب والبكاء الذى تصاعد من أفواه النساء ، وهن حاضرات أثناء حرق جثث أزواجهن وأن نتكلم عن تكريم الفاتح النبيل ثيسيوس للســيدات عندما نهضن للرحيل ، على أن قصدى هو الاختصار فى الكلام ٠

وعندما قام هذا الدوق الكريم ثيسيوس بقتل كريون وفتح مدينة طيبة مكث فى ميدان القتال وقضى به ليلته هادئا ، وفعل ما عن له بالمقاطعة كلها ٠ وكان لا هم للناهبين الا أن يفتشوا فى كوم الجثث الهامدة ليجردوها مما عليها من أردية وعتاد ، وكان ذلك يتم بعد انتهاء المعركة والحاق الهزيمة بالأعـداء وحدث أن وجد أحدهم فى الكوم فارسين شابين أحدهما بجوار الآخر ومصابين بجروح غائرة ، وكان الاثنان مزودين بنفس عتاد الحرب وبنفس الزرود ، وكان أحدهما يدعى أركيتى والآخر يدعى بالامون ٠ ولم يكونا فى حكم الأحياء ولا فى حكم الموتى وعرف رسل الملك عن زردهما ومن ترسيهما وشعاريهما أنهما من بيت ملكى طيبى ابنا أختين ٠ فحملهما الناهبون من بين كوم الجثث برفق الى خيمة ثيسيوس ، فأمر هذا الأخير بعـد قليـل بارسالهما الى أثينا حتى يبقيا

مسجونين طوال حياتهما بهذه المدينة ، ورفض أن تدفع لهما فدية • وبعد أن فعل الدوق الكريم ذلك تقدم جيشه ، وعاد به الى وطنه وعلى رأسه أكاليل الغار ، كما يجرى العرف بالنسبة للمنتصرين • وعاش فى وطنه وسط مظاهر البهجة والتبجيل حتى نهاية حياته • وما يعنى المزيد من الكلام فى هذا الأمر ؟ وكان بالامون وأخوه أركيتى يعيشان فى سجن أبدى بين الأسى والحزن فى برج منيع ، لا يمكن أن يفتديهما ذهب أو مال •

وهكذا مرت السنة تلو السنة واليوم وراء اليوم حتى حل يوم صباح فى شهر مايو ظهرت فيه اميلى وهى أجمل من زهرة الزنبق فوق عودها الأخضر ، وأكثر رشاقة من شهر مايو نفسه ، الذى تتفتح فيه براعم الزهور • وكان لون بشرتها يتنافس مع لون الورد ، ولست أدرى من منهما كان أجمل من الآخر •

وكانت قد اعتادت أن تنهض للقيام عند شروق الشمس وترتدى كل ملابسها • لأن شهر مايو لا يرضى قط بالكسل فى الليل • بل ان من صفات هذا الفصل (الربيع) أن يحرك كل قلب كريم ويوقظه من النوم قائلا •• « انهض وقم بواجبك ! » ولذلك تذكرت اميلى أن الوقت حان لتنهض من فراشها وتقدم التبجيل الى شهر مايو • أقول لكم اذن أنها كانت قد ارتدت ملابسها الجديدة وكان شعرها الأشقر قد عقص فى جديلة صغيرة وراء ظهرها ، بلغ طولها ياردة حسب اعتقادى • ولما أشرقت الشمس تريضت فى الحديقة ، وأخذت تقطف ما يحلو لها من الأزهار ، بعضها بيضاء وبعضها حمراء ، لتصنع منها اكليلا تضعه على رأسها ، وفى أثناء ذلك كانت تشدو بصوت عذب يذكرنا بشدو الملائكة فى السماء •

وكان البرج المنيع الكبير المتين وهو بمثابة السجن الرئيسى فى القلعة ملاصقا لسور الحديقة ، التى كانت تروح فيها اميلى عن نفسها • وكان الفارسان حبيسين فى هذا البرج ، كما قلت لكم من قبل ، وكما سأقص عليكم فيما بعد •

وكانت الشمس مشرقة والنهار جليا وكان بالامون ذلك السجين التعس قد نهض من فراشه باذن من سجانه ، وأخذ يتمشى كعادته فى حجرة علوية كان منها يستطيع أن يكشف المدينة العريقة بأسرها • كما كان يستطيع أن يرى الحديقة العامرة بالغصون الخضراء • نعم نفس الحديقة التى كانت اميلى الفاتنة تتربص فيها هنا وهناك وكان هذا الأسير البائس بالامون يتمشى فى الحجرة ذهابا وايابا ، يشكو قدره ، ويتمنى لو أنه لم يولد فى هذه الدنيا ويتنهد ويصيح « ياويلى ! » واتفق عندئذ أن نظر من خلال نافذة محصنة بكثير من القضبان الحديدية المربعة الضخمة ، فوقعت عيناه على اميلى فأخذ وصاح « آه ! » كأن سهما قد نفذ الى قلبه ، ولما سمع أركيتى هذه الصيحة قام مسرعا وقال •• « يا ابن خالتى ما بك ، لقد شحب وجهك •• لماذا تصيح ؟ من من الناس أهانك ؟ وأستحلفك بحق محبة الله (٦) آن تصبر على وجودك فى سجننا هذا ، فلا مفر

مما نحن فيه ، لأن ربة الحظ نفسها هي التي فرضت علينا هذا المصير الأليم ٠ وسوء الطالع لكوكبة الزحل (ساتور نوس) قد نكبتنا بما نشـــكو منه مهما أقسمنا ، وهذا ليس هو السبب فيما أصابنا ، والواقع أن السماء كانت فى ذلك الوضع المشئوم عندما ولدنا ، وعلينا اذن أن نتحمل ما حدث لنا وهـــذا هو خلاصة القول » ٠

فرد عليه بالامون قائلا : « يا ابن خالتى الحق أن رأيك فى هذا الأمر غريب مخطىء ، ليس السجن هو الذى جعلنى أصيح وانما شىء أصابنى من خلال عينى واخترق قلبى وهذه هى بليتى (٧) ٠ انه جمال تلك المرأة التى أراها هناك فى الحديقة تتربص هنا وهناك ٠ ان هذا الجمال هو الذى دفعنى الى اطلاق صيحتى وهو سبب تعاستى ٠ وأنا لا أدرى ما اذا كانت هذه هى امرأة أم الهة وان كنت أعتقد أنهـا فينوس الالهة بالحق ٠ وعندئذ ركع على الأرض وقال : « يا فينوس اذا كانت مشيئتك أن تتجسدى أمامى فى هذه الحديقة ٠٠ أمامى أنا ، ذلك المخلوق التعس فانى أتوسل اليك أن تساعدينا على الفرار ٠ ولكن اذا كان مصـيرنا المقدور بالكلمة الأبدية أن نموت هنا فى السـجن ، أرجو أن تشفقى على سلالتنا العريقة التى انحدرت الى مثل هذا الدرك ظلما وعدوانا » ٠

وبعد أن سمع أركيتى ذلك بدأ يرى تلك السيدة تتمشى هنا وهناك ٠ ولما رآها آلمته فتنتها الى حد أنه اذا كان جرح بالامون بليغا فان جرح أركيتى يماثل جرحه بل انـه يفوقه فيما يسـببه من ألم ٠ وتنهد قائلا بنبرات تثير الشفقة : « ان هذا الجمال الغض يكاد أن يقتلنى ، انه جمال تلك التى تتريض هناك ٠ واذا لم يقدر لى أن أفوز بلطفها ورحمتها وأراها مرة أخرى على الأقل ، فانى سوف أكون فى حكم الموتى ، وليس لدى ما أقوله أكثر من ذلك ؟ ٠٠ فلما سمع ذلك بالامون نظر اليه غاضبا وقال له : أتقول ذلك جادا أم هازلا ؟ » ٠

فقال أركيتى « لا انى أتكلم جادا وحق ايمانى ــ فلست فى مزاج يسمح لى بالمزاح والله على ما أقول شهيد » ٠

فقطب بالامون جبينه غضبا وقال « لا يليق بك ولا بشرفك أن تكون خائنا لى أنا ابن خالتك بل أخوك ، بعد أن أقسمنا أن تدوم بيننا الأخوة الى الأبد ، وأقسمنا أن يكون كل منا مخلصا للآخر ، حتى لو تعرضنا للتعذيب ولقينا حتفنا أثناءه ٠ لقد أقسمنا على الاخلاص المتبادل حتى يفرق بيننا الموت ، كما أقسمنا ألا يعرقل أحد منا الآخر فى حبه ولا فى أى شىء آخر أيها الأخ الحبيب ٠ وأقسمنا أيضا على أن أعمل كل ما في وسعى لأساعدك دائما ، وأن تعمل كل ما في وسعك لتساعدنى دائما ٠ والحق أن ذلك كان ما أقسمت عليه ، وهو أيضا ما قسمت عليه أنت ، وانى لا أعرف تماما أنك لن تجرؤ على انكاره ٠ ولا أشك فى أنك تشاركنى الرأى ٠ أما الآن فانى أراك تشرع شروعا خداعا فى جنب تلك السيدة التى أحبها أنا وأخدمها بكل ما فى قلبى من اخلاص ، بل تلك التى

سأكون لها خادما مطيعا حتى يتمزق قلبى . لا .. لا يا أركيتى الخداع لن تقوم بذلك العمل .

لقد أحببتها أولا قبلك وكاشفتك بسرى كمن يكاشف أمين سره أو أخاه الذى أقسم أن يساعدنى دائما كما قلت قبل ذلك . اذن فأنت ملتزم التزام الفرسان بأن تساعدنى قدر طاقتك ، وان لم تفعل تكن خائنا ، وهذا ما أقوله لك . فرد عليه أركيتى بكبرياء قائلا : « ان الخائن هو أنت ولست أنا .. وأنا أقول لك بوضوح تام انك أنت الكاذب المخادع قد عشقتها عشق الحبيب قبل أن تحبها أنت ، فماذا تقول ؟ انك لم تكن تعرف هل هى امرأة أو الهة لقد كنت تحب حب المرء للالهة المقدسين أما حبى أنا فهو حب المرء للمخلوقات ولذلك قصصت لك ما حدث لى بصفتك ابن خالتى وأخى فى القسم . فلنفرض أنك أحببتها قبلى » ألا تعرف ذلك المثل القديم الذى يتداوله العلماء والقائل : « من ذا الذى يفرض قانونا على عاشق ؟ ان الحب قانون أعظم (وأسمى) من أى .. تشريع يقننه أى أحد من البشر فى الدنيا » (٨) ولذلك ترى أن القانون الوضعى (٩) ، وما يماثله من قرارات ، ينتهك كل يوم وعلى جميع المستويات فى سبيل الحب ، فالانسان لابد له من أن يحب على الرغم مما يمليه عليه عقله ولا يستطيع أن يفر من الحب حتى لو أدى ذلك الى الموت وحتى اذا كان حبه لفتاة بكر أو أرملة أو سيدة .

وعلى أية حال ليس من المحتمل أن تسعد طوال حياتك بلطف النساء ، كما أنه لا يحتمل أن أنعم أنا نفسى بهذه الحال ، اذ انك تعلم حق العلم أننا أنت ، وأنا ، محكوم علينا بالسجن الى الأبد فلا فدية تحررنا ، اننا فى المثل أشبه ما نكون بكلبين متصارعين طوال اليوم فى سبيل قطعة من العظم ، وفى النهاية لا يفوز أحد منهما بشىء ما . لأن الحدأة جاءت أثناء عراكهما وسلبت منهما قطعة العظم . وكذلك تجد فى بلاط الملوك يا أخى أن كل شخص يسعى لنفسه ولا يفكر فى أحد غيره ،اذن يا أخى العزيز لك أن تعشق اذا أردت فانى سأحب أنا أيضا وسأحب الى الأبد ، وفى الحقيقة لا يمكن أن يقال خلاف ذلك . فعلينا أن نبقى فى هذا السجن وأن يأخذ كل منا حظه من الدنيا » .

واشتجر بينهما الخلاف ، واشتد واستمر وقتا طويلا ، ولو تيسر لى الوقت لوصفته لكم ، ولكن دعونا نعود الى لب الموضوع . لقد حدث ذات يوم (اذا صح أن أروى لكم ما حدث بايجاز قدر ما أستطيع) أن جاء الى أثينا دوق عظيم يدعى بيروثيوس وكان صديقا للدوق ثيسيوس منذ كانا طفلين . وقد جاء الى أثينا ليزور صديقه ، ويتسلى معه كعادته اذ انه لم يحب فى الدنيا أحدا قط قدر ما كان يحبه ، وكان يتعاطف معه تعاطفا كله حنان . وتروى الكتب القديمة أن حبهما كان عظيما لدرجة أنه لما مات أحدهما ذهب الآخر الى العالم السفلى بحثا عنه ، وهذا قول حق . ولكن ليس قصدى أن أروى لكم هذه القصة .

كان الدوق بيروثيوس يحب أركيتى حبا جما ، وكانت معرفته به قد استمرت عاما بعد آخر فى طيبة ٠ وفى النهاية بعد توسلات ورجاء من بيروثيوس سمح الدوق ثيسيوس بالافراج عن أركيتى من غير فدية ، ليذهب أنى شاء على النحو الذى سأقصه عليكم ٠

كان الاتفاق بين ثيسيوس وأركيتى أنه لو قبض على هذا الأخير فى أى اقليم من تلك الأقاليم التى يحكمها ثيسيوس ، فى أى وقت من النهار أو الليل ، يفقد فى الحال حياته بقطع رأسه بالسيف ٠ واذن لم يكن له أى حول أو خيار ، ولم يكن أمامه الا أن يغادر البلاد ، ويسارع بالعودة الى أوطانه ٠ فكان عليه أن يكون على حذر للمحافظة على سلامة عنقه ٠

وكم كان حزن أركيتى كبيرا ٠ لقد أحس بسهام الموت تصيبه فى قلبه وها هو ذا يبكى ، ويولول وينتحب انتحابا يثير الأسى ويتأهب للانتحار سرا ٠٠ وقال : « الويل لذلك اليوم الذى ولدت فيه ! انى الآن فى سجن أسوأ من سجنى فيما مضى ٠٠ لقد قضى على الآن أن أعيش الى الأبد لا فى المطهر ، وانما فى الجحيم نفسه ، ويحى لأنى عرفت بيروثيوس فى يوم من الأيام لو لم أعرفه لمكثت هنا سجينا فى سجن ثيسيوس بقية أيام حياتى ولعشت سعيدا لا تعيسا ٠ لقد كان يكفينى أن ألقى نظرة من وقت لآخر على تلك التى أنا عبد لها وان كنت لا أستحق فى يوم من الأيام عطفها ولطفها ٠ فقال : « يا ابن خالتى العزيز بالامون ، لقد فزت بالنصر فى هذا الأمر ولك أن تبقى فى السجن سعيدا ، هل أقول فى السجن ؟ حقا ! لا بل فى الجنة ! لقد أحسنت ربة الحظ فى رمى النرد فى صالحك ، اذ قدر لك أنت أن تراها وقدر لى أنا أن أغيب عنها ٠ لقد أصبح من الممكن لك (مادمت تنعم بوجودها) وأنت فارس قدير فاضل أن تتغير الأحوال (اذ أن ربة الحظ قلب) وأن تبلغ مرادك ٠ أما أنا ، أنا المنفى المحروم من كل عطف الممتلىء بيأس عظيم ، الى حد أنه ليست هناك أرض ولا ماء ولا نار ولا هواء ولا مخلوق مكون من هذه العناصر (١١) يستطيع أن يمنحنى السلوى ، أو يخفف من آلامى فى هذا الأمر فلم يبق لى الا أن أموت يأسا وكمدا ٠

وداعا يا حياتى ، يا سعادتى ، يا بهجتى ! آه يا ويلى ٠٠ لماذا يشكو الناس عادة من العناية الالهية أو ربة الحظ التى تمن عليهم بالكثير فى شتى الصور ، وتجود عليهم بهبات تفوق ما يستطيعون أن يتصوروه لأنفسهم ؟

ان بعض الناس يريدون الثروة التى قد تؤدى الى القضاء عليهم أو اصابتهم بمرض خطير ، والبعض يتطلع بشغف الى الخروج من السجن فى حين أنه سيلقى حتفه حتما فى بيته هو بيد أحسن رجال حاشيته (١٢) ٠ كم من نكبات كبيرة ينطوى عليها هذا الأمر ، فالواقع أننا لا ندرى ماذا يجب علينا أن ندعو الله فى صلواتنا أن يمن به علينا وسلوكنا

شبيه بسلوك من سكر سكرة الفيران (١٣) ، فالسكير يعرف جيدا أن له بيتا ، ولكنه لا يعرف كيف يتجه الى بيته سالكا الطريق السليم • والمعروف أن طريق السكير زلق • والحق أن سلوكنا فى الدنيا مثل سلوكه تماما ، ونحن نسعى الى السعادة فى شغف ، ولكننا كثيرا ما نضل اليها الطريق • وهذا ما يمكن أن يقوله كل منا (وبخاصة أنا) ممن ظنوا واعتقدوا اعتقادا جازما أننى كنت أستطيع فى يوم ما أن أهرب من السجن ، واننى كنت أسعد بذلك بسرور وأنعم بتمام الصحة ، فى حين أننى أبعد ما أكون عن مصدر كل سعادة • ومادمت لا أستطيع أن أراك يا اميلى فلست الا من الأموات ولا علاج لى ••

ومن ناحية أخرى لما عرف بالامون أن أركيتى قد غادر السجن انفجر حزنا ، حتى أخذت القلعة تصلصل برنين نحيبه وبكائه ، وتبللت نفس القيود الكبيرة التى كانت تربط ساقيه بدموعه الغزيرة المرة فقال :

« ويلاه ! ويلاه يا أركيتى يا ابن خالتى ، يعلم الله أنك جنيت ثمرة خلافنا كله •• انك سوف تمشى فى طيبة حرا طليقا • ولا يهمك حزنى وبؤسى الا قليلا وبما أنك تتميز بالحكمة والرجولة فانك تستطيع أن تجمع كل أنصارنا وأقاربنا وأن تشن حربا على هذه المدينة بحيث تنجح بمحض الصدفة أو عن طريق اتفاقية أن تفوز بها وتتخذها سيدة لك بل زوجة • نعم لك أن تفوز بتلك السيدة التى سألقى حتفى – لا محالة – فى سبيلها • وهناك احتمال كبير أنه (بما أنك حر طليق خارج سجننا هذا وسيد لنفسك) فان لك امتيازا بيننا بالنسبة الى أنا الذى يموت فى هذا القفص ، وليس أمامى الآن الا أن أبكى وأنتحب طوال حياتى أسى وحزنا بسبب هذا السجن وأيضا للتعاسة التى أعانيها من جراء العشق ، الأمر الذى يضاعف حزنى وشقائى » •

وعندئذ اشتعلت نار الحسد فى صدره وعذبته عذابا شديدا أليما حتى كاد أن يجن وقبض على قلبه حتى شحب وجهه واصفر فأصبح مثل لون خشب شجرة البقس أو الدردار الميتة الهامدة • ثم قال :

« أيها الآلهة القساة يا من تحكمون هذه الدنيا بكلمتكم الملزمة الأبدية (١٤) ، يا من تنقشون قراراتكم فى لوحات من الحجر الصلب بما أدنتم به الانسانية أكثر مما تدينون به الأغنام الراقدة فى الحظيرة ، فالانسان يقتل مثله كمثل أى حيوان آخر كما أنه يمكن أن يلقى فى سجن ، ويمكن أن يصاب بمرض وأن يشقى شقاء عظيما وكثيرا ما يكون ذلك من غير ذنب ارتكبه ما هى الحكمة فى ذلك المنطق الذى يقرر بأن هناك علما الهيا سابقا يقضى بأن يشقى البرىء ، بلا سبب – ؟ ومما يزيد فى شقائى أن أعلم أن الانسان ، نزولا على حكم الكلمة الالهية ملزم بأن •• يطيع القانون الأخلاقى وبأن يضحى بما يريده فى هذه الدنيا • واذا مات الحيوان فانه لا يشعر بألم بعد موته أما الانسان فان عليه بعد موته أن يبكى ويشكو لأن حياته فى الدنيا كانت مليئة بالهموم والأسى

ولا شك فى أن هذه هى حال الدنيا • والرد على هذه التساؤلات أتركه لتخمينكم، ولكنى أعلم تمام العلم أن الدنيا فيها شقاء بليغ • ويحى • ! انى أرى أن ثعبانا أو لصا قد ألحق الضرر بكثير من الأفاضل ، ومع ذلك فانه يهيم على وجهه حرا طليقا • أما أنا فعلى أن أمكث فى هذا السجن ، كما قضى ذلك الاله ساتورنوس والالهة جونو الحسودان المجنونان (١٥) • وقد أهلكا تقريبا كل أهل طيبة ذات الأسوار المنيعة الكبرى • فى حين أن الالهة فينوس تقتلنى من ناحية أخرى بفعل الحسد والخوف من أركيتى •• والآن سأترك بالامون قليلا وهو باق فى سجنه وأروى لكم شيئا ما ، مما حدث لأركيتى •

لقد مضى الصيف وزادت الليالى الطويلة من شقاء السجن العاشـــق ، ولست أدرى من كان منهما فى حالة أسوأ من الآخر • وخلاصة القول أن بالامون هذا كان محكوما عليه بالبقاء فى السجن الى الأبد حتى يموت ، بينما كان أركيتى منفيا مهددا فى حياته نفيا أبديا خارج البلاد ، بحيث لا يستطيع أبدا أن يرى مالكة قلبه مرة أخرى ، ويا أيها العشاق أسألكم الآن من منهما كان حاله أسوأ من الآخر ، بالامون أم أركيتى ؟ (١٦) أحدهما يستطيع أن يرى سيدته يوما بعد يوم ، ولكن قضى عليه أن يبقى فى السجن والآخر يستطيع أن يركب جواده ويسافر أنى شاء ، ولكنه لن يرى سيدته قط • فيأيها الملمون بالأمر فكروا كما تشاءون أما أنا فسوف أستمر فى الكلام كما بدأته •

انتهى الجزء الأول

(واليكم الجزء الثانى)

ولما نزل أركيتى فى مدينة طيبة كان كثيرا ما يغمى عليه فى أثناء النهار ويتنهد قائلا « ويلى ! » اذ انه لن يرى مالكة قلبه قط بعد ذلك وخلاصة القول أن حزنه لم يشهد أحد له مثيلا لدى أى مخلوق من المخلوقات الكائنة تلك التى قدر لها أن تكون ، طالما أن هناك دنيا . فقد جافاه النوم وصد عن الطعام والشراب حتى أصبح نحيل البدن وجف لحمه حتى صار كعود السهم • أما عيناه فقد صارتا غائرتين مخيفتين ، وشحب لونه ، وأصبح كالجثة الهامدة ، وكان دائما

وحيدا لا يختلط بأحد ، وكان نحيبه يعلو الى السماء طوال الليل ، وكان يئن أنينا أليما • وكان كلما سمع نشيدا أو عزفا انفجر بالبكاء ، ولا يستطيع أحد أن يمنعه عن ذلك • وكانت حالته النفسية سيئة وهابطة ، تختلف عما كانت عليه ، حتى أن الناس لم تستطع أن تفهم كلامه أو تسمع صوته ، ولو كان صوته يدرك آذان الناس • أما عن مظهره فأنه يبدو للعالم كله أنه لا يسلك سلوك من أصيب بمرض العشق فحسب ، وانما سلوك من أصيب بجنون المزاج الأسود في خلية الادراك الحسى بمقدمة مخه (١٧) •

وخلاصة القول أن هذا العاشـق التعس السـيد أركيتى انقلبت أحوال مزاجه وعاداته رأسا على عقب • فهل أمضى اليوم كله فى رواية تفاصيل حزنه ؟

بعد أن تحمل هذا العذاب الأليم سنة أو اثنتين فى طيبة أى فى مسقط رأسه ، كما شرحت لكم ، خيل له في ليلة من الليالى وهو نائم أن الاله ميركوريوس المجنح قد مثل أمامه وأمره بأن يكون مرحا سعيدا ، وكان هذا الاله يمسك بين يديه بتلك العصا التى تبث النوم فى الناس ، كما كان يرتدى قبعة فوق شعره اللامع • (١٨) وكان هذا الاله يلبس نفس الملابس التى كان يرتديها عندما سلبه أرحوس نومه (وهذا ما لاحظه أركيتى ! ثم نطق الاله قائلا : « عليك أن تذهب الى أثينا فقد قررت أن تكون هناك نهاية لكل أحزانك » ولما سمع ذلك أركيتى استيقظ فجأة ونهض من فراشه وقال : « هيا هيا مهما كلفنى الأمر من ألم فسأذهب فى الحال الى أثينا ولن يمنعنى الخوف من الموت أن أرى مالكة قلبى » تلك التى أحبها ، ومن أنا عبد لها ، ولا يهمنى أن أموت فى سبيل ذلك مادمت بحضرتها •

ولما انتهى من الكلام أخذ مرآة كبيرة وتطلع الى صورته فيها ، فوجد أن لون بشرته قد شحب ، وأن وجهه قد أصبح من نوع جديد آخر غير مألوف ، ومن ثم خطر بذهنه أن شكله مادام قد تغير الى هذا الحد بسـبب ماعاناه من العشق ، فليس هناك ما يمنع من أن يعيش فى أثينا الى الأبد ، لا يعرفه أحد من الناس ، وبخاصة اذا كان متواضعا وديعا فى عيشه ، وبهذا يستطيع أن يرى مالكة قلبه كل يوم تقريبا ، وعندئذ اسـتبدل ملابسه وتزيى بزى فلاح فقير •

وشرع فى الحال فى الذهاب الى أثينا لا يصحبه من حاشية الا وصيف تنكر مثله فى زى رجل فقير ، وكان مطلعا على كل أسراره وأحواله • وذات يوم ذهب الى البلاط ووقف عند باب القصر وعرض خدماته ليعمل حمالا في القصر ، يلبى طلبات أهل القصر • وبالاختصار شاء حظه أن يعمل فى خدمة أحد أمناء القصر الذى كان يسكن في القصر بالقرب من اميلى ، وكان أركيتى ماهرا حكيما فتعلم من الخدم الآخرين كيف يقوم بالخدمة وعرف كيف يقطع الخشب ، وكيف يحمل الماء لأنه بهذه المناسبة كان شابا قويا ، كما كان طويل القامة عريض المنكبين ، مما جعله قادرا على أن يقوم بعمل كل ما يطلب منه ، ومكث سنة

أو اثنتين فى هذه الخدمة بمثابة تابع فى حجر ات اميلى الفاتنة وقال انه يدعى فيلوستراتوس (١٩) • ولم يظفر أحد فى القصر ممن فى درجته بمثل ما ناله من الحب والتقدير ، وكان فى سلوكه كريما نبيلا ، حتى عمت شهرته البلاط كله • وقال الناس انه يعتبر من قبيل التفضل والتقدير أن يرفع ثيسيوس مرتبته فى القصر بأن يعينه فى وظيفة رفيعة محترفة تتيح له أن يباشر فضائله المختلفة •

وهكذا اشتهر بعد قليل اسمه بفضل أعماله الصالحة ، وأيضا بسبب رقة ألفاظه ، الأمر الذى جعل ثيسيوس يقربه اليه ويعينه وصيفا له فى حجراته الخاصة وأعطاه ما يكفيه من الذهب حتى يحافظ على سمو منزلته بين الناس • والى جانب ذلك كان بعض الناس يحملون له من سنة الى أخرى من الريف سرا ما يحق له من ريع ، ولكنه كان يصرف هذا الريع بتحفظ وحصافة حتى لا يعرف أحد من الناس أنه كان يملك من المال شيئا آخر غير مرتبه الذى يتقاضاه من القصر • وعاش على هذا النحو ثلاث سنوات ، وسلك المسلك نفسه فى الحرب وفى السلام ، حتى أن ثيسيوس لم يجد بجواره أحدا يحبه ويقربه أكثر منه • والآن أترك أركيتى فى هذه النعمة وأنتقل قليلا الى أمر بالامون •

لقد قضى بالامون هذه السنوات السبع فى سجن منيع مظلم مخيف يتحسر على ما يعانيه من بؤس وأسى ، ومن كان أجدر بأن يكون حزنه مضاعفا غير بالامون الذى أفقده الحب رشده ؟ أضف الى ذلك أنه كان سجينا محكوما عليه بالسجن الى الأبد وليس سنة واحدة ، ومن من الشعراء يستطيع أن ينظم قصة استشهاده فى قصيدة بالانجليزية ، كما يجب ؟ والحق أنى لست الشاعر • لذلك فانى أمر بغاية الخفة والسرعة على هذه الأحداث •

لقد حدث فى السنة السابعة من شهر مايو فى الليلة الثالثة (كما تروى الكتب القديمة التى تشرح هـذه القصة بمزيد من التفصيل الواضح) • اما بمحض الصدفة أو لأن ذلك كان قدرا مقدورا (فاذا قدر للأمر أن يحدث حدث فعلا) حدث أن استطاع بالامون بعد منتصف الليل بقليل بمساعدة صديق له أن يهرب من السجن وأن يفر بعيدا عن المدينة بأقصى سرعة • وكان قد قدم لسجانه شرابا من النبيذ العذب الممزوج بالمخدر وبأرق أفيون طيبى الأمر الذى جعل هذا السجان يستغرق فى النوم طوال تلك الليلة حتى انه ما كان ليستيقظ لو حاول الناس أن يهزوه • ومن ثم فر بأسرع ما يمكن ، فكانت لياليه قصيره وكلما أوشك النهار أن يشرق (الأمر الذى كان يستدعى أن يختفى) كان يهرول الى غابة قريبة بخطى حذرة •• هكذا فعل بالامون • وبالاختصار كان رأيه أن يخفى نفسه فى الغابة طوال النهار وأن يسير ليلا الى مدينة طيبة حتى يلتقى بأصدقائه ويقنعهم بأن يتحالفوا معه لشن الحرب على ثيسيوس ، وخلاصة الأمر أنه كان ينوى اما أن يفقد حياته فى هذه المغامرة واما أن يفوز باميلى زوجة له ، وهذا هو قصده واضحا جليا •

أما الآن فسأعود الى أركيتي ثانية الذى كان لا يعلم بقرب همه وحزنه حتى أوقعته ربة الحظ فى شراكها .

وكان طائر القنبرة رسول النهار يرحب بالنهار الرمادى اللون بشدوه وكان فيبوس اله الشمس ينهض ويصعد صعودا براقا فيضحك الشرق كله لرونق الضوء ، كما كان يدع أشعته تجفف قطرات الندى الفضية العالقة بالأوراق فى أعماق الأدغال ونهض أركيتي الذى أصبح الأمين الأول لثيسيوس فى القصر الملكى وأخذ يتأمل النهار المشرق البهيج ولكى يقوم بشعائر شهر مايو (واضعا نصب عينيه دائما الهدف من كل رغباته) امتطى جوادا جامحا كلهب النار وانطلق الى المروج ليروح عن نفسه خارج القصر الملكى على بعد ميل أو ميلين فيه ، واتفق أن أتجه الى الغابة التى حدثتكم عنها من قبل لكى يصنع أكاليل من عساليج الغصون ومن أوراق الزعرور أو اللبلاب ، وغنى بصوت عال متجها نحو الشمس وقال :

« يامايو يا من تحيط بك هذه الزهور وهذه الخضرة ، مرحبا بك يامايو الجميل الرطب .. انى لأرجو أن أحصل منك على بعض الخضرة » وترجل من فوق جواده بقلب جسور وتوغل فى أعماق الدغل مسرعة خطاه وهام على وجهه فى أحد طرق الغابة وكان بالامون بمحض الصدفة مختفيا بجواره وراء شجيرة حتى لا يراه أحد ، اذ أنه كان يخشى خشية عظمى أن يقتل ولم يعلم قط أن الشخص الذى يراه هو أركيتي. والله أعلم أنه ماكان يعير ذلك الأمر أهمية كبرى. والحق يقال انه قيل منذ سنوات طويلة (ولا يزال هذا صحيحا) ان المرح له عيون وان الغابة لها آذان . ولذلك خير للمرء أن يحتفظ بحصافة عقله واتزانه لأن الناس دائما يلتقون مصادفة دون أن يتوقعوا ، ولم يعرف أركيتي شيئا عن وجود أخيه بجواره وأنه يستطيع أن يسمع كل ما يقوله ، اذ أنه كان جالسا فى سكون وراء الشجيرة .

ولما كان أركيتي قد تنزه كما شاء وأخذ يشدو بصوت رخيم ، فانه استغرق فى حالة تأمل ، كما يفعل العشاق فى حالاتهم النفسية المتقلبة فهم يحلقون آنا فوق قمم الأشجار وآنا يهبطون الى أعماق الحشائش ، ويطيرون آنا في الأعالى ، وآنا يغوصون في الأعماق مثلهم في ذلك مثل الدلو في البئر . ومثلهم أيضا فى الحقيقة مثل يوم الجمعة الذى يكون آنا ممطرا وآنا مشرقا ، تسطع فيه الشمس وهكذا تستطيع الالهة فينوس القلب أن تنشر الظلمة فى قلوب عبادها تماما كما يفعل يومها (أى يوم الجمعة) فهى مولعة بالتقلب كولعها بكثرة تغيير ملابسها ، ويندر أن يكون يوم الجمعة شبيها بغيره من أسبوع لأسبوع. وبعد أن انتهى أركيتي من شدوه وأخذ يتنهد وجلس على الأرض فى الحال قائلا « ويل لليوم الذى ولدت فيه ! ياجونو الى متى تحاربين مدينة طيبة بقسوتك ؟ » ويلى ! لقد حلت اللعنة بالسلالة الملكية لآل كادموس وأمفيون. (٢٠) كادموس ذلك الرجل الذى كان أول من ذاع صيته من بنى مدينة طيبة أو وضع أسس الحياة الاجتماعية فى أجيالها ، وأول من توج ملكا للمدينة . وأنا من سلالته وأنتمى اليه مباشرة

بالدم الملكى . وها أنذا الآن أصبحت أسيرا وعبدا أخدم ذلك المخلوق نفسه ... عدوى اللدود ، أخدمه كوصيف مسكين ولكن جونو وصمتنى بعار كبير عن هذا فأنا لا أجرؤ أن أكشف عن اسمى الحقيقى أنا الذى كنت اسمى أركيتى أصبحت أدعى فيلوستراتوس ولا أساوى فلسا ، ويلى ! فيا أيها الاله مارس القاسى ! يا ويلى ! ياجونو يا من أنزلت غضبك على كل أسرتى وقضيت عليها كلهـا ماعداى أنا وبالامون التعيس الذى يعذبه ثيسيوس فى السجن وبالاضافة الى كل ذلك غرس الحب سهمه الملتهب فى شغاف قلبى المخلص المهموم حتى أهلك تماما ، وكتب على أن أموت بهذا الشكل حتى قبل أن يصنع لى قماطى (أى قبل أن أولد) . اميلى .. انك تقتليننى بعينيك وأنت سبب هلاكى، أما همومى الأخرى فانى لا أقيم وزنا لها ولو مثقال ذرة مادمت أستطيع أن أقوم بشىء يسترك » .

ولما سكت عن الكلام أغمى عليه لمدة طويلة ثم أفاق ونهض فجأة .

أما بالامون هذا الذى كان يشعر بسيف بارد جدا ينزلق خلال قلبه فانه فجأة أخذ يرتعد غضبا ولم يستطع أن ينتظر أكثر من ذلك فبعـد أن سمع قصة أركيتى نهض فجأة من وراء الشجيرات الكثيفة ، كرجل جن وكان وجهه شاحبا شحوب الموتى وقال : « أركيتى .. أيها الخائن الخداع الشرير ، هاأنذا أقبض عليك . يا من تعشق مالكة قلبى ، الذى أشقى فى سبيلها كل هذا الشقاء يامن كنت كاتم سرى ، ويامن أنت من دمى ولحمى (كما قلت لك كثيرا فى الماضى) يا من خدع الدوق ثيسيوس وانتحلت اسما غير اسـمك ! اما أن ألقى حتفى على يدك واما أن تموت أنت ! لن تعشق سيدتى اميلى بعد الآن ولن يحبها أحد سواى وأعلم أنى أنا بالامون عدوك اللدود . وعلى الرغم من أننى لا أملك سلاحا هنا فى هذا المكان ، لأننى فررت توا من السجن بمعونة الحظ فانى أخشى أن أقول انه قدر سيىء أن تلقى حتفك على يدى أو تكف عن حب اميلى . ولك أن تختار ما تشاء ولن تفر منى .

ولما سمع أركيتى ذلك وعرف من يخاطبه اشتعل قلبه غضبا وأشهر سيفه غاضبا ــ كالأسد المفترس وقال : « والله الذى يتربع على عرشه (٢١) لولا أنك مريض ومجنون بالحب ولولا أنك لاتملك هنا سلاحا لما خرجت من هذه الغابة حيا ولقتلتك بسيفى أنا ، وأنا أنقض ذلك الاتفاق الذى تدعى أننى أبرمته معك . وماذا أيها الأحمق . هلا فكرت تفكيرا جادا . ان الحب حر وسوف أحبها متحديا كل عافيتك ! ولكن بما أنك فارس كريم ، وتريد أن تحتكم الى المبارزة فى اثبات حقك فانى أعدك بأنى لن أتغيب عن موعد الغد ولن يدرى بى أحد من الناس ، وسوف أكون هنا مرتديا دروع الفرسان ، وسوف أحضر معى ما يكفيك من الدروع والأسلحة ، ولك أن تختار أحسن الدروع لنفسك وأن تترك لى أسوأها ، فى هذه الليلة سأحضر لك ما يكفيك من الطعام والشراب والملاءات والأغطية لفراشك . واذا قدر لك أن تفوز بعد ذلك بسيدتى ان قتلتنى هنا فى هـذه

الغابة فان لك أن تأخذ سيدتى وأنا راض بهذا سلفا • » فرد عليه بالامون قائلا : « رضيت وأسلم بهذا الرأى » • وهكذا غادرا المكان حتى يلتقيا غدا فى الموعد الذى تعهدا باحترامه •

يا كوبيد (٢٢) •• يامن تفتقر الى كل محبة انسانية ! يا صاحب الملك الذى لا يرضى بأن يشاركه أحد فى ملكه •• لقد قيل حقا ان كلا من الحب والملك لا يرضى بالكرم أو الشرك وكان ذلك ما أدركه حقا بالامون وأركيتى • وامتطى أركيتى جواده وركب الى المدينة • وفى اليوم التالى قبل الفجر أعد سرا درعين ، كل منهما كاف وصالح للاستعمال فى المبارزة التى ستقام بينهما • وحمل الدرعين أمامه وهو راكب على جواده وفى المكان والموعد اللذين اتفقا عليهما التقى أركيتى ببالامون فى الغـــابة • وأخذ لون وجهيهما يتغير كما حـــدث للصيادين فى مملكة طراقيا وهم واقفون أمام الغار حاملين الرمح أثناء صيد أسد أو دب ــ ثم يسمعونه يأتى جامحا بين الأدغال محطما الغصــون أثنــاء اندفاعه فى طريقه فيتأملون ويقول كل منهم لنفسه « ها هو ذا عدوى اللدود يأتى الى بدون انحراف • اما أن يموت هو واما أن أموت أنا •• واما أن أقتله عند الغار أو يقتلنى أنا اذا خاننى الحظ ». وكان هذا هو الأسلوب الذى انتهجاه ، وتغير لون بشرتهما لما أدرك كل منهما أن الآخــر ماثل أمامه • ولم يفه أحدهما بعبارة « صباح الخير » ولم يلق أى سلام على الآخر • بل شرع كل منهما فى الحال فى مساعدة الآخر على ارتداء الزرد والدروع تحوطهما كل مظاهر الصداقة كأنهما أخوان وبعد ذلك قضيا وقتــا طويلا فى الطعنــات بعضــهما الى بعض برمحيهما الطويلين •• وقد يبدو لك أن بالامون هذا كان فى قتاله مثل الأسد المفترس المجنون وأن أركيتى كان مثل النمر القاسى ، وتقاتلا وأخذ كل منهما يضرب الآخر كأنهما خنزيران بريان يخرج الزبد من شدقيهما بفعل الغضب ، واستمر قتالهما حتى وقفا فى بركة من الدماء تصل حتى عقبيهما •• وعلى هذا النحو أتركهما يتبارزان وأعود الى ثيسيوس أروى لكم ما جرى له •

ان القدر ذلك المنفذ العام لأمور الدنيا والذى يطبق على الدنيا بأسرها تلك العناية الالهية التى أمر بها الله من قبل ، نعم ان ذلك القدر له من القوة والسلطان « أن تنفذ مشيئته حتى اذا أقسم العالم كله أن العكس سوف يقع ايجابا أو سلبا ولابد أن يقع ذلك يوما من الأيام ، وقد لا يتكرر هذا الا بعد ألف سنة • ولا شك فى أن شهواتنا ورغباتنا فى هذه الدنيا سواء كانت خاصة بالحروب أو السلم أو البغض أو الحب ، تحكمها كلها النظرة الآتية من أعلى •

والآن انتقل الى ثيسيوس العظيم الذى كان مشغوفا بالصيد وخاصة صيد الوعل الكبير فى شهر مايو حتى انه ما أن انبلج الفجر حتى نهض من فراشه وارتدى ملابسه وتأهب تماما للركوب ومعه جماعة من الصيادين وحاملى أبواق الصيد وبجواره أيضا كلاب الصيد ، والواقع أنه كان مشغوفا بالصيد لدرجة أن

غاية مراده هى أن يصبح كارثة تدهم الوعل الكبير اذ أنه كان عبـدا لديانا (الهة الصيد) فى المرتبة الثانية لمارس (اله الحرب) ٠

وكان النهار مشرقا صافيا كما قلت لكم من قبل ، وكان نيسيوس سيدا مرحا بصحبة هيبوليتا زوجته وملكته الفاتنة ومعه أيضا اميلى وكانوا جميعا يرتدون الملابس الخضراء وانطلقوا جميعا راكبين فى موكب ملكى للصيد ٠ واتجه الدوق ثيسيوس مباشرة الى الغابة القريبة لأن الناس قالوا له ان بهـــا وعلا ٠ فذهب راكبا حتى وصل الى مرج فى وسط الغابة ٠ كان الوعل قد اعتاد أن يجمح اليه هاربا وقصـــد الى ذلك المرج مبـــاشرة وقفز من فوق جدول فى الطريق وتخطى غيره من العراقيل التى تعوق تقدمه ٠ وأخذ الدوق يطارد الوعل مرة واثنتين ومعه كلاب الصيد ٠

ولما أدرك المرج نظر حوله وهو يظل عينيه من أشعة الشمس بيده واذا به يتنبه لوجود أركيتى وبالامون وهما يتقاتلان فى مبارزة شعواء كأنهما خنزيران بريان ٠ وكان سيفاهما يلوحان هنا وهناك بطريقة فظيعة مخيفة ، الأمر الذى جعل المرء يتصور أن ضربة من أحد هذين السيفين كافية لأن تهشم شجرة بلوط بأسرها ٠ الا أن الدوق لم يكن يعرف فى الحال من هما ، فدفع جواده بمهارة وهرول الى حيث كانا ، ووقف بينهما وشهر سيفه وصاح : « قفا ! كفى والا قطعت رأسيكما وانى لأقسم بالاله مارس العظيم أنه اذا ضرب أحدكما ضربة واحدة على مرأى منى فسوف يقتل فى الحال ، قولا من أنتما أيها الغريبان ٠٠ من أنتما يامن تتبارزان هنا بمثل هذا العنف دون أن يكون بينكما حكم أو غيره من المشرفين على المبارزات كما جرت العادة فىالمبارزات التى يحضرها الملوك بما يجب أن تحاط به من الرونق والعظمة ؟ » ٠

فأسرع بالامون بالاجابة قائلا ٠ « مولاى ، ما حاجتى الى مزيد من الكلام ؟ اننا نحن الاثنين نستحق الموت ٠٠ اننا بائسان حزينان أسيران أثقلتهما صروف الحياة ، وبما أنك قاض وملك شرعى فاننا نتوسل اليك ألا تمن علينا برحمة أو مأوى ، بل اقتلنى أنا أولا بحق عاطفة المحبة المقدسة ثم اقتل صديقى أيضا ٠ أو أقتله أولا فانك حقا لا تعلم أن هذا هو عدوك اللدود أركيتى الذى نفى من مملكتك على أن يقتل ان عثر عليه فيها ، مما يستدعى اعدامه ٠ هذا هو ذلك الشخص الذى وفد الى باب قصرك وقال انه يدعى فيلوستراتوس ، هذا هو الذى خدعك سنين طويلة وعينته أمينا أولا لك ٠٠ هذا هو الذى أحب اميلى ٠ وما دام اليوم الذى ألقى فيه حتفى قد حان ، فانى أعترف لك بكل أمانة أننى أنا بالامون ذلك الرجل التعس الذى فر من سجنك دون وجه حق ٠٠ أنا عدوك اللدود ٠٠ وأنا أيضا أعشق اميلى الفاتنة عشقا حارا لدرجة أننى على استعداد لأن أموت بين يديها ٠ لذلك فانى أطلب منك النطق بالحكم واعدامى ، ولكن أرجو أن تقتل رفيقى بالطريقة نفسها اذ أننا نحن الاثنين نستحق الاعدام » ٠

فأجابه الدوق العظيم بدوره قائلا : « ان قرارى لن يستغرق وقتا طويلا ٠٠ انكما بأفواهكما وباعترافكما قد أصدرتما الحكم على نفسيكما وقد سجلت ذلك عليكما فلا داعى لتعذيبكما بحبال التعذيب (فى سبيل الحصول على اعتراف) ٠ ستعدمان وحق الاله العظيم مارس الأحمر (٢٣) ٠

وقد حملت نوازع الأنوثة الملكة اميلى وكل سيدات الحاشية على البكاء وأجمعن كلهن على أنه مما يدعو للحزن والأسى الشديدين أن تحل بهما مثل هذه الكارثة ، فهما من نسل كريم وبيت عظيم ولم يتبارزا الا بدافع الحب ، ولما رأين الجروح البالغة الدامية فى جسديهما عريضة أليمة صرخن جميعا وبكين وانتحبن وقلن ٠٠ ارحمنا يا مولانا ٠٠ ارحم كل هؤلاء النساء ! » وخررن ساجدات على ركبهن العارية ، وهممن بتقبيل قدميه وهو واقف لولا أن غضبه هدأ بعد قليل فالرحمة تتدفق بسرعة فى القلب الكريم ٠ واذا كان الدوق قد ارتعد فى أول الأمر من شدة غضبه فانه وقف قليلا وتأمل برهة ٠٠ تأمل فى جريمة كل منهما وأيضا فى سببها ، واذا كان غضبه يدينهما فان عقله كان يلتمس لهما العذر ٠ وكان بتفكيره على النحو الآتى : سيحاول أن يفر من السجن زد على ذلك أن قلبه قد فاض بالرحمة بالنساء لكثرة بكائهن الذى لا ينقطع واستفتى قلبه وقال لنفسه هامسا بهدوء « ويل السيد الذى لا تجرى فى قلبه الرحمة بل ينتهج سلوك الأسد فى كلامه وفى أفعاله أيضا بالنسبة لمن يقفون أمامه وقفة الخشوع والندم كما لو كان أمامه رجل متكبر مزدر عنيد يتشبث بموقفه الأول ٠ ان ذلك الملك ينقصه الحكمة والحصافة اذا كان لا يستطيع أن يميز بين الحالتين ويصر على أن يزن الكبرياء والوداعة بمكيال واحد » ٠

ولما انطفأ غضبه بعد قليل أخذ يتأمل ما حوله بعين صاغية وقال بصوت عال : « ما أعظم اله الحب وما أقواه ! آه بارك الله فينا ! فليست هناك عقبات تستطيع مقاومة سلطانه ٠٠ وانه يمكن حقا أن يسمى الها نظرا لما يأتى به من معجزات وانه لقادر على أن يفعل ما يشاء بأى قلب يقع فى قبضته ٠٠ اليكم مثلا أركيتى هذا وبالامون هذا خرجا من سجنى وأصبحا طليقين تماما وكان يمكنهما أن يعيشا فى طيبة كما يعيش الملوك ٠ ومع أنهما يعلمان تماما أننى عدوهم اللدود وأنه بوسعى قتلهما فانهما سمحا للحب أن يأتى بهما الى هذا المكان ليلقى كل منهما حتفه على الرغم مما يتمتعان به من بصيرة ٠٠ قولوا لى ألا تعتبروا أن ذلك قمة الحمق ؟ حقا ليس هناك من هو أشد حمقا من العاشق ! انظروا اليهما ، وحق الآلهة الجالسين فى السموات ٠ ما أكثر ما سال من دمائهما ! ما أجمل منظرهما وهيئتهما ! هذا هو الأجر الذى دفعه لهما اله الحب فى مقابل عبادتهما ، ومع ذلك فان عباد الحب يظنون أنفسهم متنبهين لما قد يقع من الأمور ٠ والأمر الذى يثير الضحك الى أبعد حد هو أن تلك الفتاة التى أقاما من أجلها هذا المهرجان لا تستطيع أن تشكرهما لذلك أكثر مما تشكرنى ، فالحقيقة أنها لا تعلم عن هذه الأحداث الملتهبة أكثر مما يعلمها الأرنب البرى

أو طائر الوقواق (٢٤) ! ولكن سنة الحياة أن الانسان يجب أن يختبر كل حالة ولابد له من أن يتصرف تصرف الأحمق سواء أكان فتى أو شيخا ٠

وقد خبرت ذلك الحمق بنفسى منذ سنين طويلة اذ كنت أنا أيضا فى زمان عبدا للحب ، واذن مادمت أعلم آلام الحب وأعرف الى أى حد يمكن أن يصيب النفس شأنى فى ذلك شأن من وقع فى شراكه أكثر من مرة ، لذلك فانى أعفو عن جريمتكما عفوا شاملا ، نزولا على طلب الملكة الساجدة أمامى هنا وأيضا تلبية لرغبة اميلى أختى العزيزة ٠٠ وعليكما الآن أن تقسما أنكما لن تلحقا ضررا بوطنى هذا ، وأنكما لن تشنا الحرب على لا بالليل ولا بالنهار وأنكما ستصبحان صديقين مخلصين لى قدر استطاعتكما ٠ وهكذا أكون قد غفرت لكما جريمتكما تماما (٢٥) ٠

وعندئذ أقسم الاثنان قسم الولاء له باخلاص ووضوح وطلبا منه أن يمنحهما حمايته ورحمته فأصدر لهما قرار العطف قائلا :

« اذا رجعنا الى الأصل الملكى والثروة فان كلا منكما بلا شك جدير بأن يتزوج فى الوقت المناسب ولو كان ذلك من ملكة أو أميرة ٠

ومع ذلك فانى أتكلم بالنيابة عن أختى اميلى التى اشتجر بينكما من أجلها مثل هذا الخلاف واشتدت الغيرة وأنتما تعلمان تماما أنها لا تستطيع أن تتزوج من اثنين فى وقت واحد مهما طال عراككما فى سبيلها ٠ ولابد لأحدكما شاء أو لم يشأ أن ينفخ فى ورقة اللبلاب (٢٦) ٠ ويعنى ذلك أنهما لا يمكنها أن تأخذكما أنتما الاثنين مهما بلغت درجة شعوركما بالغيرة ومهما اشتد غضبكما ٠ لذلك قررت أن أضعكما فى موقف يمكن من خلاله أن ينال كل منكما ما قدر له فانصتا لتعلما كيف دبرت ذلك واستمعا لما قررته لكما ٠ ان ما أريده هو باختصار ، وبلا مناقشة شئتما أو لم تشاءا هو أن يذهب كل منكما أنى يشاء حرا طليقا دون أن يدفع فدية ودون أى قيد على تحركاتكما ٠

وبعد خمسين أسبوعا من اليوم لا أكثر ولا أقل على كل منكما أن يأتى ومعه مائة فارس مزودين بعدة الحرب والدروع اللازمة للمبارزة الرسمية ومستعدين للقتال المشروع فى سبيل الحق ٠ وهذا هو أمرى الذى لا مفر منه وشرفى بصفتى فارسا ٠ فمن يستطيع منكما بقوته أى وهو على رأس المائة فارس أن يقتل الآخر أو أن يهزمه فى المبارزة فسوف أعطيه اميلى زوجة له وسوف يكون هو الذى يفوز من ربة الحظ بمثل هذا الجزاء العظيم ٠ وقد قررت أيضا أن أقيم هنا ميدان المبارزة وسأكون أنا (بعون الله ورحمته) بينكما حكما عادلا ٠ ولن أسمح بأى اتفاق بيننا غير هذا فأحدكما يجب أن يموت قتيلا أو يؤخذ أسيرا ٠ واذا راق لكما هذا الرأى فأفصحا عن رضاكما واعتبرا نفسكما سعيدين وهذا هو المطلوب منكما الآن وهذه هى نهاية كلامى ٠

ومن أبرقت عيناه الآن سرورا غير بالامون ؟ ومن نهض مبتهجا سوى أركيتى ترى من يعرف كيف يحكى أو يصف مدى ما ساد من المرح والسرور فى هذا المكان بعد أن تفضل ثيسيوس بمثل هـذه المنحة الكريمة ؟ لقد سـجد كل الحاضرين أمامه وعبروا عن شكرهم له ، وبخاصة أهل طيبة · وهكذا استأذنا من الدوق ممتلئين بالأمل وحاملين قلوبا خفيفة ، وغادرا المكان راكبين نحو ديارهم فى طيبة ذات الأسوار العريضة العتيقة ·

« انتهى الجزء الثانى

« واليكم الجزء الثالث » ·

وأعتقد أن الناس قد يعتبرون من قبيل الاهمال أن أنسى وصف كل ماأنفقه ثيسيوس من نفقات باهظة لاعداد المكان لميدان المبارزة على النحو الـذى يليق بالملوك ·· وأستطيع أن أقول ان مسرحا شامخا مثل هذا لم يوجد قط من قبل فى العالم أجمع · اذ كان قطر دائرة الميدان ميلا تقريبا وكان مسورا بسـور من الحجر تحيط به قنـاة ، فكان شـكل الميدان اذن دائريا كأنه « بوصلة » وبداخله درجات تصل الى علو ستين ذراعا بحيث اذا جلس أحد على درجة من الدرجات فانه لا يحجب الرؤية عن غيره ·

وفى الشرق كان هناك رتاج من الرخام الأبيض وفى الغرب رتاج يماثله ، وبالاختصار لم يوجد فى العالم كله من قبل مثل هذا المكان على الرغم من أنه كان فى مساحة صغيرة للغاية · والسبب فى ذلك أنه لم يوجد فى القطر كله رجل ماهر خبير بالهندسة أو الرياضة أو الرسم أو نحت التماثيل لم يتعهده ثيسيوس بالطعام والأجر حتى يساهم فى اقامة هذا المسرح وهذا ما فعله مع المصورين والمثالين ·

ولكى يستطيع ثيسيوس أن يقوم بالطقوس الدينية ويقدم القرابين على النحو اللائق أقام مذبحا ومصلى من فوق الرتاج الشرقى ، وذلك من أجل عبادة فينوس الهة الحب ، كما أقام آخر مثله على الرتاج الغربى توقيرا لذكرى الاله مارس ، وقد كلفه ذلك حمولة عزبة من الذهب ·

وفى الشمال فى برج من أبراج السور ، أقام مصلى من المرمر الأبيض والمرجان الأحمر كان منظره رائعا ، وذلك من أجل عبادة ديانا الهة العفاف ، وكان ذلك قد أقامه ثيسيوس بحكمة نبيلة • الا أننى نسيت أن أصف لكم أعمال النحت العظيم والصور والأشكال الممثلة التى كانت تضمها هــذه المصليات الثلاث :

فأولا فى معبد فينوس تستطيع أن ترى ، مصورا ومنقوشا على الحائط ، منظرا مثيرا للعطف الى أقصى حد يرمز الى الأرق والتنهدات الحزينة والدموع المقدسة والنحيب والضربات الملتهبة للشوق التى يتحملها فى هذه الحياة ، عباد الهوى والايمان التى يقسمونها تأكيدا لوعودهم ، وتجســيدات المسرة والأمل والشوق والجراءة الحمقاء والجمال والشباب والمرح والاقتدار والأحجبة والقــوة والخداع والنفاق والاسراف والهم والحسد ، وكلها كانت متوجة بأكاليل الذهب الحر حاملة طائر الوقواق • كما كانت الصور تمثل الأعياد والآلات الموســيقية والأغانى الراقصة والرقصات نفسها والمسرح والزى الغنى وكل أطوار الحب التى أستطيع أن أحسبها وتلك التى يمكن أن أتصورها فيما بعد ، وكل منها مصور على الجدران بترتيب درجاتها ، وعددها يربو على ما أستطيع أن أذكره على سبيل الحصر •

والحق أن جبل كثايرون (٢٧) بأسره حيث تقيم فينوس ومسكنها الرئيسى كان مصورا على الجدران بما يحيط به من حدائق ومناظر بهيجة ولم ينس الكسل بواب حديقة الحب ولا نرجس الوسيم الذى عاش فى الماضى البعيد ولا حماقة الملك سليمان ولا قوة هرقل الهائلة ، ولا سحر مديا وكركى ولا تورنوس المفترس ذا القلب الباسل ، ولا كريسوس الغنى أسير عناه (٢٨) • وهكذا يمكن أن تلاحظوا أنه لا الحكمة ولا الغنى ولا الجمال ولا الخداع ولا القوة ولا الجلد بقادر على مشاركة فينوس فى السلطان ، لأن فى وسعها أن ترشد الدنيا الى ما تريد ، وها هم الناس جميعا يقعون فى شراكها ، وكثيرا ما صــاح كل منهم « ويلى » ويكفينا هنا ذكر مثال أو مثالين ، وان كنت أستطيع أن أذكر ما يزيد عن ألف •

كان تمثال فينوس الرائع يمثلها وهى تطفو فوق البحر الواسع ، مغطاة من السرة حتى قدميها بالأمواج الخضراء ، مشرقة براقة كالمرآة ، وكانت تحمل فى يمناها قيثارة ، وتضع على رأسها اكليلا من الورد العطر وفوق رأسها ترفرف حماماتها ، وكان واقفا أمامها ابنها كوبيد ويحمل جناحين على ظهره ، وأعمى كما كان يصور فى كثير من الأحيان • وكان يحمل قوســا وســهاما براقة حادة • ولم لا أصف لكم الصور التى كانت منقوشة على جدران معبد الاله مارس الأحمر ؟ لقد كانت الجدران كلها مصورة طولا وعرضا ، وكانت هذه هى الحال بالنسبة لحجرات المعبد الداخلية فى هذا المكان المخيف الذى كان يســمى المعبد الأعظم

لمارس فى طراقيا ، تلك المنطقة الباردة الثلجية التى كانت وطن مارس ، وكانت له عليه سيادة تامة .

فأولا صورت على الجدران غابة لم يسكنها انسان ولا حيوان ، فيها أشجار قديمة ذات عقد ونتوءات ، وبهـا جذوع مقطوعة مدببة قبيحة . وكانت الغابة مليئة بزئير وصوت الرياح الجارفة ، كأن عاصفة شديدة تحاول أن تهشم كل غصن فى الغابة . وتحت سفح تل كان معبد الاله مارس صاحب السلطان على السلاح .. مصورا أيضا ، وكان هذا المعبد من الصلب المصقول ومدخله على شكل ممر ضيق طويل يخيف كل ناظر ، وكان ينجرف من هذا الممر هبوب ريح وتيار من الهواء يهز الرتاج كله هزا عنيفا . ومن الأبواب كان ضوء الشـمـال ينساب الى الداخل اذ كانت لا توجد نوافذ فى هذا المعبد يرى الناس من خلالها ضوء النهار . وكان الرتاج من الحديد الصلب الذى لا يمكن أن يتآكل أبدا وكان مدعما طولا وعرضا بمشابك من الحديد المتين . وفى سبيل تقوية المعبد كان كل عمود فيه يحمل سقفه من الحديد البراق وقطره قطر البرميل .

وهناك رأيت أولا التصوير المظلم للخيانة ومكائدها ، والغضـب القاسى الأحمر فى لون الجمر المتقد ، والخوف الشاحب النشال والانسان المبتسم الذى يخفى خنجره فى طيات معطفه ، والحظيرة التى تلتهمها النار والدخان الأسود الذى يتصاعد منها ، والاغتيال الغادر للنائم فى فراشه والحرب الشعواء وجراحه التى تنزف الدماء ، والعراك الذى يستخدم فيه الخنجر الدامى ، وكلمات التهديد الحادة ، وكان هذا المكان الكريه زاخرا بالعراك . كما رأيت هناك قاتل نفسه وقد تناثرت دماء قلبه على كل شعره ، كما رأيت المسمار الذى يدق فى رأس النائم ليلا والموت البارد ذا الفم المفتوح وهو ملقى على ظهره .

وفى وسط المعبد كانت ربة الحظ السيىء تجلس بوجهها الذى ترتسـم عليه سمات الحزن والقلق ، كما رأيت الجنون يضحك ضحكة هستيرية فى احدى نوباته والانتفاضة المسلحة ، وصرخة الخوف ، والنقمة المفترسة ، والجثة الهامدة ملقاة فى الدغل بعد قطع رقبتها ، وألف قتيل لم يمت واحد منهم بسبب مرض أو طاعون ، والحاكم المستبد الذى سلب فريسته بالقوة ، وأطلال المدينة التى لم يبق فيها شيىء أو أى شخص . كما رأيت السفن المتأرجحة فى البحر وقد أحرقت تماما ، والصـياد الذى خنقته الدببة المفترسة ، وأنثى الخنزير التى تلتهم الطفل وهو نائم فى مهده ، والطاهى وقد أصيب بالحرق على الرغم من معرفته الطويلة ، ولم ينس شئ بفضل التأثير السئ للاله مارس . ورأيت قائد عربة الحرب وقد دهسته عربته ، وملقى على الأرض تحت عجلتها ، وكان هناك من يقعون تحت تأثير مارس كالحلاق والجزار والحداد الذى يصقل السـيـوف الحادة على سندانه . وفى مكان عال رأيت مصورا على برج رب الفتح متربعا

على عرشه محاطا بمظاهر التكريم وكان معلقا فوق رأسه بخيط رفيع سيف يتدلى من عل ٠

وقد صور اغتيال يوليوس قيصر ونيرون العظيم وأنطونيوس وحتى أولئك الذين لم يولدوا بعد حينذاك ، اذ صورت الطريقة التى لاقوا بها حتفهم مسبقا وذلك بتهديد مارس وفق الحساب التنجيمى ٠ فقد صور على هذه الجدران ما هو مصور بالفعل فى ترتيب النجوم فى السماء أى صور من سيقتل ومن سيموت فى سبيل الحب ٠ ويكفينى لذلك ذكر مثال واحد من القصص القديمة فانى لا أستطيع أن أرويها كلها ولو أردت أن أقصها ٠

وكان تمثال مارس واقفا على عربة حربية وهو مدجج بالسلاح وسماته تدل على القوة والافتراس كأنه مجنون وفوق رأسه تتلألأ تشكيلتان للنجوم ورد ذكرهما فى كتب العلوم هما ما تسمى « بويلا » وما تسمى « روبيوس » (٣٠) ٠

وكان يكتنف اله الأسلحة والمنظر الآتى : كان هناك ذئب ماثل بين يديه عيناه حمراوان ، وهو يلتهم رجلا وكانت هذه القصة قد صورت بمرقاش رقيق احتراما للاله مارس وما له من مجد ٠

والآن أصف لكم معبد الالهة ديانا العفيفة وسوف أسرع فى الوصف اختصارا ، كما سأصف لكم بمنتهى الايجاز ما نقش على الجدران من مناظر الصيد والعفة المحتشمة ٠ (٣١) فرأيت كيف مسخت كالستو التعيسة (لما غضبت منها ديانا) فتحولت من امرأة الى دبة وكيف حولت بعد ذلك الى الكوكب الشمالى وهذا ما كان مصورا ، ولا أستطيع أن أقول لكم أكثر من ذلك ٠ وقد حول ابنها كذلك الى نجم كما يستطيع الناس أن يروا ذلك بأنفسهم ٠ ورأيت أيضا هناك « دفنى » التى مسخت شجرة ولست أعنى الالهة ديانا وانما بنت « بنيوس » التى تدعى « دفنى » ، ورأيت أيضا « اكتايون » الذى مسخ وعلا انتقاما منه لأنه أمعن النظر فى ديانا وهى عارية ٠ ورأيت كذلك كيف أمسكت به كلابه ومزقته والتهمته لأنهم لم يتعرفوا عليه ٠ وعلى مقربة من ذلك كانت هناك صورة الأنا لانتا وهى تطارد الخنزير البرى أثنا الصيد كما صور « ملياجر » وكثيرون غيره ممن اختارت لهم ديانا الشقاء والتعاسة ٠ وكما رأيت هناك كثيرا من القصص العجيبة التى لا تعيها ذاكرتى الآن ٠

وكانت الالهة هذه تجلس عاليا على وعل وحول قدميها كثير من الجراء وتحت قدميها تماما القمر فى صورة هلال يوشك أن يتحول الى المحاق بعد قليل (٣٢) ٠ وكان تمثالها تكسوه ملابس من السندس الأخضر ويصورها تحمل فى يدها قوسا وسهامها فى جراب وكانت عيناها تنظران الى الأعماق السفلى حيث يحكم « يلوتر » مملكته المظلمة ٠ وكانت أمامها صورة امرأة فى حالة مخاض ولكن ولادتها تعسرت وقتا طويلا ، فأخذت تصرخ بصوت مثير تنادى

« لوسـينا » (الالهة ديانا بوصفها راعيـة الولادة) وتصيح : « ساعديني فأنت خير معين ! » وما أروع صنع المصور في أن يثبت الحياة فيما يصوره ، وليس من شك في أن الأصباغ التي استعملها قد كلفته الكثير من المال (٣٣) ٠

ها هو ذا ميدان المبارزة قد أعد تماما وبعد أن تحمل ثيسيوس نفقات تزيين المعابد وميدان العرض ، ولما رآها كان سروره بها بالغا ولكنني سـوف أتوقف قليلا عن الكلام عن ثيسيوس وأتحدث عن بلامون وأركيتي ٠

لقد دنا موعد عودة كل منهما على رأس جماعة من مائة فارس ليشتبكوا في مبارزة كما ذكرت لكم ٠ وقـد جاء كل منهما بالفعل الى أثينـا محافظة على ما تعهدا به على رأس جماعة من مائة فارس مزودين بعدة حرب كاملة ٠ والحق يقال ان كثيرا من الناس قد لاحظوا أنه فيما يتعلق بالمروءة والفروسية لم توجد قط ، منذ بدء العالم مثل هذه الزمرة الرائعة على الرغم من قلة عددها ٠ فكل امرئ منهم يحب الفروسية ويطمع بمحض ارادته في أن يحصل على شهرة تفوق كل ماعداها ، التمس شرف الاشتراك في هذه المبارزة وكان ذلك شرفا لكل من اختير بالفعل للاشتراك فيها ٠

واذا قدر أن يقع غدا مثل هذا الأمر فما من شك في أن كل فارس مولع بعشق سيده وممتلك لكامل قواه (سواء أكان ذلك في انجلترا أو في غيرها من البلاد) لابد من أن يشعر بأكبر شوق الى أن يكون من هذه الزمرة لكي يتبارز في سبيل سيده ، وأقول ذلك بعد التماس بركات الله علينا ٠ وما أروع ذلك المنظر ٠ هكذا صارت الأمور مع بالامون ٠ وقد ذهب معه كثير من الفرسـان بعضهم مسربل بالزرد ، والبعض الآخر بالصدرية المغطاة بالقميص الخفيف ، وبعضهم يرتدي درعين كبيرين ، والبعض الآخر يحمـل ترسا بروسيا (٣٤) أو درقة ٠ وبعضهم درع ساقية ، والبعض الآخر يحمل بلطة حرب ، وبعضهم كسارة للدروع ٠ وليس هناك نمط جديد في الدروع لم يعرف من قديم الزمان ، وكما قلت لكم كان كل منهم قد تسلح كما يحلو له ٠

وها هو ذا ملك طراقيـا العظيـم يأتي بجوار بالامون هـو ليكورجوس نفسه (٣٥) وكانت لحيته سوداء ووجهه ينم عن الرجولة ٠٠ وكانت مقلتا عينيه في رأسه تلمعان بلون يتراوح بين الاصفرار ، والاحمرار ٠ وكان يتلفت يمينا وشمالا مثل العنقاء ، ويعلو جبينه شعر غليظ وأطرافه ضخمة وعضلاته صلبة قوية ، ومنكباه عريضتان وذراعاه طويلتان مستديرتان ٠ وكان يقف في أعلى عربة حربية من الذهب تمشيا مع تقاليد بلاده ، يجرها أربعة من الثيران البيض ، شدوا الى نيرها ، وبدلا من أن يرتدي قميصا عليه شارة دولته فوق درعه كان يلبس جلد دب أسود في لون الفحم وقديما جدا ، مربوطا بمشابك صفراء في لون الذهب ، وكان شعره الطويل مرجلا وراء ظهره أسودا براقا يلمع كأنه ريش

غراب ، وكان يرتدى فوق رأسه اكليلا ثقيلا جدا من الذهب فى سمك الذراع ومرصعا بالأحجار الكريمة البراقة وبالماس والياقوت ٠ وكان يصاحب عربته عشرون أو أكثر من الكلاب البيضاء كل منها أضخم من الثور ، وذلك لصيد الأسد أو الوعل ٠ وكانت تتبعه وعلى أفواهها كمامات مربوطة ربطا محكما ومزدانة بالذهب وبالحلقات الصغيرة ، وكان فى حاشيته مائة من السادة مسربلين بخير الدروع من ذوى القلوب الصارمة الباسلة ٠

ويروى الرواة أن أركيتى كان يصاحبه اميتريوس ملك الهندس ، ممتطيا صهوة جواد أشقر مصفحا بالصلب وملقى عليه ساتر مرقم بالقصب وكان وهو راكب أشبه ما يكون باله الحرب مارس ، وكان القميص الذى يرتديه فوق دروعه من القماش التركستانى مزدانا باللآلىء البيضاء الكبيرة المستديرة ٠ وكان سرجه من الذهب المصقول حديثا في النهار ، وكان يتدلى من كتفيه معطف زاخر بالياقوت الأحمر البراق مثل لهب النار ٠ وكان شعره المجعد يتدلى فى ضفائر من الشعر الأصفر الذى يتألق كالشمس ٠ وكان له أنف أقنى وعينان لونهما أصفر ضارب الى الاخضرار ، وشفتان ممتلئتان وبشرة لونها يضرب الى الاحمرار الدموع ٠

وكانت بعض الحسنات تتناثر على وجهه ولونها مزيج من الأصفر والأسود وكان يتطلع حوله كأنه أسد ٠ واعتقد أنه كان يبلغ من العمر خمسا وعشرين سنة تقريبا ، وكانت لحيته قد بدأت تنبت بالفعل وصوته رنانا كصوت النفير ٠ وكان يضع على رأسه اكليلا من الغار الأخضر يبعث السرور فى نفس كل من يتأمله ٠ ولكى يدخل على نفسه السرور يضع على يده نسرا أليفا أبيضا فى لون السوسن ٠ وكان فى حاشيته مائة من السادة مرتدين كل عدتهم للحرب ماعدا خوذاتهم ، وكان منظرهم ينم عن اليسار فى كل شىء وتأكدوا أن السادة من رتبة الدوق والايرل والملك تجمعوا فى هـذه الفرقة النبيلة من أجل الحب وللقيام بالمزيد من أعمال الفروسية ٠٠ وحول هذا الملك كان يجرى هنا وهناك كثير من الأسود والفهود الأليفة ٠٠ وعلى هذا النحو وبهذا الشكل كان هؤلاء السادة أجمعون قد أتوا الى المدينة فى يوم الأحد فى أول الصباح (حوالى الساعة التاسعة والنصف) وهبطوا من فوق جيادهم ٠

ولما أحضرهم ثيسيوس هذا الدوق ٠٠ هذا الفارس الكريم الى المدينة وأعد لكل منهم مسكنا يليق بمنزلته أقام لهم الولائم وبالغ فى اكرامهم لدرجة أن الكل أجمعوا على أنه لا يمكن لأى عقل بشرى أن يأتى بخير من ذلك ٠ فهناك الموسيقى ، والغناء والخدمة الممتازة فى الولائم ، والهدايا القيمة التى قدمت لكل واحد مهما كبر أو صغر والزخرفة الرائعة لقصر ثيسيوس ، وتكريم من كان يجلس على رأس المائدة العالية وتكريم من يجلس فى أسفلها ، والسيدات اللاتى فقن غيرهن فى الجمال أو فى رشاقة الرقص ، وهؤلاء اللاتى فقن غيرهن فى الغناء الرخيم وفى الرقص الجميل ، ومن يعرف كيف يتكلم فى أمور الهوى كلاما

عاطفيا بليغا ، ومن يتحدث عن الباز الراقد على المجثم فى الأعالى ، والكلاب التى ترقد تحت على الأرض • أنا فى غنى عن ذكر كل ذلك لكم ، ولكننى أود أن أقول لكم خلاصة ما حدث هناك • والآن أعود الى روايتى فانصتوا اذن لما أقوله ، اذا كنتم تريدون •

فى يوم الأحد ليلا قبل أن ينبلج النهار سمع بالامون غناء القبرة (فبالرغم من أن النهار لم يشرق الا بعد ساعتين الا أن القبرة بدأت تغرد) فنهض بالامون بقلب تقى وبروح سامية ليؤدى فروض الحج الى الهه «كيثرا» أعنى فينوس الكريمة الجديرة بالتبجيل ، وفى الساعة المقدسة لفينوس سار الى ميدان المبارزة حيث كان معبدها وسجد بخشوع وحزن وقال متضرعا :

« يا أجمل الجميلات ياسيدتى فينوس ، يابنت جوبيتر وزوجة فولكانوس يامن تبثين المسرة فى سفوح جبل كيثابرون (٣٦) • فى سبيل العشق الذى كنت « تكنينه لأدونيس أرجو أن ترحمى دموعى المرة الأليمة وتتقبلى تضرعاتى المتواضعة بقلبك الرحيم » ويلى ! انى لا أجد الكلمات للتعبير عن ذلك الجحيم الذى يشتعل فى نفسى ويعذبنى باستمرار •

ان قلبى لا يستطيع أن يكشف عن آلامى « ولقد ملأنى الشعور بالحيرة الى حد أننى لا أستطيع أن أقول شيئا سوى «الرحمة» ياألمع السيدات يا من تعرفين كنه أفكارى وتدركين مدى آلامى • خذى كل ذلك فى اعتبارك واحزنى من أجل حزنى الأليم واذا قبلت رجائى أتعهد أن أكون عبدا لك الى الأبد أخدمك بكل ما أملك من قوة وأشن حربا شعواء على العفاف ، وهذا قسم منى على ذلك اذا ساعدتنى ، انى لا أريد أن أفخر بما أفعله بالسلاح ، كما أننى لا أطلب أن أفوز بالنصر غدا ولا بالشهرة ولا بالمجد الباطل ولا بالصيت فى التفوق بالسلاح فى كل أنحاء العالم بل أن تكون اميلى لى أنا وحدى ، وأن أقضى نحبى وأنا عبد لك • ولك أن تجدى الوسيلة فلا يهمنى ذلك ، ولكن الأحسن بطبيعة الحال أن أنتصر عليهم بدلا من أن يتغلبوا على حتى أستطيع أن أضم مالكة قلبى الى صدرى ، ومع أن مارس هو اله السلاح والحرب فان قدرتك وتأثيرك فى السموات يفوقان كل شىء ومن ثم يمكنك أن تسلمينى من أحبها اذا أردت وسوف أعبدك بعد ذلك الى الأبد فى معبدك وأقدم لك القرابين على مذابحك أينما كنت راكبا أو ذاهبا وأشعل نيران عبادتك •

واذا شاءت ارادتك أيتها السيدة الكريمة ألا يحدث كل ذلك فان رجائى أن تخترق قلبى غدا حربة أركيتى ، وعندئذ لن أبالى بشىء ولا يهمنى أن يفوز بها أركيتى زوجة له مادمت قد فقدت حياتى • وخلاصة مطلبى وقصدى أن تهبى لى حبيبتى أيتها السيدة العزيزة المباركة • ولما انتهى بالامون من دعائه قدم القرابين على المذبح بروح تثير العطف والرحمة وبكل ما يلزم من خشوع واحترام

للطقوس ولا داعى لأن أروى لكم تفاصيل ما قام به من طقوس . وفى نهاية الأمر ارتعد تمثال فينوس وأومأ باشارة تدل على أن دعاءه قبلته الالهة وعلى الرغم من أن الاشارة تأخرت فى الظهور قليلا فانه عرف تماما أن رجاءه قد أجيب ، فعاد الى بيته وقلبه مفعم بالسعادة والهناء .

وفى الساعة الثالثة الفردية التى أعقبت بدء سير بالامون الى معبد فينوس أشرقت الشمس فاستيقظت اميلى وأخذت تسير نحو معبد الالهة ديانا . وكانت الفتيات الأبكار اللاتى سارت على رأسهن الى المعبد قد أحضرن النار المقدسة والبخور والملابس الخاصة وما الى ذلك من الأشياء اللازمة لاقامة طقوس تقديم القربان ، وكانت القرون ممتلئة بجعة العسل حسب التقاليد ولا ينقص شىء لتقديم القربان فبخرن المعبد وهن مرتديات أجمل ثيابهن . وغسلت اميلى ذات القلب الوديع جسمها بالماء من العين ومع ذلك فانى لا أجسر أن أصف طقوس وضوئها ، ولكنى أشير الى ذلك اشارة عامة . أما الوصف الوافى لما حدث فان من شأنه أن يبث البهجة فى نفوسكم وأنا واثق أن ذلك الوصف لا يسىء الى من كان عقله نظيفا صافيا ، ومع ذلك فان من الأفضل أن أترك لكم الحرية فى أن تتصوروا ما حدث بدون ايحاء منى بذلك . كان شعرها البراق مرجلا وضفائره مسدولة ، وعلى رأسها وضع اكليل من البلوط الأخضر بصورة لائقة تخلب الألباب وأخذت تشعل نارين على المذبح وأقامت شعائرها وفق ما يمكن للناس أن يقرأوه فى كتابات أستاتيوس الطيبى وبعض الكتب القديمة الأخرى . وعندما اشتعلت النار بشدة خاطبت الالهة ديانا بكلمات حزينة على النحو الذى تسمعونه :

« أيتها الالهة العفيفة فى الغابات الخضراء يا من ترين ما فى السموات والأرض فى آن واحد ، يا ملكة بلوتو المظلمة السفلى ، يا الهة الأبكار ، يا من عرفت ما فى نفسى منذ سنين عديدة يا من تعرفين ما أتطلع اليه » أرجو أن تقينى شر غضبك ونقمتك .. اللذين قاسا منهما أكتايون وتعرض لشقاء أليم ، أيتها الالهة العفيفة أنت تعرفين جيدا أننى أريد أن أبقى عذراء طوال حياتى ، وأننى لا أريد حبا ولا زيجة أبدا ! .. أنت تعرفين أننى فتاة عذراء من رفقتك ، وأننى أحب الصيد والقنص والسير فى الغابة المهجورة وأننى لا أريد أن أصبح زوجة وأحمل طفلا . كما أننى لا أريد أن أعرف رفاقا من الرجال . ساعدينى ياسيدتى فهذا فى وسعك لأنك تتجسدين فى ثلاثة أشكال .

أما بالامون الذى يحترق حيالى أيضا وأركيتى الذى يأسى من عشقه لى فأرجو أن تمنحيهما السلام وأن تجعلى الوئام يسود بينهما ولا أطلب منك طلبا آخر . كما أرجو أن تحولى قلبيهما عنى حتى يتبدد كل عشقهما الحار وكل حنينهما وكل شقائهما القلق ، وأن تخمد نارهما وتخبو وتطفأ ، أو تتحول الى مكان آخر . واذا قدر لى أن يكون أحدهما من نصيبى أرجو أن ترسلى لى من يحبنى منهما حقا ويرغب فى أكثر من الآخر .

تأملى يا الهة العفة الطاهرة ·· تأملى تلك الدموع التى تتساقط على خدى · مادمت عذراء وحامية لنا جميعا فأرجو آن تحافظى على بكارتى ، وما دمت بكرا فسوف أكون دائما أمة لك » ·

وكانت النيران ملتهبة على المذبح اللامع عند ما كانت اميلى تتضرع للالهة ولكن فجأة رأت شيئا غريبا اذ انطفأت احدى النارين فجأة ثم اشتعلت من جديد وهذا ما حدث للنار الأخرى اذ خمدت برهة ثم اشتعلت من جديد · وعندما انطفأتا صدر منهما صوت صغير مثــل صوت الغصون المبتلة وهى تحترق · وحدث أيضا أن سالت من أطراف الغصون الملتهبة ما يشبه قطرات دم كثيرة مما أذهل اميلى الى حد أنها كادت تجن وأخذت تبكى لأنها كانت لا تعرف ما يدل عليه كل ذلك ، والواقع أنها لم تبك ولم تصرخ الا لأنها كانت خائفة وكان ذلك يثير العطف حقا ·

وعندئذ ظهرت الالهة ديانا وهى تحمل فى يدها قوسا كما تفعل الصائدة وقالت : « يا بنتى دعى همك جانبا فقد تأكد فى دوائر الآلهة فى الأعالى وسجل ذلك فى كلمات مكتوبة أنك سوف تتزوجين أحد هذين الاثنين اللذين يكنان لك مثل هذا الحب الشديد الأليم ، ولكنى لست حرة فى أن أقول لك من هو ذلك الرجل· والآن وداعا لأننى لا أستطيع أن أبقى معك أكثر من هذا وسوف تخبرك النيران المشتعلة هنا على مذبحى وقبل مغادرتك بحظك فى الحب وما قدر لك كما حدث من قليل » ·

ولما انتهت الالهة من كلامها أخذت السهام فى حرابها تتخبط وتصلصل ثم اختفت · ولما رأت اميلى كل هذا ذهلت ذهولا شديدا وقالت ··:

« ما معنى كل هذا ؟ ويلى ! انى يا ديانا أضع نفسى تحت حمايتك وأنا تحت تصرفك » · ثم نهضت وعادت الى بيتها سالكة أقرب الطرق · هذه هى خلاصة الرواية وليس هناك شىء آخر يقال فيها ·

وفى الساعة المقبلة المكرسة للاله مارس دخل أركيتى معبد مارس المفترس ليقدم له القربان بالطقوس اللازمة حسب العادات الوثنية · وتلا دعاء لمارس بصوت يثير الشفقة والعطف فقال :

« أيها الاله القوى يا من تكرم فى المملكة الطراقية الباردة ·· شــــديدة البرودة وتعتبر سيدا لها » يا من تمسك بزمام كل عمل مسلح فى كل مملكة وكل اقليم ·· يا من تقدر الحظ ، كما تريد ، لمن تريد ، تقبل منى هذا القربان المتواضع واذا كان شبابى وقوتى جديرين بخدمة ألوهيتكم ، واذا كنت حقا أحد عبادك أرجو أن ترثى لحزنى ·· وذلك فى ذكرى الشــقاء والنــار المحرقة اللذين قاسيتهما رغبة وشوقا لفينوس الفتية الفاتنة الرشيقة واستمتعت بمفاتن جسدها وأمسكتها بين ذراعيك كما تشتهى وذلك على الرغم من أن فولكانوس أوقعك فى شراكه ، فخانك الحظ ووجدك ملقى بجوار زوجته ، ويل لك ·

أتوسل اليك بحق ذكرى ذلك الحزن الذى يملأ قلبك أن ترثى لحزنى وأن تعطف على جرحى الأليم ٠ انى شاب غر جاهل كما تعلم ، وأعتقد أنى أصبت بجروح الحب أكثر مما أصيب غيرى ممن لا يزالون على قيد الحياة ٠ فتلك التى ألحقت بى كل هذا الأسى لا يهمها قط أن أغرق فى البحر أو أطفو سابحا ٠

وانى لأعرف تماما أنها قبل أن تجود على بعطفها ، لابد لى من أن أفوز بها بقوتى فى هذا الميدان وانى لأعلم جيدا أننى بدون مساعدتك وعطفك لا ينفعنى بقوتى قط ٠ فساعدنى يا سـيدى غدا فى المبارزة فى ذكرى تلك النار التى أحرقتك يوما ما وتحرقنى الآن ، وأفعل بحيث أحظى غدا بالنصر ٠ وليكن العمل والشقاء من نصيبى وليكن لك المجد ! انى سأبجل معبدك العظيم خير تبجيل وأكثر من تبجيل لأى مكان آخر وسأعمل دائما على أن أحوز رضاك وأغنم من مآثرك العظيمة وسأعلق فى معبدك لوائى وكل أسلحة حاشيتى وسوف أوقد دائما أمامك حتى تحين منيتى نيرانا لا تطفأ أبدا ٠ وحتى ألتزم بعهدى لك أعدك بأن أعطيك لحيتى وشعرى هذا الذى يتدلى فى ضفائر مسدلة لم يتعرض قط للاهانة بالموسى أو المقص وسأكون لك عبدا مخلصا طوال حياتى يا سيدى ٠٠ أتوسل اليك أن تشفق على حزنى الأليم وأن تهبنى النصر ولا أطلب منك شيئا آخر » ٠

ولما انتهى أركيتى من دعائه هـذا أخذت الحلقات المعلقة على رتاج المعبد والأبواب نفسها تصطك صكات سريعة ، الأمر الذى أذهل أركيتى اذهالا شديدا واشـتعلت النيران على المذبح العظيم وتوهج ضوءها حتى أنار المعبـد بأسره « وأخذت رائحة عطره تتصاعد من الأرض فرفع آركيتى يده ووضع المزيد من البخور فى النار ، كما قام بغير ذلك من الشعائر المقدسة وأخيرا بدأ زرد مارس يصل صليلا رنانا وسمع تمتمة خافتة مصاحبة للصليل تهمس بكلمة «النصر» وبعد ذلك قدم لمارس فروض التبجيل والاكرام ، وهكذا عاد أركيتى ممتلئا بالبهجة يحدوه الأمل فى حسن الختام وذهب الى مأواه سـعيدا سـعادة الطير باشراق الشمس ٠

وبدأ بعد ذلك صراع كبير فى السموات من أجل هذه المنح المزدوجة بين فينوس الهة الحب ومارس اله الأسلحة الصارم ، مما دعا جوبيتر الى السعى لاخماده ٠ وعندئذ جاء الاله ساتورنوس الشاحب البارد (٣٧) الذى كان يعرف الكثير من مغامرات قديم الزمان وأخرج من جعبته القديمة حيلة فنية يمكن بها ارضاء الطرفين ٠٠ ويقال دائما بحق ان الشيخوخة لها مزايا كثيرة لأن الشيخوخة تشمل الحكمة والخبرة القديمة فقد يستطيع المرء أن يفوق الشيخ فى الجرى ، ولكنه لا يستطيع آخر أن يجاريه فى الحكمة والرأى الصائب ٠

ومن ثم أخذ ساتورنوس يحاول أن يجد العلاج المناسب لانهاء الخلاف والهول وان لم يكن ذلك من صميم اختصاصه فقال « يا فينوس يا ابنتى العزيزة ان مدار فلكى أوسع من غيره ، وفيه قدرة تفوق أية قدرة عرفها الناس ، الى يرجع سبب

الغرق فى البحر المتلاطم والحبس فى الكوخ المظلم والخنق والشنق وتمتمة المارد وثورة الغوغاء وأنين الشكوى وانسم سرا . أنا راعى الثـــأر والجلد الواضح الصريح مادمت فى برج الأسد . أنا الذى أمنع تدهور القصور الشامخة وتهشم الأبراج والأسوار على رأس التجار وعامل المنجم . أنا الذى قتل شمشون لما هز الأعمدة ، وأنا مصدر الأمراض الباردة والخيانات فى الظلام والحيل العتيقة . نظرتى تورث الطاعون . فلا تبكى واعلمى أنى ســـأعمل جهدى على أن يفوز بالامون فارسك بسيدته كوعدك له . وحتى لو ساعد مارس فارسه فثقى أن السلام سوف يسود بينكما بعد حين ولو لم تكونا مؤتلفين فى المزاج (الأمر الذى يثير مثل هذه الخلافات بينكما) ، انى جدك وتحت أمرك . فلا تبكى بعد الآن لأننى سأنفذ مشيئتك » . والآن سأكف عن الكلام عن الآلهة فى السموات وعن مارس وفينوس الهة الحب وسأقص عليكم بوضوح قدر استطاعتى صميم القصة التى كنت قد بدأت فى سردها .

« انتهى الجزء الثالث »

« واليكم الجزء الرابع »

كانت الأفراح فى أثينا فى ذلك اليوم عظيمة جدا ، وترتب على حلول شهر مايو المرح أن كل واحد هناك أصبح فى حالة من البهجة والطرب ، مما دفع الناس الى قضاء يوم الاثنين فى الرقص وفى العبادة السامية للالهة فينوس . ولما كان عليهم أن .. يستيقظوا مبكرين فى اليوم التالى لحضور المبارزة الكبرى فانهم آووا الى مضاجعهم ليناموا طوال الليل . وفى اليوم التالى لما انبلج النهار عم ضجيج الخيل والاستعدادات فى كل النزل التى كانوا يقيمون فيها . وقامت جماعات من الفرسان والسادة وامتطوا جيادهم وافراسهم وساروا نحو القصر . وكان يمكنكم أن تروا هناك الاعداد الماهر لعدة الحرب ، اذ أعدت بحذق ، وأنفق عليها بسخاء ، وصنعت صنعا محكما على يد الصائغين والمطرزين والحدادين . فهناك التروس البراقة والخوذات ودروع الخيل والخوذات المصنوعة من الذهب والزرود والقمصان التى تحمل الشعارات الملبوسة فوق الدروع . وهناك السادة

ذوو الأزدية المقصبة ممتطين صهوات جيادهم ، وفرسان الحاشية والحجاب يعدون الحراب ، ويربطون الخوذات على رؤوس سادتهم ، ويضعون المماسك على التروس بربط شرائط الجلد عليها ، وفي كل مكان ، وبحسب مقتضيات الحال كانوا في حركة مستمرة لا تنقطع ٠ وكانت الجياد الجامحة المغطاة بالزبد تقرط على اللجام الذهبي وكان صانعو السلاح يهرولون هنا وهناك بهمة لا تعرف الكلل ويعملون بالمخرطة والمطرقة ٠ وكان تابعو الفرسان وعامة الناس يمشون كلهم حاملين العصى القصيرة في جماعات غفيرة ، وكان يسمع صوت الناى من أعلاه الى أسفله ، هنا ثلاثة وهناك عشرة يتراهنون ويتساءلون عن نتيجة المبارزة حتى يعرفوا من من الفارسين الطيبين سوف يكتب له النصر ٠ فالبعض قال ان الأمر لابد من أن ينتهى الى الحل الفلانى ، والبعض راهن على الفارس ذى اللحية السوداء ، والبعض راهن على الفارس الأصلع والبعض على ذى الرأس الضخم والبعض قال ان هذا يبدو عليه الشراسة ، الأمر الذى يؤدى الى اجادته القتال ٠ وهناك من قال ان ذلك كان يحمل بلطة حرب وزنها عشرون رطلا ٠ وهكذا كان القصر يزخر بالتخمين وطال حديثهم طويلا بعد شروق الشمس ٠

أما ثيسيوس العظيم ، فان صوت الموسيقى والعزف والضوضاء أيقظته من النوم ولكنه لازم حجرته فى قصره الشامخ وظل بها حتى أحضر اليه الفارسان الطيبان تحيط بهما على قدم المساواة مظاهر التكريم والتبجيل ٠ وكان ثيسيوس الدوق جالسا بجوار نافذة ، وكأنه اله متربع على عرشه من حيث روعة منظره وبهاء ملبسه ٠ فاندفع الناس الى الأمام ليروه وليقدموا له فروض الطاعة والتمجيد وليستمعوا الى ما سينطق به من قرار فى التحكيم ٠ وصعد رسول الدوق فوق منصة عالية وصاح يقول ٠ أوه !! فسكت الجميع وانقطعت الضوضاء ٠ ولما تأكد من سكوت الناس واخلادهم للسكون أخذ يكشف عن ارادة الدوق العظيم قائلا :

« ان السيد العظيم بوحى حكمته وحصافته رأى أنه سوف يقضى على سلالة عتيقة ورفيعة ان سمح أن تقوم المبارزة حتى الموت على هذا النحو وفى هذا المكان ٠

ومن ثم فانه من أجل حمايتهما من الموت قرر أن يعدل عن ارادته السابقة فليكف كل انسان عن ادخال قذيفة أو بلطة حرب أو خنجر الى ميدان المبارزة ، وعليه ألا يأتى بسيف قصير لكى يطعن غريمة بنصله الحاد ، وعلى كل امرىء أن يكف عن حمل أى سلاح أو شهره وان لم يفعل فسيعدم فى الحال ٠ ولن يسمح لأحد بمهاجمة غريمه على جواد بحربة مدببة الا مرة واحدة فى الميدان ٠ وليطعن ، اذا أراد ، مرة واحدة وهو واقف على قدميه ليدافع عن نفسه ، ومن غلب على أمره سيقبض عليه لا ليقتل ، وانما ليؤتى به الى أحد الوتدين الموضوعين على كل جانب من الميدان واذا حدث أن قبض أحد الرئيسين على غريمه أو قتله

فان المبارزة تكون انتهت فى الحال · الله معكم · اذهبوا وبادروا بالقتال وخذوا حظكم منه بالسيف الطويل والصولجان · هذه هى ارادة سيدنا فاذهبوا اذن » ·

فتعالت صيحات الناس حتى بلغت عنان السماء وارتفعت الأصوات تضج بالفرح والمرح وقالوا « حفظ الله مثل هـذا السيد لما أظهره من طيبة ·· انه لا يريد أن تسفك الدماء وتضيع هدرا ! » فارتفعت العقائر بعد ذلك بالأناشيد وتعالى صوت النفير . وبناء على أمر الدوق وكبت جماعة الفرسان الى ميدان المبارزة وساروا مخترقين المدينة الكبيرة التى علقت من نوافذ بيوتها أقمشة القصب لا أقمشة الصوف العادى · ثم ركب الدوق كما يركب السادة العظماء والى جانبيه هذان الطيبان وركبت بعده الملكة واميلى وبعدهما جماعة أخرى من النـاس من مختلف الدرجات ، وهكذا مروا من خلال المدينة ووصلوا الى ميدان المبارزة فى الموعد المحدد وما ان بلغ النهار ذروته حتى تربع ثيسيوس على عرشه العالى الفاخر وحوله الملكة هيبوليتا واميلى وسيدات أخريات كل واحدة حسب درجتها، واندفع الى المقاعد ودخل أركيتى الى جهة المغرب من خلال الرتاج ومعه مائة فارس من رفاقه · وكان ذلك تحت الاله مارس ، ورفع أمامه العلم الأحمر ·

وفى الوقت نفسه اتجه بالامون الى الشرق تحت رعاية فينوس ورفع أمامه العلم الأبيض ، وكان وجهه كله ينم عن الشجاعة والاقدام · وأقول لكم انكم مهما بحثتم فى أنحاء العالم بأسره فلن تجدوا مثيلا لهاتين الرفقتين العظيمتين لم يكن هناك من أوتى الحكمة أو البصيرة ما يجعله يعرف مقدما من من الاثنين يمتاز على الآخر بالنسبة للدرجة أو السن أو القيمة ، وذلك لأن الرفقتين كانتا فى منزلة واحدة · ووقفت الفرقتان فى صفين متساويين وما ان تلى اسـم كل واحـد من الواقفين ليتضـح ألا خـداع أو مغالطة فى تعدادهم حتى أغلقت الأبواب وارتفع صوت عال يصيح :

« والآن هيا أيها الفرسان المعتزون بأنفسكم وأدوا واجبكم » !

وانقطع رسـل الدوق عن الركوب ذهابا وايابا ، وارتفع صـوت النفير والأبواق ، ولا يبقى شىء يقال الا أن الحربات وضعت فى مقابضها غربا وشرقا وضعا متينا وشك المهماز جوانب الخيل · وشـوهد هنـاك رجال ممن يجيدون المبارزة وركوب الخيل كما تهشمت نصول السيوف على التروس السميكة ، هذا محارب يتلقى طعنة فى بطنه ، وهذه شظايا الحربات تقفز عشرين قدما الى أعلى ، وهذه السيوف تشهر كالفضة البراقة ، وهذه خوذات تتحطم وتصبح هشيما · وهذا دم يتفجر من الأجساد فى سيول غزيرة حمراء وهـذه صولجانات القتال تفتت العظام ، وهذا مقاتل يندفع الى أعماق المعمعة ·· وهناك خيل قوية تتعثر وتقع بمن يمتطيها ، وهذا فارس يتدحرج تحت أقدام الجياد كأنه كرة ، وهـذا مقاتل يطعن وهو واقف على قدميه بعصـا حربته المهشـمة ، وذلك فارس آخر يتساقط الى الأرض مع حصانه ، اذا أصيب بجرح فى بدنه ، ولذلك قبض عليه

وأوتى به الى الوتد رغم أنفه ليقف بجواره كما تعهد من قبل . وهناك فتى آخر واقف بجوار الوتد الآخر . ويدعهما ثيسيوس بعض الوقت ليستريحا وليشربا اذا أرادا . ترى كم من مرة فى ذلك اليوم التقى هذان الطيبان فى القتال وأصاب أحدهما الآخر بضرر وجروح ، وكم من مرة انتزع كل منهما الآخر من فوق جواده .. وليس هناك نمر مفترس فى وادى جافيا ، (٣٨) اختطف شبله الصغير ، بلغ من القسوة فى مطاردة خصمه ، ما بلغه أركيتى حقدا على بالامون وليس هناك أسد فى دولة البنى مرين (فى شمال أفريقيا) جن من الجوع أو تميز غضبا لمطاردته أو بلغ تعطشه لسفك دماء عدوه قدر تعطش بالامون لقتل عدوه أركيتى .. فكانت ضربات الصفائح تغوص فى خوذيتهما حتى سال الدم من جانبيهما .

وبما أنه لابد من أن يكون هناك أوان لنهاية كل حدث من الأحداث قبيل غروب الشمس فقد استطاع الملك اميتريوس القوى أن يطعن بالامون هذا وهو يتبارز مع أركيتى وجعل سيفه يغوص فى لحمه الى الأعماق . ثم قبض عليه عشرون من الرجال وسحبوه بالقوة الى الوتد دون أن يكف عن الضرب .. وعندئذ هم الملك ليكورجوس العظيم لينقذ بالامون ، وعلى الرغم مما يتمتع به الملك اميتريوس من قوة هائلة فقد انتزع من سرجه وأبعد على بعد مسافة تصل سيف ، ولكنه قبل أن يقبض عليه استطاع أن يضرب بالامون ومع ذلك جىء به الى الوتد . ولم يشفع له فى ذلك قلبه الجسور وكان لابد من أن يطيع طاعة أملتها عليه القوة والتعهد السابق معا .

ومن يحزن الآن غير بالامون بعد أن أيقن أنه لن يستطيع أن يعود الى القتال ؟ ولما شهد ثيسيوس ما حدث صاح فى المقاتلين قائلا .. « هوه ! كفى لقد انتهى الأمر ! انى حكم أمين ولست طرفا فى النزاع . سيفوز أركيتى الطيبى باميلى لأنه انتصر بها نصرا عادلا حسب القضاء والحظ » وعند ذلك ارتفعت أصوات الناس فى سعادة وهناء ، وكانت أصوات البهجة ترن رنينا فخيل للناس كأن أسوار ميدان المبارزة ستنهار .

ترى ماذا عسى أن تفعل فينوس فى السموات الآن ؟ وماذا فى وسعها أن تقول ؟ ماذا فى وسع ملكة الحب هذه أن تفعل سوى أن تبكى بكاء مريرا لأن أحدا لم ينفذ ارادتها وفاضت دموعها حتى ملأت ميدان المبارزة تماما ؟ وقالت :

« لقد لحقنى العار ولا شك » ، فقال ساتورنوس : « كفى عن الكلام يا ابنتى .. ان مارس قد بلغ مراده وأدرك فارسه ما ارتجاه من دعائه وأقول لك ورأسى أنك ستنعمين بالراحة قريبا » .

وارتفعت أصوات النفير بالموسيقى الرنانة وحناجر رسل الدوق وهم يصيحون معلنين ارادة الدوق كانوا فى أسعد حال ، وشاركوا السيد أركيتى فرحه . ولكن انصتوا الى قليلا وانتظروا برهة حتى تعرفوا ما حدث بعد ذلك من معجزة ففى غضون ذلك كان أركيتى هذا الرجل الصارم قد فك رباط خوذته وامتطى جوادا جسورا ، .. وكشف عن وجهه ، وأخذ يسير ذهابا وايابا فى

ساحة الميدان ناظرا الى أعلى ليرى اميلى فأرسلت له نظرة عطوفة (لأن المعروف ان النساء كلهن يتبعن ما يقدره الحظ) وكانت عواطفها كلها متجهة اليه ، وفجأة ظهر عفريت مخيف انشقت عنه الأرض • وكان بلوتو قد أرسله بناء على طلب ساتورنوس ، فخاف جواد أركيتى والتفت وقفز جانبا • ولما قفز تعثر ووقع • وقبل أن يستطيع أركيتى أن يحافظ على توازنه وقع على أم رأسه وبقى مطروحا على الأرض كأنه جثة هامدة ، وقد مزق صدره قربوس السرج الأمامى • وبقى ملقى على الأرض أسود اللون كأنه غراب أو قطعة من الفحم وكان الدم يسيل من وجهه • وحمله الناس بعد ذلك الى قصر ثيسيوس خارج الميدان وفى قلوبهم غصة وقطعت عنه مشابك دروعه وطرح برفق وحنان على سرير ، اذ كان لا يزال يعى ما حوله وكان ينادى دائما على اميلى •

وعاد ثيسيوس الدوق على رأس كل حاشيته الى أثينا مدينته فى موكب مهيب عظيم ممتلئا بالفرح ، اذ أنه بالرغم من سوء الحظ الذى وقع لم يكن يريد أن يبث الحزن فى نفوس الناس أجمعين • وقال البعض ان آركيتى لن يموت بل سيشفى من جروحه ويبل من مرضه ، وكان هناك سبب آخر لسعادتهم هو أن أحدا لم يقتل فى هذه المناسبة وان كان البعض قد خرج مصابا بجروح بالغة ، وبخاصة ذلك الذى تلقى طعنة نفذت من خلال درعه الى عظام صدره • وفى سبيل شفاء جروحهم وأذرعهم المهشمة لجأ البعض الى المراهم والبعض الآخر الى التمائم وعقاقير من الأعشاب ، كما شربوا خلاصة عشب المريمية حتى تندمل جروح أعضائهم • ومن أجل ذلك أخذ هذا الدوق الكريم يقدم السلوى والتكريم لكل امرىء ، وأقام ولائم الفرح طوال الليل تكريما للفرسان الغرباء ، كما تقضى بذلك قوانين اللياقة • والحقيقة أنه لم يحدث نصر ولا هزيمة الا فى حدود المبارزة وألعاب تبادل الطعن « فالحق أن البطل لم يهزم انما وقع بمحض الصدفة كما أن غريمه لم يذهب الى الوتد رغم أنفه محاطا بعشرين فارسا ، وانما كان وحده ولا أحد معه وكان كثير من أعدائه حوله قد اقتيدوا بجر أذرعهم وأقدامهم وأصابع أقدامهم فى حين دفع جواده الى الأمام بالعصى على يد الجنود ، سواء كانوا من حاشية الدوق أو من خدمه • ومن ثم كان ما حدث له لا يعد عارا اذ أن أحدا لا يمكن أن يعتبر ما حدث جبنا منه •

ولذلك أمر ثيسيوس رسله بأن يعلنوا أمره بوضع نهاية لكل أعمال الحقد والحسد ، لأن الطرفين يستحقان الامتياز على قدم المساواة ، باعتبار أن كل جانب صنو للجانب الآخر فى البسالة والشجاعة • وأعطاهم جميعا الهدايا ، كل واحد منهم حسب درجته ، وأقام الأفراح والأعياد لمدة ثلاثة أيام كما اصطحب الملوك بعد ذلك بنفسه الى خارج مدينته على مسافة يوم من السفر • ومن ذلك عاد كل امرىء الى بيته سالكا أحسن الطرق ولم يبق شىء يقال الا « الوداع وطاب يومكم » لذلك أكف الآن عن الكلام فى المبارزة الكبرى وأنتقل الى بالامون وأركيتى •

لقد ظل صدر أركيتى يتورم حزنا واستمر الألم فى قلبه يتزايد ، والدم المتجلط يتعفن فى جسمه ويحتبس على الرغم من كل علم الأطباء حتى لم تعد تفيد فيه الفصـــاد أو الحجامة أو شراب عصارة الأعشاب ، لأن القدرة الطاردة أو الحيوانية فى جسمه ـ تلك القدرة التى توصف بأنها طبيعية ـ لم تستطع طرد السم السارى فى جسده • وأخذت عروق رئتيه تتورم وكل عضلة من عضلات صدره المجروح تصاب بالسم والعفونة ، ولم يعد يستطيع أن يحافظ على نسمة الحياة بأن يخرج القىء من أعلى ولا أن يتبرز السم بمساعدة حادور أو مسهل •

وفى تلك المنطقة من جسمه تلف كل شىء ولم يعد للطبيعة فيها أى سلطان ولا شـــك فى أنه حيث لا تعمل الطبيعة فوداعا للطب ! فهيا اذهبـوا واحملوا المسكين الى الكنيسة •• وخلاصة الأمر أن أركيتى كتب عليه أن يموت فبعث برسول يدعو اميلى وبالامون ابن خالته العزيز • ثم قال ما يأتى كما ستسمعون :

« لن تستطيع الروح التعيسة تهيمن على قلبى أن تكشف لك عن كل آلامى يا سيدتى : يا من أحبها أكثر من جميع النساء • وانى أوصيك بالصلاة على روحى الراحلة وهذه وصيتى لك وحدك دون أى مخلوق آخر ـ مادامت حياتى لا يمكن أن تستمر بعد اليوم • ويلى •• ويحى ! ويلى ! ما أشد الآلام التى تحملتها فى سبيلك وما أطولها •• آه •• من الموت •• آه • يا اميلى يا حبيبتى •• آه من الفراق •• وآه يا ملكة قلبى ! يا زوجتى ! آه من مالكة قلبى والقاضية على حياتى! ما هذه الدنيا ماذا يطلب الناس ؟ ان المرء يكون آنا فى صحبة حبيبه وأنا آخر وحيدا لا رفيق له فى لحده الوداع يا أعذب أعدائى يامن أنت لى يا اميلى أتوسل اليك أن تأخذينى بين ذراعيك برفق بحق محبة الله وأن تنصتى لما أقوله لك :

« لقد نشب بينى وبين ابن خالتى بالامون القتال واشتد بيننا الحقد منذ أيام طويلة بسبب حبى لك وغيرتى منه ، ألا فليحافظ جوبيتر الحـكيم على روحى وليرشدها وانى لا أعرف مثل بالامون عبدا له (وفيما يتعلق بالأخلاق اللائقة لفن خدمة الحب الرفيع أى الاخلاص والشرف والفروسية والحكمة والوداعة وسمو المنزلة والسلالة الرفيعة) نعم وحق حماية جوبيتر لروحى ، لا أعرف أحدا فى هذه الدنيا جديرا بالحب جدارة بالامون عبدك الذى يخدمك وسوف يضع نفسه فى خدمتك طوال حياته • واذا قدر لك أن تصبحى زوجة فلا تنسى بالامون ذلك الانسان الكريم » •

ولما قال ذلك بدأت قدرته على الكلام تتلاشى لأن برودة الموت بدأت تسرى من أطراف قدميه حتى وصلت الى صدره وتغلبت عليه تماما ، زد على ذلك أن القوة الحيوية قد غادرت ذراعيه وانصرفت عنه ، وبعد قليل لم يبق الا العقل المدرك الذى كان يسكن فى قلبه المتألم المريض ، وأخذ بدوره يتلاشى عندما شعر القلب ببرودة الموت تسرى فيه ثم كلت عيناه عن النظر وخفت تنفسه ، ومع ذلك

فان آخر نظرة له كانت هى التى ألقاها على مالكة قلبه وآخر كلمة فاه بها كانت « الرحمة يا اميلى ! » . ثم انتقلت روحه من بيتها الى حيث لم أذهب أبدا .

ومن ثم لا أستطيع أن أقول الى أين ذهبت ، لذلك انقطع عن الكلام فى ذلك اذ أننى لست عرافا أتنبأ بالمستقبل ، ولا أجد فى سجلاتى ما يلزمنى بأن أتحدث عن مصير الأرواح ، ولا أريد أن أقص لكم آراء أولئـــك الذين يؤلفون الكتب فى وصف مخادعها . وهكذا أصبح آركيتى جثةهامدة باردة لشخص شـــمل مارس روحه برعايته ، والآن انتقل الى الكلام عن اميلى .

لقد ارتفع صوت اميلى بالنحيب وصرخ بالامون وحمل ثيسيوس أخته بعد أن أغمى عليها وانتزعها من جوار الجثة . وما الفائدة فى قضاء اليوم كله فى وصف بكائها ليلا ونهارا ! ففى مثل هذه الحالات يشتد الحزن بالنساء عندما يرحل عنهن أزواجهن مثلا ، ويصل الى الحد الذى لا ينقطعن فيه عن النحيب والا مرضنمرضا شديدا يودى بهن حتما فيلقين حتفهن فى آخر الأمر .

ولا حد لأحزان ودموع الشيوخ مثلهم فى ذلك مثل الفتيان فى جميع أنحاء المدينة على موت هذا البطل الطيبى . لقد بكى من أجله الطفل والكهل معا . ولم يبلغ النحيب على هيكتور لما حمل الى طروادة أثر قتله درجة ما بلغه فى هذه الحالة . آه من الأسى وخمش الخدود وتمزيق الشعر ! وصاحت النساء « أكان لابد من أن تموت ومعك ما يكفيك من الذهب واميلى » . ولم يستطع أحد أن يبث السعادة فى قلب ثيسيوس سوى أبيه العجوز احيوس الخبير بتقلبات هذه الدنيا اذ أنه كثيرا ما شهدها تهبط من عال الى أسفل وتتعاقب فيها البهجة بعد الحزن والحزن بعد البهجة ، وقد ذكر له بعض الأمثلة على هذه الحال قائلا :

« كما لم يمت أحد قط الا بعد أن تبوأ فى هذه الدنيا منزلة ما ونال درجة ما . فكذلك لم يعش أحد قط الا وكتب عليه فى آخر الأمر أن يموت .. ان هذه الدنيا ليست الا طريقا للشقاء ، ونحن لسنا الا حجاجا نمر فيه ذهابا وايابا والموت يضع حدا لكل آلام الدنيا » وزيادة على ذلك قال أشياء كثيرة أخرى لكى يقدم السلوان للناس فى حكمة وحصافة .

واهتم بعد ذلك الدوق ثيسيوس بالبحث عن مكان لائق يدفن فيه جثمان أركيتى الكريم ، يتفق مع سمو منزلته . وفى نهاية الأمر استقر رأيه على نفس المكان الذى اختاره بالامون وأركيتى ميدانا لمبارزتهما الأولى أى فى الغابة الخضراء الرطبة ، حيث عبر عن شوقه وبث شكواه ولوعةحبه الملتهب ، وقرر أن يقيم فى هذا المكان محرقة حيث يمكن القيام بكل شعائر الجنازة . ثم أمر بقطع فروع أشجار البلوط العتيقة ووضعها فى صـــفوف معدة للاحتراق . فهرول ضباطه وتابعوه لتنفيذ أوامره وامتطوا جيادهم وعادوا سريعا نزولا على مشيئته . وبعد ذلك أمر ثيسيوس باحضار تابوت وألقى فوقه سترة من القصب ، كانتمن أثمن

ما لديه ثم أمر بالباس أركيتى القماش نفسه ووضع القفازات البيضاء على يديه كما توج رأسه باكليل من الغار الأخضر ووضع فى يده سيفا حادا لامعا · ثم وضعه فى التابوت حاسر الوجه ، وعندئذ انفجر باكيا بكاء يمزق قلوب الحاضرين· ولكى يستطيع النـاس جميعا أن يروا أركيتى حمـل جثته الى القصر لما انبلج النهار · وارتفع من كل ناحية زئير النحيب والبكاء ·

ثم حضر بالامون ، ذلك البطل الطيبى الحزين وكانت لحيته غير مرجـلة وعلى شعره آثار الرماد ورداؤه أسود بللته الدموع · أما اميلى فكانت تفوق كل الحاضرين فى البكاء بل كانت أشد الموجودين تعاسة ، ومحافظة على علو منزلة الراحل الكريم جعل ثيسيوس الشعائر الجنائرية تتناسب مع علو درجته ، فأمر باحضار ثلاثة جياد كريمة مسرجة بسروج من الصلب اللامع البهى وعليهـــا شعارات الفارس أركيتى · وكان يمتطى هذه الجيـــاد العالية البيضاء رجال ، أحدهم يحمل ترس البطل ، وآخر يمسك حربته بين يديه ، وثالث يحمل قوسه التركى الثمين ، وكانت كنانة السهام منالذهب الحر وكذلك اللجام · وركبوا الى الغابة · وساروا فى بطء ووجوهم تعبر عن الحزن والأسى ، وحدث ذلك على النحو الذى ستسمعونه . كان أعلى الاغريق منزلة يحملون التابوت على أكتافهم وأخذوا يمشون مشيا وئيدا وعيونهم كلها مبتلة حمراء مخترقين الطريق الرئيسى فى المدينة ، وكانت تتدلى على جانبى الطريق ستائر سوداء · وكانت هذه الستائر قد علقت فى كل أنحاء المدينة · وعلى يمين التابوت كان اجيوس العجوز يسير وعلى الجانب الآخر الدوق ثيسيوس وكانا يحملان فى أيديهما أوعية من الذهب الخالص ممتلئة بالعسل واللبن والدماء والنبيذ ، وأقبل كذلك بالامون مع رفاقه العظام ، ثم تبعته اميلى الحزينة وهى تحمل شعلة بين يديها اذ كانت التقاليد فى ذلك الوقت تقضى بأن تقام الشعائر الجنائزية على هذا النحو ·

وقد بذلت جهود كبرى فى اعداد الشعائر الجنائزية ، واقامة المحرقة التى وصلت قمتها المغطاة بالغصون الخضراء الى عنان السماء ، كما كان عرضها عشرين قامة ، وان دل هذا على شيء فانما يدل على امتداد الغصون فى المحرقة · ففى بادىء الأمر وضح أكثر من حمولة من القش ولكنى لا أســـتطيع أن أقول لكم كيف أقيمت بقية المحرقة حتى وصلت الى مثل هذا العلو ، كما أننى لن أذكر (٣٩) لكم أسماء الأشجار المختلفة التى استعملت فى المحرقة من البلوط والصنوبر والبتولا والحور الرجاج والحورة الروميـــة والســنديان والدلب والصفصاف والدردار واليصنار والبوداق والبقس وأبى فروة والزيزفون والفار والاسفندان والشوك والزان والبندق والسرو والقرانيـا كما أننى لن أذكر كيف تم قطعها واعدادها · ولن أقص عليكم كيف أخذ الآلهة يهيمون على وجوههم لطردهم من مأواهم الطبيعى حيث كانوا يعيشون فى راحة وسلام وكيف أخذت تهيم جنيات الجداول والحراج والحوريات · ولن أقص لكم كيف فر الحيوان والطيور خوفا

بعد قطع الأشجار ولا كيف فزعت التربة من رؤية الضوء اذ أنها لم تألف رؤية الشمس المشرقة من قبل ، ولا كيف رتبت أكوام القش على المحرقة ثم شقت جذوع الأشجار الجافة ثلاثة أجزاء ، ثم وضع الخشب النضير وخلط بالتوابل والعطور ثم القماش المقصب والجواهر والأحجار الكريمة والأكاليل المرصعة بزهور كثيرة ثم المر والبخور ذو الرائحة القوية • ولن أقص عليكم كيف ألقى أركيتى على كل ذلك ، ولن أتحدث عن شراء ما كان يحيط بجثته ، وكيف أشعلت اميلى المحرقة حسب الطقوس المألوفة ، وكيف أغمى عليها لما أضرم الناس اللهب • ولن أحدثكم عما فاهت به ، وما كانت تتطلع اليه فى ذلك الوقت ، وما ألقاه الناس من جواهر فى النار عندما اشتد لهيبها وبلغت أوج اشتعالها • ولن أقص عليكم شيئا عن أولئك الذين ألقوا تروسهم وأولئك الذين قذفوا بحرباتهم أو أرديتهم كيفما اتفق وبأقداح من النبيذ واللبن والدم فى النار المشتعلة كالمجنونة • ولن أقص عليكم كيف ركب الاغريق وطافوا بالمكان ثلاث مرات متجهين نحو اليســـار رافعين عقائرهم بصيحة كبرى • ثم طافوا ثلاث مرات بخشخشة حرباتهم • ولن أروى لكم كيف ارتفع نحيب النساء ثلاث مرات ، وكيف حملت اميلى الى البيت ، وكيف احترق أركيتى حتى صار رمادا باردا ، وكيف تمت السهرة فى تلك الليلة ، وكيف قام الفرسان الاغريق بألعابهم الجنائزية • ولن أقص عليكم العرض الذى قام به المصارعون وهم عراة ، وأجسامهم ممسوحة بالزيوت ، ومن الذى انتصر فى هذه الألعاب بلا صعوبة • كما أننى لن أقول لكم كيف عادوا كلهم الى أثينا بعد انتهاء مهرجان الألعاب الجنائزية • وانما سأنتقل بسرعة الى لب الموضوع وأصل بقصتى الطويلة الى نهايتها •

فبمرور الزمن وبعد مضى بضع سنين كف الاغريق بالاجماع عن النحيب والدموع ، ويبدو لى أنه أقيم بعد ذلك مجلس شورى فى أثينا لمناقشـــة بعض الموضوعات والقضايا ، ومن بين الموضوعات التى نوقشت ضرورة ابرام الحلف مع بعض البلاد وضمان خضوع الطيبين لأثينا خضوعا تاما • وفى سبيل ذلك استدعى ثيسيوس الكريم بالامون عريق النسب دون أن يعرف هذا الأخير لماذا استدعاه • فمثل بين يدى ثيسيوس مرتديا ملابسه السوداء التى تدل على أنه حزين حقا • وأمر ثيسيوس باستدعاء اميلى • وعندما نفذت أوامره وأخلد الناس الى السكون فى ذلك المكان سكت ثيسيوس قليلا قبل أن يبدأ الكلام وقبل أن تصدر كلمة واحدة من أعماق صدره الحكيم وجه أنظاره فى الاتجاه الذى اعتاد أن يتطلع اليه وبوجـه ينطق بالحزن والأسى تنهد ثم عبر عمـا كان يجيش فى صدره على النحو الآتى (٤٠) : •

« ان المحرك الأول للأسباب السماوية عندما بدأ يصنع سـلسـلة الحب الجميلة أنجز شيئا عظيما يتناسب مع نيته الســامية ، كان يعرف حق المعرفة ما كان يقصده من ذلك اذ ربط بهذه السلسلة النار والهواء والماء والأرض فى

قيود معينة حتى لا تفر بعيدا » واستطرد قائلا : وهذا الأمير الآمر ٠٠ هذا ٠٠ المحرك ذاته قد عين فى هذه الدنيا التعيسة بعض الأيام وقدر الآجال المحددة لكل ما يولد فى هذا المكان ٠ ولا يستطيع أحد أن يتجاوز هذا الأجل ولكنه يستطيع أن يختصر من أيامه المحددة بمحض ارادته ، وهذا أمر لا يحتاج أن نرجع فيه الى ثقة نستند اليه ، وانما تدل عليه التجارب والخبرات ، ولا أريد الآن الا أن أعبر لكم عن رأيى فى ذلك الأمر ٠

ومن ثم يستطيع الانسان أن يلاحظ أن هذا النظام فيه المحرك الأول أبدى صمد ثابت ٠ والناس يعرفون كل ذلك حق المعرفة ، ولكن من يظن أن كل جزئية فى الكون مستمدة مباشرة من هذا الكل ليس الا أحمق ٠٠ لأن الطبيعة لم تبدأ من جزء معين أو مقطعة من شيء وانما نشأت من شيء كامل ثابت ثم نزلت وهبطت حتى أصبحت فاسخة قابلة للفساد ٠

ولذلك أمر بما أوتى من حكمة وبصيرة أن تكون أحوال الدنيا بحيث لا تدوم الأشياء بأجناسها وتطوراتها الا بالتتابع والتوالى ، وألا تظل على حالها الى الأبد وهذه هى الحقيقة التى يمكنكم ادراكها وتمييزها بوضوح ٠

ها هو ذا البلوط الذى لا ينمو الا بعد وقت طويل منذ بدأ فى الظهور على وجه الأرض والذى يعيش عمرا مديدا كما يبدو ذلك جليا لنا جميعا ، بيد أنه فى نهاية الأمر يذبل ويضمحل ، وتأملوا أيضا ذلك الحجر الصلب تحت أقدامنا ذلك الحجر الـذى نمشى فوقه ونطأه ينتهى بأن يمحى وهـو ملقى على قارعـة الطريق ٠ وها هو ذا النهر الواسع يجف أحيانا وها هى ذى المدن العظمى تندثر وتفنى ٠

وعلى ذلك يمكنكم أن تعرفوا أن لكل شيء نهاية ٠ ويمكننا أن نرى جليا أن الرجل والمرأة لابد من أن يموتا فى وقت ما أى فى شرخ الشباب أو فى الشيخوخة ولابد من أن يموت الملك مثلمـا يموت تابعه ، يموت فى الفراش والبعض فى أعماق البحار والبعض الآخر فى الحقل الواسع كما يبدو ذلك جليا لكل الناس ، ولا مفر لنا من ذلك فالكل يسلكون نفس الطريق ٠ ولذلك أستطيع أن أقول ان كل هذا الذى نشهده هالك لا محالة ولا صانع لذلك الا جوبيتر الملك المالك لكل شيء والمسبب له أليس هو الذى يحول كل شيء ، ويرشده الى منبعه الحق الذى نشأ منه أولا فى واقع الأمر ؟ ولا يستطيع أى مخلوق حى مهما كانت منزلته أن يتجنب هذا المصير ٠

اذن يبدو لى أن من الحكمة أن نحول مقتضيات الحال الى فائدة وفضيلة وأن نتقبل بصدر رحب مالا يمكن أن نفلت منه ، وهو ذلك المصـير المكتـوب لنا جميعا ومن يشكو أو يئن من شيء فهو أحمق ومتمرد على سلطة قادرة على تدبير كل الأمور وتوجيهها الى حيث تريد ٠ ولا شك أن قمة الشرف للمرء أن يموت فى عنفوان شبابه وقد بلغ ذروة الامتياز وهو مطمئن لحسن سمعته ٠ عندئذ

اذا مات فانه لا يكون قد أساء الى صديق أو ألحق بنفسه عارا ما ــ وخير لصديقه أن يزداد فرحا عند هلاكه اذا كان قد جاد بأنفاسه الأخيرة بطريقة مشرفة ، فهذا خير مما لو كدرت سمعته الشيخوخة ونسيت مآثره تماما • وعندئذ يكون خيرا للمرء فى سبيل مجد كريم أن يموت وصيته على أحسن ما يرام ، أما نقيض ذلك فانه يصبح من باب العناد والمشاكسة • فما الداعى الى أنيننا وشكوانا ؟ لماذا نحزن اذا كان أركيتى زهرة الفروسية ، قد رحل عنا محاطا بكل مظاهر التكريم مبرأ من كل عيب لاخلاصه للواجب ، وغادر سجن الحياة الدنس هذا ، ولماذا يئن ابن خالته وزوجته ويضجان بالبكاء على خيره وقد أحباه مثل هذا الحب الوفى ؟ أيستطيع أن يشكرهما على ذلك ؟ كلا والله أعلم ، فهو لا يستطيع أن ينبس بحرف واحد أو نقطة واحدة ! انهما يسيئان الى روحه والى نفسيهما معا ، ومع ذلك لا يستطيعان أن يعدلا ميولهما •

وفضلا عما يمكن أن أصل اليه فى عرض هذا الموضوع الطويل فاننى أريد أن أنصحكم بأن تتحولوا الى المسرح وأن تحمدوا جوبيتر على كل أفضاله ؟ وقبل أن نغادر هذا المكان أنصح بأن نحول هذين الحزنين الى ســعادة واحدة كاملة تدوم الى الأبد ، واذن انظروا الآن : حيث تكمن التعاسة القصوى تبدأ باصلاح الحال وتحسينه ؟ •

ثم استمر قائلا : « يا أختى هــذا هو قرارى بعد مشاورة مجلسى المنعقد هنا •• ها هو ذا بالامون الكريم فارسك المخلص الــذى يخدمك طائعا مختارا بقلبه ، وكان هــذا ما يعمله منــذ أن عرفك • نعم ها هو ذا بالامون وأرجو أن تسبغى عليه عطفك وأن تقبليه زوجا لك وسيدا لك : اذن هاتى يدك فهذا هو ما نريده ودعينا نرى منك عطف النساء • واعرفى أنه والله ابن أخ ملك • واذا كان حتى الآن مجرد مريد لدرجة الفارس فانه قد خدمك سنين طويلة ، ولقى فى سبيلك ما لاقاه من عوائق وشقاء ، الأمر الذى يحملك على أن تأخذى كل ذلك فى اعتبارك ، وأرجو أن تستجيبى الى طلبى ، لأن الرحمة الكريمة يجب أن تقدم على العدالة والحقوق •

ثم اتجه نحو بالامون قائلا له : « أنا واثق أنك لست فى حاجة الى من يعظك لتقبل عرضى هذا • فاقترب وضع يدك فى يد مالكة قلبك » •

وبعد ذلك أبرم بينهما العقد • ذلك العقد الذى يسمى زواجا أو زيجة أمام المجلس والاشراف أجمعين • وهكذا فى سعادة تامة وعلى أنغام الموسيقى تزوج بالامون من اميلى • وليمنحه الله خالق هذا العالم كله حبيبته التى فاز بها بثمن غال • لقد أدرك بالامون الآن قمة الخير ، وهو يعيش فى هناء وينعم بالغــنى والصحة ويحب اميلى حبا حنونا ويقدم لها خدمة كريمة ولم تصدر منهما أية كلمة تدل على الغيرة ولم يحد بينهما ما يملأ القلب كآبة •

وهكذا انتهت قصة « بالامون واميلى » وسلام الله على كل هــذه الرفقة الكريمة !! آمين •

(هنا تنتهى حكاية الفارس)

(هوامش حكاية الفارس)

(١) ولو أن تشوسر لم يعترف بمصدر معين لحكاية الفارس الا أنه بلا شك قد استوحى هذه القصة من قصيدة طويلة ايطالية للشاعر جيوفانى بوكاتشيو (Giovanni Boccaccio) الذى عاش من ١٣١٣ تقريبا الى ١٣٧٥ م واسم هذه القصيدة « ملحمة ثيسيوس وما تم بالنسبة لزيجة ايميليا) (La Teseida Delle Nozze d'Emilia) وكانت هذه القصيدة الملحمية قد كتبها بوكاتشيو فى اثنى عشر جزءا بفقرات شعرية من ٨ أبيات • وبلغ عدد هذه الأبيات ٩٨٩٦ الا أن قصيدة تشوسر فى حكاية الفارس لا تبلغ الا ٢٢٥٠ بيتا وان كانت أطول الحكايات فى مجموعته القصصية الشعرية • ويلاحظ أن بوكاتشيو نفسه يعترف بفضل نص قديم اقتبس منه قصته هو « ملحمة طيبة » (Thebaid) للشاعر الرومانى بوبليوس بابينيووس ستاتيوس (Publius Papinius Statius) الذى عاش من حوالى سنة ٤٠ م الى حوالى سنة ٩٦ م • وكان ستاتيوس يتمتع بشهرة كبيرة فى العصور الوسطى ، فقد أشار دانتى فى « المطهر » (٢٢ : ٨٩) الى أنه كان قد اعتنق المسيحية قبل موته • وهناك شك كبير فى التحقق من ذلك • أما تشوسر نفسه فقد وضعه على نفس المستوى من العظمة الذى وضع فيه هوميروس وأوفيد ولوكانوس فى ملحمته المسماة « ترويلوس وكريسايدا » (٥ : ١٧٩٢) • الا أن ملحمة ستاتيوس وان ذكرت الدوق ثيسيوس فانها لم تات بقصة بطليها بالامون واركيتى • وقد أجمع الشراح على أن الكاتب الذى أثر تأثيرا ملحوظا على تشوسر فى « حكاية الفارس » هو الفيلسوف الرومانى المسيحى بويثيوس (Boethius) الذى كتب « فى سلوى الفلسفة » (De Consolatione Philosophiae) فى القرن السادس الميلادى فان الفلسفة التى اقتبسها من هذا الكتاب (الذى كان قد ترجمه تشوسر فى الثمانينيات من القرن الرابع عشر) هى التى أنطق بها شخصيات حكايته ، وبذلك غيرها على كونها مجرد اقتباس من بوكاتشيو •

(٢) يروى ستاتيوس فى « ملحمة طيبة » (أى طيبة اليونانية لا المصرية) أن البطل الأسطورى ثيسيوس قد أصبح ملكا لأثينا بعد أن هجر أريادنى عشيقته الأولى ، وأنه قاد جيشا لفتح مملكة الأمازونات التى كانت تحكمها ملكة لا ملك ، وكانت جيوشها كلها من النساء • والقصة تقول ان ثيسيوس قد هزم جيوش النساء وخطف أنتونى أخت الملكة هيبوليتا عشيقة له • ولكن بوكاتشيو وتشوسر بعده غيرا من القصة قليلا بان جعلا ثيسيوس يخطف الملكة نفسها ويعود بها الى أثينا • ويلاحظ أن تلقيب ثيسيوس بأنه دوق (لا ملك) يصبغ جوا موحيا بالعصور الوسطى الأوربية على هذه القصة الأسطورية القديمة فكان لقب دوق أثينا معروفا فى زمنه ، وقد لقب به أحد قادة الجيش الفرنسى الذى قتل فى معركة بواتيه (Foitiers)

(٣) هذا الأسلوب فى الكلام الذى يعتمد على فكرة ترك الموضوعات جانبا والقول بعدم ذكر موضوعات ترد على سبيل الجرد المختصر كان أسلوبا من أساليب البلاغة اللاتينية واسمه « النفى توقعا للاعتراض » (occupatio) وكان هذا الأسلوب يستعمله تشوسر كثيرا فى أغلب كتاباته حيث يجد نفسه مضطر للاطالة فى الشرح والوصف •

(٤) ان « ربة الحظ » موضوع من الموضوعات الهامة فى الفنون وفى الشعر فى العصور الوسطى • فالايمان المسيحى القوى حينذاك كان يحتم بأن الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن تنسب له الكوارث والآلام اذ أنه خير بطبيعته • فأخذ الفلاسفة والأدباء يتصورون جدلا قوة محركة ثانوية اقتبسوها من « ربة الحظ » (Fortuna) فى الأساطير الرومانية وصوروها على أنها ملكة متربعة على عرش غالبا كفيفة أو مكمومة العينين تدير عجلة لا تكف عن الدوران ترفع الناس بدون تفرقة الى أعلى مراتب السعادة والحظ ثم تهبطهم الى أعماق اليأس أو الكارثة • وكان تشوسر فى كل شعره يهتم اهتماما خاصا بهذه الشخصية الأسطورية التى تعمل بشىء من الحرية العشوائية فى ظل نظام علم فى الكون خاضع للعناية الالهية •

(٥) كان « كابانيوس » أحد الأبطال السبعة الذين اشتركوا فى حصار مدينة طيبة (كما جاء فى الأساطير اليونانية القديمة وفى مسرح أيسخولوس (Aeschylis) المأسوى) وكانت زوجته تدعى ايفادنى (Evadne) وقد سحقه زيوس رب الآلهة بصاعقة جزاء له على كبريائه وتفاخره الرنان •

(٦) روح العصور الوسطى الأوربية تغمر هذه القصة كلها بالرغم من أن وقائعها المفروض أنها تدور فى وقت قديم وثنى لا معرفة فيه لله ولا لمحبته وكثيرا ما نجد تشوسر فى هذه القصة يخلط بين الوثنية والمسيحية وبين تعدد الآلهة والاله الواحد • وان هذه الفقرة تشمل ذكر الله وربة الحظ والتنجيم فى آن واحد الأمر الذى يعطى جوا مميزا لشعر العصور الوسطى المستوحى من العصر الكلاسيكى القديم •

(٧) نفاذ الحب الى القلب كأنه سهم يأتى من عين المعشوقة صورة شعرية مألوفة فى العصور الوسطى قد تكون متصلة بالشعر العربى عن طريق ترجمة شعراء الأندلس على يد التروبادور • انظر شعر بها الدين زهير وغيره •

(٨) سلسلة الحجج هذه توحى بمحاولات أدباء العصور الوسطى الذين كانوا يكتبون فى شعرية الحب الرفيع الهوى العذرى ولكنها مستوحاة أيضا من كتاب بويثيوس « فى سلوى الفلسفة » وفيه ترجمة صريحة • لما جاء فيه بخصوص حب أورفيوس ليوريديكى •

(٩) القانون الوضعى هنا معناه القانون الذى يؤخذ به فى المجتمعات البشرية والذى يتميز عن القانون الطبيعى الذى هو من وضع الله •

(١٠) أغلب الظن أن مصدر هذا الاستطراد هو كتاب الشاعر الرومانى أوفيد المسمى « رسائل شعرية من البحر الأسود » (Epistolae ex Ponto)

(١١) ان نظرية الأخلاط والأمزجة المكونة للانسان والمتصلة بالعناصر الأربعة فى الكون كانت شائعة شيوعا تاما فى العصور الوسطى ، ويعود اليها تشوسر مرارا فى كل ما كتبه • ولهذه النظرية شيوع أيضا عند العرب •

(١٢) كل هذه الأفكار مستوحاة بل مترجمة من كتاب بوثيوس المذكور أعلاه •

(١٣) هذا تشبيه مألوف فى العصور الوسطى ولا يعرف مصدره •

(١٤) وما بعده هذه العبارات جزء من تراث أخلاقى مألوف وفيه ينسب الشاعر الى شخصية وثنية عواطف وأفكارا كانت منتشرة فى كتب الأخلاق والدين فى العصور الوسطى • ومن أوضح المصادر لهذا النوع ما جاء فى الكتاب الأول من محاورة « فى سلوى الفلسفة » لبوثيبوس وأيضا

فى كتاب فى الزهد والأخلاق شاع فى العصور الوسـطى هو « فى احتقار شـئون الدنيا » (De Contemptu Mundi) للبابا انوكنتوس (Innocentus) الثالث ٠

(١٥) ذكر ستاتيوس فى « ملحمة طيبة » أن الالهة جونو (Juno) قد غضبت من أهل طيبة لأن زوجها جوبتر رب الآلهة قد ضاجع سيميلى (Semele) والكمينا (Alcmena) فى هذه المدينة ٠ وقد ذكر هذه القصة بوكاتشيو مستمدا اياها من أصول كثيرة أهمها كتاب مسـخ الكائنات » (الكتاب الثالث البيت ٢٥٣ وما بعده) للشاعر الرومانى أوفيد (الذى ترجمه الى العربية لأول مرة فى عصرنا هذا الدكتور ثروت عكاشة) ٠

(١٦) مثل هذه « المسائل العشقية » (demandes d'amour) كانت منتشرة جدا فى أدب الحب الرفيع (Courtly love) فى العصور الوسطى وخاصة فى آداب بروفنسا وايطاليا ٠ وقد عرض مثلها الشاعر بوكاتشيو وتشوسر نفسه فى « حكاية مالك الأرض » ٠ ولمثل هذه المسائل مقابلات كثيرة فى الآداب الغربية والشرقية ٠

(١٧) الوصف هنا قريب جدا من الأصل الذى أخذ منه فى ملحمة بوكاتشيو ، ومن الواضح أنه يعتمد الى حد بعيد على المعلومات الطبية الشائعة حينذاك وخاصة على أعمال جالينوس الذى لعب دورا هاما فى وسوخ قواعد طب أوربا فى العصور الوسطى والطب العربى ٠ وخلاصة النظرية التى تعتبر أساس هذا الوصف تتلخص فيما يلى : فالهواء ينطلق من الرئة ليصل الى بطين القلب الأيسر ٠ أما الكبد فيحول الأغذية المختلفة الى دم خام ثم يحول مرة أخرى الى ما يسمى بالروح الطبيعية التى تتحكم فى القدرة على النمو والتغذية ٠ ثم ينتقل بعض الدم الخام من الكبد الى البطين الأيمن فى القلب حيث يختلط بالهواء من الرئة ويتدفأ بالحرارة الموجودة أصلا فى القلب ويبقى فيها حتى نهاية الحياة ٠ وطوال مكوثه فى القلب يتحول هذا الدم الى نوع أرقى وأرق يشتمل على ما يسمى بمبدأ الحياة أو « الروح الحيوية » ٠ وبعض هذا الدم المقطر الرقيق يحمل « الروح الحيوية » الى المخ الذى يعتبر مقر النفس (anima) ويتولد من هـذا الـدم الرقيق أصـفى الأرواح وهى ما تسمى « بالروح النفسية » التى تستقل عن الدم وتنتقل من خـلال الأعصـاب (التى كان يظن أنها جوفاء) الى كل أطراف الجسـم حيث تتحكم فى حركاته ووظائفة الرفيعة كالتفكير مثلا ٠ أما المخ فينقسم ثلاثة خلايا ، والخلية الأمامية مقر « الحس » الموحد أو « العام » وما كان يسمى بالفنطاسيا (Phantasia) وهو الحس الذى يؤدى وظيفة الادراك والفهم أما الخلية الوسطى فهى مقر العقل والثالثة مقر الذاكرة ٠

أما الأخلاط الميزاجية التى تقابل العناصر الأربعة فهى تنتقل فى الجسم من خلال الأوردة وتؤثر فى سلوك الانسان اذا أدركت المخ ٠ وسوء توازن الأخلاط قد يؤدى الى هوس مثل الهوس السودوى الذى يتصل مباشرة بمرض العشق المذكور (maladye of hereos) ويلاحظ أن كلمة hereos اللاتينية والانجليزية تظهر أنها متصلة بكلمة heros التى تعنى « بطل » باللاتينية ولكن الأصح أن التأصيل يعود بالكلمة الى أصل يونانى هو eros (أى العشق الجنسى) ٠ والخلط بين الكلمتين أدى الى فكرة أن مرض العشـق متصل الى حد بعيـد بمرض الأبطال وأن الأبطال والاشراف هم أكثر الناس عرضة لمثل هذا المرض المشتق من الأخلاط السوداوية ٠

(١٨) كان الاله ميركوريوس (Mercuriis) عند الرومان اله التجارة والكسب والحظ السعيد والرحلات ، كما كان رسول الآلهة يقابل هريمس (Hermes) عند قدماء الاغريق ومن صفات ميركوريوس أنه كان يتكهن بالمستقبل ٠ أما وصف ميركوريوس فهو قريب جدا من

ذلك الذى أتى به الشاعر أوفيد فى ملحمته « مسخ الكائنات » (Metamorphoses) (انظر الكتاب الأول ، البيتين ٦٧١ و ٦٧٢ فى الترجمة العربية للدكتور ثروت عكاشة) .

(١٩) اسم فيلوستراتوس مستعار من الملحمة التى كتبها بوكاتشيو تحت هذا الاسم (Il Filostrato) والتى اقتبس منها تشوسر ملحمته « ترويلوس وكرسايدا » . وهى كلمة نحتها بوكاتشيو من كلمتين يونانيتين هما «فيلوس» (philos) أى الحب و «ستراتوس» (Stratos) أى « مهزوم أو مصاب » .

(٢٠) الملك كادموس (Cadmus) هو مؤسس مدينة طيبة اليونانية حسب الأساطير القديمة . أما أمفيون (Amphion) فهو من بنى أسوار المدينة بسحر الموسيقى التى كانت تصدر من قيثارته . وكل هذه الأساطير قرأها تشوسر فى أحب كتاب اليه وهو ملحمة « مسخ الكائنات » المشار اليها أعلاه .

(٢١) التراوح بين التضرع الى الله سبحانه وتعالى والى آلهة الوثنية أمر متكرر فى هذه الحكاية فينسى تشوسر أحيانا أن أحداث الحكاية تقع فى عهد الوثنية .

(٢٢) الاله كوبيد (Cupid) يقابل ايروس (Eros) عند الاغريق وهو اله شاب (قد يصور على أنه طفل أحيانا) يرعى الحب الجنسى وهو ابن فينوس الهة الحب .

(٢٣) تصوير الاله « مارس » اله الحرب بأنه أحمر كناية عن افتراسه وغضبه .

(٢٤) الطائر الوقواق كان مشهورا بالجهل والحمق فى قصائد العصور الوسطى وقصصها أما الأرنب البرى فلا .

(٢٥) هذه الخطبة الشعرية مميزة لشعر الحب الرفيع فى العصور الوسطى ويتكرر مثله فى قصائد كثيرة ومختلفة شأنها شأن الغزل فى الشعر العربى .

(٢٦) كناية عن العمل العقيم .

(٢٧) قد خلط تشوسر هنا بين جبل كثايرون (Cithaeron) مأوى الاله ديونيسوس وجزيرة كيثرا (Cythera) وطن الالهة أفروديتى أو فينوس .

(٢٨) قائمة « شهداء الغرام » هذه منقولة مع التغيير والاضافة من بوكاتشيو ، وهى أيضا مستوحاة من كتاب « مسخ الكائنات » لأوفيد . فأسطورة نرجس هى أن الهة العقاب نيميسيس (Nemesis) قد حكمت عليه بأن يفتن بوجهه المنعكس فى الماء وأن يموت تشوقا له لأنه كان قد لفظ حب ايكو (Echo) التى كانت قد ماتت حزنا . أما الملك سليمان فهو مثال للحكيم الذى تسخره النساء فى كثير من قصائد العصور الوسطى . وأما هرقل اله القوة البدنية عند الاغريق والرومان فقد فتن بفتاة اسمها ايولى (Iole) فغضبت زوجته ديانيرا (Deianira) وأرسلت له قميصا مسموما أهلكه اهلاكا مؤلما . أما ميديا فالبرغم من علمها بخيانته قد استعملت سحرها لتمكين عشيقها ياسون من الحصول على الجرة الذهبية وأما كيركى (Circe) فقد سحرت رفاق يوليسيس (Ulysses) الذى لم يقع فى شراك سحرها الا أنه أحبها حبا خالصا . وقد بارز تورنوس البطل انيياس (Aeneas) للحصول على لافنيا بنت لاتينوس ، ولكنه مات فى المبارزة (وهذه القصة مأخوذة من الانيادة لفرجيل . ولا مبرر فى الواقع لذكر كريسوس اذ أنه ليس من العشاق الا اذا إعتبرناه عاشقا للغنى !

(٢٩) وما بعده تجسيد المعانى المجردة فى الوصف منهج من مناهج الابداع الشعرى فى

العصور الوسطى ، وكثيرا ما لجأ له تشوسر فى أماكن مختلفة • فالقصص الرمزى عامة (Allegoria) هو الأسلوب الشائع فى أغلب ما كان يكتب اما للعبرة أو لمجرد التسلية فى القصص وقتئذ •

(٣٠) روبيوس (Rubeus) أى « الأحمر » وبويلا (Puella) أى « الفتاة » تسميتان لاثنتين من ست عشرة تشكيلة ممكنة فى التنجيم وقراءة الحظ من خلال أوضاع النجوم فى السماء •

(٣١) هذه اشارة الى كتاب لشخص يدعى ألبريكوس (Albericus) ازدهر فى القرن الثانى عشر وحاول أن يصف فيه صور الآلهة القدامى وسلالاتهم وعنوان هذا الكتاب « فى صور الآلهة » (De Deorum Imaginibus) حيث يقول المؤلف ان تأصيل كلمة « مارس » يرجع بها الى كلمة « مافورس » (Mavors) المشتقة من mares vorans أى «ملتهم الذكور» وهو لقب من ألقاب الذئب •

(٣٢) ان الأساطير المصورة على جدران معبد ديانا مأخوذة كلها من كتاب « مسخ الكائنات » لأوفيد • والقصة أن كالستو (Callisto) قد ضاجعها رب الآلهة جوبتر فغضبت منها ربة العفة ديانا ومسختها دبة ثم اقتنصتها أثناء احدى رحلات الصيد التى كانت تقوم بها • ولكن رب الآلهة حولها بعد ذلك الى كوكبة الدب الأكبر شفقة عليها • وتشوسر هنا وقع فى خطأ اذ أن الكوكب الشمالى أو النجم الشمالى موجود فى كوكبة الدب الأصغر • أما دفنى (Daphne) فهى حانة غابة أحبها الاله أبوللو وطاردها ليهتك عرضها فتضرعت لديانا ربة العفة التى حولتها الى شجيرة غار • وأكتايون (Actaeon) كان صيادا لمح الالهة ديانا وهى عارية تغتسل فى بركة فثارت غضبا وحولته الى وعل • وبعد قليل مزقه كلاب الصيد التابعون له والتهموه أما أتالانتا (Atalanta) فكانت فتاة مغرمة بالصيد رافضة لمبدأ الزواج ، روى عنها أنها خرجت للصيد يوما ما وقتلت خنزيرا بريا كانت الالهة ديانا قد أرسلته الى بلاد كاليدون (Calydon) لأن أهلها لم يقدموا لها القرابين فى الوقت المناسب • وفعلت ذلك بصحبة ميلياجر (Meleager) الذى حولته ديانا الى أسد غضبا منه وخاصة أن الأسطورة تروى أن ميليا قد ضاجع أتالانتا وأنجب منها طفلا وحملها بذلك على أن تخالف قاعدة البكارة والعفة التى كانت ديانا قد فرضتها عليها •

(٣٣) وصف الالهة ديانا يتفق مع الأساطير القديمة (خاصة تلك التى سردها أوفيد فى « مسخ الكائنات ») وهى تصور أحيانا حاملة قوسا وجرابا من الأسهم وأحيانا راكبته عربة حرب يجرها •علان أبيضان • وأحيانا تصور مجنحة تقود أسدا بيد وفهدا بيد أخرى وكانت ترسم أو تنحت وعلى رأسها هلالاوكلاب الصيد حولها • واقترنت عبادتها فى وقت ما بعبادة ايزيس لما دخلت عبادتها الدولة الرومانية وكانت توصف بأوصاف كثيرة تظهر فى ألقابها مثل « ربة مفترق الطرق » (Trivia) لأن معابدها كثيرا ما كانت تشيد فى هذه الأماكن أو « ذات الأشكال الثلاثة (diva triformis) فكانت تصبح لونا (Luna) ، الهة القمر فى السماء ، وديانا ، الهة العفة والصيد ، وهيكاتى (Hecate) فى العالم السفلى حيث كانت تتحكم فى السحر والأقدار • ومن صفاتها المختلفة فى حياة البشر أنها الالهة الراعية للولادة ، وكان ذلك مقترنا بذكرياتها لآلام الوضع التى عانتها أمها عندما أنجبتها فى الدنيا • فكانت عندئذ تلقب بلقب « لوسينا » (Lucina) أى « حاملة ضوء النهار » الى الوليد أثناء ولادته • فأصبحت التضرعات الى ديانا بصفتها هذه من عرف الوالدات أثناء آلام الوضع عند الرومان •

(٣٤) ذكر الترس البروسى لا يتفق بطبيعة الحال مع الزمن التاريخى لأحداث القصة وانما

تتفق مع ملابسات الراوى وهو الفارس الذى عرفنا عنه فى المقدمة أنه كان قد اشترك فى الحملات الحربية للفرسان التيوتونيين .

(٣٥) كان لوكورجوس (Lycurgus) ملكا ظالما فى تراقيا أغضب الآلهة لأنه أبطل عبادة باكوس (Bacchus) اله المرح والنبيذ فى بلاده وعرف بالقوة والافتراس .. فقتل على يد رعاياه بعد عذاب أليم لأنه كان قد أمر بحرق كل كرومهم ومزارعهم .

(٣٦) هذا خطأ من تشوسر وقع فيه قبل ذلك . أما ذكر أدونيس (Adonis) فيرجع الى الأسطورة التى تروى أن فينوس التى كانت قد أحبت هذا الشاب الوسيم حزنت حزنا عميقا لما مات فى رحلة صيد ، فعطف عليها آلهة العالم السفلى وسمحوا لها أن يصعد الى الدنيا لمدة ستة أشهر من كل سنة لكى تنعم فينوس بلقائه .

(٣٧) الاشارة هنا الى كوكب « ساتورنوس » الذى يقابل كوكب زحل عند العرب ، ويعرف فى الطب القديم وفى التنجيم بأنه بارد وسيىء الأثر على البدن .

(٣٨) وادى جارجافيا Gargaphia) فى مقاطعة بيوتيا (Boeotia) باليونان هو المكان الذى مسخ فيه أكتايون وعلا .

(٣٩) وبعده هنا يعود الى تشوسر الى الأسلوب البلاغى الخطابى الذى يمكن ترجمته بالعربية على أنه « النفى سبقا للاعتراض » (occupatio) وهو نفس الأسلوب الذى استعمله فى بادىء الحكاية (انظر الأبيات ١٧ الى ٢٧ . أما قائمة أنواع الأشجار المختلفة فهو أسلوب بلاغى استعمل كثيرا فى العصور الوسطى وفى عصر النهضة بأوربا عامة . كثيرا ما لجأ اليه تشوسر نفسه وقد يكون الدافع الى مثل هذا السرد نوعا من التباهى العلمى الذى كن يعتبر من محسنات الشعر فى العصور الوسطى حينما كان الشـاعر يعتبر عالما قبل أن يكون شاعرا . ونجد مثالا قديما لذلك فى الكتاب العاشر من ملحمة « مسخ الكائنات » لأوفيد .

(٤٠) هذه الخطبة الطويلة مستوحاة الى حد بعيد من كتاب « فى سلوى الفلسفة » لبويثيوس . والاشارة الى المحرك الأول تقتبس من فلسفة المدرسيين فى العصور الوسطى التى استوحيت بدورها من فلسفة أرسطو والفكرة العامة أن الله هو المحرك الأول الذى ينقل ارادته فى حركة الكون الى أول دائرة أو كما يسمونه « المدور الأول » الذى ينقل الحركة الى الدائرة التى تليه وهكذا تسع مرات حتى نهاية الكرة الأرضية . وبطبيعة الحال هذه مفهومات لاحقة تاريخيا على العالم الفكرى لأحداث الحكاية وان كانت ماثلة فى أذهان أغلب المفكرين والقراء فى عصر تشوسر .

مقدمة حكاية الطحان

اليكم الكلام الذى دار بين صاحب الحان والطحان (١)

ولما انتهى الفارس من حكايته ، لم يكن هناك فى الموكب كله شاب ولا شيخ الا وشهد بأنها قصة عظيمة نبيلة ، جديرة بأن تختزن فى الذاكرة ، وشهد بذلك خاصة كرام الناس ، وضحك مضيفنا صاحب الحان وأقسم يقول : « والله هكذا يجب أن يكون الكلام ، ان الأمر يسير سيرا حسنا ، لقد فتحت الخزانة وسوف تظهر البضائع الآن ، فلنر من يروى لنا حكاية أخرى ، اذ أن اللعبة قد بدأت حقا بداية حسنة ، فهيا احك لنا أيها الراهب المحترم ان كنت تعرف ٠٠ احك شيئا يضاهى حكاية الفارس » ٠ أما الطحان الذى شحب لونه من كثرة ما احتساه من شراب فانه لم يستطع الجلوس فوق جواده ، ورفض أن يخلع قبعته وقلنسوته ، ولم ينصت فى أدب الى أحد ـ وأخذ يصيح بصوت بيلاتوس (٢) (فى المسرحيات الدينية) ويقسم قائلا : ودماء المسيح وعظامه وأسلحته انى أعرف حكاية نبيلة جديرة بأن تروى فى هذه المناسبة ، وسوف أقصها عليكم لأضارع بها حكاية الفارس » ٠

ورأى مضيفنا صاحب الحان أنه سكر من الجعة ، فقال له : مهلا ياروبن ، على رسلك يا أخى العزيز ! ان رجلا خيرا منك سيروى قصة فانتظر ، ودعنا نتقدم بحذر » ٠

فرد عليه الطحان قائلا : « وروح الله نفسه لا أرضى بذلك أبدا ٠ اما أن أتكلم أو أنصرف بعيدا عنكم » ٠

فأجابه مضيفنا قائلا : « اذهب الى الشيطان ، واحك قصتك ٠٠ ، انك أحمق ، قهرعقلك وتلاشت فطنتك » ٠

فقال الطحان : « أيها الناس ! اســتمعوا الى ، ولكن لأبدأ كلامى بتقديم اعتذار لأنى ثمل تماما ، وقد أدركت ذلك من رنة صوتى ، واذا أسأت التعبير أو قلت كلاما غير لائق أرجو أن تعذرونى ، فاللوم يرجع الى جعة مدينة سذرك ٠٠ سأروى لكم قصة تتناول حياة نجار وزوجته وكيف استطاع أحد الطلبة أن يهزأ بالنجار » ٠

فتدخل الخولى صائحا : « أغلق فمك ، واعفنا من كلامك البذىء الماجن الثمل ، فان من أكبر الخطايا بل من الحمق العظيم أيضا أن تشوه سمعة أى انسان أو تسبه أو تقحم زوجات الناس فى مجال الاغتياب ٠٠ ان لديك ما يكفى من موضوعات شتى أخرى لتتكلم فيها » ٠

فقام الطحان الثمل وصده بالكلام قائلا : « يا أزوالد ! ياأخى العزيز ! ان من ليس له زوجة لا يمكن أن يصبح زوجا مخدوعا ، ومع ذلك فانى لا أقول انك أحد هؤلاء الأزواج ، وهناك كثير جدا من الزوجات الصالحات ، وكل خائنة تقابلهـا ألف فاضلة ، وأنت تعلم ذلك جيدا حتى لو كنت غاضبا منى ، فلم تغضب من قصتى الآن ؟ وانى أقسم بالله أن لى زوجة كما أن لك أنت زوجة ، ومع ذلك فانى لا أحمل نفسى أكثر من طاقتى كما لا أحمل الثورين أكثر مما يطيقان على الحرث ، وأنا لا أعتبر نفسى فى قوة الثور ، بل اننى لست مثلهما فى شىء ٠ وعلى الزوج ألا يتدخل فى أسرار الله أو سر زوجته ، ولاشك أنه لو اتبع هذا النصح لتمتع بخيرات الله تعالى ، أما فيما عدا ذلك فلا داعى لأن يكثر من السؤال » ٠

وماذا بوسعى أن أروى أكثر من ذلك فان هذا الطحان لم يسمح لأحد بمنعه من الكلام ، بل قص حكايته البذيئة كما أراد ، ويؤسفنى أن أضطر الى روايتها هنا ، ولذلك أتوسل لكل انسان كريم النفس ألا يعتبر ما أقوله صادرا عن سوء نية ، وذلك حق وحب الله تعالى ، فواجبى هنا أن أروى كل الحكايات التى قيلت فى هذه المناسبة ، سواء كانت أحسن أو أسوأ ٠ وألا أكون قد زيفت موضوع قصصى ٠ لذلك فان من لا يرغب فى سماع هذه الحكاية له مطلق الحرية أن يقلب الصفحة ويختار حكاية أخرى ، وسوف يجد ما يكفيه من الحكايات الطويلة والقصيرة التى تعالج الأمور التاريخية ، وتتناول كرم الأخلاق والتقوى والسلوك الخير أيضا ، فلا تلومونى ان أسأتم الاختيار ، فالطحان كما تعلمون ، غشاش شقى ، وكذلك الخولى وغيرهما ، وكان هذان يرددان الكثير من الأقوال الماجنة فاحذروا ٠ وهاأنذا قد بلغت فارفعوا عنى كل لوم ، وعلى الانسان ألا ينظر الى الهزل نظرته الى الجد ٠

هنا تبدأ حكاية الطحان

في يوم من الأيام كان يعيش بمدينة أكسفورد رجل غنى مضياف ، وكانت حرفته النجارة • وكان يعيش معه عالم فقير درس الفنون والعلوم ولكن ميوله الشخصية وجهته الى تعلم التنجيم ، وكان فى وسعه أن يكشف الأقدار ويفحص اتجاهات النجوم وبخاصة عندما يسأله الناس عما اذا كانت الأمطار أو اذا كان الجفاف سوف يعم ، أو اذا سأله الناس أيضا عما يترتب على حدوث أمر ما ، والحقيقة أننى لا أذكر كل ما كان فى وسعه أن يفعله • وكان اسم هـذا العالم نقولا الكريم ، وكان الى جانب ذلك خبيرا بالحب وتسلية السيدات ، وكان فى هذا الأمر بارعا جدا وكتوما للسر ، وكان يبدو فى وداعة الفتاة العذراء ، وكان لهذا العالم حجرة يسكن فيها وحده ببيت النجار ، وكان دائما يتطيب بالأعشاب ذكية الرائحة ، وكانت طبيعته ذاتها بها عذوبة العرقسوس أو جذر الجدوار • وقد وضع على رف فوق فراشه نسخة من الماجستى (٣) وكثيرا من الكتب الكبرى والصغرى واسطرلابه الذى كان رهن أمره يضارع فنه والأحجار المنقوشة برموز الخوارزمى (٤) • وكانت خزانته مغطاة بقماش من الصوف الأحمر ، ومن فوق الخزانة العود المرح الذى كان « يدندن » عليه طوال الليل أنغاما وأغانى ، يتردد صداها فى حجرته كلها ، وكان كثيرا ما يغنى نشيد البشـارة الـذى مطلعه : « قال الملاك للعذراء •• » ، وبعد ذلك كان يغنى نشيد الملك ، (٥) وكثيرا ما كانت الأنغام الجميلة تبارك حنجرته المطربة • وهكذا كان هذا العـالم اللطيف يقضى وقته فى ضيافة صديقه ، فى مقابل أجر للحجرة •

أما النجار فكان قد تزوج منـذ عهد قريب فتاة يهواهـا أكثر من حياته ، ولم تكن تبلغ من العمر سوى ثمانى عشرة سنة ، وكان يغار عليها ويحبسها فى البيت كأنها فى قفص لأنها كانت فتية أبية مليئة بالحيوية ، بينما كان كبير السن ويعتقد أنه فى حكم الزوج المخدوع • (٦) ولما كانت ثقافته بدائية فانه لم يقرأ قول الفيلسوف ديونسيوس كاتون (٧) ان الرجل يجب أن يتزوج ممن تكافئه • فعلى الرجال أن يتزوجوا ممن هن فى منزلتهم ودرجتهم من العمر ، فالشباب والشيخوخة كثيرا ما يكونان فى حالة صراع مستمر ، ولكن مادام قد وقع فى الشرك فعليه أن يصبر على محنته كما فعل غيره من الناس •

وكانت زوجته الفتية حسناء ، وكان جسمها فى رشاقة العرس الصغير • وكانت تتمنطق بحزام مزخرف بالحرير ، وتتزيى من الأمام بمئزر أبيض فى لون لبن الصباح ، وكان يتدلى على فخذيهـا فى طيات فضفاضة من القماش • وكان قميصها أبيضا مزخرفا من الأمام ومن الخلف أيضا ، وكان طوق قميصها مطرزا بالحرير الأسود فى لون الفحم من الداخل ومن الخارج • وكانت الشرائط التى تمسك بقبعتها البيضاء من نفس لون طوق قميصها ، وكان يضم شعرها اكليل من الحرير فى أعلى رأسها • ولا شك أن عينيها كانتا تنمان عن شهوة

جامحة ، وكان حاجباها الاثنان صغيرين منتوفين ، وكانا مقوسين وأسودين فى لون البرقوق الناضج • وكان منظرها يبث السعادة فى النفس أكثر من منظر الكمثرى الدانية للقطف على شجرها ، كما كان جسمها أكثر ليونة من الصوف الجديد •

وكان يتدلى من حزامها كيس من الجلد ، له أهداب من الحرير ، ومطرز بخرز من المعدن الأبيض ، ولم يكن فى العالم كله ، شرقه وغربه وشماله وجنوبه، رجل على درجة من الفطنة يستطيع بهـا أن يتصـور جمال مثل هـذه الفتاة الرشيقة • وكانت بشرتها تلمع أكثر من الدينار المسكوك حديثا فى برج لندن • أما شدوها فكان عاليا عذبا رخيما مثل تغريد طير الخطاف وهو يرقد فوق الحظيرة فى الجرن • وكان فى وسعها أيضا أن تتمايل وتتبختر وتثب مرحا مثل ما يثب الحمل أو العجل وراء أمه • وكان ثغرها عذبا عذوبة الجعة العسلية أو عذوبة حزمة من التفاح ملقاة على فراش من التبن أو على مرج أخضر • وكانت لعوبا مثل المهر الجفول • وكانت طويلة مثل سارى السفينة ومستقيمة مثل السهم • وكانت تحمل على أسفل طوق قميصها دبوسا (بروشا) عريضـا مثل حدبة الترس • وكان حذاؤها مربوطا برباط ملفوف أعلى ساقها • وكانت جميلة مثل زهرة الربيع أو الزنبق ، جديرة بأن يضاجعها أى سـيد نبيل أو أن يتزوجها مزارع ثرى •

والآن يا سيدى حدث ذات يوم أن أخذ أخونا العزيز نقولا يداعب هـذه الزوجة الفتية ، ويلاعبها أثناء سفر زوجها الى مدينة أوزنى • وكان أسلوبه معها رقيقا ماهرا وهو أسلوب العلماء • وأمسك سرا بموضـع العفة منهـا قائلا : « أنا أعرف تماما أننى لو قمت بما أريد أن أقوم به معك هياما بك أيتها المرأة لقذفت منيى » • وأمسك بهـا مسـكة قوية من مؤخرتها وصاح : « أيتها المرأة استجيبى لحبى وبادلينى الحب عاجلا والا قضيت نحبى ، وأقسم على ذلك بالله تعالى » • فقفزت كالمهر فى الحظيرة وسرعان ما استطاعت أن تلوى رأسها بعيدة عنه قائلة : « وحق ايمانى لن أقبلك فاتركنى وشأنى • دعنى يانقولا ! والا صحت » أدركونى وامصيبتاه ، ارفع يدك ، أناشـدك أن تراعى آداب اللياقة •

وأخذ نقولا هذا يبكى ويصرخ ملتمسا العطف ، وخاطبها بألفاظ معسولة وظل يلح عليها حتى بادلته الحب فى النهاية ، وأقسمت له باسم القديس توما بمقاطعة كنت أنها ستكون رهن اشارته كلما سنحت لها الفرصة ، وقالت : « ان زوجى غيور جدا ، فاذا لم تكتم السر فسوف يقضى على لا محالة ، فعليك أن تكون حصيفا فى هذا الأمر » • وقال لها نقولا : « اطمئنى ولا تبالى • ان عالما مثلى لا يكون قد اقتنع بعلمه اذا لم يعرف كيف يخدع نجارا » • وهكذا اتفقا وتبادلا القسم على أن ينتظرا وقتا قصيرا كما قلت لكم آنفا •

وبعد ذلك أخذ نقولا يربت على فخذيها ربتا رقيقا ، ثم قبلها قبلة عذبة ثم تناول عوده وعزف لها نشيدا جميلا ٠

ثم حدث أن ذهبت هذه الزوجة الفاضلة الى كنيسة حيها فى يوم من أيام الأعياد تنفيذا لما قضى به السيد المسيح ٠ وكان جبينها مشرقا اشراق النهار لأنها كانت قد أجادت غسله بعد الانتهاء من أعمال المنزل ٠ وكان فى هذه الكنيسة عالم خادم لها يدعى أبشلوم ، وكان شعره متموجا ، ناصعا كالذهب ، ومبسوطا فوق رأسه كأنه مروحة واسعة عريضة ، وكانت لمتاه مسواتين ومستقيمتين ، وكانت بشرته حمراء ، وعيناه رماديتين كريش الأوز ، وكان بحذائه فتحات على شكل نوافذ كاتدرائية الرسول بولس (٨) ، وكان يرتدى سروالا أحمرا أنيقا للغاية ، وكانت سترته أنيقة وجبته مصنوعة من القماش الأزرق الفاتح الخفيف ، وكانت شرائط السترة سـميكة وجميـلة ، وكان فوق كل ذلك يرتدى مدرعة جميلة رائعة بيضاء فى لون البرعم على غصن الشجر ، وكان ولا شك شابا لطيفا ، أقول ذلك وأجرى على الله ٠ وكان خبيرا بالحجامة وقص الشعر وحلق الذقن ، وكتابة عقـود التمليك للأرض وتحرير وثائق رفع الحجز ٠ كمـا كان خبيرا بالرقص ، ويعرف منه عشرين نوعا متبعا فى ذلك مدرسة اكسفورد (٩) ، يطوح قدميه يمينا وشمالا ، كما كان يتقن عزف الأغانى على ربابته ، وكان صوته رخيما عاليا رفيعا ، وكان يجيد أيضا العزف على القيثارة ، ولم يكن فى المدينة كلهـا مشرب أو حان الا زاره وسلى نزلاءه بما فيهم صاحب الحان المحب للدعابة واللهو ، الا أنه لكى يكون القول أمينا يلاحظ انه كان مرهف الاحساس فى أمرين : هما اخراج الريح والكلام المتكلف ٠

وكان أبشلوم هذا مرحا خفيف الظل ٠ وفى يوم من أيام العيد أخذ يطوف بسيدات الأبروشية (١٠) يبخرهن بمبخرته ، ويلقى على كل منهن نظرة افتتان وشوق وبصفة خاصة على زوجة النجار ، اذ كان يعتبر أن التأمل فيها بهجة الحياة للطفها وقوامها الرشيق ونظرتها المثيرة للشهوة ، ولا أشك أنها لو كانت فأرا وكان قطا لاختطفها فى الحال ٠ وكان أبشلوم هذا الشاب المرح العالم خادم الكنيسة يطوى بين جوانحه من الشوق والهيام ما جعله يعرض عن تقبل أية هدية من زوجة أخرى ، وكان يقول انه لا يريد منهن شيئا التزاما منه بقواعد اللياقة ٠

وذات ليلة والقمر بدر ساطع أخذ أبشلوم قيثارته بيده وخرج لكى يوقظ الأحبة ، وذهب فى الليل والهيام يملأ أعطافه ليقوم بجولاته ، باحثا عن غانيات لاهيات ، يطارحنه الغرام ، وانطلق يوسع خطاه ، حتى وصل الى دار النجار ، بعد صياح الديك فى الفجر بقليل ، ووقف بجانب النافذة القريبة منه (وكانت منخفضة فى واجهة الكوخ) ٠ وشرع يغنى بصوت رخيم خلاب : « والآن ياسيدتى العزيزة ، اذا كنت تجدين لذة فى مطارحة أحد الغرام ففكرى فى أنا بحنان ! » ٠

وعزف على قيثارته أنغاما عذبة ، فاستيقظ النجار وسمعه يغنى ، فالتفت الى زوجته وقال : « يا أليسون ! يا زوجتى ! أتسمعين غناءه ؟ ان أبشلوم يترنم بالغناء تحت نافذة حجرتنا » . فردت عليه قائلة :« نعم ياجون . أنا أسمعه » ولو خطر بذهنها أكثر من هذا لما أخبرته به .

وهكـذا ســارت الأمور . وماذا يمكن قوله أكثر من أن « كل شيء على ما يرام » .

وأخذ أبشلوم هذا الشاب المرح يخطب ود الزوجة يوما بعد يوم ، وأصبح مثقلا بالهموم يلازمه الأرق طوال الليل ، ويقضى النهار بأسره فى ترجيل خصلات شعره ، ويحاول أن يبدو مرحا . وتودد اليها وأرسل اليها الوسطاء والشفعاء ، وأقسم أن يكون خادما مخلصا لعقيدته ، وغرد وترنم بصوت يحاكى صوت البلبل ، وأرسل اليها نبيذا حلوا ، وشراب عمل وجعة متبلة ، ورقائق ساخنة تتصاعد منها الأبخرة وجرارا مليئة بالعسل ، وقدم لها مالا لأنهــا تعيش فى المدينة ، لأن بعضهن يثيرهن كيس النقود وبعضهن تفوز بقلوبهن بالرقة وبعضهن بالربت باليد . وحدث أن قام بدور هيرودس على المسرح (١١) ، وكان يراوده الأمل فى استخدام موهبته . ولكن ما الفائدة ؟ لو كان يتمتع باقدام ضابط محارب ، فانها لا تحب سوى نيقولا الغندور . ومهما نفخ أبشلوم فى بوقه فانه لن يجنى من سعيه سوى ازدرائها . فقد كانت تعتبره فردها المدلل ، وتعد تودده الجاد لها مدعاة للسخرية .

وهناك مثل ـــ وهو قول غير كاذب ـــ وسوف تسمعه يتردد كثيرا : « الحاضر الماكر يفوز على الغائب الصريح المستقيم » لأنه كلما كان أبشلوم يشد شــعره فينتزعه ويتميز غضبا لأنه « قلما يجد نفسه محط أنظارها ، كان نيقولا الماكر الموجود بقربها يقف فى دائرة الضوء » .

والآن أقدم بخطوات ظاهرة يا نيقولا العاشق ، ودع الحزن والأسى لخادم الكنيسة .

وحدث فى أحد أيام السبت ان كان النجار الطاعن فى السن مسافرا فى أوسنى (١٢) فاتفق نيقولا وأليسون أخيرا على تنفيذ خطة ذكية ، دبرها نيقولا للسخرية من تشكك الزوج وحماقته ، فاذا جازت عليه الخدعة فانها ســوف تضاجع نيقولا طوال الليل ، لأن هذا ما كان يشتهيه وما كانت هى أيضا ترغب فيه رغبة عارمة . وبأسرع ما تستغرقه رواية القصة ذهب نيقولا ، الذى لم يستطع أن ينتظر أكثر من ذلك ، الى حجرته « هو يسير على أطراف أصابعه ، وكان يحمل معه من الطعام والشراب ما يكفيه يوما أو يومين . وكان على أليسون أن تقول لزوجها اذا سألها عن نيقولا انها لا تعرف أين يكون ، وان أنظارها لم تقع عليه طوال النهار ، وانها تظن أنه مريض وان كانت لا تستطيع أن تجزم

بهذا الأمر ، وان الخادمة ذهبت أكثر من مرة وصاحت تناديه فلم تتلق منه جوابا على الاطلاق ٠

وهكذا سارت الأمور طوال يوم السبت ، دون أن يصدر أى صوت من حجرة نيقولا الذى ظل راقدا فى الحجرة العلوية ، يأكل أو ينام كما يحلو له ، حتى مساء يوم الأحد وقت غروب الشمس ٠ وعجب النجار الأحمق وأخذ يتساءل ترى ماذا أصاب نيقولا ؟ وقال : « انى ، بحق القديس توما ، لا أستطيع أن أكف عن التفكير فى أن الأمور ليست على ما يرام مع نيقولا ٠ ماذا لو كان قد أصيب وقضى نحبه ؟ ليحفظ الله حياته ! فالدنيا اليوم دار تلف وفناء » ٠

لقد شاهدت صباح اليوم جثة حملت الى الكنيسة لشخص رأيته يوم الاثنين الماضى ، يعمل وهو فى أتم عافية ٠ وقال للخادم : « هيا وأسرع الى حجرته وناد عليه عند بابها ، أو اطرق الباب بحجر والق نظرة فاحصة ، وأخبرنى كيف أصبح » ٠ فانطلق الخادم بخطى سريعة الى الحجرة العلوية ، وتوقف عند الباب ٠ ووقف الصبى هناك ، وصاح وهو يطرق الباب كالمجنون : « هو ! ماذا بك ؟ هيه ! يا سيدى نيقولا ! كيف يمكنك أن تظل راقدا هناك طوال اليوم ؟ ولكن صياحه تبدد فى الهواء ، ولم يسمع صوت أحد يجيبه ٠ وعثر على لوح فيه ثقب فى أسفل الباب ، يسمح بأن تتسلل منه قطة فتطلع من خلاله الى الداخل ٠

وهكذا شاهد بنظرة فاحصة هذا العالم مستلقيا على ظهره ، وهو فاغرفاه ، كما لو كان قد لمح الهلال ٠ فنزل الولد وبادر بابلاغ سيده بالحالة التى وجد فيها الرجل ٠ وعندما سمع النجار هذا بدأ يرسم علامة الصليب وقال : « باركنا أيها القديسة القديسة تويدزوايد (١٣) فنحن لا نعرف الا القليل عما سوف يضنينا ٠

لقد سقط الرجل هنا وهو يرصد النجوم ، وأصيب بنوبة أو ربما بجنون وقد كنت دائما أعتقد أن هذا سوف يحدث ، فلله حكمته الخفية التى لا نعرفها ٠ حقا طوبى للبسطاء ، الذين لا يعرفون الا ما يكفى للتعبير عن عقيدتهم . لقد حدث هذا مع عالم آخر من علماء الفلك ٠ وقد بلغ درجة من الحمق الى حد أنه ظل يحملق فى السماء بينما كان يعبر حقلا ، شاغلا نفسه برصد ما تكشف عنه النجوم ٠٠ وماذا كان يمكن أن يحدث له سوى أن يسقط طريحا فى حفرة مليئة بالكلس دون أن يتنبأ بما حدث له ! ولكن بحق القديس توما لقد وصلنا الى ممر محزن ٠

ولا أستطيع أن أكف عن القلق من أجل نيقولا وسوف أنهره لاستغراقه فى دراسته ، لو كنت أدرى كيف أنهره بحق المسيح ملك السموات ! احضروا لى هراوة لأقتحم الحجرة وأنت ياروبين ضع كتفك على الباب فسوف نهز جسده ونفرغه من العلم ، كما أظن ! وبدأ الاثنان يدفعان ويضغطان على الباب ٠ وحدث

أن كان الصبى قويا ، ولهذا لم يستغرق الأمر منهما وقتا طويلا ليدفعا الباب على مفصلتيه ، فسقط على الأرض ٠

وكان نيقولا لا يزال يرقد بلا حراك كالحجر الأصم وعلى وجهه نفس التعبير ، وهو فاغرفاه محملقا فى السقف ٠ وظن النجار أن حالته تدعو الى اليأس وهزه عامدا هزا عنيفا ، وهو يمسك به من كتفيه وصاح قائلا : « ماذا حدث يا نيقولا ؟ ارخ نظراتك الى الأرض ! أهذا أسلوب للعمل ؟ أفق وفكر فى آلام المسيح ٠

وانى أعيذك بالصليب من العفاريت والأرواح الشريرة ! وشرع يتلو التعاويذ التى تقرأ ليلا فى أركان الحجرة الأربعة جميعا وخارج عتبة الباب وحول الحجرة وهو يقول : سيدى المسيح وأيها القديس بنيدكتوس باركا هذا البيت واحفظاه من كل مخلوق ملوث ، وابعدا عنه ساحرات الليل ولنصل يا أبانا الذى ٠ أين أنت يا أخت القديس بطرس ؟ وفى نهاية الأمر بدأ نيقولا الغندور يتنهد وقال : « ألا مفر من أن يحدث هذا ؟ وهل لابد أن يهلك العالم بأسره ؟ » فقال النجار « ماذا تقول ؟ ثق بالله كما نفعل نحن العاملين « فرد نيقولا قائلا « احضر بعض الشراب اذن ، وسوف أحدثك فيما بعد ، وليكن هذا سرا بيننا لا تبوح به أبدا ، عن أمر يمسك ويمسنى ٠ ولكن يجب ألا يعرف هذا مخلوق آخر وليكن هذا واضحا » ٠

فنزل النجار ثم عاد مرة أخرى ومعه جعة قوية وكأس كبيرة ٠ وعندما تناول كل منهما نصيبه من هذا الزاد ، نهض نيقولا الشاب ، وأغلق الباب ، وجلس بجانب النجار على الأرض وقال له : « والآن يا عزيزى جون يا مضيفى الكريم الفائق أحلف لى بشرفك هنا ألا تبوح بكلمة مما سوف أقول لك ، لأن هذا ما يريده المسيح وقد أفشيته لك ، واذا بحت به لمخلوق فسوف تكون من الخاسرين ، وسوف تلقى جزاءك الصارم وتدفع ثمنا غاليا أليما اذ سوف تصاب بالجنون ! فالمسيح ودمه الزكى المقدس ينهيان عن هذا يا بنى ! » فرد الرجل الغبى قائلا :

« لا قدر المسيح بحق دمه المقدس ! أنا لست ثرثارا ، واذا أفشيت ما تقول فليعقد لسانى ٠ قل ما تشاء وثق أنى لن أبوح به لرجل أو امرأة أو طفل بحق من مهد جهنم ! » فقال نيقولا :

والآن يا جون صدقنى :

لقد اكتشفت بالتنجيم وأنا أرصد القمر وهو مشرق ، انه فى يوم الاثنين القادم فى الربع الأول من هزيع الليل سيهطل المطر مدرارا وتنحدر سيول جارفة تبلغ فى شدتها ضعف طوفان نوح ٠ وقال : « ان هذا العالم سوف يغرق بأسره فى خلال ساعة فى سيل منهمر شنيع وسوف يهلك البشر جميعا ويلقون حتفهم » فصاح النجار « وآأسفاه ! وزوجتى أليسول الصغيرة ! هل قدر لها أن تلقى

حتفها غرقا ؟ وكاد فى غمرة حزنه الشديد أن يهوى على الأرض وقال : « أليس هناك علاج لهذا ؟ » فقال نيقولا « بلى هناك علاج وحمدا لله ، اذا فعلت بالضبط ما سوف أقول لك ولا تشرع فى التفكير فى عمل شىء آخر ٠

ففى كتاب سليمان الشيخ الحكيم تجد هذه الآية : « ان من يقبل النصيحة لن يندم أبدا » وعلى هذا اذا كانت النصيحة الصائبة مجدية ومقنعة ، فانى آخذ على عاتقى دون الاستعانة بسارية أو شراع ، أن أنقذها ، وأن أنجو بحياتى وأنقذك ٠

ألم تسمع كيف نجا نوح أيضا عندما أنذره الله بأن العالم بأسره سوف يغرق تحت مياه الطوفان ؟ فقال النجار « بلى ، منذ وقت بعيد » فقال نيقولا : « ألم تسمع عن الحادث المحزن الذى وقع عندما حاول نوح أن يسوق زوجته (التى رفضت أن تأتى) لتصعد فوق ظهر السفينة ؟ ؟ « وكان يمكن أن يكون أسعد حالا ، بهذا الطقس الذى يوشك أن يهب لو كان لها سفينة تملكها ٠

والآن ماذا علينا أن نفعل ؟ اننا لا نستطيع أن نؤجل هذا الأمر ، فالطوفان آت عاجلا ، كما كنت أقول والأمر يستدعى المبادرة السريعة بلا وعظ ولا تمهل ٠ وأريد منك الآن أن تهرع فى الحال وتحضر قصعة ضحلة القاع ، أو معجنا لكل واحد منا ، ولكن عليك أن تراعى أن تكون متسعة ، بحيث نستطيع أن نطفو على الماء كما لو كنا فى نقالة مائية وأوسقها بزاد يكفينا يوما ، فنحن لسنا فى حاجة الا للقليل ، فسوف تهبط المياه وتنحصر حوالى الساعة التاسعة فى اليوم التالى ، وقد لا يعرف روبين الغلام المسكين ولا الخادمة جيل شيئا عن هذا ، وأنا لا أستطيع أن أنقذ حياة هذين الاثنين ، ولا تسألنى عن السبب ، فحتى لو فعلت ذلك فانى لا أستطيع أن أبوح لك بما أطلعنى عليه الله من علمه » ٠

ويجب أن تكون راضيا بهذه النعمة الكبرى التى من الله بها على نوح والا كنت مجنونا ٠٠ وسوف أنقذ زوجتك ، ولست فى حاجة لأن يراودك الشك فى هذا الأمر ، والآن انطلق وبادر بالعمل ٠

وعندما تجمع ثلاث قصعات ، احداها لها ، والثانية لك ، والثالثة لى ، فعلقها فى السقف تحت طبقة البلاط ، على ألا يكتشف أحد ما ندبر عمله ٠

وعندما تنتهى من القيام بتنفيذ ما قلته لك وتضع فيها الزاد وأيضا بلطة لنقطع بها الحبال ، فاننا نستطيع أن نشق مخرجا لنا من خلال أعلى السقف فى اتجاه البستان من فوق الحظيرة ــ اذا تم ذلك فاننا عندئذ نستطيع أن نبحر فىأى اتجاه نشاء بعد أن تكون الأمطار قد كفت عن الهطول ٠

وأقول لك انك عندئذ سوف تطفو فوق الماء سعيدا مرحا ، كما تطفو انثى البط وراء قرينها ٠ وبعد ذلك سأصيح قائلا لك : « كيف الحال يا أليسون ! وكيف حالك يا جون ! أبشر فسوف ينحسر الطوفان قريبا ، وأنت ستجيبنى

مرحبا بك يا سيد نقولا . صباح الخير ، أراك بخير ، فقد أشرق النهار ٠ « ثم نكون نحن سادة العالم بأسره طوال حياتنا ، كما كان نوح وزوجته ٠ ولكن أرى لزاما على أن أنذرك بشيء واحد هو أن على كل منا فى تلك الليلة التى سنبحر فيها أن يمسك عن الكلام ، ولا يصيح ولا يتكلم الا متضرعا الى الله ٠

وهـذه هى ارادة ربنـا العزيزة . كما أنه يجب أن تعلق انت وزوجتك منفصلين عن بعضكما حتى لا ترتكبا اثما سواء بالرؤية أو باللمس ، وهذا هو أمر الله ٠ فاذهب ، صاحبتك السلامة ، وفى مساء غد حينما يأوى الناس الى مضاجعهم سوف نتسلل الى طسـوت العجين المعدة لنا ونجلس فيهـا منتظرين رعاية الله ٠ والآن هيا انصرف ، لأنه لا وقت لدى للاطناب فى موعظتى ، فالمثل يقول : « دع الحكماء يعملون ولا تنبس ببنت شفة ، وأنت قد بلغت من الحكمة مايعيننى عن تعليمك شيئا ، هيا انصرف وانقـذ حياتنا ، وانى أناشـــدك الله أن تفعل » ٠

فانصرف النجار الساذج وهو يتمتم لنفسه « ويلاه ، وا مصيبتاه » ٠ وأسر الى زوجته بذلك ، غير أنها فطنت للأمر وفهمته خيرا منه وأدركت كل تفاصيل هذه الحيلة الغريبة ، ومع ذلك فانها خشيت عاقبة الأمر وخافت أن تنتهى هذه المغامرة بموتها ، وقالت له : « ويلاه ! وامصيبتاه ! اذهب وساعدنا على النجاة بحياتنا من هذه المصيبة ، والا كان الهلاك مصير كل منا لا محالة ، فأنا زوجتك المخلصة لك ، هيا اذهب يا زوجى الحبيب واعمل على انقاذ حياتنا » ٠

حقا حقا ما أعظم تأثير العواطف ٠٠ ان الانسان ليستطيع أن يلقى حتفه متأثرا بخياله لعمق انطباعاته النفسية ٠ وبدأ هذا النجار الساذج يرتعد وتصور أن فى وسعه حقا أن يشهد طوفان نوح ينجرف نحوه ويبلغه كأنه خضم عظيم لاغراق أليسون قرة عينه ، فأخذ يبكى وينتحب ويبدو عليه الاكتئاب الشديد ، وينتهد تنهدات شجية ، ثم ذهب الى مخزنه وأحضر منه طستا للعجين ثم برميلا ثم جفنه ، وأدخلها سرا فى منزله ، وعلقها خفية أيضا بأعلى السـقف ، وصنع بيديه ثلاثة سلالم خشـبية للصعود بهـا الى الطسـوت الثلاثة المعلقة بعوارض السقف ، كما أحضر زادا للطست والبرميل والجفنة من خبز وجبن وجعة قوية فى دق كبير بحيث يكفيهم يوما كاملا ٠ وبعد أن أعد العدة أرسل خادمه وخادمته الى لندن لقضاء حاجة ٠ وفى يوم الاثنين عندما أظلم الليل ، أغلق باب داره دون أن يوقد الشمعة ، وأعد كل شيء كما يجب ، ثم صعد الثلاثة بعد ذلك بقليل الى أعلى السقف وتربعوا فى الطسوت وجلس كل منهم على بعد كبير من الآخر ، ثم قال نقولا : « والآن على كل واحد أن يقول أبانا الذى ثم صه ! » ، فردد جون النجار « صه » ، كما رددت أليسون أيضا : « صه » ٠ وبعد ذلك أخذ النجار يتمتم بصـلواته وتضرعاته وهو جالس فى هدوء ، فى انتظار هطول الأمطار

أو سماع بشائرها • ولكن التعب كان قد نال من النجار فاستغرق فى نوم عميق فى موعد اطفاء النيران أو بعده بقليل ، وأخذ يئن فى نومه أنينا حزينا ويغط غطيطا عاليا لاضطراب أنفاسه فى النوم ، ولأن رأسه لم يكن فى وضع مريح • وعندئذ نزل نقولا سرا من السلم ، وتبعته أليسون من السلم الآخر ، دون أن ينبسا ببنت شـفة ، ودخلا السرير الذى كان ينام فيه النجار عادة ، وكم من مهرجان مرح أقيم فى هذا المكان وكم من أنغام رخيمة صـدرت منـه • وهكـذا اضطجع أليسون ونقولا يرتشفان رحيق اللذة والوصـال وظلا هكـذا حتى دق ناقوس صلاة الفجر ، وبدأ الرهبان يذهبون الى الكنيسة ليرتلوا الصلاة •

أما العالم خادم الكنيسة أبشلوم الهائم الذى كانت تبدو على وجهه دائما أمارات الحزن ، فانه ذهب الى أوزنى فى يوم الاثنين ومعه رفقة من الأصـدقاء ابتغاء اللهو واللعب • ولما وصل الى المدينة سأل أحد الرهبان سرا عن أخبار جون النجار وهو يسحبه من يده الى خارج الكنيسة ، فقال له الراهب : « أنا لا أعرف ، اذ لم أره هنا منذ يوم السبت الماضى ، وأعتقد أنه ذهب ليشـترى أخشابا بنـاء على توصـية رئيس ديرنا ، ومن عادته بالفعل أن يغيب لشراء الأخشاب بل انه يمكث بجوار مخزن الأخشاب يوما أو يومين ، واذا لم يكن هناك فلابد من أنه بمنزله ، ومع ذلك فانى حقا لا أعرف » • ففرح أبشلوم هذا ، وأحس بخفة فى مزاجه وقال لنفسه : « لقد آن الأوان لكى أسهر طوال الليل ، فالحق أنى لم أره يتحرك خارج باب بيته منذ شروق الشمس ، وسوف أقوم بعمل ما يأتى ، عندما يصيح الديك فى الصباح سـأتسلل الى شـباك حجرته لأطرقه وهو ليس مرتفعا عن الأرض ، ثم أبث أليسون كل ما بين أعطافى من من شوق وحب وان لم أظفر منها بشىء فسوف أفوز على الأقل بقبلة منها وبهذا أكون قد انصرفت من هناك بشىء مما يسلى النفس ، وقد كنت طوال هذا النهار أشعر بحكة فى فمى ، ويقولون ان هذا بشير بقرب التقبيل على الأقل ، كما أننى حلمت فى الليلة الماضية بأننى دعيت الى وليمة ، ولذلك سأغفو ساعة أو ساعتين لأقضى الليل فى اللهو والمداعبة •

وما ان صاح الديك حتى نهض أبشلوم المرح هذا ، وارتدى خير ملابسه أناقة ، وعدل هندامه أحسن تعديل ، وبعد أن مشط شعره مضغ بعض الحبوب من الحبهان والعرقسوس حتى يجعل رائحة فمه جميلة ، كما وضع تحت لسانه ورقة من عشب النعناع ، وكل ذلك لكى يجعل نفسه لطيفا معقولا • ثم ذهب الى بيت النجار ووقف دون أن يتحرك أو يصدر منه صوت تحت نافذة الحجرة ، وكانت منخفضة لا تكاد تصل الا الى صدره ، وسعل سعالا خفيفا بصوت خافت رقيق ، ثم همس : « كيف حالك ياقرص عسلى ، يا أليسون الجميلة ، يا بلبلى الحلو ، يا قطعة القرفة العذبة ؟ استيقظى يا حبيبتى وردى على • انك لاتفكرين مطلقا فيما أطويه من أشـجان من أجلك •• لقد جعلتنى أتصبب عرقا كلما

مشيت ، ولا عجب ان أتصبب عرقا ولا غرو أن يغمى على كثيرا ، فأنا أتشوق اليك كما يتشوق الحمل لثدى أمه ، وأنا أعرف يا حبيبتى أن بين أعطافى من الهيام ما يجعل نحيبى كانتحاب الورقاء صادقة الحب ، كما أننى لا أستطيع أن أتناول من الطعام أكثر مما يتناوله صغار الفتيات » . فأجابته : « ابتعد عن نافذتى أيها الغبى الأحمق ، والله لن أغنى معك » « تعالى تعالى قبلينى ، فانى مغرمة بغيرك » ، اليك عنى والا ارتكبت الكبائر ، وهذا الغير وحق المسيح خير منك يا أبشلوم . أغرب عن وجهى والا أصبتك بحجر ، ودعنى أنعم بالنوم ، واذهب الى حيث تكون العفاريت العشرون » . فقال أبشلوم : « ويحى ! لم أكن أظن أن الحب الخالص يقابل بهذه المعاملة ، ومادمت لا أستطيع أن أحصل على كل ما أريد فلا أقل من أن تمنحينى قبلة ، وحق حب المسيح وحبى أنا » . فسألته : « وان فعلت . هل تذهب فى الحال ؟ » . فأجابها : « نعم يا حبيبتى » . فقالت له : « حسنا . استعد اذن فأنا قادمة اليك » ثم اتجهت الى نقولا بجوارها وهمست فى أذنه : « صه ! انظر فسوف تضحك كثيرا » .

وركع أبشلوم على ركبتيه وقال : « أنا حقا سيد عظيم ، وبعد هذا سأتطلع الى ما هو أكثر يا حبيبتى . امنحينى عطفك يا عصفورى الجميل ومنى على بوصلك » . ففتحت النافذة بسرعة وقالت « هيا اسرع لئلا يرانا الجيران » . فمسح أبشلوم فمه استعدادا . وكان الليل فى سواد القطران أو الفحم ، فأخرجت من النافذة شرج استها ، ولم يتميز أبشلوم استها العارى وقبله باشتهاء ولهفة . ودهش وظن أن هناك شيئا غير عادى ، اذ كان يعلم جيدا أن المرأة لا لحية لها ، وأحس بشىء خشن يغطيه شعر طويل ، فصاح « ويلاه وامصيبتاه ماذا فعلت ؟ » ، « فانفجرت ضاحكة هى هى » ، وأغلقت النافذة ، وانصرف أبشلوم مكتئبا حزينا .

وانفجر نقولا العزيز ضاحكا وقال : « لحية ! لحية ! وحق جسد المسيح هذا أمر يثير الضحك العميق » . اما أبشلوم الساذج فقد سمع ما قيل وأخذ يعض شفته من الغيظ والغضب وقال فى نفسه : « صبرا . لسوف تلقين من جزاءك » ومن ذا الذى يحك الآن شفتيه بالرمل والردة والقش والقماش والنشارة سوى أبشلوم الذى أخذ يردد بين آونة وأخرى « وامصيبتاه ! » . ثم ناجى نفسه قائلا : «أقسم أن أهب نفسى للشيطان ان لم أثأر لنفسى مما حدث ، بل انى أفضل الثأر على اهداء المدينة بأسرها لى ، ويحيى ! ويحى ! ليتنى لم يغرر بى بهذا الشكل ! » . وانطفأ فى الحال حبه الملتهب وخمد منذ قبل استها . كانت الحبيبات لا تساوى عنده ورقة جرجير ، وقد شفى تماما من مرض الحب . وكان بعد ذلك الوقت يكثر من الذم لجماع النساء ، بل كان يبكى دائما بكاء الطفل الذى ضرب .

ومضى فى طريقه حتى وصل الى حان حداد يدعى السيد جرفيس ، الذى

كان يصهر عدة المحاريث فوق كوة . وطرق ابشلوم بابه وهو يشــحذ نصل وسكين محراث وقال له : « اترك عملك يا جرفيس بسرعة » . فأجاب الحداد : « ماذا ؟ من أنت ؟ » ، فأجابه : « أنا أبشــلوم » . فقال له الحداد : « ماذا بك يا أبشلوم . بحق صليب المسيح العزيز ، ما الذى جعلك تنهض مبكرا هكذا ؟ ايه! بارك الله فيكم ! ماذا حــدث لك ؟ لابد أن فتاة جميلة ـ والله أعلم ـ قــد أصابتك بحيلة فجعلتك تدور حول نفسك كالنحلة وأنت تعلم ما اعنيه جيــدا وحق القديس نيوت » . ولم يلتفت أبشــلوم الى كلامه أو الى دعابته ولم يحر جوابا . وكان مغزله من الخيط أكثر مما يعلمه جرفيس ، فقــال للحــداد : « ياصديقى العزيز ! هلا أقرضتنى سكين المحراث التى لا تزال ساخنة من النار فأنا فى حاجة لاستعمالها وسوف أعيدها لك » . فأجاب جرفيس قائلا : « حقا لو كان هذا السيخ من الذهب الخالص ، أو لو كنت ممسكا بكيس ملء بدنانير لا حصر لها لأعطيته لك ، وحق الحدادة مهنتى ، ولكن خبرنى بحق قدم المسيح ماذا أنت صانع بها ؟ » . فقال أبشلوم : دعك من هــذا ، وليكن ما يكون ، وسوف أقص عليك ما أفعل بها غدا فى مثل هذا الوقت » . ثم أمسك بسكين المحراث من نصلها الصلب وتسلل من حان الحداد الى بيت النجار حيث وقف أمام جدار البيت ، وبدأ بالسعال ، ثم طرق النافذة كما فعل فى المرة الأولى ، فأجابت أليسون : «من الطارق ؟ من هناك ؟ أنا واثقة أنه لص» ، فقال أبشلوم : « أبدا والله يعلم يا حبيبتى الحلوة ، أنا محســوبك أبشــلوم يا عروسى ، وقد أحضرت لك خاتما من الذهب اعطته لى أمى والله ينجينى ، وهو خاتم جميل جدا وعليه نقوش رقيقة ، وأنا على استعداد لأن أمنحه لك أن تعطفت على بقبلة » .

وكان نقولا قد نهض من الفراش ليتبول ، وخطر بباله أن يقوم بلعبة ماكرة تفوق السابقة ، وأقسم أن يجعله يقبل اســته قبل انصرافه ، فرفع الشــباك بسرعة وأخرج استه خلســة ودفعه الى الخارج حتى وصل الشــباك الى عظمة وسطه . وأخذ أبشلوم هذا العالم يتكلم ويقول : « تكلمى يا عصفورتى الجميلة أنا لا أستطيع ملاقاتك » . وعندئذ أخرج نقولا ريحا قوية فى وجهه لا شك أنها كانت فى قوة الصاعقة حتى ان أبشلوم كاد يســقط من عنف الصدمة ، ولكنه كان متأهبا بقطعة الحديد الساخنة فضرب بها نقولا فى مخرج استه .

فتناثر جلده المحروق على بعد ذراع ، وأحرقت قطعة الحديد الساخنة شرج استه الى حد أن نقولا ظن أنه ســيلقى حتفه من شــدة الألم ، فأخذ يصــيح كالمجنون : « واغوثاه ! ماء ماء ! واغوثاه ! وحق قلب الله ! » . وعندئذ نهض النجار من نومه ـ ولما سمع من يطلب الماء بلهفة كأنه مجنــون قال لنفســه : « وامصيبتاه ! ها هو ذا طوفان نوح قد أقبل » ، ونهض فجأة ، دون أن ينبس بكلمة ، وقطع بالبلطة الحبل الــذى كان يمسك بالطســت ، ونزل كل شيء ، وانطبق عليه المثل القائل انه لم يقف فى الطريق لمباشرة تجارته فى الجعة أو

فى الخبز بل هبط وهبط حتى بلغ الأرض وأغمى عليه وتمدد على الأرض . وعندئذ نهضت أليسون وجرت ومعها نقولا الى الطريق وهما يصيحان : « واغوثاه ! واغوثاه ! » . وعندئذ هب الجيران صغارهم وكبارهم وجروا الى منزل النجار ليشاهدوا الرجل الذى أغمى عليه ، وشحب لونه لأن سقوطه تسبب فى كسر ذراعه ، ومع ذلك أصر على ان يقف على قدميه على الرغم مما كان يعانيه من الألم ولكن ما أن فتح فمه ليتكلم حتى هجم عليه نقولا وأليسون ومنعاه من الكلام وأوهما كل من حضر ليشاهده أنه قد أصابه مس من الجنون لأنه يتصور أن طوفان نوح مقبل عليه ، وأنه قد اشترى ثلاثة طسوت وعلقها فى أعلى السقف ، وتوسل لنقولا وأليسون ان يجالساه فى أعلى السقف حتى لا يشعر بالوحدة وناشدهما بمحبة الله أن يفعلا ذلك .

فأخذ أهل القرية يضحكون منه لأوهامه هذه ، ويرقصون ويضربون السقف بأرجلهم ، وحولوا المغامرة الى نكته مثيرة لضحك الجميع وكلما حاول النجار المسكين أن يظهر الحقيقة ضحك الناس منه وأبوا أن يستمعوا لكلامه أو حججه . وانفجرت من حوله القهقهه والأيماء بأنه قد أصابه جنون مطبق ، واتفق على ذلك جميع علماء المدينة متضامنين ، وقال كل واحد منهم للآخر : « يا أخى هذا الرجل مجنون تماما » ، وكلما استعاد اى واحد منهم فى ذاكرته تلك المشاجرة انفجر ضاحكا .

وهكذا جومعت زوجة النجار على الرغم من حرصه على حراستها وغيرته عليها ، وهكذا قبل أبشلوم عينها السفلى ، وهكذا احترق شرج نقولا ، وهكذا انتهت القصة ، وسلام الله على كل هذه الرفقة .

وهنا تنتهى حكاية الطحان

هوامش حكاية الطحان

(١) من الصعب جدا التحقق من مصدر هذه الحكاية ، فهناك قصص مختلفة ظهرت فى أوربا فى العصور الوسطى ، تشتمل على عنصرى هذه الحكاية ، وهى تخويف الشخص مما يدور فى الطابق الثانى من البيت والقبلة الموجهة الى غير هدفها ٠ وأغلب الظن أن تشوسر قد استوحى قصته هذه من نوع شائع من القصص فى فرنسا اسمه « الفابليو » (Fabliau) أو الأقصوصة الشعرية » ٠ وهذا النوع من القصص الشعرى يتميز بأنه يروى قصة قصيرة ، تدور حول حدث فكاهى ، أو فاحش ، شخصياته عادة من الطبقة الوسطى ٠٠ وكان العصر الذهبى للفابليو القرنين الثانى والثالث عشر ٠ ويتميز هذا اللون من القصص بأن مؤلفه عادة مجهول ، وبأن أسلوبه واقعى فاحش ومضحك ، وتدور أحداثه عادة حول خيانة زوجية ، وكثيرا ما تشتمل على هجوم على القساوسة المتهمين بالمجون ٠ ويرى بعض المؤرخين أن معالجة المرأة فى هذه القصص معالجة تحط من شأنها ، أو تسخر منها ، كان بمثابة رد فعل ضد المغالاة فى تقديس المرأة فى شعر الهوى العذرى ، الذى كان يتميز به أغلب شعر العصور الوسطى ٠

(٢) كان بيلاتوس ، الذى حكم عليه المسيح بالاعدام ، يمثل فى المسرحيات الدينية فى العصور الوسطى على أنه رجل ضعيف الشخصية ثرثار متخبط ٠

(٣) لم يكن « الماجستى » لبطليموس هو المقصود بالذات هنا ٠ وانما اسم « الماجستى » كان يطلق على أى كتاب فى التنجيم وفتح الطالع ٠

(٤) رموز الخوارزمى هى الأرقام المستعملة فى الرياضة عادة ، ولكن المقصود هنا الأرقام ، التى تستعمل فى التنجيم واحتساب الأرقام السحرية ٠

(٥) لم يتفق الشراح على ماهية نشيد الملك ، الا أنه من المعروف أنه كان غير دينى فى مضمونه ٠

(٦) شخصية « الشيخ العاشق الغيور » شخصية كثيرا ما تظهر فى الأقصوصات الشعرية ، التى تعتبر هذه مثالا لها ٠ وقد عالج تشوسر هذا الموضوع ثانية فى حكاية التاجر ٠

(٧) كان هذا مؤلفا وهميا لمجموعة من الأمثال والحكم الشعرية ، التى ألفت ، فى أغلب الظن ، فى القرن الثالث أو الرابع الميلادى بالاتينية وهى لمؤلف مجهول ، أو لعدة مؤلفين مجهولين ٠ وقد احتار وليم كاكستون (William Caxton) منشىء الطباعة فى انجلترا هذا الكتاب ، ليخرجه فى ترجمة انجليزية من عمله بمطبعته ٠

(٨) كانت مثل هذه الأحذية تسمى باللاتينية Calcei Fenestrati أى « الأحذية ذات النوافذ » بمعنى أن الجلد كان يقص فيها بحيث تكون فتحات للتهوية ٠

(٩) أغلب الظن أن الاشارة الى مدرسة أكسفورد فى الرقص يراد بها السخرية لا تقرير الواقع ٠

(١٠) ذكر « الأبرشية » باستمرار فى شعر تشوسر يدل على واقعية معالجته لشئون عصره . فالمألوف على ألسنة النـاس ألا يتكلموا عن القريـة أو الحى فى المدينة انما يرمزون لذلك بذكر الأبرشية ، وهى الكلمة الاصطلاحية لوصف المنطقة ، التى تقع تحت اشراف كنيسة معينة ، اذ أن التقسيم الكنسى هو المأخوذ به فى تنظيم المساعدات الاجتماعية والحكم المحلى ، والنظام الضرائبى .

(١١) هيرودس هو الملك ، أمر بقتل كل الأطفـال المولودين من بنى اسرائيل ، عنـدما ولد المسيح ، فكان بذلك سبب هروب العائلة المقدسة الى مصر . وكان هيرودس بطبيعة الحال شخصية كريهة فى المسرحيات الدينية ، التى كانت تمثل الساحات العامة والأسواق فى العصور الوسطى .

(١٢) قرية فى ضواحى أكسفورد .

(١٣) كانت القديســـة فريدزوايد Frideswide معروفة بقدرتهـا على علاج المرضى وشفائهم ، وكان لها كنيسة فى مدينة أكسفورد ، ودير للراهبات بجوارها .

حكاية ناظر الضيعة

مقدمة ناظر الضيعة*

ولما ضحك المجتمعون بعد سماع هذه القصة المسلية الخاصة بأبشـلوم ونقولا العزيز فسر كل واحد القصة كما فهمها ، ولكن أغلبية الموجودين ضحكوا ومزحوا مزاحا كبيرا ، ولم أر بين الحاضرين من تألم لما سمع الا أوزوالد الناظر ، والسبب فى ذلك أنه كان فيما سـبق يحترف مهنة النجار ، الأمر الذى ترك شيئا من الغضب فى قلبه ، فأخذ يشكو ويئن قائلا : « وحق هـذه النعمة انى لأستطيع ان أجازيك خير جزاء بحكاية تتناول كسر عين طحان مفتر لو أردت أن أحكى نادرة بذيئة كما فعلت ، ولكنى شيخ كبير وسنى لا يسمح لى بالمزاح وكما يقول المثل قد استبدلت بحشائش المروج قش الحظيرة ، ودليل شـيخوختى فى رأسى البيضاء هذه وقد ذبل قلبى كما شاب شعرى ٠ وأننى أعيش كثمرة البشملة ، هذه الثمرة يصبح طعمها مرا كلما طال وجودها على الغصن حتى تتعفن فوق كوم القمامة أو القش ، وأخشى أن تكون هذه هى حالنا نحن الشيوخ لا نكاد ننضج حتى نتعفن ، طالما تنفخ الدنيا فى المزمار نرقص لها ، اذ أن فى شهواتنا دائما مسـمارا يخزنا ، فنحن كالكرات رؤوسـنا تشـيب وذيولنا لا تزال خضراء (٢) ، وحتى حينما تنفد قوتنا كلية تكون ارادتنـا لا تزال تتشوق الى الحماقة فى كل وقت ، وحينما تعجز عن الأداء نكثر من الكلام ٠ ومع ذلك لا تزال النار تومض فى رمادنا العجوز ، وفيه أربع قطع فحم متقدة حتى نهاية الشيخوخة ، وقد تكون أطرافنا ثقيلة الحركة ، وأدركتها الشيخوخة ، ولكن ارادتنا ورغباتنا لا تخمد ، وهذه هى الحقيقة ٠ وأقول لكم انى لا أزال أتمتع بأسنان مهر صغير ولو أن سنين كثيرة قد مرت منذ أن انفتح صنبور حياتى سائلا ٠ والحق يقال ان

الموت ، عقب ولادتي مباشرة ، فتح صنبور حياتي وتركه يســيل ، ومنذ ذلك الوقت والسيل مستمر حتى ان البرميل كاد يخلو من الماء (٣) • والآن أصبح سيل الحياة يقطر على طرف البرميل الأسفل • وأما اللسان الأحمق فله أن يصيح ويجلجل ويعدد آلام الماضى الذى انقضى منذ زمن بعيد ، واذا استثنينا التخريف فليس لدى الشيوخ شيء آخر •

ولما سمع مضيفنا كل هذا الوعظ خاطبه بشيء من الغطرسة كأنه سيد أو ملك قائلا : « وما فائدة كل هذه الحكمة هل ســنظل نردد طوال النهار حكـم الكتاب المقدس ؟ ويبدو ان الشيطان قد جعل من الخولى واعظا ، أو من الاسكافى بحارا أو حجاما • أرو قصتك ولا تعطلنا فها هى ذى مدينة دتفورد والساعة الآن الســابعة والنصف صباحا ، وهنــاك مدينة جرينتش حيث يســكن كثير من الشرسات (٤) ، لقد آن لك منذ مدة أن تروى قصتك » • فقال أوزوالد ناظر الضيعة ما يأتى : « والآن يا سادتى أرجو ألا تســأموا أو تتضــايقوا اذا أجبت الطحان ووجهت اليه ما يستحق وأظهرت حمقه ، فالانسان يجب أن يقابل العنف بالعنف • ان هذا الطحان الثمل حكى لنا هنا كيف سخر منه نجار ، ولعل ذلك تعريض بى لأنه يعلم أننى من أبناء نفس المهنة ، ولهذا استأذنكم أن أصيبه بعد قليل بما يستحق ، وسوف أستخدم نفس العبارات البذيئة التى استعملها هو ، وأناشد الله أن يكسر عنقه ، لأنه يرى القشة فى عينى بينما تقف فى عينه مارينة من الخشب (٥) •

حكاية ناظر الضيعة

هنا تبدأ حكاية ناظر الضيعة

فى قرية ترمبنجتون بالقرب من كمبردج جدول فوقه جسر ، وعلى هذا الجدول مطحنة ، وأنا لا أقول غير الحق ، وكان هناك طحان عاش أياما طويلة ، وكان مغرورا ، يحب التظاهر والملابس البراقة كأنه طاووس ، وكان يجيد النفخ فى المزمار وصيد الأسماك ونصب الشباك وصنع الأوانى الخشبية ، كما كان يجيد المصارعة والرماية ، وكان دائما يحمل فى منطقته سيفا عريضا ذا نصل حاد قاطع ، كما كان يحمل أيضا خنجرا جميل الصنع مغمدا فى كيسه ، ولهذا لم يجرؤ أحد من الناس على أن يقترب منه خوفا على نفسه ، وكان يخفى داخل سرواله سكينا مصنوعة فى مدينة شفيلد (٦) ، وكان وجهه مســتديرا وأنفه أفطسا • وكان أصلع الناصية كالقرد ، وكان من المترددين على الأسواق لمجرد التشاجر ، ولم يكن هناك من البشر من يجرؤ على لمســه خشية أن يحـوله الى ســائل بائس ، والحق يقال انه خرب الذمة يسرق القمح والردة ، وكان لئيما معتادا على السرقة ، وكان يدعى سمكن النهم المزدرى للغير » ، وكانت له زوجة من أصل كريم ، وكان أبوها قسيس القرية (٧) ، وقد زوجه بها وأعطاه أوانى كثيرة

من النحاس مهرا لها حتى يرضى سمكن بمصاهرته ، وكانت هذه الزوجة قد تربت فى دير من أديرة الراهبات (٨) ، وكان سمكن يقول انه لا يقبل الزواج بفتاة ما لم تكن بكرا وعلى جانب من التربيـة حتى تشرف بأمانة على ضـيعته وتصون كرامته ، وكانت هـذه المرأة متكبرة وبذيئة اللسان وثرثارة كالصرد ، وكان منظرهما معا رائعا ، وكان دائما يمشى أمامها فى الأعياد وقباؤه مرفوع فوق رأسه ، أما هى فكانت ترتدى حلة جميلة لونها أحمر ، وكان سروال سمكن من نفس اللون ٠

ولم يجرؤ أحد من الناس أن يناديها بغير « سيدة » ، ولم يكن بينهم من تواتيه الجرأة على أن يداعبها أو يغازلها لو التقى بها فى الطريق اللهم الا اذا كان مستعدا لأن يقتل على يد سمكن بسـيفه أو سـكينه أو خنجره ، والمعروف ان الغيورين دائما خطرون الا اذا كان فى نيتهم أن تسير زوجتهم سـيرا معوجا ، ومهما يكن من أمر فان هذه الزوجة كانت ملوثة الى حد ما (بسـبب ميلادها غير الشرعى) ، وكانت تعلوها كبرياء مثل كبرياء الماء العكر كمـا يقول المثل وكانت الى جانب ذلك شديدة الاحتقار لمن حولها ٠ وكان تفكيرها دائما أن من صفات السيدات أن يتعالين وذلك بسبب نسبها وتربيتها التى تلقتها فى دير الراهبات ٠

وكان لهما بنت تبلغ من العمر عشرين سنة ، ولم يكن لهما أطفال سواها غير طفل عمره نصف سنة لا يزال فى المهد ، وكانت هذه الفتاة ربعة الجسم ، ممتلئة البدن ، أنفها أفطس وعيناها رماديتان كالمرآة ، وكانت اليتاها عريضتين وثدياها مستديرين وعاليين ، ولا أكذبكم اذا قلت أن شعرها كان أشقرا جميلا ٠

وكان كاهن القرية قد قرر أن يجعلها وريثته ، وذلك لجمالها ، فاستقر رأيه على أن يترك لها كل مواشيه ودار سكناه ، ولذلك كان يضع العراقيل أمام تزويجها ، اذ كان غرضه أن يهبها لابن أسرة رفيعة المنزلة ذات سلالة ونسب معتبرين ، فقد كان يرى أن خيرات الكنيسـة يجب أن تصرف الى ذرية هـذه الكنيسة المقدسة ، وكان اذن يمجد دمه الكنسى بينما لا يتورع عن التهام خيرات هذه الكنيسة ٠

ولا شك أن هذا الطحان كان يرتكب الكثير من السرقات فى المنطقة كلها من قمح الناس وشعير الجعة ٠ وبهذه المناسبة كان بمدينة كمبردج كلية فخمة كبيرة يسميها الناس « كلية الشمس » (٩) ، وكانت هذه الكلية ترسل للطحان باستمرار قمحها وشعيرها لكى يطحنهما ٠ وحدث فى يوم من الأيام ان مرض مراقب الكلية وظن الناس جميعا أنه سيموت حتما ٠ وفى أثنـاء مرض هـذا المراقب ، كان الطحان يسرق من القمح والردة قدر مائة ضعف لما كان يسرقه قبل مرضه ٠ كان قبل ذلك يسرق على اسـتيحاء ، أما الآن فقد أصبح لصا

مفتريا ، ولذلك أخذ عميد الكلية يشكو ويضج بالشكوى ومع ذلك لا يعطى لشكواه وزن بصلة ، بل كان يصيح بأعلى صوته قائلا : « هذا كله هراء » ٠

وكان يسكن بالكلية طالبان شابان فقيران ، وكانا مشغوفين باللعب شديدى الشكيمة ، فذهبا الى عميد الكلية وأخبراه بدافع اللعب والشيطانية أن يسمح لهما بالخروج ساعة قصيرة ، ليأخذا القمح الى الطحون ويشرفا على طحنه ، وأقسما برقبتهما أنهما لن يسمحا للطحان بأن يسرق منهما مثقال ذرة نتيجة لخبثه وأنه لن يأخذ منهما شيئا بالقوة ، فسمح لهما العميد فى النهاية بالخروج ، وكان أحدهما يدعى جون والآخر ألان ، وكانا من مواليد مدينة صغيرة فى أقصى الشمال اسمها ستروذر (١٠) ، ولا أعرف مكانها ٠ وأعد ألان العدة ووضع الكيس على ظهر الحصان وذهب الطالبان ألان وجون يحملان سيفين متينين وترسين الى جانبيهما ، وكان جون يعرف الطريق جيدا ولم يكن فى حاجة الى دليل ، ووصلا الى الطحون حيث أنزلا الكيس ٠ وكان ألان أول من تكلم فقال : « السلام عليك يا شمعون ، كيف حال ابنتك الجميلة وزوجتك ؟ » ٠

فقال له سمكن : « مرحبا يا ألان مرحبا وحياتى ! ومرحبا بك أيضا يا جون ٠٠ ماذا تفعلان هنا ؟ » واستطرد جون قائلا : « يا سيموند والله العظيم الضرورة لا يحكمها قانون ، فعلى من لا خادم له أن يخدم نفسه ، والا كان أحمق حقا ، كما يقول العلماء ، فمراقب الكلية ، قاتله الله ، يعانى من ألم فى ضروسه ، ولذلك جئت أنا ومعى ألان لنطحن الحب ونحضره معنا الى الكلية ، فنرجوك الاسراع ما استطعت » ٠

فقال سمكن : أقسم بايمانى أن هذا سينجز فى الحال ، أما أنتما فما عساكما فاعلان أثناء هذا العمل ؟ » ٠

قال جون : « والله سأقف بجوار القادوس وأنظر الى الحب وهو يدخل المطحنة ، فأنا لم أر أبدا حتى الآن كيف يتحرك القادوس ذهابا وايابا ، وحق سلالة أبى » ٠

وأجاب ألين قائلا : « أتريد ان تفعل ذلك يا جون ؟ » ، اذن سأكون بجوارك ، وحق قمة رأسى ، وسأتأمل الردة وهى تتساقط فى الحوض ، وسيكون ذلك من دواعى تسليتى لأننى يا أخى جون ، أقسم بايمانى أننى من نفس جنسك ، وأنا مثلك طحان جاهل ردىء » ٠

فابتسم الطحان لجهلهما وناجى نفسه قائلا : « ان هذا كله ليس الا حيلة ، لأنهما يظنان أن أحدا لا يستطيع خداعهما ، ولكننى اقسمت بالنعمة أن أفقا عيونهما على الرغم من كل ما تتضمنه فلسفتهما من حيل ، وكلما كانت حيلهما أعمق خداعا زادت الكمية التى سأختلسها منهما ، وبدلا من أن أعطيهما دقيقا سأسلم لهما النخالة ، والمثل المعروف يقول ان أعظم العلماء ليسوا أحكم الناس ،

على حد قول الفرس للذئب في القصة المشهورة (١١) · وأنا لا أهتم قيد شعرة بكل ما جبلا عليه من لؤم وحيل وما يتذرعان به من حيل » ·

ثم خرج من الباب خفية لأنه رأى أن فرصته قد حانت ، وتلفت يمنة ويسرة والى الأمام والى الخلف حتى وقع نظره على حصان الطالبين مربوطا خلف المطحنة تحت شجيرة ، فذهب نحو الحصـــان وجرده من اللجام ، وأطلق سراحه · ولما شــعر الحصـــان بأنه طليق جمح نحو المروج حيث تجمع الافراس الطليقات · وانطلق الحصان نحوها وهو يصهل « وهي » ، وقذف بنفســـه وســطها · أما الطحان فقد عاد الى عمله ولم ينبس ببنت شفة ، وأنجز عمله ، وداعب الطالبين حتى انتهى طحن الحب تماما · ولما وضعت الردة في الأكياس خرج جون من الطحون باحثا عن حصانه فوجده قد فر ، فبدأ يصيح يا عالم يا هوه ! وامصيبتاه ضاع حصاني يا ألين قم وقف وبحق محبتك لله ولجثمان ابنه هرول يا رجل في الحال ·

ويلاه ! لقد فقد عميد الكلية أحب مطية له ·

وعندئذ نسي ألين كل شيء : الحب والردة والدقيق ، ولم يبق في ذهنــه شيء من الاهتمام بالاقتصاديات ، وصاح « ترى أين ذهب ؟ » · ودخلت زوجة الطحان عليهم تجري وتصيح « ويلكما لقد جمح حصانكما نحو المروج حيث الأفراس الطليقات بأسرع مافي وسعه · لعنة الله على من لم يعرف كيف يحكم وثاقه ، فقد كان يجدر به أن يربط الحصان ربطا وثيقا » ·

فقال جون : « ويلتاه يا ألين ! أناشدك بحق آلام المسيح أن تضع سيفك كما وضعت سيفي فاني سريع كالسمكة في البحر والله أعلم بذلك ، وقد أقسمت بحق قلب الله تعالى أنه لن يفر منا نحن الاثنين · لم لم تضع الحصان في الحظيرة ؟ وامصيبتاه يا ألين ! انك حقا مغفل » ·

وقام هذان الطالبان الساذجان وهرعا نحو المروج ، جرى ألين وجرى جون معا · ولما رأى الطحان أنهما قد ذهبا سرق من الأكياس نصف أردب من الدقيق ، وأمر زوجته أن تخبزه فطيرة قائلا : « أنا واثق من أن الطالبين الآن خائفا جدا ، فالطحان يستطيع أن ينتف ذقن العالم على الرغم مما جبل عليه من لؤم وما أوتي من علم · ليذهبا أني شاءا · دعوا الأطفال يسخرون منهم · وأنا واثق وحق قمة رأسي أنهما لن يتمكنا من امساكه بهذه السهولة » ·

وأخذ هذان الطالبان يجريان في كل اتجاه صـــائحين : « قف ! قف ! مكانك ! مكانك ! احترس وراءك · اذهب هناك وصفر له أما أنا فســـوف أبقى هنا وأمسكه ! » ، وقصارى القول أنهما لم يستطعا حتى أواخر الليل أن يقبضا على حصانهما الذي كان يفلت من بين أيديهما كلما أدركاه · واســتطاعا

فى النهاية ، بعد مجهود شاق ، أن يقبضا عليه لأنه سقط فى قناة ، وصعد جون الأحمق وآلين الساذج ممسكين بالحصان ، وهما مرهقان ومبتلان . وصاح جون قائلا : « ويل لليوم الذى ولدت فيه ها نحن أولاء أصبحنا أضحوكة الطحان وموضع ازدرائه ، فقد سرق قمحنا وسيرمينا الناس بالغفلة كما سيفعل عميد الكلية وجميع زملائنا وخاصة الطحان واحر قلباه » .

وهكذا أخذ جون يشكو ويبكى فى أثناء ذهابه الى الطحون وهو يمسك الحصان « بايار » بيده . ووجد الطحان جالسا بجوار المدفأة ، ولما كان الليل قد أرخى سدوله . ولما كانا مرهقين لا يستطيعان الاستمرار فى الذهاب الى أبعد من ذلك فقد توسلا اليه بحق محبة الله أن يجود عليهما بالمأوى حتى الصباح فى مقابل قليل من المال . فأجابهما الطحان قائلا : « اذا وجد شيء هنا فسوف نقتسمه . صحيح أن بيتى ضيق ، ولكنكما على قدر عال من العلم وتستطيعان بالحجج والجدل أن تحولا المكان الضيق الى مكان رحيب ، فانظرا هل تتسع هذه البقعة لكما ، وان لم يتحقق ذلك ففى استطاعتكما أن توسعاها بالكلام » .

فقال جون : « يا سيمون أناشدك بحق القديس كثبرد (١٢) أن تبقى مرحا كما عهدناك دائما .. لقد اجبتنا اجابة حسنة ، وقد سمعت المثل القائل بأن على الانسان أن يأخذ ما يجده أو ما يحضره معه . ولكنى أيها المضيف الكريم اناشدك بصفة خاصة أن تحضر لنا بعض الطعام والشراب ونحن على أتم أستعداد أن ندفع لك ثمنهما كاملا ، فالانسان اذا كان صفر اليدين فانه لا يستطيع أن يفرض ضريبة على الصقر الطائر كما يقول المثل . وها هى ذى فضتنا جاهزة للصرف » .

وعند ذلك أرسل الطحان بنته الى المدينة لتحضر لهما بعض الجعة والخبز ، وذبح لهما أوزة وشواها ، بعد أن ربط حصانهما فى الحظيرة حتى لا يهرب ثانية . وفرش لهما سريرا فى حجرة نوم بالبطاطين والملاءات النظيفة وكان ذلك السرير لا يبعد عن سريره أكثر من عشرة أقدام أو اثنتى عشر قدما . وكان لبنته وحدها سرير فى نفس الحجرة ، ولم يكن من الممكن ترتيب الأشياء بطريقة أفضل ، وسلونى لماذا ، فأجيبكم أن الحجرة ما كانت تتسع لأكثر من ذلك . وتناولوا طعام العشاء وتبادلوا حديثا ممتعا ، وشربوا جعة قوية من أحسن الأنواع ، وفى منتصف الليل تقريبا أووا الى فراشهم . وكان هذا الطحان قد دهن رأسه بالشحم ، كما كان قد سكر ، ولهذا السبب شحب لونه ولم يحمر كما هى العادة ، وأصابته الشهقة ، وأخذ يتكلم من خلال أنفه كأنما أصيب برشح أو بحمى ، ثم أوى الى سريره مع أمرأته ، وكانت هذه المرأة جميلة لعوبا كأنها عصفورة ، وكان لعابها يجرى فى فمها ، وكانت قد وضعت مهد طفلها فى آخر السرير حتى تؤرجحه وترضعه عند اللزوم . وكانوا جميعا قد شربوا كل ما فى الوعاء ودخلت البنت أيضا لتنام كما دخل ألين وجون أيضا الى السرير ،

ولم يكن أحد منهم فى حاجة الى منوم . وكان الطحان قد أسرف فى احتساء الجعة وكان ينخر فى نومه كالحصان ، على حين أنه لا يلتفت الى ما يفعله ذيله من الوراء . أما زوجته فان نخيرها كان يردد نخيره ، وعلى بعد فرسخين كانت تسمع تجشؤاته ، كما كانت بنتهما تتجشأ لمسايرة الحال .

وحينما سمع ألين الطالب هذه الالحان نخس جون فى جنبه قائلا : « أنت نائم ؟ اسمعت مثل هذه الألحان قبل اليوم ؟ والله ان أصواتهم لتكون قداسا ليليا مرتلا ، أحرقتهم النار جميعا ، هل سمع أحد بمثل هذا حتى الآن ؟ لعنهم الله وأعطاهم نهاية مثل وجوههم أنا لن أستطيع النوم طوال الليل ؟ ولكن قبل طلوع النهار سوف يكون كل شيء على ما يرام فانى قد أقسمت يا جون ، بحق النعمة أن أجتمع بتلك البنية فى أول فرصة ، وقد أباح لنا القانون بعض المزايا ، فهناك يا جون قانون يقول ان المرء اذا أغضب فى ناحية استطاع أن يخفف من غضبه فى شخص آخر . والحقيقة أن قمحنا قد سرق ، ولا يستطيع أحد أن يقول خلاف ذلك ، ولم يصادفنا طوال النهار سوى سوء الحظ ، وما دام لا يوجد من يعوضنى عما فقدته فانى سأبحث عن متعتى بنفسى ، والله والله هذا ما سوف يحدث » .

فأجابه جون قائلا : « حذار يا ألين فالطحان رجل خطير ، واذا استيقظ من نومه استطاع أن يرتكب معنا جريمة » .

فأجابه ألين : « أنا لا أعتبره أكثر من ذبابة » . ثم نهض وتسلل حتى وصل الى البنية التى كانت نائمة وهى جالسة ، ولما اقترب منها التصق بها قبل أن تتنبه ، وفات أوان الصياح والاستغاثة ، وخلاصة القول أنه اجتمع بها . ولنترك ألين يلهو ولنتكلم عن جون .

لقد كان راقدا ساكنا على بعد منهما ، وكان يبكى ويتحسر قائلا : « وامصيبتاه ! هذه حيلة شريرة .. لقد أصبحت أنا كالقرد فى الزفة ، أما صديقى فقد عوض عما فقده اذ أنه يضم بنت الطحان بين يديه ، وتمتع بها وقضى أربه ، أما أنا فراقد مثل كيس من الردة فوق السرير ، وذات يوم فى المستقبل حينما يحكى ألين هذه المغامرة سأبدو أنا مغفلا مخنثا . والله لابد أن أقوم حالا وآخذ نصيبى من المتعة أيضا ، ألا يقول المثل « وفاز باللذة الجسور » . وبهذه الكلمات نهض وتسلل نحو المهد وجذبه الى سريره ووضعه فى آخره . وعندئذ نخرت المرأة « زوجة الطحان » نخيرا قويا أيقظها من النوم ، فنهضت لتتبول ، ثم عادت ولم تجد المهد فتحسسته ، ولكنها لم تجده ، وناجت نفسها قائلة : « وامصيبتاه كدت أضل طريقى .. لقد كنت على وشك أن أذهب الى سرير الطالب ، آه باركنى الله كنت على وشك أن أرتكب شيئا فظيعا » ، واستمرت تتحسس ما حولها حتى وجدت السرير الذى كانت تظنه سريرها لأن المهد

بجواره ، وهى لا ترى فى الظلام ، فدخلت فى سرير الطالب ورقدت ساكنة وكانت على وشك النوم حينما انقض عليها الطالب جون وضاجعها مضاجعة شديدة ٠

واستطاع هذان الطالبان أن يقضيا وطردهما طوال الليل حتى صاح الديك الثالث فى الفجر ، ولما أشرق النهار كان ألين متعبا للغاية لأنه كان يكدح طوال الليل ، فقال لضجيعته : « السلام عليك يا مالين (١٤) يا حبيبتى العذبة ٠٠ ، لقد أشرق النهار ، ولابد أن أذهب ، ولكن من الآن فصاعدا ، أينما ذهبت أو ركبت ، تأكدى أننى رهن اشارتك لشدة ما تمتعت معك » ٠

فقالت له : « اذهب اذن أيها الرجل الغالى ، اذهب مع السلامة ! ولكن قبل أن تذهب أريد أن أقول شيئا واحدا ، وهو أنك وأنت ذاهب مر على بوابة الطحون ورد الباب وستجد وراءه كعكة كبيرة مصنوعة من نصف أردب قمحكم الذى ساعدت أبى على سرقته منكم ٠ والآن اذهب تصحبك السلامة ورعاكم الله ! » ٠ وما كادت تنتهى من هذا الكلام حتى كادت تنفجر باكية ٠ فنهض ألين وناجى نفسه قائلا : « قبل أن يشرق النهار سأتسلل نحو زميلى » ٠ وتحسس بيديه ووجد المهد ، وقال لنفسه : « يارب لابد أننى ضللت طريقى تماما ، ودماغى ثمل من كثرة ما اشتغلت طوال الليل ، وهذا هو السبب فى أننى لا أمشى فى الطريق الصحيح ، والدليل على ذلك أن المهد هنا فلابد أن يكون الطحان وامرأته بجانب المهد » ٠ فذهب مبتعدا والعشرين ابليسا ، ودخل على السرير الذى كان يرقد فيه الطحان وحده ، وظن أنه يحبو نحو صديقه جون الا أنه كان يحبو نحو الطحان ، وأمسك ألين الطحان من رقبته وهمس فى أذنيه : « اسمع يا جون اسمع يا رأس الخنزير ، استيقظ أناشدك بحق دموع المسيح وأنصت الى مقلب نظيف ، أقسم لك بذلك الولى المسمى بالقديس يعقوب أننى فى هذه الليلة القصيرة قد جامعت بنت الطحان ثلاث مرات وهى نائمة على ظهرها ، أما أنت يا مسكين يا جبان فقد قبعت فى مكانك خائفا مرتعدا » ٠ فصاح الطحان قائلا : « أنت يا شرموط يا ابن الكلب ٠٠ هكذا فعلت ؟ أنت خائن وجبان ٠٠ أنت عالم مخادع وحق شرف ربنا لابد من أن تموت أنت يا من تجرأت على أن تلوث بنتى تلك التى تنحدر من أصل شريف ، اتجرأت على ذلك ؟ » ٠ ثم أمسك ألين من زمارة رقبته وضربه بغضب وقسوة المرة تلو الأخرى ثم ناوله لكمة على أنفه بجمع يده ، فسال سيل من الدم على صدره وسقط على الأرض ، وتهشم أنفه وفمه تماما ، وتصارعا متدحرجين على الأرض كأنهما خنزيران فى حقيبة ، وكانا تارة يقفان وأخرى يسقطان حتى تعثر الطحان فى حجر على الأرض فسقط الى الخلف على زوجته وهى لا تدرى شيئا عما حدث لأنها كانت نائمة نوما عميقا الى جانب جون الطالب ، وكانا طوال الليل مشغولين بالعملية المعروفة ، فلما استيقظت من نومها صاحت قائلة : « النجدة النجدة يا صليب برمهولم (١٤) سلمت نفسى لك

يارب ! اننى بين يديك (١٥) ، أستنجد بك ! استيقظ يا سـيموند يظهر أن الشيطان انقض على ! انقطع قلبى ! النجدة النجدة اننى على شفا الهلاك ! هناك واحد نائم فوق بطنى ورأسى ! النجدة يا سـيمكن ! يظهر أن الطالبين الخائنين يتصارعان ! » ٠

وعندئذ نهض جون بأقصى سرعـة وأخـذ يتحسس الحيطان علله يعثر على عصا يدافع بها عن نفسه ، غير أنها كانت تعرف بيتها خيرا منه فنهضت أيضا ووجدت نبوتا ورأت قبسا صغيرا من الضوء لأن نور القمر كان ينفذ من شق فى الحائط ٠ وعلى ضوئه رأت شخصين لم تتبين شخصيتهما ولكن وقع نظرها على شىء أبيض فتذكرت أن أحد الطالبين كان يرتدى قلنسوة نوم بيضاء فاقتربت منه وهى ممسكة بالنبوت معتقدة أنها ستضرب ألين ضربا مبرحا ، ولكن النبوت سقط على صلعة زوجها الطحان ، فسقط على الأرض وهو يصيح : « وامصيبتاه ! أنا على وشـك الموت » ٠ وعندئذ أخـذ الطالبـان ينهالان عليه بالضرب وتركاه مطروحا على الأرض ٠

ثم ارتديا ملابسهما ٠ وأخذا دقيقهما كاملا والحصـان وانصرفا لحالهما ، وفى الطريق وقفا عنـد باب الطحون وأخـذا الكعكة التى خبزت خبزا رائعا من نصف أردب دقيقهما ٠

وهكذا ضرب الطحان المتعجرف ضربا مبرحـا وخسر ثمن طحن الدقيق ، كما دفع ثمن العشاء كاملا لألين وجون اللذين ضرباه ضربا مبرحا ، وضوجعت امرأته كما جومعت بدنه ٠ وهذا يحدث لكل طحان غشاش ، وعلى ذلك ينطبق المثل القائل : « من يبذر الشر لا ينبغى أن يجنى ثمرة الخير » ، والمخادع لابد أن يخدع (١٦) ٠

وسلم الله المتربع فوق عرشه العظيم كل واحد من هذه الرفقة كبيرا كان أم صغيرا ٠ وهكذا كافأت الطحان بما يستحق فى قصتى ٠

هنا تنتهى قصة ناظر الضيعة

هوامش حكاية ناظر الضيعة

(١) هناك نوع من التتابع الطبيعى بين الحكاية السابقة والحالية • فالاثنتان من نوع «الفابليو» (الأقصوصة الشــــعرية المضحكة) ، الذى أشرنا اليه فى حواشى قصة الطحان • والاثنتان تدور احداثهما فى مدينتين جامعيتين (حكاية الطحان فى ضواحى أكسفورد ، وحكاية الخولى فى ضواحى كمبردج) والاثنتان تحكيان عن شخصيات لا تعرف هويتهــــا وعن فسق ومجون يرتكبان ليلا فى بيوت تجار أغنيــاء ومخدوعين • وفى كلتا الحكايتين تعارض أو حتى مجابهة بين أهل العــلم (الطلاب) وأهل الحرف ، والنصر فى النهاية لأهل العلم على حساب أهل الحرف • ويضاف الى ذلك أن الخولى كان فى شبابه نجارا ، فغضب من حكاية الطحان ، التى تسخر من النجارين وأراد أن يثأر ممن ظن أنه كان يريد أن يطعنه فى شرفه ، من خلال قصته الماجنة • ويلاحظ أن حكاية الطحان وحكاية الخولى تنتميان الى نوع « الفابليو » المشار اليه ، والذى لجأ اليه تشوسر أكثر من مرة فى « حكايات كانتربرى » • فهناك أيضا حكايات الراهب المتجول ، والتاجر والبحار والنائب الكنسى ، وكلها تدخل فى هذا النوع • ولعل حكاية الطباخ لو قدر لها أن تكمل ، تنطوى تحت هذا النوع أيضا • ولعل حكاية الطباخ لو قدر لها أن تكمل ، تنطوى تحت هذا النوع أيضا • ويبدو أن تشوسر كان قد بدأ يهتم بهذا النوع القصصى فى العقد الأخير من القرن الرابع عشر • كما يلاحظ أن الحكايتين المذكورتين تتناولان شئون الطبقات الحرفية المتوسطة ، وتقصان على ألسنة الطحان والنجار (أى الخولى) وغيرهما ، لا بقصد حكاية الواقع ، وانما بقصد تسلية جمهور تشوسر الأرستقراطى ، الذى كان ينظر الى هذه الطبقات نظرة ازدراء وســخرية ومن العبث أن نبحث عن مصدر مباشر لحكاية الخولى ، فهذه قصة مألوفة بل مبتذلة فى جميع اللغات الأوربية قبل وقت تشوسر • فهناك قصتان فرنسيتان ، لعل أقربهما لحكاية الخولى القصة التى تسمى « الطحان وطالبا العلم » **(Le meunier et les. II. clers)** وقصتان ألمانيتان وواحدة ايطالية اقتبسها بوكاتشيو فى مجموعته المشهورة « الديكامرونى » •

(٢) قد يصدق التشبيه هنا لو قلبنا الأوضاع ، فجذر الكرات فى حقيقة الأمر هو الذى يكون أبيض اللون ، فى حين أن أوراقه تبقى خضراء • وان التــأمل الطويل ، الــذى يخلط بين المزاح والتألم فى أمور الشيخوخة ، موضوع مطروق فى قصائد كثيرة بالعصور الوسطى ،وأغلبها مستوحى من مجموعة مشهورة من المرثيات اللاتينية ، كتبها ما كســيميانوس **(Maximianus)** فى القرن السادس الميلادى •

(٣) هذا التشبيه مستوحى من تجارة الخمور ، ويذكرنا بأن جد تشوسر ووالده كانا تاجرى نبيذ فى لندن •

(٤) مهاجمة مدينة جرنتش **(Greenwich)** على هذا النحو لا يبدو له سبب واضح ، ولكن أغلب الظن أن تشوسر كان مقيما بها ، عندما كتب هذه الحكاية •

(٥) اشارة الى قول المسيح فى انجيل متى ٧ : ٣ •

(٦) ٧٩ من الطريف أن هذه أول اشارة فى اللغة الانجليزية الى صناعة السكاكين فى مدينة شفيلد (Sheffield)

(٧) سمكن (Simkin) اسم تدليل وتصغير لاسم سيمون (سمعان) ، أما زوجته فكانت مولودة غير شرعية ٠ اذ أن القساوسة كانوا ولا يزالون محرومين من الزواج فى الكنيسة الكاثوليكية ٠ وهذا هو تفسير السخرية فى وصفها بأنها من أصل كريم ٠

(٨) كانت احدى وظائف أديرة الراهبات فى العصور الوسطى أن تقدم تعليما لائقا لبنات الأسر القادرة على نفقاته ٠

(٩) هذه هى التسمية القديمة لمعهد علمى ، فقد كان يسمى « قاعة الملك » فى كمبردج ، ثم أدمج فيما فى كلية ترينيتى (Trinity) أى كلية الثالوث المقدس ٠

(١٠) لا وجود لمدينة ستروذر (Strother) ، وان كانت هذه التسمية موجودة كلقب فى بعض أسر الشمال ٠

(١١) هذه القصة هى أن الذئب سأل الفرس اذا كان يستطيع أن يشترى مهرها لكى يأكله ، فأجابته الفرس قائلة : « ان كنت مثقفا وقادرا على القراءة تستطيع أن تجد الثمن مكتوبا على حافرى الخلفى » ، فلما حاول الذئب أن يقرأ الثمن رفسته الفرس رفسة شديدة فأدرك الذئب أن العالم أو المثقف ليس بالضرورة أحكم الناس !

(١٢) كان « كثبرد » أو « كثبرت » (Cuthbert) قديسا ومطرانا فى شمال انجلترا ، كثيرا ما كان يقسم باسمه ، طلبا للمأوى أو الكرم ٠

(١٣) « مالين » أو « مالكين » (Malkin) اسم تدليل وتصغير لاسم ماتلدا (Matilda) واستعمال هذا الاسم فى اللغة الانجليزية الوسطى كناية عن المرأة الدنيئة الأصل ، ودخلت هذه الكلمة اللغة بمعنى « مكنسة للمطبخ » ٠ والازدراء الساخر واضح هنا ٠

(١٤) كان فى قرية « برمهولم » (Bromholm) بمقاطعة نورفلك (Norfolk) دير اشتهر بأنه يقتنى قطعة من الصليب الأصلى ، الذى صلب عليه المسيح ٠ وكان هذا الدير مقصدا لكثير من الحجاج ٠

(١٥) هذه الكلمات باللاتينية فى الأصل وهى الكلمات الأولى فى صلاة من يوشك على الهلاك فى المسيحية الكاثوليكية وهى مأخوذةأصلا من كلمات المسيح على الصليب فى انجيل لوقا ٢٣ : ٤٦ « ونادى يسوع بصوت عظيم وقال يا أبتاه فى يديك استودع روحى ٠ ولما قال هذا أسلم الروح »

(١٦) كانت كتب البلاغة فى العصور الوسطى تنصح فى كثير من الأحوال أن تختتم القصة الشعرية بمثل أو حكمة (sententia)

حكاية الطباخ

مقدمة حكاية الطباخ

أما طباخ لندن فكان طوال الوقت الذى كان يتكلم فيه الخولى ، يربت على ظهره نشوة وفرحا ، وضحك قائلا : « ها ها وحق آلام المســـيح لقد أصابت الطحان خاتمة لاذعة لقضية الدعوة والمأوى ! لقد صدق سليمان الحكيم (٢) حين قال « لا تدخلوا أيا كان فى بيوتكم » فان المأوى ليلا ملىء بالأخطار ، والانسان يجب أن يكون واعيا تماما لما عسى أن يأتى به الى بيته وحرمته ، وانى لأقسم بالله وليبيلونى الله بالحزن والهموم ، أنى لم أسمع قصة فيها حكم على الطحان خير من هذه منذ أن أطلق على اسم هوج (٣) من قرية وير ، فقد تعرض لحيل خبيثةفى الظلام • ولكن لا سمح الله لنا بأن نتوقف عن الكلام هنا • ولذلك اذا ســمحتم لى ، وأنا الرجل الفقير المسكين ، أن أروى قصة ســأحكى لكم حكاية فيها مقالب حدثت فى مدينتى ، وسأقصها عليكم بكل ما أوتيت من قوة » • فأجابه مضيفنا قائلا : « سمحت لك ، هيا احك يا روجر ، ولتكن حكاية لطيفة ، فكم من فطيرة أفسدتها أخيرا ، وكم من كعكة محروقة بعتها لنا بعد أن سخنت وبردت مرتين ، وكم من حاج فى الطريق وجه اليك لعنة المسيح ، ولا يزال الحجاج مرضى من البقدونس الذى أكلوه محيطا بالأوزة المحشوة ، وكم من ذبابة طائرة فى دكانك ! ومع ذلك ياروجر الكريم احك لنا وحياتك حكايتك ، وأرجو الا تغضبك الدعابة ، وان كان الانسان يستطيع أن يقول الكثير من الحقائق خلال دعابة » •

فقال روجر : « صدقت وحق ايمانى ولكن المثل الفلمنكى يقول « النكتة الحقيقية نكتة سخيفة ، ولذلك يا هارى بيلى (٤) يا مضيفنا استحلفك بحق ايمانك ألا تغضب قبل مغادرتنا هذا المكان لأن حكايتى خاصة بصاحب حان مثلك • ومع ذلك فانى لن أحكى لكم هذه الحكاية ، فأعلم تماما أننا سنصفى حسابنا قبل أن نفترق » • وعندئذ أطلق ضـــحكة عالة ثم قص حكايته على النحو التالى •

حكاية الطباخ

هنا تبدأ حكاية الطباخ

حدث فيما مضى أن متدرجا (أى صبيا فى احدى حرف المطاعم) كان مرحا خفيف الظل مثل البلبل فى الغابة ، وكانت بشرته سمراء كالزبيبة ، وكان قصير القامة له شعر أسود ممشط تمشيطا أنيقا ، وكان يعرف كيف يرقص على أحسن وأبهج نحو حتى أطلق عليه الناس بركن المهذار ، وكان ممتلئا بالحب والغزل كما تمتلىء خلية النحل بالعسل ، وكانت البنت التى تتصل به تأخذ حظها منه تماما ، وفى كل حفلة عرس كان يغنى ويرقص ، والحق أنه كان يفضل الألحان على دكان العمل • واذا حدث أن وقع نظره على مسيرة فى حى تشيبسيد (٥) فانه كان يقفز من الدكان ليشاهد ما يحدث ويشارك الراقصين فى الرقص • ولا يعود الى عمله بعد ذلك ، واستطاع بذلك أن يجمع حوله رفقة من الأصدقاء يرقصون ويلهون معه ،وكانوا دائما يتواعدون فى الشارع ليلعبوا النرد على الأرض • ولم يكن فى المدينة كلها صبى مهنته أبرع منه فى رمى النرد ، وكان يركن هذا بسبب حظه مسرفا دائما بدلا من أن يكون حصيفا فى أموره ، وقد اكتشف ذلك سيده بعد قليل فى أعماله ، فكم من مرة وجد خزينته خاوية • ولا شك أن الصبى الذى يقوم باللهو ويستمرىء لعب النرد والخلاعة والمجون ستقع تبعة ذنوبه على صاحب عمله فى الدكان ، ولو لم يقم هو بأى نوع من اللهو والموسيقى • فالسرقة والمجون يكمل بعضهما بعضا ، مثل عازف القيثارة الذى يستطيع أن يعزف على الربابة • فالمجون والأمانـة فى رجل من أصـل وضـيع يتنافران ، كما يمكن للانسان أن يلاحظ فى أحوال كثيرة •

وقد أقام هذا الصبى المرح بمنزل صاحب الدكان حتى قرب الموعد الذى تنتهى فيه مدة تدريبه ، وكان دائما يوبخ صباح مســاء ، وكم من مرة زف بموسيقى شعبية الى سجن نيوجيت • وفى نهاية الأمر جاء التلميذ يوما يطلب شهادة المعاملة من صاحب عمله ، فأخذ هذا الرجل يفكر فى المثل السائر الذى يقول : اذا فسدت تفاحة بين كوم من التفاح فخير لك أن تقذف بها بعيدا حتى لا تفسد باقى التفاح » • وهذا ينطبق على هذا الخادم الماجن ، وأيقن سيده أن

من الخير أن يطرده ، خشية أن يفسد بقية الخدم ، ولذلك أعطاه الشهادة ، وصرفه وهو مسرور لتخلصه منه ٠ وهكذا استطاع الصبى الخليع أن يأخذ اجازته من صاحب العمل ، الأمر الـذى جعله حرا طليقا يسـتطيع أن يلهو طوال الليل لو أراد ٠ وبما أنه لا يوجد لص ناجح الا اذا كان له شريك يساعده على الفسق والفجور والتدليس ، ويعاونه على ارتكاب المزيد من السرقة والاقتراض فانه أرسل سريره وأمتعته الى أحد أصدقائه الذين كانوا من نفس الطراز اذ كان يحب لعب النرد والفسق والمجون ، وكانت معه أيضا زوجة تدير ظاهريا دكانا صغيرا وان كانت هى فى الحقيقة تعمل مومسا وقوادة لتكسب رزقها ٠

(وهنا انقطعت القصة دون خاتمة)

هوامش حكاية الطباخ

(١) يبدو أن هناك تعارضا بين مقدمة حكاية الطباخ وبين مقدمة حكاية المتعهد ، حيث يخاطب صاحب الحان الطباخ ، كأنه يلاحظه لأول مرة أثناء الرحلة ، فيطلب منه حكاية · وأغلب الظن أن هذه الحكاية المبتورة كان تشوسر ينوى حذفها وادخالها فى أواخر المجموعة · وعلى أية حال فهذه الحكاية وان لم تنته ، الا أنها توحى بأنها كانت ستكون من نفس نوع « الفابليو » ، الذى تنتمى اليه حكاية الخولى وحكاية الطحان ، وغيرهما فى المجموعة ·

(٢) منسوب خطأ الى سليمان الحكيم وصحته أنه من سفر كتاب الحكمة ليسوع بن سيراخ فى الانجيل المنتحل ·

(٣) « هوج » (Hodge) اسم تدليل وتصغير لروجر (Roger) ويبدو أن هناك طاهيا قد عاش حقيقة فى سنة ١٣٧٧ وعرفه تشوسر وهذا الاسم نفسه ·

(٤) هذا اسم لشخص حقيقى ، كان صاحب حان يسذرك فى عصر تشوسر ·

(٥) شارع تشيبسايد Cheapside كان من أهم الشوارع التجارية فى لندن ، كما كان ملتقى للمواكب الرسمية والحفلات التى تقيمها البلدية ·

حكاية رجل القانون

مقدمة حكاية رجل القانون

ما قاله المضيف للرفقة

لاحظ مضيفنا أن الشمس المشرقة قد مضت من رأس قوس اليوم الاصطلاحى ، وأنها كانت فى الناحية الأبعد منه منذ نصف ساعة أو أكثر ، وعلى الرغم من أنه لم يكن متبحرا فى العلوم فانه أدرك فى الحال أن ذلك اليوم كان اليوم الثامن عشر من شهر ابريل الذى يبشر بشهر مايو ٠ كما لاحظ أن ظل كل شجرة كان قد بلغ من الطول نفس طول الجسم المستقيم الذى كان يسقطه ٠ ولذلك بالنظر الى الظل احتسب أن فيبوس (اله الشمس) الذى كان يشرق ساطعا واضحا كان قد تسلق خمسا وأربعين درجة فى صعوده ، وعرف واستنتج أنه فى هذه المنطقة من العالم يكون معنى ذلك أن الساعة قد بلغت العاشرة (١) ٠ وفجأة أدار جواده مواجها الرفقة وقال : أيها السادة ! انى أنذركم أيها الرفقة أن ربع النهار قد انقضى ، لذلك أستحلفكم بحق صحبة الله وبالقديس يوحنا ألا تضيعوا الوقت ما استطعتم الى ذلك سبيلا ٠ أيها السادة ان الزمان يضيع ليل نهار وينسلخ منا ، بعضه ونحن نيام دون أن ندرى ، وبعضه ونحن مستيقظون ، وذلك نتيجة لاهمالنا ، مثله فى ذلك مثل الجدول الذى لا يتقهقر ابدا ، وهو ينحدر من أعلى الجبل الى السهل (٢) ٠

ونحن نعرف جيدا أن سنيكا وكثيرا غيره من الفلاسفة يتحسرون على مرور الزمن أكثر من ضياع الذهب من الخزانة ، الأمر الذى جعل سنيكا يقول : « ان ضياع الأموال يمكن أن يسترد ، ولكن ضياع الزمن يدمرنا تماما ، وانه لواضح من غير شك أن الزمن لن يعود أبدا . كما لا تعود أبدا بكارة ماتيلدا (٣) بعد أن أضاعتها فى الفسق والمجون . هلموا اذن حتى لا يصيبنا الخمول والعفن هنا ! » ثم استطرد قائلا : « يا سيدى ! يارجل القانون ! ليباركك الله بالسعادة ، احك لنا قصتك الآن كما تعهدت بذلك من قبل عندما قبلت بمحض ارادتك ان تقبل حكمى فى ذلك . هيا بادر بالوفاء بوعدك حتى تفى بالتزاماتك كاملة » . فأجابه رجل القانون قائلا : « أيها المضيف والله قبلت ، وليس فى نيتى ألا أفى بوعدى فان الوعد دين ، وثق أننى سوف أفى بكل ما وعدت به ، ولا أستطيع أن أقول لك أكثر من ذلك ، فذلك القانون الذى يفرضه الانسان على انسان آخر يجب أن يحترمه هو نفسه ! وهذا واجب عليه ، وهذا هو ما تقضى به المتون ، ومع ذلك ، والحق يقال ، فاننى لا أعرف حكاية مناسبة فى هذا المجال كما لا أعرف قصة ملائمة لم يكن تشوسر قد حكاها قبلى منذ زمن بعيد باللغة الانجليزية التى كان يجيدها ، ولو أنه لم يكن يمارس أوزانه وقوافيه الا ممارسة ساذجة كما يعرف الناس جميعا .

واذا لم يكن قد حكى قصته فى أحد كتبه أيها الأخ العزيز فانه حكاها فى كتاب آخر غيره ، لقد حكى تشوسر حكايات العشاق أكثر مما ذذكذره أوفيدو (٤) نفسه فى تلك الرسائل الشعرية الممعنة فى القدم ، فماذا أحكى لكم مادامت كل الحكايات قد رويت ؟ لقد نظم تشوسر فى شبابه حكاية سيكس وألكيونى (٥) ، ومنذ ذلك الحين وصف كثيرا من الشخصيات : هؤلاء زوجات نبيلات وأولئك أيضا عاشقات ، فمن أراد الاطلاع فعليه أن يبحث عن كتابه الضخم المسمى « أسطورة قديسات « كوبيد » اله الحب (٦) ، اذ يستطيع أن يرى فى هذا الكتاب وصف الجروح الكبيرة التى عانتها لوكريسيا وثربى البابلية . وقصة سيف ديدو الذى انتحرت به من أجل أينياس والشجرة التى مسخت اليها فيليس من أجل ديموفون ، وشكوى ديانيرا وهرميونى وأريادنى وهيبزيبيلى وحكاية الجزيرة الجرداء الماثلة فى وسط البحار ، وقصة لياندر الغارق من أجل حبيبته هيرو ، ودموع هيلينا وأيضا حزن بريزيس وشجنك أنت ياالوداميا ، وقسوتك ايتها الملكة ميديا ، عندما رأيت أطفالك الصغار معلقين فى المشنقة من أعناقهم ، وكل ذلك بسبب ياسون زوجك الذى خان حبك ! يا أيتها النساء التعسات هوبر منسترا وبنيلوبى وألكستيس لقد مدح الشاعر أنوثتكن التى لا تبارى .

ومع ذلك فانه لم يكتب كلمة واحدة عن ذلك المثال السيىء الذى ضربته كاناسى التى عشقت أخاها عشقا آثما — انى أزدرى مثل هذه القصص اللعينة . كما أنه لم يكتب عن أبولونيوس الصورى ولا عن قصة الملك أنتيوخوس اللعين

الذى هتك عرض ابنته • فما أفظع قراءة مثل هذه القصص وبخاصة تلك التى تصف كيف انه ألقى ببنته على أحجار الأرض • ولذلك كف دائما ، وعن وعى كامل ، عن أن يذكر شيئا من هذه الكبائر غير الطبيعية فى كتاباته • والآن فانى بدورى لن أرويها مادمت أستطيع أن أكف عن ذلك •

أما عن قصتى اليوم فكيف أشرع فى روايتها ؟ لا شك أننى لا أريد قط أن اتمثل بربات الفنون ، التى يلقبها الناس باسم البيريديس ، أى بنات النهر بيريوس (٧) فان صاحب كتاب مسخ الكائنات يعرف جيدا ما أعنيه ، ومع ذلك فانى لا أهتم بذلك قط ولا يضايقنى أن أدلف وراء الشاعر بأمر هزيل • فأنا أتكلم بالنثر وأتركه هو ينظم الشعر » (٨) •

ولما انتهى من كلامه بدأ يروى قصته بلهجة وقورة كما ستسمعون :

تمهيد حكاية رجل القانون

أيها السوء •• يا حالة الفقر ! يا من تمتزج بالعطش والبرد والجوع ! انك تخجل فى أعماق قلبك من الاستغاثة ، ولكن لو انك لم تطلب العون لجرحت بجروح الضرورة بحيث تكشف حتى أعمق جروحك الخفية • وعلى الرغم من أى شىء تقوم به يصبح لزاما عليك أن تسرق أو تشحذ أو تقترض النقود ، حتى تجد رزقك •

انك تلوم السيد المسيح وتقول بكل مرارة انه قد أســاء توزيع الثروة الدنيوية • وأنت تحقد على جـارك حقـدا آثما ، وتقول انك لا تملك الا النزر اليسير فى حين أنه يملك كل شىء • وتقول : « أقسم بايمانى انه سيأتى الوقت الذى يكفر فيه عما فعله ، عندما يحترق ذنبه فى نار جهنم ، وذلك لأنه لم يساعد المعوزين عند الحاجة » •

اسمع قول الحكيم : « خير للانسان أن يموت ولا يشعر بالحاجة ، والا احتقره جاره احتقارا شديدا » فان كنت فقيرا فقل « وداعا يا كرامة ! » واتعظ من قول الحكيم : « ان أيام الفقراء على الأرض كلها تعيسة شريرة » فحذار اذن ، واياك أن تتعرض لمثل هذا المأزق ! •

اذا كنت فقيرا كرهك أخوك وهرب منك كل أصدقائك ، وويحك !

أيها التجار الأغنياء ، لقد أتخمتم بالرخاء وكم أنتم شرفاء وحكماء ، وهذه هى الحقيقة • ان أكياسكم ليسـت ممتلئة بالأوراق الخـاسرة ، بل بالأوراق الرابحة وذلك لحسن حظكم • وفى وسعكم أن ترقصوا رقصا مرحا فى حفلات عيد الميلاد ! •

انكم تجولون فى البحار والبر بحثا عن الربح · ولأنكم حكماء فانكم جميعا تعرفون أحوال الدول والممالك ، فأنتم مصدر الأخبار والقصص الخاصة بالسلم وبالحرب · والآن وان كنت خالى الذهن من أى قصة أرويها لكم فان أحد التجار — فى قديم الزمان — قد عرفنى بقصة سأقصها عليكم بدورى ولتسمعوها ·

هنا تبدأ حكاية رجل القانون

فى قديم الزمان كان يعيش فى بلاد الشام جماعة من التجار الأغنياء وكانوا محترمين أمناء ، يبيعون بضائعهم فى كل أنحاء العالم ويرسلون أنسجة مقصبة وحرائر جميلة الألوان · وكانت سلعهم جيدة وطريفة الى حد أن الناس كانوا سعداء جدا بالتعامل معهم ، كما كانوا مسرورين ان يبيعوا لهم سلعهم بدورهم ·

وحدث ذات يوم أن قرر كبار التجار هؤلاء السفر الى روما ولم يعلنوا لأحد اذا كانوا مسافرين من أجل التجارة أو من أجل السياحة ، ولكن مجمل القول أنهم ذهبوا بأنفسهم الى روما وأقاموا فى المدينة فى المكان الذى ارتضوه لأنفسهم ·

وأقام هؤلاء التجار فى تلك المدينة بعض الوقت كما راق لهم · وحدث ذات يوم أن ترامت الى آذانهم سمعة الأميرة كونستانزا بنت الامبراطور الرفيعة · وسوف أروى عليكم كيف حدث ذلك وكيف انتقل الخبر الى أسماع هؤلاء التجار السوريين ·

كان أهل المدينة بأسرهم يقولون بصوت واحد « امبراطور روما حاكمنا — حفظه الله — له بنت لم يشهد أحد مثيلا لها فى جمالها وأخلاقها الرفيعة · وانا نتوسل الى الله أن يحفظها ويصون شرفها الرفيع وليتها تصبح ملكة للقارة الأوروبية بأسرها ! ان لها جمالا ساميا لا يخالطه الكبرياء ، وشبابا لا يسىء اليه الطيش ولا العته ، وهى فى كل ما تعمله تضع الفضيلة نصب عينيها وقد تغلبت وداعتها على الغطرسة · وهى مرآة لكل ألوان الأدب ، وقلبها مخدع للتقوى ، ويدها سخية تجود بالصدقات » ·

وكانت هذه أخبارا صادقة بحق اسم الله ، الذى لا يتطرق اليه الشك ، ولكن لنعد الى قصتنا من جديد : لقد انتهى هؤلاء التجار من شحن سفنهم ، ثم شاءت الظروف أن يلقوا نظرة على هذه الفتاة المغتبطة · وبعد ذلك رحلوا الى بلاد الشام حيث تصرفوا وتعاملوا ، كما كانوا يتعاملون منذ قديم الزمان ، وعاشوا فى طمأنينة ورخاء · ولا أستطيع أن أقص عليكم فى هذا الشأن اكثر من ذلك ·

وشاءت الظروف أن كان هؤلاء التجار يتمتعون برضا ذلك الشخص الذى كان سلطانا لبلاد الشـــام . وكانوا كلما عادوا من رحلة خارج البـلاد كان يدعوهم ، بما جبل عليه من أدب جم ، الى وليمة سخية ، وينصت الى ما كانوا يقصونه عليه من أخبار الممالك المختلفة ، حتى يقف هو بدوره على ما يعرفونه من عجائب شهدوها بالرؤية أو سمعوا عنها .

ومن بين الأخبار التى رواها التجار له ما عرفوه عن الأميرة كونســتانزيا وعن أخلاقها الرفيعة وذلك بالدقة والتفصيل . الأمر الذى دعا السلطان الى ابداء الرغبة الشديدة فى أن يرى شكلها وجمالها ، وأصبح كل ما يشتهيه أن يعشقها وأن يحبها طوال حياته .

وربما يكون قد كتب فى ذلك الكتاب الكبير الذى يسميه البشر بالسماء ، وربما يكون قد كتب فى النجوم (٩) عندما ولد السلطان أنه قدر له أن يموت عشقا ، فويحه ! والله يعلم أنه مكتوب فى النجوم بشكل أوضح من المرآة أسلوب موت كل انسان ولا شك فى ذلك . فقبل زمنهم بفصول شتاء كثيرة كتب فى السماء أسلوب موت هيكتور وأخيل وبومبى ويوليوس قيصر منذ لحظة مولدهم . كما كتبت أحداث حرب طيبة وقصة موت هرقل وشمشون وتورنوس وسقراط . ولكن ذكاء المرء ليس حادا ، ولا يستطيع الانسان أن يدرك ما يراه ادراكا كاملا .

وقد أمر الســلطان أعضــاء مجلس وزرائه بالحضــور وأبلغهم بغرضه باختصار . وقال لهم انه ان لم يحصل على عطف الأميرة كونستانزيا بعد قليل فانه سيقضى نحبه لا محالة وأمرهم بأن يسرعوا بتدبير ما يحفظ حياته .

فأخذ كل واحد من الحاضرين يدلى برأيه وتناقشوا وتجادلوا فى الأمر كثيرا . وأدلى كل منهم برأى سديد وهناك من تكلم عن السحر ومن تكلم عن الخداع . وفى آخر الأمر لم ير أحد منهم حلا لهذا الوضع الدقيق سوى الزواج ، ولا جدوى من أى شىء سوى الزيجة .

ومع ذلك فانهم بالتفكير فى الأمر أدركوا أن هناك صعوبات شتى ترجع ببساطة الى ســبب واضــح هو اختلاف شريعتيهما ، الأمر الذى دفعهم الى أن يقولوا : « لن يرضى أبدا ملك مسيحى بأن يزوج ابنته فى ظل شريعتنا العزيزة التى علمنا اياها نبينا محمد (١٠) . فرد عليهم السلطان قائلا : « اذا كان ذلك سيؤدى الى أن أفقد الأميرة ، فانى أقبل أن أتنصر ولا شك فى ذلك . لابد أن أصبح حبيبها . ولن أختار زوجة سواها . لذلك ارجو أن تكفوا عن الجدال ، وأن تعملوا مافى وسعكم لانقاذ حياتى ولا تستهتروا بالحصول على تلك التى عرضت حياتى للخطر من أجلها ، فانى لا أستطيع أن أستمر فى مثل هــــذا العناء » .

وما حاجتي الى الاستطراد ؟ أقول لكم اذن انه بفضل المعاهدات وتبادل السفراء وتوسط البابا ومفاوضة الكنيسة والفروسية المسيحية بأسرها اتفقوا جميعا (كما ستسمعون) على أن الأمر فيه قضاء على الكفر (١١) ونشر لشريعة المسيح العزيز : واتفقوا أيضا على ان السلطان ومن معه من أتباع واشراف سيتنصرون عندما يتزوج من الأميرة ، كما اتفق الطرفان على أن تقدم كمية من الذهب ، ولا أدرى مقدارها بالضبط ، وغير ذلك ، ضمانا ومهرا · وحلف كل من الطرفين أن يحترم هذا الاتفاق · والآن ياكونستانزيا الجميلة كان الله القدير هاديا لك ! ·

وقد ينتظر منى بعض الناس ، كما أظن ، أن أقص عليهم كل تفاصيل الاستعدادات التى قام بها الامبراطور من أجل ابنته الأميرة كونستانزيا · ويكفى أن تعلموا أن المرء لا يستطيع فى كلمات قصيرة أن يصف كيف أعدت مثل هذه العدة فى سبيل مثل هذا الغرض السامى ·

لقد عين عدد من الأساقفة ليسافروا معها ومعهم أيضا مجموعة من الاشراف والسيدات والفرسان المشهورين وجمهرة كبرى من غيرهم من الناس وهذا هو حقا خلاصة الأمر · وقد أبلغ أمر الحاكم فى كل مدينة بأن يتضرع كل انسان الى المسيح بمنتهى التقوى أن ينظر الى هذه الزيجة بعين الرضا ويحفظ موكب المسافرين من كل سوء فى رحلتهم ·

وجاء اليوم الذى عين للسفر ـ أقول جاء ذلك اليوم المشئوم الذى لم يستطيعوا الانتظار بعده ، وبادر كل واحد بالاستعداد والتأهب · وقامت الأميرة كونستانزيا ، وقد غمرها الحزن ، وارتدت ملابسها للسفر ، وشحب وجهها ، لأنها أدركت تماما أنه لا مفر من الرحيل ·

ويحها ! لا عجب فى أن تبكى ، اذ كانت سترسل الى امة غريبة بعيدة عن أصدقاء وأحباب يقدرونها ، لكى تخضع لشخص لا تعرف عنه شيئا · ولكن كل الأزواج فضلاء ، وكانوا دائما فضلاء ، وهذا أمر تعرفه الزوجات جيدا ولا أجسر أن أقول أكثر من ذلك · وقامت الأميرة : « يا والدى ، هذه ابنتك التعسة كونستانزيا · ابنتكم الصغرى التى ربيتموها أرق تربية ، وأنت يا والدتى يا من أحبها أكثر من أى شىء آخر فى الدنيا ، ما عدا المسيح فى السموات ، هذه ابنتك كونستانزيا تتوسل اليك لتحصل على بركتك · وانى ذاهبة الى بلاد الشام ، ولن أراك ثانية فى الدنيا · ويلى ! على أن أسافر الآن الى تلك الأمة الكافرة (١٢) مادام ذلك هو أمركما · أيها المسيح يا من قضيت نحبك من أجل خلاصنا ، امنحنى نعمتك حتى أستطيع أن أنفذ هذا الأمر ·· أتضرع اليك انا تلك المرأة المسكينة ، ولا يهم أن أموت أو أعيش ! فالنساء ولدن من أجل أن يكن تحت امرة الرجال » ·

ولا اظن أن أحدا سمع مثل هذا البكاء العاطفى ، الذى ذرفته الأميرة فى مخدعها اشفاقا على نفسها قبيل سـفرها ، حتى فى طروادة لما اقتحم بيروس السـور قبل احتراق المدينة ، والا فى طيبة ولا فى روما خوفا من تخريب هانيبال ، الذى كانت الجيوش الرومانية قد هزمته ثلاث مرات ، ولكن ، لابد من هذا الأمر ، لابد من سفرها سواء أكانت باكية أم مرحة .

أيتها القبة السماوية القاسية ، يا أولى المتحركات (١٣) ، انك بحركتك اليومية تدفعين الكون دائما وتقذفين بكل شيء من الشرق الى الغرب ، على الرغم من أن الطبيعة تميل الى الاتجاه العكسى . لقد نتج عن دفعك ترتيب فى السموات أدى الى أن يقتل برج المريخ المتوحش ، منذ بدء هذا الرحيل القاسى ، كل أمل فى هذه الزيجة .

أيها الطالع المشئوم المعوج المائل فى صعوده الذى لا يستطيع أعظم الجبابرة أن ينجو منه عند هبوطه الى برجه المظلم . ويحك يا برج المريخ ، يا صاحب التأثير فى هذه الحال ! يا قمر يا من أنت فى وهدة الشقاء ! يا من تدبر اقترانا فى برج ليس برجك ! وكلما وجدت نفسك فى برج ملائم طردت منه .

وويحك أنت يا امبراطور روما أيها الطائش ! ألم يكن هناك فى مدينتك بأسرها فيلسوف منجم واحد ؟ ألم تعلم أن هناك توقيتا لمثل هذا القرار أحسن من غيره ؟ ألا يوجد خيار لمن يقدم على سفر وبخاصة فى حالة أكابر القوم ؟ ألا تدرى أن أساس الاحتساب فى التنجيم معروف منذ الميلاد ؟ ما أشد تعاستنا ! اننا اما مفرطون فى الجهل أو مغالون فى الكسل (١٤) .

أما الفتاة الجميلة الشـقية فقد أحضرت الى السفينة فى وقار وموكب مهيب . وصاحت قائلة لمن حولها « فليكن يسوع المسيح معكم جميعا ! » ولم تتردد من حولها سوى الصيحة النابضة بالشجن : « الوداع ياكونستانزا أيتها الفتاة الجميلة ! » . وتمالكت أعصابها ، لكى تبدو سـعيدة راضية . وانى أتركها مبحرة على هذا النحو ، أما أنا فسأعود الى موضوعى .

كانت أم السلطان بئرا من السيئات . قد أدركت غرض ابنها بجلاء ، أى عرفت أنه قادم على التخلى عن شعائره القديمة وقرابينه التقليدية . ولذلك دعت مستشاريها للاجتماع بها ، فحضروا ليقفوا على نياتها كاملة . ولما اجتمع الجميع معا جلست بينهم وقالت ما سوف تسمعونه : « أيها السادة . ان كل منكم يعلم جيدا أن ابنى على وشك التخلى عن الشرائع المقدسة المدونة فى قرآننا ، وهى الرسالة التى سلمها الله الى محمد . واننى أقسم قسما واحدا أمام الله المعظم أنى أوثر أن تخرج روحى من جسـدى قبل أن أدع الشريعة المحمدية تخرج من قلبى . فماذا يمكن أن يحدث لنا فى ظل هذه الشريعة الجديدة سوى العبودية والشقاء وسوف يترتب على ذلك أن يدفع بنا فى جهنم لارتدادنا عن الشريعة

المحمدية ؟ غير أنى أطلب منكم أيها السادة أن تتعهدوا باتباع ما أقضى به من توجيهات ، وأنا من جانبى أتعهد بأن أحافظ على سلامتكم الى الأبد » . وقد عبر كل من الحاضرين عن رضاه وتعهد بذلك ، كما أقسموا أن يعيشوا بجوارها مساندين لها ، وأن يموتوا فى سبيلها لو لزم الأمر ، كما أقسموا أن ينتفقوا مع أصدقائهم للانضمام الى صفوفهم تأييدا لها . وأصبح من الواضح أنها قد تولت بنفسها الأمر وأنها شرعت فى عمل ما سوف أرويه لكم ثم خاطبت كلا منهم على النحو الآتى :

« فى بادىء الأمر سوف نتظاهر بأننا قد تنصرنا (فقليل من ماء التنصير البارد لن يسىء الينا الا قليلا !) وسوف أقيم وليمة فاخرة وحفلة كبرى لا شك أنها ستعطى السلطان حقه تماما . وأن زوجته ، ولو نصرت تنصيرا جعل منها نفسا بيضاء ، سوف تضطر ، بعد ما دبرته ، الى ان تغسل نفسها من الأحمر ولو أتت معها بملء معمودية كاملة من الماء » .

أيتها السلطانة ، يا جزر الاثم والظلم ! أيتها المرأة المسترجلة .. أيتها الملكة سميراميس (١٥) الثانية ! أيتها الحيـــة المتنكرة فى زى الأنوثة ، مثلك فى ذلك مثل الأفعى الرابضة فى أعماق جهنم ! أيتها المرأة الخداعة ، ان كل ما يمكن أن يقضى على الفضيلة والبراءة قد ربى فى قلبك الآثم ، ذلك العش لكل نوع من أنواع الرذائل ! .

أيها الشيطان انك حاقد منذ ذلك اليوم الذى طردت فيه من الجنة التى أورثناها ، وأنت عالم بحيل النســـاء العتيقة ! فأوحيت لحـواء أن تخضعنا للعبودية . وأنت تريد أن تدمر هذه الزيجة المسيحية . انك تتخذ النســـاء وسيلة عندما تريد أن تخدع الناس ــ فويحك ! .

ان تلك السلطانة التى ألومها بل ألعنها قد سمحت بأن ينصرف مجلسها سرا . وكيف أستطيع أنا أن أتمهل فى رواية ما حدث وقتذاك ؟ لقد امتطت جوادها فى يوم من الأيام وذهبت الى السلطان وقالت له انها على أتم استعداد للارتداد عن شريعتها ، وأن تتلقى تعاليم المسيحية على يدى القسيس وأن تندم على استمرارها فى الكفر مثل هذه المدة الطويلة من الزمن ، وتوسلت اليه أن يسمح لها بأن تقيم وليمة للنصارى . فقال السلطان « ان رغبتى حقا هى أن أرضيهم ولذلك سأسمح لك ان تفعلى ما تقولين » ثم سجد السلطان أمام أمه وشكرها لحسن طلبهـا .. وأحس بســـعادة غامرة حالت بينه وبين الكلام والتعبير . وقبلت السلطانة ابنها ، ثم ذهبت الى حيث تريد .

انتهى هنا الجزء الأول

والجزء الثاني تابع

وقد وصل ذلك الجمع من النصارى الى شواطىء بلاد الشام فى موكب وقور عظيم . وبادىء ذى بدء أرسل السلطان الخبر لوالدته ، ثم الى كل رعايا مملكته وأبلغهم جميعا أن زوجته قد وصلت ولا ريب فى ذلك . وناشد أمه أن تنهض لتستقبل الملكة بنفسها ، حتى تحافظ على شرف مملكته .

وكان الحشد عظيما ، وكان مظهر الناس ينم عن الفخامة والثراء ، عندما التقى أهل الشام والرومان . وكانت أم السلطان ترتدى ملابس فاخرة بالغة الرونق ، واستقبلت الفتاة بمظهر سعيد ووجه بشوش ، مثلها فى ذلك مثل أية أم تستقبل ابنتها العزيزة . وامتطى الجميع بعد ذلك جيادهم وساروا فى ركب كبير عظيم ، وانى لواثق أن موكب النصر سار فيه يوليوس قيصر ، والذى امتدحه الشاعر لوكانوس (١٦) مفاخرا لم يكن يليق بالملوك ولا يستحق الفخر أكثر من هذا الجمع المجيد . ولكن السلطانة ، تلك النفس الشريرة ، وتلك العقرب ، كانت تحجب بنفاقها نيتها فى أن تلسع لسعة قاتلة .

وجاء السلطان بعد قليل وكان منظره ملكيا حقا ، بحيث كان الانسان يعجز عن وصف تلك الروعة . ورحب بالفتاة ترحيبا حارا فى سعادة ومرح . وسوف أتركهم فى سرورهم ومرحهم ولن أقص الا ما أدى اليه هذا الأمر من عواقب . فبعد مرور وقت كاف آثر الناس أن يكفوا عن الأكل والمتعة وأن يعودوا الى بيوتهم للنوم والراحة .

وجاء الوقت الذى كانت السلطانة قد حددته للوليمة التى ذكرناها من قبل . وذهب الجمع المسيحى شبانا وشيوخا لحضور الوليمة . وهنا كان فى وسع الناس أن يتناولوا ما يشتهون من الطعام ، وأن يشهدوا الحضرة الملكية ، واستطاعوا أن يتمتعوا بمسرات أكثر مما أستطيع أن أصفها لكم . ولكن الثمن الذى دفعوه كان باهظا للغاية ، وقد دفعوه قبل أن يستطيعوا النهوض من المائدة . أيها الشقاء المفاجىء يا من تخلف دائما السعادة الدنيوية مختلطا بالمرارة القاسية ! يا من أنت دائما نهاية لكل غبطة نجدها فى أعمالنا على الأرض ! ان الشقاء يحتل مكان الخاتمة لكل مرحنا . فلنعتبر اذن حتى نطمئن ، فى يوم السعادة والرخاء تذكر الشقاء غير المنتظر الذى يأتى من ورائه .

وخلاصة الأمر أن السلطان وموكب المسيحيين قتلوا وقطعوا اربا اربا ، وهم جالسون الى المائدة ولم يبق ســوى الأميرة كونســتانزيا وحدها • اذ كانت السلطانة الهرمة ، تلك العجوز اللعينة قد ارتكبت هذا العمل هى وأتباعها لأنها كانت ترغب فى أن تحكم وحدها البلاد بأسرها • ولم يفلت أحد من أبناء الشام ممن تنصروا ، وكان يعلم بخطة السلطان السرية • ولم يبق منهم أحد الا ومزق تمزيقا قبل أن يستطيع الانصراف • وأخذت الأميرة كونستانزيا فى سرعة بالغة ووضعت فى قارب بلا دفة ، والله عالم بالأمر ، وأمرت بأن تتعلم كيف توجه القارب وتبحر من بلاد الشام الى ايطاليا • وأعطيت بعض النفائس التى كانت قد أحضتها معها ، والحق يقال ، وزودت أيضا بأكثر من كفايتها من المؤن والأردية، وهكذا أبحرت فى البحر المالح • يا ابنتى كونستانزيا يا ممتلئة بالرحمة يا أعز بنت صغرى للامبراطور ، فليكن مرشدك قائد القضاء ! •

لقد رسمت صليبا ، وبصوت ملىء بالشجن صاحت مناشدة صليب المسيح على النحو الآتى : « أيها المذبح المجيد المبارك أحمر اللون الملطخ بدماء الحمل الرحيم ، الذى يغسل العالم من دنس الاثم القديم ، أرجو أن تحافظ على من الشيطان وأن تحمينى من مخالبه يوم أغرق فى الخضم • أيتها الشجرة الناصرة يا حامية المؤمنين يا من اصطفيت لتحملى ملك السموات بجروحه الجديدة •• ذلك الحمل الأبيض الذى جرح بحربة •• يا طارد الشياطين من الرجل والمرأة ، يا من تمتد ذراعاك على المؤمنين أناشدك حمايتى ، ومنحى قوة تعييننى على تقويم كل اعوجاج فى حياتى » •

وظلت هذه المخلوقة سنين وأيام طويلة تطوف كل أنحاء البحر المتوسط حتى بلغت مضايق جبل طارق كما شاء قدرها • وكم من وجبة تعيسة تناولتها وكم من مرة توقعت أن تلقى حتفها قبل أن تدفعها الأمواج الى حيث كان مقدرا لها أن تصل •

وقد يتساءل الناس لماذا لم تقتل هى أيضا فى الوليمة ؟ ومن كان فى وسعة أن ينقذ جسدها ؟ وأنا أجاوب على هذا السؤال بسؤال آخر : من أنقذ النبى دنيال وهو فى الكهف المريع ، حيث كان كل انسان ما عداه (سواء كان من السادة أو من العبيد) يلتهمه الأسد قبل أن يســتطيع الفرار ؟ لم ينقذه مخلوق ، ولكن نجاه الله الذى كان يحمله فى قلبه •

وقد أراد الله أن يظهر معجزته الرائعة فى شخصها حتى نرى عظمة أعماله • وان المسيح ، ترياق كل أذى ، كثيرا ما يلجأ الى بعض الوسطاء (كما يعرف ذلك العلماء) لينجز أعمالا قد يبدو الهدف منها غامضا لعقل الانسان ، ذلك الانسان الذى ننتمى اليه • ونحن لجهلنا عاجزون عن ان ندرك حكمة بصيرته • واذا لم تكن قد لقيت حتفها فى الوليمة ، فترى من حماها من الغرق فى البحر ؟ ومن الذى حمى يونس فى بطن الحوت حتى قذفه من جوفه فى نينوى ؟ وان الانسان

يعلم علم اليقين أنه لم يكن انسانا وأنه هو الذى نجى بنى اسرائيل من الغرق ، وحافظ على أقدامهم جافة أثناء عبور البحر •

من الذى أمر الأرواح (الملائكة) الأربعة القادرين على ايذاء من يريدون فى البر والبحر ، وقال لهم : « اياكم اياكم أن توقعوا ضررا فى الشـــمال أو الجنوب ولا فى الغرب أو الشرق ولا فى البحر أو البر أو على الأشجار » ؟ (١٧) حقا حقا ان من بيده مقاليد كل ذلك هو الذى حمى دائما هذه المرأة من شدة العواصف سواء أثناء نومها أو أثناء يقظتها •

وأين كان فى وسع هذه المرأة أن تجد الطعام والشراب لمدة ثلاثة أعوام أو أكثر ؟ وكيف كفتها مؤنها ؟ وترى من أطعم مريم المصرية (١٨) فى الكهف او فى الصحراء ؟ لم يقم أحد بذلك سوى المسيح ولا شك فى ذلك • وقد كان من عجائب الزمن الكبرى أنه استطاع أن يطعم خمسة آلاف من الناس بخمسة أرغفة وسمكتين • والحق أن الله قد من عليهم بنعمته ، وهم فى أشد الحاجة اليها •

واستطاعت أن تقود سفينتها حتى بحرنا نحن (أى بحر الشـــمال) وأن تطوف ببحارنا الهائجة المائجة حتى رست فى آخر الأمر بجوار قلعة لا أعرف اسمها فى أبعد انحاء مملكة قوم يعيشون فى شمال نهر الهمبر (١٩) حيث ألقتها الأمواج وجنحت سفينتها فى الرمال جنوحا شــديدا ، فلم تتزحزح من مكانها • وكانت ارادة المسيح أن تمكث فى ذلك المكان •

ونزل قائد القلعة ليشاهد حطام السفينة ، وفتشها تفتيشا دقيقا ، فوجد هذه المرأة المتعبة المسكينة المثقلة بالهموم ، كما عثر على الكنز الذى أحضرته معها • فأخذت تتوسل اليه بلغتها أن يشفق عليها بازهاق روحها حتى تخرج من جسدها ليحررها مما تعانيه من شقاء • وكان كلامها بلغة لاتينية ملحونة ولكنها نجحت فى أن تصبح عباراتها مفهومة • فقرر القائد أن يكف عن مواصلة التفتيش وأحضر المرأة الى البر • وعندئذ ســـجدت حمدا لله على الرمال التى هبطت عليها • وصممت الا تقول لأحد من هى ، مهما وقع عليهـــا من ضغوط ولو أدى ذلك الى أن تلقى حتفها ، وقالت انها ضلت سبيلها فى البحر ، الأمر الذى جعلها تفقد ذاكرتها • وأشفق عليها القائد وزوجته أيضا اشفاقا كبيرا حتى كادا يبكيان • وأبدت الأميرة نشاطا زائدا وانكبت على عملها فى هذا المكان ، وبذلت جهدها لكى ترضى الجميع وأخذت تخدمهم حتى أحبها كل أهل القلعة وهم يتطلعون الى وجهها •

وكان القائد وزوجته السيدة هرمنجلد وثنيين كما كانت الحال كذلك فى المملكة بأسرها ، ولكن السيدة هرمنجلد أحبت الأميرة حبها للحياة نفسها • ومكثت معها كونستانزيا مدة من الزمن وكانت تصلى يوميا وتدعو الله وهى تذرف

بالدموع المريرة حتى من يسوع بنعمته ونصر السيدة هرمنجلد زوجة قائد القلعة. وكان المسيحيون فى تلك الأراضى لا يجرءون على الاجتماع معا وهرب منها أغلب المسيحيين • وفتح الوثنيون كل الأقاليم المجاورة فى الشمال برا وبحرا • وهرب كل المسيحيين من قدماء البريطانيين فى هذه الجزيرة ، الى مملكة ويلز حيث لجأوا اليها مؤقتا • ولكن لم يكن مصير كل البريطانيين المسيحيين النفى على هذا النحو بل بقى البعض يمجدون المسيح سرا ويخدعون بذلك الوثنيين • وكان يعيش بجوار القلعة ثلاثة من أمثال هؤلاء • وكان أحدهم كفيفا ، لا يستطيع أن يرى ، ولكن بصيرة عقله كانت تظهر له كل شىء ، مثلها فى ذلك مثل بصيرة من لا يبصرون بالعين •

وفى يوم من أيام الصيف كانت الشمس مشرقة ، وكان قائد القلعة ومعه زوجته كونستانزيا قد ذهبوا يتريضون بجانب البحر ، الذى كان يبعد ربع ميل عن القلعة تقريبا • وكانوا ينشدون الرياضة واللعب والمشى هنا وهناك • وحدث أن تقابلوا أثناء تريضهم مع هذا الكفيف ، وكان شيخا هرما انحنى ظهره وعيناه مغلقتان • فصاح هذا البريطانى الكفيف : « باسم المسيح يا سيدة هرمنجلد ردى الى بصرى ! » فخشيت السيدة لما سمعت ذلك أن يقرر زوجها قتلها ، بسبب حبها ليسوع المسيح • وبعد قليل تشجعت كونستانزيا وأمرتها بأن تنزل على ارادة المسيح بصفتها بنتا للكنيسة •

وتعجب القائد لما شهد ذلك وصاح قائلا : « ما معنى كل هذا ؟ » فأجابته كونستانزيا قائلة : « يا سيدى هذا دليل على قدرة المسيح الذى ينجى الناس من شراك الشيطان » • واستطاعت بعد ذلك أن تشرح شريعتها للقائد ، وأن تنصره قبل هبوط الليل وأن تجعله يؤمن بالمسيح •

ولم يكن هذا القائد المذكور حاكما للمنطقة التى وجد فيها كونستانزيا بل كان مجرد حارس لها ، وقد شغل منصبه أشتية كثيرة تحت حكم ألا ملك (٢٠) نورثا مبرلاند • وكان هذا ملكا حكيما شديد البأس ضد أهل اسكوتلاندا ، كما يستطيع الناس جيدا أن يدركوا هذا الأمر •

ولكنى سأعود من جديد الى موضوع حديثى :

كان الشيطان الذى يتربص بنا دائما ليخدعنا ، قد شهد كمال كونستانزيا وأخذ يفكر طويلا فى كيفية الانتقام منها • فجعل فارسا شابا من سكان البلدة يعشقها عشقا شديدا بحب مدنس ، الأمر الذى جعله يعتقد أنه سيقضى نحبه حتما اذا لم يظفر بمراده من جسدها • وحاول أن يتودد اليها ولكن دون جدوى فقد أبت بصفة قاطعة أن تقع فى الاثم • ولذلك أملى عليه الحقد أن يدبر لها ميتة مشينة • وانتظر حتى سافر القائد يوما فى مهمة ، وتسلل خلسة ليلا الى مخدع السيدة هرمنجلد فى أثناء نومها •

وكانت كونستانزا قد أجهدها الافراط فى الصلاة والتعبد ، فاستغرقت فى النوم بجوار السيدة هرمنجلد · ووسوس الشيطان للفارس فتسلل الى سرير السيدة ، وقطع عنقها وترك السكين الدامى بجوار الأميرة كونستانزا · ثم انصرف أساء الله حظه ! ·

وبعد قليل عاد القائد الى داره وفى صحبته ألا ملك البلاد ، فرأى زوجته قد ذبحت بلا رحمة فبكى كثيرا وأخذ يلوى يديه فى ألم · وعثر على الخنجر الدامى فى فراش كونستانزا · ويحها ! ماذا بوسعها ان تقول ؟ لقد طار صوابها من شدة الحزن ·

وأبلغ الملك ألا بهذه الكارثة ، كما وضح له كيفية لقاء الأميرة فى قارب وروى له أيضا متى وأين حدث ذلك ، وهذا كله أمر تعرفونه احسن المعرفة · وارتجف قلب الملك اشفاقا عندما رأى هـــذه المخلوقة الطيبة تتعرض للعناء ، ويصادفها سوء الحظ · وكماد يقاد الحمل الى المذبح وقفت هذه البريئة بين يدى الملك · وتقدم الفارس الخائن الذى ارتكب هذا الفعل المتسم بالغدر ووجه لها الاتهام بأنها هى التى ارتكبت تلك الجريمة الفادحة · ومع ذلك فقد تصاعدت أصوات النحيب بين الحاضرين ، وصاحوا جميعا بأنهم لا يمكن أن يتصوروا أنها ترتكب مثل هذه الجريمة ، اذ كانوا دائما يشهدون لها بالفضيلة ، ويعرفون أنها كانت تعز السيدة هرمنجلد اعزاز صادقا ، وتحبها كما تحب حياتها · وشهد بذلك كل الحاضرين فى الدار ماعدا ذلك الشخص الذى قتل هرمنجلد بخنجره · فاستند الملك الى هذه الحجة القوية وهى شهادة الناس الأمر الذى دفعه الى أن يأمر باجراء تحقيق أدق واعمق فى هذا الأمر حتى يصل الى الحقيقة ·

ويلك : يا كونستانزا انك لا تجدين من يناصرك ، ولا تستطيعين أنت أن تناضلى من أجــل دفاعك · ويلك اذن ! ولــكن ليكن الذى مات من أجل خلاصنا وقيد الشيطان (دون أن يتحرك من مكانه) نصيرا لك اليوم ! وان لم يقم المسيح باحدى معجزاته ، فأنت هالكة لا محالة وأنت بريئة ·

فركعت على الأرض وقالت : « يا الله يا خالد ، لقد أنقذت شوشنة من اللوم الكاذب وأنت أيتها العذراء الرحيمة ، وأعنى مريم بنت القديسة أنا (٢٢) ·· يا من يتوسط طفلك الملائكة منشدين « هوزانا » أتوسل اليك ان كنت بريئة من هذه الجريمة أن تغيثينى والا قضيت نحبى ! » ·

ألم تروا أحيانا وجها شاحبا فى وسط الزحام هو وجه من يساق الى مكان اعدامه لأنه لم يحصل على العفو ؟ ألم تروا كيف أن لون هذا الوجه يدل على ما سوف يحدث له ولو وجد بين جمع وفير لتعرف الناس عليه فى الحال ، وهو يتقدم فى طريقه المرير ؟ هكذا كانت كونستانزا ، وهى تتطلع الى من حولها ·

أيتها الملكات الناعمات بعيشة رغدة سعيدة ، أيتها الدوقات ، وأنتن أيتها السيدات من كل الطبقات ، هلا أشفقتن على محنتها ! ها هي ذى ابنة امبراطور تقف وحدها لا تجد شخصا واحدا يمكن أن تشكو اليه · أيتها السلالة الملكية أنت واقفة فى حالة رعب ، وأصدقاؤك بعيدون عنك ، وأنت فى أشد الحاجة اليهم ! ·

وأشفق الملك ألا على حالها (لأن القلوب النبيلة مليئة دائما بالشفقة) فسالت الدموع من عينيه · وقال : « احضروا لى كتابا بسرعة ، واذا حلف عليه هذا الفارس ، وقال لنا كيف قتلت تلك السيدة ، فانى سأقرر عندئذ من أختاره قاضيا للحكم فى هذه المشكلة » ·

وأحضر كتابا بريطانيا مكتوبا عليه الأناجيل ، فحلف الفارس على هـذا الكتاب وقال انها مذنبة · ولكن ما ان قال ذلك حتى ضربته يد بشدة على عنقه فوقع على الأرض كأنه حجر ، وبرزت عيناه من محجريهما على مشهد من كل الحاضرين ·

وسمع صوت وصل الى آذان كل الحاضرين ، يقول : « لقد افتريت كذبا على بنت الكنيسة المقدسة أمام حضرة سامية ، وهى بريئة من كل اثم · لقد فعلت ذلك ولم أقل شيئا بعد ! » ودهش الناس لهذه المعجزة · ووقفوا جميعا مذهولين ، يخشون الثأر منهم ماعدا كونستانزيا وحدها ·

وملأ الرعب قلوب من ارتابوا فى أمر كونستانزيا البريئة المسكينة واشتد بهم الندم · وكان لهذه المعجزة ولكونستانزيا الفضل فى أن ينتهى الأمر بأن يتنصر الملك وكثيرين غيره بنعمة المسيح ·

وأعدم الفارس الكاذب لخيانته بحكم نطق به ألا بسرعة · ومع ذلك فان كونستانزيا حزنت لأنها تسببت فى موته · وبعد ذلك جعل يســوع ، لأجل رحمته ، ألا يتزوج من هذه العذراء البارة القديسـة المشرقة بالفضيلة زواجا رسميا · وبهذا صنع المسيح منها ملكة ·

ولكن ، والحق يقال ، ترى من كان تعسا بسبب هذا الزواج ؟ لم يشعر بالتعاسة الا دونجلد دون أحد سواها ، وهى أم الملك وكانت امرأة جبارة · وكاد طول تفكيرها فى هذا الموضوع أن يفجر قلبها ، اذ أنها لم ترض أبدا بما أقدم عليه ابنها ورأت أن هذا عار لحق به وامتلأت غيظا لأنه اختار له زوجة أجنبية ·

ولا أريد أن أتعرض للنفاية أو للقش فى موضوعى ، بل أريد أن أهتم اولا بلبه · ولن أتعرض للفخامة الملكية التى اتسمت بها حفلة الزواج ، ولن أقص عليكم بالتفصيل أى طبق سبق غيره فى الوليمة ، أو من نفخ فى البوق

ومن نفخ في النفير • فالأصل في القص أن يروى المرء خاصة ما حدث : لقد أكلوا وشربوا ورقصوا وغنوا ولعبوا •

ثم انصرفوا للنوم كما يقضى بذلك الواجب والعقل ، فالزوجات ولو كن ممتلئات بالفضيلة والتقوى لابد أن يتقبلن في الليل صابرات بعض الأعمال الضرورية ، التى تستهدف اللذة ، من رجال تزوجوا منهن بتبادل الخواتم • وعليهن اذن أن يتخلين ، ولو الى حين عن فضيلتهن التقية ، فلا مفر لهن من هذا الأمر •

وقد أعقب الملك منها بعد زمن صبيا ، ثم ترك بعد ذلك زوجته في حماية أسقف وأيضا في رعاية قائد قلعته عندما ذهب الى اسكوتلاندا لمحاربة أعدائه هناك • وكانت كونستانزيا الجميلة وديعة محتشمة ، ولم تخرج من حجرتها طوال فترة انتظارها لولادة طفلها وبقيت تنتظر مشيئة المسيح •

وفي الوقت المحدد ولد لها صبى ، ولما عمدوه سموه مورتيوس • واختار قائد القلعة رسولا وأعطاه خطابا كتبه للملك المدعو ألا ، يصف فيه هذا الحادث السعيد كما أرسل للملك أخبارا أخرى • فأخذ الرسول الخطاب ، وانطلق في طريقه •

وخطر للرسول أن يلتمس لنفسه خيرا فامتطى جواده وذهب لأم الملك وحياها أحسن تحية بقوله : « يا سيدتى ، يمكنك أن تبتهجى وتفرحى ، ثم تحمدى الله مائة ألف مرة فقد أنجبت سيدتى الملكة طفلا ولا ريب في ذلك • وهذا أمر يغمر جميع أرجاء هذه المملكة بالغبطة والمسرة • وها هى ذى الرسائل المختومة التى تبشر بذلك وسأحملها بأقصى سرعة • فان كان لديك أية رسالة تريدين أن تبعثى بها الى ابنك الملك ، فأنا في الخدمة ليلا ونهارا » • فأجابت دونجلد قائلة : « ليس عندى الآن رسالة ، ولكن أريد أن تقضى هذه الليلة هنا وسوف أخبرك غدا بما أريد أن أرسله » •

وشرب الرسول كثيرا من الجعة والنبيذ ، وعندما استغرق في النوم كالخنزير سرقت منه الرسائل خلسة من جرابه ووضع مكانها خطاب مزور تزويرا متقنا ، كتب على أنه مرسل من القائد بامضائه الى الملك عن أمر سأحدثكم عنه بعد قليل •

وكان الخطاب يقول ان الملكة قد أنجبت مخلوقا مريعا أشبه بالعفريت ، مما جعل أغلب أهل القصر يهجرونه خوفا منه • فقد شاء القدر أن تكون أم هذا المخلوق من أهل الجان ، أتت الى القصر بفعل السحر والتمائم ، فكره لقاءها كل شخص في القصر •

فاشتد حزن الملك عندما قرأ هذا الخطاب ، ولكنه رأى الا يبوح بحزنه

الدفين لأحد ، وكتب بخط يده خطابا جاءفيه : « انى أرحب الى الأبد برسالة المسيح لى أنا الذى أصبحت حكيما بفضل تعاليمه • يارب انى أرحب بما تشاء وبما ترضى ، وأنا أضع مشيئتى كلها تحت أمرك • حافظ على طفلى هذا قبيحا كان أم وسيما ، وحافظ على زوجتى أيضا حتى أعود الى بيتى • والمسيح له ، متى أراد ، أن يرسل لى ولى عهد يرضينى أكثر من هذا » • وختم هذه الرسالة سرا وهو يبكى ، وسلمها للرسول الذى أخذها وانصرف لحال سبيله وليس فى الامكان عمل غير ذلك •

أيها الرسول الثمل يا من تفوح من فمك رائحة الخمر القوية ، يا من أعضاؤك دائمة التساقط ، انك تفشى كل أسرارك ، وعقلك مسلوب تماما • وانك ثرثار مثل الغراب ووجهك أصبح متغيرا • ان سكرك يحكمك أينما ذهبت ، وأنت لا تخفى سرا ولا شك فى ذلك •

يا دونجلد لا أعرف بين الانجليز شخصا يعادلك فى الجبروت والخبث • لذلك أتركك للشيطان ليروى قصة خيانتك ! ويحك أيتها الشرسة الشمطاء (بل انى والله لا أقول الا الحق) ويحك أيتها النفس الشيطانية ان فى وسعى أن أقول انك مع أنك تمشين هنا على الأرض فان روحك تسكن فى جهنم ! •

وعاد الرسول من عند الملك ، وترجل من جواده أولا فى قصر أم الملك • فجاملته مجاملة بالغة ، وهيأت له كل أسباب البهجة والرضى • وشرب من جديد وملأ بطنه بالخمر ثم نام وأخذ يشخر طوال الليل ، حتى أشرقت الشمس وبدا النهار •

وللمرة الثانية سرقت منه كل الرسائل التى يحملها ، واستبدلت بها رسائل مزورة على الوجه الآتى : « يأمر الملك قائد قلعته ألا يسمح بأى حال من الأحوال أن تبقى كونستانزيا فى مملكته أكثر من ثلاثة أيام وربع والا تعرض للمحاكمة والاعدام • وعليه أن يضعها هى ووليدها وكل عدتها فى نفس القارب الذى وجدت فيه ، ويطردها من أرض المملكة ويأمرها بألا تعود أبدا » • يا ابنتى كونستانزيا يحق لك أن ترتعدى خوفا ، وأن تشهدى العناء والشقاء فى الحلم أثناء نومك ، مادامت دونجلد قد دبرت لك ما دبرته •

ولما استيقظ الرسول من النوم فى اليوم التالى ، ذهب الى القصر وسلم الخطاب للقائد • ولما قرأ القائد ما به ردد القول « واندامتاه ! وامصيبتاه ! يا سيدى المسيح كيف يمكن أن تبقى هذه الدنيا وكل مخلوق فيها غارق فى مثل هذا الاثم والشر ؟ يا ألله يا قدير ، اذا كانت تلك مشيئتك (وأنت الحاكم القاضى فى كل أمر) فكيف يمكن أن تسمح بأن تقبل البراءة وان يحكم الأشرار ويتنعموا بالرخاء والازدهار ؟ ويحك يا كونستانزيا الطيبة ! وما أشد شقائى

أنا بأن أفعل أمرا يتسبب في عذابك والا كان مصيري أن أموت ميتة مشينة · ولابد مما سوف أقدم عليه » ·

وبكى جميع الحاضرين في هذا المكان من الشيوخ والشباب لما أرسل الملك هذا الخطاب اللعين · وذهبت كونستانزيا في اليوم الرابع الى السفينة ، وقد شحب وجهها شحوب الموتى ، ومع ذلك فانها تقبلت ارادة المسيح بنفس راضية وركعت على الشاطيء وصلت قائلة : « يارب لتكن اوامرك دائما محل ترحيب وتقبل ! ان من حفظني من الفرية الكاذبة لما عشت على البر معكم يستطيع أن يحميني من الأذى ومن العار أيضا في البحر المالح ، وان كنت أنا لا أدري كيف يمكن أن يحدث ذلك · انه كما كان قديرا فيما مضى فهو لا يزال على قدرته · وقد وضعت ثقتي فيه وفي أمه العزيزة ، التي اعتبرها بمثابة شراع لي بل ودفة أيضا » ·

وكان طفلها الصغير في حضنها يبكي فركعت أمامه وقالت : « سلمت يابني الصغير· لن ألحق بك ضررا » · وبعد ذلك رفعت طرحتها من على رأسها بحركة سريعة ، ووضعتها فوق عينيه الصغيرتين واحتضنته وهننته بتفان كبير ثم رفعت عينيها الى السماء وصاحت : « يا امي ، أيتها العذراء المتألقة ، يا مريم الحق ، لقد قيل أنه كتب على الانسانية ، امراء المرأة ، أن تضيع وأن تفنى دائما · ولذلك عذب ابنك على صليب · وقد شهدت عيناك المباركتان كل ذلك العذاب ، ولذلك ليس هناك أي وجه للمقارنة بين ما عانيته من شقاء وأى شقاء آخر يعانيه الانسان ·

فقد شهدت طفلك يقتل أمام عينيك ، ولكن ها هو ابني الصغير حي أمامي الآن · وأقسم على ذلك · بايماني ! والآن أيتها السيدة الطاهرة التي يستغيث بها كل البؤساء الأشقياء أيتها المرأة ، يا مجد الأنوثة ، يا أيتها العذراء الجميلة ، يا ملاذ اللاجئين ، يا نجم النهار المتألق ، أشفقي على طفلي يا من تشفقين على كل من يعاني من الشقاء لسمو نفسك ·

وأنت أيها الطفل الصغير ويلك ! ما ذنبك يا من لم ترتكب اثما قط حتى الآن والله ؟ لماذا قرر أبوك القاسي أن تقتل ؟ رحماك أيها القائد العزيز ، ارحم أرجوك ودع طفلي الصغير يبقى هنا معك · واذا كنت لا تجرؤ على انقاذ حياته خشية اللوم فقبله قبلة واحدة باسم والده ، أتوسل اليك ! » ·

ولما انتهى كلامها ألقت وراءها نظرة الى البر وصاحت « وداعا ايها الزوج الذي تجرد من الرحمة ! » ثم نهضت ومشت على رمال الشاطيء حتى وصلت الى السفينة (وكان يصحبها جمع غفير) وظلت طوال الطريق تتوسل الى طفلها الرضيع أن يكف عن البكاء ، ثم ودعت الجميع ، وبروح تقية رسمت صليبا ، وصعدت الى السفينة ·

وكانت السفينة مزودة بالمؤن ، ولا خوف على حياتها لأن ما كانت تحمله من طعام وفير ومؤن يكفيها بسهولة لمدة طويلة ، كما كان لديها ما يكفيها من الضروريات الأخرى والحمد لنعمة الله ! أما الرياح المواتية واعتدال الطقس ، فقد يزودها بهما الله القدير ويقود السفينة ويدفعها الى وطنها ! وماذا فى وسعى أن أقول أكثر من ذلك ، وحسبى أن أقول انها شقت طريقا فى البحر ٠

انتهى الجزء الثانى

الجزء الثالث تابع

وعاد الملك ألا بعد ذلك الى وطنه وقصره المذكور وسأل عن زوجته وابنه ، فتثلج قلب قائد القلعة رعبا وحكى ببساطة كل ما حدث وما سمع (كما سمعتم أنتم منى ولا أستطيع أن أرويه خيرا من ذلك) ثم عرض على الملك خاتمه وأيضا خطابه ٠ وقال : « يا سيدى لقد فعلت ما أمرتنى به (حتى لا أعدم) هكـذا فعلت » ٠ وقبض على الرسول وعذب ، حتى اعترف بوضوح وجلاء أين بات لمدة ليلتين ٠ وبهذا استطاع الملك بالاستقصاء المنطقى والسؤال الماهر أن يعرف تماما من كان مصدر هذه الحوادث الشريرة ٠

وعرف هوية من كتب الخطاب كما أدرك سم هذه الفعلة الملعونة ، ولكن لا أدرى كيف تم ذلك ٠ والخلاصة أن الملك ألا ولا شك أمر بقتل أمه ، وهذا أمر يمكن للناس أن يقرأوا عنه الكتب بسـهولة لأنهـا خانت الالتزام بالولاء والاخلاص لابنها ٠ وهكذا انتهت حياة دونجلد الشمطاء لعنة الله عليها ! ٠

أما الحزن الذى كابده ألا ليلا ونهارا على زوجته وأيضا على طفله فلا يمكن أن يعبر عنه لسان ٠ ودعونى الآن أتوجه الى كونستانزيا وهى تطوف البحار فى حالة ألم وأسى ٠ وقد ظلت هكذا خمس سنين أو أكثر ، حسب ما كان يرضى المسيح ، وبعد ذلك كله اقتربت سفينتها من البر ٠

وأخيرا ألقى البحر بكونستانزيا وابنها على البر بجوار قصر من قصـور البربر الوثنيين ٠ ولا أجد ما يشير الى اسم القلعة فى النص الذى قرأته ٠ ياألله

يا قديرا على كل شيء ، يا من خلصت البشرية ، أسبغ رعايتك على كونستانزيا وطفلها ، فقد وقعا مرة ثانية فى أيد وثنية وهما على وشك الهلاك كما سأقص عليكم الآن ٠

لقد نزل جمع كبير من الناس ليتأملوا السفينة وكونستانزيا ٠ وبعد قليل ، لما جاء الليل ، حضر ناظر القائد « وكان خائنا دنيئا » وصعد الى السفينة وحده وقال لها انه سيتخذها عشيقة له ، طوعا أو كرها ٠

ما أشد كآبة هذه المرأة التعيسة ! لقد بكى طفلها ، وبكت هى أيضا بكاء مؤثرا للغاية ٠ وبادرت مريم الممتلئة بالغبطة والنعمة ، وساعدتها فى الحال أحسن مساعدة اذ ان الرجل الشرير سقط فجأة فى الماء وهو يتصارع معها مصارعة قوية وغرق وكان ذلك جزاءا وفاقا ٠ وهكذا حفظ المسيح الطاهر كونستانزيا ٠

أيها الفسق المدنس الكريه هاهى ذى نهايتك ! انك لاتكتفى أن تخدع عقل الانسان ، بل تبغى أيضا أن تقتله جسدا ٠ وما نهاية اعمالك وشهواتك الهوجاء الا الشكوى والندم ٠ فكم من البشر يجد الناس أنهم قتلوا وذبحوا لا لارتكاب الاثم بالفعل ولكن لمجرد نية ارتكابه ٠

وأنى لهذه المرأة الضعيفة أن تجد القوة لتدافع عن نفسها ضد هذا الفاسق الخائن ؟ يا جالوت (٢٣) ، يا من كان طوله لا يقاس ، كيف استطاع داوود أن يقهرك قهرا تاما وهو شاب يافع مجرد من الأسلحة ؟ وكيف واتته الجرأة على أن يتطلع الى وجهك المرعب ؟ حقا يمكن للناس أن يروا ان ذلك تم بفضل الله ونعمته ٠

ومن الذى منح بهوديت (٢٤) الشجاعة والقلب الصارم لتقتل اليفانا فى خيمته ، وبذلك استطاعت أن تعتق شعب الله من البؤس والتعاسة ؟ وانى أقصد من كل هذا أن أقول : (ان الله كما وهبهم القدرة والبأس وخلصهم من المصائب ، فقد منح أيضا كونستانزيا القوة والبأس » ٠

وأبحرت بسفينتها حتى مرت بمضايق جبل طارق وسبتة وأخذت تتقدم تارة للغرب وتارة للشمال والجنوب ، وتارة للشرق ، وذلك طول أيام طويلة مرهقة حتى دبرت أم المسيح بارك الله فيها دائما ــ بطيبتها التى لا تنتهى ــ تدبيرا أنهى كل بؤسها ٠

لنترك كونستانزيا قليلا لنتكلم عن امبراطور روما ، الذى كان قد تلقى خطابات من بلاد الشام تنبئه بمذابح المسيحيين ، كما عرف ما لحق بابنته من عار بفعل شخص خائن مضلل (أعنى السلطانة الشريرة الملعونة التى تركت الناس فى الوليمة يذبحون جميعا) ٠

ومن ثم بعث هذا الامبراطور أحد شيوخه يحمل أمرا ملكيا بالانتقال من أهل الشام انتقاما شديدا ، وكان يرافقه فى هذه المهمة عدد كبير من الاشراف والفرسان ، والله أعلم بكل ذلك الأمر فأحرقوا ما أحرقوه ، وقتلوا من قتلوه ، وأنزلوا بالشعب أياما عديدة . ثم عادوا بعد قليل الى ديارهم فى روما .

وأبحر الشيخ متجها الى روما وعلى رأسه أكاليل الغار فى مظهر شامخ ، ثم التقى فى عرض البحر بالسفينة التى كانت تجلس فيها كونستانزيا ، وملامحها تنطق بالكآبة والبؤس ، ولم يعرف عنها شيئا ولا عن سبب وجودها على هذا النحو . وكانت ترتدى ثيابا ثرية ، وأبت أن تفشى حقيقة منزلتها ولو لقيت حتفها فى سبيل ذلك .

وأحضرها الشيخ الى روما وعهد بها الى زوجته ، كما عهد اليها أيضا بابنها .

وعاشت كونستانزيا فى دار الشيخ . وعلى هذا النحو تستطيع السيدة العذراء أن تنتشل كونستانزيا الحزينة من وهدة بؤسها ، كما تستطيع أن تفعل ذلك مع كثيرات غيرها . وعاشت عندهم مدة طويلة لا تعمل سوى الخير والصالحات كما كان مقدرا لها . وكانت زوجة الشيخ هى عمتها ، ومع ذلك فانها لم تتعرف عليها . ولن أطيل عليكم الكلام فى هذا الأمر بل سأنتقل الى موضوع الملك ألا الذى تحدثت عنه من قبل . وكان يبكى على زوجته ويئن من أجلها . ولذلك اعود اليه وأترك كونستانزيا فى رعاية الشيخ .

كان الملك ألا قد قتل أمه وجاء يوم ندم فيه على ما فعل فقرر أن يحج الى روما ، ليكفر عن عمله وأن يضع نفسه تحت تصرف البابا فى كل ما يتعلق بأسمى الأمور وأقلها شأنا . كما أراد أن يتوسل الى يسوع المسيح أن يغفر له سيئاته .

وشاع الخبر فى كل أنحاء روما ان الملك ألا قد أتى بقصد الحج ، وأعلن ذلك سفراء سبقوه فى الرحيل . ولذلك امتطى الشيخ جواده وذهب لاستقباله ، كما تقضى بذلك التقاليد والعرف وكان فى صحبته كثيرون من أقربائه ، اظهارا لعظمته وتعبيرا عن تبجيله لملك من الملوك .

ورحب الشيخ المحترم بالملك الا أجل ترحيب ، فرد الملك التحية للشيخ بالأسلوب المناسب . وأغدق كل منهما على الآخر مظاهر الحفاوة وشاءت الظروف أن يذهب الشيخ بعد يوم أو اثنين من ذلك الى الملك ألا لحضور وليمة عنده . وباختصار ، وأنا لست كاذبا ، أخذ معه ابن كونستانزيا ليصحبه .

وقد يقول البعض ان الشيخ أخذ الولد الى الوليمة بناء على طلب كونستانزيا . أما أنا فلا أدرى بكل ملابسات هذا الأمر . ومهما يكن من شىء

فان الولد حضر هذه المناسبة • وهناك حقيقة أخرى هى أن الولد (نزولا على أمر والدته) وقف بين يدى الملك ألا أثناء الوليمة يحدق فى وجهه •

فتعجب الملك من أمر هذا الطفل واتجه الى الشيخ قائلا : « من هذا الطفل الجميل الواقف هناك ! « فأجاب الشيخ قائلا » لا أدرى قسما بالله وبالقديس يوحنا ! ان له إما ولكن ليس له أب ، وذلك أمر أعرفه حق المعرفة ثم باختصار وفى مدة قصيرة من الزمن حكى لألا كيفية العثور على هذا الطفل •

وأضاف الشيخ قائلا : « الله يعلم أننى فى حياتى لم أشهد مخلوقة مثل هذه تتحلى بالفضيلة والتقوى وليس هناك مثلها بين نساء العالم عذارى كن أم سيدات • وأستطيع أن أقول انها تؤثر أن يخترق الخنجر صدرها على أن تكون امرأة شريرة • ولم يولد بعد ذلك الرجل الذى يقدر على ان يجرها الى مثل هذا المأزق الأخلاقى » •

وكان الطفل يشبه كونستانزيا بقدر ما يمكن أن يشبه الشخص غيره • وكان الملك ألا هذا يتذكر جيدا تقاطيع وجه كونستانزيا فأخذ يتأمل الطفل ويتساءل ترى هل يمكن أن تكون أم هذا الولد هى من كانت زوجته قديما • وتنهد سرا فى أسى وأخذ يتحين الفرص للانصراف عن الوليمة •

وصاح قائلا : « أقسم بايمانى أن هذا مجرد وهم فى مخيلتى ! كان يجدر بى أن احكم العقل الحكيم وأن أدرك أن زوجتى قد ماتت ضحية فى البحر المالح » • ثم راجع نفسه وتساءل : « وما يدرينى أن المسيح لم يبعث بزوجتى هنا بحرا كما أرسلها الى شواطىء بلادى من حيث أبحرت أولا ؟ » •

وذهب الملك ألا بعد الظهر مصطحبا معه الشيخ الى بيته ليشهد ما قد يقدر له أن يشهده • ورحب الشيخ بالملك بحفاوة بالغة ، ثم بعث يطلب من كونستانزيا الحضور ، ولكن لتعلموا علم اليقين أنها لما طلبت للحضور ، وعرفت السبب لم تكن تشعر فى قرارة نفسها بالسعادة ، ولم تكن تساورها الرغبة فى أن ترقص فرحا • وكانت تكاد لا تستطيع أن تقف على قدميها •

ولما رأى ألا زوجته حياها خير تحية وبكى ، وكان ذلك مشهدا مؤثرا فى نفوس جميع من شهدوه • وما أن وقعت أنظاره عليها حتى عرف تماما أنها هى حقا • أما هى فقد جمدت فى مكانها كأنها شجرة من شدة الأسى ، وكاد قلبها ينفطر حزنا ، وبخاصة عندما تذكرت معاملته الشاذة •

وأغمى عليها أمامه مرتين فذرف دموعا غزيرة ، واستغفرها بأسلوب يثير الرحمة • وصاح : « فليرحم الله وقديسوه روحى رحمة لا يتطرق اليها الشك حتى أصبح بريئا من شقائك براءة ابنك موريتيوس ، والا فليخطفنى الشيطان من هذا المكان » •

وطال النحيب والبكاء والألم المرير ، قبل أن تهدأ نفسه الحزينة . وكم تأثر الناس لسماع شكواه ، التى لم تنقطع ، مما أثار حزن كونستانزيا أكثر وأكثر . وأرجوكم ان تعفونى يا قوم من الاستمرار فى هذا فلن أستطيع أن أتحدث عن حزنها حتى الغد فقد تعبت من الحديث عن الحزن والأسى والبؤس .

ولكن عندما ظهرت الحقيقة أخيرا ناصعة جلية وعرفت أن ألا كان بريئا من شقائها . فانى أقسم أنهما تعانقا وتبادلا القبلات أكثر من مائة مرة . وكانت سعادتهما بالغة لا حد لها (باستثناء الغبطة فى جنات الخلود) لم يشهد مثيلا لها أحد من الخلق ، او يحتمل أن يشهدها أحد ما بقيت الحياة الدنيا .

وتضرعت لزوجها تضرعا وديعا أن يخفف من أساها الشقى الطويل بأن يطلب من والدها أن يتنازل ويحدد له يوما لاستقباله وتقديم العشاء له . كما تضرعت له ألا يبوح بشىء عما حدث بأى حال من الأحوال .

وقد يروى البعض أن الطفل موريتيوس هو الذى حمل الرسالة الى الامبراطور ولكنى لا أظن أنه قد بلغ هذه الدرجة من الحمق بحيث يبعث طفلا الى شخص فى مثل هذا المقام الرفيع ، يعتبر زهرة المسيحيين . وخير لنا أن نعتبر انه ذهب وحده ، فهذا هو الأقرب الى الواقع .

ورضى الامبراطور بنفس سامية أن يأتى ليتناول طعام العشاء مع الملك ألا بناء على طلبه . ويظهر لى حقا أنه حدق فى الطفل بشدة وتأمل كثيرا فى ابنته . وانصرف ألا بعد ذلك وذهب الى مسكنه الخاص وأخذ (كما يقضى بذلك الواجب واللياقة) يستعد للوليمة ويعد خير ما عنده من ملبس بأحسن صورة يدركها .

وجاء صباح الغد وارتدى ألا ملابسه واستعدت كذلك زوجته بغية مقابلة الامبراطور . وخرجا معا فى ركب سعيد فاخر . وما ان رأت كونستانزيا أباها فى الطريق حتى ترجلت عن جوادها وارتمت بين يديه وهى تقبل قدميه صائحة : « يا أبت ، ان ابنتك الصغرى كونستانزيا قد غابت تماما عن ذاكرتك . أنا ابنتك .. انا كونستانزيا التى أرسلتها وراء البحار الى بلاد الشام . أنا تلك التى وضعت فى سفينة فى البحر المالح وقضى على أن أموت غرقا . وأنا الآن يا خير الآباء أتوسل اليك أن ترحمنى ! لا ترسلنى ثانية الى بلاد الوثنية أو الكفر بل اشكر سيدى الواقف هنا بجوارى لكرم خلقه وطيبته » .

ترى من يستطيع أن يصف مدى السعادة المؤثرة التى شاعت بين الثلاثة منذ أن اجتمعوا من جديد على هذا النحو ؟ . ولكنى مصمم على أن أختم قصتى ، فالنهار يولى سريعا ولن أطيل ولن أتلكأ . لقد جلس السعداء الى المائدة فى الوليمة ، فلأتركهم أنا يتمتعون بخيرات المقام وأنا واثق أنهم فى حالة نفسية خير ألف مرة من أى وصف أستطيع أن أقدمه .

وبعد فترة من الزمن عين الطفل موريتيوس امبراطورا بأمر البابا ، وعاش حياة مسيحية مثلى ، وكان دائما يقدم لكنيسة المسيح كل احترام وتبجيل •

ولكن لأترك كل هذا جانبا وأخص كونستانزيا بحكايتى اذ يمكن للناس أن يجدوا ترجمة لحياة موريتيوس فى السير الرومانية القديمة ، أما أنا فلا أتذكر عنها شيئا •

ولما أدرك ألا هذا أن فرصته للعودة الى زوجته اللطيفة كونستانزيا قد حانت عاد معها الى انجلترا حيث عاشا فى سـلام وسعادة • ولكن هذه الحال لم تدم الا مرحلة قصيرة لأن الزمن لايجود كثيرا بأفراح الدنيا • فالزمن يتغير من النهار الى الليل كالمد والجزر ، ومن من البشر عاش يوما واحدا فى حالة من السعادة لم يشبها فكر أو غضب أو شهوة أو ضرب من ضروب الخوف أو حقد أو غرور او انفعال شـديد أو ايذاء للغير ؟ انى لا أذكر هذا الا لأقول ان سـعادة ألا وكونستانزيا لم تبقيها فى حالة سرور وغبطة الا مدة قصيرة •

فالموت الذى يتلقى ايجاره من على الشأن وواطئه ، قد اختطف الملك ألا من هذه الدنيا ، بعد مرور سنة على ما أظن ، فحزنت على ذلك كونستانزيا حزنا عميقا • فلنتضرع الى الله أن يرحم روحه ويباركها ! وخاتمة القول ان السيدة كونستانزيا اتخذت طريقها الى روما •

ولما وصلت هذه المخلوقة التقية الى روما وجدت بها أصدقاءها وأقرباءها فى تمام الصحة ، وبذلك مضت الى غير رجعة كل الحوادث التى مرت بهـا والمغامرات التى اعترضت طريقها • ولما التقت بأبيها ألقت بنفسـها بين يديه وبكت لسمو أخلاقها ورقة قلبها ، وكان قلبها سعيدا وحمدت الله عشرة آلاف مرة •

وهكذا عاشوا جميعا فى أعمال البر والفضيلة ولم يفترقوا أبدا ، حتى جاء الموت وفرق بينهم وبين الحياة • والآن اودعكم ! فقصتى قد انتهت • أما أنت يا يسوع المسيح الذى يستطيع أن يمنح بقدرته الغبطة بعد الشقاء ، فاحكمنا بنعمتك ، واحفظنا جميعا فى هذا المقام • آمين •

هنا تنتهى حكاية رجل القانون

خاتمة حكاية رجل القانون

نهض بعد ذلك مضيفنا على الركاب وصاح قائلا : « أيها الناس الأخيار ! انصتوا ، لقد كانت هذه حكاية مفيدة للغاية فى ظروفنا هذه ! » ثم استطرد قائلا : « أيها القسيس أناشدك بعظام المسيح أن تحكى لنا حكاية ، كما وعدتنا من قبل ، فانى أرى بوضوح أيها العالمون بالشرائع أنكم تعرفون أشياء طيبة كثيرة ، وأنا مستعد لأن أقسم على ذلك بكرامة الله نفسه ! » • فأجابه القسيس قائلا : « اطلبوا البركة أيها الناس •• ما الذى يضطر الانسان للقسم بالله والقسم اثم ؟ » فأجابه مضيفنا قائلا : « أيها القس حنين ألست معنا انى أشم رائحة متعصب دينى فى الجو » • وأضاف قائلا : « استمعوا اذن يا أيها الأخيار تعالوا نقف هنا وننصت لموعظة يلقيها علينا هذا المتعصب الدينى ، أقول ذلك قسما بآلام المسيح » •

فنهض البحار صائحا وهو يقول : « كلا كلا ، لن يكون ذلك أقسم برحمة أبى انه لن يبقى هنا من يلقى علينا عظات ، ولن يقف بيننا أحد يشرح الأناجيل ويعلمنا مكارم الأخلاق ، ولنترك كل هذه الموضوعات لله العظيم • وأنا واثق أن هذا الشخص مصمم على نشر المتاعب بيننا ، وأنه يريد أن يثير الفتن فى حقل صداقتنا الذى يحتوى كله قمحا نظيفا • ولذلك أنذرك أيها المضيف أمام الجميع أنى أنا نفسى سوف أروى لكم قصة يكون لها فى آذانكم وقع الأجراس المرحة ، وتثير انتباه كل هذه الجماعة الطيبة ، غير أن قصتى لن تدور حول أمور الفلسفة أو أمور الفيزياء أو مصطلحات القانون المعقدة ، وتأكدوا أيتها الجماعة أن فمى لا يحتوى الا قليلا من اللغة اللاتينية » •

هوامش حكاية رجل القانون

(١) تحديد التاريخ بمثل هذه الدقة فى مقدمة حكاية رجل القانون قد دفع كثيرا من الشراح الى القول بأن اليوم الثانى كان قد حل فى الرحلة ، وأن تشوسر كان يقصد رحلة حج حقيقية معينة ، يحتمل أن يكون قد اشترك فيها · والغريب أن رجل القانون يعد بأنه سيحكى حكاية نثرا (البيت رقم ٩٦) ثم يحكيها شعرا الأمر الذى جعل بعض الشراح يعتقدون أن تشوسر كان يريد أصلا أن ينسب حكاية مختلفة تماما لرجل القانون ·· ويلاحظ أن هذه الحكاية مع كونها ، على ما يظهر ، تاريخية اذ أنهــا تــدور حول حكايــة بنت امبراطور رومانى حقيقى هــو الامبراطور تيبيريوس كونستانتيفوس Tiberius Constantinus الا أنها رواية لحكاية معروفة فى القصص الشعبى عالميا تحت عنوان حكاية الزوجة المظلومة المفترى عليها · وهناك على الأقل ٦٠ رواية فى هذا الموضوع كانت معروفة فى القصص الشعبى فى وقت تشوسر ، بل اقتبس جاور (GoWer) ، وهو معاصر تشوسر ، الموضوع نفسه فى ملحمته الطويلة المسماة « اعتراف العاشق » (Confessio Amantis)

(٢) هذه التشبيهات لمرور الزمن معروفة فى كتابى « مسخ الكائنات » (الكتاب الخامس عشر) « وفن الهوى » للشاعر الرومانى أوفيد ، كما أن الفيلسوف الرومانى سينيكا Seneca قد أشار الى ذلك فى « رسائله » (الكتاب الأول) ·

(٣) ماتيلدا أو فالكين (فى تسميتها المألوفة المصغرة) كانت مثالا للمرأة الماجنة ، ويلاحظ أن هذا الاسم قد استعمل فى حكاية الخولى ·

هذه اشارة الى « رسائل البطلات » (Heroides) للشاعر الرومانى أوفيد ، وهى عبارة عن قصائد غزلية فى شكل رسائل من بطلات الأساطير الى عشاقهم أو أزواجهن · ولكن هناك رسائل مكتوبة من عاشقين الى عشيقاتهم · والمضوع عامة دراسة للحب من وجهة نظر المرأة فى ملابسات مختلفة كالتوحد والخيانة والشعور بالرق الذى يترتب على الزيجة الكريهة والشهوة غير المشروعة والاخلاص وغير ذلك ·

(٥) هــذه قصـــة رواها تشـــوسر فى أول قصـــيدة رثاء طويلة له « كتـــاب الدوقة » (Boke of the Duchesse) ، ويبدو أنه كان ينوى أصلا أن يفردها فى قصيدة مستقلة أدمجها ، فيما بعد فى مرثيته · وملخص هذه القصة أن الكيونى أو هالكيونى (Halcyone) حزنت لموت زوجها سيكس (Ceyx) غرقا ، الى حد أنها قذفت بنفسها فى البحر انتحارا ، لكى تكون معه ·فحولهما الآلهة طائرين عطفا عليهما ·

(٦) اشارة من تشوسر نفسه الى قصائد فى موضوع عذاب العاشقات ألفها وجمعها فى كتاب اسمه « أسطورة السيدات الفاضلات (The Legend of Good Women) يصف فيها أحزان الحب والاستشهاد فى سبيله الذى عانتهما نساء أسطوريات وتاريخيات عديدات منهن لوكريا السيدة الرومانية الفاضلة التى هتك عرضها حاكم روما المستبد تاركوينوس Tarquinus فأبت أن تعيش

بعد ذلك وانتحرت حتى لا تلحق العار بزوجها · وهناك قصيدة طويلة كتبها شكسبير فى نفس الموضوع ومنهن أيضا تيزبى (Thisbe) الفتاة البابلية التى أحبت بيراموس (Pyramus) بالرغم من اعتراض أسرتيهما ، وانتحرت لما عثرت على جثته بعد أن انتحر ظنا منه أنها كانت قد ذهبت فريسة أسد · أما ديدو ملكة قرطاجة فقد انتحرت طعنا بالسيف لما خانهـــا أينياس فى ملحمة « الانيادة » لفرجيل (الكتاب الرابع) ، وأما فيليس (Phyllis) فقد أحبت ديموفون (Demophoon) وانتحرت لما طال غيابه عنها أثناء رحلة أثينا فأشفق عليها الآلهة ، ومسخوها شجرة · وهـذه القصة موجودة فى كتاب « مسخ الكائنات » لأوفيد · أما أحزان ديانيرا Deianira ، بسبب خيانة هرقل وهرميونى (Hermione) وأريادنى (Ariadne) وهيزيبلى أو هوبزوبلى (Hypsipyle) فكلها مروية فى « رسائل البطلات » (Heroides) لأوفيد · أما الجزيرة الجرداء فهى حسب أوفيد جزيرة ناكسوس (Naxes) ، حيث هجر فيها ثيسيوس (Thesius) اريادنى بعد أن ساعدته على قتل المينوطور (Minotaur) الوحش الكريتلى · أما الاشارة الى هيرو (Hero) وعشـــيقها لياندر (Leander) اللذين غرقا فى الدردنيل فهى أيضا من أوفيد · ويلاحظ أن هذا الموضوع أصبح فيما بعد موضوعا لقصيدة معروفة لكرستوفر مارلو (Marlowe) ظهرت بعد وفاته سنة ١٥٩٨ م ، ولقصيدة كتبها اللورد بايرون (Byron) سنة ١٨١٣ م ، بعنوان « عروس أبيدوس » (والاشارة هنا الى أبيدوس فى آسيا الصغرى لا أبيدوس فى صعيد مصر) · أما هيلانا ، فهى تلك التى كانت ســببا فى حرب طروادة ، وأما بريزيس (Briseis) ، فهى مذكورة أصلا فى «الالياذة» ،وأصبحت قصتها فيمابعدنواةلقصة «تريلوس وكريسيدى (Troilus and Criseyde) التى تعتبر أروع ما كتبه تشوسر فى حياته كشاعر · أما لاوداميا فهى بطلة من بطلات « رسائل البطلات » كما أنها ذكرت فى « مسخ الكائنات » فهى أرملة بروتيسيلاوس (Protesilaos) ، الذى كان أول ضحية يونانية فى الحملة ضد طروادة ، فانتحرت حزنا · أما ميديا فهى الساحرة المشهودة فى مأساة يوربيدس بالعنوان نفسه ، وقد قتلت أطفالها انتقاما من ياســـون ، الذى خانها · أما هوبرمنسترا (Hypermnestra) فهى الوحيدة من بنات داناوس (Danaes) الخمسين ، التى رفضت أن تقتل زوجها من بين أولاد آيجوبتوس الخمسين ، وذلك بسبب حبها له وبينلوبى زوجة يوليسيس وألكستيس (Alcestis) الزوجة الفاضلة التى ماتت من أجل زوجها فى المسرحية ، التى كتبها يوربيدس بالعنوان نفسه · وكل هؤلاء النساء الحقيقيات والأسطوريات هن ممن كتب عنهن تشوسر فى « أسطورته عن النساء الفاضلات » وحتى يظهر حسن دوافعه جعل تشوسر رجل القانون ينفى عنه ذكر بطلات الأساطير القديمة المتفرقات فى ألوان من الشذوذ الجنسى ، التى تأباها قواعد اللياقة المسيحية المعـــاصرة له من أمثال قصة كاناسى (Canace) · وأما حكايات أبولونيوس الصورى (Apollonius de Tyro) والملك أنتيوخوس (Antiochus) فقد رواهما مع رواية كاناسى ، الشاعر المعاصر لتشوسر ، وهو جاور ، فى ملحمته « اعتراف عاشق (Confessio Amantis) وقد اتفق الشراح على أن هذا الرفض لمثل هذه الموضوعات فيه نقد مستتر لجاور ، الذى تألم لذلك ·

(٧) هذا لقب من ألقاب ربات الفنون نسبة الى مسقط رؤوسهن أو الى اسم أبيهن وانما يبدو أن تشوسر يشير هنا الى قصة بنات الملك بيروس المناهضات لربات الفنون واللاتى مسخن طائرات من نوع المعقعن (المشهورات بالثرثرة) ، والمذكورات فى كتاب « مسخ الكائنات » لأوفيد (الكتاب الخامس) ·

قد يحق لنا أن نتساءل عما كان ينويه تشوسر أصلا عندما جعل رجل القانون يعلن أنه سيتكلم نثرا ، فقال البعض ان المقصود هو « حكاية ميليبيوس » ، التى نسبها تشوسر الى نفسه فى الرحلة · وهناك رأى قائل بأن المقصود ترجمة نثرية لكتاب البابا انوكنتوس الثالث فى الزهد

فى الدنيا » (De contemptu Mundi) الذى كان قد كتبه باللاتينية • والمعروف أن تشوسر قد أتى بترجمة نثرية مفقودة لهذا الكتاب ، الا أن هناك بعض القطع منه اقتبسها فى رواية شعرية هى ما نقرؤها الآن فى تمهيد حكاية رجل القانون وهى بطبيعة الحال كلها بالشعر • ويجدر بنا هنا أن نشير الى هذا الكتاب الذى لعب دورا هاما فى الحركة الفكرية الكنسية فى العصور الوسطى • فمؤلفه كما قلنا هو البابا انوكنتوس الثـــالث (١١٦١ ـ ١٢١٦م) ، والكتاب فى الزهد وفى احتقار أمور الدنيا عامة • وانما الجزء الذى ذكره تشوسر هنا هو اقتباس من الفصل السادس عشر الذى يعالج آلام الفقر • وانه لمن الواضح أنه غير متصل بما سبقه من كلام ، ولا بموضوع الحكاية ، الا أن الشاعر استطاع بلباقة أن ينتقل من موضوع الفقر الى الثراء ، ومن الثراء الى التجار ، ومن التجار الى التجارة الخارجية ، ومنها الى الرحلات وأدب الرحلات والأمر الذى يصلنا بالحكاية ، التى يقصها رجل القانون • والمصدر الرئيسى لهذه القصة « حياة الأميرة كونستانتيا » ، التى كتبها نقولاتريفيت (Nicholas Trivet) ، ضمن تاريخ عام للعالم الذى كتبه بالفرنســية النورماندية المتأنجلزة (Anglo-Norman) من أجل الأميرة مارى بنت الملك ادوارد الأول • ولكن هناك مصادر أخرى كثيرة من الأدب الشعبى ، جمعتها سنة ١٩٢٧ الدكتورة مارجريت شــلوخ (Dr. Margaret Schlauch) فى كتاب اسمه «كونستانيتا عند تشوسر والملكات المتهمات» (Chaucer's Constance and Accused Queens) ومن العناصر الشعبية المألوفة موضوع الحماة الشريرة ، والاتهام الكاذب بالسحر ، وانجاب الوحوش والشواذ ، وقتل المواليد ، والرسالة المزورة وغير ذلك •

(٩) والتنجيم والفلك السحرى عنصران مهمان للغاية فى فهم الخلفية الفلسفية للنظرة الى العالم فى العصور الوســـطى • فما يكتب لنا فى النجوم ، وفى أوضاع الكوكب ، هو فى نظر فلاسفة العصور الوسطى تعبير بل لغة رامزة للارادة الالهية لا يمكن أن تعدل الا بارادته هو نفسه • واذا نظرنا الى الكتاب الخامس من « سلوى الفلسفة » لبوثيوس ، الذى كان يترجمه تشوسر حينذاك الى الانجليزية ، وجدنا أن الله عنده خارج الزمن المحدود ، بل كائن فى الأبدية ، حيث لا ماضى ولا حاضر ولا مستقبل ، بل وجود أبدى غير مقيد بزمان ومكان • والله هو البصير العليم المدرك للزمن بأسره ، بما فى ذلك حرية الارادة البشرية والعلم بنتيجتها • ولذلك يؤمن تشوسر بالقدرة الالهية وبعلمه الأزلى فى نفس الوقت ، الذى يؤمن فيه بحرية الارادة البشرية •

(١٠) الأصل الانجليزى تحريف مألوف هو « ماهون » (Mahoun) وهو مأخوذ من الأمثلة الفرنسية المختلفة لتحريف اسم « محمد » تعبيرا عن كراهية للاسلام ونبيه ، وذلك خاصة فى العصور الوسطى ، التى شهدت الحركة الصليبية والحروب المتوالية ضد العرب والمسلمين فى الشرق الأوسط ، وفى الأندلس وشمال افريقية • وكان الاسلام فى نظر الشعراء والأدباء فى ذلك الوقت يعبر عنه « بالمحمدية » (mawmettrie) ، وهى كلمة تعنى لديهم الكفر « أو حتى الوثنية » ، اعتقادا منهم أن المسلمين يعبدون النبى محمدا ، بدلا من الله ، الأمر الذى أدى الى أن التحريف لاســم « محمد » وهو مومت(Mammet) أو « ماهون » (mahoun) دخل اللغتين الانجليزية والفرنسية القديمتين ، بمعنى « وثن » ، واســـتمر الحال كذلك حتى عهــد شكسبير ، الذى استعمل الكلمة « ماميت » (mammet) ، وهى تحريف للتحريف نفسه ، بمعنى دمية وألعوبة وهذا مثال من ضمن أمثلة كثيرة للتعصب الدينى ، والارهاب الفكرى ، اللذين شيدا الأسوار بين الحضارتين الأوربية والاسلامية طوال قرون عديدة •

(١١) انظر الحاشية السابقة •

(١٢) الكلمة فى النص هى Barbre ، وهى قريبة من معنى « بربرى » أو همجى • فأصل

الكلمة من اليونانية « باربروس » (barbaros) وهى اسم صوت لمن يتهته ويتعتع فى كلامه ، والمقصود من لا يتكلم اليونانية · فكان أفلاطون يقسم الدنيا الى اغريق وبرابرة · أما الرومان فكانوا يقسمونها الى رومان واغريق وبرابرة · وفى أوربا فى العصور الوسطى أصبح هذا اللفظ يعنى العالم غير المسيحى ، وبصفة خاصة عالم الاسلام أو عالم الكفر بالمسيحية على حد قولهم · ويقابل دار الحرب عند المسلمين · ويلاحظ مع ذلك أن الامارات والدويلات الموجودة فى شمال افريقية كانت أيضا توصف بأنها بربرية حتى أن المنطقة كلها أصبحت تسمى بالأراضى البربرية ويظن البعض ألا علاقة بين هذا الاستعمال واستعمال الكلمة بمعنى الكفر ·

(١٣) هذه اشارة الى النظرية البطلمية فى الكون التى عرضها العالم الفلكى الاسكندرى اقلديوس بطليموس فى القرن الثانى الميلادى فى كتاب مشهور ترجمه العرب تحت اسم « الماجستى » ·

(١٤) كل هذا دليل واضح على الأهمية الكبرى التى كانت تعطى للتنجيم فى آداب العصور الوسطى · فكان الشاعر حينذاك يحاول أن يظهر عظمة علمه ومعارفه فى كل ما يكتبه ومن أهم هذه المعارف الفلك والتنجيم ، اللذان كانا يلعبان دورا هاما فى ثقافة العصور الوسطى ·

(١٥) تحكى عن الملكة الأشورية سميراميس أساطير كثيرة فى العصور الوسطى · فكانت مثالا للملكة الساحرة الشريرة وقد روى عنها أنها اغتالت زوجها الملك نينوس ، وأنها مسخت طائرا بعد موتها · ويلاحظ أن تشبيه الحية بوجه امرأة مألوف فى الفنون الشعبية القديمة ، وفى التمثيليات الشعبية الدينية فى الأعياد والحفلات ·

(١٦) شاعر رومانى عاش فى عصر الامبراطور نيرون وحكم عليه وعلى عمه سينيكا (Seneca) بالانتحار ، لاتهامهما بالاشتراك فى مؤامرة ضد الامبراطور · ولوكانوس (Lucanus) مؤلف ملحمة فى عشرة أجزاء عن الحرب الأهلية بين يوليوس قيصر ومنافسه بومبيوس (Pompeius)

(١٧) فى سفر الرؤيا الاصحاح السابع فى العهد القديم من الكتاب المقدس ·

(١٨) كانت القديسة مريم المصرية داعرة فى الاسكندرية فى القرن الخامس الميلادى ، وزهدت الدنيا وما فيها ، وتنصرت ، فأصبحت ناسكة فى الصحراء لمدة تقرب من خمسين سنة ، حتى ماتت · وهى بطلة مشهورة للقصص الشعبى الدينى بكل أنحاء المسيحية بالعصور الوسطى ·

(١٩) هذه مملكة ديرا (Deira) الأنجلو سكسونية القديمة ، التى اتحدت مع مملكة برنيكيا (Bernicia) فى القرن السادس الميلادى لتكون مملكة Northumberland

(٢٠) كان أللا (Aella أو Alla) ملكا لديرا (Deira) قبل أن تصبح جزءا من Northumberland ومات فعلا سنة ٥٨٨ م ·

(٢١) قصة شوشنة فى أحد الكتب المنتحلة فى العهد القديم من الكتاب المقدس · وهى باختصار كانت عارية فى الحمام ، ولمحها شيخان فحاولا اغراءها بالجماع فرفضت ، فاتهماها زورا بأنها قد زنت مع شاب فى بستان ، فحكم عليها بالاعدام ، ولكن النبى دانيال أظهر براءتها بأن سأل كلا من الشيخين على حدة عن نوع الشجر ، الذى كانت تزنى تحته فلما اختلفت رواياتهما برئت ·

(٢٢) اسم أم العذراء مريم لم يذكر فى الانجيل · انما ذكر فى كتاب منتحل ، اسمه كتاب يعقوب الحوارى ·

(٢٣) انظر سفر صموئيل ، الاصحاح السابع عشر ، فى الكتاب المقدس ٠

(٢٤) انظر سفر يهوديت أحد الأسفار المنتحلة فى العهد القديم ، حيث يروى أنه فى عهد الملك نبوخذ ناصر فى نينوى هاجم الأشوريون بنى اسرائيل ٠ فذهبت يهوديت الأرملة الشابة الى معسكر الأشوريين وأغرت قائدهم اليفانا ، حتى أثملته ، وضربت عنقه ، وعادت برأسه الى شعبها فى مدينة بتوليا ٠ ويعود تشوسر الى هذه الرواية فى حكاية الراهب ٠

(٢٥) خلف الامبراطور تيبيريوس (Tiberius) فى الدولة الرومانية الشرقية الامبراطور مورتيوس (Mauritius) ، الذى لم يكن ابنه ، وانما زوج بنته ٠ هذا فى التاريخ ، وانما تشوسر يحكى هنا حكاية خيالية ٠

حكاية سيدة باث

مقدمة سيدة باث

« ان تجارب الحياة تكفينى اذا تحدثت عن الشـــقاء الكامن فى الحياة الزوجية ، ولو لم يكن لرأيى هذا سند فى الكتب (٢) ٠ وسادتى الكرام : اننى منذ أن بلغت سن الثانية عشرة تزوجت من خمسة أزواج عند بوابة الكنيسـة (والحمد لله الأبدى الأزلى على ذلك ! ان صـح أن نسمى هذه الزيجات المتكررة زواجا (٣) ، والحق يقال ان كل أزواجى كانوا رجالا محترمين للغاية ، ومواطنين صالحين ، كل فى طبقته الاجتماعية ٠ وقد روى لى بشىء من اليقين أنه مادام المسيح لم يذهب الا مرة واحدة لحضور حفل زواج فى حياته ، وذلك بالنسبة للعرس الذى حضره فى قانا (٤) بالجليل ، فانه يترتب على ذلك أن على ، تمشيا مع هذا المثل ، ألا أتزوج الا مرة واحدة ٠

انصتوا لى قليلا ، واسمعوا ذلك الرد السريع الذى فاه به المسيح فى الحال وهو اله وانسان فى آن واحد عندما عاتب السمرائية فقال : « لقد تزوجت من أزواج خمسة فان الرجل الذى يعيش معك الآن ليس زوجا لك » (٥) ٠ ولا شك أنه قال ذلك ، ولكننى لا أستطيع أن أفهم ما كان يرمى اليه من وراء ذلك ٠ ومع ذلك فانى أتسـاءل : ترى لماذا لم يكن الرجل الخامس زوجا حقـا بالنسـبة للسمرائية ؟ وكم عدد الأزواج الذين يحق لها أن تتزوج منهم (٦) فطـوال حياتى لم أسمع بشكل واضح ومحدد ما هو العدد المشروع المناسب من الأزواج ٠

وقد يتساءل الناس ويتناقشون هنا وهناك ، ولكنى أعرف تماما وبصراحة أن الله أمرنا أن نزداد وأن نتكاثر (٧) • وفى وسعى حقا أن أفهم هذه الآية الكريمة • وانى لأعرف تماما أنه عز وجل (٨) قال ان زوجى عليه أن يهجر أباه وأمه وأن يذهب معى • ولم يذكر قط شيئا عن تحريم تعدد الزيجات سواء اثنتين أم ثمانى فلماذا يصف البشر ذلك بأنه رجس من عمل الشيطان » •

اليكم مثلا ذلك الملك الحكيم السيد سليمان (٩) ، فأنا واثقة أنه كان لديه أكثر من زوجة واحدة • ألا ليتنى أجيز لى من الله أن أسعف بنصف ما أسعف به هو فى حياته • وما أعظم ما يلقاه مثل هذا التعدد فى الزوجات من جزاء عند الله ! • فلم يكن لدى أحد من الرجال فى هذه الدنيا مثل ما منح من زوجات •

والله يعلم أن هذا الملك الكريم (كما أظن) قد تمتع بلهو لذيذ أكثر من مرة فى ليلة زفافه الى كل منهن ، لما منح من حياة مباركة • فتبارك الله وتعالى أننى قد تزوجت من خمسة ! ومرحبا بالسادس عندما يتصادف وجوده أمامى • والحق يقال اننى لا أريد قط أن أبقى غير متزوجة • وعندما يأتى الوقت الذى يغادر فيه زوجى هذه الدنيا ، فسوف يتزوج منى حتما أحد الرجال المسيحيين اذ أن (بولس) الرسول قال اننى عندئذ أكون حرة فى (١٠) التزوج ممن يعجبنى وانى أقول ذلك بسم الله العظيم •

ويقول الرسول أيضا انه ليس اثما أن يتزوج المرء ، فخير له أن يتزوج من أن يحترق بنار الشهوة • فماذا يهمنى ما يقوله الناس وهم يتميزون غضبا ، بخصوص لامك الاثم ومضارته (١١) انى لأعلم تماما أن سيدنا ابراهيم كان رجلا تقيا ، وكذلك سيدنا يعقوب بقدر ما أعرف وكان لكل منهما أكثر من زوجتين ، وكان هذا شأن أكثر من رجل تقى غيرهما • ففى أى نص وفى أى وقت من التاريخ يمكنكم أن تقولوا ان الله سبحانه وتعالى قد حرم الزواج تحريما قاطعا ؟ من فضلكم قولوا لى • ومتى وأين أمر بالبتولة ؟ انى لأعلم كما تعلمون أنه لا غبار على ما قاله الرسول عن البتولة ، عندما اعترف أنه لا يعتمد على سند واضح (١٢) وقد ينصح الناس المرأة أن تبقى عانسا ، ولكن النصيحة ليست بمثابة الأمر الصريح • والأمر متروك لحكمتنا • فلو أن الله أمر بالبتولة ، فانه يكون بذلك قد لعن الزواج نفسه • ولا شك أنه لو لم تبذر البذور ، يا أيتها البتولة ، لما كان فى وسعك أنت أن تأخذى فى النمو ؟ ان بولس الرسول لم يجرؤ على أن يأمر بشىء لم يقض به خالقه • ان الجائزة هى للبتولة ولا شك ، وعلى كل امرأة أن تتسابق للحصول عليها ، ولكن فلندع الأمر الآن لنرى من هو أسرع فى السباق •

مع ذلك فان هذا الكلام لا ينطبق على جميع البشر بل يقتصر على من يتراءى

الله أن يمنحه بفضل سلطانه القدسي · واني لأعرف تماما أن بولس ، الرسول كان بكرا ، ولكنى أعرف أيضا أنه ، على الرغم مما كتبه وفاه به يتمنى لو كان كل البشر مثله الا أن كل ذلك لم يكن الا نصيحة بالبتولة لا أمرا بها · وقد سمح لى أن أصبح زوجة . لذلك لا يعتبر اثما أن أتزوج من جديد اذا مات زوجي، وذلك دون أن أتهم بالمضارة · وحتى لو كان من الأصليح ألا يلمس الرجل المرأة ، فان المقصود من ذلك ألا يفعل ذلك وهو فى مضجعه وفراشه ، لأنه من الخطورة بمكان أن تقرب النار من الكتان ، وأنتم تعلمون تماما ما هو مرمى هذا المثل · وخلاصة الأمر أنه كان يفضل البتولة على الزواج الناتج عن عجز الانسان عن مقاومة الشهوة الجنسية · ولابد لى أن أسمى ذلك عجزا الا فى تلك الحالات ، التى يريد فيها الزوجان التعايش ، دون أن تكون بينهما علاقات جنسية (١٣) ·

وانى لسعيدة جدا بهذه الحال ، حتى لو كانت البتولة أصلح من المضارة · وقد يسر غيرى أن يكون طاهرا فى جسمه وروحه · أما أنا فلا أفتخر بمالى وأنتم تعلمون خير العلم ان سيد البيت لا يجعل كل أطباق مائدته من الذهب الخالص ، فبعضها مصنوعة من الخشب ، وقد تؤدى الخدمة لصاحبها كما يجب · لقد دعا الله كل امرىء دعوة خاصة ، ولكل انسان من عند الله المنحة الخاصة به ، فللبعض هذا ، وللبعض الآخر ذلك حسبما يرى المولى ·

ان البكارة مثل أعلى للكمال والعفة ، ودليل على التقوى ، اذا اتبعت لأسباب روحية ، ولكن المسيح نفسه ، الذى يمكن اعتباره مصدر كل كمال ، لم يأمر كل شخص بأن يبيع كل ما عنده ، ويعطيه للفقراء ، حتى يستطيع أن يتبعه على هذه الحال ، ويمشى فى خطواته بل ان المسيح وجه كلامه الى من كانوا يريدون أن يعيشوا حياة كاملة مثلى وبعد اذنكم ، يا سادتى ، لم أكن أنا من هؤلاء · وقد قررت أن أكرس زهرة عمرى وكل طاقتى فى القيام بأفعال الزيجة وانتاج ثمارها ·

قولوا لى لأى غرض خلقت أدوات التناسل ؟ ولماذا خلقت بهذه الطريقة فائقة المهارة ؟ تأكدوا أيها السادة أنها لم تخلق من أجل لا شيء · فليتقدم من يشاء ، ويفسر الأمر معتمدا على حجج شتى ليقول ان هذه الأدوات قد خلقت فقط لتصريف البول ، وأن هذه العلامات المميزة الصغيرة لم تخلق الا لتمييز الذكر من الأنثى وليس لأى غرض آخر · أهذا رأيكم أم تنكرونه ؟ ان التجربة دالة دلالة تامة على أن الأمر بخلاف ذلك · ولكيلا يغضب منى القساوسة أقول ما يلى : انها قد خلقت للغرضين معا ، أى من أجل تأدية أعمال التصريف ومن أجل متعة التناسل والمضاجعة ، وهذا رأى لا يغضب الله · والا ، قولوا لى ، لم نص فى كتب البشر المقدسة أن الزوج عليه أن يفى بدينه الجسدى لزوجته ؟ فكيف يمكن له أن يفى بدينه اذا لم يستعمل أداته الصغيرة البسيطة ؟ لذلك يبدو واضحا أنها قد خلقت من أجل غرضين ، أى لتصريف البول والتناسل أيضا ·

ولا أقول مع ذلك ان كل شخص مكلف (اذا كان عنده مثل تلك الأداة التي وصفتها لكم) بأن يستعمل ما لديه من أجل التناسل · وما يعطي الانسان أهمية كافية للعفة والطهارة أن المسيح مثلا كان بكرا وان كان مشكلا على هيئة رجل ، وكذلك عدد كبير من الأولياء والقديسيين منذ بداية العالم ، وقد كانوا جميعا يعيشون حياة عفيفة الى أقصى حد · وأنا لا أحسد الناس على بكارتهم · فاذا أمكن اعتبارهم خبزا من أرق دقيق القمح ، فنحن السيدات المتزوجات يمكن أن نوصف بأننا خبز من الشعير · ويلاحظ أن سيدنا يسوع قد أطعم وأشبع عددا كبيرا من الناس بخبز الشعير ، كما قال مرقس الرسول (١٤) ·

وسوف استمر على الحالة التي دعانا اليها الله ، فلست متأنقة يصعب ارضائي واقناعي · ولذلك سأستعمل أداتي في الزوجية ، بنفس الحرية التي خلقها الله لي من أجلها · واذا أظهرت التمنع فليصبني الله بالتعاسة والبؤس ! فان من حق زوجي أن يأخذ ما له عندي مساء وصباحا اذا أراد · ولابد لي من زوج ، ولن يمنعني عن ذلك احد ، وسيكون زوجي هذا مدينا لي وعبدا ، يأتمر بأمري ، وسيشقيه الرق في جسده طالما أنا زوجة له · ويحق لي طوال أيام عمري أن آخذ حقي من جسده ، ولا حق له في ذلك · وهذا هو ما أمرني به الرسول بالحرف الواحد · فقد أمر أزواجنا أن يمنحونا حبا خالصا ، واني لسعيدة جدا بمثل هذا الأمر (١٥) ·

وعندئذ نهض بائع صكوك الغفران وقال :

« والآن يا سيدتي أتوسل اليك بالله وبالقديس يوحنا ! فأنت من خير الوعاظ في مثل هذا الأمر · أما أنا فكنت يومئذ على وشك الزواج بامرأة ، ولكني راجعت نفسي وتساءلت : لماذا استدرج البؤس النفسي ، في مقابل مثل هذا الثمن الباهظ ؟ لقد كان أحب الى ألا أتزوج من امرأة في هذه السنة ! » ·

فصاحت السيدة قائلة : « قف ! ان حكايتي لم تنته · وسوف تشرب من برميل آخر ، قبل أن أنتهي من كلامي ، وتشقى من طعم أمر من طعم الجعة · وبعد أن انتهي من رواية قصتي التي تتناول شقاء الزواج (وهذا موضوع لي به خبرة عمر بأكمله ، لأنني كنت بمثابة السوط في كل هذه التجارب) يحق لك أن تذوق من شراب ذلك البرميل ، الذي سأفتحه لك · فحذار اذن واتق شرى قبل أن تدنو · فأنا سأضرب لكم أكثر من عشرة أمثلة لأصور رأيي في الزواج ·

والمثل يقول : « من لا يتعظ بتصرفات غيره ، فسيصبح بدوره عبرة للغير » وهذا ما ذكره العالم بطليموس في كتابه الماجستي ، ولك أن تقرأه في ذلك المؤلف (١٦) ·

فقال بائع صكوك الغفران : « يا سيدتي أرجوك ، لو سمحت أن تروي لنا

قصتك ، ولا تخفى عنا شيئا ولا تبالى باعتراض أى أحد ، وعليمنا نحن الشباب ثمار خبرتك » ٠

فأجابته قائلة : « بكل سرور مادام ذلك ما يروق لك ، ولكنى أتوسل الى كل هؤلاء الرفقة ألا يغضبوا منى ، اذا قصصت عليكم ما عندى بوحى من هوايتى٠ وغرضى لا يتعدى مجرد الترفيه ٠ والآن ، يا سيدى ، سأروى لكم قصة حياتى : وانى أقسم بكأس الجعة أو النبيذ (الذى لن أمسه ثانية اذا كنت كاذبة) أنى سأقول لكم الحقيقة كلها ٠٠ ثلاثة من أزواجى كانوا من خيرة الرجال واثنـان منهم من أسوأهم ٠ كان الثلاثة طيبين وأغنياء ومسنين ، وكانوا قادرين على تأدية واجبهم نحوى بمشقة ، وأنتم تفهمون فحوى كلامى بالله عليكم ! وعندما أتذكر كيف كنت أرهقهم ليلا بالعمل الشاق ، لا أستطيع الا أن أنفجر ضاحكة ! وأقول لكم الحق وايمانى انى لم أعبأ كثيرا بما بذلوه من جهود شـــاقة ، فقد أعطونى عقاراتهم وكنوزهم ، ولذلك لم تكن هناك أية حاجة ، بعد ذلك ، لبذل جهود من ناحيتى ، لأحظى بحبهم ، أو أعرب لهم عما أكنه لهم من احترام . وكانوا يحبوننى لدرجة أننى لم أعر حبهم أهمية كبرى ٠ فالمرأة الحكيمة تبذل كل جهودها دائما للحصول على حب الرجال ، اذا لم تكن مالكة لقلب أحدهم ٠ ولكن مادمت أنا مالكة لهم ملكا مطلقا فى يدى ، وما داموا قد أعطونى كل عقاراتهم ، فليس لى أن أبذل جهدا لارضائهم الا اذا كان ذلك فى مصلحتى ومن أجل راحتى ؟ وأقسم بايمانى أننى فرضت عليهم من الواجبات والأعمال ما جعلهم يصيحون « ياويلى ! » وانى واثقة أن فخذ الخنزير المدخنة لم تعط لهم كجائزة كما هى العادة عند أهل قرية دانمو فى مقاطعة اسكسى ! (★) ٠

وقد كنت أحكمهم على أحسن وجه ، وحسب قوانينى ، الى حد أن كلا منهم كان سعيدا للغاية ، وعلى استعداد دائما لاحضار هدايا جميلة من السوق ٠ وكم كانوا يفرحون اذا خاطبتهم بأسلوب مؤدب كنت دائما أوبخهم أشد توبيخ والله اعلم بذلك ٠

أيها الزوجات الحكيمات انصـــتن لى واعلمن كيف أحسنت التصرف اذا فهمتن ما أقول ٠ (١٧) عليكن أن تعاملنهم بالخداع وأن تعرفن أنه ليس هناك رجل يعرف كيف يكذب ويقسم اليمين الكاذبة ، كما تســـتطيع المرأة أن تفعل ذلك ٠ ولا أقصد بذلك الا أولئك الزوجات اللاتى لا يتبعن طريق الحكمة والحرص ولا يرعين مصالحهن على الوجه السليم ٠

ان الزوجة الحكيمة ، اذا عرفت مصلحتهـا ، تخدع زوجهـا وتقنعه « ان

(★) اشارة الى الجائزة التى تعطى للزوجين اللذين لم يتشاجرا طوال الســنة فى القرية المذكورة بالنص ٠

الطائر مجنون » كما يقول المثل* ويجب أن تأتمن وصيفتها على سرها وتجعلها شريكة لها • فانصتوا الى ما كنت أقوله لزوجي المسكين : « يا سيدى أيها الشيخ العبيط لماذا تسلك مثل هذا السلوك ! ولماذا تبدو زوجة جارنا بمثل هذا المظهر السعيد ؟ ان الكل يظهر لها الاحترام أينما تذهب ، أما أنا فلا أملك شيئا واحدا يسترنى • لماذا تذهب الى بيت جارنا ؟ أهى جميلة الى هذا الحد ؟ هل أنت عاشق لها الى هذا الحد ؟ بماذا تهمس فى أذن خادمتنا ؟ بارك الله فيك ! سـيدى أيها الداعر العجوز ، كفاك من هذه الحيل ! انى اذا كان لى صديق أو جليس أخاطبه بكل براءة فانك توبخنى كأنك الشيطان نفسه ، وبخاصة لو تمشيت قليلا فى اتجاه بيته • وعندما تعود الى البيت سـكران مثل الفأر الغارق ، تجلس على أريكتك وتعظنى ، داهية تأخـذك ! ثم تقول لى ان من السـوء بمكان أن يتزوج الرجل من امرأة فقيرة وذلك لكثرة نفقاتها • واذا كانت غنية ومن سلالة عريقة قلت ان من العذاب بمكان أن تتحمل كبرياءها وعبوسـها • واذا كانت جميلة ، أيها الشقى ، قلت ان كل داعر يطاردها فلا يمكن أن تظل سيدة عفيفة مدة طويلة، لأنها محاصرة من كل ناحية وأنت تقول ان بعض الناس يعشقنا من أجل ثرائنا، والبعض من أجل شكلنا الجميل ، والبعض من أجل رشاقتنا ، والبعض لأن المرأة تعرف كيف تغنى أو ترقص والبعض لأدبنـا أو لمغازلتنا ، والبعض من أجـل يد رقيقة وذراعين رشيقتين ، وهذا حسب روايتك ، هو الطريق الـذى يتبعه كل رجل ليذهب فى داهية • وأنت تقول ان الرجال لا يستطيعون أن يحموا أسـوار القلعة أمام الهجمات المتكررة ، وبخاصة اذا كانت عرضة للهجوم من كل ناحية ، طوال الوقت •

واذا كانت المرأة قبيحة قلت انها تشتهى كل رجل تراه فتقفز عليه كالكلب الأليف ، حتى تجد من يرضى بأن يتعامل معها • فلا يوجد أوز رمادى اللون فى البركة يرضى بأن يعيش من غير قرين • ويلاحظ أن من الصعوبة بمكان ، ضبط مالا يريد أحد أن يحتفظ به • أيها التعيس الشقى ، أنت تقول ذلك عندما تذهب الى فراشك ، كما تقول أيضا ان الرجل الحكيـم ليس فى حاجة الى أن يتزوج ، وهذا ينطبق بصفة خاصة على من يرفع نظراته الى السـموات القدسية • فلتقع عليك الصواعق والبرق ، لتقصف رقبتك الذابلة أيها الوغد الشقى ! انت تقول ان ثلاثة تدفع الرجل الى الفرار من بيته : السـقف الناضـح ودخـان المدخنـة والزوجة سليطة اللسان ! بارك الله فيك ! كيف يجرؤ مثل هذا الشيخ الهرم على أن يشكو ؟ أنت تقول اننا نحن الزوجـات يروق لنا أن نخفى عيوبنـا ، حتى نطمئن لفريستنا ، ثم نظهرها بعد ذلك ، ولا شك أن هذا هو مثل ينطبق على

(*) كناية الى قصة الطائر المتكلم الذى فتن على زوجة زانية الى زوجها التى أقسمت أن الطائر مجنون • وتأكيدا لذلك قامت بتقليد زوبعة الى جوار قفص الطائر ليلا حتى استيقظ زوجها ، وسمع الطائر يصيح أن العواصف على أشدها فصدق الزوج أن الطائر كاذب أو مجنون •

المرأة الشرسة السليطة ! أنت تقول ان البهائم والحمير والخيل وكلاب الصيد يجب اختبارها فى مواقيت مختلفة قبل شرائها ، وكذلك الحال بالنسبة لشراء الأحواض والأوانى والملاعق والكراسى وما اليها من ادوات المنزل ، والقمصان والأردية والأنسجة ، ومع ذلك فان الناس لا يختبرون الزوجات الا بعد الزواج منهن • آه منك أيها الشيخ الهرم المخرف العبيط ! وبعد ذلك تجرؤ على أن تقول اننا نظهر عيوبنا •

وكذلك تقول اننى لا أرضى الا بأن تمتدح جمالى باستمرار وبأن تتأمل فى وجهى وبأن تنادينى بلقب « أيتها السيدة الجميلة » فى كل مكان ، وبأن تقيم حفلا كبيرا فى يوم عيد ميلادى ، وبأن تجعلنى أشعر بأننى شابة ممتلئة بالحياة وأنت تقول أيضا اننى لا أرضى الا بأن تبجل وصيفتى وخادمتى فى حجرتى وأهل أبى وأنسباءه •• هكذا تتكلم أيها الشيخ •• أيها البرميل الممتلىء بالأكاذيب ! ومع كل ذلك فانك بدأت تشك فى مساعدك العامل تحت التمرين والمدعو « جانكين » ، لأن شعره مجعد وعليه بريق الذهب الخالص ، ولأنه يرافقنى فى غدوى ورواحى ، بيد أنك استسلمت لشك زائف خداع • فأنا لا أريد منه شيئا حتى لو لقيت حتفى غدا ! بل قل لى : لماذا تخفى مفاتيح خزانتك بعيدا عنى •• داهية تأخذك ! ان هذا ملكى بقدر ما هو ملكك بالله عليك ! أتريد أن تدخل الغفلة على زوجتك سيدة البيت ؟ أقسم بذلك الولى المسمى القديس يعقوب (١٨) أنك لن تكون مالكا لأموالى وجسدى فى آن واحد ، حتى لو دفعك ذلك الى الجنون ! عليك أن تتنازل عن أحدهما غصبا ، على الرغم من عينك اليقظة ! فليس لى أن أتجسس أو أن أراقبك ؟ ولا أشك فى أنك على استعداد لأن تحبسنى فى صندوق مالك لو استطعت ! لقد كان ينبغى أن تقول : « يا زوجتى اذهبى أنى شئت ! خذى راحتك فلن أسمح لكلام الناس أن يتسلل الى أذنى ، لأننى أعرف حق المعرفة أنك زوجة مخلصة يا سيدتى « أليس » •

والواقع أننا نحن الزوجات لا نحب الرجال الذين يراقبوننا ويحرسوننا ، أينما نذهب ، فنحن نحب حريتنا • وأقول أيضا : بركات الله (من بين كل الرجال) على السيد بطليموس الذى ذكر المثل الآتى فى كتابه «الماجستى» (١٩) : « أحكم الناس من يرضى بنصيبه ، ولا يعبأ بثروة غيره ، اذا زادت عن ثروته » فأنت تستطيع أن تدرك أنك اذا كنت تملك ما يكفيك فلن يهمك أبدا قدر ما يتمتع به غيرك من السعادة والهناء • أيها الشيخ الهرم اسمح لى بأن أصارحك وأقول انه كفاك ما تتمتع به من جماع فى الليل • ان من يمنع غيره من أن يشعل شمعته من قنديله لبخيل حقا ، وأقسم بالله أن اشعاله لشمعة الغير لن تضيع عليه نوره • أما أنت فلا مبرر لك لأن تجأر بالشكوى • وأنت تقول أيضا أننا اذا ارتدينا ثيابا أنيقة وحليات ثمينة عرضنا عفتنا للخطورة • ومع ذلك ، وليأخذك الشيطان ، لابد لك من أن تضع النقط على الحروف ، وأن تردد كلام

القديس الرسول (تموثادوس) (٢٠) الذى قال « ايها النســـاء ارتدين ثيابا منسوجة من العفة والحياء » ، ولا تتزين بالشعر المجدول ، وبالأحجار الكريمة ، ولا بالدر . ولا بالذهب ، ولا بالأنسجة المزركشة » وأنا لا أعطى بصلة لنصك المقدس أو للتفسير الذى تفسره به · انك تقول اننى أشبه القطة ·· ألا فاعرف اذن ان من يريد شـــياطة فرو القط يدعه يبقى فى البيت طوال اليوم دون أن يخرج · واذا كان فرو القطة أملسا ناعما لما بقيت نصف يوم داخل البيت ، بل انها تخرج منه قبل ظهور الفجر ، لتظهر جمال فروها ، بحثا عن عشيق لها · ومعنى ذلك أيها الوغد الدنىء أننى مصرة ان أخرج متى شـــئت لأظهر خيشى الصوفى لكل من أراد (★) · أيها الأحمق العجوز ما بالك تتجسس على ؟ ثق أنك حتى لو طلبت من « آرجوس » ذى المائة عين (٢١) أن يصبح حارسا لى بكل ما أوتى من خبرة فى ذلك الأمر ، فلن يستطيع أن يحبسنى رغم أنفى ، وأقسم على ذلك بايمانى · فأنا قادرة على ان أخدع من هو أكثر منه يقظة ! ·

وأنت تقول أيضا ان هناك أمورا ثلاثة تعلق العالم ، ولا يســـتطيع أى شخص أن يتحمل رابعها · (٢٢) أيها السيد الوغد العزيز قصر المسيح عمرك ! انك تخاطب الناس وتقول ان الزوجة الكريهة هى احدى هذه المصائب · أليس هناك اى نوع آخر من التمثيل ، حتى تلجأ الى ضرب مثـال الزوجة الضعيفة المغلوبة على أمرها ؟ وأنت كذلك تشبه حب المرأة بالجحيم وبالصحراء الرملية ، التى تمتص المياه الى جوفها · كما أنك تشبهه بالنار المتقدة فى عدة الحرب ، فالنار تشعل أعشاب التل ، وتحرق كل ما يمكن حرقه · وأنت تقول أيضا أن الزوجة تتلف زوجها كما تتلف الديدان جذع الشجرة ، وهـذا أمر معروف لدى جميع الأزواج » ·

أيها السادة هذه هى قصتى التى سمعتموها والتى رويتفيها كيف خدعت بمنتهى الجرأة أزواجى الشيوخ ، حتى انهم اشتكوا منى للجميع وهم سكارى ، ولكن كلامهم كان كذبا · وقد استشهدت عليهم بالعامل المســاعد « جانكن » وببنت أخى أيضا · رباه ! كم آذيتهما وأحزنتهما ، وهما بريئان وأقسم على ذلك بآلام الرب الحبيبة ! لقد كنت أصهل أو أعض مثل الحصان ، وفق ما يقتضيه الأمر · كنت أعرف كيف أشكو ولو كنت مخطئة · وكم من مرة كنت على وشك أن أبوح بسرى ، ولكن المثل يقول ان من يأتى الى الطاحون بأول كيس من الحب يطحن له كيسه قبل غيره · لذلك كنت أسبق زوجى بالشكوى ، وبذلك أمكن تجنب الخصام العائلى · وكان أزواجى فى غاية السعادة اذ كانوا يبرئون أنفسهم بسرعة من خطايا لم يرتكبوها قط طوال حياتهم · وكنت أتظاهر بأنى أظنهم عاشقين لخليلات مختلفات ، فى الوقت الذى كانوا لا يكادون يقفون على أقدامهم

(★) تورية بذيئة فى النص الانجليزى ·

الا بمشـــــقة بسبب المرض والشيخوخة . أما ذلك الزوج الشيخ فكنت أداعب قلبه بحمله على الاعتقاد ، بأننى كنت أحبه حبا عظيما . وكنت أقسم له أن خروجى من البيت ليلا كان للتجسس على الخليلات ، اللاتى كان يعشقهم . وقد أثار هذا العذر المفتعل فى نفسى ضحكا بالغا ، وبخاصة اذا لاحظت ما كنت أبلغه بالفطرة من ذكاء ولؤم فى التماسى الأعذار . لقد منحنا الله نحن النســاء مواهب ثلاث بالفطرة : القدرة على الخداع وعلى البكاء وعلى غزل الخيوط ، وهذه المواهب نتمتع بها طوال حياتنا .

لذلك كنت أفتخر دائما بأمر واحد هو أننى كنت أفوز فى النهاية بالتغلب على كل حيل أزواجى ، اما بالخداع أو بالقوة ، أو بأى طريق آخر مثل الشكوى المستمرة والتذمر . وأخص بالذكر أن أزواجى كانوا أشد ما يكونون تعاسة وهم معى فى الفراش . فهنـاك كنت أوبخهم وأرفض أن أوفر لهم كل متعة . واذا شعرت بذراع أحدهم يعانقنى فانى لا أرضى بالمكوث بجواره فى الفراش ، الا اذا دفع لى الفدية ، التى كنت أطلبها منه . وعندئذ فقط كنت أسمح له أن يأخذ متعته العليلة منى . لذلك أقول لكل انسان ينصت لى : « اغتنم فرصتك حيثما تستطيع ، فان كل شىء فى الدنيا له ثمنه » فالقناص الذى يكون صفر اليدين من أى اغراء لا يستطيع أن يغرى الباز بالعودة اليه . وكنت أتحمل شهواته فى سبيل المال ، وأفتعل الغنج ، الا أننى لم أشته أبدا طعم اللحم القديم ، الأمر الذى جعلنى أطاردهم دائما بالتوبيخ والشكوى . ولو كان بابا روما نفســـه زوجنى منهم ، لما أعتقهم فى داخل بيتهم . وأقسم بشرفى أننى كنت دائما أقابل الدقة بدقة مثلها . وأقسم أيضا بالله القادر على كل شىء أننى لو كتبت وصيتى الآن لما رددت لهم كلمة واحدة مما قالوه لى ، اذ أننى أبرأت ذمتى من كل كلامى لهم .

وقد استطعت بذكائى أن أجعلهم دائما يستسلمون ، والا ما عرفنا الراحة والسلام فى بيتنا . فحتى لو كان زوجى ينظر الى نظرات توحى بالأسد المفترس الغضـبان ، فان الأمر كان ينتهى دائما باستسلامه . وعندئـذ كنت أقول له : « يا حبيبى خذ بالك ، ولاحظ كيف يبدو خروفنا « ويلكن » هادئا أليفا وديعا ! اقترب منى يازوجى ودعنى أقبل وجنتك ! وعليك ان تكون صبورا وديعا وأن يكون ضميرك حريصا على أداء الواجب ، ما دمت دائما تعظ وتذكر صبر أيوب فى عظاتك . وعليك أن تصبر على الشقاء مادمت دائما تعظ بالصبر . فأنت لا يمكن أن تعيش فى سلام مع زوجتك ، الا اذا عملت بما أوصيت به . ولا شك أن أحدنا لابد أن ينحنى ، ومادام الرجل أكثر عقلا وحكمة من المراة فانه يجب أن يعانى بصبر أكثر منها . فما بالك دائما تزمجر ؟ هل السبب أنك تريد أن تتمتع بجسدى وحدك ؟ بالله ! خذه برمته ! خذه كله ! أقسم بالقديس بطرس أنك يجب ان تحبه حبا عميقا . واعرف أننى لو أردت أن أبيع « حلواى » لكان

فى وسعى أن أتمشى فى الدنيا بكل روعة الوردة ونضارتها . ومع ذلك فانى أحتفظ بجسدى لاطعامك أنت دون غيرك ، فما أشد شقاوتك ، وأنا ، بالله عليك ، أقول حقا ! » .. هذا هو الكلام الذى دار بيننا . أما الآن فانى أريد ان أتكلم عن زوجى الرابع .

كان زوجى الرابع « زئر نساء » ومعنى ذلك أنه كانت له خليلة . أما أنا فكنت شابة ممتلئة حيوية وشـــهوة وحرونا مرحة كالعصفورة . كم كان فى استطاعتى أن أرقص على نغمات قيثارة صغيرة ، وأن أغنى كالبلبل وبخاصة بعد ان أحتسى كأسا من النبيذ العذب ! وتحكى الرواية أن متيليوس (٢٣) الوغد الدنىء الخنزير قتل زوجتـه بضربها بالعصا ، لأنهــا كانت تشرب النبيذ . ولو كنت أنا زوجته لما اســتطاع أن يمنعنى من الشرب ! وبعد جلســة النبيذ كنت أفكر فى حيل فينوس الهة العشق ، فكما أن الصقيع يأتى بالبرد ، فكذلك الفم الجشـع لابد أن ينتهى بذيل (أى قضيب) نهم . ومن المعروف أن المرأة السكيرة لا تستطيع أن تحمى نفسها من الاغراء وهذا أمر يعرفه الداعرون من الرجال أحسن المعرفة (٢٤) . ومع ذلك ، بالسيد المســيح ، عندما أتذكر أيام شبابى ومرحى يتفتح قلبى للذكرى . ولكن العجز والشيخوخة التى تسمم كل شىء سلبتنى جمالى وحيويتى ، فدعهما يفران منى ولتأخذهما الراهبة ! لقد ذبلت الزهرة ، وانتهت القصة ، ولم يبق لى من الحب الا الردة ، التى سأحاول بيعها بقدر ما أستطيع . ولكنى سأحاول مع ذلك أن أكون مسلية ومرحة . والآن أروى لكم حقا قصة زوجى الرابع .

قلت لكم وأقول ثانية ان قلبى امتلأ غضـــبا لأنه كان يلتمس متعته لدى امرأة غيرى . ولكن القدر أنزل به عقابه بالله وبروح القديس «جودوكوس» (٢٥)! فاستطعت ــ كما يقول المثل ــ أن أصنع له صليبا من نفس الخشب الذى صلبنى عليه . والواقع أننى لم ارتكب جريمة الزنا ، ولم أدنس جسدى ، وانما كنت أسلك مع غيره سلوكا مغريا لطيفا ، الى حد أنه بدأ يتقلى في سمنه كما يقول المثل، وذلك لما كان يتملكه من الغضب والغيرة . وأقسم بالله أننى كنت بمثابة مطهر له (٢٦) على هــذه الأرض ، مما يجعلنى آمل أن تكون روحه الآن تتمتع بجنـات المجد والخلد . والله يعلم أنه كان يجلس بين الناس ، ويغنى متظاهرا بالمرح ، فى حين كان حذاؤه يؤلم قدمه بسبب ضغطى عليه ، ومات هذا الزوج بعد عودتى من الحج الى بيت المقدس ، وهو يرقد الآن فى مدفن تحت العتبة الحاملة للصليب فى الكنيسة . وعلى الرغم من أن مدفنه لم يكن مزخرفا ورائعا مثل مدفن ذلك المدعو « دارا » (ملك الفرس) ، الذى أحســن صـنعه المثال « أبيليز » (٢٧) فالواقع أنه كان من الاسراف الأحمق أن أشرف على دفنه دفنــا يكلفنى كثيرا . وداعا له ، وليهب الله روحه الراحة الأبدية ! فهو الآن راقد فى قبره وتابوته .

والآن سأحدثكم عن زوجى الخامس ، منع الله روحه من النزول الى جهنم !

والواقع أنه كان أشد أزواجي قسوة ! ومع ذلك فانني كنت أحبه من أعماق قلبي وبين ضلوعي ، واحدا بعد الآخر ، وسوف أظل احبه حتى يوم هلاكي ٠ وكان سلوكه معي في الفراش مرحا عذبا ، وكان يعرف جيدا كيف يداعبني ويداهنني ، وعندما يريد أن يتمتع « بحلواى » ، الى حد أنه حتى لو ضربني في كل عظمة من جسدى ، فان في وسعه ، مع ذلك ، أن يسترد حبي وعشقي بعد قليل ٠ وأقسم أنني أحببته أكثر من غيره لأنه كان دائما أنفا يصعب ارضاؤه كعاشق لى ٠ ونحن النساء (والله شاهد على أنني صادقة) لنا نزوات عجيبة فى مثل هذه الأمور ، فأى شيء لا نستطيع أن نحصل عليه بسهولة نتوق له باستمرار ، ونبكي حنينا له طوال النهار ٠ ويكفى أن تمنعوا عنا شيئا ، حتى نتودد اليه ٠ ويكفيكم أن تطاردونا حتى نفر هربا ٠ ونتظاهر بأننا متمنعات غير راغبات ، ونحن نعرض طفرة واحدة كل ما نملكه من البضائع للبيع ٠ والمثل يقول ان الثمن يكون غاليا كلما زاد عدد المشترين في السوق وأية سلعة يمكن اعتبارها « لقطة » ، يعدها الناس رخيصة للغاية ٠ وهذه أمور تعرفها كل النساء اذا كن حكيمات ٠

أما زوجي السادس (بارك الله فى روحه) ، الذى أخذته عن حب ، لا سعيا وراء الغنى ، فكان فى وقت ما طالب علم فى جامعة أكسفورد ٠ وقد ترك دراسته وذهب ليقيم عند احدى صديقاتي الحميمات في مدينتنا ، وكان اسمها أليسون رحم الله روحها ٠ وكانت تعرف كل خبايا قلبي وكل أسرارى أكثر من قسيس كنيستنا ، الذى يسمع اعترافاتي ٠ فقد أطلعتها على كل أسرارى ٠ فلو تبول زوجي على الجدار أو ارتكب أمرا اذا قد يودى بحياته لأسررت لها بذلك ولامرأة أخرى (وهى سيدة محترمة للغاية) ولبنت أخي ، التي كنت أحبها حبا عميقا ، كما أنني كنت مستعدة أن أفشى كل أسراره الى هؤلاء ٠ وذلك ما كنت اقوم به فعلا والله عالم بذلك ٠ وهذا ما كان أحيانا يجعل زوجي يحمر وجهه خجلا ، ويتصبب عرقا ويؤنب نفسه ، لأنه ائتمنني على أخص أسراره ٠

وحدث ذات يوم فى شهر الصوم الكبير (فكم كنت أحب أن أذهب لزيارة صديقتي ، وان أكون مرحة ، وأن أتمشى فى أشهر مارس وابريل ومايو من بيت لبيت لأسمع أحاديث الناس المختلفة) أقول حدث أن ذهب الشاب العالم « جانكين » وصديقتي السيدة أليس وأنا نفسى الى الحقول ، للترويح قليلا عن نفوسنا ٠ وكان زوجي فى لندن فى أثناء شهر الصوم ذاك ، ومن ثم كان أمامى مزيد من الوقت للهو ولرؤية الناس المرحة ، ولأن يرونى بدورى ٠ وأنى لى أن أعرف ما كان يخبئه لى القدر ، أو ما ينتظرنى من لطف المولى ؟ ولذلك كنت أقوم بزيارة الموالد والسير فى المواكب الدينية ، كما كنت أحضر العظات وأؤدى فروض الحج وأحضر المسرحيات الدينية وحفلات الزواج فى الكنيسة ، مرتدية أجمل ملابسى الحمراء (٢٨) ٠ فتأكدوا أن العثة والسوسة لم تأكلا ثيابى ، لأنني

كنت أرتديها كثيرا • أتفهمون ما أعنيه ؟ والآن أروى لكم ما حدث لى • أقول اذن اننا تريضنا فى الحقول ، وبعد قليل أخذنا هذا العالم الشاب يداعبنى ، ويتودد الى حتى ساد بيننا جو المغازلة • وقلت له اننى لو قدر لى أن أصبح أرملة فانى أود أن أتزوجه ، وقلت له ذلك ، وكأننى كنت أتكهن بالمستقبل ، واننى ــ والحق يقال دون تفاخر ــ لم أترك نفسى أبدا دون تفكير فى نصيبى فى المستقبل ، من حيث الزواج ، ومن حيث أمور أخرى أيضا • فأنا أعتبر قلب الفأر الذى لا يعرف الا جحرا واحدا يلجأ اليه ، لا يساوى بصلة أو كراثة ، لأنه اذا لم يجد هــذا الجحر يكون أمره قد انتهى تماما • وقد جعلته يعتقد أنه كان قد فتننى وأغرانى والحق أن السـيدة صديقتى كانت قد علمتنى هــذه الحيلة البارعة الرقيقة • وقلت له أيضا اننى كنت أحلم به طوال الليل ، ورأيت فى المنام أنه جاءنى ، وأنا راقدة وهاجمنى بغية قتلى ، وأن فراشى كان غارقا فى الدماء • ومع ذلك فأملى كله (كما قلت له) أن هذا الحلم يبشر بالخير بالنسـبة لى ، لأن الدماء فى المنام كناية عن الذهب والرخاء ، وهذا ما تعلمته من الناس • والواقع أن كل ذلك من اختراع خيالى اذ أنى لم أحلم بشىء من ذلك ، ولكننى كنت دائما أتمشى مع نصح صديقتى وارشادها ، فاتبعتها فى ذلك وفى أمور أخرى شتى •

والآن يا سيدى دعنى أفكر فيما أقصه عليك بعد ذلك ؟ آه ، الحمد لله ، تذكرت ، وها أنذا أعود الى قصتى من جديد •

لما رقد زوجى الرابع على تابوته بكيت بدون انقطاع ، وأظهرت تعاســة حالى ، وأعربت عن حزنى العميق بسلوكى ، كما جرت العادة والواجب بالنسبة للزوجات المترملات • وسترت وجهى بالطرحة ، ولكن بما أننى كنت قد أعددت لنفسى زوجا جديدا ، فانى لم أبك فى الواقع الا قليلا ، وهذا هو الحق الذى يجب أن أقوله •

وفى اليوم التالى حمل زوجى المتوفى الى الكنيسـة على أكتــاف جيرانه ، الذين بكوا عليه وكان « جانكن » عالمنا الشاب أحد هؤلاء • والله يشهد على ذلك ! ولما رأيته يمشى وراء التابوت تطلعت الى رجليه وقدميه فوجدتهما على درجة كبيرة من الرشاقة والجمال ، فاستسلم قلبى كله لقبضته فى ذلك الحين • واعتقد أنه قد قضى عشرين شتاء من العمر ، أما أنا فكان عمرى أربعين سنة لو اعترفت بحقيقة الأمر • ومع ذلك فان شهواتى ورغباتى كانت لا تزال حادة وشــديدة كالمهر الأبى • وكانت أسنانى منفرجة بعضها عن بعض ، وكان ذلك مما يناسبنى للغاية • وقد ختمت بخاتم فينوس الهة الحب المقدسة ، والله يشهد لى أننى كنت امرأة لطيفة قوية بشــوشــة ، وكنت كذلك جميلة وغنية وشابة ومزودة بميراث لا بأس به ، وكان عندى والحق يقال ، كما شهد بذلك أزواجى أجمعون ، خير شىء لزوم الشىء كمــا يمكن أن يكــون • فأنا حقيقة تحت تأثير فينوس

(أو كوكبة الزهرة) فيما يتعلق بخلقي الوجداني ، أما فؤادي فهو من أتباع المريخ • (٢٩) فقد منحتني فينوس شهوتي الجنسية البالغة وشبقي ، أما المريخ فقد أعطاني صلابتي وعافيتي • وكان طالعي في برج الثور وفيه المريخ • فويح للقدر الذي جعل من العشق خطيئة ! وقد انقدت دائما لميولي الطبيعة ، وذلك نتيجة للبرج الفلكي ، الذي ولدت تحت طالعه • وهذا الأمر هو الذي حال دون حرماني شابا قويا من الاتيان الى حجرة فينوس في جسدي • ومع ذلك فانني أحمل علامة المريخ في وجهي ، وأيضا في مكان خاص في جزء آخر من جسمي • والله أعلم أني مهما قدر لي من خلاص أبدي أو عدمه ، فاني لم أحاول أبدا أن أكون حذرة أو حريصة في عشقي ، بل كنت دائما أنقاد لشهواتي ، مهما كان عشيقي قصيرا أو طويلا أو أسود أو أبيض • ولم أعبأ بما اذا كان فقيرا ، أو بدرجته الاجتماعية ما دام يروق لي •

* * *

فماذا أقول الآن كل ما في الأمر أن هذا العالم الشاب « جانكن » الوجيه المؤدب تزوج مني في حفل رائع • وسلمت اليه كل الأرض والأموال التي كنت قد ورثتها من قبل ، ولكنني ندمت على ذلك فيما أشد الندم ، اذ لم يسمح لي بأن آخذ أي شيء مما كنت أبتغيه ، والله ! وقد لطمني مرة على أذني ، لأنني مزقت صفحة من أحد كتبه ، مما أدى الى أن أصبح صماء لا أسمع باحدى أذني • ومع ذلك فاني كنت عنيدة مثل اللبؤة ، وثرثارة الى حد عدم الانقطاع عن الكلام • وصممت أن أخرج من البيت ، كما كنت أفعل من قبل ، وأن أزور الناس في بيوتهم ، على الرغم من أنه كان قد حلف ألا يسمح لي بذلك • وكان كثيرا ما يعظني بتلاوة ما قرأه في كتب القصص المأخوذة من التاريخ الروماني القديم (٣٠) ، كما روى لي قصة ذلك الروماني المدعو « سمبلكيوس جالوس » ، الذي هجر زوجته وتركه حتى آخر يوم من أيام عمره لمجرد أنه وجدها ذات يوم ورأسها مكشوف ، واقفة عند باب البيت • وذكر لي اسم رجل روماني آخر هجر زوجته أيضا ، لأنها حضرت مولد الصيف دون اذن منه • وكان كثيرا ما يفتح الكتاب المقدس باحثا عن تلك الآية في سفر الجامعة (٣١) ، حيث يحرم على الزوجة أن تذهب هنا أو هناك دون اذن من زوجها • وكان أحيانا يخاطبني على النحو الآتي قائلا : « من شيد بيته من فروع الصفصاف ، أو دفع جواده الأعمى ليرمح على الأرض البور ، أو سمح لزوجته أن تسافر لزيارة مقابر الأولياء ، فهو جدير بأن يعلق على المشنقة ! » • ولكن كلامه هذا كان بدون جدوى ، اذ لم أعبأ به قط ، ولم أعط بصلة لأمثاله وحكمه ، ولم أرض بحال من الأحوال أن أدعه يعاقبني على ما أفعله • فأنا أكره من يحكي لي عيوبي ، وهذه هي سنة أغلب الناس ، وليست سنتي أنا وحدي • وقد حمله كل ذلك على أن يغضب مني غضبا شديدا • وعلى أية حال ، فاني لم أستطع بحال من الأحوال أن أخضع لارادته •

والآن أقسم بالقديس توما أننى سأقول لكم بحق لماذا مزقت صفحة من كتابه ، الأمر الذى أدى الى لطمي على أذنى فأصبحت صماء • لقد كان لديه كتاب يقرأه من أجل التسلية ليلا ونهارا وكان يسمى هذا الكتاب فاليريوس وثيوفراستوس (+) وكان دائما ينفجر ضاحكا كلما قرأهما • وكان هناك أيضا كاهن فى روما وصل الى رتبة الكاردينال ، واسمه القديس بروتيموس وقد ألف كتابا اسمه فى هجاء جوفينيانوس ، وكان فى المجلد نفسه بحوث لتيرتوليانوس وكريزيبوس وتروتولا وهيلويزا ، التى أصبحت رئيسة دير بالقرب من باريس وأيضا حكم سليمان وقصيدة « فن الهوى » لأوفيد وكتب أخرى كثيرة وكانت كلها مجلدة فى كتاب واحد (٣٢) • وكانت عادته كل مساء أو كل نهار ، اذا أتيحت له الفرصة وكان خاليا من واجباته الدنيوية ، أن يقرأ فى هذا الكتاب قصص الزوجات الخائنات السيئات • وكان يحفظ عن أمثال هؤلاء الزوجات عددا من القصص والنوادر أكبر من تلك التى تحكى حياة الزوجات الفاضلات فى الكتاب المقدس •

وثقوا أن من الأمور المستحيلة أن يقول أى طالب علم شيئا خيرا عن النساء الا اذا كن من القديسات ، أما غيرهن من النساء فانه لا يمتدحهن أبدا • قولوا لى أيها الناس من الذى مثل الأسد فى تمثال (★) والله العظيم ، لو كتبت النساء قصصا كما كتب طلاب العلم فى أديرتهم لوصفن الرجال بكم من السوء والشر يفوق كل ما يستطيع أولاد آدم أن يكفروا عنه طوال تاريخ البشرية • ان من يولدون تحت طالع ميركوريوس وفينوس (الزهرة) يختلفون تماما فى سلوكهم وفى نظرتهم للحياة • فأهل ميركوريوس يحبون العلم والحكمة ، أما أهل فينوس فيحبون اللهو والمجون • وبسبب طبائعهم المختلفة ينخفض أحدهم اذا صعد طالع الآخر • لذلك ، والله أعلم بذلك ، يكون ميركوريوس تعيسا فى برج السمك عندما تمجد فينوس فيه • واذا رفع شأن ميركوريوس هبطت فينوس (٣٣) • ولذلك لا يمكن أن تنتظر أية امرأة أن يمتدحها أى طالب علم • والمعروف أن العالم ، اذا شاخ وعجز عن أداء عمل الالهة فينوس (٣٤) ولم يستطع أن يقوم بأكثر مما يستطيع ذلك حذاؤه القديم ، جلس وهو فى شيخوخته الهرمة ، وكتب أن النساء عاجزات عن حماية الرابطة الزوجية •

والآن لنعد الى أصل قصتنا لأفسر لكم سبب ضربى من أجل مجرد كتاب يا الهى ! فى ليلة من الليالى كان « جانكن » هذا ، وهو سيد البيت يقرأ فى كتابه ، وهو جالس بجوار المدفأة ، يروى لى أولا قصة حواء ، التى من أجل

(+) اشارة الى كتابين فى هجاء الزواج والنساء باللاتينية أولهما لوالترماب وثانيهما لثيوفراستوس • وفيما بعد يذكر تشوسر عددا من الكتب فى هجاء النساء والزواج •

(★) اشارة الى قصة الحيوان التى كتبها ايزوب حيث حكى أن مثالا صنع تمثالا لرجل يخضع أسد افاشتكي الأسد وقال انه يذكر حالات كثيرة أخضع فيها الأسد الرجل •

رذائلها دفعت الانسانية الى التعاسة ، الأمر الذى أدى الى أن يسوع المسيح نفسه قتل ، وافتدانا بدمه السائل من قلبه . وهنا تجدون اشارة صريحة الى أن المرأة كانت سبب ضياع الانسانية بأسرها . ثم قرأ لى قصة شمشون ، وكيف فقد شعر رأسه : فبينما كان نائما قصت عشيقته شعره بالمقص ، فأدت هذه الخيانة الى فقد بصر عينيه . ثم قرأ لى بعد ذلك فصلا عن هرقل وزوجته ديانيرا (٣٥) التى كانت سببا فى أن يشعل النار فى نفسه . ولم ينس أن يروى لى كل ما عاناه سقراط من شقاء مع زوجتيه (٣٦) ، فقد سكبت اكسانثيبا اناء من البول فوق رأسه ، فظل هذا الرجل المستضعف فى مكانه كأنه جثة هامدة . وبعد ذلك مسح رأسه ، ولم يجرؤ أن يقول أكثر من هذه الكلمات : « لابد من المطر قبل انفجار الرعد » . وكان زوجى تروق له قصة بازيفاى (٣٧) التى كانت فى وقت ما ملكة لجزيرة كريت ، وقد امتدح لؤمها الذى .. ولكن بئس كل ذلك وكفانا حديثا عن هذا لأنه أمر كريه فظيع ، وبخاصة شهوتها الشاذة وحبها الوحشى .

وقرأ بمزيد من الاهتمام قصة كليتمنسترا (٣٨) ، التى تسببت فى موت زوجها نتيجة لشهوتها الراعدة . وقص لى أيضا كيف أن مفيوركس فقد حياته فى طيبة ومناسبة ذلك .

وكان زوجى هذا يحكى لى حكاية اريفيلى زوجة أمفيوركس التى أسرت الى جيش الاغريق بمخبأ زوجها ، مما أدى الى مصير بائس فى طيبة .

وروى لى أيضا قصة ليفيا وقصة لوسيا وكيف تسببتا فى هلاك زوجيهما ، احداهما حبا فى زوجها والثانية كرها فيه . ففى ساعة متأخرة من الليل سممت ليفيا زوجها لأنها كانت عدوة له . أما لوسيا الشهوانية فكانت تعشق زوجها ، لدرجة أنها أعطته نوعا من الشراب المثير للعشق ، حتى يفكر فيها باستمرار ، ونتج عن ذلك أنه مات مسموما قبل طلوع النهار . وهكذا الأزواج يتعرضون دائما للمصائب والمآسى .

ثم روى لى كيف أن شخصا يدعى لاتوميوس (٣٩) قد اشتكى لصديقه المدعو آريوس أن فى حديقته شجرة ، قال ان زوجاته الثلاث شنقن أنفسهن ، بسبب ما اعتراهن من حزن عميق فى قلوبهن مشوب بالمرارة . فقال له آريوس : « أيها الأخ العزيز أعطنى عقلة من هذه الشجرة المباركة لأزرعها فى حديقتى أنا » .

وبعد قليل أخذ يقرأ عن زوجات بعضهن قتلن أزواجهن فى فراشهن ، بينما كان عاشقوهن يجامعونهن بشهوة جامحة طوال الليل ، أمام جثث الأزواج الهامدة . وأدخلت احداهن المسامير فى مخ الزوج أثناء نومه وبذلك قتلته . وأخرى قدمت لزوجها السم فى شرابه . وكان زوجى يتحدث عن مساوىء

الزوجات ، وكان وصفه يفوق الخيال ، وكان أيضا يعرف فى هذا الموضوع عددا من الحكم والأمثال ، يفوق عدد الأعشاب على وجه الأرض ٠ وكان يقول : « خير لك أن تعايش أسدا مفترسا من أن تعيش مع امرأة ثرثارة مزمجرة » ٠ كما قال أيضا : « خير لك أن تسكن عوارض السقف من أن تعيش فى صحن البيت مع امرأة غاضبة ٠ ان فيهن من الشر والقدرة على الخلاف والنقد ما يجعلهن يكرهن أى شىء يضفى بعض السرور على أزواجهن » ٠ وكان يقول أيضا : « ان المرأة تطرح عفتها مع ثوبها » ٠٠ وبالاضافة الى ذلك كان يقول : « ان المرأة الجميلة ، حتى لو كانت مثالا للعفة ، كقرط من الذهب فى أنف الخنزيرة » (٤٠)

فمن منكم يستطيع أن يتصور مدى ما كان يسود قلبى من حزن وأسى ؟ ٠

ولما لاحظت أنه لم ينقطع عن القراءة فى هذا الكتاب اللعين طوال الليل ، نهضت فجأة ، ومزقت ثلاث صفحات من الكتاب الذى كان يقرأ فيه أثناء قراءته ، كما أننى لطمته لطمة على وجنته بقبضة يدى ، فوقع الى الوراء فى موقد النار ٠ فنهض كالأسد المجنون ، وضربنى على رأسى بقبضة يده فارتميت على الأرض كأننى ميتة ٠ ولما رأى أننى راقدة كالجثة الهامدة تملكه الذعر ، وهب ليفر ، ولكننى أفقت بعد قليل من حالة اغمائى هذه ، وصحت قائلة : « أيها اللص الغدار ، هل قتلتنى ؟ هل اغتلتنى لتحصل على الأراضى التى أملكها ؟ ولكنى مع ذلك مصممة على أن أقبلك قبل أن أموت ٠٠ » ٠ فاقترب منى وركع بجانبى وقال : « يا أختى الحبيبة أليسون ، لن أضربك ثانية بعد اليوم والله شاهد على ذلك ٠ ان ما فعلته اليوم ذنبك أنت ، ولكن أرجوك ، سامحينى ! » ٠ ولكنى ضربته فجأة على وجنته وقلت : « هذا بداية ثأرى أيها اللص ٠ والآن سأموت ولن أستطيع أن أتكلم بعد ذلك » ٠ ولكننا اتفقنا فى نهاية الأمر على أن تسير الأمور على ما يأتى : أن يعطينى السلطة المطلقة وزمام الأمور فى ادارة بيتى والأراضى التى كنت أملكها ، وأن يسلمنى سلطة الأمر والنهى على لسانه وعلى يده ، كما أجبرته على أن يحرق كتابه فى الحال ٠ ولما نجحت فى أن أحتكر زمام الأمر فى يدى بمهارة وبالبرهان على تفوقى ، قال لى : « يا زوجتى المخلصة الحبيبة اعملى ما تشائين طوال عمرك ، وعليك أن تصونى شرفك وعصمتك ، وأن تحافظى على مكانتى فى المجتمع » ٠ ولم نختلف بعد ذلك اليوم أبدا ٠ والله يشهد أننى ، منذ ذلك اليوم سلكت معه سلوكا طبيعيا ، مثل أية زوجة أخرى فى الدنيا من الدانمرك الى أقصى الهند ، كما كنت دائما مخلصة له ، وكان هو أيضا بدوره مخلصا لى ٠ وانى أتوسل الى الله المتربع على عرشه أن يبارك روحه برحماته العزيزة ٠ أما الآن فسأروى لكم قصتى لو قبلتم أن تنصتوا الى » ٠

فضحك الراهب لما سمع كل ذلك وقال : « والآن يا سيدتى تأكدى أننى بقدر ما أبغى الغبطة فى الدنيا ألاحظ أن هذه مقدمة طويلة جدا لقصة تروى ! » ٠ ولما سمع محضر المحكمة صياح الراهب قال بدوره : « ها أنذا أحلق

بذراعي رحمة الله ! اني ألاحظ أن الرهبان دائمو التدخل فيما لا يعنيهم · انصتوا يا ناس يا أولاد الحلال ·· ان الراهب كالذبابة ، ينقض على كل طبق من الطعام أو أى أمر يطرح للنقاش · لماذا تحدثنا عن فن صياغة المقدمات ؟ يا لله اغرب عن وجوهنا ، اجمح أو اسكت ، واجلس فى مكانك ! فأنت تعطل متعتنا بكلامك الفاضى ! » ·

فقال الراهب : « هكذا اذن ! أهذا ما تريده أيها المحضر المحترم ؟ أقسم بايمانى أننى ، قبل رحيلى عن هذه الرفقة ، سأروى قصة أو اثنتين عن محضر مثلك تجعل الناس جميعا يضحكون ويمزحون » فقاطعه المحضر وقال : « اللعنة على وجهك ، واللعنة على وجهى أنا اذا لم أرو قصة أو اثنتين أو ثلاثا تخص الرهبان ، قبل أن يصل موكبنا الى مدينة « سيتنجبورن (٤١) وما أقوله سيملأ قلبك بالحزن ، لأننى ألاحظ أن صبرك كاد ينفد » ·

فصاح لضيفنا عندئذ قائلا : « التزموا بالسلام فى الحال ! » واستطرد قائلا : « دعوا المرأة تروى قصتها · انكم الآن تسلكون سلوك من ثمل بالجعة · فبالله يا سيدتى قصى علينا حكايتك هذا خير لنا جميعا » ·

فأجابت قائلة : « تحت أمرك يا سيدى سأفعل ما تشاء ، لو سمح لى هذا الراهب المحترم بذلك » · فقال لها الراهب : « نعم يا سيدتى ، استمرى وسأنصت أنا اليك » ·

حكاية امرأة باث

في قديم الزمان لما كان الملك آرثر يحكم هذه البلاد ، وهو ذلك الملك الذى يذكره أهل بريطانيا باكبار واجلال ، كان أهل الجن يسكنون فى كل ركن من أركان هذه البلاد · وكانت ملكة الجان ترقص مع رفقتها فى كثير من المروج الخضراء · وهذا ما كان سائرا بين الناس ، على ما أعرف ، وأنا بالطبع أتكلم عن مدة ماضية منذ مئات السنين · أما اليوم فلا يستطيع أحد أن يرى الجان أو ما شابهم ، وذلك بسبب المحبة الفائضة التى ينشرها الرهبان المرخصون بين الناس وصلواتهم وصلوات غيرهم من الرهبان الأتقياء ، الذين يزورون كل أنحاء الأرض وكل وديان الأنهار ، زاحمين الدنيا كذرات التراب فى شعاع من الشمس ، وهم يباركون ويطهرون بصلواتهم البيوت والحجرات والمطابخ والمخادع والمدن والقرى والقلاع والأبراج العالية والعزب والحظائر ومعامل الألبان — فبفضل كل هذا لم يبق أحد من أهل الجن والجان ·

وفى مكان ، كان يتردد عليه الجن فيما سبق ، كان الراهب المرخص نفسه يتمشى بعد الظهر وصباحا ، وأثناء ذلك كان يردد صلاة الفجر وغيرها من

الصلوات الأخرى ، وهو يطوف بالمنطقة ، التى كان مرخصا له فيها بأن يشحذ في سبيل عيشه . ونتيجة لذلك تستطيع النساء الآن أن يتريضن كيفما شئن (٤٣) ، فى كل مكان دون أن يمسهن أذى . ولا يجدون فى الشجيرة ولا تحت الشجرة أى عفريت (٤٤) سوى الراهب نفسه ، وهو لا يرضى لنفسه الا أن يدنس شرفهن .

وحدث أن كان الملك آرثر يؤوى فى بيته شابا أعزب لطيفا جاء يوما من الأيام الى قصره ممتطيا جوادا وهو قادم من جهة النهر . وبينما كان يسير راكبا وحده رأى أمامه فتاة راكبة جوادا . وبعد قليل هتك عرض هذه الفتاة بالقوة ، على الرغم من مقاومتها له . ونتج عن هذا الظلم أن ارتفع الصياح الى أعلى سقف القصر ، واتجه الشاكون الى الملك آرثر فقضى على الفارس بالاعدام ، وفق ما يقضى به القانون ، وكان مقضيا عليه بأن يضرب عنقه (وبهذه المناسبة هذا ما كانت تقضى به القوانين وقتذاك) . ومع ذلك فان الملكة وكثيرا من سيدات القصر توسلن لدى الملك أن يعفو عنه ، فأصدر الملك قرار العفو فى الحال ، وسلمه للملكة قائلا انه الآن تحت أمرها وتستطيع أن تفعل به ما تشاء ، فاما أن تسلمه واما أن تقضى بهلاكه .

فشكرت الملكة بكل قوة ، وتحدثت بعد ذلك مع الفارس عندما رأته قائلة : « انك الآن ماثل أمامى ، ولكن حالك لا يدل تماما على الاطمئنان . أنا مستعدة أن أهبك الحياة لو استطعت أن تقول لى ما هو الأمر الذى تعشقه النساء أكثر من غيره . خذ بالله اذن ، واحترس واحم عنقك من الحديد ! واذا كنت لا تستطيع أن تجيب على فى الحال ، فانى أسمح لك أن تغادر قصرنا لمدة اثنى عشر شهرا ويوما واحدا ، لكى تبحث عن اجابة مناسبة لهذا السؤال . وآمر أيضا بأن تضمن لى ، قبل مغادرتك ، أن تسلمنى نفسك فى آخر المدة (٤٥)

فحزن الفارس وتنهد يأسا وتعاسة . ولكنه لم يكن حرا فى الاختيار فى هذا الأمر . وفى النهاية قرر أن يسافر ثم يعود ثانية بعد انتهاء مدة السنة حاملا معه الاجابة ، التى قد يمنحها الله سبحانه وتعالى . واستأذن من الملكة وشق طريقه بعد ذلك . وبحث فى كل بيت وفى كل مكان ملتمسا الأمل فى الفرج ، حتى يعرف ما الذى تعشقه النساء فوق كل شىء ، ولكنه لم ينجح بحال من الأحوال فى أن يجد امرأتين تتفقان فى الرأى على ذلك الأمر . اذ قال البعض ان النساء يفضلن الغنى ، والبعض قال المنزلة المشرفة ، والبعض قال الحب والمرح ، والبعض قال الثياب المزركشة ، والبعض قال العشق فى الفراش وكثرة الزواج وكثرة الترمل . وقال البعض الآخر اننا نحن النساء نسعد ونشعر براحة نفسية اذا حاول الناس معنا تجربة المداهنة والنفاق . ولا شك أن من قال ذلك قد اقترب جدا من الحقيقة ، وأشهد صادقة على ذلك . فالرجل يقهرنا قهرا

شديدا بالنفاق والمداعبة والتردد الكثير علينا والرعاية المستمرة لنا والخدمة ، فهكذا يمكن اقتناصنا مهما صعدنا فى الدرجة الاجتماعية أو هبطنا ٠

ويقول البعض اننا نفضل أن نتمتع بحريتنا وأن نفعل ما نشاء وألا يوبخنا أى رجل لعيب فينا أو لسلوك نؤاخذ عليه ، كما يجب أن يردد دائما أننا حكيمات وبعيدات كل البعد عن السذاجة ٠ اذ أنه ، والحق يقال ، لا توجد واحدة منا اذا حك جرحها لا تنفجر بالضرب غضبا ، اذ تقال لنا الحقيقة ٠ فجربونا وستجدون أن هذا هو ما يحدث بالفعل ، لأننا ، مهما كنا رذلات سيئات فى قلوبنا ، فاننا نريد دائما أن يعتبرنا الناس حكيمات وحريصات مطهرات عن الرذيلة ٠ ويقول البعض اننا نسعد جدا اذا اعتبرنا مخلصات حصيفات ، ونسعد أيضا اذا اعتبرنا ممن تصمدن فى مكانهن ، ولا ينحرفن عن هدفهن ، ولا يكشفن عن سر يعهد به اليهن ٠ ولكن هذا الكلام كله لا يساوى مقبض جاروف ! والله العظيم نحن النساء لا نستطيع أن نكتم أى سر ، كما تشـــهد بذلك قصـــة ميداس ـ أتريدون أن تسمعوا هذه القصة ؟

روى الشاعر أوفيد (٤٦) ، بين ما روى ، أن ميداس كان عنده تحت شعره الطويل أذنان حماريان ينموان فوق رأسه ٠ وكان يحاول دائما أن يخفى هذا العيب بقدر ما يستطيع ، وذلك باخفائهما من أنظار الناس ، وذلك فيما عدا زوجته ، حتى أنه لم يكن هناك من يعرف سره سوى زوجته ٠ وكان يحبها فوق كل البشر ويثق فيها ثقة تامة ، فرجاها ألا تفشى سر تشويهه الى أى أحد من البشر ٠ فحلفت له ألا تفشى سره اذ أنها لا ترضى لنفسها (ولا فى سبيل كل ما فى الدنيا) أن ترتكب خيانة أو خطيئة تؤدى الى تشويه سمعة زوجها ٠ ولا ترضى أن تتكلم لسبب آخر هو شعورها هى بالعار ٠ ومع ذلك فانها شعرت بأنها ستموت لأن السر كان يثقل على صدرها ثقلا مؤلما ٠ وكان التفكير فى سرها يطوف بقلبها ، حتى أصبح من المحتم أن يتشرب من فمها شىء مما تعرفه وبما أنها لم ترض أن تفشى سرها لأحد من البشر ، فانها أخذت تجرى نحو مستنقع ، ولما وصلت هناك اشتعل قلبها تأثرا ٠ وهناك أصبحت كالطائر الأنيس ، عندما يعج ويصيح ، وهو يمشى فى المستنقعات ، فأطبقت فمها على سطح الماء وهمست : « لا تكشف أمرى أيها الماء بخريرك ، فسوف أبوح لك بالسر ولن أقوله لأحد غيرك : ان زوجى له أذنان حماريان طويلان ! هذا هو سرى الذى بحت به ، وقد أصبح الآن قلبى مرتاحا ، اذ لم يكن فى وسعى كتمان سرى بعد ذلك » ٠

وبهذه القصة ترون أننا نحن النساء يمكننا أن نصبر قليلا ، ولكن سرنا لابد أن يتسرب منا فى النهايـــة ، فلا نســـتطيع أن نكتم أية فكـــرة تدور فى صدورنا ٠ واذا كنتم تريدون معرفة بقية القصة فاقرأوا كتاب أوفيد فهنـــاك تجدون ما تريدونه ٠

أما هذا الفارس الذى أتكلم عنه ، فانه عندما رأى أنه لن يصل الى اكتشاف

ما يريــده ، ألا وهو ما تبتغيه المرأة فوق كل شيء في الدنيا ، أصبح مكتئبا للغاية . ولكنه اتخذ طريقه عائدا ، لأنه كان مضطرا الى أن يعود اذ أن موعده كان قد حان . وأثناء سيره وقلبه على هذا النحو مفعم بالتعاسة ، حدث أن سار بجوار غابة ، فرأى مجموعة من أربعة وعشرين فتـاة أو أكثر ، يرقصـن في دائرة (٤٧) . فاتجه باهتمام واضح نحو الراقصات ، أملا منه في أن يعرف شيئا عما يدور أمامه . ولكن ما كاد يقترب من دائرة الراقصات ، حتى اختفين في الحال ، ولم يعرف الى أين ذهبن . وتلفت فلم ير كائنا حيا في أي بقعة من المرج ، ولكنه بعد قليل رأى امرأة عجوزا جالسة ولم يشهد أحد قط كائنا أقبح من تلك المرأة . ووقفت المرأة وواجهت الفارس قائلة : « أيها الفارس يا سيدي ، لا تتقدم في سيرك ، فهذا الطريق مغلق ، وقل لي بايمانك ماذا جئت تبحث عنه . وقد يكون من حسن حظك أن تبوح بما في ضميرك ، فان العجائز يعرفن أشياء كثيرة مما لا يعرفها الشباب » .

فأجاب الفارس قائلا : « يا أمي العزيزة اني مقضي علي بالاعدام ، اذا لم أعرف ما هو الشيء الذي تبتغيه النساء أكثر من أي شيء آخر . فلو استطعت أن تخبريني به فاني سوف أكافئك خير مكافأة » .

فقالت : « اعطني كلمة شرف هنا أمامي أن الأمر الذي سأطلبه منك تفعله ، اذا كان في مقدورك ، وأنا مستعدة أن أقول لك ما هو المطلوب منك قبل سدول الليل » . فقال الفارس : « لقد أعطيتك كلمتي » .

ثم قالت : « اذن أستطيع أن أقول لك بفخر انك قد نجوت بحياتك ، واني أؤكد لك ذلك وأقسم بحياتي ، أن الملكة ستوافقني على ما أقوله لك . هات لي أكثر النساء كبرياء ومنزلة مرتدية قبعة أو طرحة ، وتأكد أنها لن تنكر شيئا مما ألقيته عليك . فلنمض في الأمر من غير مزيد من الكلام » . ثم همست بكلمة في أذنه وأمرت بأن يسعد ، وألا يخاف من شيء .

ولما جاء الفارس الى قصر الملك ، قال انه حافظ على كلمته التي وعد بها ، وقال ان اجابته حاضرة ، وكان عدد كبير من السيدات النبيلات جالسات في ذلك المكان ، كما كان هناك عدد من الفتيات والأرامل (وذلك لشـهرتهن بالحكمة البالغة) ، وكانت الملكة متربعة فوق عرشها ، كأنها رئيسة محكمة وقاضية . وكان كل هذا العدد من السيدات مجتمعا لينصتن الى اجابته . وبعد قليل أمر الفارس بأن يحضر بين أيديهن (٤٨) ؛ فصدر الأمر عندئذ لكل الحاضرات بأن يلتزمن الصمت كما صدر الأمر للفارس بأن يقول ما هو الذي تبتغيه المرأة فوق كل شيء . ولم يقف الفارس صامتا كالحيوان ، انما أجاب في الحال ، وهو يرفع صوته بنبرات تنم عن الرجولة ، بحيث سمعه البلاط بأسره ، وقال : « أيتها السيدات الكريمات في كل مكان من هذا القصر ، أقول لكم ان النساء يبتغين فوق كل شيء السيادة على أزواجهن وعشاقهن وأن تكون لهن الكلمة الفاصلة في

كل تصرفاتهم مع رجالهن · هذه هي رغبتكن العظمى أيتها السيدات ولكن أن تقتلنني لو راق لكن ذلك · ولكن أن تعملن ما تشأن وأنا هنا تحت أمركن » ·

ولم يكن هناك في القصر كله واحدة من السيدات أو الفتيات أو الأرامل تعارض ما قاله الفارس ، بل اتفقن على أن الفارس يستحق حياته · ولما انتهى الكلام نهضت المرأة العجوز ، التي كان الفارس قد رآها على المرج ، ووقفت أمام الجمع كله قائلة : « أطلب السماع أيتها الملكة العظيمة ! وقبل أن ينفض بلاطك أرجو أن تعطيني حقي · أنا التي لقنت الفارس هـذا الرد ، الأمر الذي جعله يعدني بأن ينفذ أي شيء آمره به ، اذ قال انه سـينفذه ، اذا كان ذلـك في مقدوره » · ثم اتجهت نحو الفارس قائلة : « أمام هذا الجمع من أهل البلاط أرجوك يا سيدي الفارس أن تأخذني زوجة لك ، لأنك تعرف معرفة تامة أنني أنا التي حافظت على حياتك · فاذا كان كلامي كذبا أنقضـه من فضـلك بحق ايمانك » ·

فأجاب الفارس وقال : « ويحي ! وامصيبتاه ! أعرف تمام المعرفة أن ذلك ماوعدتك به ، ولكن في سبيل حب الله أرجو أن تطلبي مني شيئا آخر · خذي كل ما أملكه واتركي لي جسدي » ·

ولكنها ألحت : « لا ، لا ، اذن فاني ألعنك وألعن نفسي معك ! فمع أنني عجوز كريهة فقيرة لا أرضى بكل المعـادن والأحجار الكريمة المدفونـة في بطن الأرض أو الراقدة فوقها بديلا عن أن أكون زوجة لك بل وعشيقتك أيضا » ·

فصاح قائلا : « أتريـدين أن تكوني حبيبتي ؟ لا ، لا ، بل قولي لعنتي ! ياويح أهلي وعشيرتي أن يفتضح أحد منا مثل هذه الفضيحة ! » ·

ولكن كلامه لم يجد بشيء ، ففي نهاية الأمر اضطر أخيرا أن يتزوج منهـا وذهب الى فراشه ومعه زوجته العجوز ·

وهنـاك احتمال أن يلومني بعض النـاس على اهمـالي وصـف المرح والاستعدادت التي نفذت في احتفالات ذلك اليوم · ولذلك أقول لكم باختصـار ما يأتي : أولا لم تكن هناك احتفالات بالمرة ، ولا مرح ، ولم يكن هناك سوى الحزن والجو الثقيل · وقد تزوج الفارس من المرأة العجوز سرا في صباح الغد ، وظل مختفيا طوال النهار كالبومة ، التي تخشى نور النهار ، وذلك لشدة حزنه ، لأن زوجته كانت كريهة للغاية وقبيحة ·

واشتد حزن الفارس ، واعتصر الألم قلبه ، عندما زف الى فراش زوجته ، وكان نحيبه يتصاعد الى أعلى وهو يتقلب في السرير من ناحية الى أخرى ·

أما زوجته العجوز فظلت تبتسم باستمرار ثم قالت : « يا زوجي العزيز بارك الله فينا ! هل يفعل كل فارس مع زوجته ما تفعله أنت ؟ أهذه هي شريعة

بيت الملك آرثر ؟ أكل فارس فى قصره مثلك فى الغطرسة والكبرياء ؟ انى حبيبتك بل زوجتك ، أنا تلك التى أنقذت حياتك ، ولا شك أننى لم أظلمك قط ، فلماذا تعاملنى مثل هذه المعاملة فى ليلة زفافى هذه ؟ أنت تسلك سلوك من فقد عقله • ما هو ذنبى ؟ أتوسل اليك بحب الله ، قل لى ما ذنبى ، وأنا أصلح الحال لو استطعت » •

فصاح الفارس قائلا : « وكيف تصلحين الحال ؟ ويحى ! لا ، لا ، لا اصلاح للحال بعد اليوم • أنت كريهة الى حد بالغ بل وعجوز منحدرة من أصل ذليل ، فلا عجب أن أولول وأتقلب فى فراشى • ليت الله يفجر قلبى ! » •

فسألته : « أهذا هو سبب قلقك ؟ » •

فأجاب : « نعم ، بل لا عجب فى ذلك » •

فقالت : « والآن يا سيدى أستطيع أن أصلح الحال تماما ، لو أردت أن أفعل ذلك ، وأصلحه قبل مرور أيام ثلاثة ، حتى تعاملنى باحترام بالغ • أما الآن فاننا اذ تكلمنا عن الكرم المنحدر من أصل قديم فى الغنى ، فانكم تكونون من أكرم الناس ، ولكن ما تفعلونه لا يليق بدجاجة ، فخير لك أن تتأمل فيمن هو دائما من الفضلاء ، ويسلك دائما سلوك الفضيلة ، ويكون متواضعا وصريحا وفاهما باستمرار كيف يقوم بما يعرفه من المآثر الشريفة • ذلك هو الشخص الذى يجب أن تعتبره من أعظم الكرماء • ان المسيح يطلب منا أن نستمد خير صفاتنا منه لا من أجدادنا ، ولا من غنى قديم • فحتى لو أعطى أزواجنا كل ما يملكونه من ذلك الميراث ، الذى نعتبر أنفسنا على أساسه منحدرين من سلالة عريقة ، فانهم لا يستطيعون مع ذلك أن يخلفوا لنا ، بأى حال من الأحوال ذلك القسط من الحياة الفاضلة ، الذى كان السبب أصلا فى اعتبارهم من أكرم الناس وأشرفهم ، والسبب أيضا أننا اتبعناهم بنفس الأسلوب •

ما أبدع حكمة شاعر فلورنسا الحكيم الذى يدعى دانتى (٤٩) ، والذى نظمه على النحو الآتى : « ما أندر نمو فضيلة خلقية عن طريق فروع البشر الصغرى ، لأن الله فى رحمته الكبرى يريد ألا نرد كرمنا ونبلنا الى سبب غيره » • والواقع أننا لا نستطيع أن نستمد من أجدادنا الا الأمور الدنيوية ، التى هى عرضة للتشويه والايذاء •

زد على ذلك أن كل شخص يعرف ما أقوله ، مثلما أعرفه أنا • فاذا كانت العراقة مزروعة فى النفس بالفطرة ، وذلك فى أسرة معينة ، عن طريق التوارث الطبيعى سرا أو علنا ، فان الانسان لا ينتهى من أداء كل المآثر الممتدحة ، التى تتصل بوصفه رجلا كريما عريقا ، اذ لا يستطيع عندئذ أن يرتكب أى دنس أو رذيلة •

فخذ شعلة من النار ، واحملها الى أكثر البيوت ظلاما ، بين هذا المكان وجبال القوقاز ، ثم دع الناس يغلقون أبواب البيت وينصرفون ، تجد أن النار تستمر في الاشتعال والاحتراق ، حتى ليستطيع عشرو نألفا من الناس أن يروها • ومعنى ذلك أن النار تستمر دائما في أن تسلك سلوكها الطبيعي المتصل بفطرتها ، وأنا على أتم استعداد لأن أقسم على ذلك ، وسوف تستمر في الاشتعال حتى تخمد •

وبذلك يمكنك أن تعرف تماما أن النبل غير متصل بالغنى ، لأن الناس لا يخضعون دائما لقوانين سلوكهم الخلقي ، كما تفعل النار اذ تتمشى مع أصول طبيعتها • والله يعلم أن الناس قد تجد أن ابن السيد العريق قد يأتي بأمر مدنس أو عار وأن ذلك الانسان الذي يريد أن يحترم من أجل ميلاده العريق ، أو لأنه ولد في بيت كريم ، وكان أجداده من الفضلاء أو النبلاء ، ولا يأتي هو نفسه مع ذلك بالأعمال الكريمة ، ولا ينسج على منوال جده الكريم المتوفى ، تأكد أنه ليس كريما ولا عريقا مهما كان « دوقا » أو « ايرلا » • فالعراقة ليست سوى السمعة الطيبة لأجدادك الذين حصلوا عليها بفضائلهم السامية ، وذلك أمر لا يلتصق بك نفسك • فالعراقة الحقة لا تأتي الا من الله وحده والنبالة الحقة لا تأتي الا بلطفه سبحانه وتعالى ، ولا نتوارثها مع درجتنا الاجتماعية • تصور كيف كان المدعو توليوس هوستيليوس (٥٠) قد بلغ درجة عالية من النبل • كما كان فاليريوس يروى لنا ، وصعد من أعماق الفقر الى أعلى درجات النبل • اقرأ الفيلسوفين سينيكا وبويثيوس (٥١) ، ففي كتبهما سوف تجد مكتوبا بصراحة أن الكريم بدون جدال ، هومن يأتي بأعمال كريمة • ولذلك فاني أيها الزوج الحبيب انتهى الى الخلاصة الآتية : مهما كان أجدادي من أصل فقير فان الله سبحانه وتعالى يعطيني هبة الحياة الفاضلة • فأنا اذن من أصل كريم مادمت أعيش بوحي الفضيلة وأتجنب ارتكاب المكاره •

واذا كنت تلومني على أنني فقيرة فاعرف أن الله سبحانه وتعالى الذي نؤمن به جميعا ، قد آثر أن يعيش حياته على الأرض فقيرا ذليلا بمحض ارادته • ولا شك أن كل واحد من الناس ، رجلا كان أو فتاة أو سيدة ، يدرك تماما أن يسوع ملك الجنات لم يرض قط أن يعيش حياة رذيلة • فالفقر السعيد أمر محترم ولا شك • وهذا ما يقوله الفيلسوف سينيكا وغيره من الفلاسفة ، ومن اعتبر نفسه راضيا بفقره اعتبره أنا غنيا ، ولو لم يكن لديه قميص يرتديه • أما الشخص الذي يحسد غيره فهذا هو الفقير حقا ، لأنه يتطلع الى مالا يمكن أن يحصل عليه • أما الشخص الذي لا يملك شيئا ، ولا يتطلع الى شيء ، فهو الغني حقا ولو لم تعتبره الا عبدا فقيرا • فالفقير الخالص يتغنى بحاله ويسعد بها ، ويقول الشاعر « جوفينال » (٥٢) عن الفقر مداعبا « الفقير اذا مضى في طريقه ، يستطيع أن يمزح ويغني ولو اعترضه لص : « فالفقر اذن نعمة أليمة ، وقد

يكون أيضا سببا في العذاب ، ولكنه أيضا مصلح حقا للحكمة البشرية ، وبخاصة بالنسبة لمن يتقبله صابرا • هذا هو الفقر وان كان يبدو بؤسا وشيئا لا يرغب أحد في حيازته • والفقر كثيرا ما يعلم الانسان ، اذا كان بائسا ، كيف يعرف ربه ، ويعرف قدر نفسه • كما يبدو لى أن الفقر منظار يستطيع المرء أن يرى حقيقة أصدقائه من خلاله • ولذلك يا سيدى ، فاني مادمت لا أعطيه سببا للشكوى مني فلا تلومني بعد اليوم لفقرى •

أما الآن يا سيدى ، فأنت تلومنى على الشيخوخة • ولا شك يا سيدى أنه ليس هناك سند لذلك فى أى كتاب من الكتب • ان الناس الكرماء المحترمين يجمعون على أن الانسان يجب أن يظهر الاحترام والاجلال للمتقدمين فى السن وأن ينادى الشيوخ بلقب « يا أبى » تأدبا • ولا شك أننى أستطيع أن أجد كتابا محترمين ، كتبوا بهذا المعنى • وأنت تقول أيضا اننى عجوز كريهة ، فلا تخش اذن أن أخون العلاقة الزوجية • فالقذارة والشيخوخة ، على ما أظن ، خير مايصون العفة • ومع ذلك بما أننى قد تعرفت على رغبتك فى المتعة الجنسية ، فانى سأشبع شهوتك الدنيوية هذه • ولك أن تختار اذن أحد الأمرين الآتيين • اما أن أبقى لك كريهة عجوزا حتى نهاية عمرى ، وأن أكون مع ذلك زوجة مخلصة متواضعة ، وألا أغضبك قط فى حياتى كلها واما أن أكون شابة وجميلة ، وأن تجنى نصيبك من كثرة تردد الناس على بيتك بسببى ، أو على مكان آخر بعيد عن عينيك • ولك الآن أن تختار ما تفضله » •

ففكر الفارس طويلا ، وتنهد كثيرا ، ولكن فى نهاية الأمر قال ما يأتى : « يا سيدتى وحبيبتى وزوجتى العزيزة ، انى أضع نفسى بين يديك تحكمينني كيفما تريدين • فاختارى أنت ما هو أكثر متعة وسرورا وأكثر شرفا لك ولى • ولا يهمنى أيا من الأمرين تختارين ، واذا كنت أنت سعيدة فان ذلك كاف بالنسبة لى » •

فقالت : « هل أصبحت اذن سيدة لك ؟ وهل لى أن أحكمك كيفما شئت ؟ »

فقال : « نعم بلا شك يا زوجتى ، وانى أعتبر ذلك خير حال » •

فقالت : « اذن قبلنى فلسنا غاضبين بعد الساعة ، لأ ننى أقسم لك بايمانى أنى سأصبح لك الاثنين معا ، أى سأكون جميلة ومخلصة معا • وأتوسل الى الله أن يصيبنى بالجنون ، اذا لم أكن زوجة مخلصة وفاضلة لك بقدر ما يمكن أن تكون أية زوجة منذ بداية العالم • واذا لم أصبح بالغد جميلة جمال أية سيدة أو امبراطورة أو ملكة فى الدنيا ما بين الشرق والغرب ، فلك أن تفعل ما تشاء بحياتى • والآن ارفع ستار فراشى وانظر الى •• » •

ولما رأى الفارس كل ذلك وأدرك أنها كانت جميلة للغاية وشابة أيضا ، عانقها وضمها بين ذراعيه من كثرة سروره ، وفاض قلبه بالسعادة • وقبلها الف

مرة ومرة ، وقبلها تكرارا ومرارا ، وأطاعته فى كل أمر يعـــود عليه بالمتعة والمسرة ٠

وعلى هذا النحو عاشا فى سرور تام حتي نهاية عمرهما ٠ فليرســـل لنا يسوع المسيح أزواجا ، يتسمون بالحلم والفتوة والاباء فى المضاجعة ، وليعطينا أيضا نعمة البقاء بعد هلاك أزواجنا ٠ كما أصلى الى يسوع المســيح أن يختصر حياة من لا يطيع زوجته ، أما البخلاء والشيوخ الهرمون فليرسلهم الله فى داهية ، وليصبهم بالطاعون ! ٠

هوامش مقدمة سيدة باث

(١) هناك شبه اجماع على أن حكاية سيدة باث مع مقدمتها الطويلة وحكاية الراهب الجوال ومحضر المحكمة وطالب العلم والتاجر وابن الفارس وحامل دروعه ومالك الأرض كلها تكون ما يسمى بمجموعة الحكايات التى تعالج موضوع الزواج والعلاقة بين الزوجين • ولا يمكن رد مقدمة سيدة باث الى مصدر واضح واحد الا أنها تتصف بنوع من الشعر والقصص الشائعين فى العصور الوسطى ، وهو هجاء النساء والسخرية منهن • وهناك أيضا أدلة على أن تشوسر استوحى شخصية هذه السيدة من وصف الشمطاء (La Vieille) فى « رواية الوردة » • والقصيدة الهجائية الفرنسية للشاعر أوستاشى ديشان (Eustache Deschamps) الذى عرفه تشوسر شخصيا ، والذى ولد حوالى سنة ١٣٤٦ م ، وتوفى حوالى سنة ١٤٠٦ م وعنوان هذه القصيدة « مرآة الزواج » (Miroir de Mariage) أما المصادر اللاتينية فهى ثلاثة : ١ ـ الرسالة الموجهة فى هجاء جوفينيانوس (Epistola Adversus Jovinianum) للقديس يرونيموس (٣٤٢ ـ ٤٢٠ م) ، الذى كان أحد آباء الكنيسة الغربية ومعلميها ، ونقل الكتاب المقدس الى اللاتينية • ٢ ـ « الكتاب الذهبى فى الزيجة (Liber Aureolus de Nuptiis) الذى يحكى كثيرا من متاعب الزواج للفيلسوف اليونانى القديم ثيوفراستوس (Theophrastus) الذى اقتبس منه القديس يرونيموس فى الرسالة المذكورة ولا أثر له فى غير هذه الاقتباسات (Epistola Valerii ad Rufinum de non Ducenda Uxore)

(٢) ورسالة فاليروس الى روفينوس فى موضوع ضرورة عدم التزوج للكاتب الانجليزى والترماب (Walter Map) الذى ازدهر فى أوائل القرن الثالث عشر • وهناك اشارة واضحة لهذه النصوص اللاتينية فى نص مقدمة سيدة باث ومع ذلك فلا شك أن روح الموضوع العام كانت ممثلة فى كثير من الأعمال الأدبية والشعبية ، التى كانت شائعة فى العصور الوسطى • وقد يمكن القول ان مقدمة سيدة باث هذه تتميز عن الآداب الساخرة من النساء والهجاء الشائع حينذاك ، فى كونها عبارة عن سيرة ذاتية تجمع بين النقد الذاتى غير المقصود ، واثبات شخصية امرأة قوية الارادة كثيرة الشهوة مناضلة فى سبيل حياة مستقلة على قدم المساواة بالرجال • واذا كان أغلب ما فى سردها يمثل تجربتها فى الحياة وفى الصراع بين الجنسين ، الا أنها قادرة أيضا على أن تناقش ما جاء فى الكتاب المقدس وفى كتب أخرى (حتى أكثرها علما وتبحرا) ، لتدافع عن موقفها فى الحياة وعن ممارستها للحرية على النحو الذى مارستها به •

(٣) اشارة الى أن علماء الكنيسة فى العصور الوسطى كانوا يشككون فى صحة الزواج الذى يأتى بعد الزواج الأول •

(٤) انظر انجيل يوحنا ٢ : ١ •

(٥) انظر انجيل يوحنا ٤ : ١ أو ما بعده ونص الانجيل فى الآية ١٧ و ١٨ :

« أجابت المرأة وقالت ليس لى زوج • قال لها يسوع حسنا قلت ليس لى زوج لأنه كان لك خمسة أزواج ، والذى لك الآن ليس هو زوجك • هذا قلت بالصدق » •

(٦) كما ذكرنا كان علماء القانون الكنسى يحرمون على المرأة الزواج أكثر من مرة فى حياتها استنادا الى نص الآيتين المذكورتين فى الحاشية السابقة ٠

(٧) سفر التكوين الاصحاح الأول الآية ٢٨ ٠

(٨) الاشارة هنا الى المسيح ٠ انظر انجيل متى ١٩ : ٥ ٠

(٩) جاء فى سفر الملوك الأول فى الاصحاح الحادى عشر والآية ٣ أن سليمان « كانت له سبعمائة من النساء السيدات وثلاث مائة من السرارى » ٠

(١٠) صحة قول بولس الرسول فى رسالته الأولى الى أهل كورنثوس (٧ : ٩ و ١٠) « ولكن أقول لغير المتزوجين وللأرامل انه حسن لهم اذا لبثوا كما أنا ٠ ولكن ان لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا لأن التزوج أصلح من التحرق » ٠

(١١) سفر التكوين ٤ : ١٩ « وأخذ لامك لنفسه امرأتين » ٠ ويظهر أن اللبس المستتر فى حجج سيدة باث هو فى الجمع بين كون المرأة تتزوج مرتين أو أكثر على التوالى وكونها تجمع بين أكثر من زوج واحد فى نفس الوقت » ٠

(١٢) رسالة بولس الرسول الأولى الى أهل كورنثوس (٧ : ٦)

(١٣) رسالة بولس الرسول الأولى الى أهل كورنثوس (٧ : ٥)

ويلاحظ أن سيدة باث تناقش أقوال بولس الرسول آية آية وتلجأ الى عدة حجج ، لا لتنفيذها بالضبط ، وانما للتحايل عليها ٠ ويبدو أن أساس تحويرها لأقوال بولس الرسول لجعلها متفقة مع ما تريده هى هى الآية فى نفس الرسالة (٧ : ٦ ، ٧) حيث يقول : « ولكن أقول هذا على سبيل الاذن لا على سبيل الأمر ٠٠ لأنى أريد أن يكون جميع الناس كما أنا ٠ لكن كل واحد له موهبته الخاصة من الله ٠ الواحد هكذا والآخر هكذا ٠

(١٤) صحة المصدر انجيل يوحنا (٦ : ٩) لا انجيل مرقص ٠

١٥) الاشارة هنا الى رسالة بولس الرسول الى أهل أفسس (٥ : ١٩ — ٢٣) ولكن سيدة باث لا تذكر الا ما تريده من النص فالنص الكامل يحتم تبادل الحب بين الزوجين ٠

(١٦) « الماجستى » هو التحريف العربى للكلمة اليونانية التى تعنى « العمل الأكبر » وبما أن هذا الكتاب فى الفلك قد عرف فى أوربا عن طريق ترجمته العربية ، بقى عنوانه المعرب ، ولكن أغلب الشراح يؤكدون أنه لا يوجد أى سند لذكر هذا المثل فى « الماجستى » وهناك رأى بأن أصل هذا المثل مذكور بالعربية فى « كتاب الوصايا والأمثال والموجز من محكم الأقوال » لمحمود الدولة أبو الوفاء المبشر الآمدى بن فاتك (الذى توفى عام ٤٨٧ هـ/١٠٩٤ م) والذى كان فيلسوفا وطبيبا ومؤرخا وأميرا مصريا ٠ وكان اسمه محرفا فى أوربا فى العصور الوسطى على النحو الآتى « «Albuguafe»

(١٧) من الواضح أن سيدة باث تخاطب هنا النساء عامة لا مجرد النساء من صواحبها اللاتى لا يزيد عددهن على اثنتين هما الراهبتان ٠

(١٨) هو القديس الذى بنى من أجله مزار وكنيسة كبرى فى كومبوستلا (Compostella) فى أسبانيا والذى كان يقصد من كل أنحاء أوربا ٠

(١٩) لا أثر لهذا القول فى « الماجستى » انظر حاشية ١٨٠ .

(٢٠) رسالة بولس الرسول الأولى الى تيموثاوس (٢ : ٩) : « وكذلك أن النساء يزين ذواتهن بلباس الحشـــمة مع ورع وتعقل لا بضفائر أو ذهب أو لآلىء أو ملابس كثيرة الثمن » .

(٢١) فى الأساطير اليونانية القديمة كان أرجوس (Argus) أحد أبناء أرستور Arestor ينام باحدى مقلتيه ويتقى أيو (Io) بأخرى المنايا فهو يقظان نائم ، « وكان لأرجوس مائة عين تستريح منها اثنتان على التوالى على حين تبقى سائرها يقظة ، وكانت تلك العيون تمتد الى كل مكان .. (دكتورثروت عكاشة : الاغريق بين الأسطورة والابداع (القـــاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٩ ص ١١٨) .

(٢٢) سفر الأمثال (٣٠ : ٢١ ــ ٢٣) : « تحت ثلاثة تضطرب الأرض وأربعة لا تستطيع احتمالها . تحت عبد اذا ملك وأحمق اذا شبع خبزا . تحت شنيعة اذا تزوجت وأمة اذا ورثت سيدتها » .

(٢٣) المصدر هنا كتاب فى البلاغة يحتوى أمثلة للخطباء باللاتينية عنوانه « الكتب التسعة فى الأعمال والأقوال الجديرة بالذكر (Factorum ac distorum memorabilium librix) للمؤرخ الرومانى فاليريوس ماكسيموس (Valerius Maximus)

(٢٤) اشارة الى « فن الهوى » للشاعر الرومانى أوفيد (الكتاب الأول الأبيات ٢٢٩ ــ ٢٤٤) وخاصة البيت الأخير : « لحظتها تستلب الأنثى لب الذكر . ففينوس فى كأس الخمر نار فى نار » (ترجمة الدكتور ثروت عكاشة) .

(٢٥) أحد قديسى بريتانيا (فى فرنسا) توفى فى النصف الأخير من القرن السابع الميلادى . اشتهر بالزهد والنسك وكان ابن ملك وقد خصص الامبراطور شارلمان نزلا باسمه للمسافرين عبر بحر المانش . وقد تكون سيد باث قد نزلت بهذا النزل أثناء رحلاتها المختلفة عبر البحار . وهناك احتمال بأنها قد قرأت عن هذا القديس فى « رواية الوردة » حيث ذكره الشاعر جادى مون فيما أسماه « بوصيته » .

(٢٦) تشبيه الزواج بالمطهر تشبيه منتشر فى العصور الوسطى وخاصة فى شعر الهجاء ضد النساء .

(٢٧) لا أساس لهذا القول . فان اسم « أبيليز » لم يرد الا فى الكتاب السابع من ملحمة باللاتينية كتبها جوالتير دى شاتيون Gualtier de Chatillon عنوانها « ملحمة الاسكندر » (Alexandreis) فى القرن الثانى عشر الميلادى .

(٢٨) من الواضح هنا أن الحج لم يؤخذ دائما بجدية وأنه كثيرا ما كان بمثابة فرصة للترفيه واللهو . وكذلك الحال بالنسبة للمسرحيات الدينية التى كانت تعالج موضوعات دينية بأسلوب كثيرا ما تتخلله السخرية والفظاظة .

(٢٩) حسب علوم التنجيم كان من يولد تحت طالع كوكبة الزهرة يتصف بالاستعداد للعشق والمجون . أما من كان يتأثر بالمريخ ، فيتصف بسرعة الغضب والعنف والشراهة .

(٣٠) أغلب هذه القصص موجودة فى كتاب واحد هو الكتاب الذى ذكرناه (فى الحاشية ٤٦٠) لفاليريوس ماكسيوس .

(٣١) حقيقة المصدر هو سفر حكمة يسوع بين سيراخ فى الأناجيل المنتحلة . وجاء اللبس من تشابه الكلمة اللاتينية لهـذا الســفر (Ecclesiasticus) باسم ســفر الجامعة (Ecclesiastes) فى العهد القديم .

(٣٢) القديس يرونيموس هو الذى ذكرناه فى أول حاشية لهذه الحكاية • وقد كتب رسالة فى هجاء جوفينيانوس (Epistola adversus Jovinianum) وكان جوفينيانوس هذا راهبا توفى فى القرن الخامس الميلادى قد أنكر أمام حكماء الكنيسة أن البكارة حالة خير من الزواج وأن الصوم حالة خير من الأكل مع حمد الله • وقد هاجم آراءه القديس يرونيموس الرسالة المذكورة كما هاجمه القديس أوغسطينوس • وكان تيرتوليانوس رومانيا تنصر فى منتصف القرن الثانى الميلادى ، وكتب عدة كتب دينية فى الدفاع عن المسيحية منها مقالات « فى المناشدة فى سبيل العفة » (De Exortatione Castitatis) و « فى الزواج من واحدة فقط » (De Monogamia) و « فى الاحتشام » (De Pudicitia) أما كريزيبوس (Chrysippus) فهو مجرد اسم ورد فى رسالة القديس يرونيموس نسب اليه المؤلف حماقة النصح بالزواج ارضاء لاله الزيجة عند الوثنيين • أما تروتولا (Trotula) فاشتهرت بالطب وبالتخصص فى أمراض النساء فى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى فى جامعة سالرنو (Salerno) بايطاليا ، ونسبت اليها عدة كتب لم يبق منها شىء من أهمها كتاب فى زينة النساء (De ornatu mulierum) أما هلويزا (Héloise) فهى الراهبة العاشقة المشهورة التى كانت تحب قسيسا اسمه أبيلار (Abélard) فى باريس فى أوائل القرن الثانى عشر • ودارت بينهما مراسلات سرية فى الحب الذى نما بينهما • ومات أبيلار سنة ١١٤٢ م • ولما ماتت عشيقته فى السر سنة ١١٦٣ م دفنت فى قبر بجوار عشيقها • أما حكم سليمان فهى كناية عن سفر الأمثال فى العهد القديم من الكتاب المقدس • وقصيدة « فن الهوى » (Ars Amatoria) لأوفيد الشاعر الرومانى فيها نصائح خاصة بكيفية النجاح فى مواقف مختلفة من الحب الجنسى •

(٣٣) حسب أصول التنجيم فى العصور الوسطى هناك علاقة خاصة بين الكواكب تتلخص فى أن دخول كوكب فى برج بحيث يصبح تأثيره على الأقدار البشرية فى أوجه يؤدى الى نتيجة عكسية بالنسبة لكوكب آخر • فان تمجيد الشمس فى برج الحمل مثلا ينتج عنه هبوط زحل • أما برج الحوت فيؤدى الى رفع شأن الزهرة (فينوس) وهبوط عطارد (ميركوريوس) • وبهذه المناسبة ميركوريوس (عطارد) حام للمعرفة والعلوم والفلسفة ، أما الزهرة (أفينوس) فراعية لملذات الحس والعشق وما الى ذلك •

(٣٤) أى الحب والجماع •

(٣٥) وفى الأساطير التى تروى نهاية هرقل أنه أحب بنتا اسمها أيولا وكادحبه لها أن ينسيه حبه لزوجته ديانيرا • وبعد انتصار هرقل على أوريتوس (Eurotos) أراد أن يقيم هيكلا لزيوس الذى نصره ، فأرسل صديقه لنحاس الى تراخيس حيث كانت تقيم ديانيرا (زوجته) ليعود منها بثوب جديد يستخدمه فى الشعائر • وكانت ديانيرا قد علمت من ليخاس بانصراف قلب هرقل عنها الى ايولا ، فغمست الثوب الجديد فى دم نيسوس حاسبة أنه اكسير الحب ، ثم أرسلت الثوب الى زوجها • فلما لبس هرقل الحلة المسمومة بدأت فى تقديم القرابين أحس بأن جلده يحترق • وأراد نزعها ولكنها لصقت بجسده ، واشتد الاشتعال فأخذ يمزقها بالقوة فكانت تتمزق مع شرائح لحمه ، وجن جنونه حتى انه قذف بصديقه ليخاس الى البحر ، وحملوه فى جنونه وهياجه فى سفينة الى تراخيس حيث تقيم ديانيرا وهيلوس ، فلما رأت ديانيرا ما فعلته قتلت نفسها • واقتربت منية هرقل فنادى ولده الغلام هيلوس وأوصاه أن يحافظ على محظيته أيولا ، حتى اذا ما بلغ سن الرشد تزوج منها ثم صعد هرقل الى قمة جبل أوتيا ، وهو بالقرب من تراخيس ، وأقام راكية عظيمة واعتلاها ثم أمر أتباعه أن يضرموا النار فى الراكية ، ولكنهم جميعا أحجموا ما خلا البطل فيلوكتيت ، فاهداه هرقل قوسه وسهمه اعترافا بجميله • بينما كان هرقل يحترق قصف رعد

عظيم ورفع هرقل الى السماء على سحابة وهكذا وجد مكانه بين الآلهة الخالدة » • (دكتور لويس عوض ، نصوص النقد الأدبى • اليونان الجزء الأول • دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥ ص ٤٨٦ ــ ٤٨٧)

(٣٦) قصة سقراط ومتاعبه فى الحياة الزوجية مصدرها رسالة القديس يرونيموس فى هجاء جوفينيانوس •

(٣٧) كانت بازيفاى (Pasiphae) زوجة مينوس ملك كريت فى الأساطير اليونانية القديمة وفتنت بثور متوحش بغرام شاذ وأنجبت منه وحشا له رأس ثور وجسد انسان اسمه المينوتور (Minotaur)

(٣٨) لما غاب عنها زوجها الملك أجاممنون قائد القوات اليونانية فى حرب طروادة وقعت فى غرام عشيق فلما عاد زوجها بعد غيبة طويلة قتلته وهو فى الحمام ببلطة ثقيلة •

فى الأساطير اليونانية كان أمفيوركس (وصحة اسمه أمفيماروس (Amphiaraus له زوجة اسمها اريفيلى (Eriphyle) وقد أغريت برشوة هى عقد ذهبى ثمين لكى تؤثر على زوجها حتى يشترك فى الحملة ضد أهل طيبة اليونانية • فاشترك فى الحرب وقتل فيها وكان يعلم مسبقا بأنه سيقتل فيها لما لديه من قدرة على التكهن بالمستقبل •

قد ذكرنا فى كتاب فليريوس ماكسيموس المذكور فليفيا (Livia) قد سممت زوجها دروسوس (Drusus) بايحاء من عشيقها سيجانوس (Sejanus) سنة ٢٣ م • أما لوسيا فكانت زوجة لوكريتيوس (Titis Lucretius Carus) الشاعر والفيلسوف الرومانى الذى عاش من سنة ٩٤ الى سنة ٥٥ قبل الميلاد ، وقيل انه مات مسموما لما شرب جرعة من شراب ادعت زوجته أنه مثير للعشق بعد أن لاحظت اهتمامه البالغ بالفكر والكتابة على حساب علاقته الزوجية •

(٣٩) هذه القصة مأخوذة من نفس المصدر السابق أى كتاب فليريوس ماكسيموس •

(٤٠) مصدر هذا سفر الأمثال ١١ : ١٢ : « خزامة ذهب فى فنطيسة خنزيرة المرأة الجميلة العديمة العقل » •

(٤١) مدينة صغيرة تبعد عن لندن ٤٠ ميلا و ١٥ ميلا عن كنتربرى وأغلب الظن أن الحجاج كانوا ينوون البيات فيها •

هوامش حكاية سيدة باث

(٤٢) لهذه الحكاية قرائن كثيرة فى القصص الشعبى وتدور موضوعاته حول شخصية الشمطاء التى تتحول الى فتاة جميلة نتيجة لسحر الحب أو الطاعة الزوجية •

(٤٣) من الموضوعات المألوفة فى القصص الشعبى خطف مخلوق وحشى خارق لفتاة جميلة وانفراده بها فى غابة أو بادية لكى ينجب منها أطفالا •

(٤٤) هذا عفريت من نوع خاص لا يأتى للمرأة الا فى أثناء جاثوم مخيف يضاجعها فيه وهى لا تستطيع المقاومة • وهناك بعض التلميح الساخر للرهبان فى العصور الوسطى ولكثرة انحرافهم عن العفة •

(٤٥) مثل هذا السؤال التهديدى مألوف أيضا فى القصص الشعبى ، وله قرائن كثيرة ولعل أقدم مثال له مساءلة أبو الهول لأوديب فى الأسطورة اليونانية المعروفة •

(٤٦) فى ملحمة « مسخ الكائنات » (Metamorphoseon) الكتاب الحادى عشر البيت ١٧٤ وما بعده (انظر ترجمة الدكتور ثروت عكاشة) • وحقيقة القصة أن خداما له أو حلاقا له زوجته هو الوحيد الذى علم سره همس به فى حفرة بالأرض ، ولكن النسبة للزوجة قد تكون نتيجة لايحاء زوج سيدة باث الأخير كاره النساء •

(٤٧) الفتيات الراقصات فى دائرة بجوار غابة موضوع دال يوجد فى أغلب القصص الشعبى السلتى • والمفروض أن الدائرة سحرية وأن الراقصات من الجان •

(٤٨) هناك شبه هنا بين مثل هذه « المحكمة » السحرية والمحاكم الحقيقية التى كانت تؤلف من النساء النبيلات فى العصور الوسطى للبت فى مسائل متعلقة بمشاكل الحب الرفيع •

(٤٩) كل ما يلى مستعار الى حد بعيد من « كتاب الوليمة » لدانتى ومن أجزاء من « الكوميديا الالهية » (وخاصة « المطهر » الكتاب السابع الأبيات ١٢١ وما بعدها • ولا شك أن مناقشة كرم الأخلاق وكرم السـلالة وما يكون الخلق الرفيع شائع فى آداب العصـور الوسـطى • وكان لتشوسر نفسه قصيدة قصيرة من ٢١ بيتا فى هذا الموضوع سماها « قصيدة أخلاقية فى موضوع النبل » • ولعل هذا الموضوع « من هو الانسان النبيل حقا ؟ هل هو صاحب السلالة العريقة ؟ هل هو أى شخص رفيع الخلق ؟ » كان يشغل الأذهان على نحو واضح •

(٥٠) هذه القصة موجودة فى كتاب فليريوس ماكسيموس حيث تذكر توليوس هوستيليوس (Tullius Hostillius) الذى صعد من أدنى مرتبة فى المجتمع كراع بسيط حتى أصبح قائدا للدولة الرومانية •

(٥١) سينيكا (Seneca) هو الفيلسوف والكاتب المسرحى الرومانى الذى انتحر سنة ٦٥ م أما بويثيوس (Boethius) فهو مؤلف « فى سلوى الفلسفة » الذى أعدم سنة ٥٢٥ م •

(٥٢) جوفينال Dicimus Junius Juvenalis) هو الشاعر الرومانى الهجائى الذى عاش فى القرن الأول الميلادى ، والاقتباس هو البيت الحادى والعشرون من الأهجية العاشرة • (Cantabit vacuus coram latrone viator)
وصحة الترجمة : « ان المسافر ذا الجيوب الخاوية سيغنى أمام اللص » •

مذكرة اضافية : ان موضوع الفضيلة والنسب العريق وتفضيل الأولى على الثانى موضوع جاء فى « رواية الوردة » (الأبيات ١٨٠٦٧ الى ١٨٨٩٦) •

حكاية الراهب الجوال

مقدمة حكاية الراهب الجوال

كان هذا الراهب الكريم المرخص له بالتماس الصدقات فى مقاطعة معينة ، يظهر دائما بوجه مكفهر ، كلما رأى محضر المحكمة الكنسـية ، ولكنـه احتراما للياقة كان لا يخاطب بكلمة نابية . الا أنه اتجه نحو سـيدة باث قائلا لها : « يا سيدتى رزقك الله حياة سعيدة .. لقد عالجت هنا مسائل فلسفية مدرسية معقدة ، وأشهد بذلك ، قسما بتوفيقى فى الحياة ، كما أقول أنك قد تحدثت عن أشياء كثيرة بأسلوب بليغ . ولكننا هنا يا سيدتى فى طريقنا ، ونحن نركب فى رحلتنا ، لا نحتاج الى شىء سوى الترفيه ، فاتركى بسم الله أمهات المراجع للوعظ والمدارس الكهنة . واذا راق هـــذه الرفقة الكريمة ، حكيت لكم حكاية مرفهة ، تخص محضرا لاحدى المحاكم الكنسية . وقسما بالله أنتم تعرفون حق المعرفة أن المحضر بمقتضى مجرد تسميته غير جدير بأن يقال عنه أى خير . وأرجو ألا يغضب منى أحد ، اذا قلت أن المحضر ما هو الا شخص يجرى هنا وهناك ليبلغ استـدعاءات أمام المحاكم ، من أجل جريمة فســـق أو مجون ، والنـاس يضربونه كلما رأوه فى كل أطراف المدينة » .

ثم تكلم مضيفنا قائلا : « أجل يا سيدى ، فخير لك أن تكون لطيفا ومهذبا على النحو الذى يليق بشخص فى منزلتك . ولذلك أرو حكايتك، واترك المحضر وشأنه .

« بل لا داعى لذلك » قال المحضر : « دعه يقول ما يريد ، فانه عندما يأتى دورى للقص ، أقسم بالله ، أننى سأكيل له الصاع صاعين . وسأقول له شيئا عن الشرف الكبير ، الذى يعود على راهب يتسول بترخيص خاص فى منطقة معينة وينافق من ينافق ليصل الى غرضه ، كما اننى سأحكى عن جرائم أخرى ، لا داعى لذكرها الآن . وسأشرح له بوضوح تام ماهية وظيفته فى المجتمع ! » .

فقال مضيفنا عندئذ : « كفى الآن ، والسلام عليكم جميعا » ثم استطرد قائلا : « ارو حكايتك الآن يا سيدى العزيز .

هنا تبدأ حكاية الراهب الجوال(١)

فى يوم من الأيام كان يقيم فى المقاطعة التى أقيم بها رئيس للشمامسة ، وكان رجلا رفيع المنزلة ، كما كان دائما يطبق القانون الكنسى بحزم فى حالات الفسق وجرائم السحر الحرام والمجون والافتراء والزنا والسرقة من الكنائس ، والتعسف فى مسائل الوصية وعقود الزواج ، والتخلف عن احترام الأسرار الكنسية السبعة(٢) والربا الفاحش والاتجار فى الوظائف الكنسية(٣) . ولا شك أنه كان يعاقب الداعرين أشد عقاب (ولا شك أنهم يستحقون أن يبكوا بكاء مريرا، اذا ما قبض عليهم متلبسين !) . كما أن اساءة تقدير الزكاة عمدا أمرا يؤدى عنده الى معاقبة فاعلها عقابا شديدا اذا ما شكا اليه أحد من القساوسة فى ذلك الشأن . ولم يترك لمن يحاول الغش فى تقدير الزكاة فرصة الافلات من الغرامة المالية . فاذا قدم أحد تبرعا ضئيلا للكنيسة جعله يئن من العقاب القاسى واذا وقع المذنبون تحت طائل صولجان كبير الأساقفة سجلت أسماؤهم فى سجلات رئيس الشمامسة(٤) . وبعد ذلك كان حق له أن يعاقبهم لأن تسجيل أسمائهم لديه ، كان يضعهم فى حيز اختصاصه . وكان يساعده فى هذه الأمور محضر ، لم يوجد فى أنحاء انجلترا شخص أخبث منه ، لأنه كان يستخدم سرا شبكة من الجواسيس ، كانوا يخبرونه بالحالات التى قد تعود عليه بفائدة بينه .

فكان يعرف كيف يتغاضى عن وغدين أو ثلاثة ، لكى يقودوه الى حيث يوجد أربعة وعشرون منهم أو أكثر . ومع أن هذا المحضر كان مجنونا كالأرنب البرى ، الا أننى لن أتردد فى أن أحكى صورا من شره وسوء نيته ، اذ أننا لحسن الحظ خارجون عن دائرة اختصاصه ، بوصفنا رهبانا . فانهم لا يملكون أى حق بالنسبة لنا ، ولن يملكوه حتى آخر أيام حياتهم .

وعندئذ صاح المحضر قائلا : قسما ببطرس الرسول ان المومسات فى بيوت الدعارة قد أفلتن من دائرة اختصاصى بنفس الشكل ! فقاطعه مضيفنا قائلا : اسكت أساء الله حظك ! ودعه يحكى حكايته . فتكلم اذن حتى لو أثار المحضر ضجيجا ولا تكف عن الكلام .

فقال الراهب الجوال : ان هذا اللص الغدار ، أى هذا المحضر ، كان دائما يجد تحت تصرفه مجموعة من القوادين ، لكى يلعبوا دور الريش ، الذى يجذب الباز الى صاحبه ، بعد الانطلاق للقنص · وكان هؤلاء القوادون يحكون له كل الأسرار التى كانوا يكشفونها ، ولم تكن صلات المعرفة بينه وبينهم حديثة العهد ، بل انهم كانوا أدوات كسبه الخفية وبوساطتهم كان يحصل دائما على فائدة طائلة ، بل ان رئيسه نفسه لم يكن يعرف بالضبط ما كان يكتسبه من الأموال · فكان مثلا يستدعى للمثول أمامه شخصا جاهلا ، مع أنه لم يكن لديه أوراق رسمية تخوله هذا الحق وكان يهدده بالحرمان الكنسى(٥) ، اذا لم يطعه فى الحال ، الأمر الذى جعل الكثيرين سعداء لو أضافوا الى جزدانه (كيس الدراهم) ودعوه الى ولائم كبيرة فى الحانة · مثلما كان يهوذا الاسخريوطى (٦) يحمل جزدانا صغيرا ، ومع ذلك كان لصا ، فكذلك كان هو أيضا لصا مثله ، وكان لا يسلم الى رئيسه سوى نصف المبلغ ، الذى كان يجب أن يسلمه اياه · انه كان (اذا سمح لى أن أصفه بما يستحقه من أوصـــاف) لصـــا ومحضرا وقوادا فى نفس الوقت · وكانت بعض النساء ينتمين الى حاشيته · فسواء أكن ممن يضاجعهن الفارسان روبرت ، أو هوجو أم الفلاحان يعقوب أو رالف (٧) ، أو أى شخص غيرهم فانهن كن يوصلن له كل ما يقال لهن من أسرار المضاجعة · وعلى هذا كانت النساء متواطئات معه · فكان مثلا يختلق أمرا مزورا لاحضار الفاســق والمومس أمام المحكمة الكنسية ، لم ينهب ما ينهبه من الرجل ، ويطلق سراح المرأة ·· ثم كان يقول للرجل : يا صديقى سأشطب اسمها من قائمتنا السوداء من أجلك ، لذلك لا داعى للقلق على هذا الأمر ، فانى صديق لك ، وأستطيع أن أساعدك ·

ولا شك أنه كان يعرف فى شئون الرشوة أكثر مما يكن التحدث عنه طوال سنتين فانه لم يوجد فى العالم كله كلب صيد مدرب على خدمة القناص الرامى ، يستطيع أن يميز بين الجريح والوعل السليم ، مثلما كان يعلم هذا المحضر كيف يتعرف على الماجن الخبيث ، ويميزه عن الزانى أو العاشق المذنب · وبما أن ثمار كل هذه الأنشطة كانت تدخل ضمن ريعه ، فانه جعل كل همه أن يتقن معالجة هذه الموضوعات ·

وحدث ذات يوم أن امتطى هذا المحضر ، وهو دائم التربص بفريسته ، جواده ، وذهب ليسلم أمرا استدعاء لأرملة عجوز شمطاء(٨) ، وتظاهر أمامها بأن قضية قد رفعت ضدها ، لأنه كان يريد أن يحصل على رشوة منها · وحدث كذلك أن رأى راكبا أمامه بجوار الغابة مزارعا (٩) أنيقا ممن تخصصوا فى أعمال الحراجة · وكان يحمل قوسا وجرابا به سهام حادة زاهيـــة الألوان ، كما كان يرتدى معطفا قصيرا أخضر اللون(١٠) وقبعة على رأسه أهدابها سوداء · فصاح المحضر قائلا : « مرحبـــا يا سيدى والســـلام عليكم » فأجابه المزارع قائلا : « وعليكم السلام وعلى كل انسان طيب ، وأين تذهب فى ظل هـــذه الأشـــجار ؟

وهل تذهب بعيدا اليوم ؟ » فقال له المحضر : « لا بل الى مكان قريب من هنا ، فانى قاصد ضيعة قريبة لجباية ريع ، مفروض دفعه ضريبة لرئيسى » • فسأله المزارع : « أأنت اذن ناظر ضيعة ؟ » فأجابه : « نعم » ولم يجرؤ (لما فى ذلك الاسم من عار وقذارة) أن يقول انه محضر • فقال المزارع : « بسم الله سبحانه يا أخى العزيز انك اذن ناظر ضيعة ، وأنا مثلك • ولست معروفا لدى الناس فى هـذه المقاطعة ، لذلك أكون ممنونا لو تفضلت بمنحى صـداقتك وصحبتك • فلى ذهب وفضة فى خزانتى ، واذا جئت الى المقاطعة ، التى أقيم فيها أعطيته لك كله لو كنت تريد ذلك » • فقال المحضر : « أشكرك شكرا جزيلا قسما بايمانى ! » وعندئذ شد كل منهما على يد الأخر توطيدا لتعاهدهما على أن يكونا بمثابة أخوين حتى اليوم الذى يفارقان فيه الحياة • وعلى ذلك استمرا فى طريقهما سعيدين مرحين •

وكان هـذا المحضر الثرثار الممتلىء بالسم مثـل الطائر المفترس ، دائم السؤال عن كل ما يراه ويدور حوله • وقال سائلا : « يا أخى أين تقيم الآن ، حتى أعرف ذلك ، لو تصادف أننى أردت أن أقصدك فى يوم من الأيام ؟ » • فأجابه المزارع اجابه لطيفة : « أقيم يا أخى بعيدا فى بلاد الشمال » (١١) حيث أتمنى أن ألتقى بك يوما ما وقبل افتراقنا سأصف لك مكان اقامتى حتى لا تضل الطريق اليه » •

ثم قال المحضر : « والآن يا أخى أتوسل اليك أن تخبرنى بذلك ، ونحن نسير فى الطريق ، وما دمت ناظر ضيعة مثلى ، فانى أرجو أن تعطينى فكرة عن حيلة ذكية لكى أحصـل على أكبر فائدة ممكنة فى وظيفتى ولا تضن على بكل تفاصيل الموضوع بسبب أية حساسية أو شعور بالذنب ، بل قل لى كل شىء عن أسلوبك فى العمل كأخ تماما » • فقال المزارع : « قسما بايمانى يا أخى العزيز سأحكى لك حكاية بكل أمانة • فان أجرى ضئيل للغاية وسيدى ولى نعمتى قاس وكثير الطلبات منى وعملى شاق ، ولذلك أتعيش من الابتزاز وجلب المال بالتهديد والاكراه ، والحق يقال أنى آخـذ كل ما يعطى لى من أموال • ودائما أكسب ما أكسبه من رزق السنة بعد السنة بالاحتيال أو بالعنف • ولا أستطيع أن أكون فى قولى أكثر صدقا من ذلك » • فقال المحضر : « والحقيقة أننى أيضا أفعـل ما تفعله ، وانى لا أتورع عن أن آخذ ما آخذه بأية وسيلة (والله يعلم ذلك) ، الا اذا كان الشىء أثقل أو أسخن من أن أمسكه • ولا تردد فى أن أحصل على ما أحصله خلسة ، وفى السر ، ولا أشعر بأية حساسية تمنعنى من ذلك • ولولا الابتزاز لما استطعت أن أرتزق ، ولن أترفع أبدا عن الحيـل ، التى تؤدى الى أسلوبى هذا فى الكسب • ولا يؤنبنى قلبى ولا ضميرى ، وانى ألعن أولئك الكهنة والقساوسة الذين يستمعون الى اعترافات المذنبين أشد لعنة • وان مقابلتنا هذه سعيدة وموفقة ، وأقول ذلك قسما بالله وبالقديس يعقوب(١٢) ! فقل لى اذن ما أسمك يا أخى العزيز ! » • وبينما كان المزارع يستمع الى كل ذلك بدأ يبتسم

قليلا وقال : « يا أخى أتريد أن أقول لك اسمى ؟ أنا شيطان من أهل الجن ، واقامتى فى جهنم • وتجدنى هنا أسيرا ممتطيا جوادا لأعرف أين أستطيع أن أحصل على شىء من أحد من الناس • وان كان ريعى مما أستطيع أن آخذه من الناس عنوة وتهديدا • وها أنت ذا تسير فى رحلتك لنفس الغرض ، لأنك لا تبالى بالأسلوب ، الذى تحصل به على ما تريد • وأنا مثلك تماما ، فانى مستعد للركوب الى أطراف الدنيا فى سبيل فريسة ما » • فقال المحضر : « أجل ثم أجل بارك الله فيك فما رأيك ؟ لقد ظننت فى الواقع أنك حقا مزارع وشكلك شكل الرجال مثلى ، ولكن هل لك هيئة أخرى وأنت مقيم فى جهنم ؟ » • فأجابه قائلا : « لا بالطبع فلا شكل لنا هناك ، وانما نستطيع أن نتخذ أى شكل نريده متى شئنا ، أو أن نوهمكم بشكل ما(١٣) فقد نكون أحيانا على هيئة انسان أو هيئة قرد ، كما أستطيع أن أكون مثل الملاك ، وأن أكون راكبا أو ماشيا • ومع كون ذلك يبدو عجيبا فالواقع أنه ليس كذلك لأن أى مشعوذ أو بهلوان يستطيع أن يخدعكم مهما بلغ من التفاهة ، وأقسم بالله أننى أعلم منه فى فنه » فسأله المحضر : « ولماذا تسير دائما على هيئات مختلفة ، ولا تلتزم بشكل واحد ؟ » **فقال الجن :** « لأننا نتخذ أشكالا مختلفة بقدر ما تكون صالحة لاقتناص فرائسنا » • **فسأل المحضر :** « وفى سبيل ماذا كل ذلك التعب والشقاء ؟ » • فأجابه الجن قائلا : « فى سبيل أسباب كثيرة يا سيدى المحضر العزيز • ولكن لكل أمر أوانه ومقامه(١٤) • واليوم قصير ، وقد مضى الضحى ، ولم أكسب شيئا حتى الآن فى يومنا هذا • وانى سأهتم الآن باقتناص الأرواح اذا وجدت لذلك سبيلا ، ولن أضيع الوقت فى مجرد اظهار ذكائى لك • أما أنت يا أخى فان ذكاءك أضعف من أن يدرك ما أقوله ، حتى لو شرحت لك كل ما فى جعبتى من حيل • على أنك قد تتساءل لماذا نعمل ونشقى والواقع أننا من أدوات الله فى الكون(١٥) ، وقصدنا أن ننفذ أوامره متى شاء ، وأن نطبق ما يقضى به على مخلوقاته بطرق شتى ، وعلى هيئات مختلفة • فلا شك أننا لا سلطة لنا ، اذا قضى أن يقف ضدنا ، بل اننا بعد توسلات كثيرة ، قد نحظى بحق بعقاب الجسد فحسب دون الروح • والشاهد على ذلك أيوب ، الذى أصبناه ببلاء شديد(١٦) • وأحيانا تمتد سلطتنا للجسد والروح معا ، وأحيانا يسمح لنا أن نطارد الانسان ، وأن نقلق روحه لا جسده ، وعندئذ يكون كل شىء على أحسن ما يكون • فاذا قاوم اغراءنا كان ذلك سببا لخلاصه ، بالرغم من أنه لم يكن من غرضنا أن يبقى سليما ، بل كانت نيتنا أن نختطفه • وأحيانا قد نصبح خدما للانسان ، كما كانت الحال مع القديس « دانستان » (١٧) كبير الأساقفة ، كما كنت أنا بالذات خادما لتلاميذ المسيح » • فسأله المحضر عندئذ : « بل قل لى أصحيح أنكم تؤلفون أجسادكم أو أشكالكم المتجددة من عناصر الطبيعة ؟ » فأجابه الشيطان قائلا : « بل أحيانا نتنكر بشكل ما ، وأحيانا نبعث بعض الجثث الهامدة ونتفوه بكلام معقول منطقى ، كما فعلت العرافة مع النبى صموئيل(١٨) ، ومع ذلك فان بعض الناس يقولون انه لم يكن هو بعينه الذى بعث ، ولكنى لا أقيم أية أهمية لعلوم الدين بحذافيرها • الا أن

هناك أمرا يجب أن أنذرك به وأنا لا أمزح الآن ، انك ستبقى دائما متشوقا لمعرفة كيف يكون شكلنا ، الا انك ستجيء فيما بعد يا أخي العزيز الى حيث لا تحتاج الى دروس مني ، لأنك ستعرف من خبرتك المباشرة كيف تحاضر في هذا الموضوع كأستاذ مخضرم ، وذلك على وجه أحسن مما فعله الشاعر فيرجيل في حياته ، أو دانتي نفسه(١٩) · والآن فلنسر سيرا أسرع من هذا ، لأنني أود أن أبقى في صحبتك ، حتى يحدث ما يجعلك تهجرني » ·

فصاح المحضر قائلا : « كلا ثم كلا لن يحدث ذلك ، فاني مزارع معروف في أنحاء كثيرة ، وأنا سأتمسك بوعدي · فحتى لو كنت الشيطان ابليس نفسه ، لاحترمت عهدي لك يا أخي ، عملا بقسمي بأن يكون كل منا أخا صادقا للآخر · وكل منا يستطيع أن يتفرغ لعمله في ابتزاز ما يمكن ابتزازه · خذ اذن نصيبا لك ما يرضى الناس أن يعطوه لك ، أما أنا فسآخذ نصيبي أيضا · وهكذا نستطيع أن نعيش معا · واذا حصل أحدنا على نصيب أكثر من الآخر ، فليحترم عهده ، ويقتسمه مع أخيه » · فأجابه الجن قائلا : « قبلت قسما بايماني » · وبهذه الكلمات استمرا في طريقهما ، وبينما كانا قادمين الى أبواب المدينة التي كان المحضر ينوي أن يقصدها ، رأيا عربة محملة بالتبن ، كان سائقها يدفعها أمامه · أما الطريق فكان موحلا وانغرست العربة في الوحل ، وكان السائق يضرب الدابة ، ويصيح كأنه مجنون : « شي ! حا ! شي ! حا ! يا « بروك » يا « سكوت » (٢٠) ! لم تتوقفان أمام بعض الحجر في الطريق ؟ ليخطفكما الشيطان لحما وشحما وعظاما قسما بيوم ميلادكما ! وكم شقيت معكما ! ليأخذكم الشيطان ، جميعا خيلا وعربة وتمنا ! » فقال المحضر لزميله : « تعال يا أخي هنا نجد مجالا للمزاح » فدنا من الجن كأن شيئا لم يكن وهمس في أذنه خلسة ما يأتي : « انتبه يا أخي ، انتبه قسما بايماني ! ألا تسمع ما يقوله سائق العربة ؟ خذه في الحال ، ما دام الرجل قد سلم لك التبن والعربة وجياده الثلاثة » ·

فقال الشيطان : « كلا ، والله أعلم ، ليست هذه هي الحال بتاتا ، وليست هذه هي نيته ، وثق تماما في ما أقوله لك · بل سله بنفسك ، اذا كنت لا تثق بكلامي ، والا فانتظر قليلا وعندئذ سترى الحقيقة » · وعندئذ ربت السائق على ردف حصان من خيوله فأخذت تشد العربة بقوة · فصاح : « انهض ! شي ! بارك فيك يسوع المسيح وكل خليقته ! أحسنت الجر يا حصاني الرمادي العزيز ، وأرجو الله أن يسلمك وأن يشفع لك القديس اليجيوس(٢١) ! فان عربتي الآن قد خرجت من الوحل قسما بالله » ·

فالتفت الشيطان للمحضر وقال له : «اليك ياأخي ما حدث أمامك ! الم أقل لك من قبل ان هذا هو ما قد يحدث ؟ وهنا ، يا أخي العزيز ، يمكن أن تلاحظ أن الفلاح قال شيئا ولكنه أضمر شيئا !خر · فلنتقدم اذن في رحلتنا لأني لن أكسب شيئا من تمسكي بحقي في هذه العربة وهذه الجياد » ·

وبعد أن خرجا بعض المسافة من المدينة ، أخـذ المحضر يهمس من جـديد لأخيه الجنى قائلا : « يا أخى هنا تقيم عجوز شمطاء تفضل أن يضرب عنقها على أن تسلم قرشا واحدا من مالها ، وانى سآخذ منها اثنى عشر بنيا ، حتى لو أدى ذلك الى أن تجن ، والا استدعيتها الى محكمتنا الكنسية • ومع ذلك الله يعلم أننى لم أبلغ بأى ذنب ارتكبته • واذا كنت لا تستطيع أن ترتزق فى هـذه المقاطعـة فاعتبر بى ، وامتثل أمرى » فطرق المحضر باب الأرمله وصاح لها قائلا : « اخرجى أيتها الشمطاء ، فأنا أعلم أنك فى صحبة قسيس أو راهب جوال » فقالت المرأة : « من الذى يطرق الباب ؟ مبارك ، مبارك ! حفظك الله يا سـيدى هى رغبتك الكريمة ؟ » • فأجابها قائلا : « عندى هنا وثيقة استدعاء موجهة لك ؛ فاذا لم تستجيبى وقع عليك قرار بالحرمان الكنسى • فعليك اذن أن تحضرى غدا بين يدى كبير الشمامسة ، لتدافعى عن نفسك أمام المحكمة ، بخصوص بعض الأمور » • فقالت : « يا سيدى العظيم أعاننى يسوع المسيح ملك الملوك اعانة حكيمة ، لأننى لست قادرة على الذهاب • اذ كنت مريضة أياما طويلة ، ولا أستطيع أن أخرج من بيتى ، ولا أركب جوادا ، والا هلكت ، لأن الألم شديد فى جانبى • وألا يحق لى أن أطلب نسخة من وثيقة الاتهام الموجهة ضدى يا سيدى المحضر ؟ وألا يحق لى أن أستجيب للاستدعاء من خلال وكيل أو محام ؟ » •

فقال : « أجل فادفعى اذن ••• دعينى أحسب ••• ادفعى اثنى عشر بنيا لى هنا ، وأنا أستطيع أن أبرئك ، ولن أجنى من هـذا المبلغ الا مقدارا ضئيلا ، فالفائدة كلها لرئيسى لا لى • أسرعى اذن ، وخلصينا ، ودعينا نركب ونغادرك على وجه السرعة • أعطينى اثنى عشر بنيا فأنا لا أستطيع أن أنتظر أكثر من ذلك » •

فصاحت متعجبة : « اثنى عشر بنيا ! أتوسل بشفاعة سيدتنا العذراء مريم فى أن أخلص نفسى من الهموم ومن الذنوب أيضا ، فحتى لو كنت قد كسبت ما فى الدنيا الواسعة كلها لما وجد الآن فى قبضتى اثنا عشر بنيا • وأنت تعلم أننى فقيرة وهرمة ، ولذا أرجو أن تظهر بعض الشفقة والرحمة ازائى ، فأنا غلبانة ومسكينة ! » فقال المحضر عندئذ « اذن يا امرأة لن أغتفر لك هذا ، والا فليخطفنى الشيطان الرجيم ، حتى لو أدى ذلك الى خراب بيتك ! » فبكت قائلة : « ياويلى ، الله يعلم أننى لا أملك مالا » •

فقال : « ادفعى لى ، والا ، قسما بالقديسة حناء(٢٢) الطيبة ، سآخذ منك ذلك الاناء الجديد ، وفاء للدين الذى يستحق لى عليك منذ زمن طويل فتذكرى أنك حين خنت زوجك أنا الذى دفعت الغرامة التى وقعت عليك » •

فقالت : « أنت كاذب قسما بخلاصى فلم أكن أبدا زوجة ولا أرملة ، ولم أستدع الى محكمتك أبدا طوال حياتى • وأنا أدنس جسدى أبدا • أما جسدك أنت وهذا الاناء بالاضافة له فقد وهبتهما للشيطان الأسود الغليظ ! »

ولما سمع الشيطان ما أدلت به من شتائم ، وهي لا تزال ساجدة على الأرض ، قال « والآن يا «مابلى» يا أمى العزيزة أتصدقين ما تقولين ؟ أهذا حقا ما تريدينه ؟ » فأجابته : « خطفه الشيطان قبل اليوم المقدر لهلاكه ! وليخطف الاناء أيضا ، ولكن المهم أن يندم ويتوب ! » فقال المحضر : « لا أيتها البقرة العجوز ، ان هـذا ليس غرضى ، وليتنى أخذت منك كل ما تملكين ، حتى أرديتك التحية وكل خرقة تريدينها • فقاطعه الشيطان قائلا : « لا يا أخى لن تغضب فان جسدك وهذا الاناء قد أصبحا ملكى شرعا • والليلة سترحل معى الى جهنم ، حيث تدرك كل شىء من أسرارنا ، أكثر مما لو كنت عالما جليلا من علماء الدين » •

وبهذه الكلمات قبض عليه الشيطان الرجيم ، واختطفه ، وبذلك ذهب مع الشيطان جسدا وروحا الى حيث يجد المحضرون ما يستحقونه من ميراث •

والله الذى خلق البشر فى صورته ، وأرشدنا جميعا ، وجعل هؤلاء المحضرين يصبحون خيرين فضلاء ! •

أيها السادة الكرام ، انه لم يكن باستطاعتى (لولا وجود هذا المحضر بيننا) أن أسترشد بنصوص المسيح وبولس الرسول والقديس يوحنا وعدد كبير من فقهاء الدين فى أن أصف الآلام ، وألوان العقاب المفزعة لقلبك ، تلك التى توجد فى ديار جهنم الملعونة ومع ذلك لم يقدر على ذلك لسان بشرى ، حتى لو عشت ألف شتاء أحكى لكم • ولكنى أناشدكم أن تصلوا ليلا ونهارا متضرعين ليسـوع المسيح ، لكى يحمينا من الذاب الى ذلك المكان اللعين وأن يدافع عنا ضد الشيطان المغرى الغدار •

انتبهوا اذن لكلامى وكونوا يقظين دائما • فالأسد يتربص دائما الكى يقتل الأبرياء (٢٣) ، اذا ما استطاع لذلك سبيلا • وهيئوا دائمـا قلوبكم لمقاومة الشيطان ، الذى يريد أن يجعلكم عبيدا وأسرى له • ولن يجربكم تجربة تفوق طاقتكم(٢٤) ، لأن المسيح نصيركم وفارسكم الباسـل • وصلوا من أجـل توبة هؤلاء المحضرين من خطاياكم قبل أن يختطفهم الشيطان •

هكذا تنتهى حكاية الراهب الجوال

هوامش حكاية الراهب الجوال

(١) **الراهب الجوال** : هذه ترجمتنا لكلمة Friar وهى مشتقة من كلمة Frater (أخ) اللاتينية • ومعناها نوع من الرهبان الذين لا تقتصر حياتهم على العبادة والعمل داخل الدير الممول من ريع أوقاف أو نفقات كنسية ، وانما يعتمدون على الشحاذة والسؤال ، مما يجود به الناس فى القرى والمدن • وبهذا يحققون شرط الفقر الذى يقسمون به عند دخولهم الرهبانية ، ويعتمدون على رزق من عند الله ، كما يشجعون الناس ، على اختلاف درجاتهم الاجتماعية ، على الصدقة والاحسان ، وللمزيد من التفاصيل عن هذا النوع من الرهبان ، أنظر الهوامش الخاصة بمقدمة « حكايات كانتربرى » (البيت رقم ٢٠٣) • ولا يوجد مقابل لهذا النوع من الرهبنة فى الكنائس الشرقية •

وهناك علاقة وثيقة بين حكايتي الراهب الجوال والمحضر ، اذ أنهما بمثابة هجاء كل منهما للآخر • ومع ذلك فأغلب الظن أن الخلاف بين المحضر والراهب الجوال خلاف قديم ومألوف فى الكنيسة الغربية فى العصور الوسطى • فالمحضر بحكم انتمائه لادارة المحكمة الكنسية يمثل سلطة شبه مركزية ، فى حين أن الراهب بحكم تجولاته واتصاله بالناس على قدم المساواة ، بل على قدم أدنى من عامة الناس ، يمثل نوعا من اللامركزية والاختلاط مع عامة الشعب • ويجمع النقاد على أن الراهب ، الذى نحن بصدده هنا ينتمى غالبا لدير ألفرانشسكان » ، اذا أخذنا بالاشارات الخفية فى حكاية المحضر • وكان الرهبان الفرانشسكان يمثلون عادة فضائل التواضع والمحبة والبساطة ، التى تميز بها مؤسس نظام أخوتهم الرهبانية ، ولكن الاختلاط المستمر بالحياة الاجتماعية الدنيوية ، والسؤال المستمر من مقتضاهما أن يخلقا عادات ، تتعارض مع طهارة مثلهم العليا ، وهذا هو المقصود فى هجاء المحضر للراهب الجوال هنا • والعكس صحيح فالسلطة ، التى كان يتمتع بها المحضر ، من حيث تبليغ أوراق الاتهام والاستدعاءات للمحاكم الكنسية ، كان من شـأنها أن المحضرين كثيرا ما يتعسفون فى تصرفاتهم ، ويبتزون الأموال ، خاصة من الفقراء والبسطاء ، الذين لا يعرفون حقوقهم بالضبط • وكان المحضرون فى مركز قوى للغاية ، بوصفهم صـلة المحكمة بالجمهور ، ويستطيعون أن يتحكموا فى مصائر الناس ، وأن يرتشوا من أجل تركهم وشأنهم • وهناك اجماع بين النقاد على أن حكاية الراهب الجوال لها صلة قوية بالقصص الشعبى ، وأنها تنتمى الى طائفة القصص المسماة « الأمنيات الثلاث » وأساس هذا النوع من الحكايات أن اللعنة تكون فعالة ، اذا صدرت من القلب • وهناك نظائر كثيرة لهذه الحكاية فى العصور الوسطى فى اللغات الأوربية المختلفة ولكنها لا تدور دائما حول شخصية المحضر الكنسى ، بل تتفق كلها على تناول شخصية قضائية أو موظف ، يمثل السلطة المركزية ويستغل سلطته استغلالا تعسفيا ، كما تتفق فى ادخال الشيطان كطرف متنكر فى الحكاية وفيها يعاقب المذنب عقابا شديدا •

والشيطان كما جاء فى المعاجم « كل عات متمرد من الجن والانس والدواب » والشيطان جن ، خلق من نار ، أو من دخان النار • والشيطان يستطيع أن يتشكل بأشكال الأناس •

وقد وردت فى كتب الحيوان للدميرى حكاية عن أبى كعب اذ قال انه كان له جرين تمر وكان يجده ينقص ، فحرسه ليلة ، فاذا هو بمثل الغلام المحتلم • قالت فسلمت ، فرد على السـلام

فقلت : من أنت ؟ ناولني يديك . فتاولني ، فاذا يد كلب وشعر كلب

فقلت : أجني أم انسي ؟

فقال : بل جني

فقلت : أراك ضئيل الخلقة . أهكذا خلق الجن ؟

قال : لقد علمت الجن أن ما فيهم أشد مني

فقلت : ما حملك على ما صنعت ؟

قال : بلغني أنك رجل تحب الصدقة فأحببت أن أصيب من طعامك ..

والتراث الشعبي حافل بالحكايات التي يقوم فيها الشيطان بأدوار هامة ، يظهر فيها بصور الأناسي ، وهو يجسم الكيد والخبث والدسيسة .

(٢) أسرار الكنيسة المسيحية السبعة هي : المعمودية وتثبيت العماد وتناول العشاء الرباني والزواج ورسامة الكهنة ومسحة المرضى .

(٣) الاتجار في الوظائف الكنسية لأسباب المحسوبية أو كسب المال خطيئة انتشرت في العصور الوسطى ، لأسباب كثيرة ، منها أن الكنيسة كانت المؤسسة الوحيدة في المجتمع الأوربي ، التي يمكن أن يصعد فيها العصامي ، أو من ينتمي الى أصل اجتماعي متواضع ، دون أن يعتمد على اعتبارات خاصة بسلالته النبيلة ، أو بسالته في ساحة القتال . فالكنيسة كانت بمثابة مركز للمثقفين والموظفين القضائيين والجامعة والمدرسة الى جانب أنها تملك عقارات كثيرة تحتاج الى ادارة ومباشرة . وسميت هذه الخطيئة وقتئذ « بالسيمونية » (Simony) نسبة الى سيمون في الانجيل (أعمال الرسل ٨ : ١٨) ، الذي طلب من بطرس الرسول أن يعطيه سلطة اعطاء الروح القدسي ، في مقابل مبلغ من الدراهم .

(٤) لا يقوم بمثل هذا الدور رئيس الشمامسة في الكنيسة الشرقية ، حيث تقتصر اختصاصاته على خدمة القداس ، تحت اشراف الكاهن . وانما كان هـذا اللقب يطلق على كثير من الموظفين القضائيين بالمحاكم الكنسية في العصور الوسطى بأوربا .

(٥) الحرمان الكنسي ينطق به الأسقف ضد كافر أو مذنب أو مرتكب لاحدى الكبائر ، اذا رأى ذلك . ومعنى الحرمان أن الشخص المشمول به لا يستطيع أن يشترك في القداس ، ولا في أسرار الكنيسة السبعة ، وخاصة تناول العشاء الرباني أو الدفن في مدافن كنسية .

(٦) أنظر انجيل يوحنا ١٢ : ٦

(٧) هذه أسماء خيالية ترمز الى مختلف طوائف الناس في المجتمع ، علما بأن الاسمين الأولين غالبا ما يشيران الى الكهنة .

(٨) الأصل في النص كلمة (ribibe) ومعناها الكمان أو الربابة ، وهي مشتقة من العربية أصلا . فكيف توصف العجوز الشمطاء بأنها « ربابة » ؟ يبدو أن الذي حدث في اللغة الانجليزية الوسطى خلطها في الترجمة من اللاتينية حيث تعني كلمة **vetula** العجوز ، وتعني كلمة vidula الربابة ، أو الكمان . وهناك اقتراح من بعض النقاد أن « رفقة » (Rebecca)

هى التوراة يجىء ذكرها فى القداس الخاص بالزواج فى الكنيسة ، وأن ribibe أو rebekke كلمتان بمعنى الكمان بالانجليزية الوسطى قد اختلط أمرهما باسم رفقة زوجة اسحق فى التوراة ·

(٩) ترجمنا yeoman هنا بمزارع ، لأن الكلمة الانجليزية الأصلية تحتمل معانى كثيرة منها مساعد الفارس فى النظام الاقطاعى ، ومنها الجندى المستقل ، ومنها المشرف على الغابات ، وانما العنصر المشترك بين كل هذه الأوصاف أنه ليس رقيق الأرض ، بل رجل يقوم بأعمال زراعية ، مستقلا الى جانب واجباته العسكرية ·

(١٠) وصف المزارع هنا يذكرنا بوصفه فى المقدمة العامة « لحكايات كانتربرى » (البيت ١٠٣ وما بعده) · ولكن يلاحظ أنه فى الأساطير السلتية كان اللون الأخضر دليلا على الخوارق ، بل ان الجن فيها يرتدون دائما اللون الأخضر · والأساطير السلتية كانت منتشرة فى شمال انجلترا ، التى أتى منها المحضر ، وهذا المزارع المذكور ، كما ذكر فى البيت ١٤٨ ·

(١١) ذكر بلاد الشمال فيه اشارة الى أن المزارع من الجن ، فالطاعة (فى اشعياء ١٤/١٣ « يجلس » على جبل الاجتماع فى أقاصى الشمال · وكذلك الحال فى الأساطير الجرمانية ، حيث يأتى الشر دائما من الشمال ، كما كانت العقائد الشعبية تتصور أن جهنم فى الشمال وكان هناك مثل شائع باللاتينية فى العصور الوسطى يقول ان « كل الشر يأتى من ريح الشمال »
(Ab Aquilone omne malum)

(١٢) القديس يعقوب : المقصود هنا هو يعقوب من كومبوستلا (Compostella) وهو القديس الراعى لاسبانيا ، لأنه كان يظن أنه اشترك مع النصارى الاسبان فى التغلب على الممالك والامارات العربية فى الأندلس · وبنيت له كنيسة كبرى فى مدينة سميت Santiago تمجيدا لاسمه ، وكانت من أهم مقاصد الحجاج المسيحيين فى العصور الوسطى ، الى جانب كانتربرى وبيت المقدس ·

(١٣) كان هذا موضوعا مرموقا فى المناظرات الدينية فى العصور الوسطى ، فاذا كان الجن يستطيعون أن يتجسدوا بأى شكل يريدونه ، فما هو شكلهم الأصلى ، وهم فى وطنهم جهنم ؟ ومم يتكونون ؟ ·

(١٤) الشيطان هنا يتكلم بأسلوب الكتاب المقدس فى سفر الجامعة ١ : ١ : « لكل شىء زمان ولكل أمر تحت السموات وقت ·· » ·

(١٥) كان من المحتم على المؤمن أن يعتبر وجود الشيطان جزءا من الخطة الالهية وأنه اذن منفذ للارادة الالهية ولا يعمل لحسابه · فاعتبر اذن بمثابة أداة للعقاب ، نتيجة لغضب الهى لا كفاعل يعمل منافسا للارادة الالهية ·

(١٦) سفر أيوب ١ ، ٢ ، و ٢ : ٦ ·

(٧١) كان القديس دانستان (Dunstan) كبير أساقفة كانتربرى من ١٩٦١ الى ٩٨٨ م ، واشتهر بالقدرة على اخراج الشياطين من جسد المؤمن ، وبالمبارزات المختلفة ، التى قام بها منتصرا مع ابليس نفسه ·

(١٨) سفر صموئيل الأول ٢٨ : ٧ : « فقال شاول لعبيده فتشوا لى امرأة صاحبة جان ، فأذهب اليها وأسالها · فقال له عبيده ها هى ذى امرأة صاحبة جان فى عين دور » · وهذه هى التى نسب اليها استحضار صموئيل من الموتى ·

(١٩) اشارة الى أن « الانيادة » لفرجيل والكوميديا الالهية لدانتى ، تشتملان على وصف مفصل للعالم السفلى ، الأمر الذى يجعل فرجيل ودانتى يعتبران فى نظر تشوسر خبراء فى شئون جهنم ·

(٢٠) ترجمنا الكلمة الأصلية «Hayt» بالعبارات العامية لاستثارة الدابة (شى ! حا !) فى مصر · أما اسم « بروك » (Brok) وهو الاسم القديم لحيوان الفرير (أو الزبزب) ، فكأن يطلق على الحصان الرمادى لتشابهما فى اللون ، واسم « سكوت (Scot) ويطلق على الخيل عامة خاصة فى بعض مقاطعات شرق انجلترا ·

(٢١) هو نفس القديس الذى كانت رئيسة دير الراهبات لا تقسم الا باسمه (كما جاء فى البيت رقم ١٢٠ من المقدمة العامة « لحكايات كانتربرى » · الا أنه يلاحظ أن هذا القديس هو راعى سائقى العربات والحدادين بأوربا فى العصور الوسطى ·

ويلعب هذا القديس دورا هاما فى القصص الشعبى (انظر
Aarne's Types of the Folk-Tale, tr S. Thompson, p. 118 No. 753)

(٢٢) هى أم السيدة العذراء مريم ·

(٢٣) مزامير ١٠ : ٩ : « يكمن فى المختفى كأسد فى عرينه · يكمن ليخطف المسكين · يخطف المسكين بجذبه فى شبكته » ·

(٢٤) رسالة بولس الرسول الأولى الى أهل كورنثوس ١٠ : ١٣ : « لم تصبكم تجربة الا بشرية · ولكن الله أمين الذى لا يدعكم تجربون فوق ما تستطيعون بل سيجعل مع التجربة أيضا المنفذ لتستطيعوا أن تحتملوا » ·

حكاية المحضر الكنسى

مقدمة حكاية المحضر الكنسى(١)

نهض المحضر الكنسى ووقف مستقيما على ركابه ٠ وكاد غضبه ضد الراهب الجوال يصل الى حد الجنون حتى أنه بدأ يرتعد كأنه ورقة شجر فى مهب الهواء ٠ ثم قال : ياأيها السـادة ، لا أرغب الا فى شيء واحد منكم وهو أن تتفضلوا بالاستماع الى قصتى ما دمتم قد استعمتم الى أكاذيب هذا الراهب الغدار ٠ يقول هذا الراهب الجـوال انه يعرف معالم جهنم والله يعلم ألا عجب فى ذلك فالرهبان الجوالون والشياطين يتشابهون الى أقصى حدود التشابه ٠ لقد سمعتم أكثر من مرة ، بالله عليكم ، كيف أن أحد الرهبان الجوالين قد اختطف الى جهنم وهو يحلم حلما ليلا ، وكان ملاك يقوده فى كل أنحاء ذلك المكان ، لكى يعرض عليه ألوان التعذيب المختلفة الموجودة به ، فتطلع الى كل ركن من الأركان ولم يز راهبا جوالا واحدا ، مع أنه رأى كثيرين من غير الرهبان يتعذبون عذابا شديدا ٠ وبعد قليل سـأل الراهب الملاك قائلا : « أيتمتع الرهبـان الجوالون بمثل تلك النعمة ، الى حد ألا يجيء أحد منهم الى هذا المكان ؟ » ٠

فأجابه الملاك : «كلا ، بل يجيء الى هنا ملايين منهم» وعندئذ قاده الى حيث يتربع ابليس على عرشه وقال له : « ان لابليس ذيلا أعرض من شراع السفينة العريضة (٢) ، **ثم استطرد وقال :** « ارفع ذيلك يا ابليس ، واكشف استك ، ودع الراهب الجوال يرى أين يقع عش الرهبان الجوالين فى ذلك المكان ! » ٠ وقبل أن ينقضى من الوقت نصف ساعة كان الرهبـان الجوالون كثول النحل ،

الذى يعج بالخلية ، قد انطلقوا من است ابليس وبلغ عددهم ما لا يقل عن عشرين ألفا فى جماعة كبرى وأخذوا ينتشرون فى كل أنحاء جهنم ، ثم عادوا من جديد الى مخبئهم بنفس السرعة التى انطلقوا بها منه . وتسللوا ثانية الى استه ثم أرخى ابليس ذيله عليهم ولم يتحرك بعد ذلك . ولما كان هذا الراهب الجوال قد شهد ما شهده من عذاب فى ذلك المكان الكئيب تفضل الله بأن رد نفسه الهائمة الى جسده من جديد ثم استيقظ ، ومع ذلك استمر يقشعر ويرتعد خوفا ، وبقى است ابليس ماثلا دائما فى عقله ، وهذا هو تراثه بحكم طبيعته . سلمكم الله جميعا ما عدا هذا الراهب الجوال اللعين ! وبهذا الشكل أنهى مقدمتى » .

وهنا تبدأ حكاية المحضر الكنسى(٣)

سادتى هناك فى مقاطعة « يوركشاير » على ما أظن منطقة مستنقعات أسمها « هولدرنيس » (٤) . وكان أحد الرهبان المرخص لهم بالسؤال فى منطقة معينة يتجول بكل أنحاء المنطقة يعظ ويشحذ فى آن واحد . ولا ريب فى ذلك . وحدث ذات يوم أن ألقى ذلك الراهب موعظته فى كنيسة ما على النحو المعتاد ، وكان عندئذ يتميز بأنه يستشير الناس فى عظته ، لكى يدفعوا له مالا حتى يقيم ثلاثين قداسا(٥) افتداء للأرواح الهائمة فى المطهر . كما كان يحثهم على أن يتبرعوا له بمال لانشاء بيوت لله ، حيث يمكن أن تقام مراسم القداس . فالمال المدفوع على هذا النحو لا يضيع ولا يذهب سدى ولا فى أبواب لا حاجة لها الى مال وانما تعطى للكهنة والرهبان(٦) ، الذين يعيشون من التبرعات التى تعطى لهم عيشة الرخاء والنعمة السخية . والحمد لله على ذلك . وكان يقول فى موعظته : « ان التبرع للثلاثين قداسا يؤدى الى تخليص أرواح أصدقائنا المتبرعين ، شيوخا كانوا أم شبابا ، وذلك خاصة اذا أقيمت مراسم القداس كلها فى يوم واحد ، لأن الكاهن العادى لا يستطيع أن يقيم أكثر من قداس واحد فى اليوم اذا أراد ألا يعرض نفسه لتهمة الطيش أو الاستخفاف . ولذلك اجتهدوا فى عتق هذه الأرواح المعذبة بسرعة ، لأنه من أشق العذاب أن تمزق النفس بكلابات اللحم أو لمثاقب أو أن تحرق أو تخبز خبزا فى المطهر . فأسرعوا اذن فى سبيل المسيح ! »

ولما كان الراهب ينتهى من كلامه كان يسير فى طريقــه ، بعد أن ينطق بالدعاء الذى يستهل بعبارة : « ذلك الذى يقيم مع الأب والروح القدس .. (٧) وبعد أن يعطيه الناس ما يريد ينصرف (ولا يرضى أن يبقى أكثر من ذلك) ، ويمسك فى يده كيس الصدقات والعصا المطعم بالمعدن أو العاج(٨) بعد أن يكون قد يشمر جلبابه ويرفعه لكى يسرع فى السير . وأخـــذ يذهب من بيت لبيت يبحث عن مراده من المال ويتدخل فى شئون لا تعنيه ، ويسأل من أصحابها أن يعطوه بعض الجريش والجبن أو قليلا من الغلة . وكان لزميله الذى يتسول معه عصا مدببة ومغشاة بالقرن وزوجا من لوحات الكتابة من العاج وقلم بسط مبرى

جيدا وكان دائما يسجل أسماء من تبرع لهما بشيء ويعدان بأنهما سيصليان من أجلهم . وكم كانا يخاطبان الناس قائلين : « اعطونا كيلة من الغلة أو الفريك أو الشيلم وكعكة من أجل الله(٩) أو قطعة من الجبن أو أى شيء آخر ترتضونه (فليس لنا أن نختار) أو نصف درهم من أجل الله أو درهما للانفاق على قداس ، أو اعطونا بعض الشحم ، واذا كان لديكم منه أو قطعة نسيج (يا سيدتى العزيزة اختنا الحبيبة ها أنا ذا أدون اسمك هنا !) أو اعطونا بعض لحم الخنزير أو الكندوز « أو أى شيء آخر تجدونه لديكم » .

وكان هناك خادم مفتول العضل يتبعهما دائما وكانت وظيفته أن يخدم زوار الدير وكان يحمل على ظهره كيسا كبيرا ، يضع فيه كل شيء يتبرع به الناس لهم . واذا وقف أمام باب من الأبواب أسرع بمحو كل أسماء المتبرعين السابقين ، التى سجلت على اللوحتين وكان هـذا الخادم دائما يروى حكايات خيالية تافهة ليرفه عن الناس وعندئذ قاطع الراهب المحضر الكنسى وصاح قائلا : « كلا ثم كلا ، أنا كذاب أيها المحضر ؟! » فتدخل مضيفنا وقال : « السكوت ! السلام ! من أجل أم المسيح العزيزة ، تكلم بحرية وارو حكايتك ، ولا تتوقف » . فأجابه المحضر : « قسما بمستقبلى هذا ما سأقوم به فعلا » . واستمر فى حكايته قائلا :

وذهب الراهب ، واستمر فى رحلته يمر من بيت الى بيت ، حتى وصل الى دار ، اعتاد أن يجد فيها ما لذ وطاب أكثر مما كان يجده فى مائة مكان آخر . وكان صاحب الدار ملازما الفراش الواطىء لمرضه . فقال الراهب بصوت ناعم مهذب : « الله معك(١٠) يا توما يا صديقى والسلام عليك . جزاك الله فكم من مرة قضيت وقتا سعيدا فى مجلسك ، وكم من وليمة تناولت فيها الطعام على مائدتك » . ثم طرد القطة النائمة على الأريكة ووضع فوقها قبعته وعصاه وكيسه أيضا ثم جلس فى أناة . أما زميله فقد خرج ، ليتروض فى المدينة ، وأصطحبته الخادم وذهبا معا الى الحانة التى كانا قد قررا أن يبيتا فيها تلك الليلة .

ثم قال الرجل المريض للراهب : « يا سيدى العزيز كيف قضيت الوقت ، منذ أن بدأ شهر مارس ؟ انى لم أرك منذ أكثر من أسبوعين » فأجابه الراهب الجوال قائلا : « الله يعلم أننى شقيت طويلا وخاصة من أجل خلاصك فقد صليت صلوات ثمينة للغاية ومقبولة عند الله . واليوم حضرت القداس فى كنيستك من أجل أصدقائنا الآخرين (بارك الله فيهم !) وألقيت موعظة اعتمدت فيها على عقلى البسيط ، ولم تكن كلها مستوحاة من نصوص الكتاب المقدس . وبما أن ما قلته قد يصعب عليك ادراكه على ما أظن ، فانى سأفسر لك كلامى تفسيرا كاملا . ولا شك أن التفسير والتأويل أمران عظيمان للغاية لأن الحرف يقتل(١١) كما نقول نحن أهل الدين فقد علمت مستمعى أن يكونوا محبين كرماء ، وأن يعطوا بسخاء اذا كان ذلك معقولا . وهناك ، وأنا فى الكنيسة ، لمحت سـيدة الدار آه أين هى الآن ؟ » . فأجابه الرجـل قائلا : « أعتقد أنها هناك فى الفنـاء ، وستدخل البيت بعد قليل » . ثم جاءت الزوجة وقالت : « يا سيدى أهلا بك

قسما بالقديس يوحنا ... كيف حالك الآن ؟ » . فنهض الراهب بأدب وتؤدة وضمها الى صدره بذراعيه ضما قريبا ثم قبلها قبلات عذبة وشقشق كالعصفور بشفتيه وقال : « يا سيدتى ، الحمد لله حمدا مخلصا فان خادمك المتحدث اليك يحمد الله الذى وهبك نفسا وحياة ، وأقول اننى لم أجد اليوم امرأة أجمل منك فى الكنيسة والله يشهد على ذلك » فأجابته قائلة : أهلا أهلا بكم ، أصلح الله ذنوبى ! يا سيدى انك هنا بين أهلك ، وكم أود أن أرحب بك خير ترحاب قسما بايمانى ! » .

فقال : « أشكرك شكرا جزيلا يا سيدتى فانى وجدت دائما ترحابا كريما لديكم الا أننى أتوسل اليك أن تتفضلى بما جبلت عليه من أخلاق كريمة ، ان كنت لا تجدين ضيقا فى ما أفعله ، فأنا أريد أن أنفرد بتوما فى الحديث لمدة قصيرة . وان هؤلاء الكهنة فى أبرشيتكم غير منجزين ، بل انهم مهملون للغاية فى الغور الى أعمال النفوس أثناء الاستماع الى اعترافاتهم ، وان عملى كله ينحصر فى الوعظ والارشاد والدراسة فى أقوال بطرس وبولس الرسولين . وكلما سرت قنصت أرواح المسيحيين ، لكى نقدم الى يسوع المسيح فروض الطاعة والولاء ، وان كل غرضى هو أن أنشر كلمته بين العباد » .

ثم قالت : « والآن يا سيدى العزيز أستأذنك فى أن تعاتب زوجى أشد عتاب من أجل خاطر الثالوث المقدس ، فهو غاضب غضب النملة المضطربة . مع أنه يملك كل ما يتوق اليه . ومع أننى أغطيه كل ليلة وأدفئه . وأضع ساقى أو ذراعى فوقه طوال الليل فانه يشخر ويتأوه مثل الخنزير المقيم فى حظيرتنا . ولا أجد منه أى نوع آخر من الترفيه ، ولا أستطيع أن أدخل السرور الى قلبه بأية حال من الأحوال . آه يا توما يا توما أناشدك(١٢) يا توما ! هذا كله من عمل الشيطان ، ولابد من اصلاح الحال . فالغضب من الكبائر التى حرمها الله(١٣) ولذلك أود أن أقول كلمة أو كلمتين . أما الآن يا سيدى فقبل أن أنصرف قل لى ماذا تريد أن تتناول فى العشاء ، وأنا ذاهبة فى الحال لأعده لك » . فقال الراهب : « يا سيدتى أقول لك قولا لا شك فيه(١٤) لا أطلب من الدجاجة الا كبدها ومن خبزك الناعم الا شريحة رقيقة ، وبعد ذلك أود أن آكل رأس خنزير مشويا ، ومع ذلك فلا أريد أن تذبحوا حيوانا من أجلى ، ولآكل معكم الموجود الذى تتناوله الأسرة كعادتها . فأنا رجل لا يأكل الا القليل وكل اطعامى من قراءة الكتاب المقدس وجسدى دائما مستعد ومستسلم لشقاء السهر فى العبادة والتقوى الى حد أن شهيتى للأكل قد انعدمت تماما . وأرجوك اذن يا سيدتى ألا تغضبى ، اذا كنت أفشى لك أسرارى الدفينة ، بمثل هذه الحرية . وقسما بالله ما كشفت سرى الا للقلة القليلة » .

ثم قالت : « والآن يا سيدى لا أبغى منك الا كلمة واحدة قبل انصرافى . ان طفلى قد مات منذ أسبوعين وكان ذلك بعد مغادرتك هذه المدينة بوقت قصير » .

فقال الراهب : « لقد رأيت موته فى رؤية وأنا فى عنبر النوم بالدير . وأستطيع أن أقول انى رأيته بعد موته بأقل من نصف ساعة ورأيت أنه يحمل الى أعلى نحو جنات الخلد والبركات ، والله شاهد على فى ذلك ورآه كذلك خادم الكنيسة والراهب المشرف على المستوصف ، وهما من الرهبـــان الذين قضــوا خمسين سنة فى الرهبنة . وهما الآن بحكم سنهما ، والحمد لله على تفضله بذلك ، يستطيعان أن يسيرا منفردين ابتهاجا بمرور خمسين سنة فى السلك الرهبانى(١٥) وعندئذ استيقظت ونهض معى كل الرهبان فى الدير وكانت الدموع تنهمر على وجنتى من غير صراخ ولا دق أجراس الكنيسة . ولم نوجه الى الله سوى ترنيمة « نحمدك ياألله » وحدها دون أى ترنيمة أخرى ، الا أننى قمت بصلاة شكر خاصة للسيد المسيح حامدا اياه على الرؤيا التى منحها . فأرجوكما ياسيدى وياسيدتى أن تثقابى لأن صلواتنا فعالة للغاية بقدر ماتزيد معرفتنا بأسرار المسيح على معرفة العلمانيين حتى لو كانوا ملوكا . فنحن نعيش فقراء وزاهدين ، أما أهل الدنيا فيعيشون فى ثراء ولا يكفون عن الانفاق على الأكل والشراب وعلى متعهم القذرة . واننا نكره كل متع الدنيا . لقد كان « لعازر » المسكين والرجل الغنى (١٦) يعيشان عيشة تختلف اختلافا بينا ، وبناء على ذلك لقى كل منهما جزاءه . أما الشخص الذى يريد أن يصلى فعليه أن يصوم وأن يطهر نفسه وأن يسمن الروح ، ويجعل جسده نحيفا . وحالنا وصفها بولس الرسول . « فان كان لنا قوت وكسوة فلنكتف بهما » (١٧) حتى لو لم يكونا من أجود الأنواع . وان الطهارة والصوم اللذين نقوم بهما نحن الرهبان الجوالين يجعلون المسيح يتقبل صلواتنا . وان سيدنا موسى صام أربعين يوما وأربعين ليلة قبل أن يتفضل الله سبحانه بأن يسميه كليمه من فوق جبل سيناء(١٨) . وبقى خاوى المعدة ، وظل صائما أياما كثيرة حتى تلقى الشريعة التى خططتها أصابع الله . وأنتما تعلمان حق العلم أن النبى ايليا(١٩) صـــام صياما طويلا على جبل حوريب ، قبل أن يشرع الحديث بينه وبين سبحانه وتعالى مداوى حياتنا ، وبقى مدة طويلة يتأمل تأملا روحيا . أما هارون(٢٠) الذى كان مشرفا على تدبير شئون المعبد ، فحذا حذوه كل واحد من الكهنة لما دخلوا المعبد ليصلوا من أجل الشعب ، وليقدموا الحمد لله ، ولم يذق أحد منهم قطرة من الماء ، ولم يتناولوا خمورا ، تؤدى الى أن يصبحوا ثمالى بل ظلوا صائمين مصلين وساهرين لكى لا يموتوا فانتبها لما أقوله . اذا لم يكن الانسان رزينا واعيا فانه لن يستطيع ان يصلى من أجل الشعب . انتبها اذن ولن أقول شيئا آخر لأن فيما قلته الكفاية وان سيدنا يسوع المسيح (كمـا يعرفنا بذلك الكتاب المقدس) أعطانا أمثلة من الصوم والصلاة . ولذلك نحن الرهبان الجوالين الشحاذين والأبرياء قد عقدنا العزم على الفقر والقناعة والمحبة والتواضع والزهد والاستشهاد من أجل الحق والبكاء والرحمة والطهارة . ولذلك يمكنكم أن تلاحظوا أن صلواتنا (وأعنى صلوات الرهبان الجوالين الشحاذين) مقبولة عند الله سبحانه أكثر من صلواتكم أنتم يامن تقيمون الولائم الفخمة على موائداكم . وانى صادق اذ قلت لكم ان الانسان قد طرد(٢١) من الجنة من أجل نهمه . والأمر

واضح أن الانسان قد طرد فعلا من الجنة • ومع ذلك فانتبه الى يا توما اذ أنى أستطيع أن أشهد بنص خاص سندا لما أقوله ، ولكنى أجد هذا الكلام فى شرح من شروح (٢٢) الكتاب المقدس ألا وهو أن سيدنا المسيح العزيز كان يقصد الرهبان الجوالين عندما ما قال « طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات » (٢٣) ولا شك أنكم تجدون فى كل نصوص الانجيل ما فيه احياء بالغزل على منوالنا أكثر من الاسترشاد بمن يشغلون وظائف كنسية مركزية ثابتة (٢٤) • فأقول « عيب على غطرستهم وتفاخرهم ونهمهم بل اتحداهم بأنهم مجرد جلاء قريبين من الفسق والمجون » •

ويبدو لى أنهم يشبهون « جوفينانوس » (٢٥) فى أنهم سمان كالحوت ويمشون مشى البجع ، وهم ثملون بالخمر كأنهم قنينة فى خزانة النبيذ ان صلاتهم تكون خاشعة أعمق خشوع عندما يرتلون مزامير داوود النبى من أجل الموتى • فيتفزعون «بوف!» ثم يقولون «فاض قلبى بكلام صالح« (٢٦) وكم من الناس يتبعون انجيل المسيح وينسجون على منواله فن المتواضعين والفقراء مثلنا ونحن نطبق كلمة الله وننفذها ولسنا مجرد مستمعين اليها؟ لذلك أقول ان الصقر عندما يحلق في السماء يشبه صلوات الرهبان الجوالين ، الذين لا يكفون عن المحبة والحياة الطاهرة ، تلك الصلوات التى تصعد محلقة ، حتى تدرك أذنى الرب نفسه ياتوما ياتوما أقسم بقدرتى على المسير والمجىء ، وبذلك السيد الروحى المسمى القديس ايف» (٢٨) انك تعتبر الآن ضمن اخوتنا فى التقوى فمن أجلك نصلى ليلا ونهارا في كنيستنا ، لكى يمنحك المسيح الصحة والعافية لكى تستأنف نشاطك من جديد » • فقال توما : «يعلم الله أننى لا أشعر بأى تحسن ! وقسما بالمسيح لقد صرفت جنيهات كثيرة على رهبان كثيرين ، ومع ذلك لم تتحسن صحتى • ولا شك أننى قد أنفقت كل ما أملكه تقريبا • فوداعا لما لدى من ذهب لأنه كله قد زال منى •

فأجابه الراهب الجوال : « أهذه حالك ياتوما ؟ ولماذا تبحث عن رهبان مختلفين ؟ ما حاجة من بجانبه طبيب مثالى أن يبحث عن أطباء آخرين فى المدينة ؟ ان ما أضاعك هو عدم ثباتك على قاعدة معينة • هل تعتقد اذن أن المتحدث اليك ، أو أن ديرنا بكامل هيئته ، لا يكفيان للصلاة من أجلك ؟ ياتوما ان سلوكك هذا تافه الى أقصى حدود التفاهة • وان استمرارك فى المرض دليل على أننا لم نتلق منك كفايتنا • انك طبعا لا تعطى الدير سوى ربع كيلة من الحبوب ، وطبعا لا تعطى الدير سوى أربعة وعشرين درهما ! طبعا أنت لا تعطى الراهب الواحد سوى ربع درهم ، ثم تتركه لحاله ! كلا يا توما هذا غير جائز بتاتا ! ما قيمة الدرهم ، اذا قسم على اثنى عشر ؟ ان كل شىء ، اذا بقى متحدا وموحدا أقوى مما لو كان مبعثرا ومنشورا • ياتوما لن أتملقك ! فأنت تريد منا عملا مجانا • ان الله سبحانه الذى خلق العالم كله يقول ان الفاعل مستحق أجرته(٢٩) • يا توما أنا لا أطمع فى أن آخذ من كنوزك لنفسى ، ولكننى أريد مكافأة تعطى

لديرنا الذى يصلى من أجلك دون ما انقطاع بكامل هيئته وذلك للمساهمة فى تشييد كنيسة المسيح نفسه • ياتوما اذا كنت تريد أن تتعلم كيف تقوم بالأعمال الخيرة كبناء الكنائس مثلا ، فانك تجد العبر والأمثلة فى سـيرة القديس توما الهندى(٣٠) • ها أنت ذا ملقى على فراشـك تتميز بالغضب والغيظ اللذين أشعل بهما الشيطان قلبك • وفى الوقت نفسه تعنف تلك البريئة المستضعفة زوجتك المتميزة بالصبر والوداعة • ولذلك يا توما ، صدقنى لو راقك ذلك ، لا تختلف مع زوجتك ، فهذا خير لك • واستمع الى ما أقوله ، وخذ منى هذه الكلمة قسما بايمانك فهى كلمة قالها حكيم (٣١) « لا تصبح كالأسد فى دارك ، ولا تظلم من فى حظيتك ، وتصرف بحيث لا يهجرك من يعرفونك ، ثم ياتوما أناشدك : ومرة أخرى أناشدك ياتوما ، اياك والغضب ، الذى يرقد فى صدرك ، واحترس من الأفعى التى تتسلل بخبث بالغ تحت الأعشاب(٣٢) لتلدغ لدغا خفيا • احترس يا بنى وانتبه بصبر الى أن عشرين ألف رجل قد فقدوا حياتهم لنضـالهم مع خليلاتهم أو زوجاتهم • وأنت الآن معك زوجة غايه فى الوداعة والاستسلام ، فلماذا ياتوما ، لماذا تنازعها ؟ انى أعلم تماما أن الثعبان لا يكون أكثر افتراسا الا اذا داس أحد ذيله ولا تصبح المرأة أكثر قسوة الا حين تغضب غضبا شديدا ، فعندئذا لا يكون لها هم سـوى الثأر(٣٣) • والغضب خطيئة كبرى ، بل انه احدى الكبائر السبع الكريهة الى أقصى حد لله فى السموات ، بل ان الغضب يؤدى الى القضاء على الشخص ذاته • ويستطيع أى كاهن أو قسيس مهما بلغ من الجهل ، أن يقول ان الغضب قد يؤدى الى جريمة القتل العمد • فالغضب هو حقا منفذ للكبرياء • وفى وسعى أن أعدد لكم مسـاوىء الغضب ، ولو فعلت ذلك لاستمرت قصتى حتى الغد • ولذلك أتوسل الى الله ليلا ونهارا ألا يمنح الغاضب أى قسـط من القوة ! فانه شر بالغ ومما يدعو للأسى ، بلا شك ، أن يوضع الغاضب فى منزلة عليا • ويقول لنا الفيلسوف « سينيكا » (٣٤) انه كان فى قديم الزمان ملك كثير الغضب ، وحدث فى أثناء حكمه أن خرج فارسان فى حملة وآثرت ربة الحظ أن يعود أحدهما سالما وألا يعود الآخر • فأحضر الفارس الذى عاد ، أمام القاضى الذى قال له : « انك قتلت زميلك ، وهذا أمر يدعونى الى أن أحكم عليك بعقوبة الاعدام ولا شك فى ذلك » • ثم اتجه القاضى الى فارس آخر وقال له : « اذهب معه وخذه الى حيث يعدم اعداما » • وبينما كان الفارسان يسيران فى طريقهما الى مكان الاعدام ، حدث أن عاد الفارس ، الذى كانوا قد ظنوا أنه لقى حتفه ، الى أهله • ورأى الناس عندئذ أن خير حـل لذلك أن يحضر الاثنـان أمام القاضى • وقالوا للقاضى «يا سيدنا القاضى ان الفارس لم يقتل زميله ، فها هو ذا ماثل أمامك حيا يرزق» •

وعندئذ قال القاضى : « قسـما بالله لابد أن تعدموا ، ولابد أن تعدموا جميعا ، أى الفارس الأول والثانى والثالث » • واتجـه الى الفـارس الأول ، وقال له : « لقد نطقت بالحكم عليك ، فلابد اذن أن تموت • وأما أنت أيهـا الفـارس الثانى فلا بد من اعدامك لأنك السبب فى الحـكم على زميلك بأن

يموت » • ثم اتجه الى الفارس الثالث وقال له : « انك لم تفعل ما أمرتك به » •
وعلى هذا النحو قضى على الثلاثة بعقوبة الاعدام التى نفذت فيهم •

وكان قمبيز (٣٥) أيضا كثير الغضب ، وكثر الثمل وكانت غاية سعادته أن يكون شريرا مع الناس • وحدث ذات يوم أن صارحه سرا قائد من قواد حاشيته الذى كان مشغوفا بالاخلاق والمثل العليا **فقال له :** « ان السيد الشرير يضيع نفسه ، كما أن السكر أمر مخجل مشين بالنسبة لأى انسان ، وخاصة لرئيس أو سيد عظيم • فكم من عين وأذن تراقب سيدا ، دون أن يدرى • وأناشدكم بمحبة الله ألا تسرفوا فى تناول الخمور ! فان النبيذ يجعل الانسان يضيع حقه وكرامته ضياعا كاملا ، بل انه يؤثر فى قواه العقلية وفى كل أعضائه **فقال له قمبيز :** « ستجد أن الحال عكس ذلك بعد قليل . وستجد البرهان جليا واضحا من تجربتك الشخصية ، لأن النبيذ لا يسىء الى الانسان الاساءة ، التى تتكلم عنها • فلا نبيذ فى الدنيا يستطيع أن يسلبنى قوتى وجبروتى فى يدى أو فى قدمى أو فى نظرى » وكيدا فيه أخذ يحتسى من النبيذ قدرا أكبر مائة مرة مما اعتاد أن يشربه قبل ذلك • وبعد ذلك بقليل أمر هذا الوغد اللعين الغاضب بأن يدعى ابن فارسه للمثول بين يديه • وفجأة أمسك بقوسه وشد الوتر حتى أذنه ، ثم قتل الطفل فى الحال أمام الجميع • ثم سأل الفارس : « قل لى الآن ، هل يدى ثابتة متينة ؟ هل هجرنى عقلى كله وقواى ؟ هل سلبنى النبيذ قوة بصرى ؟ » • وماذا بوسعى أن أحكيه عن اجابة الفارس ؟ لقد قتل ابنه قتلا ولا شىء آخر يمكن أن يقال • كونوا اذن حريصين للغاية فى مزاحكم أو حديثكم مع الزعماء • **ورتلوا دائما حوله :** « سأرضى الرب » (٣٦) وقولوا دائما : « سأفعل ذلك ، لو وجدت لذلك سبيلا ، وذلك كله هو ما يجب أن تصنعوه ، الا اذا كان الشخص الذى تواجهونه رجلا فقيرا • اذ يجب أن يصارح الانسان الرجل الفقير بعيوبه ، ولكن لا يجوز ذلك بالنسبة لرجل ثرى أو زعيم من الزعماء ، حتى لو أدى ذلك الى ذهابه الى جهنم •

واليكم « قورش » ملك الفرس(٣٧) ، الذى قضى على نهر « جيزن » قضاء مبرما لأن أحد جياده غرق فيه وهو فى طريقه لبلاد بابل ، لكى يفتحها • فجعل النهر ضحلا لدرجة أن النساء أنفسهن استطعن أن يعبرنه على أقدامهن بدون صعوبة • ألم يقل فى مثل ذلك الحكيم القادر على تعليم الناس خير تعليم (٣٨) : « لا تستصحب غضوبا ولا تأت مع رجل ساخط لكى لا تألف طرقه ، وتأخذ شركا لنفسك » • ولن أضيف شيئا لذلك •

أناشدك اذن ياتوما يا أخى العزيز أن تترك غضبك جانبا • فانك ستجدنى دقيقا فى العدالة دقة مسطرة النجار • ولا تدع خنجر الشيطان يصوب الى قلبك ، فان غضبك الشديد يسىء اليك ، ويؤلمك للغاية ، بل اعترف لى بما فى ضميرك من ذنوب ، نريد أن نكفر عنها » • فقال الرجل المريض عندئذ : « كلا قسما

بالقديس سمعان • لقد اعترفت اليوم توا أمام كاهن كنيستى ، وقد حدثته عن حالى بكل حذافيرها • ولا داعى للتحدث عن ذلك بأكثر مما قلته لك » •

فقال الراهب : « أعطنا اذن بعض ما عندك من الذهب ، لنشيد رواق ديرنا ، فكم من بلح البحر والمحار اضطررنا أن نتغذى بها حتى لا نموت جوعا ، وحتى نستطيع أن نجد وفرة من المال لتشييد ديرنا ، بينما يعيش الناس فى بحبوحة من العيش • ومع ذلك يعلم الله أننا لم نتم أساس مبانى الدير الا منذ أمد قريب ، أما أرضية الدير فلم نضع منها آجرة واحدة حتى الآن ، وأقسم بالله أننا مدينون بأربعين جنيها ثمن حجارة لم ندفعه • ومن ثم أناشدك ياتوما أن تساعدنا من أجله الذى عنف أهل جهنم وعاقبهم(٣٢) والا لتخليص الأخيار من بينهم والا اضطررنا الى بيع كتبنا كلها • واذا حرمتم من مواعظنا فان العالم كله سوف يؤول الى خراب ودمار ، واذا وجد أحد يريد أن يحرم العالم منا ، فانى أقسم بأن يسلمنى الله ، أنه يحرم الدنيا من شمسها اذا جازلى أن أقول هذا • فمن يستطيع أن يضارعنا فى الأعمال الصالحة والدرس الحسن ؟ وليس ذلك منذ أمد قريب ، بل انه منذ عهد ايليا النبى (٤٠) واليشع النبى وكان الرهبان الجوالون موجودين ، وهذه حقيقة وجدتها مسجلة فى كتب التاريخ ، والحمد لربنا على ذلك ، بكل مشاعر المحبة والولاء • وأناشدك ياتوما أن تمديد المساعدة من أجل المحبة المقدسة ! « وبهذه الكلمة خر ساجدا على الأرض •

وأوشك الرجل المريض على الجنون ، لشدة غضبه ، لما سمع ذلك ، وتمنى أن يقذف بالراهب الجوال فى النار عقابا له على نفاقه وقال : « ليس فى حيازتى ما أستطيع أن أعطيه ولا شىء آخر ، ألم تقل لى انى أخ لك ؟ » •

فأجابه الراهب قائلا : « نعم بدون شك، وكن مطمئنا لذلك ، فقد سلمت سيدتنا زوجتك البراءة المختومة ، التى تقضى بذلك » •

فقال المريض : « اذن سأعطى بعض أموالى الى الدير المقدس الذى تنتمى اليه طوال حياتى • سأسلمك المبلغ فى يدك ، بعد قليل ، على الشرطا الآتى دون غيره من الشروط ، وهو أن تقسمه قسمة الحق ياأخى العزيز بحيث يكون نصيب كل راهب مثل نصيب الآخر • وعليك أن تحلف بأنك ستنفذ ارادتى على سلامة شهادتك الدينية ، من غير غش ولا مراوغة « فقال الراهب : أقسم بايمانى أننى سأفعل ذلك » • وبذلك شد على يد المريض قائلا : « اليك عهدى ولن تجدنى خائنا له » •

فقال المريض : اذن ضع يدك وراء ظهرى ، وتلمس طريقك حتى تجد ما تبحث عنه تحت أحد ردفى ، وهو شىء أخفيته منذ مدة من الزمن » فناجى الراهب نفسه قائلا : « آه حظى من السماء ! » فأدخل يده حتى أدرك فلق الردفين على أمل أن يجد شيئا له هناك • ولما أحس المريض بيد الراهب تتحسس

ما حول شرجه ، أخرج ريحا فى يده ، وليس فى الدنيا برذون (دابة نقل) يستطيع أن يخرج ريحا طنانة بمثل هذه القوة ٠

وعندئذ اقشعر جسد الراهب كأنه أسد مجنون وقال : « انت وغد غدار قسما بعظام المسيح ! لقد قصدت الاهانة بما فعلت ، وســوف تدفع ثمن هذه القسوة غاليا اذا وجدت لذلك سبيلا » ٠

ولما سمع خدم المريض وأتباعه الضوضاء دخلوا ، وطردوا الراهب فانصرف الى حال سبيله ، ووجهه غاضب للغاية ، وأدرك زميله الذى كان فى الحانة ٠ وكانت له هيئة خنزير برى مفترس ، وصر على أسنانه لشدة غضبه ٠ وسار سيرا حثيثا حتى أدرك قصرا كان يقيم فيه رجل رفيع الشأن ، كان يستمع الى اعترافه ، وكان هذا الرجل سيدا اقطاعيا لتلك القرية(٤١) ٠ ودخل عليه الراهب الغضبان كالمجنون وهو جالس الى مائدته أثناء الأكل ٠ واستطاع الراهب بصعوبة أن يتكلم وانحلت عقدة لســانه وقال : الســلام عليكم ٠ : « بارك الله فيك ياأخ « جون » ماذا بك ؟ ما الخطب ؟ فانى أرى جيدا أن هناك شيئا ، غير سليم قــد جرى ٠ ويبدو عليك معالم من وجد الغابة عامرة باللصوص (٤٢) ٠ اجلس اذن وحدثنى عن سبب قلقك البالغ ٠ وسأحاول أن أصلح الحال ، اذا كان ذلك ممكنا « فقال الراهب » لقد صادفنى ما يزعجنى ويغضبنى اليوم ، وقسما بمكافأة الله لجهادك فى سبيله ، ان ما حدث قد حدث فى قلب قريتك وليس فى الدنيا عبد ذليل لا يغضب مثلى للاهانة البالغة التى أصبت بها اليوم من أحد السكان فى قريتك ٠ ومع ذلك لم يؤلمنى فى هذه المناسبة ألم بقدر ما آلمنى أن ذلك الوغد العجوز الأشيب قد أهان جميع أعضاء الدير ، الذى أنتمى اليه ٠

فقال السيد الاقطاعى : « والآن يامعلمنا أتوسل اليك ٠٠٠ » فقاطعه الراهب قائلا : كلا لا تقل معلم بل خادم ولو أننى قد حصلت على رخصة التعليم فى الجامعات ٠ ان الله لا يحب أن يخاطبنا الناس بلقب « ربى » (٤٣) ، لا فى ساحة السوق ، ولا فى قصرك العامر ، فقال السيد الاقطاعى : ما عليك ، والأمر غير مهم ، فصف لى كل ما حدث ليؤلمك مثل هذا الألم ٠

فقال الراهب : يا سيدى لقد حدثت اليوم مصيبة كبيرة بالدير الذى انتمى اليه ولذلك أرجو أن يصلح الله حال كنيسته المقدسة بكل درجاتها ٠ فقال السيد الاقطاعى : ياسيدى أنت تعلم حق العلم ماذا يجب أن يكون ، فلا تدع ثائرتك تثار ، فأنت المستمع الى اعترافى ، وأنت ملح الأرض(٤٤) وسعادتها الحقة ٠ وأستحلفك بمحبة الله أن تتحكم فى أعصابك ! هيا احك لى سبب غضــبك ! ٠ وحكى الراهب فى الحال كل ما كان قد حدث ، وأنتم تعلمون ما أعنيه ٠

وظلت سيدة القصر جالسة وصامتة ، حتى انتهى الراهب من كلامه كله ٠ **ثم قالت :** آه ، قسما بأم المسيح ، تلك العذراء المباركة ، ألا يوجد شىء آخر يقال ؟ قل لى بصدق ٠ فسألها الراهب بدوره : ماذا تقصدين بذلك ياسيدتى ؟ فقالت :

أتسألني ما أقصده ؟ اني أتوسل الى الله أن يسلمني دائما ، اذ أقول ان وغدا قد فعل ما ينتظر من وغد · وماذا أقول بعد ذلك ؟ خرب الله بيته ! ان عقله المريض عامر بالأخيلة الخادعة ، واني اعتبره مصابا بنوع من الجنون أو الصرع فقال : ياسيدتي الكريمة ، أقسم بالله أنني لا أكذب ولكني سأستطيع بطريق أخرى أن أثأر منه · وانيسأسيء الى سمعته في كل مكان كلما تحدثت مع الناس ، وسأكشف اثم ذلك الشخص ، الذي كلفني بأن أقسم ما لا يقبل القسمة على كل أفراد الجماعة ، عليه اللعنة !

وظل السيد الاقطاعي في مكانه لا يتحرك كأنه مجذوب أو في غيبوبة وفي داخل قلبه كان يناجي نفسه بقوله : كيف استطاع الوغد أن يتخيل مثل هذا التخيل ، الذي جعله يضع هذه المعضلة أمام الراهب ، طالبا منه أن يحلها حلا موفقا ؟ اني لم أسمع قط بمثل هذه القصة ، واني لمتأكد أن الشيطان نفسه هو الذي أدخل هذه الفكرة في ذهنه · أما علم الرياضة أو المقاييس والمكاييل(٤٥) فلا تعطينا قبل اليوم نظيرا لمثل هذه المعضلة · ومن يستطيع أن يعطي برهانا على أن يحصل كل انسان بنصيب متساوى من طنين القسوة او رائحتها ؟ ما اكثر حماقة وغطرسة ذلك الوغد ، فاللعنة على وجهه !· وعندئذ تحدث السيد الاقطاعي الى من حوله مستطردا **يقول :** انتبهوا ياسادة فاللعنة على ذلك الوغد ! من سمع قط بمثل هذه القصة قبل اليوم ؟ قولوالي كيف تتم مثل هذه القسمة ؟ هذا أمر مستحيل ولن يحدث أبدا · آه من ذلك الوغد الأحمق ، لا وفقه الله ! ان دمدمة القسوة أو أي صوت آخر ليست الا ذبذبة في الهواء ، ولا بد أن تتلاشى رويدا رويدا ، حتى تختفي · ولا يوجد انسان في الكون يستطيع أن يعرف (قسما بايماني !) اذا كان يمكن تقسيمها تقسيما عادلا · عجبا ! عجبا ! بأي روح متحدية تحدث اليوم الى الكاهن ، الذي يستمع الى اعترافاتي كلها · واني لأعتبره من أهل الجن أو من صنعهم ! أما الآن فتناول طعامك ،واترك الوغد يذهب الى لهوه ولعبه ، بل دعه يشنق نفسه ، اذا أراد شنق الشيطان ·

كلمات وصيف السيد الاقطاعي وقاطع اللحوم أمامه فيما يتعلق بقسمة الفسوة اثنتي عشر نصيبا ·

وبقي وصيف السيد الاقطاعي واقفا عند المائدة ، وهو يقطع اللحوم من أجل سيده ، وسمع كل ما تحدثت عنه لكم كلمة كلمة · ثم قال : ياسيدي لا تعتبر نفسك قد خدعت خدعة كبرى ، فاني أستطيع أن أقول لك (أملا في قطعة من النسيج !) ان هناك طريقة لتقسيم هذه الفسوة تقسيما عادلا بين أعضاء الدير ، الذي تنتمي اليه لو شئت ·

فقال السيد الاقطاعي : تكلم وستحصل بعد قليل على قطعة نسيج تصلح لرداء ، قسما بالله وبالقديس يوحنا ! ·

فقال الوصيف : ياسيدى ، فى يوم يكون الجو فيه معتدلا بلا رياح ولا اثارة للهواء أعط أمرا باحضار عجلة عربة الى هذا البهو ، ولكن تأكد أن تكون أشعتها كلها موجودة فالعجلة فيها اثنا عشر شعاعا عادة • وبعد ذلك أحضر أمامى اثنى عشر راهبا • أتعلم لماذا أطلب ذلك ؟ الواقع أننى أعتقد أن أعضاء الدير الكامل يصلون الى ثلاثة عشر أما صديقك هنا ، الذى يستمع الى اعترافك ، فيكمل العدد لما يتميز به من صفات ممتازة • وبعد ذلك يركعون كلهم فى وقت واحد ويضع كل راهب أنفه أمام طرف كل من أشعة العجلة أما صديقك الراهب فيضع أنفه أمام قب العجلة من تحتها • ثم يجيء ذلك الوغد ومعدته مشدودة متوترة كالطبلة ، ويوضع جالسا القرفصاء على عجلة العربة فوق قبها ، ويصدر له الأمر بأن يطلق ريحا • وعندئذ سترون ، قسما بحياتى نفسها ، بالبرهان الواضح ، أن صوت الفسوة ورائحتها سينتشران انتشارا عادلا الى أطراف الأشعة • أما هذا السيد الراهب الكريم الذى يستمع الى اعترافك ، فلأنه ذو شأن عظيم سوف يتلقى الثمار الأولى ، كما يليق ذلك • والعرف الكريم فى حالة الرهبان الجوالين ، أن أكرمهم شأنا ، هو الذى يتلقى الخدمة الأولى ، ولا ريب فى أنه قد استحق هذا الشرف خير استحقاق • ولقد علمنا اليوم فى موعظته مقدارا من الخير والمبادىء الصالحة وهو على المنبر ، وأستطيع أن أقول بهذه المناسبة انه سيلتقى باكورة رائحة الفسوات الثلاث • وكذلك سيتلقى زملاؤه جميعا فى الدير لأنه بلا ريب سلك سلوكا بالغ التقوى واللياقة •

وعندئذ تكلم السيد الاقطاعى والسيدة زوجته وكل الحاضرين ماعدا الراهب الجوال وقالوا جميعا ان جانكن(٤٧) قد تحدث فى هذا الموضوع بحكمة أوكليدس أو بطليموس أما فيما يتعلق بالوغد المذكور فقالوا ان الدهاء ومنتهى الذكاء جعلاه يتكلم بمثل ما قال ولم يكن في رأيهم أحمق ولا شيطاننا • وبذلك فاز الوصيف برداء جديد • وعلى هذا انتهت الحكاية ونحن الآن قد أوشكنا أن ندرك المدينة •

(وهنا تنتهى حكاية المحضر الكنسى)

هوامش حكاية المحضر الكنسى

(١) **المحضر الكنسى :** جاء وصف المحضر الكنسى فى المقدمة العامة لحكايات كانتربرى (البيت ٦٢٣ وما بعده) • وكانت وظيفته مهمة فى العصور الوسطى ، اذ أنه كان موظفا مستديما بالمحاكم الكنسية (التى كانت أهم المحاكم فى ذلك الوقت لكل القضايا ، التى تخص الضرائب ، والأحوال الشخصية ، وبعض الجرائم الجنائية) • وكانت وظيفته أن يعلن المتهم فى بيته بقرار استدعائه أمام المحكمة الكنسية ، الأمر الذى جعله من الشخصيات البغيضة فى مجتمعات العصور الوسطى • أما عن قلة أمانته فلا توجد دلائل قاطعة على ذلك فى الوثائق الباقية منذ ذلك العصر ، وانما كان هناك تقليد فى الآداب الشعبية ، وفى القصص عامة ، أن المحضر الكنسى يستغل منصبه ، ويقبل الرشوة ، حتى يتغاضى عن المتهم ، أو يعود الى المحكمة قائلا انه ليس فى العنوان المذكور بعريضة الدعوى • أضف الى ذلك أن أغلب الحجاج المستمعين الى هذه الحكايات كانوا من الطبقات ، التى يغلب أن تكون قد استدعيت مرة على الأقل فى حياتهم أمام المحاكم الكنسية ، وأن أول شخصية تقابلهم فى مغامراتهم القضائية لابد أن تكون المحضر •

أما الوصف ، الذى جاء فى مقدمة حكاية المحضر ، حيث يقيم الرهبان الجوالون فى مكان مشين بجهنم ، فلا دليل على أنه مأخوذ من أى مصدر أدبى أو شعبى معروف فى العصور الوسطى • الا أن كثيرا من النوادر والنكت البذيئة فى ذلك العهد كانت تشتمل على مثل هذه التفاصيل ، على أساس أن الأماكن المتصلة بالوظائف الطبيعية للانسان أو غيره ، كانت تدل على الحقارة وتثير الضحك على أن نفس الفكرة لها وجود فى تقاليد التصوير الديني وقتئذ ، فان الصورة الجدارية بكنيسة المدافن (Campo Santo) فى مدينة بيزا (Pisa) بشمال ايطاليا لفنان مجهول تعطى نفس الصورة ، وكذلك الصورة التى رسمها الفنان الفلورنسى « جوتو **(Giotto di Bondone)** المتوفى سنة ١٣٣٧ م فى كنيسة « الحلبة » (Arena) بمدينة بادوا (Padua) ويلاحظ أن قصة شائعة فى ذلك الوقت كانت تعطى فكرة عكسية ، وتشير الى أن الرهبان الفضلاء كانوا بعد موتهم وصعودهم الى الجنة يحتمون بعباءة السيدة العذراء ، ويجلسون تحتها •

(٢) جاء دانتى فى « الجحيم » (٣٤ : ٤٨) بوصف مماثل لأجنحة الشيطان (انظر ترجمة الدكتور حسن عثمان)

(٣) **حكاية المحضر الكنسى :** لا يوجد مصدر معروف لهذه الحكاية ولو أنها أقرب الى أن تكون من قبيل النكت الشفوية البذيئة ، التى تنتشر فى كل عصر ، وكل بيئة ، للسخرية من شخصية تدعى التقوى والوقار كذبا •

(٤) ــ « هولدرنيس » (Holdernesse) اسم قرية ومنطقة بجنوب شرقى مقاطعة يوركشير (Yorkshire) • ولها أهمية بالنسبة لتشوسر شخصيا ، لأنها كانت موطن صديق حميم له اسمه **Sir Peter Bukton**

(٥) ــ **الثلاثون قداسا :** كانت هذه سلسلة من ثلاثين قداسا تقام عادة على مدى ثلاثين يوما

من أجل تخليص روح المتوفى من أن يهيم على وجهه فى المطهر ، ولكى تستطيع أن تصعد للجنة فى أقرب وقت • ولكن الراهب هنا يقترح أن تقام الثلاثون قداسا فى يوم واحد ، تحقيقا للسرعة من ناحية ، واشارة الى نهمه للمال ، فكلما انتهى من مأمورية مثل هذه استطاع أن يقدم على غيرها • علما بأن أسرة المتوفى كانت تتبرع بمبلغ من المال للراهب الجوال ، لكى يقوم بذلك بدلا من انتظار كاهن الأبرشية ، الذى كان مثقلا بأعباء كثيرة ، وقد يؤخر مراسم القداس فتعذب أرواح الموتى ، نتيجة لذلك مدة أطول •

(٦) — الاشارة هنا الى الكهنة والرهبان الذين يعيشون من موارد ثابتة ناتجة من أوقاف أو تبرعات أو مرتبات كنسية ، وليسوا شحاذين من أجل العيش ، كما هى حال الرهبان الجوالين •

(٧) — هذه العبارة الأولى فى صلاة البركة ، التى يقولها القسيس باللاتينية ونصها الكامل : « ذلك الذى يقيم مع الآب والروح القدس ، ويحكم من خلال كل القرون »
(Qui cum Patre et Spiritu Sancto visit et regnat per omnia secula seculorum).

(٨) — عصا طويلة يغشى أعلاها بالفضة أو العاج أو القرن ، لتدل على رفعة منزلة حاملها فى الدرجات الكنسية ، ولكن أغلب الظن أنها كانت هنا مجرد عصا يستعين بها المحضر للمشى فى الرحلات الطويلة على قدميه •

(٩) — الأصل هنا **A Goddes Kechyl** يعنى حرفيا « كعكة صغيرة لله » وقريب منها خبز الرحمة ، أو أحيانا كعك الرحمة ، الذى يوزع على الفقراء والمساكين أو المعزين ، أثناء زيارة المدافن فى مناسبات الذكرى •

(١٠) — الأصل اللاتينى هنا **«Deus hic»** ومعناه « فليكن الله هنا » (علما بأن الفعل محذوف فى الأصل اللاتينى) •

(١١) — رسالة بولس الرسول الثانية الى أهل كورنثوس ٣ : ٦ : « ••• لا الحرف بل الروح لأن الحرف يقتل ولكن الروح يحيى » •

(١٢) — الأصل فى النص باللغة الفرنسية القديمة : **je vous dy** يلاحظ أن استعمال الألفاظ والعبارات الفرنسية كان من سمات التقعر ، أو التكلف الاجتماعى فى انجلترا فى العصور الوسطى ، على اعتبار أن الفرنسية لغة الأدب والسياسة والحكام أنفسهم •

(١٣) — الغضب ثالثة الكبائر السبع حسب علوم الدين المسيحية •

(١٤) — هذه العبارة واردة بالفرنسية القديمة فى النص الأصلى على الوجه التالى
«Je vous dy senz doute»

(١٥) — من الامتيازات التى كان يتمتع بها المخضرمون فى سلك الرهبنة ألا يلتزموا بالقاعدة ، التى تقضى بألا يخرجوا من الدير الا اثنين اثنين ، حتى يساعد أحدهما الآخر فى مقاومة اغراءات الدنيا •

(١٦) — انجيل لوقا ١٦ : ١٩ — ٢٦ الآية ٢٥ : « فقال ابراهيم يا ابنى أذكر أنك استوفيت خيراتك فى حياتك ، وكذلك لعازر البلايا • والآن هو يتعزى ، ، وأنت تتعذب » •

(١٧) — رسالة بولس الرسول الأولى الى تيموثادس ٦ :٨

(١٨) — سفر الخروج ٣٤ : ٢٧ و ٢٨ : « وقال الرب لموسى اكتب لنفسك هذه الكلمات لأننى

بحسب هذه الكلمات قطعت عهدا معك ومع اسرائيل • وكان هناك عند الرب أربعين نهارا وأربعين ليلة لم يأكل خبزا ، ولم يشرب ماء ، فكتب على اللوحين كلمات العهد الكلمات العشر » •

(١٩) ـ سفر الملوك الأول ١٩ : ٨ : « فقام وأكل وشرب وسار بقوة تلك الأكلة أربعين نهارا وأربعين ليلة الى جبل الله حوريب •

(٢٠) ـ سفر اللاويين ١٠ : ٩ ـ ١١ : « وكلم الرب هارون قائلا خمرا ومسكرا لا تشرب أنت وبنوك معك عند دخولكم الى خيمة الاجتماع ، لكى لا تموتوا فرضا دهريا فى أجيالكم • وللتمييز بين المقدس والمحلل وبين النجس والطاهر • وليعلم بنى اسرائيل جميع الفرائض التى كلمهم الرب بها بيد موسى » •

(٢١) ـ كلمة « طرد » بالانجليزية هى «chased» أما كلمة « عفيف » فهى «chaste» وهناك احتمال أن الشاعر قصد تورية هنا •

(٢٢) ـ هناك احتمال تورية أخرى هنا فكلمة شرح بالانجليزية الوسطى هى glose وكلمة « كذب » هى gloze ، والكلمتان تكادان تنطقان بشكل واحد •

(٢٣) ـ انجيل متى ٥ : ٣ •

(٢٤) كان العداء تقليديا بين الرهبان الجوالين ، الذين كانوا يرتزقون مما يجود به الناس عليهم ، وبين أهل الكنيسة الذين يتلقون أجورا ورواتب ثابتة •

(٢٥) ـ المقصود هنا من « جوفنيانوس » (Jovinianus) الراهب الذى كتب القديس جيروم أو هيرونيموس رسالته الدينية (Epistola Adversus Jovininanum) فى مناظرة ضده •

ويلاحظ أن هذه الرسالة جاء ذكرها فى مقدمة حكاية سيدة باث •

(٢٦) هناك تورية فى النص اللاتينى للآية الأولى من المزمور الخامس والأربعين Eructavit cor meum Verbum honum لأن الفعل الماضى eructavit الذى يعنى « فاض » بأو « لقن به » و « تقرع » فى آن واحد •

وهذا ما يفسر وجود اسم الصوت « بوف به » قبل الآية • ويلاحظ أن النص الوارد فى الأصل جاء باللاتينية من أجل هذه التورية •

(٢٧) ـ رسالة يعقوب ١ : ٢٢ : « لكن كونوا عاملين بالكلمة لا سامعين فقط خادعين نفوسكم » •

(٢٨) ـ القديس Yves هو تقليديا حامى مقاطعة بريتانيا فى فرنسا ، وسيجىء ذكره أيضا فى حكاية البحار (البيت ٢٢٧) •

(٢٩) ـ انجيل لوقا ١٠ : ٧

(٣٠) ـ الكنيسة الهندية الأرثوذكسية القديمة أنشاها القديس توما أحد تلاميذ المسيح ، وهى باقية حتى اليوم واشتهر القديس توما بانه شيد كنائس كثيرة أثناء تبشيره فى الهند •

(٣١) منسوب الى سيدنا سليمان الحكيم فى سفر يسوع بن سيرا (٤ : ٣٠)

(٣٢) ــ أول من جاء بهذا التعبير المجازى الشاعر الرومانى فرجيل فى « رعويته الثالثة (البيت ٩٣) وصارت مثلا فى الانجليزية لمن يظهر المحبة ويضمر العداء ، وقريب منه المثل العامى المصرى « مية من تحت تبن » ٠

(٣٣) ــ هذا الوصف مشتق من « فن الهوى » (Ars Amatoria) للشاعر الرومانى أوفيد (الكتاب الثانى البيت ٣٧٦ وما بعده) ٠ انظر الترجمة العربية للدكتور ثروت عكاشة ٠

(٣٤) ــ سينيكا (Seneca) هو الفيلسوف الرومانى ، الذى عاش من سنة ٤ ق ٠ م الى سنة ٦٥ م ، ومات منتحرا بأمر الامبراطور نيرون ، وكان تلميذه فى صباه ٠ وله كتب كثيرة من بينها رسالة « فى الغضب » (De Ira) فى كتب ثلاثة ٠ والقصص الثلاث الواردة هنا مأخوذة من رسالة سينيكا ٠

(٣٥) ــ قصة قمبيز تأتى فى الكتاب الثالث من رسالة سينيكا ٠

(٣٦) ــ هذه هى الآية التاسعة من المزمور ١١٤ فى النص اللاتينى المستعمل فى الكنيسة الكاثوليكية التى تقابل المزمور ١١٦ فى ترجمات الكتاب المقدس المستعملة فى الكنائس الشرقية والبروتستنتية (« اسلك قدام الرب فى أرض الأحياء ») ٠ والنص اللاتينى : « سأرضى الرب فى منطقة الأحياء » (Placebo Domino in regione vivorum)

ويلاحظ أن كلمة placeoi (سأرضى) أصبحت اسما فى اللغات الأوربية جميعا بمعنى النفاق ، كما امتد معناها لينصب على دواء عقيم يوصف لملاطفة المريض وتمويها له ٠

(٣٧) ــ جاء ذكر هذه القصة لقورش ملك الفرس فى رسالة سينيكا أيضا (الكتاب الثالث) واسم النهر Gypsen غف معروف الأصل الا أن ذكره جاء فى تاريخ هيرودتوتس بهجاء آخر Gyndes

(٣٨) ــ النبى سليمان الحكيم فى سفر الأمثال ٢٢ : ٢٤ و ٢٥ ٠

(٣٩) ــ هذه أسطورة دينية (منتشرة فى آداب العصور الوسطى بكل أنحاء أوربا (انظر حكاية الطحان) مقتضاها أن المسيح نزل الى جهنم وأنقذ أرواح الفضلاء من الذين سبقوه من أنبياء وفلاسفة وملوك ٠

(٤٠) ــ سفر الملوك الأول ١٨ : ٢٠ ، ويلاحظ أن اليشع كان خليفة ايليا فى النبوة ٠ الرهبان الكرمليين ينسبون تأسيس نظامهم الرهبانى الى النبى ايليا نفسه على جبل الكرمل ٠

(٤١) ــ فى النظام الاقطاعى كان السيد الاقطاعى يملك أطيانا كثيرة فى منطقة ما ، وله التصرف المطلق فى مصائر رقيق الأرض ، الذين يفلحونها ، كما كان له بعض الاختصاصات الضرائبية والقضائية ، نيابة عن الملك ، الذى كان هو رئيس النظام الاقطاعى كله ٠

(٤٢) ــ كناية عن شدة القلق والوجه المكفهر ٠

(٤٣) ــ كلمة « ربى » هنا فى استعمالها العبرى الأصلى وهو اللقب الذى يلقب به الحبر أو الحاخام عند اليهود ٠ انظر انجيل متى ٢٣ : ٧ حيث جاء « وأن يدعوهم الناس سيدى » ٠ وجاء فى النص الانجليزى للآية «Rabbi, Rabbi»

(٤٤) ــ انجيل متى ٥ : ١٣

(٤٥) هنا توجد تورية بذيئة غير قابلة للترجمة الى لغة أخرى فالكلمة الأصلية فى الانجليزية هى ars-metric التى تعنى فن الرياضة ولكنها توحى بمعنى « قياس الاست » اذ أن ars معناها الاست metric فن القياس أو المكاييل ٠

(٤٦) ـ وصيف الفارس أو السيد الاقطاعى يشغل درجة فارس تحت التدريب فى هيكل النظام الاقطاعى ٠ وعليه أن يقوم بمهام كثيرة فى خدمة رئيسه ٠ كمساعدته على ارتداء عدة الحرب والزرد ، وحمل رمحه أو سيفه قبل المعارك ، وخدمته على مائدة الطعام فى بهو قصره ٠ وكان ابن الفارس فى « حكايات كانتربرى » يشغل هذا المنصب بالنسبة لأبيه ٠ (انظر البيت رقم ١٠٠ فى وصف ابن الفارس فى المقدمة العامة « لحكايات كانتربرى » ٠

(٤٧) Jankin اسم دلع وألفة لجون (John)

(٤٨) ـ أوكليدس (Euclid) عالم الهندسة وبطليموس عالم الفلك والجغرافيا ٠

حكاية طالب العلم
فى اكسفورد (٢)

وهنا تلى مقدمة الحكاية التى رواها طالب العلم من أكسفورد

قال مضيفنا : « ياسيدى ، يامن تطلب العلم فى أكسفورد ، انك تمتطى جوادك فى هدوء وحذر وكأنك فتاة فى يوم عرسها ، وهى تجلس الى مائدة الفرح. انى لم أسمع منك كلمة واحدة ينطق بها لسانك . وانى لمتأكد أنك تتأمل فى قضية فلسفية عويصة ، ولكنك تعلم جيدا أن سليمان الحكيم قال(٢) : « لكل أمر مقامه » . أناشدك الله أن تكون أكثر انشراحا وبهجة ! فلا وقت للدراسة والعلم هنا وأناشدك بايمانك ، أن تحكى لنا قصة مبهجة ! ولا شك أن الانسان الذى يقبل أن يشترك فى لعبة ما ، لابد له أن يقبل شروط اللعب وجوه . فأرجو ألا تعظنا ، كما يفعل الرهبان فى الصوم الكبير(٣) ، لكى تجعلنا نبكى على خطايانا الماضية ، بل أحرص على ألا تدفعنا قصتك الى النوم . ولذلك أرجو أن تحكى لنا حكاية مرحة موضوعها المغامرات . أما المحسنات اللفظية والبلاغية من بديع وبيان ومجازات فدعها فى خزينتك حتى يأتى الوقت الذى تتلو فيه قصتك بأسلوب رفيع ، كما هو فى الحال ، عندما يكتب الناس للملوك . وفى هذه المناسبة أرجو أن تعبر عن نفسك بأسلوب سهل واضح ، حتى نفهم جميعا ما تقوله .

فرد عليه هذا العالم الفاضل بلطف وحلم قائلا : ياسيدى المضيف أنا تحت أمرك ، ونحن كلنا الآن رهن اشارتك ، وسمعا وطاعة وأنا تحت أمرك فى حدود المعقول ولا شك فى هذا . سأروى لك قصة سمعتها فى بادوا (٤) من عالم فاضل ، كما دل على ذلك كل ماكان يعمله ويقوله . أما الآن فهو من الأموات

وجثته فى تابوتها المغلق المسمر وأرجو من الله أن يهب الراحة والطمأنينة لروحه ! ٠

وكان اسم هذا العالم فرانسيس بتراركا(٥) الذى لقب بأمير الشعراء ، وكانت بلاغته العذبة تضىءكل أركان ايطاليا بالشعر ، مثل (جوفانى دى لينياكو(٦) ، أفاض على بلاده بفلسفة الكون ، أو بالقانون أو بغيرهما من فنون المعرفة ٠ ولكن المنية التى لا تسمح لنا أن نمكث فى هذه الحياة الدنيا الا لمح البصر ، أخذتهما معا ، وكلنا الى المصير نفسه ٠

والآن دعنى أقول لكم شيئا عن هذا الرجل الفاضل ، الذى روى لى تلك الحكاية ٠٠ لقد صاغ قصته بأسلوب رفيع ، قبل أن يقدم على صلب موضوعه ، ووصف فى هذه المقدمة مقاطعة بيد مونت وامارة سالوتزو(٧) ومناظر ريفهما ، كما تعرض لوصف جبال الابينين ، تلك التلال العالية التى تكون حدود لومبارديا الغربية ، وخص بوصفه جبل فيزو بالذات ، حيث ينشأ نهر البو فى ينبوع صغير ، ثم يندفع متزايدا نحو الشرق فى اتجاه مقاطعه اميلياومدينتى فرارا والبندقية ٠

والحكاية طويلة لا أستطيع أن أقصها عليكم ، والحق أننى أرى ، حسب فهمى وتمييزى ، أن الموضوع غير متعلق بالأمر ، ولكن الواقع أن بتراركا كان يريد أن يقدم لموضوعه بمقدمة لائقة ٠ وها هى ذى قصته يمكنكم الاستماع اليها ٠

وهنا تبدأ حكاية طالب العلم في أكسفورد

هناك فى غرب ايطاليا ، عند سفح جبل فيزو شديد البرد ، سهل عامر بالزراعة والأكل حيث تشهد عددا كبيرا من القلاع والمدن ، التى أسست فى أيام أسلافنا ، كما وجدت بها منائر جميلة أخرى ٠ وكان اسم هذه المنطقة سالوتزو ٠ وفى قديم الزمان كان أمير البلاد « مركيس »(٨) كما كان أسلافه من قبله ، وكان كل أتباعه مطيعين لأمره سواء كانوا من علية الناس أو من صغارهم ٠ وكان يعيش هناك فى بهجة وسرور ، وظل على هذه الحال مدة طويلة محبوبا مرهوب الجانب من نبلائه ومن مواطنيه البسطاء على قدم المساواة بفضل الحظ ٠

أما فيما يتعلق بأصله لا شك أنه كان من أعرق بيت فى امارة لومبارديا ٠ وكان رجلا وسيما قويا فتيا بالكرم والأدب الجم ٠ وكان حكيما لدرجة أنه كان يستطيع أن يدير أمور بلاده بجدارة بالغة ، ورغم كل ذلك ، فانه كان مقصرا فى أمر واحد فقط وكان اسم هذا الأمير الفتى والتر ٠

وأنا آخذ عليه أنه لم يفكر أبدا فيما يقع مستقبلا بالنسبة له هو وماله ، وكان تفكيره كله فى أمور الحاضر وفى ملذاته من صيد وقنص بالبازى ، وترك كل ماعدا ذلك من قضايا وأمور تنقضى من جواره • زد على ذلك أنه رفض (وكان ذلك أشنع خطاياه) أن يتزوج من امرأة بأى حال من الأحوال •

وقد أحزن رفضه هذا شعبه ، لدرجة أنهم فى يوم من الأيام ذهبوا اليه فى جمع غفير ونهض أحدهم ، وكان أحكمهم وأوسعهم علما ، وقد اختير من بينهم ، اما لأنه كان خير من يتفضل الأمير بالاستماع اليه للتعبير عن مطالب الشعب ، واما لأنه كان أقدر الناس على تقديم العريضة الى عاهله ، أقول انه نهض وتكلم بين يدى المركيس(الأمير) قائلا مايلى : أيها المركيس النبيل ، ان انسانيتك تطمئننا وتشجعنا على أن نكاشفك بما يحزننا ، كلما تراءى لنا ذلك ، أو كلما اقتضى الأمر ذلك • فنرجو أيها السيد الكريم أن تتفضلوا بالاصغاء الى شكوانا وبألا تحتقر أذناكم صوتى • وعلى الرغم من أن هذا الأمر لايعنينى أكثر من غيرى فى هذا المجال فاننى ، أيها السيد الحبيب ، واثق بأنكم دائما تظهرون لى عطفكم وتغمروننى بفضلكم الأمر الذى يشجعنى على أن أتوسل اليكم لاعطائى قليلا من وقتكم فى مجلسكم العام ، حتى نعرض عريضتنا عليكم • ولكم ياسيدى أن تفعلوا ما تشاءون بعد ذلك •

والحقيقة ياسيدنا أننا جميعا نحبكم ، ونبجل أعمالكم لدرجة أننا لا نعرف كيف يمكن أن نتطلع الى مزيد من السعادة الا فى أمر واحد ، ألا وهو ياسيدنا العظيم ، أن تتفضلوا بالزواج من امرأة تختارونها ، وعندئذ سيكون شعبكم قد بلغ أقصى درجة من الطمأنينة النفسية • واحن رأسك تحت ذلك النير السعيد ، (من أجل ممارسة سلطتكم لا من أجل الاستسلام) ، الذى يسمونه الناس بالزيجة أو العرس • وافسح المجال ضمن أفكارك الحكيمة المستنيرة لفكرة أن أيامنا على الأرض فانية بأساليب مختلفة ، فحتى لو نمنا ، أو سهرنا أو مشينا ، أو ركبنا ، لفر الزمن فرارا ولم ينتظر أحدا • ومهما كان سنك فى عنفوانه ، وشبابك فى ربيعه الأخضر الآن ، فان الشيخوخة سوف تدب فيك دائما وهى ساكنة صامتة كالصخر ، والموت يهدد الانسان فى كل مرحلة من مراحل عمره ويضرب فى أية طبقة من الناس يفر منه أحد قط • ونحن ، بقدر ما نعلم جميعا أن مصيرنا كلنا اليه لا نعلم علم اليقين متى يكون اليوم الذى يقع علينا فيه حكم المنية •

لذلك نرجو أن تتفضلوا بقبول مطلبنا الوفى ، فنحن لم نعص أمركم قط ؛ واذا قبلتم ذلك ؛ فاننا سنختار لك من أجلك فى أقرب وقت زوجة من سلالة عريقة ، بل من أعظم بيت فى البلاد ؛ حتى تكون كفئة لكم ومشرفة فى نظر الله ، كما نستطيع أن نحكم على ذلك بعقولنا • فارفع عنا مخاوفنا القلقة ؛ وأتخذ لنفسك زوجة من أجل الله العظيم • فلو حدث (لا قدر الله !) أن قضيت نحبك ، وانتهت بك سلالتك العظيمة ؛ وجاء بعدك خليفة لا نعرفه ؛

ليأخذ تراثك ، لكان ذلك مصيبة كبرى بالنسبة لنا · ولذلك نتوسل اليك أن تتزوج على وجه السرعة » ·

وأثر على المركيس تضرعهم الرقيق وقسماتهم الحزينة فقال : « انكم تدفعوننى الى عمل شيء لم أفكر فيه من قبل · لقد كنت سعيدا بحريتى التى قلما توجد فى الزواج · وكنت حرا ، والآن تريدون أن أكون عبدا ·

ومع ذلك فانى أدرك حقيقة مطلبكم وأثق فى ذكائكم ، كما كنت أثق فيه دائما · ولذلك فانى بمحض ارادتى أقبل أن أتزوج ، فى أقرب وقت ممكن · ولكن بما أنكم عرضتم على أن تختاروا لى زوجة فانى أود أن أحلكم من هذا الالتزام وأرجو ان تعدلوا عنه ·

والله يعلم أن الأطفال كثيرا ما اختلفوا عن أسلافهم الكرام · فالخير والكرم كلاهما من عند الله ، لا من السلالة أو البيت الذى ينتمى اليه الشخص· وانى واثق من لطف الله ؛ ولذلك أضع بين يديه كل ما يتعلق بزيجتى وبدرجتى فى السلم الاجتماعى وسكينة قلبى ، فله أن يفعل ما يشاء · اتركونى وحدى أختار زوجتى ؛ فانى سأتحمل وحدى هذه المسئولية ؛ ولكنى أطلب منكم طلبا واحدا (استحلفكم به !) هو أن تبجلوا من أختارها زوجة لى بكلامكم وأعمالكم هنا ، وفى كل مكان لو كانت بنتا للامبراطور نفسه · وعليكم أن تحلفوا لى أيضا على أنكم لن تتذمروا من اختيارى ولن تعارضونى فيه · فأنا مادمت قد قبلت أن أتنازل عن حريتى (نزولا على طلبكم) فانى سأتزوج من تلك التى يميل اليها قلبى · اذا ما وافقتم على ذلك ، فأرجو ألا تفاتحونى فى الموضوع ثانية · »

فحلفوا جميعا ، وأعربوا عن قبولهم الصادق لكل شروطه ؛ ولم يعترض أحد على ذلك ؛ ولكنهم توسلوا اليه أن يحدد لهم يوما قريبا لزواجه · وكان ذلك راجعا الى مخاوف الشعب من أن يعدل المركيس ثانية عن الزواج · ونزولا على ارادتهم حدد لهم يوما لزواجه الأكيد · وقال انه فعل ذلك بناء على طلبهم· فركع الجميع أمامه بخشوع ووداعة وأعربوا عن شكرهم له ، وهكذا أدركوا غرضهم ؛ وعادوا جميعا الى بيوتهم ·

وعندئذ أمر المركيس ذويه وحاشيته أن يستعدوا للوليمة وللحفل ، وعهد الى كل واحد من فرسانه وغلمانه بما اراده من مسئوليات لهذا الغرض · وهب الكل لطاعته ، وعمل لكل واحد منهم أقصى ما يستطيع ؛ لكى يضفى على الحفل المزيد من الرونق والعظمة ·

(انتهى الجزء الأول)

على مسافة ليست بعيدة عن ذلك القصر الكريم ، الذى كان المركيس يعد فيه حفل عرسه ؛ كانت هناك قرية جميلة الموقع ، حيث كان فقراء البلدة يربون بهائمهم ويقطنون فى بيوتها • وكانوا يعيشون من عملهم فى الحقول ، ومما تجود به عليهم الأرض •

وكان يعيش بين هؤلاء الفقراء رجل يعد أفقرهم جميعا ؛ ولكن الله العظيم قادر على أن يغدق لطفه ونعمته على حظيرة البهائم لو أراد • وكان أهل القرية يسمونه « جانيكولا » وكانت له بنت جميلة ، اسمها «جريزلدا» •

واذا تكلمناعن الجمال المقترن بالفضيلة ، فلا شـك أنها كانت أجمل الفتيات تحت الشمس • ولما كانت قد نشأت فى شظف من العيش فانها لم يدخل قلبها خاطر فاجر • وكان جل شربها من ينبوع الماء لا من برميل النبيذ، وحيث أنها كانت تريد دائما أن تلبى مطالب الفضيلة ، فانها كانت تنهمك فى العمل المفيد ولم تعرف قط الخمول العقيم •

وعلى الرغم من أن هذه الفتاة كانت صغيرة السن • الا أن قلبها البكر كان ممتلئا بالأفكار الجادة الناضجة •

وكانت تخدم أباها العجوز الفقير بروح من الاحترام والمحبة ، وكانت ترعى قطيعا صغيرا من الغنم وتغزل صوفها وكانت لا تنقطع عن العمل حتى تحين ساعة نومها •

وعندما كانت تعود الى بيتها كانت تحضر معها بعض الخضر أو أعشابا أخرى وكانت تحضرها وتقطعها لاعداد طعامهما • وكانت تسوى فراشها على نحو صلب غير مريح ، وكرنت دائما تلبى مطالب أبيها بمنتهى الطاعة والاحسان؛ اللذين يمكن أن يعبر بهما الطفل عن تبجيله لوالده •

وكثيرا ما كان المركيس يلمح «جريزلدا» تلك المخلوقة المسكينة أثناء رحلات الصيد التى كان يقوم بها • واذا تصادف أن وقع بصره عليها ، فانه كان لا ينظر اليها بنظرات الشهوة ؛ بل كان دائما يتأمل وجهها بنظرة جادة •

وكان فى قرارة قلبه يعجب بأنوثتها وأيضا بفضيلتها ، التى كانت تفوق فضيلة كل فتاة غيرها فى مثل سنها الصغيرة ؛ وكانت هذه الفضيلة تبدو فى كل ما تفعله ، كما أنها كانت تظهر فى ملامح وجهها • واذا كان الناس بصفة عامة لا يفهمون الفضيلة الأخلاقية حق الفهم فانه أيقن أنها كانت حقا فاضلة وقرر انه لو تزوج فانه لن يتزوج من غيرها •

ثم جاء اليوم المحدد لاقامة حفل الزواج ، ولكن أحدا لم يستطع أن يعرف من هى العروس المختارة • ولذلك شاع العجب بين الناس وأخذوا يتساءلون

سرا : « ألا يترك سيدنا جانبا هذا السخف والاستخفاف ؟ ألا يتزوج ؟ ويلنا ! لماذا يخدعنا ويخدع نفسه على هذا النحو ؟ » .

ومع ذلك فان المركيس أمر بصنع خواتم ودبابيس للحلى من الأحجار الكريمة المرصعة بالذهب ، من أجل «جريزلدا» . كما أمر بتطريق ثياب لها على مقاس فتاة تماثلها فى القوام ؛ وأمر أيضا باعداد غير ذلك من الحلى والزينة ، حتى تكون جديرة بحفل الزواج .

وفى الساعة التاسعة صباحا من نفس اليوم المحدد لزواجه كان القصر كله مزينا ومعدا للحفل فى حجراته وأبهائه كل حسب أهميته . وامتلأت المخازن بما لذ وطاب الى حد أن ما فيها كان خير طعام يوجد فى كل أنحاء ايطاليا .

وظهر هذا المركيس المنحدر من سلالة ملكية فى ثياب رائعة ، ومعه جمع من السيدات والسادة ؛ كان قد دعاهم ، كما اصطحبته رفقة من الفرسان الفتيان ؛ ودخلوا جميعا الى القرية ؛ والموسيقى تصدح ، على هذا النحو الذى وصفته لكم .

أما جريزلدا (والله أعلم أنها لم تكن تعرف من قبل أن كل هذا الاحتفال كان من أجلها !) فقد ذهبت للبئر ، لتجلب الماء ؛ ثم عادت الى بيتها على السرعة ؛ اذ سمعت أن المركيس كان ينوى الزواج فى هذا اليوم ، وأرادت اذن أن تسعد برؤية الاحتفالات .

وناجت نفسها قائلة : « سأقف بجوار فتيات أخريات من زميلاتى أمام بيتنا ، فأسعد برؤية عروس المركيس . ولذلك سأحاول أن أتم العمل المعهود به الى ؛ حتى أستطيع أن أراها فى يسر ، اذا كانت ستمر من هذا الطريق » .

وبينما كانت على وشك الخروج من بيتها جاء لها المركيس ونادى عليها فوضعت قلتها الممتلئة بالماء فى الحال الى جوار عتبة البيت عند حظيرة البهائم، وركعت فى الحال أمامه ؛ وبقيت راكعة حتى سمعت ما يطلبه المركيس .

وخاطبها المركيس بوقار وتؤدة وقال لها بأسلوب جاد : « أين والدك يا جريزلدا ؟ » فأجابته قائلة : « يا سيدى انه تحت أمرك هنا » ودخلت البيت فى الحال وأحضرت أباها أمام المركيس .

وعندئذ أخذ المركيس بيد الشيخ ، وقال له بعد أن انتحى به فى مكان منعزل عن الناس : « يا جانيكولا لا أستطيع ، بل لا أريد أن أكتم سرى بعد اليوم ، وأرجو أن تأذن لى بالزواج من ابنتك ، حتى تكون قرينتى الى آخر يوم من أيام حياتها . انك تحبنى وأنا أعرف ذلك حق المعرفة ، وقد ولدت تابعا اقطاعيا مخلصا لى ، ولكل ما يناسبنى وأعتقد أن ما يناسبنى لابد أن يناسبك. ولذلك أجب على سؤالى السابق وقل لى اذا كنت تقبل أن أكون زوجا لبنتك ».

فأذهل هذا التطور المفاجيء الرجل الى حد أن وجهه احمر وارتبك وارتجف ولم يستطع أن ينبس بكلمة واحدة أخرى غير ما يلى : « سيدى ‧‧ ان ارادتى هى ارادتك ‧ ولن أفعل شيئا أبدا لا ترضى عنه ، لأنك سيدى المحبوب ؛ فاحكم فى الأمر كما تشاء » ‧

فقال المركيس بحنان : « انى أود أن نتناول طعاما معا أنا وأنت وهى فى حجرتك ‧ هل تعرف لماذا ؟ لأننى سأطلب منها بنفسى أن تصبح زوجتى ، وأن تخضع لارادتى فى الحياة ‧ وسيتم كل ذلك فى حضورك ، لأننى لا أريد أن أتكلم الا وأنت سامع لكل ما يقال » ‧

وبينما كانوا فى الحجرة مهتمين بتدوين عقد الزواج (الذى سأحدثكم عن بنوده فيما بعد) احتشد الناس خارج البيت وأعجبوا بطريقة جريزلدا فى رعاية أبيها وتدبير شئون المنزل ‧ ولكن أكثرهم اندهاشا كانت جريزلدا ، لأنها لم تكن قد رأت أبدا ما رأته من قبل ‧

ولا عجب فى اندهاشها لرؤية مثل هذا العدد الكبير من الناس فى هذا المكان ‧ ولم تكن قد اعتادت أن تشهد مثل هذا العدد الكبير من الناس ، فشحب وجهها ‧ ومهما يكن من أمر ؛ وحتى نختصر الكلام أقول لكم ما دار بين المركيس وبين تلك الفتاة الكاملة الحنون المخلصة :

قال : « ياجريزلدا ستفهمين جيدا أنه يرضى أباك ويرضينى أن أتزوجك، وأعتقد كذلك أن هذا الأمر يرضيك أيضا ؛ ولكنى أطلب منك هذا الطلب قبل كل شيء وهو أن تقبلى (مادام الأمر مفاجئا لك على هذا النحو) أو أن تأخذى وقتا للتفكير فى الأمر ‧

أقول أيضا : ما يلى : هل أنت مستعدة بقلب راض أن تنفذى كل ما أريد ، وكل ما لى أن أفعله شرعا سواء آلملك ذلك أو أسعدك وألا تتبرمى أبدا ليلا أو نهارا ؟ هل أنت مستعدة اذا قلت أنا «نعم» ألا تقولى «لا» بالقول أو بالتجهم ؟ احلفى أنك مستعدة ، وأنا أحلف هنا على التزامى بالزواج » ‧

فدهشت لما سمعته وارتعدت خوفا وقالت : « سيدى انى غير جديرة بذلك الشرف الذى تسبغونه على ، ولكن ما تريدونه أنتم أريده أنا ؛ وها أنذا أحلف لكم أننى لن أعصى ، بمحض ارادتى ما تأمرون به بما أفعله أو فيما أضمره من أفكار ، حتى لو أدى ذلك الى موتى » فقال : « هذا يكفى يا جريزلدا ياحبيبتى » ‧ ونهض وخرج من البيت ؛ وعلى وجهه سيماء الجد والوقار وجاءت هى من بعده وخطب الناس على النحو الآتى : « هذه هى زوجتى التى تقف هنا ‧ أكرموها وأحبوها فأنا أرجو ذلك من كل من يحبنى ‧ ولاشيء يقال بعد ذلك » ‧

ولكى لا تحضر شيئا من ثيابها القديمة الى قصره أمر بعض السيدات بأن

يخلعن عنها ثيابها فى المكان نفسه ، الأمر الذى لم يرض هؤلاء السيدات ؛ عندما أمسكن بثيابها المهلهلة • ومع ذلك فانهن ألبسنها من جديد ثيابا رائعة جديدة ، خلعنها على تلك الفتاة ناصعة البشرة •

ومشطن شعرها الذى كان مرسلا غير مجدول فى ضفائر ؛ ووضعن بأناملهن الرفيعة تاجا على رأسها ؛ ووضعن عليها أيضا كل أنواع الحلى الكبيرة والصغيرة • أما عن ثيابها فلماذا أستطرد فى وصفها ؟ لقد كاد الناس ألا يعرفوها لجمالها الرائع ، بعد أن تحولت الى امرأة مترفة المظهر •

وتزوجها المركيس وهو يضع فى أصبعها خاتما كان قد أحضره لهذا الغرض ، ثم رفعها على جواد أبيض ناصع هادىء الخطى واصطحبها الى قصره فى الحال يحيط به جمع محتشد من الناس السعداء • وعلى هذا النحو قضوا اليوم فىمرح وسعادة حتى بدأت الشمس تنحدر الى الغرب •

وحتى لا تتلكأ فى رواية هذه الحكاية ، أقول لكم ان الله قد وهب هذه المركيسة من نعمته وبركاته ما دعا الناس الى الاعتقاد بأنها لم يسبق لها أن عاشت فى بيئة فقيرة بسيطة ، فى كوخ أو فى حظيرة مواش ؛ وأنها انما تربت فى قصر من قصور الامبراطور •

وأصبحت محبوبة من كل الناس ومحترمة للغاية ، حتى أن الناس الذين عاشوا معها فى نفس القرية ؛ وشهدوا طفولتها سنة بعد سنة كادوا يعتقدون أنها ليست ابنة جانيكولا الذى تحدثت عنه من قبل ، بل ظنوا أنها مخلوقة مختلفة تماما • ومع أنها طيبة وفاضلة منذ طفولتها ، فانها ازدادت طيبة وفضيلة مقترنتين : أدب جم وكرم سام وحكمة وبلاغة فى الافصاح ، وأصبحت موضع احترام الجميع ؛ قادرة على غزو قلوب الناس الى حد أن كل من كان ينظر الى وجهها كان يحبها فى الحال • ولم تكن مشهورة بكرم أخلاقها فى مدينة سالوتزو فحسب ؛ بل امتدت شهرتها الى مناطق كثيرة أخرى • فاذا عبر أحد عن أعجابه بها أمن عليه غيره بنفس الكلام وهكذا شاعت أخبار كرم أخلاقها وفضيلتها ، حتى أن الرجال والنساء والشيوخ والفتيان كانوا يجيئون الى سالوتزو ليروها •

على هذا النحو تزوج « والتر » من طبقة متواضعة (ولكن ما أشبه تلك بالأسر الملكية العريقة !) واكتسب الشرف والسعادة من زواجه وعاش فى سلام الله ينعم براحة كاملة فى أسرته ، ونجاح ظاهر فى شئونه العامة • ولأنه أدرك أن الفضيلة قد تختفى تحت ستار الطبقة المتواضعة فقد اعتبره الناس رجلا حكيما وهذا أمر نادر للغاية •

ولم تكن جريزلدا ، بما وهبت من ذكاء ؛ تجيد كل شئون التدبير المنزلى فحسب ؛ وانما كانت تستطيع فى حالات الضرورة أن تعمل على تحسين الأحوال

العامة بين الناس • ولم يكن هناك شقاق أو غضب أو حزن فى كل أنحاء الامارة لم تستطع هى أن تهدئه ، وأن تجمع بين الناس ؛ ليعيشوا فى طمأنينة وسلام •

وعندما كان زوجها يغيب عن البلاد لمدة ما ، وينشب خلاف بين أشراف أو غيرهم من أفراد الشعب ، كانت تستطيع أن تجمعهم وأن تصلح بينهم • وبلغ كلامها درجة كبيرة من النضج والحكمة ؛ واتسم قرارها بقدر كبير من الانصاف والعدالة حتى أخذ الناس يعتقدون أنها مرسلة من السموات لخلاص الناس واصلاح كل اثم •

وبعد مدة ليست بالطويلة بعد زواجها حملت جريزلدا ، وأنجبت بنتا ولكن الناس جميعا كانوا يودون لو أنها أنجبت ولدا • ومع ذلك فقد سعد المركيس وشعبه ؛ لأنه على الرغم من أن البنت قد سبقت ، فانها يمكن أن تتطلع الى ميلاد ولد ؛ اذ انها ليست عقيما كما ظهر الأمر للجميع •

(انتهى الجزء الثانى)

وبدأ الجزء الثالث

واتفق ، كما قد يحدث أحيانا والبنت لم ترضع من أمها الا فترة قصيرة ؛ أن تاق قلب المركيس وقتذاك الى أن يختبر زوجته ؛ حتى يتعرف على درجة وفائها له ، ولم يستطع بحال من الأحوال أن يطرد من قلبه هذه الرغبة العارمة العجيبة ؛ ودون أن يكون هناك أى سبب يدعو لذلك (والله أعلم بذلك) انتوى أن يفزعها •

وكان كثيرا ما اختبرها فى الماضى فوجدها فاضلة أمينة ، واذن فلماذا يدعوه لأن يختبرها من جديد ؛ ويبلوها دائما على نحو متصاعد ؟ وعلى الرغم من أن بعض الرجال يعتبرون أن من الذكاء الرفيع القيام بمثل هذا الفعل ، ألا وهو أن تمتحن امرأة بدون داع وتعمل على دفعها الى الخوف والقلق ، فانى أرى أن هذا أمر ينطوى على الشر •

وفى سبيل تحقيق غرضه فعل المركيس ما يلى : جاء وحده فى ليلة من الليالى وهى راقدة فى فراشها ، وقال لها بشدة وقسمات وجهه صاخبة صارمة: « ياجريزلدا ؛ أقول لك ان هذا المكان الرفيع الذى وضعتك فيه لا يتركك تنسين أننى قد رفعتك من منزلة فقيرة متواضعة جدا ، وأنت أدرى بما اذا كان ذلك بغية أية فائدة مادية • ومن ثم انتبهى الى كل كلمة أقولها لك ، فنحن وحدنا ولا ثالث لنا • أنت تعلمين خير العلم طريقة مجيئك الى هنا فى هذا القصر ، ولم تمض على ذلك فترة طويلة • ومع انك محبوبة منى حبا جما فان أتباعى من الأشراف لا يعتبرونك كذلك • ويقولون فى مجالسهم ان من الخزى والعار أن يكونوا تحت حكم وسيطرة امرأة مثلك مولودة فى قرية بسيطة للغاية • ومنذ أن أنجبت ابنتك أصبحت هذه الكلمات تتردد على ألسنتهم على وجه اليقين • وأنا أريد أن أعيش معهم كما عشت حتى الآن فى سلام وأمان ولا أستطيع فى هذه الحال أن أكون طائشا مستهترا بهم • وعلى اذن أن أفعل ببنتك خير ما يرام ، لا نزولا على ارادتى ؛ ولكن على ارادة مواطنى •

ومع ذلك فان الله يعلم أن الأمر يحزننى ، ولكننى لن أقوم به دون علمك ، وأريد منك أن توافقى على ما يأتى : أن تظهرى لى مدى صبرك ووفائك اللذين أقسمت على التمسك بهما فى قريتك يوم زواجنا •

ولما سمعت كل ذلك لم تتأثر ولم تقم بأية حركة أو تنبس بحرف ، ولم تتغير ملامح سحنتها ؛ بل بدا عليها أنها ليست متألمة وقالت : « سيدى ان كل شىء رهن ارادتك • فأنا وبنتى معا ملك يديك ، ولك أن تنجى أو تميت ما هو ملك خالص لك • فافعل ما تشاء • واستشهد برعاية الله لروحى أنه ليس هناك شىء يرضيك يمكن ألا يرضينى أنا • ولا رغبة لى فى شىء ، ولا أخشى أن أفقد شيئا سوى نفسك العزيزة • وهـــذا ما أريده من صميم قلبى ، وستكون رغبتى دائما على هذا النحو • ولا يستطيع طول الزمن أو الموت أن يمحو ذلك أو ينال من القرار الذى اتخذته » •

فسعد المركيس هذا لردودها ، ولكنه تظاهر بأنه ليس سعيدا • وكان وجهه مكفهرا وهو يخرج من الغرفة • وبعد قليل من الوقت باح بما يضمره لأحد رجاله ، ثم بعث به الى زوجته •

وكان هذا الرجل النجى بمثابة حارس مسلح ، كثيرا ما وجده المركيس مخلصا فى أمور هامة ؛ وكذلك كان فى وسع مثل هذا الرجل أن ينفذ أغراضا سيئة • وكان المركيس يعلم جيدا أن هذا الرجل يحبه ويهابه • ولما وقف هذا الرجل على رغبة سيده تسلل سرا الى غرفة الملكة بهدوء وقال : « سيدتى ، لابد أن تغفرى لى اذا قمت بعمل أنا مضطر للقيام به • فأنت حكيمة وعاقلة الى حد أنك تعرفين أوامر السيد لا يمكن أن يتنصل أحد منها • وعلى الخادم أن ينفذ ارادة سيده على الرغم من الألم الذى قد يترتب على ذلك • اذن سأقوم بواجبى ولامجال للحديث أكثر من هذا القدر• لقد أمرت بأن آخذ هذا الطفل»•

ولم يقل شيئا بعد ذلك بل قبض على الطفل (وانتزعه من المهد) وبد على وجهه تعبير ينم على أنه ينوى قتله · ولكن جريزلدا ظلت فى مكانها راضية هادئة، وجلست وديعة هادئة كالحمل وتركت هذا الحارس القاسى يحقق غرضه ·

ما أشد ما يبعث صيت هذا الرجل على الشك ! يالشؤم طلعته وصوته ، والساعة التى تم فيها كل ذلك ! ويلها ! لقد اعتقدت تمام الاعتقاد أنه سيقتل فى الحال بنتها ؛ التى كانت تحبها كل هذا الحب ، ومع ذلك فانها لم تبك ؛ ولم تنتحب ؛ واستسلمت لما يرضى المركيس ·

ونطقت آخر الأمر وقالت للحارس وهى تستحلفه بأخلاقه النبيلة ، انها تريد أن تقبل طفلتها ، قبل أن يقضى عليها ؛ وحملت بنتها بين ذراعيها وقد ارتسمت على وجهها كله سمات الحزن والأسى ، وأخذت تبارك بنتها وتهجعها وتقبلها ·

ثم قالت بصـوت حزين طيب : « وداعا يا ابنتى ، لن أراك أبدا ولكن مادمت قد رسـمت عليك صليب ذلك الأب الخالق ، الذى مات من أجلنا على صليب من الخشب ؛ فلابد أن تكونى مباركة · ولذلك أيتها الطفلة الصغيرة ائتمنته عليك ، لأنك ستموتين من أجلى هذه الليلة » ·

وانى أقسم أن هذا المنظر لو كان أمام مرضعة لتأثرت وبكت ، فما بالك بأم ؛ تنتحب وتصيح « ويلى ! » ومع ذلك فانها بلغت من ثبات النفس قدرا أتاح لها أن تواجه كل أنواع الشقاء ، فقالت للحارس بصوت وديع « خد بنتنا الصغيرة هذه واحملها » ·

ثم قالت : « والآن انصرف ونفذ ارادة سيدك ، ولكننى أتوسل اليك فى أمر واحد فقط وهو أن تدفن هذا الجسد الصغير فى مكان أمين لا تصل اليه الطيور والحيوانات المفترسة لتمزقه (الا فى حالة ما يأمر سيدى بغير ذلك) ولم يجبها بكلمة واحدة ، بل أخذ الطفلة وسار فى طريقه ·

ثم عاد الحارس الى سيده وقدم له تقريرا عن كلام جريزلدا والتعبير الذى ظهر على وجهها نقطة نقطة بأسلوب واضح مقتضب ، وقدم للمركيس بنته العزيزة ، وبدا على المركيس بعض الخجل وشعر بتأنيب الضمير ، ولكن على الرغم من ذلك تمسك بغرضه (كما هو الحال دائما عندما يريد السادة تنفيذ ما يريدونه) · ثم أمر الحارس أن يأخذ البنت ويغطيها بنسيج لين ، بمنتهى الاهتمام والحرص ، وأن يضع بجانبها كل ما يمكن أن تحتاج اليه ، ثم يضعها فى صندوق كبير بكل لفائفها · وأضاف أنه لابد أن يحملها معه سرا ، بحيث لا يعرف أحد بما يتم ، والا فانه سيأمر بقطع رأسه ، وألا يعرف أحد من أين جاء والى أين انصرف · وأمره كذلك بأن يحمل البنت الى مدينة بولونيا حيث

تسكن أخته الحبيبة ، وكانت وقتذاك كونتسة لمقاطعة بانيكو (★) • وأمر الحارس بأن يعطيها البنت ويوصيها بأن ترعاها ، وأن تربيها تربية نبيلة لائقة • واختتم أمره بالقول ان الحارس عليه أن يخفى عن الجميع من هى هذه الطفلة ومن أين جاءت •

فذهب الحارس ونفذ هذا الأمر • ولكن تعالوا نعود الى موضوع المركيس• انه يتعجب ويتساءل باستمرار لماذا لا يستطيع أن يرى أى تغيير فى مظهر زوجته ولا فى سلوكها • فهو لم يجدها الا وقورة مخلصة محبة •

واستمرت على حالها كما كانت من قبل متواضعة خدومة ومحبة أيضا ، ولم يتغير سلوكها عما كان عليه • ولم تنبس بكلمة واحدة عن بنتها ولم يظهر عليها أى مظهر خارجى للحزن ولم تنطق أبدا باســـم بنتها العزيزة جادة أو هازلة •

« انتهى الجزء الثالث »

ويلى الجزء الرابع

وعلى هذا النحو قضت أربع سنين حتى حملت من جديد • وبمشيئة الله أنجبت ولدا ذكرا لزوجها والتر ، وكان طفلا وسيما جميلا • ولما أخبر الناس أباه بذلك فرح كثيرا ، بل فرح الشعب كله وأجمعوا على أن يشكروا الله على ذلك •

ولما بلغ الطفل من العمر سنتين ، وفطم من ثدى مرضعته ؛ شاءت الظروف أن تساور قلب المركيس رغبة جديدة لامتحان زوجته • وما أقل الضرورة لامتحان مثل هذه الزوجة ! ولكن الأزواج لا يعرفون الاعتدال ولا التصرف المعقول ، عندما يجدون أمامهم مخلوقة صبورة !

وقال المركيس : « أيتها الزوجة لقد سمعت قبل اليوم الى أى حد قبل الشعب زواجنا ، بقلب غير راض ، وبخاصة منذ أن رزقنا بولد ذكر • أما الآن فان الحال قد ســـاءت أكثر من أى وقت آخر • فكلام الناس وتمنمتهم يحطان من روحى المعنوية ، وأصداء الكلام تصل الى أذنى وتؤلمنى الى حد أن قلبى قد انفطر تماما •

(★) هذا خطأ فان « بانيكو » اسم أسرة عريقة لا اسم مكان الا أن هناك قرية تحمل هذا الاسم فى الآونة الحديثة •

فالناس يقولون مثلا : « عندما يموت والتر سيخلفه أحد من سـلالة جانيكولا ، ويتولى أمرنا فلا ولى لنا غيره » ويتمتم أفراد الشعب على هذا النحو معبرين عن قلقهم الشديد • وعلى أن آخذ هذا الكلام فى اعتبارى ، لأننى ، بلا شك ، أخشى هذا الرأى بين الناس ؛ ولو لم يعربوا عنه فى حضورى •

أريد أن أعيش فى أمان اذا أمكن ذلك ، ومن ثم اتخذت قرارا صارما بأن أفعل به كما فعلت بأخته ، تحت ستار الليل ، ولذلك سأقضى عليه سرا • وأنذرك بذلك ، حتى لا تنفجرى من الحزن والأسى • فصبرا اذن وأتوسل اليك أن تفعلى ذلك » •

فقالت : « لقد قلت لك ، وسأقول لك دائما ؛ انى لن أفعل شيئا ولا أريد أن أفعل الا ما يرضيك أنت • ولن أحزن قط حتى لو قتل ابنى ، كما قتلت بنتى ، اذا كان ذلك بناء على أمرك • انى لم أر من ولدى سوى آلام الحمل ، ثم الأسى والشقاء • أنت مالكنا وسيدنا فافعل بما لك ما تريد ، ولا تستشرنى • فكما اننى تركت فى بيتى كل ثيابى ، عندما جئت اليك ، فكذلك تركت فى بيتى ارادتى وكل حريتى ؛ وارتديت ما أعطيته لى ، ولذلك أتوسل اليك أن تفعل ما تشاء فانى سأطيع أمرك دائما •

ولاشك أننى لو كنت أعرف مسبقا ما تريده منى لقمت بالأمر على وجه السرعة دون تراخ ، قبل أن تنطق بشىء • وقد عرفت الآن رغبتك ؛ وسأظل دائما رهن اشارتك ؛ ولو عرفت أن موتى يرضيك لمت من أجل اسعادك بمنتهى السعادة • فلا وجه للمقارنة بين الموت وعظمة حبنا » • ولما رأى المركيس وفاء زوجته أرخى بصره الى الأرض ، وأعجب بصبرها فى تحمل كل هذا الشقاء • وخرج من عندها بوجه مكفهر ولكن داخل قلبه كان ممتلئا بالسرور •

وجاء ذلك الحارس القبيح ، ليأخذ ابنها الجميل ، على نفس النحو الذى أخذ به ابنتها من قبل • أما هى فبقيت صابرة على نفس النحو ، ولم تظهر عليها ملامح الحزن ، بل قبلت ابنها ثم باركته •

ولكنها رجته بما يلى : رجته ، ان استطاع لذلك سبيلا ، أن يدفن جسد ابنها الصغير النحيل الأعضـاء فى لحـد من الأرض حتى لا يتعرض للطيور والحيوان • الا انها لم تستطع أن تحصل منه على أى استجابة لرجائها ، بل انه مضى فى طريقه ؛ لا يعبأ بشىء ولكنه حمل الولد برفق الى بولونيا •

وظل المركيس مندهشا لصبرها • ولولا أنه كان يعرف تماما مدى حبها لطفليها ، لظن أن فى الأمر بعض الخبث ، أو سوء نية دعاها الى تحمل كل هذا الشقاء بصبر وجلد • غير أنه كان يعلم تمام العلم أنها تحب طفليها حبا جما ، يفوق حبها له أى لزوجها • والآن اسمحوا لى أن أتوجه بالسؤال للنساء لأعرف ما اذا كانت مثل هذه الامتحانات لا تكفى ؟ فماذا يستطيع زوج قاس

أن يدبر من حيل ، ليختبر وفاء زوجته ويمتحن صبرها ، وهو مستمر فى قسوته ؟ .

ولكن هناك فى الدنيا قوم على هذه الشاكلة . اذا قرروا اتخاذ موقف ما ، فانهم لا يستطيعون أن يحرفوا عن خطتهم ولا يتخلوا أبدا عن مقصدهم الأصلى ؛ كما لو كانوا قد قيدوا بوتد قوى . وهكذا قرر المركيس ، على نحو صارم أن يختبر زوجته كما فعل من قبل .

وأخذ يترقب أن تتبدل ملامح وجهها ، فتصدر منها نظرة أو تفوه بكلمة ؛ ولكنه لم يجد فيها أى تغيير ، واستمرت على حالها دون أن يتغير سلوكها أو شكلها .

وكلما مرت بها الأيام زاد اخلاصها له (اذا كان ذلك ممكنا) وزاد حبها له وحرصها على ارضائه فى كل شىء . وترتب على ذلك أن الاثنين لم يظهرا سوى ارادة واحدة ، فكلما أراد والتر شيئا أرادته هى بدورها . والحمد لله انتهى الأمر كله الى خير . فقد ظهرت دائما بسلوكها أنه مهما كان شـقاء الزوجة فانها لا تستطيع أن تريد شيئا لارضاء نفسها .

وشاع خبر الأحداث المخزية التى أتى بهـا والتر فى كل مكان ، وأخـذ الخبر يتردد على ألسنة الناس بأنه تزوج من فتاة فقيرة تعسة ثم قتل ولديهما سرا . وزاد الكلام بين الناس ، ولا عجب فى ذلك ، لأن الخبر كان قد انتشر بأن الطفلين قد اغتيلا .

ولذلك بينما كان شعبه فى الماضى يحبه حبا مخلصا ، فان الفضيحة حولت أفراده الى أشخاص يكرهونه ، بقدر ما كانوا يحبونه ، فان يلقب الانسان بأنه مغتال أو كريه للغاية . ومع ذلك فانه لم ينحرف عن قصده ، لأىسبب من الأسباب ؛ وكان كل همه أن يختبر زوجته ولا يستهدف شيئا غير ذلك .

ولما بلغت ابنته اثنتى عشرة سنة من العمر ، أرسل سرا وخلسة رسالة للمحكمة البابوية فى روما ، مطالبا بأن يوقع البابا قرارا يسمح له بأن يمضى فى تنفيذ نواياه الشريرة القاسية ، ألا وهى أن يأمر البابا بأن يتزوج من غير زوجته ارضاء لشعبه ، اذ كان يريد أن يفعل ذلك .

وأقول لكم انه كان من الصفاقة ، بحيث أمر بأن يزور قرار بابوى ، يسمح له أن يطلق زوجته برخصة بابوية ، لكى يسـود الوفاق والوئام بينه وبين شعبه ، وهذا بالفعـل ما ذكر فى القـرار البـابوى ؛ الذى أعلن على النـاس أجمعين . واعتقد عامة الشعب تماما (ولا عجب فى الأمر) أن الحقيقة هى كما ظهرت فى القرار . ولكن عندما وصلت هذه الأخبار الى جريزلدا ، فانى على يقين بأن قلبها كان مثقـلا بالحزن ، ومـع ذلك فانهـا بقيت على جلـدها المعهود ؛ وذلك لاستسلامها الخالص لتقلبات الأيام وتحملها لها .

واستمرت مطيعة لأوامره ، ورهن ارادته ، لأنها وهبت نفسها له قلبا وقالبا ، كما لو كان والتر هو الذى يملأ دنياها بالسعادة . ولكن لو أردت أن أوجز فى القصة لقلت لكم ان المركيس كتب سرا خطابا ، وأرسله لبولونيا ، وفيه كل سره على النحو الذى ستسمعونه .

لقد توسل الى كونت بانيكو الذى تزوج من أخته قائلا له أن يرسل له طفليه مع حاشية محترمة ، علنا لا سرا . ولكنه طلب منه شيئا واحدا ،وهو ألايعلن لأحد من هما هذان الطفلان ؛ مهما وجه اليه من الأسئلة .

ويكفى أن يقول (لو سئل) ان الفتاة ستتزوج من مركيس سالوتزو بعد قليل . وفعل الكونت كما طلب منه ، وفى اليوم المحدد أخذ طريقه الى سالوتزو على رأس حاشية كبيرة ترتدى أفخر الثياب لتوصـــيل الفتاة الى المركيس ، وكان اخوها الأصغر يمتطى جواده بجوارها .

وكانت هذه الفتاة الجميلة مزدانة بالحلى كأنها ذاهبة الى حفل زواجها . أما أخوها الذى كان قد بلغ السابعة من عمره فكان يرتـدى أفخم ثيابه هو أيضا ، وعلى هذا النحو سار الجمع الكريم بتؤدة ووقار حتى وصـــلوا الى سالوتزو ؛ وكانوا يتقدمون فى طريقهم كل يوم .

« انتهى الجزء الرابع »

« وبدأ الجزء الخامس »

وبينما كان كل ذلك يقع قرر المركيس ، حسب عادته الشريرة ؛ أن يختبر زوجته من جديد فى امتحان يعتبر أقسى اختبار لها ، وذلك لكلى يتحقق بنفسه من أنها لم تتغير فى وفائها له ، ولم ينفذ صبرها . وبينما كانوا جميعا فى قصره فى جلسة علنية خاطبها قائلا :

« لا شك يا جريزلدا أننى بلغت أقصى درجة من التفضل ، عندما اتخذتك زوجة لى ؛ تقديرا لما تتحلين به من فضيلة واخلاص وطاعة . وأنا لم أتزوجك

من أجل أصلك العريق أو غناك • وأنا الآن أعرف تمام العلم أن السيادة والملك، اللذين أتمتع بهما مثقلان بالتزامات شتى •

ونا لا أستطيع أن أفعل ما يفعله أى فلاح • فقد أجبرنى شعبى على أن أتزوج من امرأة أخرى وتوسل الى قومى أن أفعل ذلك يوما بعد يوم • وكذلك البابا فقد سمح لى بأن أفعل ذلك تسكينا لغضب الشعب • والحق أقول ان زوجتى الجديدة آتية فى الطريق الآن •

فكونى رصينة القلب ، وسلمى مكانك لها فى الحال • أما المهر الذى جئت به فخذيه ثانية ، وأنا أهبه لك تفضلا منى • ثم عودى الى بيت أبيك • فلا يمكن أن تدوم حال الانسان فى رفاهية وسعادة • ولذلك أنصحك اذن أن تتحملى ضربة القدر هذه بقلب هادىء » •

فأجابته اجابة تدل على ما تتحلى به من صبر وتواضع : « سيدى ، انى أعرف ؛ بل كنت دائما أعرف أن أحدا من الناس لا يستطيع أن يقارن بين عظمتكم ، وبين بؤسى ، ولا يمكن أن ينكر أحد ذلك • وانى لا أعتبر نفسى جديرة بأن أكون زوجة لكم ، بل ولا خادمة •

وفى هذا القصر ؛ الذى جعلت فيه منى سيدة ، أستشهد بالله العلى ، بل وأقسم بخلاصى فى الآخرة ، اننى لم أعتبر نفسى أبدا أميرة أو سيدة ؛ بل دائما خادمة متواضعة لفخامتكم ؛ وسأستمر على هذا النحو أحترمكم دون غيركم من البشر حتى آخر قطرة من دمى •

واذا كنت قد أبقيت على ، فهذا من كرم أخلاقك ؛ وأنا أعلم أننى لست جديرة بذلك ، وأشكر الله على ذلك ، كما أشكركم أنتم ، وأرجو أن يبارككم الله بما تستحقونه • وليس هناك شىء آخر يقال فى هذا الشأن • وانى سأذهب الى بيت أبى بقلب مطمئن ، وسأبقى عنده حتى نهاية عمرى •

لقد تربيت هناك منذ نعومة أظفارى ، وسوف أظل هناك حتى نهاية حياتى ؛ كأنى أرملة طاهرة الجسد والقلب • ومنذ سلمت لكم بكارتى كنت زوجة مخلصة ، ولا يمكن ـ لا سمح الله ـ أن تتجه زوجة سيد فى مثل عظمتك الى غيرك ، لتكون زوجة له أو خليلة •

أما عن زوجتك الجديدة ، فأرجو من الله أن يسبغ عليكما من فضله كل خير ورفاهية • وأنا مستعدة تماما لتسليم مكانى لها •• ذلك المكان ، الذى سعدت بشغله • ومادام أمرك ياسيدى ، يا من كان فرح قلبى وسلامته أن أنصرف فسوف أنصرف وقتما تريد • ومع أنك تعرض على ذلك المهر الذى جئت به فى بادىء الأمر ، فانى لا أنسى أن مهرى كله كان عبارة عن الثياب المهلهلة التى كنت أرتديها ، والتى يصعب على أن أجدها ثانية • ياألله يارحيم ! ما أعظم رفقك بى وطيبتك معى ، فيما كنت تقوله لى وقتذاك ؛ وما كان يبدو على وجهك

في ذلك اليوم الذى عقد فيه زواجنا ! ولكن ، والحق يقال ، (وهذا أمر دائما صحيح ! اذ انه ثبت بالدليل القاطع فى حالتى) الحب اذا شاخ لا يبقى على عنفوانه · والحق يا سيدى أننى مهما أصابنى من شقاء ، قد يؤدى حتى الى هلاكى ، فانى لن أندم أبدا على أننى أعطيتك قلبى باخلاص · وأنت تعلم يا سيدى انك جرتنى من ثيابى البائسة ، وأنا فى بيت أبى ثم ألبستنى أفخم الثياب ، كرما منك وفضلا ؛ ولم أحضر لك ؛ دون أدنى شك سوى اخلاصى وبكارتى وجسدى العارى · ومع ذلك فها أنذا أسلم لك ثيابى وخاتم العرس بلا رجعة · أما بقيه الجواهر والحلى التى أعطيتها لى فهى كلها فى مكان أمين بغرفتى لقد خرجت عارية من بيت أبى وسوف أعود اليه عارية وذلك نزولا على أمرك · ومع ذلك فانى أرجو ألا تلح على أن أخرج من قصرك دون رداء يسترنى ·

انك لا تستطيع أن تفعل مثل هذا الأمر المشين ، وهو أن تدع الرحم الذى حمل طفليك يكشف للشعب وأنا ذاهبة من هنا · ولذلك أتضرع اليك ألا تتركنى أمضى فى طريقى عارية كالدودة · ولا تنسى يا سيدى يا أعز السادة ، أننى كنت فى وقت ما زوجة لك ؛ وان كنت غير جديرة بذلك · ولذلك أرجو أن تعطينى (فى مقابل بكارتى التى سلمتها لك والتى فقدتها الى الأبد) جزاء لى جلبابا ، مثل الجلباب ؛ الذى كنت أرتديه حتى أستطيع أن أستر رحم تلك المرأة التى كانت يوما زوجة لك · وها أنذا أستأذن منك ياسيدى ، خشية أن أضايقك أشد مضايقة » ·

فقال : « احتفظى بالثوب الذى ترتدينه ، وخذيه معك » · ولكنه نطق بهذا الكلام بصعوبة بالغة ؛ لأن الأسى والشفقة كانا يخنقانه · ونهضت جريزلدا ، وخلعت ثيابها الفاخرة وحليها بنفسها ؛ ثم مضت فى طريقها الى بيت أبيها ، وهى حاسرة الرأس عارية القدمين ؛ ترتدى جلبابا بسيطا ·

وتبعها الناس فى طريقها ؛ وهم يبكون ويلعنون القدر · أما هى فلم تذرف من عينيها دمعة واحدة ، ولم تنبس ببنت شفة طوال الوقت · وأما أبوها الذى سمع بالخبر بعد قليل ، فقد لعن ذلك اليوم الذى جعلته الطبيعة يعيش على ظهر الأرض · وليس من شك فى أن هذا الشيخ الفقير كان غير مطمئن لزواج ابنته ، لأنه كان يعتقد دائما فى قرارة نفسه ؛ منذ أول وهلة ؛ أن الأمير بعد تحقيق غرضه ، سيراجع نفسه ويرى بعد ذلك أنه قد حط من شأن منزلته بزواجه هذا ؛ وانه لابد أن يحاول يوما ما أن يتحلل من عقد زواجه ، ويتخلص منها ·

ونهض بسرعة لمقابلة ابنته ، لأنه أدرك مجيئها من ضجة الناس حوله ؛ وقام ووضع على كتفيها معطفها القديم ، وهو لا يكف عن البكاء ؛ ولكنه لم

يستطع أن يلف به جسمها ، لأن النسيج كان خشنا ؛ وكان قد تهلهل بفعل القدم منذ يوم زواجها .

وظلت هذه المرأة ، هذه الزهرة التى ضربت أروع مثل لصبر الزوجات ؛ تقيم بعض الوقت على هذا النحو مع أبيها . ولم تصدر منها بأى شكل من الأشكال كلمة أو نظرة تشير الى أنها ظلمت ظلما بليغا . ولم يظهر فى سلوكها أى شىء يدل على ما كانت عليه من سمو المنزلة .

ولا عجب فى ذلك ، فانها عندما كانت عالية المنزلة ؛ كان قلبها ممتلئا دائما بالخشوع والتواضع . ولم تكن ذواقة لما لذ وطاب ؛ ولم تعبأ بالترف ولا بعظمة الملك أو مظاهره ، بل كانت دائمـا تلتزم بطيبـة مزدانة بالصـبر والحكمة ، وبتواضع لا يفتقر الى الكرامة والشرف . وكان سلوكها مع زوجها لا ينحرف عن الهدوء والطاعة .

ويذكر الناس أيوب كمثل أعلى للخشوع والصبر الطويل ، وهذا ما يتكلم عنه الفقهاء دائما ، وهم يتحدثون عن الرجال . ومع أن الفقهاء لا يعبأون كثيرا بالنساء ، عندما يتحدثون عن الجلد والصبر فانهم لا يستطيعون بحال من الأحوال ، أن يجدوا صبرا يضارع صبر الرجال ، مثل صبر النساء ؛ فلا اخلاص ولا جلد مثل اخلاص النساء وجلدهن ، الا اذا كانت هناك حالات غير ذلك ظهرت منذ عهد حديث ، ولم أسمع أنا عنها .

« انتهى الجزء الخامس »

ويلى الجزء السادس

وجاء كونت بانيكو من بولونيا ، وانتشر خبر مجيئه بين الأغنياء والفقراء على السواء ؛ وكان الخبر قد تسلل الى آذان الناس أجمعين بأن الكونت أحضر معه مركيسة جديدة فى ركب عظيم ، لم يشهد أحد مثيلا له فى كل أنحاء غرب لومبارديا .

أما المركيس ، الذى كان قد خطط لكل ذلك ، وكان على علم بحقيقة الأمر ؛

فقد أرسل أمرا بالحضور لجريزلدا (تلك المرأة الضعيفة المسكينة) ، فجاءت بقلب خاشع ووجه مشرق ، دون أن يخالجها أى شعور بالكبرياء ، وسجدت بين يديه ، بناء على أمره ؛ وحيته باحترام وخشوع أعظم تحية فقال : « يا جريزلدا لقد نويت ، وقررت بصفة قاطعة أن يقام لهذه الفتاة ؛ التى سأتزوجها استقبال عظيم يليق بالملوك فى قصرى غدا ، وأن يحتفى بها كل واحد من الضيوف ويستقبلها بما يتناسب مع درجته والمكان المخصص له ، ويقوم بالخدمة التى تقدم لها ، الى أبعد حد يمكن أن أستعد له · وليس لدى امرأة فى وسعها أن تعد الحجرات ، كما يجب ، حسب مشيئتى ؛ ولذلك أريد أن تتعهدى انت بهذا الأمر · فأنت تعرفين ، منذ وقت بعيد · كل رغباتى · وعلى الرغم من أن ثوبك ومظهرك لا يليقان بالمقام ، فان عليك أن تقومى بواجبك على الأقل » ·

فأجابت : « سيدى لست سعيدة فقط بأن أنفذ ما تريد ، بل انى أود أن أخدمك دائما ، بقدر استطاعتى وجهدى المتواضع · وأنا تواقة دائما لأن أفعل هذا ، دون أن يراودنى أمل فى الحصول على جزاء ، لقاء خدمتك وحبك ؛ بكل ما أملك من حواس وعقل » ·

وأخذت بعد ذلك ترتب أمور القصر ، وتعد الموائد وتفرش الأسرة ، وفعلت كل ما فى وسعها · وأخذت ترجو الوصيفات ، وتحثهن على كنس القصر وتنظيفه بأقصى سرعة ، أما هى فقد أجهدت نفسها فى سبيل كل ذلك أكثر من غيرها ؛ واهتمت باعداد كل غرف القصر ؛ وبخاصة البهو الكبير ·

وفى التاسعة صباحا وصل الكونت ، ونزل من فوق جواده ، برفقة الطفلين الكريمين · فهرع الناس من جميع أنحاء البلاد ، ليشهدوا منظر هذا الركب العظيم · وفى بادىء الأمر أقروا بأن والتر لم يكن أحمق الى ذلك الحد ، لرغبته فى تغيير زوجته ، لأن الجديدة خير من السابقة فى نظرهم · وكانت فى نظر الجميع أجمل وأصغر من جريزلدا ؛ مما سيؤدى حتما الى أن تنجب أطفالا ، أجمل ينحدرون من سلالة الزوجة الجديدة الكريمة · وكان أخوها وسيما لدرجة أن الناس أعجبوا به ، حتى ملأ السرور قلوبهم ، وامتدحوا المركيس على سياسته فى تدبير أمور الدولة ·

« أيها الشعب القلب ما أكثر تقلباتك وخياناتك ! أنت دائما أحمق ومتغير مثل دوارة الريح فوق سطوح البيوت · أنت دائما تحب الضوضاء والشائعات الجديدة ، وأنت كالقمر فى محاقه ونموه ؛ دائما تتمتم وتثرثر فى أمور تافهة · وحكمتك كاذبة ؛ وقدرتك على الوفاء لا تصمد للاختبار · فما أشد حمق من يعتمد عليك ! »

هذا ما قاله أولو الحكمة فى المدينة ، لما شهدوا الناس ينظرون باعجاب

ودهشة الى الفتاة ، لأنهم كانوا سعداء بالطرافة ، وبأن تكون لهم سيدة جديدة تحكمهم • ولكنى لن استمر فى التعليق على هذا الأمر ؛ بل أعود الى جريزلدا مرة ثانية ، وأتحدث عن مدى وفائها ونشاطها الخدوم •

لقد كانت جريزلدا تشغل نفسها بكل شيء ، يتصل من بعيد أو قريب بالحفل • ولم يبد عليها قط الخجل من هيئة ثيابها ، التى كانت فقيرة ومهلهلة بعض الشيء • وذهبت بوجه مشرق الى باب القصر مع الحشود المتدفقة ، لكى ترحب بالمركيسة الجديدة كما استمرت فى الطريق تقوم بواجباتها المختلفة • ورحبت بالضيوف أجمل ترحيب ، وفق ما تمليه آداب اللياقة ، حتى أن الناس لم يلاحظوا أنها ارتكبت أتفه خطأ فيما فعلته ، ولكنهم جميعا كانوا يتساءلون من هى ، لأنها كانت على الرغم من ثيابها المهلهلة حاذقة فى الترحيب والتكريم، كما أعجبوا أيضا بحكمتها الفائقة •

وأثناء كل ذلك لم تكف عن الثناء على هذه الفتاة وأخيها أيضا ،بمنتهى الصدق وبحسن نية كاملة • وقد وفقت فى مدحها هذا ، الى حد أن أحدا لم يستطيع أن يفوقها فى آدابها •

وفى نهاية الأمر عندما اتجه الفرسان والضيوف الكرام لقاعة الطعام ليجلسوا الى الوليمة ، نهض المركيس ؛ ونادى على جريزلدا وهى مشغولة فى بهوه الكبير •

وخاطبها بلهجة المازح وقال : « ياجريزلدا ما رأيك فى زوجتى وفى جمالها ؟ » فأجابته : « لقد اعجبت بها أشد اعجاب ياسيدى ! وانى أقسم بايمانى أننى لم أر قط أجمل منها • وأرجو من الله أن يمن عليها بالخير والرفاهية ، كما أرجو منه أن يتفضل عليك بلطفه ورضاه حتى نهاية حياتك • ولكنى أرجو منك شيئا واحدا لا غير ألا وهو ألا تعذب هذه الفتاة الغضة الرقيقة كما فعلت مع غيرها • فهى قد نشأت فى بيت كريم عالى المنزلة ، وقد أرهقت معاملتها ، ولا أعتقد أنها تستطيع تحمل الشقاء ، الذى تحملته مخلوقة تعيسة ترعرعت فى بيت فقير متواضع » •

ولما شهد والتر هذا مدى صبرها ورأى سحنتها الهادئة ، التى لا تنطوى على أى سوء نية ، على الرغم من أنه كثيرا ما جرح شعورها ، ومع ذلك ظلت عاقلة صابرة وفية بحزم شديد ؛ واحتفظت فى أثناء محنتها بفضيلتها المعهودة، استيقظ الضمير الحى بين جوانح المركيس القاسى وأخذ يؤنبه ، وامتلأ قلبه عطفا وتفتح لوفاء زوجته !•

وصاح قائلا : « كفى يا حبيبتى جريزلدا كفى الآن عن مخاوفك وأحزانك فقد اختبرت وفاءك وطيبتك أشد اختبار ، فى الوقت الذى كنت فيه من علية القوم ؛ وفى الوقت الذى عشت فيه فقيرة منبوذة على السواء • والآن عرفت،

يازوجتي العزيزة ، مدى وفائك وثبات خلقك » • وضمها بين ذراعيه وأخذ يقبلها مرارا •

ولم تدرك فى الحال ، من فرط دهشتها ؛ ما قيل لها ، ولم يصل كلامه الى سمعها بوضوح • وانتهجت سلوك من استيقظ فجأة من نومه ، حتى استردت وعيها من جديد • فقال لها : « ياجريزلدا ، بالله الذى مات من أجلنا ؛ أنت زوجتى ، ولا زوجة لى سواك ، ولم أتخذ لى زوجة غيرك أبدا ؛ وأقسم على ذلك بخلاص روحى ! وهذه هى ابنتك التى ظننت أنها زوجتى الجديدة • أما الفتى فهو ولى عهدى ، كما قررت ذلك من بادىء الأمر ، وأنت أمه التى حملته فى بطنها حقا • وقد حافظت عليهما سرا فى مدينة بولونيا • والآن خذيهما بين ذراعيك من جديد لتشهدى أنك لم تفقدى أبدا أحدا من طفليك الحبيبين ؟ •

ومن قال عنى غير ذلك فانى أنذرهم أشد انذار بأننى لم أقدم على ما فعلت عن سوء نية أو عن قسوة ، وانما لمجرد أن أختبر مدى ما تتمتعين به من صفات نسائية كريمة • فلا سمح الله أن أكون قد نويت قتل أولادى ! ان غاية ما كنت أبتغيه أن أحافظ عليهما فى مكان أمين خفى ، حتى أعرف كل ما ينطوى عليه قلبك من أفكار ورغبات » •

ولما سمعت هذا أغمى عليها من فرط السرور المؤثر فى كل من شهده • وبعد أن أفاقت من اغمائها ، نادت طفليها ، ليتقدما لجوارها ؛ وضمتهما بين ذراعيها ؛ وهى تبكى ؛ وأخذت تقبلهما مرارا بحنان الأم ، حتى بللت دموعها المالحة وجهها كله وشعرها • ما أشد تأثر شهود اغمائها وسماع صوتها الرقيق بعد قليل وهى تقول : « شكرا جزيلا ياسيدى ، لأنك حافظت على طفلى العزيزين • والآن لا يهمنى أن أخر صريعة بين يديك ، ما دمت أسعد بحبك وبعطفك ، فالموت بعد ذلك لا يهمنى • يا أعز الأطفال ياحبيبى الحنونين ! ان أمكما التعيسة قد ظنت ظن اليقين أن بعض الكلاب المفترسة أو الحشرات الضارة قد التهمت جسديكما • ولكن الله ، بعطفه الشديد ؛ ووالدكما قد حافظا عليكما أسعد محافظة » • وفجأة أغمى عليها ووقعت على الأرض •

وعلى الرغم من أنها قد أغمى عليها ، فانها ظلت تمسك بطفليها وتقبلهما؛ بحيث كان من أصعب الأمور تخليصهما من ضمة ذراعيها • أما من كانوا يشاهدون كل هذا ، فقد ذرفوا دموعا غزيرة ؛ اذ أنهم لم يستطيعوا أن يتحملوا المنظر الذى شهدوه •

وأخذ والتر يخفف من آلامها بكلمات مهدئة ومسعدة • ثم أفاقت من غيبوبتها • وأعرب لها كل واحد من الموجودين عما يكنه لها من أعظم مظاهر الاحترام والتبجيل ، حتى استعادت اتزانها ووقارها من جديد • وأعرب والتر

عن حبه لها بأسلوب العاشق الوفى ، حتى أبهجت رؤية السعادة السائدة بينهما بعد لقائهما كل المشاهدين ٠

وفى الوقت الملائم اصطحبتها وصيفاتها الى غرفتها ، ونزعن عنها ثيابها الرثة ، وألبسنها ثيابا من القصب الخالص الساطع ، ووضعن فوق رأسها تاجا مرصعا بكثير من أثمن الأحجار الكريمة ، ثم اصطحبنها الى البهو الكبير ، حيث أظهر لها الجميع الاحترام المناسب ٠

وعلى هذا النحو انتهى اليوم التعيس بسعادة وهناء ، وبذل كل رجل وكل امرأة ما فى وسعهما لقضاء هذا اليوم فى مرح وسعادة ، حتى بدت النجوم فى قبة السماء ٠ ولا شك أن احتفالات هذا اليوم المبارك كانت أبهج وأكثر فخامة ، حتى من احتفالات يوم زواج والتر وجريزلدا ٠

وعاش الاثنان سنين طويلة فى سعادة وهناء وهدوء ووفاء ٠ وزوج والتر ابنته من رجل نبيل ، كان من أكرم فرسان ايطاليا كلها ٠ كما آوى حماه فى القصر ؛ حتى اليوم الذى تسللت فيه روحه الطاهرة من جسده العجوز ٠

أما ابنه فقد خلفه من بعده على العرش ، وحكم البلاد فى سلام وأمان . كما كان سعيدا أيضا فى زواجه ٠ ويلاحظ أنه لم يختبر زوجته كما فعل أبوه مع أمه ٠ فعالمنا هذا ليس فيه من القوة والعنف ما كان فى آونة مضت ، ولا شك فى ذلك ، فأنصتوا اذن لما قاله فى هذا الأمر مؤلفنا (بترراركا) :

« لقد رويت هذه القصة لا لكى تنسج الزوجات على منوال جريزلدا ، من حيث التواضع والصبر ، لأن هذا أمر لا يطاق ، حتى لو أردن أن يقلدنها ٠ ولكن الغرض من هذه القصة أن تكون عبرة لكل انسان ، فيرى ضرورة الالتزام بالجلد وقوة التحمل فى أوقات الشدة ؛ كما كانت الحال مع جريزلدا ٠ وهذا هو السبب الذى دعا بترراركا الى كتابة هذه القصة بأسلوب رفيع بليغ ٠

ومادامت امرأة قد أظهرت مثل هذا الصبر ، لانسان ، فما أحرانا أن نتقبل من الله بقلب رحب كل ما ينزله بنا ٠ فانه من أكثر الأمور التى لا تتناقض مع العقل أن يمتحن الله ما خلقه ولكن الله لا يختبر انسانا افتداه كما يقول القديس يعقوب* (١٠) اذا قرأت انجيله ، ولا شك أنه دائما يختبر البشر فى كل وقت ولا خوف من ذلك ٠

فهو يسمح لنا (اختبارا لنفوسنا) وفى سبيل أن يختبر أرواحنا ، بأن تتحسن أحوالنا بطرق شتى ، لا لكى يتعرف على شدة حزمنا ، اذ أنه عليم بضعفنا ؛ حتى قبل أن نولد ؛ وانما لأن سيطرته على حياتنا خير لنا جميعا ٠ فلتحيا اذن حياة نتشبث فيها بالتحمل والصبر والخشوع ، من غير شكوى ٠

ولكن انصتوا لى ياسادتى ؛ لأقول لكم كلمة واحدة قبل أن أترككم • ان من أصعب الأمور أن تجدوا فى يومنا هذا امرأتين أو ثلاثا من أمثال جريزلدا فى مدينة واحدة • فاذا اختبرت احداهن بمثل هذه التجارب ، فان معدنها ذهب امتزج بمعادن أقل قيمة ، حتى انها تشبه قطعة نقد ، تنقصف انقصافا ؛ بدلا من أن تنثنى •

لذلك ومن أجل احترام سيدة باث حفظها الله هى وكل أمثالها ، وجعلهن فى منزلة عالية (والا وا أسفاه !) ، سأغنى لكم أغنية تسعدكم بقلب قوى فتى ، على ما أظن ؛ فلنكف عن الجد وانصتوا لأغنيتى على النحو التالى :

خاتمة الشاعر تشوسر

لقد ماتت جريزلدا ومات صبرها معها ، ودفن الاثنان فى قبر بايطاليا ؛ ولذلك أنذركم جميعا علنا ، وعلى مسمع من الجميع ، ألا يحاول رجل متزوج أن يجرؤ على أن يختبر صبر زوجته ، أملا فى أن يجدها جريزلدا مجسدة ، فلاشك انه سيفشل فى تحقيق غرضه هذا •

يا أيتها الزوجات الكريمات ياساميات الحكمة اياكن أن يشل تواضعكن ألسنتكن أو أن تتركن لعالم فرصة رواية قصة عجيبة مثل قصة جريزلدا الصبورة المحبة ، والا التهمتكن « تشيتشيقاشى » البقرة المتوحشة آكلة الزوجات الصبورات •

وانسجن على منوال « اكو » (الهة الصدى عند الاغريق) التى لا تلتزم الصمت أبدا ، بل ترد ردودا مفحمة على كل قول ! لا تتركن سذاجتهن تخدعكن ، بل امسكن أنتن بدفة القيادة واطبعن هذا الدرس جيدا فى عقولكن ، فى سبيل مصلحة الجميع ، لأنه قد يكون مفيدا بالفعل •

يا أيتها الزوجات الآمرات كن مستعدات للدفاع عن أنفسكن ! وما دمتن قويات قوة جمل كبير فلا تسمحن للرجال بالاساءة اليكن • وانتن يا أيتها الزوجات الضعيفات المغلوبات فى المعارك ، فلتكن مفترسات مثل النمرة فى الهند ، وضايقن أزواجكن بدوام عجلة الطاحونة ـ هذه هى نصيحتى اليكن ! •

ولاتخفن من أزواجكن ولاتبدين لهم أى احترام أو خشوع • فالزوج ، حتى اذا ارتدى عدة الحرب المدرعة ، عرضة لسهام بلاغتكن المرة الغاضبة ، كما يمكن أن تخترق سهامكن خوذته • وكذلك أنصحكن أن تربطونه بقيود الغيرة ، وهكذا تستطعن أن تجعلن أزواجكن مرتعدين كالسمان • اذا كنت جميلة فاعرضى

وجهك وثيابك على الناس ، وبخاصة اذا كان هناك جمع غفير · واذا كنت قبيحة فاصرفي نقودك باسراف واعملي كل مافي وسعك للحصول على أصدقاء وحلفاء ، وكوني دائما متهللة الوجه مرحة واتركيه هو يبكي ويقلق ويئن ويتلوى ألما ·

(وهنا تنتهي حكاية عالم أكسفورد)

(واليكم الآن كلمات المضيف المرحة)

وبعد أن انتهى هذا العالم الفاضل من حكايته ، قال له المضيف وهو يقسم برفات المسيح : « كنت أفضل أن تسمع زوجتي الموجودة في البيت هذه الأسطورة عن احتسائي برميلا من الجعة · وهذه قصة عظيمة ، بهذه المناسبة ، أما ما أقصده بعد الآن فانصتوا الى قولي واتركوا ما لا يمكن أن يحدث في عالمنا هذا » ·

هوامش حكاية طالب العلم فى أكسفورد

(١) حكاية جريزلدا الصبور الحمول لها تاريخ عريق فى القصص الشعبى الأوربى ولو أن انتشارها فى الآداب الأوربية كان ملاحظا بصفة خاصة فى القرن الرابع عشر الميـــلادى · فهى موضوع آخر قصة فى الديكاميرونى (Decamerone) للمؤلف الايطالى بوكاتشيو (Boccaccio) أى الحكاية العاشرة فى اليوم العاشر · وقد ترجم الشـــاعر الايطالى بتراركا (Petrarca) هذه الحكاية الى شعر لاتينى وأشار فى المقدمة التى استهل بها ترجمته الى أن الموضوع كان معروفا فى القصص الشعبى الايطالى من قبل تأليف بوكاتشيو لحكايته · وأغلب الظن أن تشـــوسر قد استند هنا الى الترجمة اللاتينية التى كتبهـــا بتراركا · ولكن هنـــاك رأى قائل بأنه قد لجأ الى ترجمتين فرنسيتين نثريتين لترجمة بتراركا وخاصة الى تلك التى تسمى « كتـــاب جريزلدا » (Le livre Griseldis) المجهولة المؤلف · أما الترجمة الفرنسية الأخرى فهى منسوبة لفيليب دى ميزيير (Philippe de Mézières) الذى عاش من حوالى ١٣٢٦ م الى سنة ١٤٠٥ م أى كان (معاصرا لتشوسر · وقد ألف نفس المؤلف الفرنسى المذكور مسرحية بالشـــعر الثمانى المقاطع المقفى سنة ١٣٩٥ تقريبا اسمها « حكاية جريزلدا » (Histoire de Gruseldis) وهى تعتبر أول مسرحية فرنسية موضوعهـــا ليس دينيا ولا ملهويا ولكن هنا رأى بأن حكاية تشوسر ، وان استمدت باعترافه من بوكاتشيو عن طريق بتراركا أو ترجماته الفرنسية ، الا أنها معالجة جديدة لخرافة معروفة فى الميثولوجيا والرومانية ألا وهى أسطورة كيوبيد (Cupid) وبسوخى (Psyche) تتلخص هذه الخرافة فى أن كيوبيد ابن ملكة الحب والجمال فينوس أحب بسوخى حبا عميقا بحيث أثار ذلك الحب غيرة الالهة فينوس التى فرقت بينهما ولم ترض بأن يعود أحدهما الى الآخر الا بعد أن فرضت على بسوخى عدة اختبارات مضنية ، وتكاد تكون مستحيلة ، الا أن كوبيد كان يساعد عشيقته فى السر للتغلب على صعاب هذه الاختبارات · وفى نهاية الأمر توسط جوبيتر رب الآلهة ، بين فينوس وابنها واستطاع كوبيد أن ينعم بحبه الى الأبد · وترمز الأسطورة الى اقتران العشق ممثلا فى كيوبيد بالروح البشرية ممثلة فى بسوخى ·

(٢) سفر الحكمة ١/٣

(٣) الصوم الكبير (أو الأربعينى) فى الكنيسة يستغرق الأربعين يوما قبل عيد القيامة مباشرة يمتنع فيها الصائم عن تناول أى طعام من مصدر حيوانى ويقوم بعدة أعمال زهد ونسك وتأمل تذكارا للأربعين يوما التى قضاها المسيح فى البرية ·

(٤) مدينة عريقة فى ايطاليا الشمالية أسس فيها الامبراطور فريدريك الثانى جامعة سنة ١٢٢١ م اشتهرت بالدراسات القانونية ·

(٥) فرانشسكو بتراركا (Francesco Petrarca) من أشهر الشعراء الايطاليين ولد سنة ١٣٠٤ م وتوفى سنة ١٣٧٤ م وقد ذكرنا أن هذه الحكاية التى نحن بصددها مصدرها الترجمة اللاتينية التى قام بها بتراركا عن أصل لبوكاتشيو ·

(٦) كان جيوفانى دى ليناكو (Giovanni da Lignaco) أستاذا للقانون الكنسى فى جامعة بولونيا وعاش من ١٣١٠ م الى ١٣٨٣ تقريبا فهو بذلك معاصر لتشوسر وقد كتب فى موضوعات مختلفة باللاتينية وخاصة فى القانون الوضعى وعلم الأخلاق وعلم اللاهوت والفلك • ولعل تشوسر يشير هنا الى كتاباته الفلكية •

(٧) مدينة فى ايطاليا الشـــمالية فى مقاطعة بيمونتى (Piemonte) كانت مقرا لولاية ماركيس مستقل منذ سنة ١١٤٢ م ثم خضعت لولاية الامبراطورية الرومانية المقدسة ثم لدوقية ســـافوا (Savoie)

(٨) « مركيس » بالانجليزية (Marquis) و « مركيزى » بالايطالية (Marchese) لقب شرف فى النظام الايطالى دون الدوق وفوق الكونت • وترجع الكلمة الى أصل رومانى قديم اذ كانت تدل على حاكم أو أمير المناطق النائية على حدود الدولة الرومانية قديما المســـماة باللغة الجرمانية « ماركا » (Marka) وكذلك فى لغة الفرنجة •

(٩) كان الامتناع عن شرب الخمور من الصفات المستحبة فى أوربا فى العصور الوسطى

(١٠) أصل العبارة فى رسالة يعقوب بالعهد الجديد (١ : ١٣ ، ١٤ « ••• لأن الله غير مجرب بالشرور وهو لا يجرب أحدا • » ولكن كل واحد يجرب اذا انجذب وانخدع من شهوته » •

حكاية التاجر

(مقدمة حكاية التاجر)

صاح عندئذ التاجر قائلا : « البكاء والقلق والأنين والتلوى ألما ٠٠ هـذه أمور أعرفها معرفة كافية ليلا ونهارا ٠ وهذه هى أيضا حال الكثيرين ممن تزوجوا ، وأنا واثق من ذلك ، فهـذا هو ما جرى لى ٠ فلى زوجة من أسـوأ ما تكون ، لو ضاجعها الشيطان نفسه ، لاستطاعت أن تتغلب عليه ، وأنا مستعد أن أقسم على ذلك ٠ ترى من أين أبدأ رواية ما تتمتع به من شراسة مفترسة ؟ كل ما فى الأمر أنها امرأة شرسة للغاية ٠ وهنـاك فارق كبير بين صبر جريزلدا الطويل وقسوة زوجتى ٠ ليتنى كنت مطلقا ! لو كنت كذلك لما أقدمت ثانية على الوقوع فى شرك الزواج ٠ اننا نحن الرجال المتزوجين ، نعيش حياة كلها شقاء وتعاسة ٠ فليبحث الأمر من أراد ، ولا شك أنه سيجد أننى أقول الحق والقديس توما المبشر بالمسيحية فى الهند ! (١) أما عن أغلب الأحوال (لا أقول الكل) فان مثل ذلك لاسمح الله ، لن يحدث فيما بعد ! ٠

آه يا سيدى المضيف الكريم ، لقد تزوجت منذ شهرين ، ولا أريد أكثر من ذلك ، وأقسم بالله العظيم ! وأنا متأكد أن الرجل الذى قضى حياته كلها بلا زوجة ، لن يستطيع قط أن يروى عن أحزانه وشقائه ما أستطيع أن أرويه أنا عما حدث لى بسبب شراسة زوجتى اللعينة ! » ٠

فقاطعه المضيف قائلا : « يا سـيدى التاجر بارك الله فيكم ٠٠ أرجـو أن تقصوا علينا بعض ما تعلمتموه ، ما دمتم تعرفون كل ذلك عن حال الزواج ٠٠

فأجابه التاجر قائلا : « بكل سرور ٠٠ أما عن آلامى الخاصة ، فاسمحوا لى ألا أتكلم عنها لأن فؤادى مثقل بها للغاية » ٠

حكاية التاجر (٢)

كان فى قديم الزمان فارس كريم ولد فى مدينة « يافيا (٣) » ، يعيش فى امارة لومبارديا ، وعاش فيها حياة مترفة ناعمة ٠ وظل أعزب لم يتزوج لمدة ستين سنة ، وكان دائما يشبع رغبته الجسدية ، وقتما يشاء ، مع أولئك النسوة اللاتى تدفعه اليهن شهوته ، كما يفعل من لا يخضعون لأنظمة الكنيسة من العلمانيين ٠ ولما بلغ الستين من عمره ، وتعداها غمرت هذا الفارس رغبة عارمة فى أن يتزوج فى الحال ، ولست أدرى ما اذا كان الدافع لذلك هو الرغبة فى الخضوع للشرائع الدينية ، أو مجرد الشيخوخة الهرمة ٠ وبلغ به الأمر أنه كرس نهاره وليله للبحث عمن يستطيع أن يتزوجها ، وأخذ يتضرع الى الله أن يمنحه مرة واحدة فى حياته معرفة تلك الحياة السعيدة العفيفة ، التى تسود علاقة الزوج بزوجته ، وود أن يعيش فى ظل تلك العلاقة المقدسة التى ربط بها الله الرجل والمرأة منذ بادىء الزمان ٠ وقال لنفسه : « لا قيمة قط لأى لون آخر من الحياة ، لأن الزيجة علاقة ينعم فيها المرء بالراحة والصفاء ، وتخلق من الدنيا فردوسا » ٠ هذا ما قاله ذلك الفارس الشيخ ، وكان على نحو بالغ من الحكمة ٠

ولا شك أن الزواج من امرأة أمر مجيد ، بقدر ما يمكن اعتبار الله ملكا للكل ٠ وبصفة خاصة اذا كان الرجل شيخا اشتعل رأسه شيبا ، فالزوجة تكون عندئذ أعز فاكهة فى كنزه ٠ وعندئذ ينبغى أن يقترن بزوجة فتية جميلة حتى تحمل له ابنا ، يكون وارثا له ، وحتى يقضى حياته فى سعادة وراحة ٠ وذلك فى حين أن العزاب يئنون ويتنهدون قائلين « ويلنا » اذا صادفتهم تقلبات أو ألوان من الشقاء فى الحب ، الذى لا يمكن اعتباره أكثر من خيلاء صبيانية ٠ ولا شك أن من المناسب أن تكون الحال على هذا النحو ، ألا وهو أن يتعذب العزاب من آلام الحب ٠ فهم يشيدون علاقاتهم على أساس هش ، ولا يجدون الا الهشاشة ، بينما ينشدون الطمأنينة والصلابة ٠ وهم يعيشون كالطائر أو الحيوان فى حرية مطلقه ، بدون أى ضابط ٠ فى حين أن الرجل المتزوج يعيش فى ظل حالته الاجتماعية حياة سعيدة منظمة وهو واقع تحت نير عقد الزواج ٠ وما أكثر ما يفيض قلبه سعادة ومرحا ، ومن أشد طاعة للرجل من المرأة ؟ ومن أكثر ولاء وأكثر اهتماما بالحفاظ عليه فى صحة وعافية من قرينة حياته ؟ انها لا تتخلى عنه فى أيام الشدة ولا فى أيام الرخاء ٠ ولا تمل خدمته وحبه ، حتى لو كان طريح الفراش يوشك أن يموت جوعا ٠ ومع ذلك فان بعض العلماء يقولون ان الحال ليست كذلك ، ومن أنصار هذا الرأى العام « ثيوفراستوس » وما أهمية الأمر لو كان ثيوفراستوس (٤)

يريد أن يكذب على الناس ؟ ويقول « لا تتزوجوا حتى توفروا من نفقات تدبير المنزل ، فالخادم الوفى يتوق لأن يحافظ على خيرك أكثر من زوجتك لأن هذه الأخيرة تلح طوال حياتك على مشاركتك فى كل مالك • وأشهد بالله أنك لو مرضت لاعتنى بك أصدقاؤك الأوفياء ، أو رعاك خادم أمين أكثر من تلك المرأة ، التى تعيش معك دائما ، وهى تتوق الى الحصول على خيراتك بأسرها كل يوم • فاذا اتخذت لك زوجة ، فلا شك أنك تستطيع بمنتهى السهولة أن تصبح زوجا مخدوعا » • وقد كتب هذا الرجل هذه الآراء ومئات من الأشياء الأكثر سوءا ، لعن الله رفاته ! ومع ذلك فلا تهتم بمثل هذه الخزعبلات ، وتحد أقوال ثيوفراستوس وانصت الى أنا •

ان الزوجة هبة من الله بلا شك • أما كل الألوان الأخرى من الهبات ، مثل العقارات والايجارات والمراعي والملك المشاع والمنقولات ، فليست الا هبات الحظ ، وهى تمضى كأنها ظل على الحائط • ولكن لاتخافوا ، اذا تكلمت بمنتهى الصدق والوضوح ، فان الزوجة تدوم وتبقى فى بيتك وقد يطول بقاؤها أكثر من بقائك أنت •

ان الزواج سركنسى عظيم ، وأنا أعتبر من لا زوجة له مفلسا حقا ، اذ يعيش مهجورا لا يلقى مساعدة من أحد ، وأعنى بطبيعة الحال العلمانيين ، الذين لم يدخلوا فى سلك الرهبنة • واسمع ما أقوله ، واعلم أنى لا أتكلم هذرا عندما أقول ان المرأة خلقت من أجل مساعدة الرجل •

اذ أن الله ، عز وجل ، بعد أن خلق آدم ، ووجد أنه وحيد عارى الجسد ، قال بطيبة متناهية : « فلنخلق قرينة تساعد هذا الرجل وتكون شبيهة له » ، وعندئذ خلق حواء • وعلى هذا النحو ترون بل ويمكن أن تبرهنوا بالدليل القاطع أن الزوجة عون للرجل وسلوى له ، وهى جنته على الأرض وملذته • فهى مطيعة وفاضلة ، لدرجة أنه لابد لهما أن يعيشا معا • ويصبحا جسدا واحدا ، وأظن أن الجسد الواحد ليس فيه سوى قلب واحد يخفق فى المسرات والشدائد على السواء • فان كانت للرجل زوجة (يا سيدتنا العذراء مريم باركينا !) كيف يمكن أن يتعرض لأية شدة أو شقاء ؟ أقول حقا انى لاأعرف الاجابة • فالسعادة التى تشملهما يعجز اللسان عن وصفها ويعجز الفؤاد عن ادراكها • واذا كان الرجل فقيرا ، ساعدته فى عمله وحافظت على ماله ولم تبدد منه شيئا • وكل ما يحبه زوجها تحبه هى بدورها أيضا ، وهى لا تقول ، ولو مرة واحدة كلمة « لا » ، اذا قال هو كلمة « نعم » • فقد يقول لها « افعلى ذلك ! » فتجيب « سمعا وطاعة يا سيدى » •

بانظام الزواج المبارك ، يا من امتدحه الجميع •• أنت سعيد وفاضل الى حد أن أى رجل يرى أنه يساوى بصلة واحدة أو كراتة يجدر به أن يسجد على ركبتيه طوال حياته ، ليشكر الله على أنه منحه زوجة ، والا كان من الأجدر به أن

يتضرع الى الله ، لكي يرسل له زوجة تستمر معه حتى نهاية حياته ، فعندئذ تكون حياته آمنة مطمئنة • ولا مجال لخداعه في اعتقادى ، مادام يعمل حسب رأى زوجته • وعندئذ يستطيع أن يرفع رأسه شامخا ، لأن الزوجات مخلصات للغاية . وحكيمات للغاية أيضا، ولذلك أقول لكم اعملوا دائما ما تشير به عليكم النساء •

واسمعوا ! كيف قام يعقوب (كما يروى العلماء) بناء على نصيحة أمه رفقة بربط جزة الجدى على رقبته ، فنال بركة أبيه • واسمعوا ! كيف استطاعت يهوديت (٥) ، كما نعرف من الروايات ، أن تحافظ بحكمة بالغة ، على شعب الله المختار وأن تقتل أليفانا أثناء نومه •

واسمعوا ! كيف أنقذت أبيجايل زوجها نابال في الوقت الذى كان فيه محكوما عليه بالاعدام • وانظروا أيضا الى قصة استير التى أعتقت ، بايحاء الحكمة ، شعب الله من الشقاء ، ورفعت شأن مردكاى فى نظر أحشوروش •

ولا شيء فى الدنيا أعلى منزلة ، كما يقول الفيلسوف سينيكا (٦) ، من زوجة وديعة •

وعليك أن تتحمل لسان زوجتك كما أمرك بذلك كانون (٧) • فلها أن تأمر وعليك أن تتحمل ، ومع ذلك فهى قد تطيعك تأدبا • والزوجة حارسة لما فى بيتك • ويحق للرجل المريض اذا كان وحيدا ، أن يبكى وينتحب اذا لم تكن هناك زوجة تحافظ على بيته • وانى أنذركم : اذا كنتم راغبين فى العمل الحكيم الصالح أن تحبوا زوجاتكم ، كما أحب المسيح كنيسته (٨) •

واذا كنت تحب نفسك ، فانك تحب بالتالى زوجتك ، والانسان لايكره لحمه ودمه ، بل يراعيهما فى حياته ، ولذلك آمركم باعزاز زوجاتكم ، والا فانكم لاتحبون أنفسكم ، فالزوج والزوجة على الرغم من دعابات الناس ومزاحهم ، هما من يسيران فى طرق الحياة الأعظم أمنا ، اذا قارناهما بغيرهما من الناس فى الدنيا • فالرباط بينهما وثيق ، لدرجة أنه لا يمكن أن يقع ضرر عليهما ، وبخاصة بالنسبة للزوجة •

وبهذه المناسبة كان ذلك الشيخ (الذى حدثتكم عنه وكان يدعى « يناير ») يأخذ فى اعتباره ضرورة الدخول فى تلك الحياة السعيدة الفاضلة الموجودة فى ظل الزواج العذب كالعسل • وذات يوم أرسل لأصدقائه ، ليبلغهم بقراره الذى وصل اليه • وتكلم معهم بوجه جاد قائلا : « يا أصدقائى •• انى شيخ هرم ، وكدت أدرك حافة الهاوية ، والله أعلم بسر ذلك ، وعلى أن أفكر قليلا فى مصير روحى الأبدية • لقد أنهكت جسدى انهاكا طائشا ، ولكن الأمور سوف تصلح ، وأبارك الله على ذلك • لقد قررت قرارا حاسما أن أصبح رجلا متزوجا فى أقرب وقت ممكن • ولذلك أرجوكم أن تخططوا لى زواجا من فتاة جميلة غضة فى أقرب وقت ، لأننى لا أريد الانتظار كثيرا • وأنا من جانبى سأبحث عمن أستطيع أن أتزوجها

حالا ، وعلى وجه السرعة • ولكن بما أن عددكم كبيرفسوف تتاح لكم فرص أكثر لتحقيق غرضى ، واختيار أنسب زوجة لى • ومع ذلك فهناك شىء واحد ، أحب أن أنذركم به يا أصدقائى الأعزاء وهو أننى لا أريد بحال من الأحوال زوجة عجوزا هرمة • ولا شك أنها يجب ألا تتعدى سن العشرين • فما أريده هو اقتران السمك القديم باللحم الغض • وقال أيضا : ان سمك الكراكى البالغ خير لنا من السمك الصغير ، ولحم العجل الغض خير أيضا من لحم البقر العجوز • ولا أريد امرأة بلغت الثلاثين من عمرها ، اذا أنها مثل العلف من قش الفول الجاف • أما الأرامل المسنات فالله اعلم أنهن محنكات فى سبيل الحياة وتسيير قارب القدر(٩) ،وخبيرات بالسيئات اذا ناسبتهن الى حد أننى لن أستطيع أن أعيش مع احداهن حياة مطمئنة . والعالم المخضرم هو من ذهب الى مدارس مختلفة كثيرة . والمرأة الدارسة فى مدارس مختلفة ، يمكن اعتبارها نصف عالمة • والحقيقة أن الفتاة الشابة يمكن أن يرشدها الرجل ، كما يستطيع الانسان أن يشكل الشمع الدافىء بيديه ، ولذلك أقول لكم باختصار ان هذا هو السبب فى أننى لا أريد زوجة عجوزا • والسبب أننى وقعت فى برائن مثل هذا الحظ السيىء ، ولم أستطيع التمتع معها بملذات الحياة ، فانى سأقضى بقية حياتى زانيا ، حتى تحين منيتى ، عندما أذهب مباشرة الى الشيطان • وكذلك لا أريد أن أنجب منها أطفالا ، فأنا أوثر أن تلتهمنى الكلاب من أن أترك مالى وترابى ، يقع فى أيد غريبة ، وهذا ما أقوله لكم جميعا •

لست مخرفا بل أعرف جيدا السبب الذى يدفع الناس للزواج ، كما أعرف جيدا أن كثيرا من الناس يتكلمون عن الزواج ، وهم لايعلمون عنه شيئا أكثر مما يعلمه خادمى الغلام ، فيما يتعلق بالأسباب التى تدعو للزواج • واذا كان المرء لايستطيع أن يعيش عفيفا طوال حياته ، فليتخذ لنفسه زوجة من أجل ماتتحلى به من الأخلاق الفاضلة ، ولانجاب الأطفال انجابا شرعيا ، تكريما لله فى السموات ، وليس لمجرد الحب والجنس • وهناك سبب آخر هو أن يتجنب الفسق ، ويسدد دينه للحياة فى الوقت المناسب • وكذلك هناك سبب آخر ، وهو أن كل انسان يجب أن يساعد غيره فى مشاق الشدة ، كما تساعد الأخت أخاها ، وتعيش حياة طاهرة عفيفة • ولكن يا سادتى أنا لست من هؤلاء ، اذا سمحتم لى بهذا التعبير • وأنا ، ولله الحمد ، أفخر بأننى أحس بأن أعضائى قوية نشطة للغاية ، للقيام بكل ما يعتبر من أعمال الرجل • وانى لأعلم أكثر من غيرى ما أستطيع أن أفعله • فمع أننى أشيب الرأس فانى كالشجرة ، التى تزدهر بعد نمو ثمارها ، والشجرة المزدهرة ، كما تعرفون ، ليست جافة ولا ذابلة • وأنا لا أشعر بالشيب الا فوق رأسى • أما قلبى وكل أعضائى فهى فى حالة أخضرار ، شبيهة بالغار ، الذى يبقى أخضر طوال السنة • وما دمتم قد سمعتم كل ما أقصده من غرضى هذا ، فأرجو أن تنفذوا ما أريده قريبا » •

فحدثه أناس مختلفون بأساليب مختلفة عن موضوع الزواج ، ضاربين له

أمثلة قديمة • ولا شك أن البعض قد امتدحوه ، والبعض الآخــر استنكروه • ولكن باختصار حدث فى نهاية الأمر ، بينما اشتجر الخلاف بين الأصدقاء ، بسبب آرائهم المتضاربة أن وقع خلاف بين أخويه الاثنين ، وكان أحدهما يدعى «بلاكيبو» والآخر « جوستينوس » (١٠) •

فقال بلاكيبو : « يايناير يا أخى •• انك لم تكن فى حاجة قط يا سيدى العزيز الى أن تستشير أحدا من الموجودين هنا • ولكنك من الحكمة السامية بحيث أنك تريد ألا تنحرف عن كلمة ســـليمان الحكيم الذى نصحنا جميعا بما يأتى : « اجعلوا الأمر دائما شورى بينكم وعندئذ لن تأسفوا » (١١) • وعلى الرغم من أن سليمان الحكيم قال هذا القول ، يا أخى العزيز وسيدى ، فانى أشهد الله الذى يطمئن نفسى أننى أعتبر رأيك أنت خير الآراء • فاسمعنى يا أخى • واقبل الحجة الآتيــة من رجـل عاش كل عمره فى بلاط الملوك ، والله يعلم أننى قد شغلت (على الرغم من عجزى كما يعلم الله) منزلة عالية جدا فى وسط من علية القوم • ولم أختلف مع أحد منهم فى أية مناظرة ، وأقول الحق ، أننى لم أناقض أحدا قط ، لأننى كنت أعلم دائما أن سيدى أعلم منى وأنا دائما أوافقه على ما يقوله موافقة قوية حازمة ، وأقول مثل ما يقوله أو شيئا قريبا من ذلك • ان ذلك المستشار لسيد عظيم مكرم بين الناس يكون أحمق حقا ، لو تجرأ على أن يعتقد أن رأيه خير مما يدبره عقل سيده • اذن يا ســـادتى يا من أنتم حولنا هنا ، أستحلفكم بايمانكم ألا تكونوا أغبياء • لقد أبديتم اليوم آراء سامية بأسلوب واضح بليغ ، حتى أننى أوافقكم جميعا على جميع كلماتكم وعلى كل آرائكم • وبالله لا أجد فى كل هذه المدينة ، بل فى ايطاليا بأسرها أحدا تكلم خيرا منكم • وجازاكم المسيح على حسن مشورتكم • حقا انه من الجرأة بمكان أن يتزوج رجل متقدم فى السن من فتاة ، ومع ذلك فانى أقسم بأصالة والدنا وعراقته أن قلبك سعيد للغاية ، وعلى مرأى من كل الناس ! لذلك افعل فى هذا الأمر ما يعن لك ، لأن هذا هو خير الحلول فى آخر الأمر » •

أما جوستينوس الذى بقى ساكتا ينصت لأخيه ، فقد نهض وأجاب أخاه بلاكيبو على هذا النحو : « والآن صبرا يا أخى من فضلك ، ومادمت قد تكلمت ، وقلت ما عندك ، فاستمع الى • لقد قال الفيلسوف سينيكا ، ضــمن ما قال من الحكم ، ان على الرجل أن يفكر جيدا لمن يعطى أراضيه وأملاكه • وما دامت الحكمة تستدعى أن أفكر جيدا ،قبل أن أتبرع بما أملك فما بالك عندما أريد أن أهب جسمى هبة دائمة • وانى أنذرك انذارا صارما وأقول ان اختيار زوج من غير تفكير طويل ، ليس لعبا يتلهى به الأطفال • فلابد للرجل أن يسـأل الناس من حوله (وهذا هو رأيى القاطع) ما اذا كانت عاقلة معتدلة فى حياتها ، أو سكيرة أو متعجرفة أو شرسة على نحو آخر ، أو عيارة أو مسرفة بما تملك ، أو غنيــة أو فقيرة ، أو تواقة للرجال توقا جنونيا • ومهما يكن من الأمر فأنا أسلم بأنه ليس

هناك أحد فى العالم كامل فى كل شيء ، سواء كان انسانا أو حيوانا ، كما توهم الناس فيما مضى • ومع ذلك فانه يكفي فى حالة أية زوجة أن تتغلب محاسنها على مساوئها ، وعلى كل فالأمر يتطلب المزيد من وقت الفراغ للتباحث فيه • والله أعلم أنى بكيت كثيرا سرا منذ رزقت بزوجة • فليمتدح من يريد حياة الرجل المتزوج ، أما أنا فلا شك أنى لم أجد فى الحياة الزوجية سوى الهموم والتكلفة والالتزامات مجردة من أى سعادة • ومع ذلك فالله يعلم أن جيرانى كلهم وبخاصة غالبية النساء منهم ، يقولون ان لى زوجة مخلصة للغاية ، بل أنها أكثر الزوجات تواضعا فى عالم الحياة • ولكنى أنا أدرى بالألم الذى يثيره حذائى فى قدمى • لك يا أخى أن تفعل ما تشاء ، ولكن فكر وترو لأنك رجل مسن واسأل نفسك كيف تستطيع أن تقدم الرجال شبابا فى هذا الجمع من الناس قد يكون مشغولا للغاية بأن يضمن أن تبقى زوجته له فقط • وثق بكلامى أنك لن تستطيع أن ترضى عروسك ثلاث سنين كاملات ، وأعنى بالارضاء أن تعطيها المباهج التى تنتظرها منك • فالزوجة تتطلب الوفاء بالكثير من الالتزامات من جانب زوجها ، وأرجو ألا تغضب وألا يخيب ظنك » •

فتكلم يناير وقال : « والآن هـــل قلت ما عنـــدك ؟ انى لا أعطى بصلة لفيلسوفك سينيكا ولأمثالك • وأنا لا أقدر ألفاظكم العلمية المتقعرة بقيمة سلة من الحشائش • فهناك من هم أعلم وأحكم منكما ، وقد وافقونى على مشروعى وعلى أغراضى • وأنت يا بلاكيبو ما رأيك ؟ » • فأجاب قائلا : « أقول الحق ان الرجل الذى يترك الزواج جانبا انسان ملعون بلا شك » • وبعد ما انتهى هذا الحديث نهضوا جميعا على الفور ، وأجمعوا على أنه لابد له أن يتزوج ، حيث ومتى أراد •

وبدأت الأوهام والهموم والقلق تتسلط على قلب يناير أكثر وأكثر يوما بعد يوم ، وكانت كلها تدور حول موضوع زواجه • وكانت مخيلته تستحضر كثيرا من الأشكال النسائية الجميلة والوجوه الفاتنة ، ليلة بعد ليلة ، مثله مثل مرآة وضعت فى ساحة سوق ، تنعكس عليها أشكال المارة من الفتيات والنساء من جيرانه •

ولم يستطع الوصول فى نفسه الى قرار واضح قاطع ، فاذا كانت هناك واحدة يكمن الجمال فى وجهها ، جاءت أخرى محبوبة من الناس من أجل خلقها الجاد ، وطيبة قلبها ، الأمر الذى يرفع من شأنها أكثر وأكثر بين الناس • وكان منهن من كانت غنية ، ولكن سمعتها سيئة • ومع ذلك فانه ، وهو يتردد بين اللهو والجد قد انتهى به الأمر الى أن يقع اختياره على واحدة منهن ، وترك غيرها من الفتيات يهجرن قلبـه ، وعلى ذلك اختارها هى ، دون غيرهـا بمحض ارادته • فالحب دائما أعمى ولا يميز ما أمامه •

وذات ليلة عندما آوى الى فراشه أخذ يتصور فى قلبه وفى مخيلته جمالها الغض وسنها المبكر ، وخصرها الرفيع وذراعيها الرقيقتين الأنيقتين ، وتدبيرها الحكيم للأمور ، وأدبها الجم وسلوكها الأنثوى الرفيع ، وخلقها الجاد •

ولما وقع اختياره عليها رأى أن اختياره لا رجعة فيه ، وأن رأى الآخرين فى الموضوع لا قيمة له ، بل انه لا يمكن تقديم أية حجة تناقض اختياره ، وكان ذلك وهمه الخداع • وأرسل لأصدقائه حتى يحضروا • ورجاهم أن يعملوا له معروفا بأن يبادروا بالحضور ، فقد قرر أن يختصر نشاطهم فى سبيله ، لأن الحاجة الى ذهابهم وايابهم من أجله قد تلاشت ، مادام قد وصل الى قرار ، وأصر على أن يحقق غرضه • وجاء بلاكيبو ، وأدركهما بقية أصدقائه الآخرين • وبدأ أولا بأن رجاهم ألا يجادلوه فيما وصل اليه من قرار قائلا بأن غرضه المذكور فيه ما يرضى الله ، وفيه أيضا أساس لسعادته المستقبلة ، وقال لهم ان هناك فتاة فى المدينة ، اشتهرت بجمالها على الرغم من أن منزلتها الاجتماعية ليست عالية • ويكفيه فيها جمالها وشبابها •و قال انه مصر على أن تصبح زوجة له حتى يقضى حياته فى تقوى ومسرة فى آن واحد • وأردف قائلا انه يحمد الله على أنها ستكون كلها له ، وأن أحدا لن يشاركه فى سعادته • كما رجاهم أن يدبروا له الأمر حتى لا يفشل فى غرضه ، وقال انهم اذا فعلوا ذلك امتلأت نفسه راحة وطمأنينة •

واستطرد يقول : « عندئذ لا أجد شيئا يعكر مزاجى سوى أمر واحد ، يحز فى ضميرى وسأقص عليكم حقيقة هذا الأمر •

لقد سمعت من بعض الناس فى أيام مضت أن الانسان لا يستطيع أن يتمتع بسعادتين على وجه من الكمال ، وأعنى بذلك السعادة فى الدنيا وفى الآخرة فى آن واحد • فحتى لو استطاع الانسان أن يحمى نفسه من الكبائر السبع ، ومن كل فروع تلك الشجرة اللعينة (١٢) ؛ فان الزواج ينطوى على سعادة كاملة وبهجة وراحة عظيمة ، لدرجة أننى أجد نفسى فى قلق ، اذ أعيش مثل هذه الحياة السعيدة ، بعد أن أدركت ما أدركته من العمر ، وتكون حياتى الزوجية رقيقة هادئة خالية من الشقاء والخلاف ، فأنعم بجنتى فى دنياى • فكيف يمكن بعدئذ أن أتمتع بقدر من البهجة يتناسب مع ما يتمتع به الرجل المتزوج فى حياته مع زوجته ، ثم أقدم على تلك السعادة الأبدية التى تدركها النفس ، بعد وصولها الى السموات ، التى يهيمن عليها الى الأبد المسيح ؟ هذا هو ما أخشاه ، ولذلك أرجو منكما يا أخوى أن تجيبا على سؤالى » •

أما جوستينوس الذى كان يكره طيشه وجنونه ، فقد أجاب على هرائه فى الحال قائلا ، وهو يريد أن يختصر قصته الطويلة بألا يعتمد على حجة دامغة : « يا سيدى ، ليس هناك أى مانع سوى ما يلى : ليت الله ، بما يستطيع أن ينجزه من معجزات ، وبما فيه من رحمة ، ينفث فيك ارادته حتى تندب حياة الرجل المتزوج ، التى تخلو من الخلاف والشقاء ، على حد قولك وتتخلى عن الرغبة فيها ، قبل أن تقدم على طقوس الزيجة فى الكنيسة • والا فليت الله يمنح الأعزب نعمة الندم ، قبل أن يمنحها للمتزوج • ولذلك يا سيدى « وهذا خير نصح من جانبى » لا تيأس ، ولكن تأمل فى هذه الحقيقة ، ألا وهى أن زوجتك قد تصبح بمثابة مطهر

لنفسك ، لا جنة لها • فقد تصبح وسيلة لارادة الله أو سوطا لها • وعندئذ تدفع نفسك الى الآخرة دفعا أسرع عن انطلاق السهم من القوس • أرجوك بالله تعالى أن تعلم فيما بعد أنه ليست هناك سعادة عظمى فى عقد الزواج ، على الوجه الذى تتصوره ، وأن هذه السعادة لا توجد مستقبلا ، الأمر الذى يجعلك تفقد أملك فى الخلاص فى الآخرة • ولذلك أنصحك أن تلتزم جادة العقل ، والاعتدال فى معالجتك لرغبات زوجتك ، وألا ترضيها فى الحب أكثر من اللازم ، وأن تصون نفسك من ارتكاب أية خطيئة أخرى • والآن لقد قلت ما أردت أن أقوله ، لأن ذهنى محدود • فلا تخف يا أخى العزيز ، ولنخرج أنفسنا من هذا الموضوع المعقد • وأن « سيدة باث » ، لو أنك فهمت غرضها ، عالجت موضوع الزواج ، الذى نحن بصدده بشرح واف ، وفى ايجاز بليغ • فالسلام عليك يا أخى ، واذهب فى رعاية الله تعالى » •

وبعد مادار من الكلام استودع جوستينوس أخاه والآخرين واتفقوا جميعا بعد ذلك خفية وبلؤم حكيم ، على أن يدبروا الأمـور بحيث تتزوج هذه الفتـاة المسماة « مايو » من يناير فى أقرب وقت ممكن • وانى أعتقد أن المجال لايتسع للحديث عن كيفية ابرام العقد الذى ربطها بعقاراته ، ولا عن مظهرها الفخم لما قدمت له • والخلاصة أنه فى آخر الأمر جاء اليوم الذى ذهب الاثنان فيه الى الكنيسة ليتقبلا سر الزواج الكنسى المقدس • وجاء القسيس وهو يرتدى بطرشيله الطقسى ، وأمرها بأن تشبه سارة ورفقة فى حكمتهما وفى اخلاصهما لالتزام الزيجة • ثم صلى كما هو المعتاد ، ورسم الصليب عليهما ، وطلب من الله أن يباركهما ، وعمل كل ما يجب عمله حتى يتم الزواج بما فيه من قدسية • وعلى هذا النحو تزوجا زواجا رسميا وقورا ، وجلس ، هو وهى ، الى مائدة الوليمة على المنصة الخاصة • وامتلأ القصر بنغمات البهجة والسرور وبأصوات آلات الموسيقى، وبما لذ وطاب من كل أنحـاء ايطاليا • ومثل أمامهما عازفو آلات ، استحضروا منها أنغاما ، لم يأت بها أورفيوس نفسه ، ولا أمفيون بناء طيبة (١٣) • وكان يصاحب تقديم كل طبق من الأكـل موسيقى وطرب يفوقان ما كان « يوآب » يستحضره من بوقه (١٤) ، وما أتى به « ثيودوماس » فى طيبة من نفيره ، عندما كانت المدينة مهددة بالحصار (١٥) • وكان الاله باكوس يسكب النبيـذ لكل الحاضرين ، وكانت الالهة فينوس تبتسم فى وجه كل الناس ، لأن الشيخ يناير كان قد أصبح فارسا من فرسانها ، وهو يجرب نفسه فى حرية العزوبة وأيضا فى داخل رباط الزواج • وأمسكت الالهة ربة الحب بمشعلها ، ورقصت أمام العروس وأمام جميع الضيوف • ولا شك أننى أستطيع أن أقول ان « هيمينيوس » اله الزيجة (١٦) لم يشهد من قبل مثل هذا العريس ، من حيث السعادة والبهجة ، فاسكت اذن أيها الشاعر مارسيانوس (١٧) يا من وصفت لنا تلك الزيجة المرحة بين فقه اللغة وميركوريوس وماترنمت به ربات الفنون من أناشيد وأغان آ ان قلمك بل ولسـانك يعجزان عن وصف الزواج الذى نحن بصـدده • وعندما يتزوج

الشباب الغض من الشيخوخة الهرمة فهناك ما يدعو الى قدر من الضحك والمزاح ، لا يمكن تسجيلهما كلاما · وجرب وحدك ما أقوله ، وسوف تعرف عندئذ ما اذا كنت كاذبا أم لا فى هذا الأمر ·

وكانت « مايو » جالسة تبدو عليها سيماء الوداعة والطيبة ، وكان مجرد التأمل فيها يوحى بعالم الجان · ولم تماثلها فى قديم الزمان الملكة استير ، وهى تتأمل فى الملك أحشوروش (١٨) بنظراتها الوديعة ولذلك لا أستطيع أن أعطى جمالها ما يستحقه من الوصف · ومع ذلك فانى أقول لكم هذا القدر عن جمالها ، ألا وهو أنها كانت تشبه اشراق الضحى فى شهر مايو ، فهى ممتلئة جمالا وحسنا ·

وكلما كان يناير يتطلع الى وجهها ، كان يجد نفسه مجذوبا فى نشوة وتجل · وأخذ فى اعماق قلبه يهددها بأنه سيغازلها مغازلة عنيفة ، عندما يضمها الى صدره فى الليل ، وهما فى الفراش ، وأن ضماته وقبلاته ستكون أقوى من تلك التى أمطر بها « باريس » « هيلانة » (١٩) (فى الأساطير القديمة) · وعلى الرغم من ذلك فان قلبه فاض شفقة عليها لأنه سيأخذها بعنف ، وناجى نفسه قائلا : « ويحها ! يا من أنت مخلوقة غضة أرجو الله أن يهبك من لدنه قوة ، لتحمل أغراضى منك هذه الليلة ، فرغبتى فيك عارمة حادة · اننى أخشى آلا تحتملى شهوتى ، ولو أن الله ينهانى أن أبذل كل جهدى ! يارب ، ليت الليل يقبل · وليت الليل يدوم أبدا · وليت كل هؤلاء الضيوف ينصرفون » ·

وفى آخر الأمر بذل كل ما فى وسعه ، فى حدود الأدب ، ليجعلهم ينصرفون بأسلوب لبق · ثم جاء الوقت الذى يقضى فيه العقل بأن ينصرف الضيوف · وصمم بعض الناس بعد ذلك على الاستمرار فى الرقص وفى شرب النبيذ وفى بعثرة التبول والعطور فى كل أنحاء البيت · وفاض بالسعادة والبهجة قلب كل انسان الا غلاما وصيفا يدعى دميان (٢٠) ، كان يقطع اللحم بحضور سيده الفارس يوما بعد يوم · وكان هذا الوصيف مفتونا بالسيدة مايو ، حتى كاد يفقد وعيه من الحب · وكاد يغمى عليه وينهار فى مكانه ، لما عاناه من قسوة آلام الحب ، التى أشعلتها الالهة فينوس فى قلبه بمشعلها ، الذى كانت تحمله فى يدها وهى ترقص ، فانصرف الى فراشه على وجه السرعة ·

وكفى حديثا عنه الآن ، وسأتركه فى مكانه يشكو ويبكى حتى تشفق مايو الغضة على شقائه ·

أيتها النار الخطيرة التى تنمو بين طيات فراش النوم ، أيها العدو المقرب الذى يعرض خدماته على الناس ، أيها الخادم الخائن الغادر أنت مثل الأفعى المختفية فى حضن امرىء ، لكى تسممه ، حفظنا الله جميعا من معرفتك · وأنت يا يناير يا من ثمل بمباهج الزواج ، انظر كيف أن دميان وصيفك الخاص ، ذلك

الغـــلام الذى ولد فى أراضيك ، ينوى أن يدبر لك مكيـــدة . الا فليلهمك الله البصيرة ، لكى ترى العدو فى بيتك . اذ أن أسوأ ما فى هذه الدنيا ، عدو كامن فى وسط بيتك ، وماثل بين يديك باستمرار .

وكانت الشمس قد أتمت مدارها اليومى ، لم يبق لها مجال للبقاء على الأفق ، وكان الليل قد أسدل معطفه الكبير الداكن على نصف الكرة الأرضية ، وعندئذ أخذ الجمع المرح من الضيوف ينصرف من عند يناير بعد الشكر والسلام . وذهب كل منهما الى بيته راكبـــا جواده وبذلك انصرفوا فى الوقت الذى كان يناسبهم ، وبعد التعب والمرح ذهبوا لفراشهم .

وبعد ذلك بقليل أراد يناير المتحمس المتحفز أن يذهب الى فراشه ، ولم يرض أن ينتظر أكثر من ذلك . فشرب دواء منشطا ونبيذا عذبا ونبيذا أبيض مخلوطا بالتوابل الحريفة لكى يزيد من همتـــه . وكان لديه كثير من الأدوية ، مثل تلك التى وصفها ذلك الراهب اللعين السيد قسطنطين فى كتابه المسمى « فى الجماع » (٢١) . ولم يأب أن يأكل ويشرب كل ما لديه . ثم قال لأصدقائه المقربين : « أتوسل اليكم بمحبة الله أن تنصرفوا عن هذا البيت وفق ما يستدعيه الأدب » . وهذا ما قاموا به فعلا بالضبط نزولا على رغبته . وبينما كان الرجال يشربون أسدلت الستائر على الفراش وأحضرت اليه العروس ، وهى ساكنة كقطعة من الحجر . ولما بارك القسيس الفراش أخـــذ كل الموجودين يعد يناير لدخوله . واحتضن يناير عروسه الغضة ، وفردوسه على الأرض ، زوجته مايو . فهودها وانهال عليها بالقبلات . وحك وجهها الناعم بهلب لحيته الغليظة مثل حرافش كلب البحر (اذ أنه كان قد خلق ذقنه على هذا النحو منذ قليل) . وقال : « ويحك يا عروسى .. لابد لى أن أسىء اليك وأن أؤلمك كثيرا قبل أن أنزل من فوق هذا السرير . ومع ذلك فخذى فى اعتبارك ما يلى : ليس هنـــاك عامل أو صانع ، مهما كان ، يستطيع أن يعمل باتقان وسرعة فى آن واحد . فالعمل يمكن أن ينجز على خير وجه اذا تم أداؤه بتأن وبلا تسرع . فلا أهمية لما نقضيه من وقت فى اللهو واللعب فنحن الاثنين مرتبطان ارتباطا وثيقا بعقد زواج شرعى . وقد بارك الله النير الذى يقع على عنقينا ونحن لا نرتكب أية خطيئة الآن ، مهما أتينا من أمور . والرجل لا يمكن أن يكون آثما اذا أتى بهـــذه الأعمال مع زوجتـــه اذ لا يستطيع المرء أن يجرح نفسه بمديته ، والشرع يسمح لنا أن نلهو كيفما نشاء » .

واستمر على هذا النحو يجهد نفسه حتى الفجر . ثم تناول كعكة غمست فى كأس من النبيذ الممتاز ، ثم استقام جالسا فى فراشه وأخذ يغنى بصوت عال ورنان ثم قبل زوجته وأتاها بشهوته اللعوب . وكان أشبه بالمهر الممتلىء حماسا وامتداحا وهو يثرثر باستمرار مثل طائر العقعق المنقط . وأخذ الجلد الرخو حول عنقه يرتجف ويرتج . وبينما كان يغنى ، صدر صوته مثل نقيق الضفدع .

والله أعلم بما كان يدور فى قلب مايو وهى تراه جالسا فى قميصه ، وقلنسوة النوم على رأسه ، ورقبته ممتدة وهزيلة . فهى فى الواقع لم تعبأ بلهوه ، ولم تقدره بفولة . ثم قال : « سأستريح الآن ، فقد أقبل النهار ولا أستطيع أن أسهر أكثر من ذلك » . ثم طرح رأسه على الفراش ، واستغرق فى نوم عميق حتى صلاة الضحى . ولما رأى يناير الساعة بعد ذلك ، نهض ، ولكن مايو الشابة لزمت حجرتها حتى اليوم الرابع ، كما هو الحال عند أعلى الزوجات منزلة . ومن حق كل عامل أن يستريح ، والا لما استطاع الاستمرار كثيرا فى عمله وهذه هى الحقيقة بالنسبة لجميع المخلوقات الحية سواء كانت سمكا أو طائرا أو حيوانا أو انسانا .

أما الآن فانى أتحدث عن دميان الحزين الذى أضنته شدة حبه كما ستستمعون . ولذلك أخاطبه على النحو الآتى قائلا : « يا دميان ، ويحك أيها الشاب البرىء ، أجب على سؤالى : كيف يمكنك أن تعرب عن مدى شقائك وحزنك لسيدة قلبك مايو الغضة ؟ انها ستقول دائما : « لا » وحتى لو أعربت لها عما فى قلبك ، فانها ستفضحك وتكشف أساك للجميع ، فالله يساعدك ، ولا أعرف ما أقوله لك خيرا من ذلك » .

وظل دميان هذا يحترق فى نيران الاله فينوس حتى كاد يهلك حبا وشوقا ، مما عرض حياته للخطر . ولم يستطع الاستمرار على هذا الوضع ، فقام وأخذ قلمه سرا ، وكتب كل ما يجيش فى قلبه من آلام فى خطاب ، على نحو يشبه قصيدة الشكوى أو المرثية وناشد فيه قرة عينه السيدة مايو الغضة ، ثم وضع الخطاب فى جراب من الحرير ، كان مدلى على قميصه ، وأخفاه فى حضنه .

وفى ساعة الظهيرة من اليوم الذى تزوج فيه يناير من مايو الغضة ، كان القمر قد دخل الدرجة الثانية من برج الثور ، وبدأ يتسلل نحو برج السرطان (٢٢) . وبقيت مايو طويلا فى حجرتها تمشيا مع العادات المقررة لعلية الناس . فالمعروف أن الزوجة العروس لا تأكل فى بهو الطعام حتى اليوم الرابع من زواجها ، أو الثالث على الأقل . وبعد ذلك تستطيع الاشتراك فى الولائم .

وفى اليوم الرابع الذى اكتمل من ظهيرة الى ظهيرة بعد الانتهاء من القداس الكبير ، جلس يناير وعروسه فى البهو الأعظم من قصره وكانت عروسه ناضرة كيوم مشرق من أيام الصيف . وحدث أن تذكر هذا الشيخ الطيب فجأة غلامه دميان فقال : « والعذراء مريم كيف يمكن ألا يكون دميان حاضرا بجوارى ليخدمنى ؟ أهو دائما مريض ؟ أو ترى ماذا حدث ؟ » . وتطوع وصفاؤه ، الذين كانوا واقفين بجواره ، بايجاد الأعذار له على أساس أنه مريض ، الأمر الذى منعه من القيام بواجباته ، وليس هناك سبب آخر يمكن أن يؤخره عن سيده على هذا النحو .

فقال يناير : « انى لآسف حقا لأنه وصيف سامى الأخلاق ، وأنا أقسم بهذا • ولو مات لكان ذلك أمرا يدعو للأسف والرثاء حقا • فهو حكيم وحصيف وكاتم للأسرار ، وعلى درجة عالية من الرجولة ، وخدوم بقدر يفوق أى رجل آخر من درجته الاجتماعية ، وهو قادر تماما على أن يكون مثالا للرجل المدبر • على أننا بعد تناول الطعام سأزوره شخصيا فى أقرب وقت ممكن كما ستزوره زوجتى مايو، لكى أهيىء له ما أستطيع من أسباب الراحة » • وجعلت هذه الكلمات كل الحاضرين يباركون يناير ، ويثنون عليه لكرمه وسمو أخلاقه ، لأنه انتوى أى يزور فراش المرض لوصيفه ، واعتبروا ذلك من سمات النبل • ثم استطرد يناير وقال لزوجته : « يا سيدتى ليكن فى اعتبارك أن تذهبى مع وصيفاتك لزيارة دميان فى حجرة نومه ، بعد تناول الطعام بقليل • وأرجو أن تسلوه فى مرضه فهو من علية القوم ورجل كريم الأخلاق ، وقولى له اننى سأزوره بعد أن آخذ قسطا من الراحة • وأسرعى وسوف أنتظرك ، حتى تعودى لتنامى بجوارى فى السرير » •

وبعد أن انتهى من كلامه هذا أمر أحد وصفائه الذى كان منوطا به تدبير شئون القصر ، أن يقوم ببعض الالتزامات المتصلة بعمله كما أخبره بما يريد •

وقامت مايو الغضة فى وسط جمع من وصيفاتها ، وذهبت الى حجرة دميان• وجلست بجوار فراشه ، وأخذت تخاطبه ببعض كلمات السلوى ، للتسرية عنه بقدر ما تستطيع • ولما جاء دور دميان للكلام استطاع خلسة أن يخرج الرسالة ، التى كان قد كتبها ، من جرابها الحريرى ، وأن يضعها بين يديها ، بدون أى تعليق أو تفسير ، وتنهد بشكل مؤثر محزن ، ثم همس لها : « آتوسل اليك ألا تكشفى أمرى ، وان فعلت ذلك ، فانى سأقضى نحبى فى الحال » • فأخفت الرسالة وجرابها فى حضنها على الفور وانصرفت • وهذا كل ما أقصه عليكم عن ذلك • وعادت الى جوار يناير الذى كان جالسا فى انتظارها الى جانب الفراش • فأخذها بين ذراعيه ، وقبلها مرارا ، ثم استلقى على الفراش ، وبعد قليل استغرق فى النوم • وعندئذ تظاهرت بأنها فى حاجة الى الذهاب الى المكان الذى تعرفونه ، والذى لاغنى عنه بالنسبة لكل انسان • وقرأت الرسالة ، ووقفت على ما فيها ، ثم مزقتها ، وقطعتها اربا اربا وألقتها خلسة فى المرحاض • ومن سوى مايو الجميلة الغضة ترهق نفسها فى سبيل ارضاء زوجها ؟ لقد ألقت نفسها بجوار يناير العجوز ، الذى ظل مستغرقا فى نوم عميق حتى أيقظه سعاله • وعندئذ رجاها أن تخلع ثيابها وتعرى نفسها ، وقال انه يريد أن يمتع نفسه بها ، وأردف قائلا أيضا ان ثيابها تعوق بهجته • فأطاعت أمره راضية أو غير راضية • وحتى لايغضب منى مرهفو الحساسية لا أجرؤ أن أروى لكم ما فعل بها ، ولا أستطيع أن أقول لكم ما اذا كانت قد اعتبرت أعماله هذه فردوسا أم جحيما ، فلأتركهما هنا يعملان ما يحلولهما ، ودقت أجراس صلاة المغرب فاضطرا عندئذ الى النهوض•

ولست أدرى ما اذا كان القدر أو الحظ أو تأثير أبراج السماء أو الطبيعة المدارة باقتران الكوكب فى مسارها ، أو غير ذلك ،هو الذى جعل الوقت مناسبا لوضع حسن الختام لأعمال الالهة فينوس ــ اذ يقول العلماء ان كل أمر له مقام ووقت مناسب ــ بأن تجد المرأة ما يحقق حبها • ولكن الله العظيم فى السموات ، الذى يعلم ألا شىء يحدث بدون سبب ، هو الأعلم بكل ما دار وأنا سأسكت عن الكلام • أما الحقيقة فهى أن مايو تلك المرأة الغضة الربلة قد تأثرت بما رأته من دميان فى مرضه ، حتى أنها لم تستطع قط أن تخرج ذكرى لقائها به من قلبها ، أو تكبح جماح رغبتها فى ارضائه • فقالت لنفسها : « حقا ان من لا يرضى بهذا لايهمنى ، لأننى متأكدة أننى أستطيع أن أحبه أكثر من أى مخلوق آخر ، وذلك حتى ان كان لا يملك سوى قميصه » • نعم يا أعزائى ان الشفقة تسهل بسرعة من قلب رحب كريم •

وهكذا تلاحظون أن فى وسع المرأة ، اذا أرادت واذا دبرت أمورها تدبيرا محكما ، أن تبدى كرما نبيلا • وهناك نساء ، كالحاكم المستبد الظالم الذى يجمد قلبه جمود الحجر ، والذى لا يتورع أن يترك الشخص يموت من الجوع أو الظمأ فى مكانه ، قبل أن يمنحه شيئا من عطفه أو فضـــله • ومثل هؤلاء يســـعدن بكبريائهن ولا يعبأن ان كن أسباب هلاك غيرهن •

أما هذه المرأة الكريمة السيدة مايو فقد امتلأت عطفا ، وكتبت له خطابا بخط يدها منحته فيه رضاها وعطفها • ولم يبق شىء لتحقيق ذلك سوى تحديد اليوم والمكان للقاء المحبين ، حتى ترضى شهوته ورغبته فيها ، وتركت الأمر كلية لما يرضيه وما يستطيع أن يدبره •

وفى يوم من الأيام ، عندما أدركت مايو أن الوقت مناسب ، ذهبت لزيارة دميان ، واستطاعت بمنتهى اللباقة والسرية أن تطرح رســالتها تحت مخدعه ، ليقرأها اذا أراد • ثم قبضت على يده ، وشدت عليها بحرارة ، ولكن فى سرية تامة بحيث لم يدرك أحد أمرها • ثم قالت له انه يجب أن يستعيد قوته ويشفى تماما • ثم انصرفت وذهبت لتكون بجوار يناير ، الذى كان قد بعث يطلبها •

وفى صباح اليوم التالى استيقظ دميان ، وقد تلاشى حزنه وشفى من مرضه تماما • وأخذ يمشط شعره ، ويتأنق ويتهندم ويظهر على النحو الذى ترغب فيه ســـيدته وتميل اليه • ثم ذهب الى القصر ومثل بين يدى يناير ، وانحنى أمامه انحناء الكلب الرابض استعدادا للانقضاض على فريسته • وأظهر اللطف والأدب للجميع (فاللباقة فى مثل هذه المواقف هى كل شىء ، كما يعلم ذلك كل من وجد نفسه فى هذه الظروف) ، الأمر الذى دعا كل شخص أن يقابله بالأدب والتكريم ، فأصبح مقبولا قبولا تاما وحظى بعطف سيدة قلبه • أما الآن فأترك دميان وشأنه ، واستمر فى حكايتى •

يقول بعض الفقهاء (٢٣) ان السعادة تكمن فى ملذات الحياة ، لذلك قرر يناير هـذا الرجل الكريم أن يعيش حياة لذيذة بكل ما يملك من قوة على نحـو محترم ، وفى حدود الشرعية كما ينبغى أن تكون الحال مع الفرسـان ٠ وكانت حاشيته وثيابه محترمين للغاية ومناسبين لمنزلته ، كما لو كان ملكا ٠ وكانت من بين أملاكه الغالية حديقة مسورة بسور من الحجر ٠ ولا أعرف أن هناك حديقة فى الدنيا أجمل من هذه ٠ وأنا بلا شك مسـتعد أن أقرر أن مؤلف « رواية الوردة » (٢٤) لم يستطع وصف مثل هذه الحديقة على النحو الملائم ٠ كما أن بريابوس اله الخصوبة والحدائق (٢٥) ، لا يستطيع أن يوفى هذه الحديقة حقها من التقريظ ، مع انه اله الحدائق ، ولا يستطيع أن يصف بما يرضى الجميع تلك العين الجميلة الموجودة فى ظل شجرة غار دائمة الاخضرار ٠ وكثيرا ما كان اله العالم السفلى بلوتو (٢٦) وملكته بروزربينا وحاشيتها من أهل الجان ، يتمتعون بهذا المكان ، من أجل الرياضـة واللهو والرقص ، على نحو ما كان الناس يقصون فى رواياتهم ٠

وكان يناير ذلك الفارس العجـوز يسعد بالتريض فى هـذه الحديقة ، ولا يحتمل أن يشاركه فيها أحد ، واحتفظ لنفسه دون غيره بالمفتاح الذى يفتح رتاج بابها ٠ وكان دائما أينما ذهب يحمل فى يده مفتاحا فضيا لسوره الصغير ، حتى يفتح بابه ، كلما أراد ٠ وعندما كان يريد أن يفى بالتزامات الزوجية نحو زوجته فى فصل الصيف ، كان يذهب الى ذلك المكان بصحبة زوجته مايو وليس معهما أحد سواهما ٠ وهناك كان يقوم بأعمال لم تكتمل فى الفراش ، فينجزها فى الحديقة على وجه كامل ٠ وعلى هذا النحو قضى يناير هذا ومايو الغضة أياما مرحة كثيرة ٠ ولكن مباهج الدنيا لا تبقى دائما فى قبضة يناير ، ولا قبضة أى مخلوق آخر ٠

يا أيها الحظ المتقلب فجـأة ، يا أيها النصيب المتغير ؟ انت مثل العقرب الخداع ، الذى ينافق برأسه ، فى حين أنه يتأهب للدغ بذيله ، الذى ينذر بالهلاك لما فيه من سم زعاف يا أيتها البهجة الهشة ٠٠ أيتها السموم الخداعة المتسللة ! يا أيها الوحش المخيف ، الذى يعرف كيف يصور ما يقدمه لك ، بألوان الوفاء والولاء ، فرحين أنك أنت الخداع الذى يغرى الكبير والصغير على السواء ! لماذا قررت أن تخدع يناير على هذا النحو ، يا من كنت قد اتخذته لنفسك صـديقا حميما ؟ ها أنتذا بعد أيام قد حرمته من بصر عينيه الاثنتين مما جعله يتمنى الموت ٠

ويله ! ان يناير هذا الرجل الكريم أصبح كفيفا وهو فى ذروة تحقيق مراده ، وأوج سعادته ، وقد حدث ذلك بصورة مفاجئة سريعة ٠ وقد بكى وأعول عويلا بطريقة تبعث على الشفقة ، وحدث فى الوقت نفسـه أن اشتعلت فى صدره نـار الغيرة والخوف من أن تقع زوجته فى لون من ألوان الحماقة أو الطيش ٠ واحترق قلبه غيظـا ، حتى أنه بدأ يتمنى أن يقبض عليه أحـد ويقتله ٠ وكان قصـده

ألا تصبح زوجة أو خليلة لأحد غيره فى حياته ، أو بعد موته ، وأراد أن تعيش بعده أرمله ترتدى ثيابا سوداء مثل اليمامة التى فقدت قرينها • ولكن فى آخر الأمر ، بعد شهر أو شهرين أخذ حزنه يهدأ ، اذا قلنـا الحقيقـة • ولما علم أن الأمور لايمكن أن تكون على غير النحو الذى كانت عليـه تقبل شقاءه بالصبر ، ولكنه لم يستطع أن يتخلص من غيرته السـاحقة ، الأمر الذى أصبح شـنيعا فاضحا ، لم يرض قط أن تمشى أو تركب فى قصرها ، أو فى بيت آخر أو فى أى مكان غيره الا اذا كان هو يمسك بيدها • وأدى ذلك الى أن مايو الجميلة كانت تبكى كثيرا ، لأنها كانت تحب دميان حبا عطوفا الى حد أنها أحست أنها ستموت فجأة اذا لم تدرك غرضها منه • وبقيت تنتظر أن يتفجر قلبها يوما ما من شدة الحزن والشوق •

ومن جهة أخرى أصبح دميـان أكثر الرجال شقاء وحزنـا لأنه لم يستطع نهارا أو ليلا أن يخاطب مايو الغضة فى شئون خاصة برغبته وأغراضه الا فى حضور يناير ، وعلى مسمع منه ، اذ أن يناير كان لايترك يد مايو أبدا • ومع ذلك فانه استطاع بالمراسلة وباشارات خفية أن يعرف ما كان يدور فى قلبها كما أنها استطاعت أن تعرف بدورها ما كان يدور فى قلبه •

يا يناير اسأل نفسك ما هى الفائدة حتى لو كانت أنظارك تمتد الى قلاع السفن على الأفق البعيد ؟ فالخداع واحد سواء أكان الرجل كفيفا أم بصيرا •

فخذ مثلا آرجوس الذى كان له مائـة عين وعلى الرغم من قدرته على النظر فى كل مكان ، فقد أصبح كفيفا هو أيضا ، والله عليم بأن غيره كذلك يمكن أن يكون أعمى ، حتى لو لم يظنوا أن ذلك ممكن • ومع ذلك فمن المريح للنفس أن يتجاهل المرء الكثير مما يدور حوله وليس لى غير ذلك أقوله •

وهذه مايو الغضة التى وصفتها لكم مرارا من قبل طبعت فى شمع ساخن المفتاح الصغير ، الذى كان يناير يحمله معه دائما لفتح باب الحديقة • ولما أدرك دميان غرضها زيف المفتاح سرا ، ولا يبقى شىء يحكى بعد ذلك الا أن هنـا أعجوبة ستحدث فيما يتعلق بهذا المفتاح ، لو صبرتم قليلا حتى أشرع فى الكلام من جديد • والله شاهد وعليم بأنك ياأوفيد قد صدقت عندما قلت ان الحب قادر على أن يتغلب على جميع الحيل المعوقة ، مهما طال الزمن من أجل ذلك أو مهمـا صـعب الطريق • ويمكن للناس أن يعتبروا من قصـة بيراموس وثيزبى ، فعلى الرغم من أنهما افترقا فراقا شديدا ، فانهما استطاعا أن يتكلما همسا من خلال شق فى حائط ولم ينجح أحد فى كشف سرهما أو حيلتهما •

والآن فلنعد الى موضوعنا : قبل أن تنقضى ثمانية أيام من شهر يونيو ، امتلأ صدر يناير برغبة عارمة فى اللهو فى حديقته ، وذلك بناء على الحاح من

زوجته على شريطة ألا يوجد فى الحديقة غيرهما . ففى صباح يوم من الأيام قال لزوجته مايو : « انهضى يا زوجتى يا حبى يا سيدتى الكريمة .. لقد ارتفع صوت الورقاء ، أيتها اليمامة اللطيفة . وانقضى الشتاء بما فيه من أمطار غزيرة . تعالى اذن ياصاحبة العينين الشبيهتين بعينى الورقاء . ما أعذب مديحك اللذين يفوقان عذوبة النبيذ . والحديقة مسورة . تعالى اذن يا زوجتى البيضاء لأنك بلا شك قد جرحت قلبى . يا زوجتى انى لم أعرف شيئاً طول حياتى يدنس بياضك . فتعالى اذن لنلهو ، فانى قد اصطفيتك لى زوجة واتخذتك سلوانا » .

وانتهى من كلامه هذا ، الذى كان بأسلوب الكتب القديمة الجاهلة . وأومأت هى باشارة لديمان ، ليتقدمها بمفتاحه . وعندئذ فتح دميان باب السور واندفع الى داخل الحديقة دون أن يشهده أحد ، وربض تحت شجيرة ، دون أن يبدى أى حركة أو صوت .

وذهب يناير ، وقد كف بصره تماما فأصبح كالصخرة لا يرى شيئا وذهب الى الحديقة المزدهرة مصطحبا زوجته مايو ولا أحد غيرها ثم أغلق الباب فجأة وقال لزوجته : « والآن يازوجتى لايوجد هنا سوانا أنا وأنت .. وأنت المخلوقة التى أحبها أكثر من أى مخلوقة أخرى وأقسم بالرب الذى يجلس على العرش فى الأعالى أنه أحب الى أن أموت قتيلا بالسيف من أن أسىء اليك يازوجتى العزيزة المخلصة ! فأرجوك بحق الله أن تعرفى أننى قد اخترتك ، لا بدافع الشهوة ولكن بلا شك بسبب حبى المخلص لك . وعلى الرغم من أنى شيخ كفيف ، أرجو أن تكونى وفيه لى ، وسأقول لك السبب فى ضرورة ذلك . انك ستكسبين ثلاثة أمور من وراء ذلك بلا شك : أولا محبة المسيح ثم الشرف لنفسك ثم كل ما أملكه يصبح تراثا لك وكل ما فى المدينة وفى القصر أهبه لك وفى وسعك أن تسجلى ذلك فى عقود رسمية اذا شئت . وسيتم ابراء عقد الهبة غدا قبل غروب الشمس وأقسم بحق الله أن أدفع نفسى ا لىجنة السعادة الخالدة . ولكن أرجوك أن تقبلينى أولا تصديقا لذلك وعلى الرغم من أنى غيور للغاية أرجو جمالك وفى شيخوختى غير اللائقة فانى لا أستطيع مع ذلك أن أكف عن البقاء فى صحبتك لشدة حبى لك ولو أدى ذلك الى هلاكى . وهذا أمر لا شك فيه فتعالى اذن ولنتريض فى الحديقة معا .

ولما سمعت مايو الغضة هذا الكلام أجابت على يناير برفق وطيبة بعد أن استهلت كلامها بالبكاء فقالت : « ان لى مثلك نفسا على أن أحميها من كل دنس وكذلك لى شرف المرأة ولى زهرة زوجيتى ، التى عهدت بها بين يديك ، لما ربط القسيس جسدى بك . ولذلك سأرد عليك على النحو التالى يا سيدى العزيز : أرجو الله ألا يشرق ذلك اليوم الذى أدنس فيه شرف أسرتى . وألا ألوث اسمى بأية خيانة . ولو حدث ذلك فلك أن تجردنى من ملابسى وتضعنى فى كيس

وتغرقني في أقرب نهر • اني سيدة كريمة محترمه ولست داعرة • فلماذا تتكلم على مثل هذا النحو ؟ الواقع أن الرجال دائما هم الخادعون ولا تحظى منكم النساء الا باللوم والتأنيب دائما • ولا موضوع لديكم سوى أن تتحدثوا عن الارتياب والملامة » •

وما أن انتهت من هذه الكلمات حتى لمحت دميان جالسا تحت شجيرة ، فأخذت تسعل وتشير له بأصابعها ، لكى يتسلق دميان شجرة محملة بالفواكه • وهذا ما فعله ، لأنه أدرك تماما ما تقصده بكل اشاراتها أكثر من زوجها يناير • اذ كانت قد أخبرته عن كل شئ بخصوص هذا الأمر وبخصوص ما عليه أن يقوم به من العمل • وعلى هذا النحو أتركه جالسا فى أعلى شجرة الكمثرى ، كما أترك يناير ومايو يتريضان رياضة مرحة للغاية •

وكان اليوم مشرقا والسماء زرقاء وكان فيبوس اله الشمس قد أرسل سهاما ذهبية من حرارته ليسعد بدفئه كل زهرة • وكان حينئذ فى برج التوأمين على ما أظن ولكنه كان منحرفا بعض الانحراف عن برج العقرب ، وفى أعلى تأثير لكوكب المشترى (٣٠) • وحدث فى الضحى منذلك اليوم أن كان بلوتو ملك الجان متربعا على عرشه فى جانب بعيد من الحديقة ، ومعه سيدات كثيرات ، هن بمثابة حاشية لزوجته الملكة بروزربينا التى كان قد اختطفها من جبل اتنا وهى تجمع الزهور فى المرج (ويمكنكم قراءة هذه القصة فى كتاب اكلوديانوس (٣١) كما يمكنكم قراءة كيف أخذها فى مركبته المخيفة) • والخلاصة أ نملك الجان هذا جلس على مقعد من الأعشاب الخضراء الغضة ، ثم خاطب ملكته على النحو التالى : « يا زوجتى لا يستطيع أحد أن ينكر ما أقوله ، فخبرة كل يوم تؤيد كلامى ، بأن النساء يقمن دائما بخيانة الرجال •

وفى وسعى أن أروى عشرة آلاف حكاية خاصة بخيانتكن وعدم اخلاصكن• يا أيها الحكيم يا سليمان (٣٢) يا من أنت أغنى الأغنياء ، ويا من أنت ممتلئ بالحكمة وبالأمجاد الدنيوية ، ان كلماتك يجب أن تطبع فى ذاكرة كل من يحب الحكمة والمنطق • انه قد امتدح فضيلة الرجل على النحو التالى : « من بين ألف رجل وجدت فاضلا واحدا ولكن من بين النساء جميعا لم أجد واحدة » • هذا ما يقوله عنكن الملك الحكيم الذى يعرف شركن خير المعرفة •

وأعتقد أيضا أن يسوع بن سيراج ؟ لم يتكلم عنكن باحترام الا نادرا • ولتصبكن أنتن وأجسادكن نار محرقة وأمراض مفسدة هذه الليلة ! آلا ترين هذا الفارس الكريم مصابا ، ويا ويله ، بالشيخوخة والعمى ، مخدوعا فى زوجته من أحد رجاله المقربين • انظرن الى ذلك الفاسق الداعر وهو جالس فى أعلى الشجرة • وأنا كرما منى سأمنح هذا الفارس المحترم الشيخ الكفيف بصره من جديد ، فى الوقت الذى تخونه فيه زوجته • وعندئذ سيعرف كل ما ترتكبه

من فسق ودنس وذلك حتى تدرك مدى ما تتمرغ فيه من عار هى وكثيرات من النساء مثلها .

فأجابت بروزربينا : أهذا حقا ما تنتويه ؟ أقسم بروح والد والدتى أننى أنا بدورى سأمنحها القدرة على أن تجد الرد المقنع كما سأمنح ذلك لكل النساء من بعدها ومن أجلها . انى سأدبر الأمر بحيث اذا قبض عليهن متلبسات فانه سيكون فى وسعهن أن يلتمسن لأنفسهن الأعذار ويواجهن التهمة بجرأة واستهتار . ولن تموت احداهن بسبب عدم المقدرة على تقديم الرد المقنع . ومهما يكن الرجل قد رأى الخيانة بعينيه فاننا نحن النساء سنجرؤ على مواجهة الأمر بقوة وعلى البكاء والقسم والتأنيب الرقيق ، حتى تصبحوا أيها الرجال فى حماقة الأوز . وماذا يهمنى من كل ما تقدمونه من حجج مأخوذة من الكتب المقدسة ؟ انى أعلم تماما أن هذا اليهودى أى سليمان هذا ، قد وجد كثيرا من النساء على درجة عظمى من الحماقة .

واذا كان لم يجد هو امرأة فاضلة فان كثيرا من الرجال غيره قد وجد نساء مخلصات وفاضلات صالحات للغاية . واستشهد بهؤلاء النساء المقيمات فى دار يسوع المسيح ، فقد برهن على اخلاصهن بالاستشهاد والموت . وان قصص البطولة فى التاريخ الرومانى تذكر أيضا أمثلة كثيرة لزوجات مخلصات فاضلات .

ومع ذلك يا سيدى لا تغضب مهما يكن من الأمر ، فعلى الرغم من أن سليمان الحكيم قد قال انه لم يجد قط امرأة فاضلة أرجو أن تفهم فحوى قوله هذا انه كان يقصد مما قاله أنه ليس هناك من هو كامل فاضل سوى الله تعالى بصرف النظر عن أن الشخص رجل أو امرأة . وأقسم بالله تعالى نفسه الذى لا اله سواه أنك تغالى فى موضوع سليمان الحكيم ! فما أهمية أنه بنى معبدا ليكون بيتا لله ؟ وما أهمية أنه كان غنيا ومشهورا ؟ ألم يشيد معبدا آخر لآلهة باطلين ؟ وكيف يتصور أن يرتكب خطيئة أشنع من ذلك ؟ انى أقسم بالله كذلك أنك مهما تصوره بألوان المديح فانه لم يكن الا فاسقا وعابدا لأصنام وأنه فى شيخوخته قد هجر الله نفسه (٣٣) . ولو لم يكن الله (على ما جاء فى الكتاب) قد صفح عنه اكراما لأبيه لكان بالتأكيد قد فقد ملكه قبل الموعد الذى أراده . أما عن كل خطايا النساء التى تذكرها فانى لا أعبأ بها ولا تساوى عندى فتيلا . فأنا امرأة ولابد لى أن أتكلم والا تورمت فى داخلى حتى ينفجر قلبى . وما دام ذلك الفارس قد قال عنا ان النساء ثرثارات فانى لن أكف عن ايذاء ذلك الذى يريد أن يسئ الينا وأقسم على ذلك بأملى فى أن أحتفظ دائما بخصلات شعرى .

فقال بلوتو : « يا سيدتى كفى عن غضبك فأنا أتنازل عن رأيى . بيد أنى مادمت قد أقسمت أننى سأمنحه بصره من جديد فانى لا أستطيع أن أحنث

بقسمى وأنا أنذرك بذلك · فأنا ملك ولا يليق بى أن أكون كاذبا » · فقالت : « وأنا ملكة عالم الجان · وأقسم لك أنها ستجد الرد المناسب له · أما الآن فكفانا حوارا فى هذا الأمر لأننى حقا لا أريد أن أغضبك بمعارضتى أكثر من هذا » ·

فلنعد الآن ليناير الذى كان فى الحديقة يغنى لحبيبته وزوجته مايو غناء أشد مرحا من غناء الببغاء ، وكانت كلمات أغنيته تقول « انى أحبك أكثر من أى شخص آخر ·· أحبك وسوف أحبك ولن أحب أحدا سواك » · وبعد ذلك أخذ يتريض فى مماشى الحديقة حتى دنا من شجرة الكمثرى ، حيث كان دميان جالسا سعيدا فى أعلى أغصانها بين الورق الأخضر الغصن ·

وأخذت مايو هذه الجميلة المشرقة تتنهد وتشـكو قائلة : « ويلى ·· آه يا جنبى ! يا سيدى ليحدث ما يحدث ، ولكن لابد لى أنا من قطف هذه الكمثرى التى أراها والا قضيت نحبى وذلك لتوحمى وشوقى لقضم هـــذه الكمثرى الخضراء ساعدنى أرجوك بحق ملكة السموات وحبها · أقول لك الحقيقة ان امرأة فى مثل حالتى قد تتوق الى تناول الفاكهة توقا قد يودى بها اذا لم تأخذ منها » ·

فقال يناير : « ويحى ·· ليت لى غلاما يتسلق الشجرة · ويحى ·· ويلى فأنا كفيف » · فقالت مايو « لا أهمية لذلك يا سيدى فكل ما أطلبه منك أن تضم الشجرة بين ذراعيك وحق الله تعالى · فانى أعلم تماما أنك لاتثق بى ولا تريد أن تتركنى وحدى ولذلك فانك لو فعلت ما قلته لك فسوف يكون فى وسعى أن أتسلق الشجر بأن أضع قدمى على كتفيك · فأجاب يناير : « هذا أمر ممكن ولا شك فيه ليتنى أستطيع أن أساعدك بافتداء دمى وروحى » · ثم انحنى ووقفت هى على ظهره وأمسكت بغصن صغير واستندت عليه وتسلقت الشجرة · والآن يا سيداتى أرجو ألا تغضبن فانى غير قادر على التمويه ، لأننى رجل بسيط وعندئذ أخذ دميان يشد قميصها الى أعلى وأدخل فيها ما أدخله ·

ولما شهد بلوتو ذلك الاثم الكبير رد ليناير بصره وتركه يرى كما كان يرى من قبل · ولما استعاد بصره لم يكن هناك رجل أسعد منه وتحولت كل أفكاره الى زوجته · فرفع عينيه الى أعلى الشجرة ولاحظ أن دميان كان قد ألبس زوجته الباسا يعجز اللسان عن التعبير عنه ، الا اذا أردت أن أقلل من أدبى · فصاح صيحة مدوية وأعول عويلا شبيها بعويل الأم على موت طفلها : وصاح يقول : « ويلى ! النجدة ! النجدة ! ويلى ! وامصيبتى السوداء ! ماذا تفعلين يا سيدة يا صفيقة ؟ فأجابت قائلة : « سـيدى · ماذا يزعجك ؟ صبرا وكن عاقلا · لقد ساعدتك على شفاء عينيك من العمى · وأنا لك بحق خلاص روحى فى الآخرة (وأنا لست كاذبة ، لقد قيل لى ان خير طريقة لشفاء عينيك هى أن

أتصارع مع فتى فى أعلى شجرة والله يعلم أننى قد فعلت ذلك بنية سليمة تامة » . فصاح : « هذه مصارعة استغرقت فيها تماما بلا شك فليصبكما الله معا بميتة مخزية ! لقد ضاجعك وقد رأيته بعينى ولو كنت كاذبا فلأمت أنا مشنوقا » ! .

فقالت : « اذن فدوائى غير صحيح ، فلو كنت حقا ترى لما قلت لى ماقلته ، ويبدو أنك ترى رؤية غير واضحة وغير كاملة » . فقال : « انى أرى كما كنت أرى فى الماضى ، والحمد لله على ذلك ، وقد عاد البصر الى عينى الاثنين ، وأقسم بحق شرفى ، أنه بدا وكأنه يفعل بك ما قلته » .

فصاحت غاضبة : « أنت على خطأ تماما يا سيدى أهذا كل الشكر الذى أحظى به من استعادتك لبصرك ؟ ويلى ما كان يجب أن أشفق على حالك كما أشفقت » .

وبعد قليل قال لها : « سيدتى تناسى ما قلته لك وانزلى يا حبى واذا كنت قد ظلمتك فى كلامى فليغفر لى الله فانى قد عوقبت عقابا شديدا . ومع ذلك أقسم بحق روح أبى أنى خيل الى أننى رأيت دميان وهو يضاجعك وقميصك مشدود على صدره هو » .

فقالت : « لك يا سيدى أن تتصور ما تشاء . ولكن الانسان الذى يستيقظ من نوع عميق لا يستطيع أن يقف بدقة على أمر ما ولا أن يراه بالوضوح اللازم حتى يكون قد أفاق تماما من نومه . وكذلك رجل ظل كفيفا مدة طويلة لا يستطيع أن يرى فجأة بالوضوح المرموق ، وبخاصة فى أول استرداده لبصره من جديد .. انه لا يرى كما يرى من استعاد بصره منذ يومين أو نحوهما . وحتى يكون نظرك قد نال قسطه من الراحة مدة ما فهناك مناظر كثيرة قد تخدع بصرك خداعا . واذن أرجو أن تكون حذرا ، فبحق ملك السموات هناك أشياء كثيرة يظن الانسان أنه يراها بينما هى تختلف تماما عما يراه . والمثل يقول من أساء الفهم أساء الاستنباط » . وبعد أن نطقت بهذه الكلمات هبطت من الشجرة قفزا .

ومن أسعد من يناير هذا ؟ ها هو ذا يضمها الى قلبه ويقبلها مرارا وأخذ يمس بطنها برفق وحنان ثم قادها الى قصره .

والآ ن، ياكرام ، أرجو أن تكونوا سعداء . فهنا تنتهى قصتى عن يناير وبارك الله فينا وباركتنا أمه العذراء مريم !

(هنا تنتهى حكاية التاجر عن يناير)

فصاح مضيفنا قائلا « رحمة الله علينا جميعا ! لا رزقني الله بمثل هذه الزوجة ! ما أشد دهاء ولؤم النساء · انهن دائما نشاطات مثل النحل وذلك فى سبيل خداعنا نحن الرجال وهن دائما منحرفات عن الحقيقة · وهذا ما تدل عليه دلالة قاطعة حكاية التاجر · ان لدى بلا شك زوجة وعلى الرغم من أنها فقيرة فانها فيما يتعلق بلسانها امرأة شرسة ثرثارة ، وعندها من العيوب مايفوق ذلك كثيرا · والحق أنه لا أهمية لذلك فلنترك كل هذه الأمور تمضى · ولكن أتعرفون ؟ أقول لكم سرا وبينى وبينكم أنا تعيس جدا لارتباطى بها · فلو أحصيت كل عيوبها لوجدت نفسى أكثر حماقة مما ينبغي ولابد أن فى وسع واحد من هذا الجمع الكريم أن يفسر لى على النحو اللائق السبب فى ارتكابى هذه الحماقة · والمعروف أن النساء قادرات على مناقشة هذه الأمور وعليمات بشئونها · أما أنا فذكائى لا يرقى الى الكلام فى ذلك والخلاصة اذن أن كلامى قد انتهى » ·

هوامش حكاية التاجر

(١) الاشارة هنا الى القديس توما أحد تلاميذ المسيح ، الذى شك فى قيامته الى أن وضع يده بنفسه فى جروح المسيح · ونسب التبشير بالمسيحية فى الهند حيث أسس أول كنيسة مسيحية معروفة حتى الآن باسمه · ويلاحظ أن هذه الكنيسة الشرقية الصميمة على علاقة طيبة بكنيسة الأقباط فى مصر ·

(٢) **حكاية التاجر** : هذه القصة تنتمى الى مجموعة حكايات كانتربرى التى تعالج مشكلات الزواج والحياة الزوجية مثلها فى ذلك مثل حكاية طالب العلم السابقة عليها مباشرة · الا أن الحكاية التى نحن بصددها تتميز بمعالجتها الساخرة لحالة من حالات الزواج هى زواج الشيخ الهرم الشبق الغنى من فتاة جميلة طموحة تقع فى الزنا لتعلقها بشاب وسيم · ونهاية القصة التى تتم فيها الخيانة تدور أحداثها فى حديقة مسورة شبيهة بالحديقة الرمزية التى تدور فيها أحداث قصص الحب الرفيع فى العصور الوسطى (انظر المقدمة) وبؤرة هذه الحديقة شجرة الكمثرى التى يتسلقها العاشقان الآثمان · وهذا الموضوع له نظائر كثيرة فى القصص الشعبى الأوربى ويمكن الرجوع اليها تحت رقم ١٤٢٣ من كتاب فى القصص الشعبى هو **Stith Thompson**, *Motif-Index of Folk literature*, **Bloomington 1932-6; rev. 1955).**
ويمكن القول أيضا ان تشوسر لجأ لمصادر معروفة ومنتشرة فى العصور الوسطى فى مواضع كثيرة من حكايته وأغلبها باللغة اللاتينية ، منها « رسالة القديس جيروم ضد جوفينيانوس وكتاب سلوى الفلسفة » لبويثيوس وكتابا البرتينودى بريشيا « فى حب الله » و « كتاب السلوى » أما المصادر غير اللاتينية فهى قصيدة بالفرنسية اسمها « مرآة الزواج **(Miroir de Mariage)** للشاعر الفرنسى أوستاش ديشان **(Eustache Deschamps)** الذى كان أصغر سنا من تشوسر ولو أنهما كانا صديقين · وفحوى هذه القصيدة أن رجلا عاقلا ناضجا يتساءل عن الدوافع الى الزواج وبعد التشاور مع عدة خواطر مجسدة يرى ضرورة الاعتماد على العقل والمعرفة فى اختيار قرينته فى الحياة · أما وصف مضاجعة الشيخ « يناير » لعروسه الشابة « مايو » فلها نظير فى قصة بالايطالية لبوكاتشيو **(Giovanni Boccaccio)** عنوانها آميتو » **(Amito)** وعلى كل حال فاقتران الشيخ يناير بالشابة مايو له نظائر فى علوم الفلك فى العصور الوسطى التى تحدد التفرقة الواضحة بين فصول السنة والنظام الطبيعى لتتابع المواسم · وقال البعض ان هناك بعض أوجه المقارنة بين هذه الحكاية ومأساة « عطيل » لشكسبير خاصة فى تشبيه خداع دميان بخداع ياجو · ويبدو لمن يقرأ هذه الحكاية أن هناك دلائل كثيرة للجانب الرمزى فى الأمثلة من الأساطير اليونانية والرومانية التى تشير الى تفسيرات فلسفية وفلكية كان جمهور تشوسر ملما بها فى عصره · كما يلاحظ أن الاشارة الى رموز الحب الرفيع والى قواعد المغازلة المتصلة بها فيها معالجة ساخرة لعالم أرستقراطى فى سبيل الزوال ·

(٣) « بافيا » فى امارة لومبارديا فى ايطاليا كانت مدينة مشهورة طوال العصور الوسطى بأنها مركز مهم للصيارفة والمصارف كما أنها اشتهرت فى نفس الوقت بالفسق والفجور ·

(٤) ثيوفراستوس المشار اليه هنا هو مؤلف كتاب عنوانه « الكتاب الذهبى فى الزيجة » (Liber Aureolus de Nuptiis) ذكره القديس جيروم فى « رسالته الموجهة ضد جوفينيانوس » (Epistola Adversus Jovinianum) واستشهد به ·
وأقرب الظن أن تشوسر لم يقرؤه الا من خلال رسالة القديس جيروم ·

(٥) هذه أمثلة مشتقة من العهد القديم فى الكتاب المقدس حيث نجد أن النسـاء يخدعن أزواجهن لغرض ما حتى لو كان ساميا · فقد خدعت رفقة زوجهـا الكفيف اسـحق بأن أحلت بابنها يعقوب محل ابنها الأكبر عيسو ليحظى ببركة أبيه فى مرض موته · (تكوين : الاصحاح الثامن والعشرون) · أما يهوديت فقد اغتالت أليفانا قائـد جيش نيوكـد نصر ملك بابل (٦٠٥ ـ ٥٦٢ ق·م) لكى تنقذ شعبها بنى اسرائيل (سفر يهوديت : ١١ و ١٣) · وأبيجايل أنقذت حياة زوجها نابال بأن تزوجت وهى فى عصمته من الملك داود (سفر صموئيل الأول : ٢٥) · وأستير عملت على رفع شأن مردكاى على حساب قتل هامان (سفر أستير : ٧) وكل هذه الأمثلة فيها عبرة تنبىء بما سيكون سلوك البطلة فى قصة تشوسر ·

(٦) هـذه نسـبة غير صـحيحة · فالمصـدر الحقيقى هو كتـاب البرتانو دابريشـيا (Albertano da Brescia) الذى عاش فى القرن الثالث عشر الميلادى وألف باللاتينية « كتاب السلوى والنصح » (Liber consolationis et consilii) سنة ١٢٤٦ الذى استشهد به تشوسر كثيرا فى حكايات كانتربرى ·

(٧) هذا هو ديونيسيوس كاتون الذى ألف ديوانا من الشعر الأخلاقى باللاتينية فى شكل مجموعات من المثنويات فى القرن الرابع الميلادى تقريبا ·
وعنوان هذا الديوان « أقوال كاتون » (Dicta Catonis) وكان لهذا الكتاب قراء وحفاظ كثيرون فى العصور الوسطى والمصدر هنا هو المثنوى رقم ٢٣ من الجزء الثالث ·

(٨) كان من صميم طقوس الزواج فى العصور الوسطى تشبيه الولاء المتبادل بين الرجل وزوجته بالحب الذى يحكم علاقة المسيح بالكنيسة ·

(٩) الأصل هنا اشارة الى قارب « ويد » (Wade) اختلفت آراء الشراح فى تعيين هذا البطل الأسطورى ووظيفته فى القصص الشعبى السكاندنافى والأرجح أن تشوسر لم يستعمل هذا الاسم الا اشارة الى قوة غير القوة البشرية ولذلك نسبنا القارب الى القدر · ذكر « ويد » أصبح كثيرالحدوث فى القصص طوال العصور الوسطى وهناك احتمال واضح بأن استعمال الكلمة كان شبه آلى وخاليا من أى معنى أسطورى حقيقى ·

(١٠) « بلاكيبو» (Placebo) اسم رمزى بحت · وتعنى هذه الكلمة « سأرضى » نسبة الى أول بيت فى النشـيد الجنائزى بطقوس الجنـازة الكاثوليكية · والبيت بأكمله يجىء فيه Placebo Domino in regione vivorum « سأرضى الرب فى منطقة ـ أى عالم ـ الأحياء » ·
وقد أطلقت كلمة « بلاكيبو » على البديل الوهمى للدواء الذى يعطى للمريض ايهاما له بأنه يتناول دواء حقيقيا » · أما اسم « جوستينوس » (Justinus) فهو مشتق من الكلمة اللاتينية Justus التى تعنى « عادل » أو « رشيد » أو « صائب » فالأخان بمثابة ناصحين لينابر يرمزان لما يريده بغرائزه ولما يمليه عليه عقله ·

(١١) هذا القول منسوب خطأ الى سليمان الحكيم ، فهو قريب بما جاء فى سفر يشوع بن سيرخ (٣٣ : ١٩) حيث جاء فى الترجمة العربية : « من ابتغى الشريعة يمتلىء منها والمرائى يعثر فيها » ·

(١٣) تشبيه الكبائر السبع بشجرة ذات فروع سبعة كثير الحدوث فى العصور الوسطى ٠ ولجأ اليها تشوسر نفسه مرارا كما فعل ذلك فى حكاية القسيس مثلا ٠ ولهذا التشبيه مغزى خاص فى حكاية التاجر اذ أن الخيانة القادمة فى آخر القصة تحدث فى أعلى شجرة الكمثرى ٠

(١٣) كان أورفيوس — فى الأساطير اليونانية — شاعرا وموسيقيا ساحرا — استطاع بألحان قيثارته أن يسحر الطبيعة بأسرها ٠ وقصته كانت معروفة ومنتشرة فى العصور الوسطى من خلال كتاب أوفيد فى « مسخ الكائنات » (أول الكتاب العاشر) ٠ انظر ترجمة د٠ ثروت عكاشة العربية لهذه الملحمة اللاتينية المهمة فى تاريخ الثقافة الأوربية ٠ أما أسطورة أمفيون الذى ساعد على بناء أسوار مدينة طيبة (اليونانية) بأنغام قيثارته الساحرة فهى واردة أيضا فى ملحمة أوفيد « مسخ الكائنات » (الكتاب السادس) ٠

(١٤) يوآب نفخ فى بوقه وأوقف حربا أهلية (فى سفر صموئيل الثانى الاصحاح الثانى : ٢٨) : « وضرب يوآب بالبوق فوقف الشعب جميعه ولم يسع بعد وراء اسرائيل ولا عاد الى المحاربة » ٠

(١٥) ثيوداماس شخصية غامضة فى الأساطير اليونانية نسبت له القدرة على تشجيع أهل طيبة المحاصرين بالألحان التى كان يخرجها من بوقه ٠ أما باكوس فهو اله النبيذ ونشوة السكر عند الرومان ويقابل ديوفسوس عند الاغريق والالهة فينوس الهة الحب عند الرومان وتقابل أفروديتى عند اليونان ٠

(١٦) هيمينيوس (Hymeneus) هو اله الزيجة وطقوس الزواج عند الرومان ٠ ويلاحظ أن هذا المشهد الذى يجمع صورا من الأساطير القديمة الوثنية نوع من التصرف الأدبى كان كثير الحدوث فى القصص الخيالى طوال العصور الوسطى وحتى أواخر عصر النهضة وخير أمثلة لمثل هذا المزج فن التصوير الرمزى فى تلك الآونة كانت تجمع بين عناصر وثنية قديمة وعناصر مسحية معاصرة ٠

(١٧) مارسيانوس المشار اليه هنا هو مارتيانوس كابلا (Martianus Capella) الذى عاش فى شمال أفريقيا فى القرن الخامس الميلادى ، واشتهر فى العصور الوسطى بكتابه الممزوج من الشعر والنثر المسمى « فى زواج فقه اللغة وميركوريوس » (De Nuptiis Philologiae et Mercurii) الذى ينقسم الى تسعة كتب « الكتابان الأول والثانى يصفان مغازلة فقه اللغة مجسدا من طرف الاله ميركوريوس الذى كان الرومان يعتبرونه رب الحظ والرخاء وراعى التجار والرحالة واللصوص ٠ وكان ميركوريوس عند الرومان هو هيرميس عند الاغريق والآلهة يكلفونه بمهام خاصة رسولا لهم ٠ وقد نسب اليه اختراع القيثارة أما الكتب السبعة التالية فهى بمثابة موسوعة رمزية للفنون السبعة التى كانت تدرس فى الجامعات فى العصور الوسطى ٠

(١٨) أنظر سفر أستير (الاصحاح الخامس) ٠

(١٩) الاشارة هنا الى حب باريس ابن بريام ملك طروادة لهلانة زوجة مينيلاوس ملك اسبارتا ٠ وكان هذا الحب الزانى هو السبب المباشر لحرب طروادة الناتج عن رغبة مينيلاوس فى الانتقام لشرفه من خيانة زوجته ٠ والسخرية هنا أن « ينايرا » يشبه حبه لزوجته بحب باريس لهلانة كأنه ينبىء باتيان دميان فى القصة ليلعب دور باريس في حين أن ينايرا سيكون الزوج المخدوع٠

(٢٠) دخول دميان فى القصة هنا يعطيها شكلها التقليدى فى اطار سلسلة الحكايات التى تدور حول فكرة الحب الرفيع الذى يشمل زوجا وزوجة وعاشقا للزوجة ٠ فيصبح دميان اذن بمثابة

باريس فى الأسطورة القديمة • ومن السخرية أن « دميان » اسم القديس الذى كان راعيا للطب والأطباء ، وفى هذا ما ينبىء بخدعة شفاء النظر التى تأتى فى نهاية الحكاية لما اجتمع العاشقان فى أعلى شجرة الكمثرى •

(٢١) هذا البحث لقسطنطين الأفريقى (١٠٢٠ ـ ١٠٨ م) • « يظن أنه ولد بقرطاجة اعتزل فى الدير البنديكتى بمونت كاسينو وترجم الى اللاتينية بعض مؤلفات العرب ، وبخاصة فى الطب ، منها « كامل الصناعة » لعلى بن العباس ، و « زاد المسافر » لابن الجزار وكتب للرازى واسحاق الاسرائيلى • فكان لها أعظم الأثر فى الطب الأوروبى من العهد ١٢ الى العهد ١٧ » • (موسوعة عربية ميسرة) •

(٢٢) هذا مثال لاهتمام تشوسر بالفلك والتنجيم من أجل غرضين ، الأول هو الاشارة الى مرور الزمن بالرموز التى يفقهها جمهور معاصريه والثانى هو اظهار مدى علمه وتعمقه فيه • الا أنه يوجد عنصر جديد هنا هو أن اقتران المريخ الرامز للاقدام والشباب الأبى مع الزهرة (أو « فينوس » فى النظام الأوربى) ، التى تتصف بالحب والدلال الجنسى ، أمر ينبىء بالخيانة القادمة • وفينوس ومارس (المريخ) كانا بالفعل عاشقين زانيين فى الأساطير الرومانية القديمة •

(٢٣) الاشارة هنا الى فلسفة أبيقور •

(٢٤) كان جيبوم دى لوريس هو أول مؤلف « لرواية الوردة » ولكن خلفه فى ذلك العمل جان دى مون (Jean de Meung) والمؤلف المقصود هنا هو جيوم دى لوريس (Guillaume de Lorris) الذى أتى بوصف الحديقة المسورة المليئة بكل أنواع الجمال عن تقليد الحب الرفيع فى العصور الوسطى وتأثره بملحمة « رواية الوردة » • ويلاحظ أن تشوسر يصف الحديقة وصفا مثاليا تقليديا ، ولكن بقصد ابراز سخرية خاتمة الحكاية ، حيث ترتكب الخيانة الزوجية فى نفس الحديقة المثالية •

(٢٥) بريابوس (Priapus) كان اله الخصوبة والحدائق والجماع فى الأساطير القديمة الممتدة من شرقى اليونان حتى شواطىء ايطاليا • كان ابن ربة الحب والجمال أفروديتى (فينوس عند الرومان) وديونيسوس (اله الخمر والنشوة الذى سمى باكوس عند الرومان) • كانت تماثيل بريابوس توضع عادة على أبواب الديار أو فى الحدائق وكان يمثل دائما كمخلوق مشوه بشع يثير الضحك (لا الفزع) وكانت قاعدة تمثاله تنقش بأبيات مضحكة تميل أحيانا الى الخلاعة الكامنة •

(٢٦) وكان بلوتو (Pluto) اله العالم السفلى يختلط أمره ببلوتوس (Plutus) اله الثراء والمال ـ الأمر الذى يوحى بشخصية يناير • أما بروزربينا (Proserpina) التى تذكر مصحوبة بحاشية من الجان فهى تؤدى الى خلق مزج بين أساطير قدماء اليونان والرومان والأساطير الأوربية الشمالية التى تقص حكايات أهل الجان وما الى ذلك • وكانت بروزربينا التى كان قد اختطفها بلوتو ملك العالم السفلى زوجة له ، قد سمح لها أن تعود نصف السنة الى الأرض لتعيش وسط أهلها • الأمر الذى يبين العنصر الموسمى الواضح فى هذه الأسطورة • فهى ترمز الى عودة الخصوبة الى تربة الأرض بعد قسوة الشتاء ونوم البذور تحت الأرض ويلاحظ أن بروزربينا هنا بمثابة رمز للزوجة المستقلة التى تهجر زوجها الغامض المفزع عندما تريد ـ الأمر الذى يعد الذهن أيضا لأحداث الحكاية الآتية فيما بعد •

(٢٧) أسطورة أرجوس ذى العيون المائة الذى خدعه رب الآلهة زيوس تأتى فى الكتاب الأول

من « مسخ الكائنات » للشاعر الرومانى أوفيد (الترجمة العربية للدكتور ثروت عكاشة) انظر البيت ٦٥٥ وما بعده .

(٢٨) حكاية العاشقين بيراموس (Pyramus) وثيزبى (Thisbe) تأتى أيضا فى الكتاب الرابع من « مسخ الكائنات » لأوفيد (البيت ٥٥ وما بعده) كما ذكرها شكسبير فى مسرحيته « حلم ليلة صيف » ولكن بمعالجة تثير الضحك .

(٢٩) هذا كلام يوحى بأسلوب الاصحاح الرابع من « نشيد الانشاد » ولعله يقصد به السخرية . والاشارة الى اليمامة لها مقابل فى الكتاب المقدس أيضا الا أن جمهور تشوسر كان يعرف فى نفس الوقت أن اليمامة لها صلة وثيقة بأسطورة فينوس ، ربة الحب والمتعة الجنسية عند الرومان .

(٣٠) هذه اشارة فلكية الى بدء فصل الصيف ، بل يمكن تحديد اليوم بالثانى عشر من شهر يونيو .

(٣١) كلوديوس كلوديانوس (Claudius Claudianus) شاعر أسكندرى المولد عاش من أواخر القرن الرابع الى أوائل القرن الخامس الميلادى فى روما وكتب باللاتينية عدة مدائح ورسائل شعرية وقصائد فى مناسبات حفلات الزيجة . وله أيضا قصيدة ملحمية لم يتمها عنوانها فى اختطاف بروزربينا (De Raptu Proserpinae) وهى المشار اليها هنا . وفى هذه القصيدة نجد بلوتو ملك العالم السفلى يشعر بضيق ، لأنه غير متزوج ، فهو لا يرى نور النهار على سطح الأرض . وله أخان هما جوبتر (Jupiter) رب الآلهة ونبتونوس (Neptunus) اله البحار ، ينصحانه بالزواج ويقترحان بروزربينا عروسا له . فبعون فينوس الهة الحب يستطيع بلوتو أن يختطفها ، ولو أن أمها سيريس (Ceres) الهة الزراعة والحصاد كانت قد أخفتها فى جزيرة صقلية . ولكن القصيدة تنقطع أحداثها بالزواج فى العالم السفلى . ومع ذلك فان جمهور تشوسر كان يعرف أحداث الأسطورة خير معرفة ولا شك أن نزوع بروزربينا للهروب من زوجها سنويا كان يمكن أن يقارن به الذى كان يدور فى قلب « مايو » فى حكاية التاجر .

(٣٢) ليس غريبا على شاعر فى العصور الوسطى أن يخلط بين الاشارات الى الحضارة الوثنية القديمة والاستشهاد بالكتاب المقدس فهنا يجعل بلوتو ملك العالم السفلى عند الرومان يستشهد بسليمان الحكيم .

(٣٣) سفر الملوك الأول : الاصحاح الحادى عشر الآيتان ١١ و ١٢ : « فقال الرب لسليمان من أجل أن ذلك عندك ولم تحفظ عهدى وفرائضى التى أوصيتك بها فانى أمزق المملكة عنك تمزيقا ، وأعطيها لعبدك . الا أنى لا أفعل ذلك فى أيامك من أجل داود أبيك بل من يد ابنك أمزقها » .

حكاية ابن الفارس

مقدمة لحكاية ابن الفارس

وقال المضيف : « يا ابن الفارس ألا تقترب ، وتقول لنا شيئا عن موضوع الحبس ، لأنك ، بلا ريب ،تعرف عن ذلك الأمر ما يعرفه أى انسان آخر » فأجابه : « لا أعرف كثيرا يا سيدى ، ولكننى سأحكى لك بكل سرور ما أعرفه ولن أعصى لك أمرا وسأقص حكايتى ملتمسا لنفسى العذر ، ان جانبنى الصواب ، فأنا حسن النية ، واليكم اذن حكايتى :

حكاية ابن الفارس (١)

هنا تبدأ حكاية ابن الفارس :

فى ساراى (٢) بقطر التتر كان هناك ملك ، خاض معارك كثيرة ببلاد الروس (٣) ، مات فيها العديد من الجنود البواسل وكان اسم هـــذا الملك العظيم « كامبوسكان » (٤) ، وكانت شهرته قد ذاعت فى عهده الى حد أنه كان لا يوجد فى كل المناطق المجاورة ملك يصارعه عظمة فى كل شىء ٠ ولم تكن

تنقصه صفة من الصفات التي تليق بالملوك . وبالنسبة للمملكة التى كان يعيش فى ظلها فانه كان يخضع لشرائعها وعقائدها ، حسب العهد الذى قطعه على نفسه فى هذا الأمر . وكان ، بالاضافة الى ذلك ، رجلا مقداما وحكيما وثريا وشفيقا وعادلا بالدرجة نفسها ، كما كان دائما لا يقول الا الصدق ، وكان خيرا وكريما ، وكان قلبه ثابتا ثبات محور الدائرة . كما كان فتيا وباسلا وقويا ومشغوفا بالقتال ، مثل أى محارب شـــاب متطلع الى درجة الفروســـية فى حاشيته . وكان رجلا منصفا وسعيد الحظ ، كما كان يعيش دائما فى عظمة ووقار يليقان بمنزلة الملوك ، ولم يكن يضارعه فى ذلك رجل آخر .

وكان لهـــذا الملك التترى العظيـــم « كامبوســـكان » ابنان من زوجتـــه الفيتا (٥) ، أكبرهما اسمه« الجارسيف » (٦) ، وثانيهما « كامبالو » (٧) . وكان لهذا الملك بنت أيضا ، وهى أصغر من أنجب ، وكان اسمها كاناسى (٨) . ولا أستطيع أن أجد الكلمات التى تعبر عن جمالها ، بل لا أجرؤ أن أقدم على مثل هذا الأمر الخطير ، كما أن تمكنى من اللغة الانجليزية لا يؤهلنى له ، اذ لا يستطيع ذلك سوى عالم ممتاز من علماء البلاغة ، خبير بالمحسنات اللفظية وألوان المجاز ، لكى يصف كل جزء منها وصفا جديرا بها وأنا لست من هؤلاء ولذلك سأتكلم بقدر ما أستطيع .

حدث ذات يوم ، بعد أن لبس هذا الملك « كامبو سكان » تاجه عشرين شتاء ، أن أمر بأن تذاع حفلات عيد ميلاده (٩) فى كل أنحاء عاصمته «ساراى» ، وكان ذلك التاريخ يوافق الخـامس عشر من مارس فى تقويم الســـنة . أما « فينوس » اله الشمس (١٠) فكان مبتهجا للغاية ، متألقا فى السماء ، لأنه كان فى أعلى درجاته أمـام المريخ ، ومارا ببرج الحمل وهـــو برج الغضـــب والقيظ (١١) . وكان الجو لطيفا ومنعشا للغاية ، ولذلك كانت الطيور ، فى ضوء الشمس الساطعة سعيدة بهذا الفصل من السنة وبجمال البراعم ، كما كانت تشدو بأناشيد الحب ، وتغرد تغريدا شجيا للغاية ، لأنه خيل لها أنها قد فازت بالحماية من سيف الشتاء الحاد الميت .

أما « كامبوسكان » النبيل الذى حدثتكم عنه فها هو ذا جالس بأرديته الملكية والتاج على رأسه ، فوق منصة عالية بقصره ، يحتفل احتفالا فخما عظيما لم يشهد أحد مثله فى العالم من قبل . ولو قصصت عليكم ما دار فى هذا الحفل لاستغرق ذلك يوما كاملا من أيام الصيف . وعلى أية حال فلا داعى لأن أحكى لكم ما قدم فى هذه الوليمة الكبرى طبقا طبقا ، ولن أصف لكم أنواع الطعـــام العجيبة ، ولا البجعات المشوية ، ولا أفراخ مالك الحزين . ويروى الفرسان قديما أنه كان فى تلك البلاد نوع من الطعام ، يعد من أشهى ما لذ وطاب ، وان كان الناس فى بلادنا لا يقدرونه حق قدره . ولم يولد بعد الانســـان ، الذى يستطيع أن يصف الوليمة وصفا كاملا . لقد بلغت الساعة التاسعة صباحا ،

ولا داعى لأن أطيل عليكم ، فلا جدوى من الاطالة فى ذلك ، لأن هـــذا ضياع للوقت • ولذلك أعود الى بداية قصتى ثانية •

لقد حدث بعد تقديم الطبق الثالث ، والملك جالس بين حاشيته العظيمة ، منصت الى الموسيقيين ، وهم يعزفون أدوارهم أمام المائدة • التى كان جالسا اليها أجمل عزف حدث أن ظهر فجأة بباب البهو العظيم فارس يمتطى جوادا من النحاس ، ويحمل بين يديه مرآة من البللور الخالص ، وفى ابهامه خاتم من الذهب ، ويتدلى بجنبه سيف ممشوق • ودخل بجواده حتى وصل الى المأدبة الملكية الكبرى • ولم ينبس أحد ببنت شفة فى البهو كله تعجبا من أمر هــذا الفارس ، بل مكثوا جميعا يتطلعون اليه شيبا وشبابا •

وهذا الفارس الغريب ، الذى ظهر فجأة مدججا بالسلاح من أخمص قدمه حتى عنقه ، كاسيا جسده ماعدا رأسه بأغلى الزرد ومتقلدا عدة الحرب ، ألقى التحية على الملك والملكة وكل النبلاء الحاضرين كل بحسب منزلته ، طبقا لمكان جلوسهم فى البهو الكبير • وحياهم جميعا تحية تنطوى على قدر عال من الاحترام والخشوع من ناحية الكلمة والهيئة ، حتى ان جاوين نفســه (١٢) ذا الأدب العريق لو قدر له أن يعود من بلاد الجان ثانية لما استطاع أن يأتى بكلمة واحدة خير مما قال وبعد ذلك وقف أمام المائدة العليا وأعلن رسالته بصوت ينم عن المروءة والفروسية الحقة وذلك حسب قواعد اللياقة الواجبة فى لغته ، بلا أى تلعثم فى مخارج الحروف ولا مقاطع الكلمات • وحتى يصبح ما فاه به مقبولا لدى الجميع جعل أسلوبه فى الالقاء يتفق واللغة التى توسل بها ، تماما مثلما يلقن الطلبة فنون الخطابة • وبالرغم من أننى لا أستطيع تقليد أسلوبه ولا أن أجتاز مثل هذه الدرجات الصعبة فاننى سأقص عليكم ذلك بأسلوب واضح ولغة بسيطة • فاذا أسعدنى الحظ بأن أتذكر ما قاله فانى أستطيع أن أقول لكم ان لب كلامه هو ما يأتى :

لقد انبرى قائلا : « فى هذا اليوم الميمون السعيد ، يا سيدى بحكم الشرع يرسل لك ملك بلاد العرب والهند (١٣) أجمل تحية يستطيعها كما يرسل لك مع خادمك ، وفى مناسبة عيد ميلادك هذا الجواد النحاسى الذى يستطيع أن يحملك مدة يوم من الأيام الطبيعية أى مدة أربع وعشرين ساعة ، أينما شئت ، سواء أمطرت السماء أم صحت أقول يحملك أينمــا شاء قلبك بحيث لا تتأثر بتقلبات الجو أثناء رحلتك • واذا أردت أن تطير فى أعلى السموات كما يفعل النسر عندما يريد أن يحلق فوقنا فهذا الجواد نفسه يستطيع أن يحملك على هذا النحو من غير أن يصيبك أى مكروه حتى تبلغ مقاصدك ، وذلك سواء أكنت نائما على ظهره أم مجرد مضجع عليه ، كما أنه يستطيع أن يعود أدراجه بمجرد أن تلوى أداة فوقه • فان صانع هذا الجواد كان خبيرا بأكثر من حيلة مذهلة ،

وقد انتظر طويلا حتى أصبحت الكواكب فى وضع مناسب قبل أن يقدم على ما صنعه كما كان عليما بأكثر من خاتم سحرى (١٤) أو قيد لأهل الجن ٠

وهذه المرآة (١٥) أيضا التى أمسك بها فى يدى لها قدرة عجيبة بحيث يستطيع الناس أن يروا فيها متى تقع مملكتك فى ظروف حرجة أو متى تقع أنت نفسك فيها كما تستطيع بها أن تكشف صديقك من عدوك وبالاضافة الى كل ذلك اذا كانت سيدة جميلة قد هامت بأى رجل من رجال استطاعت أن تكشف فى هذه المرآة ما اذا كان قد خانها كما استطاعت أن ترى فيها وجه عشيقته الجديدة ومبلغ دهائه ولؤمه رؤية واضحة بحيث لا يخفى عليها منه شيء ما ٠

ولذلك قد أرسل الملك مع قدوم فصل الصيف الممتع هذه المرآة وهذا الخاتم الى سيدتى الأميرة « كاناسى » بنتكم الممتازة الماثلة هنا ٠ وان قدرة الخاتم ، لو تفضلتم بالانصات الى ، هى ما يأتى ألا وهو أنها لو أرادت الأميرة ، ان تضعه على ابهامها أو أن تدخله فى حقيبتها ما وجد طائر يحلق فى السماء لم تفهم لغته وما يقول ولم تدرك مقصده ادراكا واضحا بينا بحيث تستطيع أن تجيبه بلغته ٠ كما أنها تستطيع أن تعرف كنه كل عشب ينمو من جذور وما من الجرحى يعود عليه بالخير والفائدة مهما بلغت جروحه من عمق واتساعا ٠

وهذا السيف المجرد الذى يتدلى بجانبى فيه من القدرة بحيث انك اذا ضربت به رجلا أيا كان اخترق زرده جانبيا وأدمى جسمه حتى لو كان زرده سميكا سمك شجرة القرو حاملة الفروع ٠ أما الانسان الذى يجرح بضربة منه فلن يشفى أبدا بعد ذلك الى أن تتفضل بكرم عطفك أن تربت عليه بسطحه المستوى فى نفس المكان الذى كان قد جرح فيه ٠ ومعنى ذلك أنك لو مسحت جرح الرجل بسطح النصل التأم وشفى ٠ وهذا قول حق من غير مواربة فلن يخونك هذا السيف طالما أمسكت به » ٠

ولما انتهى الفارس من كلامه هذا خرج فجأة من البهو ممتطيا جواده ثم ترجل ، أما جواده الذى كان يلمع كالشمس الساطعة فقد ظل واقفا فى الفناء لم يتحرك كأنه تمثال من الحجر ٠ وبعد ذلك قادوا الفارس الى حجرته وخلفوا أسلحته وزرده وأجلسوه الى مائدة الطعام ٠

وبعد ذلك أحضرت الهدايا على نحو ملائم ووقور وحملت الى البرج الأعلى تحت اشراف بعض الضباط الذين كانوا قد عهد اليهم بها ٠ ثم حمل الخاتم الى « كاناسى » بصورة محترمة ووقور الى حيث كانت جالسة ٠ الا أننى أقول قولا صادقا وحقا ان الجواد لم يكن قابلا لأن يحرك من مكانه بل بقى ثابتا فى مكانه كما لو كان ملتصقا بالأرض ٠ ولم يستطع أحد أن يحركه من موضعه

لا بوساطة مرفاع ولا رافعة . وما سر ذلك ؟ ذلك لأنهم لم يفقهوا سر الصنع . ولذلك تركوه فى مكانه الى أن علمهم الفارس طريقة نقله وتحريكه كما ستسمعون فيما بعد .

وازدحم الناس يحومون هنا وهناك لكى يحدقوا فى الحصان الذى بقى واقفا على هـذا النحو . فانـه كان على نحو كبير من العلو والعرض والطول بالاضافة الى ذلك ، كما كان متناسب الأجزاء بحيث كان قويا متينا للغاية ، كأنه جواد من جياد « لومبارديا » تماما (١٦) زد الى ذلك أنه كان مثـلا أعلى للجياد يقظ العين كأنه جواد حرب من « آبوليا » (١٧) عريق السلف والأصل .

فلا شك أنه من ذيله الى أذنه لم يوجد جزء يحتاج الى تعديل الطبيعة بأى حال من الأحوال حسبما كان الناس يتصورون . وأكثر ما كان يدهشهم كيفية سيره علما بأنه من النحاس مصنوع فقد ظنه الناس من صنع الجن ، وظل كل منهم يؤول الأمر حسب تصوره ، وتعددت الآراء بتعدد العقول : وتمتموا كأنهم ثول من النحل وجاءوا بحجج مختلفة باختلاف تخيلاتهم مرددين ما جاء فى القصائد القديمة . فقالوا انه يشبه « بيجاسوس (١٨) ذلك الحصان المجنح المعروف أو « سينون » (١٩) وذلك الحصان الاغريقى الذى دمر مدينة طروادة كما يستطيع الناس قراءة ذلك فى روايات المأثورات القديمة . وقال أحدهم : « ان قلبى يملؤه خوف مستمر ، وأنا واثق أن بعض الجنود يختفون فى جوفه ، وأنهم يتأهبون لفتح هذه المدينة .

لذلك من الخير لنا جميعا أن يعرف الأمر وما ينطوى عليه بدقة تامة . وهمس آخر الى رفيقه قائلا : « انه لكاذب كل الكذب . فالأحرى والأقرب الى الواقع أنه وهم من صنع السحر ، تماما مثل ضروب الخدع التى يأتى بهـا المشعوذون عندما يقدمون عروضهم فى مثل هـذه الحفلات الكبرى . وظلوا يثرثرون ، ويتجاذبون أطراف الحديث على هذا النحو ، فيما يتخيلون من أنواع التوهم المختلفة ، تماما مثلما يفعل الجهال والغوغاء عادة عندما يبدون الرأى والحكم فى أمور أكثر تعقيدا ودقة مما يستطيعون ادراكه ، وهم فى حالة من الجهل المطبق الذى يعيشون فيـه ، وهم دائما لا يرون من الأمر الا وجهـه الأسـوأ .

وتساءل البعض عن المرآة ، التى حملت الى حجرة بالبرج العالى ، وعجبوا أن يستطيع أحد أن يرى فيها أشكالا ، قيل انها ترى فيها . وأجابه غيره قائلا انه يظن أن ذلك ممكن وطبيعى ، نتيجة اعداد مناسب للزوايا ، وتدبير أنواع معينة من الانعكاس تدبيرا ماهرا ، قال قال انه يوجد مثل هذه المرآة فى مدينة روما . ويتحدثون عن ابن الهيثم (٢٠) و « فيتلو » (٢١) وأرسطو ، الذين كانوا قد كتبوا أثنـاء حياتهم فى موضـوع المرايا القريبة منظارات الرؤية من بعيد ، كما يعرف كل من قرأ مؤلفاتهم .

أما غيرهم من النـاس فتعجبوا للسـيف ، الـذى كان يخترق كل شىء وتبادلوا الحديث فى شأن الملك « تيليفوس » (٢٢) و « أخيل » صاحب الرمح العجيب القادر على الجرح والشفاء ، تماما مثلما هى الحال بالنسبة للسيف الذى سمعتم عنه منذ قليل • وتكلموا عن الوسائل المختلفة لتقسية المعادين ، كما ذكروا بعض العقاقير ، وكيف ومتى يمكن تجميدها ، وهـذه عمليات غير معروفة لى على الأقل ، ثم تكلموا عن خاتم « كاناسى » وأجمع الكل على أنهم لم يشهدوا مثل هذا الانجاز الرائع فى صناعة الخواتيم ، الا أنهم كانوا يذكرون أن النبى موسى العظيم والملك سـليمان الحكيم اشـتهرا بحذق هذا الفن • وعلى هذا النحو أخذ يدلى برأيه ثم ينصرف •

ومن ناحية أخرى كان البعض الآخر يعبرون عن دهشتهم من أن الزجاج يصنع من رماد السرخسى المحروق مع انعدام وجه الشبه بينهما ، ومع ذلك فلأنهم ألفوا صنعه على هذا النحو من قديم الزمان سرعان ما كفوا عن التفكير والتساؤل عن هذه الأمور وبالطريقة نفسها يعمد الناس الى تخمينات هوجاء لتعليل حدوث الرعد ، والمد والجزر ، والفيضـان ونسـج خيط العنكبوت والضباب وغيرها من أسرار الكون ، حتى يكشفوا عن مصادرها وأصولها • وعلى هذا النحو أخذوا يثرثرون ويبدون الرأى ويتخيلون حتى نهض الملك من المائدة •

أما « فيبوس » اله الشمس ، فقد غادر زاويته الجنوبية (المنزل العاشر) وكان الحيوان الملكى الآن العريق فى الصعود ومعه نجمه « ألديران » (٢٣) ، بينما كان « كامبوسكان » الملك التترى ينهض من مكانه العـالى على المائـدة • وتقدمهعازفو الموسيقى ليصطحبوه الى ديوان الاستقبال ، وهم يعزفون على آلات مختلفة أنغامها الشجية التى تذكرنا بالجنة نفسها • وها هم أولاد الالهة فينوس المرحون ، يرقصون ويلهون ، لأن سيدتهم كانت تعتلى عرشها السامى فى برج الحوت ، وكانت تبعث اليهم بنظرات مفعمة بالود •

وكان هذا الملك النبيل جالسا على عرشه العالى • أما الفارس الغريب الذى كان قـد أحضر بين يـدى الملك ، فقـد ذهب ليراقص الأمـيرة « كاناسى » • و لايستطيع من يجهل فنون الأدب أن يصف اللهو والمرح اللذين سـادا تلك تلك الحفلة فى ذلك الوقت • على أن الانسان الذى يريد أن يتقن وصف هذا كله ، يجب أن يكون قد عرف الحب وخبر فنونه ، وأن يكون مشغوفا بالحفلات وما اليها ، وأن يكون ممتلئا بالحيوية مثل شهر مايو الأبى •

ومن ذا الذى يستطيع أن يعرف حق المعرفة تصوير ما دار هناك من أنواع الرقصات ومن المظاهر الغريبة والجذابة لأحداث الحفلة ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يوفى النظرات الجانبية والحيل الخادعة الدالة على الخوف من رقابة رجل غيور ما تسـتحقه من الوصف ؟ لا يسـتطيع أحد أن يفعل ذلك سـوى

« لانسلوت » (٢٤) وقد أصبح الآن فى عداد الموتى • لذلك أمضى مارا على كل ما كان هناك من بهجة ومرح • ولن أقول أكثر مما قلت فى هذا الأمر ، وسأترك هؤلاء الناس لأفراحهم ومرحهم ، حتى يتأهبوا لتناول طعام العشاء •

لقد أمر القهرمان بأن تحضر البهارات والتوابل على وجه السرعة ، كما أمر بأن يؤتى بالنبيذ أثناء عزف الموسيقى • فانصرف الندل* ومساعدو الفرسان، وأحضروا البهارات والنبيذ فى الحال • وأكلوا جميعا وشربوا حتى انتهوا من الوليمة ، ثم ذهبوا الى المعبد ، كما جرى بذلك العرف • وبعد أن انتهت طقوس العبادة انطلقوا يأكلون ويشربون طوال النهار • ومع ذلك فما الداعى لأن أقص عليكم تسلسل الأحداث والمناسبات المعدة لذلك اليـوم ؟ ان الكل يعرف حق المعرفة أن وليمة الملك مناسبة يتمتع بها الكبير والصغير ، وفيها ما لذ وطاب بمقادير لا أستطيع احصاءها جميعها •

وبعد العشاء ذهب هذا الملك الكريم ومعه حاشية من النبلاء والنبيلات لكى يتأملوا الجواد النحاسى • وبلغت الدهشة والتعجب من أمر هذا الجواد النحاسى حدا لم يعهد مثلهما منذ الحصار الكبير لمدينة طروادة حينما كان الناس يتعجبون أيضا من أمر الحصان الضخم • وأخيرا وجه الملك سؤالا للفارس بخصـوص القدرات السحرية والقوة الجبارة لذلك الحصان ، كما رجاه أن يكشف له عن سر التحكم فيه • فما ان وضع الفارس يده على زمام الجواد حتى انطلق فى الحال يتراقص ، ويمشى بخطى رشيقة ، ثم قال الفارس : « يا مولاى لم يبق هناك ما أكشف لك عن سره الا أن أقول انك اذا أردت أن تذهب به الى أى مكان ، فما عليك الا أن تلوى دبوسا مثبتا فى أذنه ، ولكنى لن أكشف عن سر ذلك الا لك ، ونحن فى خلوة صحيحة • وعليك أيضا أن تخبر الجواد بالمكان أو البلاد ، التى تنوى الرحيل اليها •

وحينما تبلغ مقصدك عليك أن تدير دبوسا آخر ، حتى تأمره بالهبوط الى الأرض ــ وهذه هى طريقة تشغيل هذه الحيلة • وعندئذ سيهبط الجواد ، نزولا على ارادتك ، مثبتا فى الأرض لا يتحرك ، حتى لو استحلفه العالم بأسره أن يفعل غير ذلك ، وعندئذ لا يستطيع أحد أن يقتله من مكانه أو يزيحه عنه • الا اذا آثرت أن تأمره بأن يغادر مكانه ، فعليك أن تدير هذا الدبوس ، وعندئذ يختفى فى الحال ، ولن يعود ثانية الا عندما تريد أن تستحضره من جديد ، سواء أكان ذلك ليلا أم نهارا • وهذا أمر لا يمكن أن يحدث الا بطريقة سرية ، سأكشف لك عنها بعد قليل بينى وبينك ، ولا ثالث لنا • وبعد ذلك لا يبقى شىء وفى وسعك أن تركبه متى شئت » •

(*) جمع نادل ، وهو الذى يقوم على خدمة القوم فى الأكل والشرب •

ولما أخبر الفارس الملك بكل ما يتعلق بذلك الجواد ، وفهم الملك فهما دقيقا كل التفاصيل الخاصة بأسلوب استخدام هذه الحيلة ، استأنف هذا الملك الباسل العظيم المرح والبهجة فى حفله ، وهو سعيد للغاية • أما زمام الحصان فقد نقل الى البرج العالى ، حتى يحفظ ضمن أثمن ما لدى الملك من كنوز وجواهر نفيسة ، فى حين أن الجواد (ولا أعرف كيف حدث ذلك) اختفى اختفاء تاما • ولن تحصلوا منى على مزيد من المعلومات عن هذا الأمر ، فانى سأترك « كامبوسكان » على هذا النحو يلهو مع حاشيته ، الى أن أوشك النهار أن ينبلج فى الفجر •

(انتهى الجزء الأول)

ويلى الجزء الثانى

ان النوم راعى الغنم أخذ يغمز بعينه لهم ، وأمرهم أن يتذكروا آن الانغماس فى الشرب أو العمل يستدعى الراحة • وقبلهم جميعا بفمه المفتوح ، وقال لهم ان الوقت قد حان لكى يضجعوا ، اذ آن الأوان ليسود مزاج الدم (٢٥) • فقال : « اعتزوا بالدم فهو صديق الطبيعة ! » • فشكروه متثائبين فى مجموعات من اثنين أو ثلاثة ، وانصرف كل منهم ليضطجع على فراشه ، كما أمرهم بذلك النوم • واعتبروا أن هذا هو خير ما يعمل • وأنا لن أقص عليكم ما دار فى أحلامهم ، اذ كانت عقولهم ممتلئة بأبخرة الخمر وشرب النبيذ المثيرة لأحلام لا يمكن أن تنسب لها أية أهمية • ونام أغلبهم باستثناء « كاناسى » ، حتى الساعة التاسعة • فقد كانت « كاناسى » معتدلة للغاية على نحو ما تكون النساء عادة ، وكانت قد استأذنت من أبيها لتذهب الى فراشها بعد الغروب بقليل ، لأنها كانت لا ترغب أن تصبح متكاسلة مترهلة ولا مجهدة الملامح فى اليوم الثانى • وأخذت قسطها الأول من النوم ، ثم استيقظت لأن قلبها كان مفعما بالسعادة لأمرين أولهما الخاتم متقن الصنع ، وثانيهما المرآة ، حتى أن لون بشرتها تغير عشرين مرة ، وأثناء نومها رأت حلما يتعلق بمرآتها • لذلك استيقظت قبل شروق الشمس ، واستدعت وصيفتها ، وقالت انها قد قررت

أن تنهض • فقالت لها الوصيفة العجوز (كما هى حال النسـاء الطاعنات فى السن ، اللائى يردن أن يظهرن بمظهر الحكمة والتؤدة) فى الحال : « يا سيدتى أين تريدين أن تذهبى فى مثل هذه الساعة المبكرة ؟ ان الناس لا يزالون فى فراشهم » ولكنها قالت :

« لقد قررت أن أنهض لأننى لا أريد أن أنام أكثر من ذلك ، وأود أن أمشى هنا وهناك » • فنادت وصيفتها عددا كبيرا من مساعداتها ، فنهض من فراشهن وكن بين العشرة والاثنتى عشرة • ونهضت « كاناسى » هى أيضا منتعشـــة ومتألقة مثل الشمس الفتية (٢٦) ، التى تكون قد صعدت أربع درجات فى برج الحمل • ولم تكن أعلى من ذلك ، حينما ارتدت ثيابها وأخذت تتمشى رويدا رويدا خارج القصر وكانت لا تلبس الا أردية خفيفة بمناسبة فصل السنة المبهج اللطيف • وأرادت أن تمارس لهوا خفيفا ، وأن تتروض بصحبة خمس أو ست من وصيفاتها • فأخذت تمشى من خلال طريق واطىء محفور فى المنتزه •

وكان الضباب الخفيف ، الذى كان يتصـاعد من الأرض قـد جعل لون الشمس يبدو ضاربا الى الاحمرار ، كما جعل قرصها يبدو عريضا ، ومع ذلك فان المنظر كان جميلا الى حد أسعد قلوب الناس جميعا وأبهجها ، وخاصة أن فصل السنة ، وجو الصباح ، وتغريد الطيور الذى كانت تسمعه ، تضافرت لتوحى بالمسرة والبهجة • وعرفت فى الحال ما كانت تعنيه الطيور بتغريدها ، بل فهمت رسالتها حق الفهم •

ان العقدة التى تعتبر لب حبكة كل حكاية تروى ، اذا أجلت فى القص حتى يفتر الاهتمام لدى المستمعين ، الذين طال انتظارهم لها ، وحينئذ تتضاءل متعة الاستماع اليها مع مر الزمان ، وذلك بسبب التخمة العقلية التى تنتج عن أطناب حاكيها • ولهذا السبب نفسه يخيل الى أنه يجب أن أصل الى لب الموضوع ، وأن أضع حدا لهذا التمهل فى السرد •

وبينما كانت كاناسى تتمتع بنزهتها حطت أنثى صقر على شجرة ذابلة ومجففة ، أصبح لونها أبيض كالطباشير ، وأخذت أنثى الصقر تطلق صيحات ، تنم عن الألم والأسى ، الى حد أن الغابة بأسرها أخذت تردد صيحاتها • وضرب الطائر نفسه بأجنحته ضربا مثيرا للعطف والشفقة ، الى أن نزف دمه وســال هابطا على جذع الشجرة التى كانت « كاناسى » واقفة تحتها • ولم يكف الطائر عن الندب والصياح ، بل كان يجرح نفسه بمنقاره ، حتى أنه لم يوجد فى الغابة كلهـا نمر ولا حيـوان مفترس لا يريد أن يبكى ، تعاطفا معه ، لو كان يستطيع البكاء ، تأسفا على الطائر الذى كان يطلق صيحات عالية • ولو استطعت أنا أن أصف أنثى الصقر أدق وصف لقلت ان انسانا لم يسمع عن صقر آخر يماثلها فى الجمال ، من حيث تناسق ريشها ورشاقة هيئتها ، وغير ذلك من

الصفات ، التى يجب أخذها فى الاعتبار • الأمر الذى جعلتها تبدو وكأنها شاهين آت من بلد أجنبى • وبينما كانت الأميرة واقفة كان الطائر يغمى عليه غشيانا ، من وقت لآخر ، لنقص الدم فى عروقه ، حتى أنه كاد يسقط من الشجرة •

وكانت « كاناسى » بنت الملك الجميلة قد وضعت الخاتم العجيب فى اصبعها وكانت تفهم بواسطته كل ما ينطقه أى طائر بلهجته الخاصة ، كما كانت تستطيع أن تجيبه بلغته • وهكذا فهمت ما كانت أنثى الصقر تقوله ، وكادت تموت اشفاقا مما سمعته • فدنت من الشجرة بسرعة ، وأرسلت نظراتها مشفقة على أنثى الصقر هذه ، وبسطت حجر ردائها ، لأنها عرفت أنها لابد أن تسقط بعد قليل من الفرع فى نوبة غشيانها القادمة لغزارة ما فقدته من دم ووقفت تنتظر الطائر على هذا النحو مدة طويلة ، وأخيرا نطقت وكلمت أنثى الصقر بما ستسمعون منى :

« ما السبب ، اذا جاز لك أن تقوليه ، فى أنك تعيشين فى مثل هذا الجحيم من العذاب ؟ » واستطردت « كاناسى » قائلة لأنثى الصقر الواقفة فوقها ما يأتى : « هل يرجع السبب الى حزن على موت أو فقدان حبيب ؟ اذ أننى أعتقد تماما أن هذين السببين هما اللذان يصيبان القلب الكريم بالأذى أكثر من أى سبب آخر • ولا داعى للحديث عن أى نوع آخر من الأذى لأنه واضح أنك أنت التى تصيبين نفسك بالأذى ، وهذا دليل على أن الغضب أو الفزع هما ما يدفعاك الى مثل هذه القسوة ، مادمت لم أر طيرا جارحا آخر يطاردك • أرجوك بمحبة الله أن ترأفى بنفسك ، والا فليس فى وسع أحد أن يساعدك • انى لم أر لا شرقا ولا غربا طائرا أو حيوانا يسلك مثل هذا السلوك المؤسف بايذاء نفسه • وحقا أقول انك قد أثرتينى بحزنك ، وكدت تقتلينى ، لشدة اشفاقى عليك • أناشدك بحب الله أن تهبطى من الشجرة وأقسم لك ، بوصفى حقا بنت ملك ، أننى لو عرفت سبب مرضك ، وكان فى استطاعتى أن أفعل شيئا لعالجت حالك ، وفعلت ما فيه الخير لك ، قبل سدول الليل • وأقسم على ذلك بحق مساعدة الله الطبيعة كلها الذى يساعد البشر مساعدة حكيمة ! وسأجد ما يكفى من الأعشاب الطبية لشفاء آلامك وجروحك بأقصى سرعة » •

وبعد ذلك أطلقت أنثى الصقر صيحات أكثر اثارة للشفقة من ذى قبل ، وتهاوت الى الأرض ، حيث بقيت ملقاة فى حالة اغماء ، هامدة مثل الحجر ، الى أن رفعتها « كاناسى » الى حجرها ، حيث بقيت الى أن أفاقت من اغمائها • واستيقظت أنثى الصقر ثم قالت بلغتها الخاصة ما يأتى : « ان الشفقة تسيل بسرعة فى القلب العريق ، والبرهان اليومى على ذلك أن الشفقة تتعاطف مع شدة الألم ، وذلك أمر يمكن التحقق منه فى الأعمال اليومية ، وفى الكتب التى

يرجع لها • والسبب فى ذلك أن القلب العريق الكريم يبدى دائما مظاهر الكرم العالى • وانى أرى حقا أنك تشفقين على أساى « يا كاناسى » الجميلة ، نتيجة لشعور الرحمة ، الذى يخفق فى قلب كل امرأة ، تمشيا مع غرس الطبيعة لهذا الشعور فى مبادئها الخلقية •

وبما اننى لا أنوى شيئا سوى المصلحة ، وأننى يجب أن أكون مطيعة لارادتك الكريمة ، حتى يعتبر فيرى بما حدث لى ، (مثال ذلك أن الأسد يتعظ اذا رأى الجرو يعاقب أمامه) (٢٧) ـ ولهذه الأسباب سأقص عليك همومى ، قبل أن أنتقل الى موضوع آخر ، طالما اتسع لى الوقت » • وبينما كانت احداهما تحكى آلامها وأساها ، كانت الأخرى تبكى ، حتى كادت تستحيل كلية الى ماء ، الى أن أمرتها أنثى الصقر بأن تهدأ وتكف عن البكاء • ثم تنهدت وعبرت عن نيتها التى تضمرها قائلة :

« ياويح ذلك اليوم القاسى ، الذى ولدت فيه ، ونشأت فى كهف بصخرة من الرخام الرمادى ، وكان ذلك على نحو من الحنـان والعطف ، لم يصـبنى بسببهما أى أذى ! ولم أعرف معنى المشـقات ، حتى أتيح لى أن أحلق فى السموات ، وفى ذلك الوقت كان أحد البزاة يعيش بجوارى ، وكان يبدو لى ينبوعا لكل ما يعد من كرم الخلق •

ومع أن قلبه كان ممتلئا بالغدر والغش ، فان هذه الرذائل كانت مقنعة وراء وجه ينم عن الوداعة ، وكأنها مظهر من مظاهر الصدق والسلوك المهذب اللطيف ، والاهتمام بأمرى اهتماما جادا وكان ذلك ما يحول دونى ودون ادراك ما كان يضمر من رياء ، لأن مجالاته كانت ملونة بصبغات ثابتة •

ومثلما يختفى الثعبان تحت الزهور الى أن يأتى الوقت الذى يستطيع فيه أن يلدغ فكذلك فعل اله الحب ، هذا المنافق ، اذ كان يقدم فروض المغازلة الخاشعة ، والطاعة الملتزمة ، ويقوم بكل واجبات الود المتفقة مع سمو معانى الحب ، اذ أخذنا بالمظاهر الخارجية •

ومثلما تكون الحال فى ضريح ، يبدو كل شىء فيه منسـقا وجميلا على سطح الأرض ، بينما ترقد تحتها بقايا الجثة ، كما تعرفون ذلك ، فكذلك كان هذا المنافق فاترا وحارا فى الوقت نفسه ، واستطاع على هذا النحو أن يكتم سر ما كان ينويه من مخططات ، بحيث لم يعرف هذه النية أحد سوى الشيطان نفسه • فما أطول بكاءه وشكواه وما أكذب اعلانه عن ولائه لى سنين طويلة الى أن بدأ قلبى الشفيق والأحمق للغاية يخشى أن يموت ، كما كان يبدو لى بسبب جهلى المطبق بسوء نيته المتناهى • فأعطيته حبى بناء على ما فاه به من ايمان وعهود ، ولكن على شرط واحد ، هو أن يحفظ شرفى وتصان سمعتى الطيبة دائما فى السر والعلانية • وبعبارة أخرى بناء على ما كان يظهر من صفات طيبة

استسلم له كل فؤادى وعقلى ـ والله أعلم وهو أيضا يعلم أننى لم أحبه بدرجة أقل من ذلك ـ وتبادلنا قلبينا الى الأبد ٠

ومع ذلك فكم من أيام مضت منذ أن قيلت هذه الحكمة القديمة القائلة « ان الرجل الأمين واللص لا يتفقان فى أســـلوب التفكير » ولما أدرك تماما أن الأمور قد وصلت الى حد أننى أعطيته حبى عطاء كاملا على النحو الذى سردته من قبل ، وأننى قد سلمته قلبى بنفس الحرية والسخاء اللذين كان قد أقسم هو أنه قد سلمنى بهما حبه ، أقول لما أدرك كل ذلك ركع هذا النمر المنافق للغاية ركوعا ينم عن التواضع والخشوع ، وعن الوفاء والاخلاص ، كما كان سلوكه يوحى بأنه عاشق نبيل ، وكانت تبدو عليه الســـعادة المتناهية ، الى حد أن « يا سون » (٢٨) نفسه أو « باريس الطروادى » (٢٩) (وهل أقول «ياسون» ؟ أجل) أو أى انسان غيرهما منذ زمن «لامك» (٣٠) الذى كان أول رجل أحب اثنتين فى وقت واحد (طبقا لما سجله القدامى) أو منذ زمن ميلاد أول انسان ، أقول لم يستطع أى انسان كائن من كان أن يحاكى جزءا من العشرين ألف التواء من لؤمه ، أو أن يفك رباط حذائه فى أى أمر يتطلب المخادعة والتدليس أو التظاهر بما ليس فيه بل لم يستطع غيره أن يجازى غيره بمثل جزائه الكريه ٠

وكان يصور سلوكه تصويرا محكما ، بحيث ان أية امرأة مهما بلغت من الحكمة تجد حديثه وملامحه توحيان بالجنة ٠ وكم أحببته لما أظهر من خشوع واحترام ، ولذلك الوفاء الذى ظننته فى قلبه ٠ ووصلت هذه الحال الى حد أنه اذا بلغنى أنه قد أسىء اليه ، مهما كانت الاساءة تافهة كنت أشعر كأن قلبى يتمزق بداخلى ٠

وخلاصة الأمر أن حالى هذه تطورت تطورا سريعا الى حد أن ارادتى أصبحت أسير رغباته ٠ وبعبارة أخرى كانت ارادتى طوع ارادته فى كل ما يمكن أن يكون ، ولم أنحرف مرة واحدة عن الهيام به ٠ ولم يكن عندى ما أحببته أكثر منه ولم أعرف من هو أعز منه ، والله يعلم أننى لن أعرف من أحبه أكثر منه مستقبلا ٠ وبقيت الحال على هذا النحو أكثر من سنة أو سنتين ، وأنا لا أفكر فيه الا بكل خير وتقدير ، ومع ذلك ، فقد حدث فى النهاية أن أمرت ربة الحظ بأن يضطر للرحيل من المكان الذى كنت فيه ٠ ولا داعى للسؤال عما كابدته من شقاء فانى لا أستطيع حتى وصف ذلك ٠

الا أن هناك شيئا واحدا أستطيع أن أقوله بهذه المناســـبة قولا صريحا جسورا ٠ وهو أن أحزانى قد اشتدت لاضطراره لأن يفارقنى الى حد أننى بدأت أدرك بعد قليل ما هى آلام الاحتضار ٠ وفى يوم من الأيام استأذن منى ، وكانت تبدو عليه سمات الحزن والأسى ، بحيث ظننت أنه شعر بنفس الحزن ، الذى شعرت أنا به لما سمعته منه ، ولما لاحظته من تغير لون طلعته ٠ ومع ذلك

بقيت أعتقد أنه وفى لى ، وأنه سيعود بعد قليل الى جانبى ، وكانت هذه حقيقة شعورى ٠

وكان العقل والمنطق يمليان على أيضا أنه لابد من أن يغادرنى فى سبيل البحث عن المجد والشرف ، كما هى الحال فى كثير من الأحيان ٠ ولذلك اعتبرت بالمثل القائل : « مكره أخاك لا بطل » وتقبلت الخبر بالصبر ، مادام لابد مما ليس منه بد ، وأخفيت عنه حزنى ، بقدر استطاعتى ، ثم أمسكت بيده (وأشهد بالقديس يوحنا على ذلك) (٣١) ، وقلت له ما يأتى : « ها أنا ذا ملك يديك ، فكن لى كما أنا لك الآن والى الأبد » ٠

ولا داعى لتكرار ما أجابنى به : فمن أقدر منه على القول المعسول ؟ ومن أكثر منه اضمار سوء النية وعمل الشر ؟ وبعد أن يكون قد فاه بكل ما فى جعبته يكون عندئذ قد أتى بما يستطيع ٠ وانى قد سمعت المثل القائل بأن من أراد الأكل مع الشيطان فعليه أن يمسك بملعقة طويلة جدا (٣٢) ٠ وآخر الأمر ذهب فى طريقه وهرب منى الى حيث كان يريد ، وعندئذ اتجهت نيته الى أن يمكث هناك ٠

ولابد فى رأيى أنه كان على وعى بذلك النص المأثور القائل : كل أمر يعود الى طبيعته وجنسه يكون على أتم حالة من السعادة » ٠ وهذا ما يقوله الناس على ما أظن ٠ والناس بطبيعتهم يفضلون التجديد والطرافة ، مثلهم فى ذلك مثل الطيور ، التى يطعمها الناس فى أقفاص ٠ فحتى لو رعيتها ليلا ونهارا ، وبسطت القش على أرضية القفص ، حتى تكون ناعمة نعومة الحرير ، وحتى لو أعطيتها السكر والعسل والخبز واللبن ـ حتى لو فعلت كل ذلك لاسعادها لا يكاد باب القفص يفتح حتى ترفض كوب الطعام ، وتطير بعيدا الى الغابات ، حيث تأكل الديدان ٠ والسبب فى ذلك أن الطيور تحب دائما أن تجدد أنواع طعامها كما تميل الى الطرافة ، حسب طبيعتها الخاصة ، ولا تقيم أى وزن لرفعة المنزلة أو عراقة الأصل ٠

وعلى هذا النحو سلك الباز ، ياويح اليوم الذى عرفته فيه ، مع أنه كان من أصل عريق ، وكان دمث الأخلاق ومرح المطلع ووجيها رشيقا ومتواضعا فى أدبه وسخى العطاء ٠ وبعد برهة من الزمن رأى حدأة تطير فى السماء ، فهام فجأة ، بحب تلك الحدأة الى حد أن كل حبه لى اختفى مرة واحدة ، وبهذا خان العهد الذى كان قد أخذه على نفسه نحوى ٠

وهكذا استطاعت الحدأة أن تجعل حبيبى يخضع لخدمتها ٠ أما أنا فبقيت مهجورة وحيدة ولا شقاء لما أنا فيه ٠ وعندئذ أخذت أنثى الصقر تبكى ، وأغمى عليها مرارا ، وهى بين ذراعى « كاناسى » وما أشد حزن كاناسى ووصيفاتها على ما أصاب أنثى الصقر من أذى ٠ ولم تعرف احداهن كيف

تخفف من آلامها ، الا أن كاناسى حملتها معها الى بيتها ، وحيث ضمدت جسدها بلفائف من القماش ، وخاصة فى الأماكن التى كانت قد جرحت نفسها فيها بمنقارها • ولم تفعل كاناسى شيئا ، سوى أن تبحث عن الأعشاب فى الأرض ، وأن تصنع العقاقير الجديدة من مجموعات مختلفة من الأعشاب الثمينة والجميلة الألوان ، لتشفى بها أنثى الصقر هذه • وظلت تقوم بذلك ليلا ونهارا ، بكل ما لديها من قوة وهمة وأقامت بجوار سريرها قفصا كبيرا لأنثى الصقر وغطتها بأنسجة من القطيفة الزرقاء ، رمزا للوفاء الذى تتميز به المرأة • أما القفص فكان منقوشا باللون الأخضر ، وعليه رسمت مجموعة من الطيـور الغـادرة كالعصافير والبزاة والبوم والعقائق أيضا تشهيرا بشرور هذه الطيور •

وعلى هذا النحو أترك « كاناسى » وهى ترعى أنثى الصقر ، ولن أستمر فى الكلام بخصوص خاتمها حتى يحين الوقت من جديد لحكاية الطريقة التى استعادت بها أنثى الصقر حبيبها ، تائبا وآسفا على ما فعل ، كما تروى لنا القصص ، وذلك بعـد أن تدخل « كامبـالوس » ابن الملك الذى ذكرته لكم ، ليصلح الحال بينهما • أما من الآن فصاعدا فسأستمر فى منهجى الأصلى وسأحكى لك المغامرات والمعارك التى لم يحك مثلها من قبل •

وسأتكلم أولا عن « كامبوسكان » ، الذى فتح مدنا كثيرة فى زمنه • وبعد ذلك سأحكى لكم عن « الجارسيف » ، وكيف فاز بزوجته « ثيودورا » ، التى واجه من أجلها مخاطر كثيرة ، ولم يسعفه فى ذلك الجواد النحاسى الذى ذكرته لكم • وبعد ذلك أحدثكم عن « كامبالو » (٣٣) الـذى بارز الأخوين من أجل « كاناسى » ، قبل أن يستطيع الفوز بها • وسأبدأ من جديد من حيث أسكت عن الكلام •

(انتهى الجزء الثانى)

ويلى الجزء الثالث

وقد ساق الاله أبوللو عربته الى أعالى السـموات ، بل حتى منزل الاله « ميركوريوس » اللئيم (٣٤) •

هوامش حكاية ابن الفارس

(١) **حكاية ابن الفارس** : اختلف العلماء فى مصدر هذه القصة التى لم تنته الى مصدر معين ، شرقى أو غربى • ويبدو أن تشوسر فى نسبته هذه القصة لابن الفارس كان يقصد تخصيصه بخيال قصصى عام ، يستعين بكتب الرحلات ، وبالقصص الشرقية والفرنسية العاطفية ، التى كانت تغذى خيال الشباب الطموح فى ذلك الوقت • وهنــال احتمال أن وصف القصر الملكى التترى يرجع الى كتاب رحلات ماركوبولو (Marco Polo) التى كانت من القراءات المفضلة فى كل أنحاء أوربا ، فى القرنين الثالث والرابع عشر • وبالاضافة الى هذه الرحلات كانت توجه كتب عديدة للرحالة فى أقصى الشرق تمتعت برواج خاص من أمثال الكتب ، التى كان يكتبهـا بعض الرهبان المسافرين الى تلك الأنحاء النائية • ولا شك أن موضوع الهدايا الثلاث المذكورة فى هذه القصة موضوع دال فى القصص الشعبى فى كثير من أنحاء العالم ، ولها مقابل فى « ألف ليـــلة وليلة » فهناك حكاية مماثلة مؤداها أن ملكا كان جالسا فدخل عليه ثلاثة من الحكماء ، مع أحدهم طاووس من الذهب ، ومع الثانى بوق من النحاس ، ومع الثالث فرس من العاج والأبنوس ، وعرف الملك منهم أن الطاووس يصفق بجناحيه ويزعق كلما مضت ساعة ، وأن البوق اذا وضع على باب المدينة ودخلها عدو زعق ، وأن الفرس ، اذا ركبها انسان فانها توصله الى أى بلد أراد •

ولو أن تشوسر لم يكن قد عرف هذه المجموعة القصصية ، الا أنها لم تصل مترجمة قبل القرن الثامن عشر الى أوربا • وانقطاع القصة قبل الدخول فى موضوع أحداثها المهمة قد شـــجع بعض الأدباء على تصور تكملة لهـــا من أمثـــال ادمند سبنسر (Edmund Spenser) فى القرن السادس‌عشر (وذلك فى الكتاب الرابع من ملحمته « ملكة الجان ») وشاعر أقل امتيازا اسمه جون لين (John Lane) عاش فى أوائل القرن السابع عشر • وهناك احتمال اقترحه بعض النقاد كمصدر للقصة الناقصة فى حكاية منظومة فرنسية ، ترجع الى أواخر القرن الثالث عشر ، وعنوانها « كليوماديس أو جواد فوست » (Cléomadés ou le Cheval de Fust) لشاعر من مقاطعة تعد الآن ضمن أقاليم دولة بلجيكا واسمه « أدينيه لى روا (Adenet le Roi) وذلك خاصة فيما يتعلق بالجواد النحاسى • ويبدو أن هذه القصة لها جذور بعيدة فى « ألف ليلة وليلة » التى يكون وصل بعض حكاياتها الى فرنسا ، عن طريق الأندلس وشعر التروبادور •

(٢) اسم قديم لمدينة أصبحت تسمى « تساريف » (Tzarev) فى جنوب شرقى الاتحاد السوفيتى • كان قد أسسها باتوخان زعيم التتر فى القرن الثالث عشر ، وجعل منها عاصمة بلاده • وقد دمرها تيمور لنج سنة ١٣٩٦ م •

(٣) قام الزعيم التترى باتوخان بغزوات عميقة فى أراضى الروس ، حتى دخل حدود بولاندا ، وكان ذلك بين سنة ١٢٣٧ وسنة ١٢٣٨ • وبقى أمراء الروس مدة طويلة يقدمون فروض الطاعة لملك التتر فى عاصمته « ساراى » •

(٤) الاجماع السائد فى رأى الفقهاء أن هذا تحريف لاسم جنكيز خان ، وهو الاسم الذى اتخذه لنفسه مؤسس دولة المغول ، الذى كان اسمه قبل سنة ١٢٠٦ « تيمورجين » •

(٥) لا يوجد أى دليل على أصل هذا الاسم (الفيتا) ولو أن هناك احتمالا لوجود أصل شرقى له •

(٦) شكل اسم (الجارسيف) يدل أيضا على أصل شرقى بل عربى ولكن الدلائل بصفه عامة لم تكن كافية •

(٧) هناك احتمال بأن اسم « كامبالو » مأخوذ من الاسم الذى كان يطلق على مدينة «بيكينج فى عهد الملك ماكوبلاخان وهو « كامبالوك » • الا أن اسم « كامبالا » قد أعطى لحفيد الملك ، وهذا التفسير هو الأقرب الى الحقيقة •

(٨) هناك أصل لاسم كاناسى فى رسائل الشاعر أوفيد الشعرية المسماة « البطلات » (Heroides) وهى تشمل عددا من الرسائل الخيالية ، كتبها على لسان نساء شاعت مآسى غرامياتهن فى عالم الأساطير والقصص الشعبى (الرسالة رقم ١١) •

(٩) وصف الحفلات التى كانت تقام بمناسبة عيد ميلاد ملك التتر وارد فى كتاب رحلات ماركوبولو الذى كان يعرفه تشوسر •

(١٠) تدخل الشمس برج الحمل يوم ١٢ من مارس (فى عهد تشوسر) وتصل الى أوجها يوم ٣٠ منه • أما الوجه هنا فيعنى ثلث المدة التى تقضيها فى البرج وهنا الوجه الأول ويمتد من ١٢ من مارس الى ٢١ منه وكان يسمى بوجه المريخ (أو مارس) •

(١١) يتصف برج الحمل بفكرة الحرارة ، وكان يقال ان الطفل الذى يولد تحت تأثيره يتصف بسرعة السكون بعده •

(١٢) كان الفارس « جاوين » (Gawain) ابنا للملك « لوت (Lot) حاكم جزيرة أوركنى (Orkney) وابن أخى الملك آرثر (Arthur) بطل القصص المعروفة فى العصور الوسطى عن هذا الملك نصف الأسطورى ، والفرسان الذين كانوا تابعين له ، والذين كانوا يتميزون بصفات مختلفة من صفات الفروسية حينئذ • أما « جاوين » فكان مثالا للأدب •

(١٤) كان صانع الجواد المسحور فى قصص « ألف ليلة وليلة » هنديا • وهذا البيت فى الأصل يذكر أحيانا كدليل على معرفة تشوسر لهذا المصدر الشرقى ، ولو عن طريق غير مباشر •

(١٤) كان حسن الطالع والمواضع المواتية المختلفة للنجوم والكواكب من أهم العناصر لضمان النجاح فى أى عمل ، يقدم عليه المرء ، من وجهة نظر الفلك القديم أو التنجيم كما نسميه الآن • الاعتقاد الشائع بالقدرة السحرية لبعض الخواتم كان منتشرا فى القصص الشرقى والغربى على السواء منذ أقدم الأزمنة • ومن أشهر الخواتم التى نسبت اليها صفات خارقة خاتم سليمان الحكيم •

(١٥) للمرآة السحرية نظائر كثيرة فى القصص الشعبى والأساطير • فكان لجامشين مثلا ، وهو من ملوك الفرس الأسطوريين ، كأس مسحورة يرى فى قاعها كل ما يدور فى الدنيا •وفى القصص الغربى كان الثعلب « رينارد » (Reynard) يملك مرآة تعكس له كل ما يدور حوله على بعد ميل • أما نسبة المرآة الى « فرجيل » فى روما فهى خرافة قديمة بدأت ككتابة عن سعة خياله ، وذكرها « جاور » (Gower) أحد معاصرى تشوسر فى قصيدة مشهورة له اسمها اعتراف العاشق (Confessio Am antis) (الجزء الخامس البيت ٢٠٣١ وما بعده) •

(١٦) كانت جياد مقاطعة لومبارديا فى شمال ايطاليا من أشهر جياد القتال فى العصور الوسطى •

(١٧) أما جياد مقاطعة « أبوليا » (Apulia قديما أو Puglia حديثا) فى جنوب ايطاليا فقد اشتهرت بامتيازها فى المبارزات ٠

(١٨) كان « بيجاسوس » (Pegasus) اســم الحصــان المجتمع الذى كان يركبه بيليروفون (Bellerophon) فى الأساطير القديمة ، وكان أيضا من أحب جياد ربات الفنون المقيمات على جبل هيليكون (Helicon) ويروى أنه نشأ من دم أنثى الوحش الميدوســا (Medusa) بعد أن ضرب بيرسيوس (Perseus) عنقها ولما ركبه بيليروفون ليقاتل به وحشى الكميرا ساعده على ذلك ثم أوقعه من على ظهره عقابا له على طموحه لتسلق السموات ٠ أما الجواد فاستمر صاعدا الى السماء حيث حوله رب الآلهة الى كوكب منير ٠

(١٩) كان سينون (Sinon) أحد المقاتلين الاغريق ، ودخل مدينة طروادة مقيد البدين قائدا الجواد الخشـــبى هدية من الاغريق الى بريام ملك الطرواديين ، وقائلا ان الاغريق قرروا الرحيل عن آسيا الصغرى ، وان الجواد رمز لتصالحهم ، أنه كان هاربا من المعسكر الاغريقى ، لأن قواده كانوا قد قرروا التضحية به للآلهة ابتهاجا بنهاية الحرب ٠ ووثق الطرواديون بكلامه ولما أرخى الليل سدوله خرج جنود مختبئون فى جوف الحصان الخشبى ، وقتلوا المواطنين الطرواديين وفتحوا المدينة ٠

(٢٠) هــو أبو على الحســن بن الهيثم (٩٦٥ م ـ ١٠٣٩ م) من أكبر علمـــاء العرب فى الرياضيات والطبيعيات والطب والفلسفة ٠ ولد بالبصرة ، ورحل الى مصر ، وأقام بها فى عهد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، الذى عرض عليه مشروع تنظيم جريان النيل ٠ وكان لمؤلفاته فى البصريات تأثير كبير على علماء أوربا فى العصور الوسطى ، وقد نقل اسمه الى اللغات الأوربية على النحو التالى Alhazen وخاصة بعد ترجمة مؤلفه الرائد « كتـــاب المناظر » الى اللغة اللاتينية ٠

(٢١) هو الفيلسوف البولاندى « فيتلو » (Witelo) ، الذى عاش فى القرن الثالث عشر وقد عاش أكثر حياته فى ايطاليا ، حيث كان يدرس الفلسفة الأرسططالية وله كتاب فى البصريات اسمه « المنظور » (Perspectiva) فيه تأثر واضح بفكر ابن الهيثم ونظرياته ٠ وقد نشر مؤلف ابن الهيثم فى ترجمته اللاتينية مع كتاب « فيتلو » فى مجلد واحد سنة ١٥٩٢ م بعنوان « خزانة بصريات ابن الهيثم وفيتلو (Alhazeni et Vitellonis Opticae Thesaurus)

(٢٢) فى الأساطير اليونانية كان « تيليفوس » (Telephus) ملكا لمقاطعة « ميزيا » (Mysia) فى آسيا الصغرى وزوجا لبنت بريام ملك طروادة ٠ ولما طعنه أخيل برمحه فى المعركة كاد يموت ولكن الهاتف الالهى قال ان الرمح الذى طعنه هو الذى يشـفيه ، وفعلا شفى من جرحه بتأثير الصدأ من الرمح (« وداونى بالتى كانت هى الداء ») ٠

(٢٢) خلاصة القول هنا ان الساعة كانت تقريبا الثانية بعد الظهر وفى الفلك القديم كانت السموات تنقسم الى اثنى عشر جزءا متساوية سميت بالمنازل ، وكان أول هذه المنازل ورابعها وسابعها وعاشرها تسمى « زوايا » ، وفى الخامس عشر من شهر مارس كانت الشمس تمر بالزاوية العاشرة فيما بين العاشر صباحا والظهر ٠ وعند الظهر تقريبا تبدأ كوكبة الأسد فى الصعود ٠ أما نجمة « الديران » فهى على أغلب الظن تلك التى تكون قدم الأسد الأمامية فى الكوكبة المذكورة وهناك نظرية قائلة بأن المقصود من « الديران » هو كوكبة الجوزاء ٠

(٢٤) كان لانسلوت (Launcelot) أعرق فرسان الملك آرثر وأشدهم بســالة وأقواهم بأسا وكان عشيق الملكة جونيفير (Guinevere) فى السر ٠

(٢٥) لنظرية الأخلاط أصل فى علوم الطب ، التى كانت شائعة بين العرب وبين الأوربيين فى العصور الوسطى ، والمقصود بها الدم والبلغم والصفراء والسوداء • وقد كان لها اتصال وثيق بعناصر الطبيعة فالنار ساخنة جافة ، والهواء ساخن رطب ، والماء بارد رطب والأرض باردة جافة • فكانت النار وثيقة الصلة بالصفراء ، والماء بالبلغم ، والأرض بالسوداء ، والهواء بالدم • واذا امتزجت الاخلاط امتزاجا سويا أدى ذلك الى المزاج المتزن ، ولكن اذا تغلب خلط على غيره أدى الى تغلب مزاج ، أو حالة نفسية ، على غيرها • لذلك امتد معنى الخلط ، ليشمل معنى المزاج • كما نسبت الى جالينوس خطأ نظرية مكملة لنظرية الاخلاط وهى الارتباط الوثيق بين تغلب خلط من أخلاط الجسم البشرى ، وبين ساعة من ساعات النهار أو الليل • وبناء على ذلك قيل ان الدم يكون غالبا من الساعة التاسعة ليلا حتى الثالثة نهارا ، وأثناء هذه المدة تظهر سـمات المزاج الدموى ، ومنها التفاؤل والطيبة والهيام •

(٢٦) سميت الشمس فتية ، لأنها فى بداية سيرها السنوى حسب الفلك القديم بمرورها فى برج الحمل ، واحتسب ذلك بأنها يبدأ دخولها البرج فيما بين ١٢ و ١٦ من مارس • ويلاحظ أن الحكاية التى نحن بصددها تبدأ أحداثها يوم ١٥ من مارس •

(٢٧) هذا مثل قديم يرجع للقرن الثالث وأصله باللاتينية : « اذا ضرب الكلب بالسياط روض الأسد (Quia quando canis flagellatur, leo domesticatur وقد ذكره الراهب الايطالى يعقوب الفوراجينى (Jacopo de Voragine) فى كتاب مشهور له عن سير الأولياء والقديسين ، عنوانه « الأسطورة (Legenda aurea) وقد ذكر شكسبير هذا المثل على لسان ياجو فى مأساة « عطيل » (الفصل الثانى المشهد الثالث) ، عندما قال : « لاتزال تلك وسيلة لاستعادة رضا القائد فقد عزلك فى ساعة غضب ، لا عن سياسة ، ولا عن مكر ، بل كما يفعل الذى يضرب كلبه دون أن يذنب ، ليرهب أسدا هصورا ، استعطفه عليك ينعطف » (ترجمة خليل مطران) • وقريب من هـذا القول المأثور المثل العربى العامى « اطعم الفم تستحى العين » •

(٢٨) كان ياسون (أوجاسون) فى الأساطير اليونانية قد غدر بعشيقته ميـديا الساحرة المشهورة التى كانت قد ساعدته على احراز « الفراء الذهبى » وتزوج من غيرها • وهناك سرد جميل لهذه الأسطورة باللغة العربية فى كتاب الدكتور ثروت عكاشة « الاغريق بين الأسطورة والابداع » (القاهرة — دار المعارف سنة ١٩٧٩) هى ٢٢٦ الى ص ٢٣٢ •

(٢٩) وكان باريس (Paris) الطروادى ابن الملك بريام قد هجر زوجته أوينونى (Oenone) ليخطف هيلينا (Helena) زوجة مينيلاوس ، (Menelaus) ملك اسبرطة • وترتب على هذه الخيانة نشوب الحرب الطروادية (انظر الدكتور ثروت عكاشة فى المرجع المذكور أعلاه (ص ٢٠٢ وما بعدها) •

(٣٠) نسبة الى ما جاء فى سفر التكوين الاصحاح الرابع : « ١٩ : وأخذ لامك لنفسـه امرأتين ، اسم الواحدة عادة واسم الأخرى صلة ٢٠ : فولدت عادة يابال ، الذى كان أبا لساكنى الخيام ورعاة المواشى ٢١ : واسم أخيه يوبال ، الذى كان أبا لكل ضارب بالعود والمزمار ٢٢ • وصلة أيضا ولدت توبال قايين ، الضارب كل آلة من نحاس وحديد •• » •

(٣١) كان مولد القديس يوحنا المعمدان يقع فى منتصف الصيف ويتصل بالعشاق وتبادل عهودهم •

(٣٢) استعان شكسبير بهذا القول المأثور فى مسرحيته « العاصفة » (الفصل الثانى — المشهد

الثانى ١٠١ ـ ١٠٣) حيث يقول ستيفانو : « ان هذا شيطان وليس وحشا • سأتركه وشأنه ، اذ يجب أن يكون المرء بعيدا عن الشيطان ، اذا ما اضطر الى مخالطته » (ترجمة د• محمد عوض ابراهيم) ، وان كانت الترجمة الحرفية للأصل : « ان هذا شيطان وليس وحشا : سأتركه وشأنه فانى لا أملك ملعقة طويلة » وقريب من هذا التعبير المجازى عن وجوب الابتعاد عما تخشاه النفس قول المتنبى فى هجاء كافور : « لا تشتر العبد الا والعصا معه » •

(٣٣) يبدو أن « كامبالو » المذكور هنا ليس أخا « لكاناسى » وان كان سميه •

(٣٤) أبوللو هو اله الشمس ولكن « منزل » ميركوريوس فى برج الجوزاء الأمر الذى يشير الى أن الأحداث الجديدة كان قد قدر لها أن تبدأ فى شهر مايو أى بعد مرور شهرين •

حكاية الملك

مقدمة المالك

واليكم الآن كلمات المالك فى حديثه مع ابن الفارس ، وكلمات المضيف فى حديثه مع المالك . قال المالك :

« أقسم بايمانى يا ابن الفارس أنك قد قمت بما عليك خير قيام ، بل وعلى نحو يدل على كرم الأخلاق ، وانى لأمتدح فطنتك . وانى أسلم بأنك تتكلم بعاطفة صادقة وقوة بالرغم من صغر سنك . أما فيما يتعلق بحكمتى فانى متأكد أنه لا يوجد أحد هنا يضارعك فى الخطابة والفصاحة . نجح الله مقاصدك ، وجعلك تظل دائما على هذا النحو من الفتوة والمروءة ! وانى أجد بهجة كبرى فى الاستماع الى حديثك . ولى ابن أقسم بالثالوث المقدس أننى أتمنى أن يكون مثلك فى الكياسة والحكمة ، وهذا خير لى من أن أحرز أرضا يقوم دخلها بعشرين جنيها فى السنة حتى لو أنى حزتها الآن . فبئست حيازة الانسان اذا لم يكن فاضلا . وكثيرا ماوبخت ابنى — وسأستمر فى توبيخه — لأنه لا ينصت الى النصيحة الرشيدة ، ولا يريدن ينصت اليها اذا اعتاد أن يلعب بالنرد ، وأن يفقد كل ماله فى هذا اللعب وأنه لأفضل عنده أن يتحدث مع الخدم من أن يتبادل الحديث مع شخص كريم ورفيع الشأن ، حتى يتعلم أصول الأدب الرفيع على خير وجه » فقال المضيف : « وانى لا أقيم بقلامة ظفر آدابك الرفيعة ! فأنت يا أيها المالك الحر تعرف حق المعـرفة أن كلا منكم عليه أن يحكى حـكاية أو حكايتين على الأقل ، والا لم يف بما وعد به » .

فأجاب المالك قائلا : « ذلك ما أعلمه تماما يا سيدى ! ولكن أرجو ألا تزدرينى اذا تبادلت الحديث بعض الوقت مع هذا الرجل » ، فقاطعه المضيف قائلا : « هيا بنا وارو حكايتك من غير مزيد من الكلام » .

فقال : « بكل سرور يا سيدى المضيف . فانصتوا الى ما أقول ، ولن أخالفكم بشكل من الأشكال بقدر ما تسعفنى قواى العقلية . وأرجو من الله أن تروقكم قصتى ، وعندئذ سأعرف حق المعرفة أنها على جانب مرضى من الجودة » .

مقدمة حكاية الملك

ان أفاضل أهل بريتانيا قديما كانوا ينظمون فى أيامهم الأناشيد لقص مختلف المغامرات ، ويجعلونها تلتزم قواعد الروى والنظم فى لغتهم البريتانية القديمة . وكانوا ينشدون هذه الأغانى مصحوبة بآلاتهم الموسيقية . وأحيانا كانوا يقرأون هذه القصائد لمجرد المتعة . وانى أذكر احدى هذه الأناشيد القصصية ، وسأرويها لكم راضيا بقدر ما أستطيع .

ولكن ياسادتى ، بما أننى رجل واضح مستقيم ، أبدأ بأن أتوسل اليكم أن تغفروا لى كلامى البسيط فانى لم أتلق أبدا علوم البلاغة . وكل ما أقوله لابد أن يكون واضحا صريحا مجردا من أى محسنات لفظية ، فاننى لم أرقد أبدا بجبل برناسوس « مخدع ربات الفنون » ولم أدرس كتب ماركوس توليوس شيشرون . ولذلك لا أفقه شيئا من ألوان البيان والبديع ، ولا ريب فى ذلك . ومن الألوان لم أر الا تلك التى تبدو فى زهو المرج ، أو تلك التى يستعملها الناس فى الصباغة أو النقش . والمحسنات البلاغية غريبة على . ولا دراية لى بمثل هذه الألوان . ومع ذلك اذا راق لكم فستسمعون قصتى .

حكاية المالك (١)

فى بلاد أرموريكا (٢) ، التى تسمى الآن بمقاطعة بريتانيا ، كان هناك فارس يعشق سيدة ، ويبذل قصارى جهده فى أن يخدمها على خير وجه . وقام بمآثر كثيرة ، وأنجز انجازات كثيرة من أجل تلك السيدة ، حتى ظفر بقلبها ، ولا شك أنها كانت أجمل أمرأة تحت الشمس ، وزد على ذلك أنها كانت من سلالة أرستقراطية كريمة ، فلم يكن من اللائق أن يثقل هذا الفارس عليها بأن يبثها آلامه ويحدثها عن عنائه وحزنه لشدة تبجيله لها . ومع ذلك فانها فى نهاية الأمر أشفقت عليه لشقائه ، وذلك لما توسمته فيه من خلق كريم وخشوع وديع فى حضرتها ، حتى أنها قبلت فى سريرتها أن تتخذه زوجا لها ، وسيدا

لحياتها على غرار تلك السيادة التى يباشرها الرجال على زوجاتهم • وفى سبيل أن ينعما بحياة أسعد حلف بقسم الفرسان أنه لن يتخذ لنفسه طوال حياته (ليلا أو نهارا) سيادة الزوج على زوجته من غير رضاها ، ولن يظهر لها أى لون من ألوان الغيرة ، بل انه سيطيع دائما أوامرها ، ويحقق رغباتها فى كل شىء على نحو ما يفعل العاشق مع سيدة قلبه • الا أنه قال انه سيحتفظ لنفسه بلقب السيادة ، لا لشىء سوى احترام منزلته الاجتماعية • فشكرته وقالت له بصورة تنم عن شدة التواضع : « مادمت قد قررت أن تسمح لى بأن أحكم مثل هذا الحكم الحر ، فلا قدر الله أن ينشب بيننا خلاف أو عداء ، بسبب خطأ منى • يا سيدى أقر أننى سأكون زوجتك المطيعة المتواضعة ، واليك عهدى بذلك ، وهو عهد سيدوم حتى يكف قلبى عن الخفقان » • ولذلك كانت حالهما حالة سكينة وأمن •

ياسادتى • وهناك أمر واحد أود أن أقول لكم * هو أنه لابد أن يطيع العاشقان كل منهما الآخر اذا كان فى نيتهما أن تدوم علاقتهما العاطفية • فالحب لا يمكن أن يخضع لأى نوع من السيادة والضغط • فاذا أتت السيادة أخذ اله الحب يرفرف بجناحيه ، ويقول « الوداع » ويهرب فارا • فان الحب طليق مثله مثل أى نفس أو روح • أما النساء فهن بطبيعتهن يتقن للحرية ، ولا يرغبن فى أن يقيدن بقيود • والأمر كذلك بالنسبة للرجال ، اذا عن لى أن أقول قولا صادقا• فالواقع أن الذى يبدى المزيد من الصبر فى العشق هو من يتمتع بمنزلة السمو والتفوق • ولاشك أن الصبر فضيلة سامية ، لأنه كما يقول الفقهاء ، يسمو وينتصر فى أمور شتى قد لا ينفع معها الحزم والشدة • ولا يستطيع المرء أن يلوم ، أو أن يعنف غيره ، لأتفه كلمة يفوه بها ؛ ولذلك أقول انه يجدر بكم أن تتعلموا كيف تتحملون ألوان الشقاء ، والا فانكم (أؤكد لكم) سترغمون على تعلم ذلك الدرس ، رضيتم أم أبيتم • ولا شك أن هذه الدنيا لا يوجد فيها شخص لم يرتكب خطيئة فى وقت من الأوقات • فالغضب والمرض وتأثير أوضاع الكواكب على مصير البشر والخمر والأسى وتقلبات الأمزجة فى الجسم ، كل هذه كثيرا ما تؤثر فى البشر لكى يخطئوا فى الفعل أو فى القول ، ولا يستطيع المرء أن ينتقم لكل لون من الظلم يقع عليه • ومن يستطع أن يضبط نفسه ، فسيفعل ذلك بحسب مقتضيات الأحوال • لذلك وعد هذا الفارس الحكيم الكريم بأن يعيش عيشة الراحة والطمأنينة ، ووعد السيدة أن يفى بما وعدها به •

وعندئذ حلفت هى أيضا بأنها لن تخطىء معه أبدا • وهذا أمر يراه الجميع اتفاقا حكيما متواضعا ، أبرم بأن أخذت السيدة نفسها خادما وسيدا فى آن واحد ؛ فهو خادم فى أمور الحب أو سيد فى أمور الزواج • وبذلك أصبح الفارس خاضعا لقواعد الخدمة والسيادة فى الوقت نفسه ولكن أهذه خدمة بمعنى الكلمة ؟ كلا انها عبارة هى عينها سلطان السيادة بأسمى معانيه ، اذ أن الفارس

قد حاز سيدة وعاشقة فى آن واحد ، فهى سيدة قلبه حقا ، وهى زوجته فى الوقت نفسه ، بل زوجة يرضى عنها دستور الحب رضاء تاما .

وبينما كان على هذا النحو من السعادة عاد الى بلده ومسقط رأسه ، ومعه زوجته ، وكان مسكنه بالقرب من « بدمرك » ، وعاش هناك فى سلوة النفس وقمة السعادة .

ومن يستطيع أن يتصور هذه القمة من السعادة وهدوء النفس والبهجة التى سادت بين هذه الزوجة وذاك الزوج . الا من كان هو نفسه قد جرب الزواج ؟ دامت الحال على مثل هذا النحو من الحياة السعيدة سنة أو أكثر ، الى أن جاء يوم قرر فيه الفارس ؛ الذى اتكلم عنه ، واسمه « افيراجوس ، الكايرودى (٣) ، أن يستعد ليرحل الى انجلترا التى كانت تسمى أيضا « بريتانيا » ليقيم بها سنة أو سنتين ، وذلك حتى ينجز المآثر الحربية فى سبيل المجد والشهرة . فاتجه همه كله الى أن يفعل ما كان يقصده ، وعاش فى انجلترا سنتين ، كما يقص لنا الكتاب (٤) . أما الآن وسأمسك عن أخبار آرفيراجوس ، وأحدثكم عن زوجته دوريجن (٥) ، التى كانت تعشق زوجها عشقها لحياة فؤادها . لقد أخذت تبكى وتئن لغياب زوجها ، مثلما تفعل تلك الزوجات الكريمات ، عندما يروق لهن ذلك . وظلت تندب وتأرق وتنتحب وتصوم وتشكو ، وكان تشوقها لحضوره بجوارها يعذبها الى حد أن الدنيا ضاقت على سعتها أمام عينيها .

أما صديقاتها وأصدقاؤها ، الذين كانوا يعرفون مدى أفكارها الحزينة فكانوا يحاولون دائما أن يواسوها بقدر ما فى استطاعتهم . فكانوا يعظونها ، ويقولون لها ليلا ونهارا انها تكاد تقتل نفسها من غير مبرر فما أشد بؤسها ! كانوا يحاولون بكل الطرق أن يقدموا لها أية سلوة ممكنة ، ولا يكفون عن مساعيهم حتى يخففوا من لوعتها وبالتدريج يستطيع المرء كما تعلمون ، أن ينحت الصخر حتى يشكله كما يريد .

وواصلوا جهدهم لسلواها ؛ حتى بدأت تتطبع بسلواهم نتيجة لتأثير الأمل والحكمة . فخفت حدة أساها وأدركت أنها لا يمكن أن تدوم على مثل هذا الحال الوله .

أما آرفيراحوس فكان لشدة عطفه عليها يبعث اليها رسائل يحدثها فيها عن حاله ؛ ويقول فيها أيضا انه سيعود قريبا اليها . ولولا هذه الرسائل لانفطر قلبها تماما من شدة حزنها .

ولاحظ أصدقاؤها أن حزنها قد بدأ يهدأ ويسكن ؛ فركعوا بين يديها ، وتوسلوا اليها بحق الله أن تصاحبهم فى التنزه والتجوال هنا وهناك ، حتى

يستطيعوا نفى الهم والأوهام المظلمة من قلبها • وأخيرا لبت طلبهم لأنها عرفت حق المعرفة أن رجاءهم هذا من أجل خيرها •

وكان قصرها مشيدا بالقرب من البحر ، وكثير ما كانت تصطحب أصدقاءها وتمشى وتتنزه على أعلى جلاميد الشاطىء • وكانت تستطيع أن ترى من ذلك المكان عديدا من السفن والقوارب وهى تشق طريقها عبر الأمواج الى حيث تريد أن ترسو •

غير أن هذا المنظر كان يشكل سببا من أسباب أساها ، اذ أنها كانت كثيرا ما تتنهد وتصيح « ويح لى » ، ما أقسى لوعتى ألا توجد سفينة واحدة بين كل هذه السفن التى أراها ، تحمل سيدى عائدا الى ؟ آه لو كانت الحال كذلك لشفيت من كل آلام شقائى المر » •

وفى غير قليل من المرات كانت تجلس متأملة وترسل نظراتها الى أسفل الجلاميد • ولكن عندما كانت تشاهد الصخور السوداء المفزعة كان قلبها يخفق خوفا وفزعا ، الأمر الذى كان يجعلها لا تتحمل البقاء فى مكانها • وعندئذ كانت تجلس على المرج وتتأمل فى البحار تأملا ، وتقول ، وهى تناجى نفسها ، وتتنهد تنهدات حزينة باردة : « اللهم أيها الدائم الأبدى ، يا من جعلت عنايتك تقود الدنيا قيادة محكمة ، انك لا تخلق شيئا سدى ، كما يقول الناس ، غير أن هذه الصخور الجهنمية السوداء ، ياربى ، تبدو كأنها من صنع هراء وفوضى دنيئة ، بدلا من أن تكون من خلق اله كامل حكيم ثابت ، فلماذا أوجدت هذه الخليقة غير المعقولة ؟ ان هذا العمل لا فائدة له لانسان ولا لطائر ولا لحيوان من البهائم ، جنوبا أو شمالا شرقا أو غربا • ولا طائل تحت ذلك ولا فائدة منه ، فى رأيى ، بل فيه ضر وايذاء • ألا ترى أيها الرب كيف أنه يحطم الانسانية ان هذه الصخور قد مزقت مائة ألف من أجساد البشر ، ولو أنها قد نسيت الآن • ان البشر جزء من خلقك الجميل ، دعاك الى أن تصنعهم على صورتك • وعندئذ كان من الواضح أنك تحب البشر حبا جما ، فكيف حدث أن صنعت مثل هذه الأدوات لاهلاكهم ؟ ان هذه اشياء لا خير فيها بل فيها ضرر بليغ ، انى لأعلم تماما أن العلماء قد يقولون ما يحلو لهم من أن الحجج التى يستنتجونها من مواقع الأجرام تقطع بأن أمور الدنيا على خير ما يرام ومع ذلك فأنا لا أعلم أسباب أقوالهم هذه• كل ما أعرفه أنا ، وما أصل اليه فى خاتمتى هو الدعاء بأن يحفظ الله محرك الرياح سيدى خير حفظ • وأترك للعلماء كل المحاجة والمجادلة ، وليت هذه الصخور السوداء قد أغرقت فى جهنم اغراقا من أجل سيدى ! فلا شك أن هذه الصخور تمزق قلبى فزعا » • وكان كلامها على هذا النحو ، وهى تبكى كثيرا ، وتذرف الدمع البائس مدرارا • ولاحظ أصدقاؤها بعد قليل أنها لا تشعر بمتعة فى التنزه بالقرب من البحر ، بل تجد فى ذلك ألما وحسرة ، فقرروا أن يتريضوا فى مكان آخر • ولذلك صحبوها الى المتنزهات ، بالقرب من الأنهار

والآبار ؛ والى أماكن أخرى تماثلها فى البهجة والجمال · كما أنهم أخذوا ينظمون حفلات الرقص ولعب الشطرنج والنرد ·

وفى ضحى يوم من الأيام ذهبوا جميعا الى حديقة قريبة ، كانوا قد أعدوا فيها ما لذ وطاب من كل أنواع الأكل والمرطبات ، وكرسوا وقتهم هناك للهو واللعب وطال النهار · وكان ذلك فى صباح اليوم السادس من شهر مايو (٦) ، ذلك الشهر الجميل ؛ الذى كان قد لون الحديقة بكل ألوان الورق والزهور نتيجة لرذاذه اللطيف · وكانت مهارة الانسان قد زينت هذه الحديقة تزيينا رقيقا الى حد أنه لم يكن هناك نظير لها فى مثل هذه الروعة والجمال ، والحق يقال ان هذه الحديقة كانت جنة بمعنى الكلمة ·

وكانت رائحة الزهور الزكية وبهجة المنظر العام كفيلتين بأن تخففا آلام أى قلب وجد فى الدنيا ، وهذا طبعا فيما عدا جرحه البليغ أو أساه المضنى ، الذى يبقيه أسيرا للهم والغم · ولاشك أن الحديقة كانت عامرة بالجمال والمتعة · وبعد المأدبة ذهبوا جميعا ليرقصوا ويغنوا كذلك ، أقول ذهب الكل ما عدا دوريجين وحدها التى لم تكف عن ارسال شكواها وأنينها ، وذلك لأنها لم تر بين الراقصين واللاهين زوجها وحبيبها فى آن واحد · ومع ذلك فانها ظلت برهة من الزمن وتركت حزنها يغادرها وهى تعلل نفسها بالرجاء الصالح · وكان بين من يرقصون فى هذه الحفلة الراقصة شاب نبيل ، يرقص أمام دوريجين · وكان هذا الشاب وسيما وبضا فى شبابه ؛ وأنيقا فى ردائه ، الى حد أنه فاق فى جماله شهر مايو نفسه على ما أظن · وكان يغنى ويرقص متفوقا على غيره من البشر ممن يوجد أو كان قد وجد فى الماضى منذ الأزل · ولذلك كان هذا الشاب (اذا أراد انسان أن يصفه) من أشد الشبان وسامة فى الحياة · وكان فتيا قويا ذا مروءة وجاه وحكمة وكان الكل يحبونه ويقدرونه خير تقدير · خلاصة القول (أنه اذا أتيح لى أن أقول الحق) فان هذا الشاب النبيل الوسيم المسمى أورليوس ، الذى كان خادما أمينا لالهة الحب فينـــوس (٧) ، أقول كان هذا الشاب مدلها بعشق دوريجين دون أن تدرى · وكان يحبها منذ سنتين أو أكثر ، وهذا ما كان مقدرا له ، ومع ذلك فانه لم يجرؤ على أن يكشف لها عن سر شكواه · وقد احتسى كل حزنه بغير كأس ولا مكيال · وكان يائسا للغاية ، ولم يجرؤ أن يعبر عما يختلج فى قلبه ، الا أنه كان من وقت لآخر يعبر فى أغانيه ويكشف عن حزنه ، ولكن على شكل شكوى عامة فكان ينشد قائلا انه يحب ولكن حبه لم يقابل بحب ونظم قصائد كثيرة فى هذا المعنى من أدوار وشكاوى وموشحات وترجيعات وكلها تعبر عن عدم استطاعته التعبير عن حزنه وبقائه طريحا فى يأسه وتشوقه كأنه أحد الجن (٨) فى عذاب الجحيم · وكان يقول أيضا انه لابد أن يموت مثلما ماتت ايكو (٩) ، من أجل نرجس ، لأنهـا لم تستطع أن تفضى بأساها ولم تجرؤ على ذلك · ولما يلجأ الى أية طريقة ، غير

تلك التى شرحتها لكم : ليكشف عن مدى أساه ولكن كان يحدث أحيانا مصادفة فى حفلات الرقص على سبيل المثال ، التى كان الشباب يقيمونهـا أن تبـدو معالم حزنه على وجهه ، وكأنه انسان يتوسل الى من تعطف ؛ وتشفق عليه ؛ ويطلب منها الرحمة • ومع ذلك لم تع هى شيئا مما جال فى ذهنه •

الا أنهما قبل أن يغادروا الحديقة وهو واقف مصادفة بجوارها ، حدث أنهما (لكونه رجلا شريفا وفاضلا) تجاذبا أطراف الحديث مصادفة ، اذ كانت تعرفه منذ زمن قديم • ورويدا رويدا كان أورليوس يدنو من غرضه فى الكلام• ولما رأى الوقت مناسبا قال ما يأتى :

« يا سيدتى أقسم بالله خالق هذه الدنيا أنه لو كان ذلك يروقك لأبحرت أنا أورليوس وراء البحار فى نفس اليوم الذى أبحر فيه زوجك آرفيراجوس كما كان بودى ألا أعود أبدا ثانية • اذ أنى أعرف حق المعرفة أن وفائى المخلص يذهب سدى ، ولا جزاء لى سوى تمزيق قلبى • أشفقى ياسيدتى على آلامى المضنية ان كلمة واحدة منك قد تقتلنى او تخلصنى • كم كنت أتمنى أن يشاء الله دفنى جثة هامدة هنا بين يديك • والآن لا يسعنى أن أقول أكثر من ذلك • يا أعز المخلوقات أشفقى على والا قتلتنى ! » •

فاتجهت أنظارها نحو أورليوس وقالت : « أهذا هو ما تبتغيه ، وما تعنيه بقولك ؟ انى لم أدر أبدا من قبل ما كنت تقصده وترمى اليه • ولكنى الآن يا أورليوس قد أدركت نيتك وأقسم بالله الذى وهبنى نفسا وحياة • ومع ذلك فانى طالما بقى لى ذهن وعقل ، لن أكون زوجة خائنة قولا أو فعلا ، فأنا مصممة أن أكون مخلصة لمن ارتبطت به • واعتبر هذا القول ردى النهائى لك » • ولكنها استطردت وقالت بشىء من المزاح :

« أقسم بالله فى الأعالى يا أورليوس أننى مستعدة أن أكون محبوبتك . لأننى أراك تشكو آلام الحب شكوى مرة مشجية • ففى ذلك اليوم الذى تستطيع فيه أن تزيل وتزيح من على ساحل بريتانيا بأسره ، كل الصخور صخرة صخرة حتى لا تعوق سير سفينة أو قارب ، أقول لك انك حينما تكون قد طهرت الساحل من كل صخوره بحيث لا يرى حجر واحد ، عندئذ سأحبك حبا يفوق حبى لأى رجل آخر وها هو ذا عهدى بما أقوله وتعهدى الصارم ، بقدر ما أستطيع أن أجعله كذلك » • فسألها : « الا يوجد طريق آخر للفوز بعطفك ؟ » فأجابت : « لا بحق الرب الذى خلقنى ، لأننى أعلم تماما أن ما أطلبه لن يتحقق • ولذلك أرى أن تترك مثل هذا اللون من الهذيان يهجر قلبك • أى لذة للرجل فى حياته أن يذهب ويحب زوجة غيره ، الذى يستطيع أن يفعل ما يشاء بجسدها متى شاء ؟ » فتنهد أورليوس مرارا ، لأنه كان حزينا أشد الحزن لما سمعه وأجابها بقلب ملىء بالحزن قائلا :

« ياسيدتى ، ان ما تطلبين مستحيل ! فلا مفر من أن أموت ميتة مفزعة فجأة » . وبعد أن أمسك عن الكلام حول نظره عنها . ومضى فى طريقه .

ثم حضر أصدقاؤها الآخرون معا وأخذوا يتريضون فى متنزهات الحديقة ، ولم يدركوا شيئا مما دار بين الاثنين ، وعما وصلا اليه من قرار ، بل أخذوا فى الحال يواصلون لهوهم من جديد حتى أصفر لون أشعة الشمس ايذانا بميلها للغروب لأن خط الافق قد سلب الشمس نورها ، وبعبارة أخرى كان الليل قد أرخى سدوله (١٠) وعندئذ عادوا الى ديارهم ببهجة وسرور . عادوا كلهم ما عدا أورليوس التعيس وحده ، ويح له ! فقد عاد الى بيته وقلبه ممتلىء حزنا . ورأى أنه لا يستطيع أن يفلت من الموت وبدأ قلبه فى صدره يبدو كما لو كان ينقلب باردا . وأخذ يرفع يديه الى السموات راكعا على ركبتيه العاريتين ويرفع صوته فى التضرع والصلاة فى حالة هذيان بينة . وكان حزنه سببا فى أنه فقد رشده تماما ولم يع ما كان يتكلم عنه ، ولكنه صاح على النحو الآتى ؛ وأخذ يطلق شكواه بقلب مثير للشفقة مناشـــدا الآلهة ، وبدأ بتوجيه تضرعه الى اله الشمس (١١) قائلا :

« يا أبولو ، يا اله الطبيعة ومدبر كل نبات وعشب وشجرة وزهرة ! يامن تهب ، تبعا لدرجة ارتفاعك ؛ كلا منها توقيتها وموسمها ، وذلك كلما تغير موقعك بين الأجرام السماوية علوا أو هبوطا ، ايهـــا الرب فيبوس (١٢) ألق نظرة رحمة الى أورليوس التعيس الهالك تماما . ياسيدى لقد حلفت مالكة قلبى أن تقضى على بغير ذنب جنيت فأرجو من طيبة قلبك أن تشفق على قلبى المتضرع . فانى أعرف يقينا ياسيدى فيبوس أنك تستطيع أن تمد الى يد المساعدة لو أردت ذلك فانت خير معين لى اذا استثنينا سيدة قلبى . اذن فاسمح لى أن أصف لك طريقة مساعدتى . فان أختك المباركة « لوسينا (١٣) » المتألقة ، ربة ربات البحار وملكتها (فحتى مع أن « نيبتونوس (١٤) » هو رب البحار فانها تفوقه فى السلطة وتعتبر امبراطورة عليه) وأنت تعرف حق المعرفة ياسيدى أنها مثلما تريد أن تتلقى الحياة والضوء من نارك ، الأمر الذى يجعلها تترسم خطاك بهمة ونشاط ، فكذلك تصبو البحار الى أن تتبعها بوصفها الهة البحار والأنهار كلها تقريبا ومن ثم أتقدم اليك يا فيبوس بطلبى هذا فأنت اذا لم تمن على بهذه المعجزة تمزق قلبى) ألا وهى أنه فى الوقت الذى يكون فيه القمر مواجها للشمس عندما تدخل برج الأسد عليها أن تثير طوفانا عظيما ، تغمر مياهه ، بخمس قامات على الأقل ، أعلى صخرة بساحل أرموريكا البريطانية . كما أرجو أن يدوم هذا الطوفان سنتين ، وعندئذ سيحق لى من غير لبس أن أقول لسيدة قلبى « أوفى بعهدك فان الصخور قد زالت » .

ياسيدى « فيبوس » حقق هذه المعجزة من أجلى . وتوسل اليها ألا تكون فى سيرها أسرع منك . أقول ثانية توسل الى أختك ألا تسرع فى سيرها أكثر

منك لمدة هاتين السنتين . وعندئذ ستكون ربة القمر بدرا دون انقطاع ويستمر الفيضان الربيعي ليلا ونهارا . واذا ما قبلت أن تفعل ما أرجوه حتى أستطيع الحصول على سيدة قلبى العزيزة فتوسل اليها أن تفرق كل صخرة من هذه الصخور فى أعماق ديارها المعتمة تحت الأرض ، حيث يعيش « بلولو » (١٦) والا فانى لن أستطيع أبدا أن أفوز بمالكة قلبى . فعلت وذلك ما أرجوه لحججت الى معبدك فى « ديلفوس » (١٧) حافى القدمين .

ياسيدى « فيبوس » انظر الى الدموع على وجنتى وارحم آلامى بعض الرحمة » . وما ان انتهى من كلامه هذا حتى انطرح على الأرض مغمى عليه ، وظل على هذا النحو مدة طويلة فى حالة غيبوبة كاملة .

أما أخوه الذى كان عالما بشقائه حق العلم فقد حمله ، وأتى به الى فراشه . فدعونى أترك هنا ذلك المخلوق التعيس ، الذى مزقته آلام اليأس والأفكار المكتئبة . وفيما يتعلق بى فانى أقول : له مطلق الحرية فى أن يقرر بقاءه على قيد الحياة أو فناءه فلا يرى بين الأحياء .

أما « أرفيراجوس » فقد عاد الى وطنه بعد أن ظفر بمجد عظيم وشهرة واسعة بوصفه زهرة الفروسية جميعها وكان بعض الرجال الأفاضل فى صحبته . فما أسمى سعادتك الآن يا « دوريجين ! » فبين ذراعيك زوجك الوسيم ، ذلك الفارس المقدام والمقاتل الباسل ، الذى يحبك حبه لحياة قلبه . ولا شىء فى الدنيا يثير شكه بأن أحدا من الرجال كان قد حادثها فى موضوع الحب ، بل انه لم يخالجه أدنى ريب فى أن ذلك لم يحدث . ولم يهتم بأى شىء سوى أن يرقص ، ويشترك فى المبارزات ، ويسليها خير تسلية . وهكذا أتركهما سعيدين مبتهجين ،وأنتقل الى الكلام ثانية عن أورليوس التعيس . بقى أورليوس التعيس أطول من سنتين يعانى آلام الأسى والعذاب قبل أن يستطيع وضع قدمه على أديم الأرض . ولم يجد فى تلك الآونة أية سلوى لنفسه الا من أخيه الذى كان عالما من العلماء . كما كان يعلم بكل أساه وبكل شقائه فلا شك أنه لم يستطع أن ينفصح عما يدور فى نفسه الى أى مخلوق آخر . فكتم سره فى صدره كتمانا أحكم من ذلك الذى كتمه « بامفيلوس » من أجل « جالاتيا » (١٨) وكان صدره لا يظهر جروح الحب من الخارج لأن السهم الحاد كان دفين سريرة قلبه . وأنتم تعلمون فى فنون الجراحة حق العلم أن الجرح الذى لا يلتئم الا من الخارج عسير الشفاء ما لم يعثر الفاحص على السهم أو يلمسه ، أثناء فحصه . وكان أخوه يبكى وينتحب سرا ، حتى تذكر آخر الأمر أنه بينما كان طالب علم فى شبابه بمدينة « أورليان » فى فرنسا (١٩) ، شغوفا بأن يدرس العلوم السرية ، كان يبحث فى كل الخفايا عن علوم خاصة يدرسها ، أقول بينما كان هناك حدث ذات يوم وهو فى أورليان أنه كان منهمكا فى دراسة كتاب عن السحر الحلال . كان أحد زملائه (وهو طالب متقدم فى كلية الحقوق) قد تركه مصادفة

على مكتبه ، والواقع أنه كان المفروض أن يوجه اهتمامه الى نوع آخر من العلم . وكان ذلك الكتاب يتعرض باسهاب للثمانية والعشرين وجها أو « منزلا » التى يمر بها القمر (٢٠) ولغير ذلك من الهراء ، الذى لا نقيم له وزنا فى أيامنا هذه ، فان عقيدة الكنيسة المقدسة فى ديننا لا تسمح بأضرار مثل هذه الأوهام . ومع ذلك فانه حينما تذكر هذا الكتاب ، أخذ قلبه يرقص فرحا ، وناجى نفسه قائلا: « سيشفى أخى بسرعة لأننى متأكد أن هناك علوما يستطيع بها الانسان أن يثير أشباحا مختلفه مماثله لتلك الحيل الدقيقة التى يقوم بها الحواة ، فاننى قد سمعت من قال ان الحواة كثيرا ما استطاعوا فى الولائم التى تقام بالأبهاء الواسعة أن يوجدوا مياها ، عليها قارب يجدفون به ذهابا وايابا فى البهو . وأحيانا يوجدون أسدا مخيفا ، وأحيانا زهورا كتلك التى تراها فى مرج ، وأحيانا كرما يحمل عنبا ، أبيض وأحمر ؛ وأحيانا برجا مبنيا بالحجر والجير ، واذا أرادوا بعد ذلك استطاعوا أن يجعلوا كل ذلك يختفى فى الحال . وهكذا كانت تبدو الحال بالنسبة لكل من شاهدوا ما قلته .

لذلك أظن أنى لو استطعت أن ألتقى بزميل قديم لى ممن حفظوا فى ذهنهم وجوه القمر ، التى ذكرتهـا ، أو من العالمين بنوع آخر من السـحر الحـلال ؛ لاستطاع أخى عندئذ أن يفوز بمن يحبها . اذ أننى أعلم أن العالم بهذه العلوم يستطيع أن يوهم الانسان بأن كل الصخور السوداء على ساحل بريتانيا تختفى فى الحال وأن السفن تستطيع أن ترسو على الشاطئ ، وتبحر منه ، كما أعلم أن مثل هذا الخداع يمكن أن يدوم أسبوعا أو أسبوعين وعندئذ يكون أخى قد شفى من آلامه ، وحينئذ لابد لها ن تفى بوعدها والا لحقها العار واللوم على أقل تقدير » . ولماذا اطيل فى سرد ما حدث ؟ فالخلاصة أنه جاء ووقف بجوار فراش أخيه ، ورفـع من روحه المعنوية ، لكى ينهض ويذهب الى «أورليان» ؛ فنهض بالفعل واخذ يسير الى تلك المدينة لكى يجد فيها ما يخفف من همه العميق .

وما كادا يكونان على بعد ربع ميل أو نصف ميل من تلك المدينة حتى التقيا بعالم شاب يتسكع وحده . فحياهما باللغة اللاتينية تحية غاية فى الأدب ثم قال لهما شيئا رائعا وهو ما يأتى : « أعرف لماذا جئتما هنا » وقبل أن يستطيعا التقدم قال لهما كل ما كان يدور فى ذهنهما من نوايا . فسأله العالم البريتانى عن أخبار زملائهم القدامى ، الذين عرفهم فيما مضى فأجابه العالم الآخر بأنهم على خير ما يرام فذرف تأثرا دموعا غزيرة .

وبعد قليل نزل أورليوس من على جواده ، ومضى يمشى مع هذا الساحر ، وذهب معه الى منزله ، حيث استمتع بالجلوس من غير كلفة . ولم يكن ينقصهما أى نوع من أنواع الطعام ؛ يحلو لهما . ولم يشهد أورليوس طوال حياته مثل هذا البيت فى تنسيقه وحسن اعداده . وقبل أن يصطحبه الى حجرة الطعام عرض عليه هذا الساحر منظر غابات ومتنزهات عامرة بالوعول البرية . فرأى

الظباء ذات القرون العالية وكانت من أضخم الظباء التى شهدتها العين . كما شاهد مائة منها يفترسها كلاب الصيد وبعضها تراق دماؤها من جروح أليمة أصابتها بها السهام . كما رأى أيضا ، بعد أن أمر الساحر الظباء بالاختفاء ، رأى البيازر (أى الصقارين) على ضفاف نهر جميل يقنصون الطائر مالك الحزين بصقورهم . ثم رأى جماعة من الفرسان يتبارزون على جيادهم فى سهل فسيح . وبعد ذلك أبهجه الساحر بأن عرض عليه شكل سيدة قلبه ، وهى ترقص ؛ وكان يبدو له أنه هو بدوره يراقصها . ولما ارتأى حاذق السحر هذا أن الأوان قد حان صفق بيديه ؛ ايذانا بالوداع ! فاختفى دفعة واحدة كل ما أبهج العين ومع ذلك لم يخرجوا من البيت وهم يشاهدون هذا المنظر العجيب ؛ بل ظلوا جالسين فى مكتبة الساحر حيث توجد مجموعة كتبه ومخطوطاته ، ولم ينتقلوا من مكانهم ؛ ولم يدخل عليهم أحد ، بل ظلوا كما هم ثلاثة أشخاص ، لا أزيد ولا أقل ثم دعا سيد السحر هذا غلامه قائلا له : « هل عشاؤنا معد ؟ انى أقسم أننى قد أمرتك منذ ساعة أن تعد لنا العشاء ، أى منذ أن صحبنى هذا الرجلان الفاضلان الى مكتبتى ، حيث توجد مجموعة كتبى ومخطوطاتى » . فأجابه الغلام قائلا : « ياسيدى متى شئت تجد العشاء كله معدا ، حتى لو أردت أن تتناوله الآن » . فقال الساحر : « خير لنا اذن أن نذهب للعشاء ، فالعشاق هؤلاء فى حاجة الى الراحة بعد قليل » .

وفى فترة ما بعد العشاء أخذوا يتساومون فى أمر المبلغ الذى يعطى للساحر مكافأة له ، حتى يزيح كل الصخور من على ساحل بريتانيا ؛ بل من مصب نهر الجيروند ؛ حتى مصب نهر السين . فتمنع كثيرا وأقسم بخلاصة أنه لن يقبل أقل من ألف جنيه ، وأنه حتى بذلك المقدار لا يشـــعر تماما بالرضى . فأجابه أورليوس بعد قليل بقلب مفعم بالسرور قائلا : « ياللخزى على ألف جنيه ! اننى لو كنت مالكا لهذا العالم الواسع ، الذى يصفه الناس بأنه مستدير ، لأعطيته كله (للساحر) عن طيب خاطر فهذه الصفقة معقودة ونحن متعاهدون وملتزمون، وأقسم بشرفى أنك ستتلقى أجرك الى آخر فلس ، ولكن تنبه ولا تهمل ولا تكسل، ولا يبقينا هنا أكثر من اليوم والغد » .

فقال العالم الساحر : «لا ياسيدى فلك تعهدى ووعدى » وذهب أورليوس الى فراشه ، عندما أراد ؛ ونام نوما عميقا طوال الليل . ونتيجة لتعبه ولأمله فى السعادة زال التوتر من قلبه ، وخفت حدة آلامه .

(*) البايزار : حامل البازى فى الصيد ، وجمعه بيازر .
البزدرة : حرفة البيزار أو البازيان (مولد) وكذلك البيزرة .
وفى الفارسية اباز ، وبازى من معانيها صقر وبار : ومن معانيها رفيق ، وبازيار صياد ، فاصل المادة اللغوية العربية على ما يبدو فارسى

وفى اليوم التالى ، لما انبلج النهار ، أخذ الأخوان والساحر يذهبون الى بريتانيا وبلغوا المكان الذى كانوا يقصدون الاقامة به · وحدث ذلك ، كما تذكرنى هذه الكتب ، أثناء الفصل البارد وفى الصقيع فى شهر ديسمبر · وشاخ فيبوس اله الشمس وتلون بلون النحاس الا أنه لما كان فى عنفوه الحار (أى فى الظهر) ، كان ساطعا وكان يرسل أشعته المتألقة مثل الذهب المصقول · ولكنه الآن قد نزل الى برج الجدى ، حيث كان اشعاعه باهتا كما أقول لكم · وكان الصقيع المر والرذاذ والأمطار قد أتت على الخضرة فى كل حديقة · وكان الاله « يانوس » يجلس بجوار لهب المدفأة · ولحيته مقسومة الى قسمين ، وكان يحتسى النبيذ من كأسه المصنوع من قرن الثور البرى · وأمامه على المائدة طبق من لحم الخنزير البرى ذى الأنياب · وكان كل رجل من الندماء يصيح قائلا : «نويل» (عاش عيد الميلاد) أما أورليوس فكان يبجل سيد السحر هذا خير تبجيل · ويرفع له فروض الطاعة والولاء ، ويتوسل اليه لكى يفعل أقصى ما يستطيع ؛ ليخفف عنه آلامه المضنية ، والافانه سوف ينتحر بدق سيف فى قلبه · أما هذا العالم الجهبذ فقد أشفق على هذا الرجل الى حد أنه بذل كل ما فى وسعه ليلا ونهارا لينتهز الفرصة المناسبة للقيام بتجربته ، ومعنى ذلك أنه كان يعد الخداع بالسحر والايهام (علما بأننى أجهل مصطلحات علوم التنجيم) · حتى تخال هى وكل شخص حولها أن الصخور قد زالت من سواحل بريتانيا ، أو أنها قد غطست فى أعماق الأرض · · وفى آخر الأمر وجد الفرصة السانحة ليعد حيلته وعمله اللعين الجهنمى ، الذى لا يضارعه فى جهنميته شىء · فأحضر جداوله الفلكية الطليطلية (٢١) بعد أن عدلها ، لكى تتناسب مع المنطقـــة ، التى كان فيها ، ولم ينقصه شىء فى اقامة تقويماته ؛ فكان لديه جدول للحساب الطويل الأجل ، كما كان لديه جدول لحساب المدد القصيرة ، حتى يستطيع منهما أن يحسب موقع الكوكب بدقة ، أى أن يتعرف على مراكز الدوائر ، التى تدور فيها الكواكب وزواياها المتغيرة والجداول الحسابية التى تعينه على تحديد مواقع الكوكب فى فصل ما من فصول السنة ، والتغيرات المختلفة الناتجة عن تحرك الكواكب فى مدارها · واستطاع بعد ذلك أن يحسب حركة النجوم الثابتة فى المدار الثامن (٢٢) للكون ، حتى استنتج مدى انحراف « النطح » عن رأس الحمل ؛ الذى يعتبر جزءا من المدار التاسع · واستطاع بالفعل أن يحسب كل ذلك حسابا بالغ الدقة ·

ولما تعرف على الوجه الأول للقمر استطاع أن يستخلص النتائج الباقية بالحساب النسبى حتى انه أدرك بالضبط موعد صعود القمر وأوجهه السوية وغير السوية المتعلقة بالبروج فى السماء ، كما استطاع أن يتعرف على وجه القمر المعين ، الذى كشفته أعماله الفلكية · وبالاضافة الى ذلك كان ملمـا بالحركات التقليدية المطلوبة لاظهار أشياء مثل أنواع الخداع المطلوبة والعملات اللينة ، التى كان الوثنيون الكفار يأتون بها فى تلك الآونة · ولذلك لم يضع

الوقت بل استطاع بما قام به من سحر أن يوهم الناس لمدة أسبوع أو أسبوعين أن الصخور كلها قد اختفت ·

أما أورليوس ، الذى كان لايزال يائسا للغاية من أن يعود ظافرا بحبيبته خشية أن يخونه الحظ ، فانه كان ينتظر هذه المعجزة ليل نهار ، ولما تأكد ألا شىء يعترض طريقه فى تحقيق أمله هذا وأن الصخور قد اختفت كلها ، سجد بين يدى الساحر الخبير ، وصاح قائلا : « أنا أورليوس التعيس الحزين أشكرك ياسيدى كما أشكرك أنت أيضا ياسيدتى فينوس ، يا من مددتما لى يد المساعدة فى وقت همومى القارسة وعندئذ ذهب الى المعبد حيث كان يعلم أنه سيرى مالكة قلبه · ولما رأى أن الموقف كان مناسبا تقدم نحوها بقلب خاشع وبوداعة متناهية محييا عزيزته مالكة قلبه · فقال هذا الرجل الحزين :

« ياسيدتى الحقة يا من أخشاها وأعشقها أكثر مما أخشى أو أحب احدا آخر يامن أنت آخر من أفكر فى اغضابها ، فانى تعلقت بك بحب حزين ، يدفعنى الى أن أستعذب الموت بين يديك · لا أستطيع أن أعبر عن مدى شجنى ، فليس أمامى خيار سوى أن أهلك أو أن أبوح بعشقى ، وانك دون ان تجنى اى ذنب ، تقتلينني لشدة الألم الذى ترمينني به · ومع ذلك فانى أعلم أنك لن تشفقى على اذا هلكت ، ولكن تنبهى وتروى قبل أن تخلفى عهدك لى · وليكن الندم ماثلا فى قلبك ، من أجل ذلك الاله الذى يقيم فى الأعالى ، قبل أن تقتليننى ، لأننى أحبك حبا جما · ولا يغيب عن ذهنك ياسيدتى أنك قد وعدت بأمر ما (ومع ذلك فلا أريد أن أطالبك بحق ما يا مالكة قلبى ، اللهم الا عطفك على) فانك تعرفين حق المعرفة ما أخذت على نفسك به من عهد فى تلك الحديقة · اذ أعطيتنى يدك عهدا بأنه ستحبيننى أكثر من غيرى من الرجال ، والله يعلم ياسيدتى أنك قلت ذلك؛ وان كنت غير جدير بك ، وانى أقول ما أقوله حفاظا على شرفك أولا أكثر مما يكون ذلك انقاذا لحياة قلبى · فى هذا الوقت · لقد أنجزت ما أمرتنى به ؛ واذا كان ذلك يروقك ؛ فلتذهبى وتشـــهدى بنفسك · وعلى العمـــوم افعلى ما تشائين · وتذكرى وعدك ، أما أنا فستجديننى مخلصا لك حيا أو ميتا · وأنت تملكين القدرة على أن أحيا او أن أموت وعلى كل حال فان الصخور قد اختفت وأنا أعلم ذلك جيدا » ·

ثم انصرف بعد استئذانها ، وظلت هى فى مكانها مأخوذة · وشحب وجهها ولم يبق فيه قطرة دم ، لأنها لم تكن تنتظر أبدا أن تقع فى مثل هذا الفخ · وصاحت قائلة : « ويحى واحسرتاه ! بئس ما أنا فيه الآن ! انى لم أكن أنتظر أبدا أن فى الامكان أن تحدث مثل هذه الخوارق العجيبة · فان ذلك يتنافى تنافيا تاما مع مسالك الطبيعة » · ثم عادت الى منزلها وهى شد ما تكون أسى ودهشة ، وكاد الخوف والفزع يعرقلان سيرها · وبكت وندبت حظها طوال يوم أو يومين ،

وكم من مرة أغمى عليها اغماء تألم له من شهدها فى هذه الحالة ومع ذلك لم تبح بسرها لأن زوجها أفيراجوس كان فى ذلك الوقت قد سافر خارج المدينه ولكنها ناجت نفسها ووجهها شاحب ينم عن حزن عميق وشكت شكوى مريرة (٢٣) قائلة : « يا ويحى ! أشكو لك ياربة الحظ يا من قيدتنى بأغلالك دون وعى منى ، وانى لا أعرف كيف أفلت من قيدى هذا ؛ وليس أمامى الا أن أموت ؛ أو أدنس شرفى . وعلى الآن أن أختار أحدهما . ومع كل فانى أوثر أن أفقد شرفى كله ، وانى لأعلم حق العلم أننى أستطيع أن أفى بالتزاماتى لو مت . ألم أكن أكثر من زوجة شريفة فى الماضى وأكثر من عذراء قتلت نفسها حتى لا تصبح آثمة بجسدها . ياويحى ؟ أجل فان هذه القصص والحكايات تشهد بذلك ، فبينما قتل ثلاثون ظالما قاهرا لعينا «فايدون» (٢٤) فى وليمة بأثينا أمروا بعد ذلك بأن يقبض على بناته ، وبأن يمثلن بين أيديهم على الرغم منهن عاريات حتى يشبعوا شهواتهم الدنيئة ، كما أمروا بأن يرقصن وسط دماء أبيهن لعنة الله عليهم ! وعندئذ رفضت هؤلاء العذارى الخاشعات التعيسات أن يهتك عرضهن على هذا النحو فذهبن سرا الى بئر فالقين بأنفسهن فيها وانتحرن غريقات كما تقص علينا الكتب فى هذا الأمر . وان رجال ميسينى حاولوا كثيرا أن يقوموا بحملات للبحث والتقصى عن خمسين فتاة عذراء من بلاد سبارطا بغية اشباع شهواتهم الفاسقة معهن . ومع ذلك لم تبق واحدة من هذه الجماعة على قيد الحياة تمشيا مع رغبتهن الفاضلة فى أن يؤثرون الموت على قبول هتك عرضهن . واذن ما الداعى للخوف من أن أموت أنا بدورى ؟ ان هناك حكاية أخرى هى حكاية « أرستوكليدس » (٢٥) الحاكم الظالم الذى أحب فتاة تدعى «ستيمفاليدس» بعد أن كان أبوها قد قتل فى ليلة من الليالى . فهربت هروبا الى معبد الالهه ديانا (الهة العفة) وتشبثت بتمثال الالهة بيديها الاثنتين ، ولم تترك التمثال بأى حال من الأحوال . فلم يستطع أحد من الرجال أن ينتزع يديها من التمثال الى أن قتلت وهى باقية فى مكانها ، وعلى ذلك فما دامت الفتيات كارهات الى مثل هذا الحد لأن يدنسن ، اشباعا لشهوة الرجل القذرة فانه خير للزوجة أن تقتل نفسها بيدها من أن تدنس تدنيسا وهذا رأيى . وماذا أقول عن زوجة «هازدروبال » (٢٦) التى أنهت حياتها بنفسها فى قرطاجة ؟ وعندما رأت أن الرومان قد فتحوا المدينة جمعت أولادها من حولها ، وقفزت فى النار ؛ مختارة أن تموت بدلا من أن تتعرض لأى اهانة من جندى رومانى ما . وا أسفاه! ألم تكن لوكزيتيا * (٢٧) قد قتلت نفسها فى روما عندما كان تاركونيوس يظلمها ظلما اذ أنها اعتقدت أن الاستمرار فى الحياة بعد فقدان الشرف ليس الا عارا ؟ وهناك أيضا حكاية فتيات ميليتوس (٢٨) السبع ، اللائى قتلن أنفسهن من الأسى والفزع ؛ حتى لا يدنسهن أحد من الغال . وانى أعتقد أننى أستطيع الآن أن أقص أكثر من ألف قصة فى هذا الشأن . فلما قتل « براداتى » (٢٩) انتحرت وأراقت دماءها وهى تحضر فى جروح « ابراداتى »

العميقة الواسعة قائلة بأنفاسها الأخيرة : « جسمى على الأقل لن يدنسه أحد ما دمت أستطيع أن أمنع ذلك » ٠

وهل من أمثلة أخرى أقصها وكلها تحكى أن الكثير من النساء قد انتحرن بدلا من أن يستسلمن للدنس والعار ؟ ولذلك أرى أنه خير لى أن انتحر من أن أدنس نفسى ٠ وسأكون بذلك وفية مخلصة لأرفيراجوس ٠ وأستطيع أن أقتل نفسى على نحو ما فعلت بنت « ويموتيون » (٣٠) العزيزة ، لأنها لم ترض أن يهتك عرضها غضبا ٠ أما أنت يا « سكيداسوس » (٣١) فان من الباعث على الأسى حقا أن نقرأ كيف ماتت بناتك ، ياويحهن ! لقد انتحرن على نفس النحو بل كان من أشد الخسارة كيف قتلت الفتاة الطيبة نفسها من أجل « نيخانور » (٣٢) ولنفس السبب المثير للشفقة ٠ وهناك عذراء أخرى من طيبة فعلت نفس الشىء لأن رجلا من مقدونيا ظلمته نفس الظلم ، فاستطاعت أن تثأر لبكارتها بأن قدمت حياتها فدية ٠ وماذا أقول عن زوجة نيكيراتوس (٣٣) ، التى أنهت بنفسها حياتها لنفس السبب ٠ وكم كانت عشيقة الكبياديس (٣٤) وفية له لأنها آثرت أن تموت بدلا من أن تترك جثته من غير أن تقام لها طقوس الدفن ٠ وما أعظم الكستيس (٣٥) كزوجة ! وماذا يقول هوميروس عن بنيلوبى (٣٦) الطيبة ؟ فكل بلاد اليونان تعرف قصة عفتها ٠ وأقسم بالله أنه كتب فى سيرة لاوادميا (٣٧) أنه لما قتل بروثيسيلاوس فى طروادة أبت أن تعيش بعده يوما واحدا ٠ وأستطيع أن أقص نفس الشىء عن بورشيا (٣٨) النبيلة ، التى لم تستطع أن تتحمل الحياة بدون بروتوس ، الذى أحبته بكل جوارحها ٠ وان مثال الزوجة الكاملة التى تمثلها أرتيميزيا (٣٩) مثال مبجل فى كل أنحاء بلاد البربر ٠ وأنت يا تيوتا أيتها الملكة ان عفتك الزوجية مرآة ، تتأمل فيها كل الزوجات ٠ وأقول نفس الشىء عن بيليا (٤٠) ورودوجون وفاليريا بالمثل » ٠

وعلى هذا النحو دامت شكوى دوريجين يوما و يومين ، وكانت نيتها دائما أن تموت ٠ ومع ذلك ففى الليلة الثالثة عاد أرفيراجوس الى دياره ، عاد ذلك الفارس الباسل وسألها لماذا تبكى بمثل هذه الدموع الأليمة ٠ وما كادت تسمع سؤاله حتى انفجرت باكية من جديد قائلة : « ياويلى ! ليتنى لم أولد ! هذا ما أقوله ، وهذا ما كنت قد أقسمته ! » وعندئذ رددت له كل ما سمعتموه من قبل ، ولا داعى لأن أعيد الكرة مرة أخرى ٠ أما هذا الزوج فكان وجهه ينم عن السكينة والرضى وأجابها اجابة كلها ود على النحو الذى سأرويه ٠ فسأل : « يا دوريجين هل هناك شىء آخر غير ذلك ؟ فأجابت : « لا ، لا ؛ والله شاهد على ما أقول ٠ وهذا أكثر مما يحتمل ، اذا كان ذلك ما يريد الله » فقال بدوره : « يازوجتى اتركى الأمور كما وهى فقد تنتهى الأمور بخير ، ومع ذلك فانك اليوم ؛ وايمانى؛ ستنفذين وعدك لأننى واثق من أن الله سيرحمنى ولو أننى كنت أفضل أن

اطعن طعنا من أجل الحب المخلص الذى أكنه لك ، الا أننى أصبر على ان تفى وعدك وأن تحترمى التزامك لأن الوفاء بالوعد هو أسمى ارتباط يجب أن يحافظ عليه الانسان » . ولما قال ذلك انفجر باكيا ثم قال : « انى أنهاك نهيا قاطعا قسما بحياتك أن تفشى سرك هذا الى أى واحد من البشر ، طالما كان فيك عرق ينبض بالحياة . أما أنا فسأحتمل حزنى ، بقدر ما أستطيع ، بل أنهاك عن ان تظهرى « أية ملامح تنم عن التعبير عن الحزن ، حتى لا يدرك أحد ما أصابك من سوء » وصاح بعد ذلك آمرا غلامه ووصيفه بالحضور وقال لهما : « اذهبا الآن واصطحبا دوريجين الى المكان الذى أعينه لكما فيما بعد » وعندئذ استأذنا وانصرفا ولكنهما لم يعرفا لماذا كانت ذاهبة الى حيث كانت ذاهبة اذ أنه أبى أن يفصح عن نيته لأحد من الناس . وقد يظن بعضكم — وأنا أعرف ذلك — أنه رجل غبى لأنه عرض زوجته لمثل هذه المخاطر . ولكن أرجو أن تنصتوا الى الحكاية قبل أن تشجبوها . فان حظها قد يكون خيرا مما تظنونه ، وسيبدو ذلك لكم بعد أن تكونوا قد سمعتم القصة كاملة .

أما هذا الفتى المسمى أورليوس ، الذى هام هياما بدوريجين ؛ فقد التقى بها مصادفة فى أكثر الشوارع ازدحاما عندما كانت تستعد للذهاب مباشرة الى الحديقة ، كما كانت قد وعدته بذلك . وكان هو أيضا فى طريقه الى الحديقة وكان يرقبها بدقة كلما خرجت من بيتها ، لتذهب لأى مكان . ومع ذلك فقد التقيا مصادفة أو قدرا ؛ وحياها تحية التوقع السعيد ، وسألها أين كانت ذاهبة . فردت عليه كأنها نصف مجنونة قائلة : « الى الحديقة كما أمرنى بذلك زوجى ، لكى أوفى بوعدى ويحى ؛ ويحى ! » .

وأخذ أورليوس يتعجب من هذا الأمر الغريب ، وبدأ يشعر فى أعماق قلبه بشفقة وعطف عليها وعلى ندبها ، كما تأثر لموقف أرفيراجوس ؛ ذلك الفارس الباسل الذى أمر زوجته باحترام كل ما تعهدت به لشدة كرهه لأن تخون كلمة الشرف . وكان قلبه وقتئذ يمتلىء شفقة وتأمل تأملا جادا ، فيما هو خير لكل الأطراف ، وأدرك أنه خير له أن يمتنع عن اشباع شهوته ، من أن يرتكب مثل هذا الهتك الدنىء الذى يتنافى مع المروءة ومع كل نواميس الفتوة والفروسية . ومن ثم تكلم قائلا ما يأتى : « ياسيدتى أخبرى سيدك أفيراجوس أننى منذ أن شاهدت كرم أخلاقه نحوك (وانا أدرك تماما مدى أساك الحزين) ورأيته يفضل أن يتقبل العار (وما أقسى هذا العار !) من أن تخونى عهدك ، منذ ذلك الحين أقول اننى أوثر أن أشقى الى الأبد من أن أفصل بينكما فى حبكما . ولذلك ياسيدتى أعيد اليك وبين يديك كل عهد وكل اتفاق بيننا ، كأنك قد وفيت به ؛ ولا التزام عليك نحوى منذ أن ولدت حتى وقتنا هذا . وأنا بدورى أعاهدك على أننى لن الومك على أى وعد تكونين قد أخذته على نفسك ، وبهذه المناسبة دعينى أستأذن وأنصرف من المثول أمام خير وأخلص الزوجات اللائى عرفتهن

طوال حياتى . ومع ذلك فارجو أن تحترس كل زوجة من العهود التى تأخذها على نفسها ! ولا تنسوا أبدا حكاية دوريجين ، بل اتخذوا منها عبرة على الأقل . واعرفوا أن الفتى الذى لم يصل الى مرتبة الفارس يستطيع أن يقوم بمآثر كريمة قيام الفارس تماما بلا شك » . فشكرته شكرا عميقا وهى جاثية أمامه على ركبتيها العاريتين ثم عادت الى زوجها فى البيت وقصت عليه كل ما دار على النحو الذى رويته لكم . وتأكدوا أنه سر حقا سرورا الى حد أننى لا أستطيع وصف ذلك . وما لى استمر فى روايه هذه القصه ؟ .

ان أرفيراجوس ودوريجين زوجته عاشا حياتهما فى سعادة تامة . ولم ينشب الغضب بينهما مرة واحدة . وأحبها كأنها ملكة وظلت هى مخلصة له حتى النهاية . لذلك لن أتكلم عن هذين الشخصين ثانية .

أما أورليوس الذى كان قد صرف كل ما لديه من مال فانه لعن تلك الساعة التى ولد فيها قائلا : « ويحى ، ويحى ؛ ليتنى ما كنت وعدت ذلك العالم الساحر بألف جنيه من الذهب الخالص ! وماذا أفعل الآن ؟ كل ما أراه أمامى ومن حولى أننى خسرت خسـارة باهظة وعلى الآن أن أبيع كل ما ورثته من مال وأصـبح متسولا . فلن أستطيع بعد اليوم أن أمكث هنا جالبا العار والكراهية لكل من حولى من أهل وأصدقاء . وهذا ما لابد ن يحدث الا اذا استطعت أن أحصل من الساحر على مزيد من الشفقة . ومع ذلك سأحاول أن أدفع له ما على فى آجال محددة سنة اثر سنة ، وأن أشكره على تكرمه الكبير نحوى . فانى سأحفظ كلمتى ولن أكذب » وذهب الى خزينته بقلب متألم ؛ وأحضر الى العالم من الذهب ما قيمته خمسمائة جنيه على ما أظن ، كما أنه توسل اليه أن يتفضل بكرمه ويمهله فى دفع ما تبقى عليه من دين . وقال للعالم : « ياسيدى أستطيع أن أدعى حقا بأننى حتى يومنا هذا لم أخلف وعدى بالدفع أبدا . ولا شك أن دينى نحوك سيستوفى بالكامل مهما كان أمرى ، وحتى لو استدعى الأمر أن أتسول شحاذا مرتديا جلبابا مهلهلا ومع ذلك فاذا سمحتم أن تقبلوا ضمانا منى بأن يؤجل التزامى سنتين أو ثلاث سنوات كان أمرى على خير ما يرام . والا اضطررت الى بيع ميراثى كله . ولا يبقى شىء يقال بعد ذلك » .

فأجابه العالم اجابة جادة ، بعد أن سمع ما قيل له ؛ وقال : « ألم أوف بوعدى نحوك ؟ » . فرد عليه الغنى وقال : « نعم خير وفاء بلا شك ! » . فسأله العالم : « ألم تفز بالسيدة على النحو الذى كنت تبغيه ؟ » فرد الشاب : «لا لا » ثم تنهد حزنا . فسأله العالم : « لماذا ؟ قل لى اذا استطعت الى ذلك سبيلا » . فبدأ أورليوس يروى قصته وقال له كل ما سمعتموه من قبل ، ولا داعى لاعادة الحكاية ثانية هنا . وقال : « ان أرفيراجوس ، لسـمو خلقه وكرمه ؛ آثر أن يموت حزنا وأسى من أن تخون زوجته وعدا ارتبطت به » . فقص عليه أيضا شقاء دوريجين وحزنها وكم كان شاقا عليها أن تصبح زوجة خائنة وأنه كان

أحب اليها فى ذلك اليوم أن تموت ، وأن العهد الذى كانت قد أخذته على نفسها لم تأخذه الا براءة وعلى غير وعى منها ؛ اذ أنها لم تسمع قط بالأشباح والمناظر الخداعة . واستطرد قائلا : « ذلك الأمر جعلنى أشفق عليها شفقة ، جعلتنى ارسلها له ثانية بنفس الكرم وسمو الأخلاق اللذين دفعاه هو الى أن يرسلها لى أولا . وهذه هى القصة بأكملها ولا يبقى شىء يقص بعد ذلك » . فأجابه العالم قائلا : « ياأخى العزيز ان كلا منكما تصرف مع الآخر تصرف الفارس الكريم ، فأنت فتى لم ترق بعد الى مرتبة الفارس ؛ وهو فارس ؛ ولكن لا سمح الله بما لديه من قدرة وسلطان أن ينهى عالما فقيرا من أن يأتى بمثل هذه المآثر السامية على نفس النحو الذى قام به كل منكما ، ولا شك فى ذلك . ومن ثم ياسيدى أعفيك من دينك بالألف جنيه ، كأنك قد ظهرت على أديم الأرض منذ قليل : أو كأنك لم تلتقى بى أبدا . وقد قررت يا سيدى ألا آخذ منك فلسا واحدا أجرا على كل مهارتى فى السحر ، ولا على ما بذلته من عمل فى سبيلك . وانك قد دفعت لى ما يكفينى لقوتى وهذا يكفى فالوداع اذن وطاب يومك ! » وعندئذ أخذ جواده وانطلق فى طريقه .

أيها السادة الكرام اسمحوا لى اذن أن أوجه لكم السؤال الآتى : من فى رأيكم من كل هؤلاء كان أكثر كرماوسموا فى الأخلاق ؟ أجيبونى قبل أن تمضوا فى طريقكم . أما أنا فلا قدرة لى على الكلام أكثر من ذلك . فان قصتى قد انتهت .

هوامش حكاية الملك

(١) لم يتفق العلماء على تعيين مصدر معين لهذه الحكاية ، ولكن هناك شبه اجماع على أنها ليست مأخوذة من أغنية من بريتانيا ، كما يدعى ذلك المالك فى مقدمته لقصته • وهناك تشابه واضح بين هذه الحكاية وحكاية شبيهة فى مجموعة قصص « عشرة الأيام » (١٣٤٩ ــ ١٣٥٣ م تقريبا (Decamerone) لبوكاتشيوا حيث نجد قصة مشابهة فى القصة الخامسة من اليوم العاشر • ولكن المصدر الذى يمكن اعتباره أقرب بكثير هو ما جاء فى رواية بوكاتشيو النثرية المسماة « فيلوكولو » (Filocolo) أو « عاشق العشق » (١٣٣٦ ــ ١٣٣٨ م تقريبا) فى الفصل الرابع من الجزء الرابع • ومع ذلك فهناك احتمال بسيط أن تكون القصة من أصل بريتانى أو سلتى عامة ، وان كان الموضوع الدال العام أقدم بكثير من أى مصدر معروف • فحكاية موضوعها فتاة تعطى وعدا متسرعا ثم تندم عليه منتشرة فى كل القصص الشعبية العالمية ، وخاصة فى الشرق ، واذا نظرنا الى القصص الشعبى الغربى وجدناها فى قصص الملك آرثر وغيرها من القصص السلتية •

أما العبرة العامة لحكاية المالك فهى متعلقة بموضوع كان قريبا لأذهان جمهور أرستقراطى ، ألا وهو معانى فكرة الكرم وسمو الأخلاق ، فى اطار مبادىء الحب الرفيع (amour courtois) (الشديد الشبه بالحب العذرى عند العرب ــ انظر المقدمة) • ففكرة هذا الكرم الخلقى (gentilesse) تظهر فى التنافس الأخلاقى بين الزوج والعاشق كما تظهر أيضا فى شعور الزوجة بالالتزام ، وضرورة الوفاء بالعهد • ولعل فرض تشوسر فى اعطاء المالك اهتماما خاصا بالكرم الخلقى فى قصته يرجع الى غرض ساخر رقيق فى تسلسل الحكايات • فبعد أن انتهى ابن الفارس من حكايته ــ أو بالأصح بعد أن قاطعة المالك ، قبل أن ينتهى منها ــ يريد المالك (وهو من أصل غير أرستقراطى وان كان حرا وخارج النظام الاقطاعى) أن يبين أنه أيضا على صلة بتلك المجموعة من القيم الأرستقراطية ، التى تكلم عنها ابن الفارس ، وأنه لا يقل عنه ادراكا لدقائق النظام الفكرى والخلقى ، الذى كانت تتميز به الفروسية فى ذلك العهد بل انه هو نفسه أهل لها لو أن الفرصة قد أعطيت له فى الصعود على السلم الاجتماعى • كما أنه يريد أن يعطى مضمونا خلقيا بحتا لمبدأ الكرم ، وينتزعه من سياق طبقى بحت ويظهر هذا الشعور عند المالك عندما يتحسر على طيش ابنه ، وعلى عدم اهتمامه بآداب السلوك الرفيع وميوله للهو السوقى كما يظهر أيضا فى اهتمام المالك بالموضوعات الثلاثة ، التى تكون لب قصته من الناحية الدلالية العامة ألا وهى فكرة الوفاء للوعد وفكرة امتزاج التزام الزواج بالحب الرفيع وارتباط هاتين الفكرتين بكرم الأخلاق • فالمعروف وقتئذ أن الزواج كان مجرد تعاقد بين أسرتين لا تتمع فيه الزوجة بحق الاختيار ، ولا بالسيادة على النفس والمال ، بعكس العلاقة الخيالية بين السيدة وعاشقها (الوهمى أو والافتراضى عادة) فى التقاليد الشعرية بالعصور الوسطى ، حيث كانت السيدة هى صاحبة القرار والسلطة المطلقة ، تعطف على العاشق اذا أرادت • أما الزوجان فى حكاية المالك فيعيشان حسب قواعد الحب الرفيع ، التى تعطى كل السيادة للمرأة ، ولو أن ظاهر زواجهما يتمشى مع مفاهيم العصور الوسطى فى ذلك الشأن • وهذه الحرية والسيادة للمرأة تتعلقان ،

بلا شك ، برؤية أرستقراطية للحب ، كما هى الحال فى الحب الرفيع • والمنافسة الشريفة الخطرة بين الزوج العاشق والعاشق الدخيل دليل على تقديسها لمثل عليا ، هى من صميم كرم الأخلاق فى نظر الفروسية • وكون المالك ، الذى لا ينتمى الى نظام الفروسية ، يتكلم فى مثل هـذه الدقائق ، دليل على أنه يريد أن يخرج مفهوم الكرم من نطاقه الضيق ، وأن يعطيه صفة عامة يستطيع كل انسان أن يسعى اليها ، حتى لو كان مثاله غير فارس بل أغلب الظن أنه حديث النعمة •

★ **الفروسية عند العرب :**

الفرسان طبقة من المحاربين المزودين بالسلاح ، والمعتمدين على الخيل • ولقد صاغت الفرس الحياة الاجتماعية فى ربوع الجزيرة العربية دهرا طويلا • وكانت الفرس تعتبر مقياسا للوجاهة بين الجماعات البـدوية والحضرية على السـواء • وبلغ من أهمية الفرس عند العرب أن ذخرت اللغة العربية بالألفاظ الدالة على أوصافها وأجزائها ومراحل عمرها ونتاجها • وقد عنى العرب من قديم بتربية الأفراس ، وحرصوا على أصالتها وحمايتها من الهجنة ، وحفظوا أنساب أفراسهم • وتذكر الروايات أياما مشهورة ، اشتعلت فيها المعارك ، من أجل هذا الكائن •

ولقد استمرت الفروسية فى العصر الجاهلى والعصر الاسلامى ، ولا تزال موجودة فى بيئات معينة من العالم العربى • ومن أهم الخصائص التى تدل على مكانة الفرس أن الامارة فى القبيلة العربية لم تكن تنفصل على الاطلاق من التبريز فى الفروسية • والفروسية عند العرب تجسد الشجاعة والشهامة ، وحماية الجار والضعيف ، والكرم والاستعلاء على الصغائر • وهى أقدم من الفروسية فى أوروبا ،التى اشتهرت فى القرن الوسطى وما تلاها • ولا تزال الفرس العربية المثل الأعلى بين الأفراس فى العالم •

أما موضـــوع العلاقة الزوجية ، الـذى تتناوله حكايـة المالك فهو مختلف تماما عن نفس الموضوع ، كما عولج فى حكاية التاجر وحكاية العالم ، وحكاية سيدة باث • فالعلاقة الزوجية عند المالك ليست سببا للسخرية أو للتأمل فى مدى تحمل الانسان (والمرأة بصفة خاصة) للظلم ، بل هى معالجة لفكرة الزواج المثالى ، حيث تلتقى مثل الحب الرفيع بمثل الزواج المسيحى ، الذى يتميز بصفة القدسية والدوام • فالزوجان فى حكاية المالك يتمتعان معا بالسيادة وبالخشوع والطاعة المتبادلة التى قلما توجد بين الزوجين فى الحياة فى ذلك العصر •والجديد هنا هو اقتران الحب الطاهر الحر المختار بالتزامات الزواج المبنى على الطاعة والسيادة من جانب واحد ، أى جانب الزوج •

(٢) أرموريكا **(Armorica)** اسم قديم لمقاطعة بريتانيا فى شمال غرب فرنسا ، وكانت دوقية مستقلة عن باقى فرنسا فى العصور الوسطى • ولعل هذا الاسم يرجع الى كلمتى **Ar, vor** باللغة السلتية القديمة ومعناها « الأرض بجوار البحر » •

(٣) « كايرود » تحريف لكلمة « كيرو » **(kerru)** هو اسم عدة بلاد فى مقاطعة بريتانيا • أما « أرافيراجوس » **(Arveragus)** فهو تحريف لاتينى لاسـم سـلتى قديم • وكان هنـاك شبه اتفاق عام فى العصور الوسطى على تسمية « بريتانيا » ببريطانيا الصغرى تمييزا لها عن الجزر البريطانية التى تشمل انجلترا •

(٤) الاشارة الى كتاب مجرد حيلة أدبية لا تعنى بحال من الأحوال أن المؤلف يقصد كتابا معينا •

(٥) هذا اسم سلتى قديم ، وأغلب الظن أن حرف الجيم لم يكن معطشا عند النطق .

(٦) شهر مايو هو الشهر الدال على العنصر الخيالى فى أغلب القصائد الرمزية فى العصور الوسطى . فهناك شبه تقليد متصل بشهر مايو اذ أن الحديقة التى تعتبر البيئة التقليدية لكل ما يتصل بالحب الرفيع توصف دائما فى شهر مايو . وتستهل أغلب قصائد الحب الرفيع فى ذلك العصر بوصف الطبيعة فى شهر مايو .

(٧) مفهوم « الخدمة » للسيدة جزء لا يتجزأ من تقليد الحب الرفيع . لذلك هناك نوع من الايحاء بهذا التقليد الشعرى عندما يوصف العاشق بأنه « خادم » الهة الحب عند الرومان . ويلاحظ أن الحب الذى يزدهر فى العلاقة الزوجية ، التى يشير اليها الشاعر هنا هو محاولة للجمع بين الحب الرفيع وما فيه من سيادة للمرأة والزواج التقليدى وما فيه من سيادة للزوج .

(٨) الأصل يشير الى « احدى ربات الانتقام » (Fury) فى الأساطير الاغريقية القديمة ، التى كانت تعذب البشر أو أرواحهم بعد موتهم ، ولكن يبدو أن تشوسر يعتقد أنها هى التى تعذب فى الجحيم ، فآثرت أن أترجمها بعبارة « أحد الجان » حتى يتضح المعنى .

(٩) كانت « ايكو » فى الأساطير اليونانية حورية من حوريات الطبيعة عشقت الشاب الوسيم « نرجس » ، الذى لم يبادلها الحب لغرامه بنفسه . فهامت على وجهها فى الأرض حزينة تعيسة حتى ذبل جسمها من الحزن والأسى الى درجة أنها أصبحت مجرد صدى لصوت غيرها فأعطى اسمها الى ظاهرة الصدى فى الأصوات . وجاءت هذه الأسطورة فى كتاب « مسخ الكائنات » للشاعر الرومانى أوفيد (الكتاب الثالث — انظر الترجمة العربية للدكتور ثروت عكاشة) .

(١٠) هذا مثال واضح لاستعمال البلاغة فى الوصف ، فهذه الصورة البيانية تسمى فى فنون الشعر القديمة بالعبارة اللاتينية الآتية : circumlocutio وتقابل فى علوم البلاغة العربية المزج بين ما يسمى بالمواربة والاطناب . وكان هذا النوع من اللف والدوران يعتبر من المحسنات اللفظية فى الشعر ، خاصة اذا كانت متعلقة بموضوع فلكى . وهذا ما فعله دانتى كثيرا فى الكوميديا الالهية » وبوكاتشيو فى ملحمته « عن ثيسيوس » (Teseida) وقد حذا تشوسر حذوهما هنا .

(١١) الاتجاه الى اله الشمس « أبولو » طبيعى ، لأن أحداث القصة تدور قبل المسيحية فى عهد الوثنية الأوربية . ولكن يلاحظ امتزاج الآلهة الوثنيين بأسماء الاجرام السماوية الأمر الذى يدل على استمرار الاعتقاد فى أثر النجوم والكواكب على القدر حتى فى العصور الوسطى المسيحية ويبدو واضحا أن الفلك والدين والمعرفة كانت لا تزال فى ذلك الوقت على اتصال وثيق فى أذهان الناس .

(١٢) فيبوس (Phoebus) لقب من ألقاب الاله أبوللو وهو يباشر سلطانه كاله للشمس ودورانها .

(١٣) هذا لقب من ألقاب الالهة ديانا عندما ترعى الولادة . ويلاحظ أنه لم يخاطبها باسمها المألوف وهو ديانا (Diana) لأنها كانت الهة العفة والهة الصيد ، عندما تحمل هذا الاسم . والواضح أن تخصصها بالعفة يحول دون مساعدتها له فى الاغراء بامرأة متزوجة .

(١٤) كان نيبتونوس » (Neptunus) اله البحار فى الأساطير الرومانية ، ولكن حركة الأمواج كانت تتأثر بحالات القمر أو منازله .

(١٥) تكون الشمس فى أقوى حالاتها من حيث الحرارة والاضاءة ، عندما تمر ببرج الأسد . ولكن أورليوس يتضرع لها ، وهى لا تزال فى برج الثور ، وعليه أن ينتظر ثلاثة أشهر حتى تصل الى برج الأسد ، وعندئذ يكون القمر . وهو بدر مكتمل ، فى مواجهة الشمس ، وبذلك يؤثر القمر والشمس معا على حالة المد والجزر فى البحار .

(١٦) أخت أبوللو هى بروزربينا ربة العالم السفلى بصفتها زوجة حاكمها المطلق « بلوتو » (Pluto)

(١٧) هذا خطأ نتج عن التحريف فقد ولد أبوللو فى جزيرة « ديلوس (Delos) ولكن هاتفه الالهى فى قرية « ديلفى » (Delphi) ، فخلط الشاعر الكلمتين فى كلمة واحدة من نحته .

(١٨) اشارة الى رواية شعرية لاتينية ، كتبت فى العصور الوسطى ، لمؤلف مجهول ، اتخذ اسم (Pamphilus de Amore) وتسمى هذه الرواية عادة بامفيلوس فى الحب (Pamphilus de Amore) ولا يعرف بالضبط من هو المؤلف ، ولا متى كتب روايته .

(١٩) كانت بريتانيا مقاطعة مستقلة عن فرنسا يحكمها دوق . ولكن الجامعة ، التى كان طلبة العلم البريتانيون يتوجهون اليها عادة فى العصور الوسطى هى جامعة أورليان (Orléans) فى مملكة فرنسا نفسها .

(٢٠) منازل القمر هى المواقع المختلفة فى كل من ال ٢٨ يوما ، التى تكون الشهر القمرى ، وللقمر أثر على أقدار الناس ، يختلف باختلاف منازله .

(٢١) نسبة الى طليطلة فى الأندلس ، وهذه الجداول وضعها ابراهيم بن زرقالى (١٠٢٩ ؟ - ١٠٨٧ ؟ م) وهو أكبر راصدى الفلك فى زمانه . وقد وضع مع ابن صاعد « مبادىء جداول طليطلة « المعروفة » بالزيج الطليطلى » ، واخترع اسطرلابا جديدا ، دعى « صحيفة الزرقالى » .

(٢٢) اشارة الى نظرية بطليموس للكون التى كانت سائدة عند علماء الفلك فى القرون الوسطى وهى تفترض أن الكون يتألف من تسعة مدارات مشتركة فى المركز الذى هو الأرض . أما المدار التاسع أى الخارجى فسمى بالمحرك الأول (Primum Mobile) على اعتبار أن الارادة الالهية هى التى تحركه ، فهو بالتالى ينقل الحركة الى المدار الثامن والثامن الى السابع وهكذا حتى المركز الذى هو الأرض . أما النجوم الثابتة من غير الكوكب فكانت تحتل مكانها فى المدار الثامن . أما البروج الاثنا عشر ، فكانت كلها فى المدار التاسع . والنطح (Alnath) نجم يتوسط قرنى برج الحمل . والنطح أيضا أحد منازل القمر ، واذا رجعنا الى اللسان وجدنا ما يأتى : « ويقال للشرطين النطح والناطح ، وهما قرنا الحمل ابن سيدة النطح نجم من منازل القمر يتساءم به أيضا . قال ابن الأعرابى ما كان من أسماء المنازل فهو يأتى بالألف واللام وبغير الألف واللام كقولك نطح والنطح وغفر والغفر الجوهرى ونواطح الدهر شدائده ويقال أصابه ناطح أى أمر شديد ذو مشقة » وجاء فى « أساس البلاغة » ما يأتى : « وفى أسجاعهم : اذا طلع النطح طاب السطح وتطير من النطيح والناطح وهو المستقبل مما يزجر . ومن مجاز المجاز : رجل نطيح : مشئوم » . ويلاحظ أن الكلمة الانجليزية (Alnath) منقولة من العربية وهذا ما كان يحدث كثيرا بالنسبة لمصطلحات الفلك وعلم الكون .

(٢٣) هذه الشكوى الى ربة الحظ من الصيغ المتكررة فى شعر العصور الوسطى وقد يرجع الأصل فيها الى الكتاب الثانى من « سلوى الفلسفة » للفيلسوف بوتثيوس (Boethius) (وذكرنا من قبل أن تشوسر قد ترجم هذا الكتاب الى الانجليزية » • وفكرة الحظ كانت موجودة فى العصور الوسطى بالرغم من سيادة الفكر الدينى المسيحى • وكانت تصور ربة الحظ على أنها هى القوة الكامنة فى الدنيا التى تكافىء الانسان على أعماله فى الدنيا من غير قاعدة أو عدالة ، ومن غير الاهتمام بما يستحقه الانسان فى تقدير الارادة الالهية • وكثيرا ما كانت تصور فى المخطوطات على هيئة ملكة كفيفة ، أو معصوبة العينين ، تدير عجلة كبيرة ، ترفع عليها الانسان وتهبطه عشوائيا •

(٢٤) فى آخر حرب المورة (سنة ٤٠٣ ق٠م) بين مدينتى أثينا واسبرطة فرض أهل اسبرطة المنتصرون مجموعة من ثلاثين حاكما مستبدا من الأبيثيين أنفسهم ليحكموا المدينة • وعرف حكمهم بالظلم والقهر ، وقتلوا آلافا من المواطنين أثناء حكمهم الذى لم يدم أكثر من سنة واحدة •

(٢٥) أرستوكليدس (Aristoclides) حاكم مقاطعة أورخمينوس فى أركاديا (Arcadia)

(٢٦) كان هازدربال (Hasdrubal) ملكا لقرطاجة المدينة الدولة الأفريقية التى دارت بينها وبين الدولة الرومانية حروب كثيرة ، انتهت بهزيمة قرطاجة ، تحت حكم هازدروبال فى نهاية الحرب القرطاجية الثالثة •

(٢٧) حكاية لوكريتيا الزوجة الرومانية الفاضلة التى انتحرت لما هتك عرضها الملك الظالم ناركونيوس أصبحت موضوعا لقصيدة شكسبير المعروفة باسم « اغتصاب لوكريتيا » The Rape of Lucrece

(٢٨) أحرق الغال مدينة ميليتوس (Miletus) ابان القرن الثالث قبل الميلاد •

(٢٩) كان أبرابادايتس (Abrabadates) ملكا على قبيلة السوزى (Susi)

(٣٠) انتحرت بنت ديموتيون (Demotion) لما مات خطيبها حتى لا تضطر الى الزواج من غيره •

(٣١) قتل بنات سكيداسوس (Scedasus) بعضهن بعضا بعد أن هتك عرضهن •

(٣٢) كانوا نيخانور (Nichanor) أحد ضباط جيش الاسكندر لما فتح مدينة طيبة اليونانية •

(٣٣) انتحرت زوجة نيكراتوس (Niceratos) بعد أن قتله الحكام الظالمون الثلاثون فى أثينا •

(٣٤) كانت تيماندرا (Timandra) خليلة الكيبياديس قد الحت على أن تدفن جثة عشيقها ألكيبياديس (Alcibiades) بعد أن أمر الحكام الظالمون الثلاثون باعدامه •

(٣٥) تطوعت ألكستيس (Alcestis) بأن تموت قتيلة فى مكان زوجها أدميتوس (Admetus)

(٣٦) كانت بنيلوبى (Penelope) زوجة أوديسيوس ترفض أن تخضع لاغراءات العشاق الذين طلبوها أثناء غياب زوجها فى رحلات استغرقت سنين طويلة (أنظر آخر كتب الأودسا لهوميروس) •

(٣٧) لما قتل بروتيسيلاوس (Protesilaus) على يد هيكتور الطروادى ألحت زوجته لاوداميا (Laodamia) على أن تصاحبه الى العالم السفلى .

(٣٨) انتحرت بورشيا (Portia) قلقا على مصير زوجها بروتس (Brutus)

(٣٩) بنت أرتيميزيا (Artemisia) ضريحا كبيرا تخليدا لذكرى ماوسولوس (Mausolus) وليس واضحا ما تقصده دوريجين من ذكر هذا المثال .

(٤٠) اشتهرت بيليا (Bilia) بأنها صبرت على مجاورة زوجها رغم رائحة تنفسه الكريهة . أما رودوجون (Rhodogune) فقد قتلت وصيفتها لمحاولتها اقناع سيدتها بالزواج مرة ثانية . وفاليريا (Valeria) فاشتهرت برفضها الزواج مرة ثانية .

حكاية الطبيب (١)

كان هنـــاك ــ كما يحـــكى لنا « تيتوس ليفيوس » ــ فارس يدعى « فيرجينيوس » ، وكان مثـالا للكرم والنبل والشرف ، له أصـدقاء كثيرون ، كما كان غنيا جدا · وكان لهذا الفارس بنت أنجبتها زوجته ، ولم يكن له أطفال غيرها طول حياته · وكانت هذه الفتاة جميلة جدا ، بل أجمــل من أى مخلوقة أخرى ، تراها عين المشاهد · لأن الطبيعة قد أتقنت تشكيلها اتقانا تاما ، كأنها أرادت أن تقـول : « ها أنا ذا ربة الطبيعة أستطيع أن أشكل مخلوقة على نحـو ما أريد ، فمن يستطيع أن يقلد ويزيف ما صنعته يداى ؟ بل ان «بيجماليون»(٢) نفسه لا يستطيع ذلك مهما يبذل من جهد فى دق المعدن على السندان ، أو نحت الحجر أو نقش الصور · واذا أستطيع أن أقول ان « ابليز » و « زيوكسيس » سيذهب عملهما سدى ، اذا حاولا أن يقلدا صنعى بالنحت أو التصوير أو دق المعادن · اذ أن موجد كل الكائنات ومصدرها قد فوضنى مندوبة عامة له (٣) ، لكى أشكل وأصور مخلوقات الأرض الدنيا على نحو ما يروق لى وانى لراعية كل شىء كائن تحت القمر ، الذى يتزايد بدرا ، ويتناقص محاقا · وانى لا أطلب أجرا على عملى ، لأن سيدى وأنا على وفاق تام · فقد صنعتها شـــكرا لسيدى وربى ؛ وكذلك أفعل بكل مخلوقاتى الأخرى ، مهما اختلفت ألوانها أو أشكالها » · وعلى هذا النحو كان يبدو لى أن الطبيعة تتحدث ·

وكانت هذه الفتاة قد بلغت سن السنتين بعد الاثنتى عشرة، وكانت الطبيعة قد شكلتها مثالا للبهجة · وكما تستطيع أن تنقش الزنبق أبيض ، والوردة حمراء فكذلك استطاعت أن تصور هذه المخلوقة الكريمة منذ ولادتها · وكانت قد رقشت أعضاءها المنسابة الرشيقة بالألوان ، التى تتناسب معهـــا · وكان فيبوس اله الشمس قد صبغ ضفائرها السميكة بألوان شبيهة بجداول حرارته المحرقة ·

واذا كان جمالها على هذا النحو من الروعة ، فقد كانت أخلاقها الفاضلة تزيد عن
ذلك ألف مرة . ولم يغب عنها حال جدير بأن يمدح فى الحدود ، التى تقضى بها
المحكمة . وكانت روحها عفيفة عفة جسمها . وعلى ذلك ازدهرت كفتاة بكر ، كلها
وداعة وتعفف واعتدال وصبر وحشمة فى السلوك واللبس . وكانت دائما حكيمة
ومتحفظة فى الاجابة على من يسألها . وبالرغم من أنها تضارع الالهة « بالاس »
فى الحكمة فان بلاغتها فى الكلام كانت تتصف بسمة الأنوثة والوضوح ، وكانت
لا تتكلف العبارات المزيفة لتبـــدو حكيمة رشيدة ، ولكنها كانت تتكلم بقـــدر
ما تقتضيه الحال ، وما يتناسب مع منزلتها ، وكان أغلب ما تقوله فيه اظهـــار
للفضيلة وكرم الأخلاق ، كما كانت دائما محتشمة حيية حياء الفتيات ، وكان
قلبها وفيا ، كما كانت دائما تعمل وتنشط ، حتى تبتعد عن الخمول والكسل .
ولم يكن للاله باكوس أى سيادة على فمها (٤) ، والمعروف أن النبيذ والشباب
يلهبان الالهة فينوس (ربة الحب الجنسى) كما لو كان الانسان يصب الزيت أو
الشحم على النار . واذا تكلمنا عن أخلاقها الفاضلة وجدناها غير متكلفة ولا مكبوتة،
فكم من مرة اعتذرت بالمرض لتهرب من اجتماع فى حفلات قد تنقلب الى صخب
كما هى الحال فى الأعياد وحفلات الرقص ، التى تعتبر مناســـبات للمغازلات
والعبث . (٥) ومثل هذه المناسبات تجعل الأطفال يبلغون مرحلة النضج والجرأة
قبل الأوان ، كما يستطيع الناس أن يلاحظوا ذلك ، وهذا أمر غاية فى الخطورة
وكانت الحال كذلك منذ قديم الزمان . وان تعلم مأثورات الجرأة يأتى فى غير
أوانه قبل أن تصبح الفتاة زوجة . وأنتن يا مربيات فى سنى رشدكن المسن (٦)
يا من تتعهدن تربية بنات النبلاء أرجو ألا تغضبن مما أقوله . وأرجو كذلك أن
تعتبرن أنفسكن راعيات بنات النبلاء ، لسببين لا ثالث لهما : اما أنكن قد حافظتن
على حسن أخلاقكن واما أنكن قد انزلقتن على طريق الفساد فتعلمتن كل ملابسات
هذه الرقصة القديمة ونتيجة لذلك هجرتن مثل هذا السلوك الخليع هجرا تاما
ودائما . ولذلك أناشـــدكن من أجـــل المسيح ، ألا تتوانين عن تعليمهن أصول
الفضيلة . فاللص الذى اعتاد سرقة الغزلان والوعول ، اذا هجر اثمـــه الكريه
وأعماله الســـابقة كان خير الناس لحراســـة الغابات فحافظن اذن على من فى
رعايتكن ، لأنكن اذا كنتن راغبات فى ذلك استطعتن صيانتهن على أحسن صورة .
واحرصن ألا توافقن على أى نوع من أنواع الاثم ، حتى لا تتعرضن للعنة الهية
بسبب سوء نيتكن . ومن عمل ما أحذركن منه ، فلا شـــك أنه خائن غدار .
وانصتن الى ما سأقوله لكن : ان أسوأ نوع من أنواع الغدر هو أن يخون المـــرء
براءة الطفل .

أيها الآباء وأيتها الأمهات أيضا، اذا ولد لكم طفل أو أطفال ، فأنتم المسئولون
عنهم والراعون لهم ، طالما ظلوا تحت اشرافكم . واحرصوا على ألا يكون أسلوب
حياتكم أو اهمالكم فى عقابهم سببا فى فسادهم . وأقول لكم انهم اذا فسدوا كان
شقاؤكم شديدا . واذا كان راعى الغنم متساهلا مهملا استطاع الذئب أن يفترس

كثيرا من الخراف والحملان ٠ وكفانا مثال واحد فى هذا الموضوع لأننى مضطر الى العودة الى موضوع قصتى ٠

كانت هذه الفتاة ، التى أحكى عنها هذه القصة تحافظ على نفسها بنفسها ، بحيث لم تكن بحاجة الى مربية أو وصية ٠ وكانت الفتيات يستطعن أن يقرأن صفحات حياتها ، كأنها كتاب ، كل كلمة وفعل فيه من صفات الفتاة الفاضلة ، وذلك لما كانت عليه من حكمة وكرم ٠ ولذلكانتشر فى كل أنحاء العالمصيت جمالها الفائق وكرمها السخى الى حد أن الناس فى كل هذه البلاد أخذت تمتدح فى صفاتها السامية خاصة اذا كانوا من محبى الفضيلة ويستثنى من ذلك بربه الحسد وحدها التى تحزن للخير الذى يصيب غيرها وتفرح لما يصيبهم من أسى أو مرض وهذا وصف مقتبس من المعلم الأعظم القديس أوغسطينوس » ٠

وذات يوم ذهبت الفتاة الى معهد المدينة بصحبة أمها العزيزة كما يليق بالفتيات فى مثل هذه الأحوال ٠

وكان بالمدينة قاض وهو أيضا محافظ المقاطعة ٠ وحدث أن وقعت عينا هذا القاضى على هذه الفتاة وهى تمشى مارة بجانبه وتأملها بدقة وامعان ٠ وفجأة أحوال قلبه ومزاجه وفتن بجمال الفتاة فتنة شديدة وناجى نفسه قائلا : ستكون هذه الفتاة لى قبل أن تصبح ملك غيرى ! » ٠ وعندئذ أخذ الشيطان يجرى الى داخل قلبه وعلمه فى الحال بأنه يستطيع أن يصنع مع الفتاة ما يشاء اذا توسل بشىء من اللوم والاحتيال ٠

ولا شك أنه كان يعلم تماما أن القوة أو الرشوة لا تنفع فى أن يصل الى غرضه ٠ ذلك لأنها كانت قوية بمن يحبونها ويقدرونها كما كانت محصنة بفضيلة سامية بحيث عرف حق المعرفة أنه لن يستطيع اشباع شهوته الآثمة من جسمها ٠ ولذلك ، وبعد الامعان فى التفكير والتدبير أمر باحضار أحد الأندال بالمدينة ، لما اشتهر به من لؤم ووقاحة ٠ وحكى القاضى للوغد حكايته فى السر واستحلفه ألا يبوح بها لأحد من البشر ، والا ضرب عنقه ٠ وحينما وافق الوغد على كل شروط هذه الشورة اللعينة ، فرح القاضى ، وأكرمه ، ومنحه هدايا نفيسة ٠ وبعد أن انتهى تدبير كل خطة المؤامرة ، التى اتفقا عليها بكل تفاصيلها ، بحيث يرتكب الاثم المدبر بمنتهى المهارة ، كما ستسمعون فيما بعد بوضوح ، عاد الندل الى بيته وكان هذا الشقى أسمه « اقلديوس » ٠ أما القاضى الغدار فكان أسمه بالفعل لأن حكايتى ليست مختلفة ، بل معروفة ولها سند من التاريخ ، والموضوع فى جملته حقيقى ، ولا شك فى ذلك) أقول ان هذا القاضى الغدار أخذ يسرع فى الذهاب لقضاء شهوته بأسرع ما يمكن ٠

وحدث ذات يوم بعد ذلك بقليل أن كان القاضى الخائن يجلس فى محكمته كما كانت عادته ، هكذا كانت القصة ، وكان يصدر أحكاما فى قضايا مختلفة فجاء اليه النـدل الشرير وقال له : « يا سيدى من فضلك أرجو أن يعطينى

« فرجينيوس » الذى أشكوه ، حقى فى هذه الدعوة التعيسة • فاذا نفى عن نفسه ما أقوله فأنا على أتم استعداد لأن أقدم الدليل على ما أدعيه ، وأستطيع أيضا أن أتقدم بشهود موثوق بهم ، ليؤكدوا صحة ما أقول » •

فأجابه القاضى قائلا : « لا أستطيع أن أنطق بحكم قاطع ما فى غياب الطرف الآخر • دعوه يحضر هنا ، وسأستمع الى دعوتك أحسن استماع ، وأعدك أن تحصل على العدالة المطلقة فى هذا المكان ، ولن يقع أى ظلم على أحد » •

وحضر « فرجينيوس » نزولا على رغبة القاضى وعندئذ تليت الدعوى اللعينة وكان مضمونها على النحو الذى ستسمعونه : « سيظهر لك جليا خادمك المسكين اقلاديوس يا « آبيوس » يا سيدى العزيز أن فارسا يدعى « فرجينيوس » يحبس أمتى التى أملكها شرعا مخالفا بذلك كل القوانين وكل العدالة • وقد اختفت هذه الأمة فى أعماق الليل ، وهى لا تزال شابة فتية • وأستطيع أن أستشهد على ما أدعيه ، حتى لاتغضبوا منى • فمن يدعى أنها بنته فانها لا تمت اليه بأية صلة • ولذلك أتوسل اليك يا سيدى القاضى أن ترد لى أمتى ، اذا كان ذلك يروقكم » • وكانت هذه خلاصة دعواه •

وتطلع فيرجنيوس الى النذل ولكن بسرعة قصوى، وقبل أن ينتهى من كلامه، وقبل أن يستطيع أن يقسم بشرفه كفارس أو أن يقدم شهادة الشهود بأن كل ما ادعاه خصمه كذب ، هرول القاضى الى النطق بالحكم ، ولم يترك فيرجنيوس ينبس ببنت شفة ، وقال : « قد حكمت بأن هذا الانسان يسترد أمته ، كما أقضى بألا تبقيها فى بيتك • فأحضروها ووضعوها تحت وصايتنا ، وستكون بعد ذلك من نصيب ذلك الرجل ، وهذا هو حكمى » •

وعندئذ أدرك ذلك الفارس الكريم المدعو فيرجينيوس أنه كان مفروضا عليه بمقتضى حكم القاضى آيوس أن يسلم بنته العزيزة عنوة الى القاضى ، ليقضى معها ما يريد من فسق • فعاد الى بيته وجلس فى البهو ودعى بنته الحبيبة ، وشحب وجهه كأنه جثة هامدة وتطلع الى طلعتها الوديعة وشفقة الأب تمزق نياط قلبه ، ولكنه لم يرض أن ينحرف عن قراره . وقال « يا ابنتى يا من اسمك فيرجينا أمامك أحد طريقين اما الموت أو العار • ويح اليوم الذى ولدت فيه ! اذ أنك لاتستحقين أبدا أن تموتى صريعة السيف أو الخنجر • ياابنتى الحبيبة يامن أنهيت حياتى بما سيحدث لك ، أنت يامن ربيتها ، ورعيتيها بسعادة متناهية ، حتى أننى لم آنس طلعتك الجميلة يوما فى حيـــاتى يا من أنت آخر أحزانى ، كما أنت آخر بهجتى أيضا ، يادرة العفاف ، تقبلى الموت بقلب صبور فهذا ماقضيت به عليك بل من أجل الحب لا فى سبيل الكراهية لابد أن تموتى • ولامفر من أن يدى الشفيقة هى التى ستضرب عنقك ياويل اليوم الذى رآك فيه أبيوس الذى حكم اليوم عليك حكما باطلا ظالما • وروى لها كل ما كان قد حدث كما سمعتموه منى من قبل ولا داعى لأن أروى القصة ثانية •

فصاحت الفتاة قائلة : « الرحمة الرحمة يا أبى العزيز ! » وبهذه الكلمات طوقت بذراعيها عنق أبيها كعادتها . وانهمرت الدمـــوع من عينيها ثم قالت : « يا خير الآباء ، ألا بد من أن أموت ؟ ألا يوجد لطف ولا شفاء ؟ » .

فأجابها قائلا : « لا يا ابنتى العزيزة لا » فقالت له « اذن يا أبى أعطنى وقتا أشكو من أسى موتى ، والله يعلم أن « يفتاح » (٨) ترك ابنته وقتا ، لتشكو وتبكى قبل أن يقتلها . يا ويل ذلك ! والله يعلم أيضا أنها لم ترتكب اثما ، بل كانت أول من هرول للترحاب بأبيها خير ترحاب» . وبعد كلامها أغمى عليها، ولما أفاقت من غشيانها نهضت وقالت لأبيها : « صلواتى لله ، سأموت بكرا عذراء ! اقتلنى اذن قبل أن أقع فى أى دنس . افعل ما تشاء مع ابنتك واسم الله ! » ثم رجته أن يقطع عنقها برفق وسرعة وعندئذ أغمى عليها ثانية . فنهض وضرب عنقها وقلبه ممزق وارادته منهارة وقبض على الرأس من أعلا ، وذهب ليقدمه الى القاضى ، وهو جالس فى المحكمة . ويروى كتاب التاريخ أن القاضى لما رأى ما رآه أمر جنوده أن يأخذوه للمشنقة ليعلقوه فى الحال . ولكن سرعان ما حدث أن دخل ألف شخص فجأة لينقذوا الفارس ، لشفقتهم عليه ، اذ أنهم عرفوا أنه قد ظلم ظلما بينا . ثم أدرك الناس أن الأمر فيه لبس ، وذلك لادعاء النذل أن الموضوع كان كله من تدبير آبيوس ، كما عرفوا أيضا أن آبيوس كان من الفجرة . ولذلك أسرعوا الى آبيوس وألقوا به فى سجن ، انتحر فيه بعد قليل . أما اقلاديوس الذى كان خادما مطيعا لآبيوس هذا ، فقد حكم عليه بأن يشنق معلقا فى شجرة . ولكن فرجينيوس تدخل فى الأمر لرأفة قلبه ، وتوسل من أجله بحيث اكتفى بنفيه على أساس أنه لم يفعل ما فعله الا مخدوعا . أما باقى الناس الذين كانوا قد شاركوا فى هـــذه الجريمة الغـــدارة ، فقد شنقوا . وهكذا يرى الناس كيف يعاقب على ارتكاب الاثم . فاحذروا لأنه لا يوجد أحـــد يعرف من يضربه الله ، ولا أى طبقة من الناس ، ولا بأية وسيلة تثير دودة الضمير الحى فى قلب الانسان الشعور بالفزع والخشية والتوبة من حياة آثمة ، حتى لو حدث ذلك فى سرية كاملة ، بحيث لا يدرى بها سوى الشخص نفسه والله . وسواء أكان الانسان عالما أم جاهلا لا يستطيع أن يعرف فى أى وقت يصيبه هذا الخوف الكبير . ولذلك أنصحكم أن تعتبروا بما أقوله الآن : « اهجروا الاثم قبل أن يهجركم الاثم » .

هوامش حكاية الطبيب

(١) لا شك أن المصدر الأخير لهذه الحكاية هو كتاب « التاريخ الرومانى » للمؤرخ الرومانى تيتوس ليفيوس (Titus Livius) الذى كتب منه ١٤٢ مجلدا وان لم يصل الينا منها سوى ٣٥ ، وبدأه منذ تأسيس روما حتى سنة ٩ ق.م .. وقصة فرجنيا مذكورة فى الكتاب الثالث .

وكان الشاعر جاور (Gower) المعاصر لتشوسر ، قد روى نفس الحكاية فى قصيدته الطويلة « اعتراف عاشق » (Cofessio Amantis) التى ظهرت بين سنة ١٣٨٦ م وسنة ١٣٩٠ م . وفى القصة التى ذكرها جاور ، وفى الأصل الرومانى ، لم يذكر عن « فرجينيا » الا أنها ابنة الفارس الوحيد ، ولكن تشوسر جعلها طفل أبيها الوحيد . ويلاحظ أن اسم « فرجينيا » (Virginia) يعنى البكر الطاهرة .

(٢) أصل حكاية بين‌ماليون لابد أن يكون تشوسر قد قرأه فى ملحمة « أوفيد » مسخ الكائنات » (الكتاب العاشر الأبيات ٢٤٢ وما بعدها) . وهذه أسطورة معروفة للقارىء العربى من خلال معالجة توفيق الحكيم لها . ويلاحظ أيضا أن أغلب الظن أن تشوسر كان يستلهم هنا « رواية الوردة » (الأبيات ١٦١٧٧ وما بعدها) لذكر الفنانين الثلاثة بنفس ترتيبهم فيها .. وكان « زيوكسيس » (Zeuxis) مصورا يونانيا شهيرا ازدهر فى القرن الخامس ق.م . وكانت أشهر صورة رسمها لهيلينا الطروادية ، وقيل عنه انه رسم عنقودا من العنب فجاءت العصافير لتنقره ، ظنا منها أنه عنب حقيقى . ومن الطريف أن يذكر أنه رسم صورة عجوز مضحكة ، فالأسطورة تقول انه مات من الضحك عندما تطلع اليها . وكان أبيليز (Apelles) مصورا يونانيا ماهرا ، عاصر الاسكندر ، وصور عشيقته ، فهام بها وسمح له الملك بأن يتزوجها .

(٣) كانت الطبيعة تذكر كثيرا مجسدة كربة فى الكون فى كتابات العصور الوسطى بأوربا وكوكيلة للخالق تدبر وتنفذ ما يشاء هو فى خلقه .

(٤) انظر « فن الهوى » لأفيد (تعريب الدكتور ثروت عكاشة) الكتاب الأول الأبيات ٢٤٣ وما بعدها للوقوف على أصل هذا الأسلوب فى التعبير .

(٥) وهذه عبارة مأخوذة أيضا من نفس المصدر أى « فن الهوى » لأوفيد (الكتاب الأول الأبيات ٢٢٩ وما بعدها) .

(٦) قيل ان هذا الاستطراد دليل على فضيحة غامضة حدثت فى أسرة جون أوف جونت (John of Gaunt) وتشير الى علاقة غير مشروعة بينه وبين مربية أولاده ، التى اضطر الى الزواج منها فيما بعد .

(٧) انظر سفر الأمثال فى العهد القديم (الاصحاح الثالث عشر الآية ٢٤) : ومن يمنع عصاه يمقت ابنه ، ومن أحبه يطلب له التأديب » .

(٨) هذا المثال مأخوذ من سفر القضاة فى العهد القديم (اصحاح ١١ آية ٣٧ و ٣٨) .

حكاية بائع شهادات الغفران (١)

كلمات المضيف الى الطبيب
وبائع شهادات الغفران

وأخـــذ مضيفنا يجدف فى كلامه ، كأنه قد جن تماما ، وصـــاح قائلا : « النجدة ! اسعفونى ! أستحلفكم بالمســامير ، التى دقت فى الصــليب ، وبدماء المسيح ! ان هذا الرجل كان غدارا وقاضيا غشاشا ! فليصب مثل هؤلاء القضاة ومحاميهم هلاك مشين ، الى أقصى حدود التصوير !لذلك أقول دائما ، كما يستطيع أى انسان أن يرى ، ان مواهب الحظ أو الطبيعة (٢) قد تشكل سببا للموت بالنسبة للكثير من الخلق • لقد كان جمالها هو سبب موتها ، وهذا ما أود أن أقوله • وأسفاه ! ويلها ! ما أبشع مصرعها ! وأنا أقول ان النوعين من المواهب ، اللذين ذكرتهما الآن ، يجنى منهما الناس قدرا من الضرر أكبر مما يجنون من الخير والنفع • ومع ذلك يا سيدى العزيز فان هذه قصة محزنة حقا لا يجب المرء أن يسمعها • وعلى أى حال فلا بأس ، من سردها وأسأل الله أن يسلم جسمك الكريم ، وكذلك مباولك « وقصرياتك » وعقاقيرك الهيبوقراطية والجالينوسية(٣) ، وكل العلب التى تحفظ فيها الأدوية ، فليباركها الله جميعا ولتباركها سيدتنا مريم! وأقسم بحسن مستقبلى ، أنك رجل وجيه حقا ، وفيك وقار يوحى بأنك من كبار القساوسة • أقسم على كل ذلك بروح القديس نينيان (٤) ! ألم أقل الحق ؟ ولست ممن يستخدمون فى الكلام العبارات المصقولة المألوفة ، ولكنى أعرف تماما أنك تصيب قلبى بالأسى الى حد أننى أكاد أصاب بحزة القلب • أقول ذلك قسما

بعظام جسد المسيح ! ومع ذلك فلى ترياق يشفينى (٥) ، ألا وهو أن أرتشف جرعة من الجعة الجديدة المصنوعة من القمح المختمر ، أو أن أنصت الى قصة مسلية ، لأن قلبى قد تمزق ، شفقة على هذه الفتاة • أما أنت يا صديقى العزيز يا بائع براءات الغفران ، الالهى ، فاحك لنا فورا قصة مرفهة ، أو ارو لنا بعض الفكاهات والنوادر » • فأجابه قائلا : « سمعا وطاعة ، قسما بالقديس نينيان ! ولكن ، قبل أن أبدأ سأقف برهة هنا بجوار لافتة هذه الحانة وأشرب ، وآكل قطعة من الكعك » •

وأخذ الناس الأفاضل يصيحون فى الحال ويقولون : « لا • فليكف هـذا الشخص عن أن يحكى لنا قصة مكشوفة خليعة ، ودعوه يحكى حكاية فيها عبرة أخلاقية، لكى نستخلص منها درسا مفيدا، واننا عندئذ نستمع اليه بكل سرور» • فقال الرجل : « هذا ما سأفعله بالتأكيد ولكن دعونى أفكر فى موضوع محترم شريف أثناء احتسائى الجعة » •

وهنا تلى مقدمة حكاية بائع شهادات الغفران

« لأن محبة المال أصل لكل الشرور ••• »

(رسالة بولس الرسول الأولى الى تيموناوس ٦ : ١٠)

وقال : « يا سادتى ، اذا وعظت فى الكنائس بذلت أقصى جهدى فى أن أرفع صوتى ، وأجعله ساميا فى أسلوبه ، وأدعه يصدر من فمى رنانا مثل صوت الجرس ، اذ أننى أعرف كل ما أفوه به ، بل أحفظه عن ظهر قلب • والآية التى أستهل بها دائما حديثى هى : « ان محبة المال أصل كل الشرور » • وأبدأ بأن أقول من أين أتيت ، ثم أظهر براءاتى البابوية كلها وأبين خاتم الملك على رخصتى • وهذا ما أبدأ به ضمانا لنفسى ، حتى لا يجـــرؤ قسيس ، ولا أى كاهن على أن يعرقل (٦) أعمال المسيح المقدسة • وبعد ذلك أروى حكاياتى ، عارضا براءات البابوات والكرادلة والبطاركـــة (٧) والأســـاقفة ومراسيمهم ثم أنطق ببعض العبارات اللاتينية لكى أحلى بها موعظتى وأزخرفهـــا ، حتى أحمل الناس على التقوى • ثم أعرض أصونتى الزجاجية الطويلة محشوة بخرق وعظام وكلها ذخيرة قديسيه ، كما يظن كل مستمع • ولى أيضا عظمة كتف فى جراب من القصدير ، أخذت أصلا من خروف لواحد من بنى اسرائيل المقدسين (٨) • وأقول للمستمعين: أيها الصالحون ، انصتوا لكلامى « ان هذه العظمة ، اذا غسلت فى أية عين من الماء ، وشرب من هذا الماء عجل أو بقرة أو خروف أو ثور ، أصيب بالورم لأنه أكل دودة سامة أو لدغ منها ، أقول اذا شرب هذا الحيوان من هذا الماء وغسل

به لسانه شفى في الحال • وبالاضافة الى ذلك فان كل خروف يشرب من ماء هذه العين يشفى من الجرب ومرض البشرة • وانتبهوا أيضا لما أقوله بعد ذلك : اذا شرب صاحب المواشي من ماء هذه البئر ، وهو لا يزال صائما قبل أن يصدح الديك ، تكاثرت ماشيته وربت أمواله ، كما علم آباءنا ذلك أحد بنى اسرائيل من المتقين • وأقول لكم يا سادتى ان جرعة من هذا الماء تشفى من الغيرة • فاذا انتاب أحـدا جنون الغيرة ، وأعد حساؤه من هذا الماء لا يشك بعد ذلك فى وفاء زوجته ، حتى لو عرف حقيقة اثمها ومضاجعة قسيسين أو ثلاثة لها • واليكم أيضا قفازا كما ترون ، من وضع يده فيه وجد الزيادة في ما خزنه من حبوب ، مما يكون قد بذره ، سواء أكان ذلك قمحا أم شوفانا ، وذلك بشرط أن يقدم لى بعض النقود ، ولو كانت زهيدة القيمة •

أيها الصالحون والصالحات انى أنهاكم عن أمر واحد ، ألا وهو أنه اذا كان هناك أحد فى هذه الكنيسة الآن ، قد ارتكب اثما بشعا الى حد أنه لا يجرؤ أن يعترف به للقسيس ، أو اذا وجدت امرأة فتية أو عجوز خانت زوجها في الفراش، أقول اذا وجد أحد هؤلاء فلن يكون له الحق ولن يكون فى وسعه أن يتبرع بشىء فى سبيل الحصول على بركات هذه الذخيرة من البقايا المقدسة • أما ذلك الذى يجد نفسه بريئا لم يرتكب مثل هذه الخطيئة فليتقدم وليتبرع باسم الله ، وأنا أبرئه طبقا للتفويض ، الذى أعطى لى ، بناء على أمر بابوى » •

وعن طريق هذه الحيلة فزت السنة تلو السنة بمائة مارك (٩) منذ أن بدأت بائعا لبراءات الغفران الالهى • اذ أنى أقف كالكاهن على المنبر ، وحينما أجـــد الناس البسطاء جالسين حولى أعظهم ، كما سمعتم منى قبل ذلك ، وأقص عليهم مائة خدعة مدلسة غير ما قصصت عليكم • وعندئذ أبذل كل جهدى فى أن أطيل رقبتى ، وأطأطىء رأسى أمام الناس شرقا وغربا ، كأنى حمامة حطت على أعلى مخزن للغلة والتبن •

ان يدى ولسانى تعمل بنشاط مستمر الى حد أن من أسعد المشاهد للانسان أن يتأمل فى كيفية عملى • وكل مواعظى تدور حول موضوع البخل ، وما يماثله من الأمور اللعينـــــة ، وذلك حتى أحث الناس على أن يجودوا بسخاء من نقودهم وخاصة لى بالذات • على أن غرضى لا يتعدى مجرد الكسب ولا أقصد أبدا تقويم الرذيلة • ولا يهمنى قط ما يحدث لهم ، بعد أن يكونوا قد دفنوا فى الأرض ، بل حتى لو هامت أرواحهم على وجوهها ، كمن يجنون ثمار التوت •

وكم من موعظة خيرة خرجت حقيقة من انسان يضمر نية شريرة • والأسباب تختلف فى حث الناس ، من مجرد امتاعهم بالبهجة والسرور ، الى النفاق ، الى الرغبة فى الارتقاء بوسيلة الرياء ، الى الشهرة الزائفة ، بل الى الكراهية نفسها • اذ اننى لو لم أجرؤ على المجادلة بأى طريقة أخرى للذعت الآثم بلسانى الحـاد ، أثناء موعظتى ، بحيث لا يفلت منى ، اذا كان آثما ، ولو أدى ذلك الى التشهير به،

دون وجه حق • وحتى لو لم أذكره باسمه ، لعرفه الناس بالاشارة ، وبدلائل مقتضى الحال • وعلى هذا النحو أعاقب من يسىء الينا ، وهكذا أنفث سمى تحت قناع القدسية والظهور بمظهر التقوى والاخلاص •

ومع ذلك فانى سأقص عليكم ما أهدف اليه باختصار ، ألا وهو أنى لا أعظ الا من أجل حب المال • ولذلك سوف يكون الموضوع الذى أتكلم فيه دائما ما جاء فى الآية من أن : « محبة المال أصل لكل الشرور » • وهكذا أستطيع أن أوجه موعظتى ضد نفس الخطيئة التى أقع فيها أنا وهى البخل ، اذ أنى مع كونى مدانا بالبخل ، فاننى أستطيع أن أنفر منه غيرى ، وأجعله يتوب • ومع ذلك فليس هذا مقصدى الرئيسى ، لأننى لا أعظ بشىء الا من أجل الجشع وحب المال • وأعتقد الآن أننى تعرضت لهذا الموضوع بما فيه الكفاية • ومن ثم سأتكلم عن أمثلة كثيرة مأخوذة من القصص القديمة ، التى دارت منـــذ زمن بعيد • والحق أن الغوغاء والناس البسطاء مغرمون بالحكايات القديمة ، ويستطيعون حفظها وتذكرهـا • ماذا تقولون ؟ أتريدون منى ، أثناء مواعظى مع قدرتى على جمع الفضة والذهب من دروسى ، أن أعيش فقيرا بمحض ارادتى ؟ كلا ، كلا • لم تخطر هذه الفكرة ببالى أبدا ! بل اننى مصر على أن أعظ وأتجول شحاذا فى بلاد شتى ، ولكنى لن أعمل أبدا بيدى الاثنتين ، ولن أصنع السلالات وأرتزق ببيعها (١٠) ، لأننى لا أرغب أن أكون سائلا خاملا • ولن أنسج على منوال أى واحد من تلاميذ المسيح ، بل أريد أن يكون لدى مال ، وأنسجة من الصوف ، وجبن وغلة ، حتى لو كان ذلك من عطاء أفقر غلام فى القرية ، أو أتعس أرملة فيها ، مما يؤدى الى موت أطفالها جوعا• كلا ! كلا ! سأشرب عصارة الكرم ، وأمرح بفتاة بضة فى كل قرية • وختاما يا سادتى انصتوا الى ، فأنتم تحبون أن أروى لكم قصة • والآن ، وقد شربت جرعة من جعة الغلة ، آمل بحق الله أن أقص عليكم أمرا معقولا لا يحوز رضاكم • فمع كونى أنا رجلا شريرا آثما ، فاننى أستطيع أن أروى قصة أخلاقية ، تحمل عبرة بينة ، وهى اعتدت أن أحكيها بغية الكسب ، فالتزموا الصمت اذن سأبدأ أنا حكايتى •

هنا تبدأ حكاية بائع شهادات الغفران

ذات يوم كان بلد من بلاد الفلمنك رفقة من الشبان يعيشون حياة الفجور والخلاعة والصخب والشغب ، ويقامرون ، ويترددون على بيوت الدعارة والحانات ، حيث يرقصون ليلا ونهارا ، ويلعبون النرد أيضـــا ، ويأكلون ويشربون أكثر مما يجب • وعلى هذا النحو كانوا يقدمون القرابين الى الشيطان ، فى هذا المعبد المخصص لعبادة الشيطان ، تلك العبادة اللعينة ، وذلك بالانهماك فى كل أنواع

الاسراف الكريه · وكانت لعناتهم من الغلظة والبشاعة الى حد أنه كان يثقل على النفس الاستماع الى عباراتهم الكريهة · وكم من مرة كانوا يمزقون جسد سيدنا المسيح بالكلام كأنهم اعتقدوا أن اليهود لم يمزقوه بما فيه الكفاية · وكان كل منهم يسخر من ذنوب غيره · وبينما كانوا منهمكين على هذا النحو فى اللهو الآثم ، أقبلت جماعة من الراقصات البهلوانيات الرشيقات الصغيرات ، وحضر أيضا بعض بائعات الفواكه ، ومنشدون بالقيثارات ومومسات وبائعو حلوى ، وكلهم ضباط فى جيش الشيطان نفسه ، همهم الوحيد أن يشعلوا نار الفسق ، وأن يحافظوا على دوامها · والفسق يصحب دائما النهم والجشع · وانى أستشهد بالكتاب المقدس على أن الفسق يأتى مع النبيذ والثمل (١١) · فها هو ذا لوط السكير (١٢) الذى خالف القوانين الطبيعة حينما ضاجع بنتيه ، دون أن يدرى ، اذ كان قد سكر الى حد أنه لم يع ما كان يفعله ·

أما هيرودس (كما يعرف جيدا كل من قرأ التاريخ) (١٣) ، فانه حينما صار متخما بالنبيذ فى وليمته ، أمر وهو جالس الى مائدته بقتل يوحنا المعمدان مع أنه كان بريئا من كل جرم · وللفيلسوف الرومانى سينيكا (١٤) كلمة طيبة أيضا حين يقول انه لا يجد فرقا بين رجل جن ورجل ثمل ، الا أن الجنـــون ، اذا أصاب وغدا ، دام مدة أطول من السكر ·

يا أيها النهم ، يا أيها الممتلىء باللعنات ، يا من أنت أول سبب لضياعنا وبوارنا ، يا من أنت أصل لغتنا وعذابنا فى الحياة الدنيا ، حتى جاء المسيح ، ليخلصنا ويفدينا بدمائه ! وكم من ثمن غال (لو أردنا أن نوجز الكلام) دفـع لافتداء النفس به من هذه الرذيلة اللعينة · ان هذه الدنيا لم تفسد الا بسبب النهم ! وقد طرد آدم وزوجته أيضا من الجنة الى دار الشقاء ، والعمل المضنى . بسبب هذه الرذيلة ، ولا شك فى ذلك · وحسبما قرأت عرفت أن آدم ظل فى الجنة طالما كان صائما قنوعا ، ولكن حينما أكل من الفاكهة المحرمة على الشجرة طرد طردا الى عالم الشقاء والألم ، أيها النهم كم يحق لنا أن نشكوك !

آه لو عرف الانسان كم من الأمراض تنجم عن الافراط والنهم ! ولو عرف ذلك لأصبح أكثر اعتدالا فى أكله ، عندما يجلس الى مائدته · ويحاه ! ان الحلق القصير (كناية عن لذة البلع القصيرة !) والفم الحساس (١٥) هما السبب ، شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا ، وعلى الأرض وفى الهواء والماء ، فى أن الانسان يشقى ويعمل ، لكى يحصل على ما لذ وطاب من الأكل والشراب ! وأنت يا بولس الرسول ما أعظم علمك بهذا الموضوع عندما تتناوله فتقول : « الأطعمة للجوف ، والجوف للأطعمة ، والله سيبيد هذا وذاك » · وأسفاه ! انه لأمر مشين ، قسما بايمانى ، أن يقال هذا الكلام ، وأكثر شينا أن يعمل به ، فالانســـان عندما يشرب النبيذ الأبيض والأحمر يتحول حلقه الى بالوعة ، لما يصب فيما مما يفيض عن حاجته ·

ويقول الرسول باكيا بكلمات حزينة : « لأن كثيرين يسيرون ممن كنت أذكرهم لكم مرارا ، والآن أذكرهم أيضا باكيا وهم أعداء صليب المسيح ، الذين نهايتهم الهلاك ، الذين اتخذوا بطنهم الها لهم » (١٦) ويل للبطن ! ويل للرحم وللمعدة ! كلها ممتلئة برازا وفسادا • ويل للأمعاء التى ترسل أصواتا كريهة من طرفيها ! وكم تبذل من جهد وتتكبد من عناء لامدادك • هاهم أولاء الطاهون يطحنون ويدقون الهون ويصفون ويحولون الجوهر (ما سماه الفلاسفة) عرضا (١٧) ، وكل ذلك فى سبيل اشباع شهيتك الشهوانية • ويخرجون النخاع من العظام الصلدة ، لأنهم لا يتركون جانبا أى شىء ، يمكن أن ينزلق انسيابا فى الحلق لذيذا طريا • ومن التوابل والأعشاب والجذور يصنعون للمرء اللذيذ لكى يثيروا شهيته من جديد • ولكن مما لا شك فيه أن ذلك الذى ينهمك فى هذه الملذات انما هو فى الحقيقة ميت وهو على قيد الحياة (١٨) ، ممعن فى مثل هذه الرذائل •

والنبيذ أمر يحرض على الفجور ، والثمل ملىء بالصراع والتعاسة • أيها الثمل ! ان وجهك مشوه ، ورائحة فمك كريهة ، يشمئز المرء منك لو قبلك ، ومن خلال أنفك السكير يبدو أن صوتا ينطلق وكأنه يصيح قائلا : « شمشون يا شمشون ! » (١٩) ، ومع ذلك فالله أعلم بأن شمشون لم يشرب النبيذ أبدا • وها أنت ذا تتهاوى كأنك خنزير برى طعنته الرماح ، وضاع لسانك كما ضاع كل احترامك للأخلاق والفضيلة • ان الثمل حقيقة مقبرة لذكاء الانسان وحكمته• ومن استسلم لسيطرة شرب الخمر لا يؤتمن على سر ، ولا شك فى ذلك • لذلك أقول : اتركوا النبيذ الأحمر والأبيض ، وخاصة النبيذ الأبيض ، الذى ينتجونه فى بلاد « ليبى » (٢٠) ، والذى يعرض للبيع فى « شارع فش » أو فى « تشيبسايد » (٢١) • فان النبيذ الاسبانى يتسلل خلسة الى أنواع النبيذ الأخرى المصنوعة من كروم قريبة منه ، فيتصاعد منها مزيج من الأبخرة اذا شرب منها الانسان ثلاث جرعات فانه قد يتصور انه فى داره بحى « تشيبسايد » ، مع أنه قد أصبح قاطنا اسبانيا فى نفس قرية « ليبى » لا فى ميناء « لا روشل » ولا فى مدينة « بوردو » (٢٢) ••• وعندئذ تجده قد يصيح قائلا « شمشون ، يا شمشون ! » •

أرجوكم يا سادتى •• انصتوا لكلمة واحدة أقولها ، ألا وهى أن كل المآثر العظيمة التى ذكرت فى العهد القديم من الكتاب المقدس انما أحرز بها الانسان النصر بفضل الله نفسه ، القدير على كل شىء ، وقد أنجزت والانسان صائم يتضرع الى الله • ألا فانظروا الى الكتاب المقدس ، حيث يمكنكم أن تتحققوا مما أقوله • وتطلعوا الى «أتيلا» ذلك الفاتح العظيم (٢٣) • لقد مات ذليلا أثناء نومه خزيا ، والدماء تنزف من أنفه لشدة • ان على قائد الجيوش أن يعيش عيشة معتدلة • وبالاضافة الى كل ذلك اعتبروا جد الاعتبار بما أمر به «لموئيل» (٢٤)

ـ أقول ، عن عمد ، «لموثيل» لا «صموئيل» فاقرأوا الكتاب المقدس ولاحظوا ماقيل فيه عن اعطاء النبيذ الى من يقيمون العدالة • ولكن كفانا كل هذا القدر من الكلام •

والآن ، وقد حدثتكم في أمر النهم ، دعونى أحرم عليكم المقامرة ، اذ أن القمار أم الأكاذيب والخداع والقسم زورا والكفر بالمسيح والاغتيال وأسها ، كما أنه ضياع للمال وللوقت • زد على ذلك أن اعتبار الانسان مجرد مقامر بمثابة تشويه لشرفه ، ومخالفة له • وكلما ارتفع شأنه ، كلما اعتبر منبوذا من الناس أجمعين • فاذا استخدم أمير النرد اعتبر من قبل كل الحكومات والدول بالاجماع وضيعا •

فقد أرسل « ستيلبون » (٢٥) ذات يوم الى مدينة كورنتوس من بلده « لاكيديمونيا » ليبرم حلفا مع أهل كورنثوس ، ولكنه لم يكد يصل الى هناك حتى وجد مصادفة كل علية القوم يقامرون ، الأمر الذى أوحى اليه أن ينسحب خلسة ، ويعود الى بلاده ، حيث خاطب أهله قائلا : « لن أعرض نفسى لفقد شرفى واسمى المحترم فى ذلك البلد ، كما أننى لا أقبل على نفسى أن أجلب لكم العار بأن أدخلكم فى حلف مع جماعة من المقامرين • ارسلوا اذن غير من السفراء ، لأننى أقسم بشرفى أننى أوثر الموت على ابرام محالفة بينكم وبين هؤلاء المقامرين الآثمين • أما أنتم يا من بلغتم أعلى درجات المجد والتقدير ، فلن تدخلوا فى محالفة مع المقامرين بمحض ارادتى ، ولا بمفاوضة من جانبى » • وهذه هى الكلمات التى قالها هذا الفيلسوف الحكيم •

واعتبروا بالملك «ديمتريوس» الذى أرسل له ملك البارثيين (كما يحكى لنا الكتاب) (٢٦) زوجا من النرد الذهبى ، ازدراء منه له ، لأنه كان قد قامر كثيرا فى حياته ، الأمر الذى يدل على أن سمعة ديمتريوس ومنزلته بين الناس لم تكن ذات قيمة مطلقا • فالرجال النبلاء لهم طرق أخرى كثيرة لضياع الوقت والترفيه عنهم والتخلص من مللهم ، وكلها طرق شريفة •

والآن سأتكلم عن القسم والتجديف الكاذب والغليظ وأقول فيهما كلمة أو كلمتين ، حسبما ورد فى الكتب القديمة • ان التجديف أمر كريه ، أما القسم كذبا فهو مكروه للغاية ، وان الله الكائن بأعالى السموات قد حرم علينا القسم ، واستشهد بانجيل متى فى هذا الصدد (٢٧) ، ويقول القديس أرميا بصفة خاصة فى هذا الشأن : « عليكم أن تحلفوا بالصدق ، وألا تكذبوا ، كما ينبغى أن تقسموا بالحق فى مجال العدل والفضيلة » • أما التجديف الطائش فهو أمر لعين » •

انظروا الى ما كتب فى اللوحة الأولى من وصايا الله ، عندما أمر بما يأتى : « لا تنطق باسم الرب الهك باطلا ، لأن الرب لا يبرىء من نطق باسمه باطلا » • فهاهو ذا يحرم علينا مثل هـذا التجديف ، قبل أن يحـرم القتل وغيره من المكروهات • أقول اذن ما أقول ، لأن هذا هو النظام الالهى القائم • وكل من فهم أوامر الله عرف أن أمره الثانى (٢٨) هو ما ذكرته • أما بعد فأقول لكم قولا بينا :

ان العقاب الشديد والثأر لن يغادرا هذه الدار التى تنطق فيها مثل هذه الأيمان الآثمة ، على النحو التالى : « قسما بقلب الله العزيز ! » « وقسما بمسامير صلبه وبدم المسيح المحفوظ فى كنيسة هيلز » (٢٩) - « ورقم سبعة هو من حسن حظى وحظك خمسة وثلاثة ، وقسما بذراعى المسيح لو غششت اللعب لاخترق قلبك خنجرى هذا ! » - وهذه هى سيئات النرد اللعين ، ومنها الحنث باليمين والغضب والتدليس والقتل العمد . أتوسل اذن اليكم بحب المسيح ، الذى مات من أجلنا ، أن تتركوا جانبا تجديفكم كبيرا كان أم صغيرا . أما الآن يا سادتى فأحكى لكم حكايتى .

فهؤلاء الشبان الثلاثة الصاخبون كانوا جالسين بحانة يشربون الخمر ، قبل موعد صلاة الفجر بكثير . وبينما كانوا جالسين سمعوا جرسا يدق فى مقدمة موكب جنائزى ، ليشيع جثة الى القبر . فنهض أحدهم وصاح لغلامه قائلا : « اسرع واسأل جثة من تحمل فى هذا الموكب ، واحرص على أن تأتى باسم صاحبها بوضوح ودقة » .

فأجابه الفتى : « يا سيدى لا داعى لذلك بتاتا . فقد أخبرت باسمه قبل أن تحضر هنا بساعتين . لقد كان والله صديقا قديما لك ، قتل هذه الليلة فجأة ، بينما كان جالسا على أريكته فى حالة ثمل مطبق . فتسلل اليه لص خفى ، يسميه الناس بالموت ، وهو يجىء ليقتل كل من يعيشون فى هذه البلدان . لقد شق قلب صديقك برمحه ، ثم انصرف ، ومضى فى طريقه لا يلوى على شىء ، وقد قتل ألف شخص فى وباء الطاعون ، الذى حل بنا . وأقول لك سيدى انك اذا أردت أن تظهر أمامه ، فيحسن أن تكون حريصا للغاية ، لأنه عدو لدود خطير . وكن على استعداد للقائه فى أى وقت ، وذلك ما علمتنى أمى ولا أقول أكثر من ذلك » . وعندئذ نهض صاحب الحان وقال : « قسما بالقديسة مريم ، هذا الفتى يقول الحق ، لأن من ذكره قد قتل ، على بعد ميل وفيق من هذا المكان فى قرية كبيرة ، كل الرجال والنساء والأطفال والرقيق والغلمان . وأعتقد أن مسكنه فى ذلك المكان ، ومن ثم يحسن أن تحترسوا كل الاحتراس ، فان ذلك من الحكمة بمكان ، حتى لا يكون مستعدا ليذل أحدكم اذلالا مشينا » . فصاح الصاخب قائلا : « أهذه هى الحال ؟ قسما بذراعى المسيح على الصليب أسأل هل من الخطورة البالغة أن ألتقى به ؟ انى مصر على مطاردته فى الطرقات والحوارى ، وأقول ذلك قسما بعظام المسيح المبجلة ! وانصتوا لى يا رفاقى فنحن الثلاثة رفقة واحدة . فليضع كل منا يده فى يد الآخر وليصبح كل منا أخا للآخر وعندئذ نستطيع معا أن نقتل ذلك الخائن الغدار المسمى الموت . وسيقتل ذلك الوغد الذى قتل كثيرين قبل الليل ، قسما بشرف الله » .

فقطع كل منهم وعدا لغيره بأن يعيشوا ويموتوا بعضهم من أجل بعض ، كأنهم اخوة أشقاء . وعندئذ نهضوا ثملين . مجانين ، وانطلقوا فى اتجاه القرية

التي ذكرناها والتي كان صاحب الخان قد وصفها لهم ، وفي أثناء ذلك نطقوا بعدة أقسام بغيضة ، مما أدى الى أنهم كادوا يمزقون جسد المسيح المبارك — وصاحوا : « سيموت الموت حتما اذا استطعنا القبض عليه » .

وبعد أن قطعوا ما لا يزيد على نصف ميل ، وأوشكوا أن يخطوا عابرين سـور حقل ، قابلهم رجـل فقير عجوز (٣٠) ، وحياهم تحية وديعة قائلا : « والآن يا سادتي رعاكم الله ! » . ونهض أكثر الصاخبين غطرسة وصـاح : (ما هذا ؛ أيها الفلاح ، لماذا تظهر لنا محجبا ، بشكل منفر ، لا تظهر شيئا شيئا سوى قسمات وجهك ؟ ولماذا عشت عمرا طويلا على هذا النحو ؟ » .

فتطلع العجوز الى وجهه وقال : السبب في ذلك أنني لم أجد رجلا مستعدا لأن يبادلني شبابه بشيخوختي ، مع أنني قد بحثت عن مثل هذا الرجل في أقصى الهند ، وفي كل مدينة وقرية مررت بها ولذلك لابد لي أن أتحمل عمري كما هو ، للمدة التي يشاؤها الله . ويلي ، ان الموت نفسـه لا يريد أن أتقبل حياتي (٣١) . ولذلك تراني أهيم على وجهي كالأسير القلق المتبرم . وأضرب الأرض بعصاي صباحا وليلا أضرب الأرض التي هي باب أمي صائحا : «يا أمي الحبيبة اسمحي لي بالدخول ! ألا ترين كيف أتلاشى لحما ودما وجلدا ؟ ويحي ! متى ترقد عظامي العجوزة ؟ يا أمي كم أنا تواق ، الى أن أستبدل بخزانة أرديتي الوجود في حجرتي منذ زمن قديم لقاءك ! آه لو كنت أرتدى كفنا من المسح الخشن ! ومع ذلك فهي لا تريد أن تترفق بي ، ولذلك فان وجهي شـاحب ومتجمد الا أنه لا يليق بأدبكم أن تسيئوا ، الى شـيخ هرم بالكلام البذيء ، وخاصة أنه لم يرتكب ما يؤاخذ عليه قولا أو فعلا . ولكم أن تطلعوا على الكتاب المقدس حيث تجدون ما يأتي : «من أمام الأشيب تقوم وتحترم وجه الشـيخ وتخشىء الهك . أنا الرب» ولذلك أنصحكم ألا تسخروا من شيخ هرم مثلي ، كما أنكم تأبون أن يسيء اليكم أحد من الناس في شـيخوختكم ، لو أتيح لكم أن تشيخوا . فالله معكم ، سواء أكنتم سائرين على أقدامكم أم كنتم تمتطون جيادا . أما أنا فعلي أن أمضي في طريقي حيث أنا ذاهب» .

فأوقفه صاحب آخر من المقامرين وقال : «قسما بالله يا أيها الفلاح ، لا لن تذهب . انك لا يمكن أن تغادرنا بمثل هذه السهولة ، قسما بالقديس يوحنا ! فأنت قد تكلمت منذ قليل عن ذلك الغدار المسمى الموت ، الذي يقضي على كل أصدقائنا في هذه البلاد . واني واثق من أنك أنت في عداد جواسيسه ، ولا أشك في ذلك . فقل لنا حالا أين هو ، والا دفعت الثمن نظير كتمانك قسـما بالله وأسراره المقدسة ! فالحق انك على اتفاق معه ، لكي تقضي علينـا في شبابنا أيها اللص الغدار ! »

فأجابهم الشيخ قائلا : « اذا كنتم حقيقة راغبين في الالتقاء بالمـوت ، فاذهبوا هناك في ذلك الطريق المعوج ، لأنني أقسم بايماني أنني تركته هناك

في تلك الغابة الصغيرة ، وكان جالسا تحت شجرة ، وسيظل جالسا تحتها . وانه ليس ممن يتوارون خوفا من تبجحكم وتهديداتكم ! أترون شجرة القرو القائمة هناك ؟ انكم ستجدونه تحتها ، والآن أقول لكم ، حفظكم مخلص البشرية ورعاكم رعاية كريمة ! » . وهكذا تكلم ذلك الشيخ ، ونهض كل واحد من هؤلاء الأصحاب ، وهرولوا حتى أدركوا تلك الشجرة ، وهناك وجدوا ثمانية أرادب من الجنيهات (٣٢) المصكوكة صكا محكما بالذهب الخالص ، أو هكذا كانت تبدو لهم . ولم يبحثوا بعد ذلك عن الموت ، لأن ما رأوه أسعدهم سعادة كبرى ، اذ أن الجنيهات كانت جميلة وبراقة متألقة ، فقرروا أن يجلسوا الى جانب هذا الكنز النفيس . ثم انطلق أشرهم قائلا : « يا اخوتى انصتوا الى ما أقوله فان ذكائى مترامى الأطراف حتى وأنا أمزح أو ألعب . لقد منحنا هذا الكنز وهو ثروة طائلة ، بها نستطيع أن نحيا في مرح وصخب ، وكما عثرنا عليه بسهولة ، فما أسهل صرفه وانفاقه على لهونا . آه قسما بكبرياء الله العزيز، من منا كان يظن أننا سننعم اليوم بما وجدناه ؟ ومع ذلك فانى أرى أنه يجب أن يحمل كل هذا الذهب من هذا المكان الى دارى أو الى دار أحدنا ـ لأنكما تعرفان حق المعرفة أن كل هـــذا الذهب هو ملكنا الآن ـ وعندئذ سنكون قد أدركنا قمة السعادة . والحق أننا لا نستطيع عمل ذلك نهارا ، فقد يقول الناس اننا لصوص أقوياء ، وقد يقررون شنقنا ، رغم أنه مالنا الخاص . ومن ثم لابد أن ننقل هذا الكنز ليلا ، بمنتهى المهارة والسرية .

ولذلك أقترح أن نجرى القرعة بيننا حتى نعرف على من تقع القرعة ثم ينهض من ترسو عليه القرعة بقلب منشرح ، ويجرى الى المدينة بأسرع ما يمكن ، ويعود الينا حاملا بعض الخبز والنبيذ سرا . أما الاثنان الباقيان فيحرسان هذا الكنز بسرية تامة ، وحينما يأتى الليل اذا لم يرض رفيقنا بالبقاء معنا بعد ذلك فاننا سنحمل الكنز معا وبالاتفاق بيننا الى حيث نرى أنه آمن مكان » .

وعندئذ قام أحدهم وقبض على القش ، في يده وأمر رفيقيه بأن يشداه وأن يراقبا أين يقع . وقد وقع على أصغرهم سنا ، فنهض ، وانطلق الى المدينة فى الحـال . وبعد أن انصرف تكلم أحـد الرفيقين الباقيين الى الآخر قائلا : « أنت تعرف حق العلم أننى أخ لك ، بحكم القسم ، الذى اشتركنا فى تأديته . وسأقول لك حالا أمرا يعود عليك بالفائدة ، انك تعلم تماما أن رفيقنا قد ذهب الى المدينة وهنا توجد كمية من الذهب كبيرة جـــدا ، سنقتسمها بيننا نحن الثلاثة . ومع ذلك لو استطعت أن أدبر الأمر بحيث لا تقســم الا بيننا نحن الاثنين ألا أكون قد خدمتك خدمة الصديق الحق لصديقه ؟ » .

فأجابه الآخر قائلا : « لا أدرى كيف يمكن أن يكون ذلك . انه يعلم تماما أن الذهب فى عهدتنا نحن الاثنين . فماذا فى وسعنا أن نفعل وماذا نستطيع أن نقوله له ؟ » . فتكلم الآخر وقال : « أيمكن أن أبوح لك بسر ؟ وأقول لك

ما قل ودل ، فيما يتعلق بما نستطيع أن نفعله ونتمه على خير وجه » . فأجابه الآخر وقال : « قبلت شرطك ، وأقسم بشرفى أننى لن أخونك » .

فقال الأول لرفيقه : « وأنت تعلم الآن أننا اثنان ، وتعلم أيضا أن اثنين أقوى من واحد . فحيتما يعود ، ويجلس بيننا ، فانهض أنت كأنك تريد أن تلاعبه ، وعندئذ أنفذ خنجرى فى ضلوعه ، وفى الوقت نفسه تتظاهر أنت بأنك تصارعه مصارعة ودية ، ثم تصنع مثل ما أكون قد صنعته أنا بخنجرك أنت . وبعد ذلك سيكون الذهب كله موزعا بينى وبينك ، ونستطيع أنا وأنت أن نشبع شهواتنا ، وأن نلعب بالنرد والزهر ، قدر ما نريد . » وعلى هذا النحو اتفق الوغدان على أن يقتلا ثالثهما ، كما سمعتمونى أحكى لكم .

أما أصغرهم الذى كان قد ذهب الى المدينة ، فقد أخذ يقلب فى مخيلته جمال الجنيهات الجديدة المتألقة . وناجى نفسه قائلا : « يارب ! ليتنى أحصل على الكنز كله وحدى ، دون غيرى لو استطعت ذلك ما استطاع أحد ممن يعيشون فى ظل عرش المولى أن يتمتع بحياة المرح والصخب مثلى ! » . ونهاية الأمر أن الشيطان ، عدونا جميعا ، أدخل فى روعه خلسة الفكرة الآمرة بأن يشترى سما لكى يقتل به رفيقيه . اذ أن الشيطان قد لاحظ فيه أسلوبا من الحياة ، جعله يضمر الرغبة فى أن يحوله الى رجل حزين تعيس وكان قصد الشاب الحقيقى هو أن يقتل رفيقيه دون أن تساوره أية رغبة فى التوبة أو الشعور بالندم . ولذلك ذهب بخطى ثابتة ولم يتوان بعد ذلك عن أن يدخل المدينة ، حيث زار صيدليا ، وطلب منه أن يبيعه بعض السم ، لكى يقتل به الفئران فى بيته . وقال ان فى حظيرته ابن عرس يفترس ديوكه المخصية ، وقال انه يريد أن يقضى على كل الهوام والفئران ، التى تضايقه ليلا . فقال له الصيدلى : « سأعطيك شيئا ، قسما بخلاص الله لروحى ، اذا أكل أو شرب أى مخلوق حساء معدا منه ، ولو بقدر حبة القمح ، للفظ أنفاسه الأخيرة ، من غير أدنى شك . أجل ! سيهلك حتما ، بل انه يهلك فى وقت أقل مما يستغرقه مشيك ميلا واحدا بخطى عادية وذلك لشدة مفعول هذا السم القاسى » .

وأمسك الشاب اللعين بيده علبة بها بعض هذا السم ، ثم هرول الى شارع جانبى ، حيث استعار ثلاث قنينات كبيرة من رجل كان يقيم به . وصب السم فى اثنتين منها ، ولكنه احتفظ بالثالثة نظيفة ، لكى يشرب منها هو . وقضى الليل كله يخطط طريقة كيف يعمل على نقل الذهب من مقره الى بيته . ولما كان هذا الشاب الصاخب (لا صادفه الحظ الحسن !) قد ملأ القنينات الثلاث بالنبيذ ، عاد ليلتقى برفيقيه .

وبم يمكن أن أكمل موعظتى ؟ انهما اذ كانا قد خططا لقتله من قبل نفذا فيه ذلك فى الحال . ولما قضى الأمر تكلم أحدهما قائلا : « فلنجلس ونشرب معا ولنله ، وبعد ذلك ندفن جثته » . ثم حدث بمجرد المصادفة أن مد يده ليأخذ

القنينة التى بها السم ليشرب منها ، وأعطى القنينة لرفيقه ليشرب منها بدوره وهكذا فعلا ، وترتب على ذلك أن مات الاثنان ٠

وانى أعتقد حقا أن ابن سينا نفسه لم يكتب قط فى قانونه ولا فى أى فن فى أى كتاب عن أعراض للتسمم أغرب مما أصاب النذلين المغتالين اللذين هلكا قبل أوانهما ، كما هلك المسمم الغدار ٠

يا أيتها الرذيلة اللعينة يامن أنت ممتلئة باللعنات ! يا أيتها الاغتيال الغادر ! يا أيها الأذى الشرير ! أيها النهم ! أيها الفجر ! ياروح المقامرة يامن يكفر بالمسيح كفرا شريرا ، ويقسم بالايمان الغليظة ، أما بسبب التعود أو بداعى الكبرياء والغطرسة ! ويح لك أيها الجنس البشرى ! كيف يحدث أن تقدم على خيانة خالقك والكفر به بعد أن افتداك بدمه الغالى ؟ والآن أيها الخيرون ، سامحكم الله وغفر ذنوبكم ورعاكم ، حتى لا تقعوا فى اثم البخل ٠ ألا فلتحفظكم شهادات الغفران التى أعطيها فى مقابل نقود ثمينة ، من جنيهات ودنانير ، أو حليات فضية وملاعق وخواتم ٠ ألا فاحنوا رؤوسكم أمام هذا المرسوم البابوى المقدس ! تعالين أيتها الزوجات ، وقدمن أنسجتكن الصوفية ! ودعونى أسجل أسماءكن فى قائمتى هنا ، وسيكون مصيركن جميعا الى جنات الخلد ٠ انى أخلصكن من ذنوبكن بمقتضى السلطة العليا ، التى فوضت بها ، وأقدم لمن تعطينى منكن فرصة ، أن تعود صافية بريئة مثلما كانت يوم ميلادها ٠ وهذا ياسادتى هو موضوع موعظتى ٠ أما يسوع المسيح الذى هو طبيب نفوسنا ، فانى أمنحكم غفرانه ، وهذا خير لكم ٠ وانى أخدعكم فى أمر مهم مثل هذا ٠

ولكن يا سادتى هناك كلمة واحدة نسيتها فى حكايتى : ألا وهى أنى أحمل معى بعض البقايا للأولياء والقديسين وشهادات بالغفران الالهى فى جعبتى ، بالقدر الموجود لدى أى انسان فى انجلترا وكلها قد أعطيت لى من يدى البابا نفسه ٠ فاذا قدم لى أحدكم شيئا ، على سبيل التبرع ، بدافع من العبادة والتقوى حصل على الخلاص بيدى ، فتعالوا وتقدموا الى الأمام ، واركعوا بين يدى ، وتلقوا الغفران منى بروح وديعة متحشمة ، والا فخذوا معكم (قبل أن تغادروا هذا المكان) شهادة غفران جديدة ، لم تستعمل من قبل ، على شرط أن تقدموا دائما المرة تلو المرة دنانير وفلسات غير مزيفة وجديدة ٠ وانه لشرف لكم جميعا هنا أن يصاحبكم بائع مخضرم لشهادات الغفران الالهى فى رحلتكم، خوفا من الأحداث والمصادفات ، التى قد تصيب واحدا أو اثنين من رفقتكم ، مثل الوقوع من فوق الجواد ، والموت بقطع الرقبة ٠ ألا فانظروا الى ، واعتبرونى ضامنا لكم جميعا مادمت أشترك معكم فى رحلتكم ٠ وأستطيع أن أخلصكم جميعا من ذنوبكم ، مهما كبر أو صغر شأنكم ، فى الوقت الذى يلفظ الجسد روحه ٠ وانى أقترح أن يبدأ مضيفنا بهذا الأمر لأنه هو الأكثر تغلفا بغلاف الخطيئة ٠

تقدم اذن يا سيدى المضيف ، وأعطنى نقودا قبل غيرك ، وعندئذ أدعك تقبل البقايا المحفوظة هنا • أجل تستطيع ذلك فى مقابل النزر اليسير من النقود ، فافتح جعبتك • فصاح المضيف مجيبا : « لا ، لا خير لى أن يلعننى المسيح نفسه ! ألا فاتركنى وحالى ! لن يحدث ما تريد ، قسما بحياتى ومستقبلى ! أنت تريد أن أقبل سروالا قديما خلعته ، منذ أمد طويل ، وتريد كذلك أن أقسم أمام الجميع أنه من بقايا قديس من القديسين ، ولو أنه ملوث ببقع برازك العفن ! ومع ذلك فانى أقسم بالصليب ، الذى وجدته القديسة هيلانه أننى أتمنى أن أقبض على خصيتيك بيدى ، بدلا من البقايا المحفوظة فى مكان مقدس • ألا فليقطعا ، وسأساعدك على حملها ، وأرصع بهما روث خنزير ! » •

ولم يفتح بائع شهادات الغفران فمه لشدة غضبه ، حتى أنه لم يستطع أن ينطق بعبارة واحدة •

ثم صاح مضيفنا قائلا : «والآن لن أداعبك بعد ولن أمزح مع أى رجل غاضب مثلك » •

ولكن الفارس النبيل نهض حينما رأى الناس كلهم يضحكون ، وقال : كفانا كل هذا فقد شاهدنا منه ما يكفينا تماما ! وأنت يا سيدى بائع شهادات الغفران كن راضيا منشرح النفس • أما أنت يا سيدى المضيف ، يا من أعزه أى اعزازه ، فأرجو أن تقبل بائع الشهادات ، وأن تصفح عنه • وأنت يا أيها البائع اقترب منى من فضلك • فدعونا كما كنا نمرح ونلهو » •

وعندئذ قبل بعضهم بعضا ومضوا جميعا فى طريقهم •

هوامش حكاية بائع الشهادات

(١) هذه الحكاية يمكن اعتبارها مثلا لنوع من القصص الاخلاقى الذى كان شائعا فى العصور الوسطى ، ويمكن تسميتها « بالشاهد القصصى » ترجمة للمصطلح اللاتينى exemplum وكان هذا النوع من الحكاية عبارة عن أقصوصة ، يستشهد بها فى المواعظ والخطب على صحة مبدأ خلقى ، وكانت تعتبر بمثابة شرح لمغزى ذكر فى مستهل الموعظة ، كما هى الحال فى الحكاية التى نحن بصددها ، عندما يبدأ الراوى شبه موعظته بالعبارة اللاتينية Radix malorum est cupiditas المأخوذة من الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس ، والتى جاءت فى الترجمة العربية على النحو التالى : « محبة المال أصل لكل الشرور » الا أن الترجمة الحرفية هى أصل الشرور الطمع (أو الجشع) • ولو بحثنا عن مقابل لمثل هذه الأمثال القصصية أو الشواهد القصصية عند العرب لوجدناه فى الأقاصيص ، التى تحكى عن جهاد النبى محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، لتأييد مبدأ الجهاد فى سبيل الله ، ويبدو لمن يقرأ القصة التى نحن بصددها أنها مزيج من القصة والموعظة ، بل ان بعض النقاد عرضوا التحليل للقصة كلها على أنها قابلة للتقسيم المعروف للموعظة فى العصور الوسطى • فالموضوع الدال يأتى أولا ، ثم يعلق عليه ، ثم يجىء الشاهد القصصى (من ١٣٥ الى ٥٦٦) ثم ما يمكن اعتباره خلاصة الموعظة ، أو خاتمتها (من ٥٦٧ الى ٥٨٧) ، ثم بعد ذلك البركات الختامية (من ٥٨٨ الى ٥٩٠) • على أن تكون الأبيات ٥٩٠ الى ٦٤٥ مجرد دعابة منفصلة ، المقصد منها ادخال الحكاية فى اطار الحديث والمجادلة أثناء الرحلة • ومع ذلك فان الحكاية لا يمكن وصفها بأنها موعظة بالمعنى الدقيق اذ أنها ينقصها كثير من عناصر الموعظة الكنسية ، وتكاد تكون مقصورة على الناحية السردية فى الموعظة ، التى كانت فى العادة تكون الجزء الأخير من المواعظ المألوفة فى الكنائس • أما حوادث القصة الأخلاقية ، فيبدو أن لها مصدرا شرقيا بعيدا يدور حول أسطورة من الأساطير (Jatakas) المتصلة بحياة بوذا • أما بالنسبة للمصدر الذى استقى منه تشوسر حكايته فيبدو أنه قد لجأ الى أكثر من مصدر فحكاية اللصوص والكنز وان كانت أصلا من الشرق الأقصى ، الا أنها انتقلت الى القصص الفارسى حيث انتقلت ملابسات القصة من حياة بوذا الى حياة المسيح • وهناك قصة بهذا المعنى لفريد الدين العطار حيث تختم القصة بتحويل المسيح لكنز الذهب الى كوم من التراب بعد أن يشهد ما أدى اليه الجشع من خلاف وشقاق ثم انتقلت الى روايات عربية ، ومنها الى الأندلس واللغات الاسبانية والبرتغالية واللغة البروفنسية فى جنوب فرنسا واللغة الايطالية •

أما القصص الايطالية فى هذا الموضوع فلم تظهر الا فى القرن السادس عشر وتتعلق أحداثها بالمسيح أيضا ولكن بلصين فقط لا ثلاثة وهناك مسرحية ألمانية ترجع أيضا الى القرن السادس عشر لهانز ساكس (Hans Sachs) طبعت سنة ١٥٥٥ وعنوانها Der Dot in Stok ويبدو أن كل هذه القصص المتشابهة لها مصدر فى القصص الشعبى ، وهى تشبه الى حد بعيد القصة رقم ٧٦٣ فى تصنيف آرنى (A. Aarne) لأنواع القصص الشعبى ويبدو أن هناك مصدرا محتملا آخر هو القصة الأخلاقية التى أعدها القسيس توما كانتمبرى (Thomas Cantimpré) باللاتينية ضمن مجموعة من هذه القصص لكى تستخدم فى المواعظ وقد عاش القرن الثالث عشر

أى قبل حياة تشوسر بمائة سنة . هذا فيما يتعلق بالموضوعين الرئيسيين اللذين يكونان الشاهد الأخلاقى « للحكاية التى نحن بصددها . أما الموضوع الدال فى هذه الحكاية الخاص بالبحث عن الموت أو مطاردته فله أصل أيضا فى القصص والأساطير الشرقية التى تتناول خيـاة بوذا أو المسيح كما يبدو أيضا أن هناك تشابها بين هذه الأحداث وأسطورة « اليهودى التائه » التى كانت منتشرة بكل أنحاء أوربا فى العصور الوسطى ، وكانت مدونة باللاتينية ، وباللغات الأوربية الحية حينذاك . ويمكن اضافة عنصر آخر الى حكاية اليهودى التائه ، هو ما جاء فى المرثية الأولى التى كتبها ماكسيميانوس (Maximianus) الذى عاش بروما فى القرن السادس الميلادى ، وكتب ست مرثيات مستوحاة من روح الشعر اللاتينى فى عصره الذهبى ، على يد فرجيل وهوراس وأوفيد . ووصف الشيخ الهرم لدى تشوسر فيه عناصر كثيرة من مرثية ماكسيميانوس الأولى . ويلاحظ أن ترجمة انجليزية منظومة قد دونت المرثية فى سنة ١٢٧٠ م تقريبا . وهناك احتمال أن يكون تشوسر قد عرف هذه الترجمة .

(٢) (كلمات المضيف الى الطبيب وبائع شـهادات الغفران) ـ هذا التمييز بين مواهب الطبيعة ومواهب الحظ كثير الحدوث فى آداب العصور الوسطى . فالعادة فى الوصف أن تنسب مفاتن الجسم والصفات الروحية للفرد الى عمل الطبيعة (فى ظل الرعاية الالهية بطبيعة الحال) . بينما تنسب الظروف الاجتماعية الظاهرة مثل المنزلة الاجتماعية والتوفيق والطبقة عادة الى ربة الحظ (التى تدير عجلة الحياة معصوبة العينين بالتصاوير الرمزية لها فى تلك العهود) .

(٣) كان العقار الهبقراطى عقارا منسوبا الى صاحبه كدواء مفيد لأمراض المسالك البولية ، ولكن للعبارة « أبوقراط » معنى آخر فى العصور الوسطى هو اسم شراب مسكر كان يتكون من النبيذ الأحمر والسكر والبهارات المختلفة . وسمى هكذا لأن المصفاة التى يعد من خلالها هـذا الشراب كان يسمى « بكم هيبوقراط » . أما النسبة الى جالينوس فيبدو أنها من اختراع الشاعر فلا يوجد أى دليل آخر على هذه النسبة فى آداب العصور الوسطى .

(٤) الاسم الأصلى فى النص « رونيان » (Ronyan) ولكن هذا تحريف لاسـم القديس نينيان (Ninian) وهو بريطانى الأصل توفى فى منتصف القرن الخامس الميلادى كان أسقفا لشـمال بريطانيا ابان تنصر أهلهـا . وأمر ببناء كنيسـة من الحجر فى بلدة « هويتهورن » (Whithorn) بجنوب سكتلندا وسميت هذه الكنيسة بالدار البيضاء (Candida Casa)

(٥) الترياق كلمة عربية معناها دواء السـموم من أصل يونانى ودخلت اللغات الأوربية الغربية . فالكلمة الانجليزية القديمة هنا Triacle دخلت اللغة من كتب الطب العربية لا من اليونانية مباشرة .

(٦) هذه اشارة الى العداوة التى كانت تسود بين بائعى شهادات الغفران المتجولين والقسس المعينين فى الكنائس . فلا شك أن القسس كانوا يجدون شبه منافسة غير شريفة من هؤلاء الجوالة الذين كانوا يحتمون بالبابا على حساب مصادر الرزق للقسس خاصة فى الريف والقرى التى يكون أهلها محدودى الدخل .

(٧) كان هذا اللقب أصلا مقصورا على رئاسة الكنائس الثلاث التى كان رسل المسيح قد أسسوها فى الشرق بعد موت المسيح . وهى فى انطاكيا والأسكندرية وروما . ثم امتد استعمال اللقب ليشمل المطارنة الذين كانوا يعملون فى طوائف مسيحية كبيرة ويرأسـون غيرهم من الأساقفة ، الأمر الذى جعل هذا اللقب يتصل بمطرانية البندقية ولشبونة ومطرانية القسطنطينية (وهى أهم المطرانيات بعد تنصر أباطرة الدولة الرومانية الشرقية ، ونتيجة لذلك سمى بطريرك القسطنطينية « بالبطريرك العالمى ») .

(٨) اشارة الى أحد أنبياء العهد القديم وأغلب الظن أن المقصود به هنا يعقوب .

(٩) كان « المارك » يساوى ثلثى الجنيه فى ذلك الوقت ويمكن تقدير القيمة بضربها فى ٣٠ حتى نأخذ فكرة تقريبية عنها فى يومنا هذا .

(١٠) كان يرى بعض الشراح أن الاشارة هنا الى بولس الرسول ، ولكن الأحرى أن المقصود به هو بولس الناسك وهو من الرهبان المصريين الذين عاشوا بصحراء صعيد مصر فى منتصف القرن الرابع الميلادى . وهناك رواية قديمة فى الكنيسة القبطية أنه عاش ما يزيد على ١٠٠ سنة فى كهف ناسكا متضرعا الى الله ، وأن القديس أنطون زاره فى شيخوخته الهرمة ، وحضر وفاته ولف جثته فى عباءة القديس أثانسيوس ، ودفنها فى الرمال . ويروى عنه أن طيور الصحراء كانت تطعمه يوميا الا أنه كان يصنع السلال ليضع فيها غيره من ناسكى الصحراء الخبز والثمر الذى كانوا يأكلونه على مر السنة . أما بولس الرسول فكان خياما حسب ما روى عنه فى « أعمال ارلسل » ، الاصحاح الثامن عشر ، الآية الثالثة .

(١١) رسالة بولس الرسول الى أهل أفسس ٥ : ١٨ .

(١٢) قصة لوط فى سفر التكوين ١٩ : ٣٣ .

(١٣) اشـــارة الى « التـــاريخ الانجيى » (Historia Evangelica) الذى نشر مع « التاريخ المدرسى » (Historia Scholastica) لبطرس « الأكول » (Petrus Comestor) المتوفى سنة ١١٧٩ تقريبا ، وكان عالما كنسيا من البلاد الفلمنكية كتب تاريخه منذ قصة آدم وحتى نهاية ما جاء بالكتاب المقدس واعتبر كتابه مرجعا فى تاريخ الكتاب المقدس طوال العصور الوسطى . أما نسبة النمل لهرودس فلم تذكر فى هذا التاريخ الا أنها جاءت فى شرح له لفانسان دى بوفى (Vincent de Beauvais) الراهب الدومينيكى الذى عاش فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى ، وكتب موسوعة كبرى سماها « المرآة الكبرى (Speculum Maius) وقسمها الى « مرآة الطبيعة (Speculum Naturale) » ومرآة الفقه » (Speculum Doctrinale) و « مرآة التاريخ » (Speculum Historiale) وكانت هذه الموسوعة محاولة لتدوين كل أنواع المعرفة فى ثمانين جزءا تنقسم الى ٩٨٨٥ فصلا . ووصف الملك هيرودس جاء فى « مرآة التاريخ » (الجزء ٧ الفصل ٢٢) وهو بمثابة شرح مطول لكتاب بطرس الأكول .

(١٤) هو لوسيوس أنيوس سينيكا (Lucius Annaeus Seneca) السياسى والفيلسوف الرومانى الذى عاش منه سنة ٤ ق.م الى سنة ٦٥ م والاشارة هنا الى احدى رسائله الفلسفية الأخلاقية (رقم ٨٣) .

(١٥) أصل هذا التعبير المجازى (كناية عن لذة البلع القصيرة الفانية) جاء فى كتـــاب باللاتينية لعب دورا كبيرا فى تاريخ الفكر بالعصور الوسطى هو « رسالة فى ازدراء الدنيا » (De Contemptu Mundi) فى الكتاب الثانى الفصل السابع عشر ، وكان مؤلف هذا الكتاب هو البابا انوكنتوس الثالث (Innocentus III) هناك صدى لنفس التعبير المجازى فى « رسالة القديس ايرونيس ضد جوفينيانوس » (Jerome Adversus Jovinianum) الفقرة ٨ من الكتاب الثانى .

(١٦) رسالة بولس الرسول الى أهل فيلبى ٣ : ١٨

(١٧) هذه عبارة مأخوذة من لغة الفلاسفة المدرسيين بالعصور الوسطى والغرض منها الدعابة الساخرة الخفيفة وجاء « بالمعجم الفلسفى » لمجمع اللغة العربية بالقاهرة تحت مصطلح « واقعية »

ما يأتى : ... « ٢ - فى مشكلة المعرفة ، نظرية تذهب الى أن للمعانى والكليات وجودا مستقلا فى الذهن ، وترجع الى نظرية المثل الأفلاطونية . وتوسع فيها المدرسيون وقابلوا بينها وبين التصورية والاسمية ، وتلك هى مشكلة الكليات المعروفة » . فالاشارة فى النص الى نظرية الواقعية (المخالفة لنظرية الاسمية) القائلة بأن الجسم جوهر واللون عرض ، أو ما لا يدخل فى تقويم الذات كالقيام والقعود بالنسبة للانسان .

(١٨) رسالة بولس الرسول الأولى الى تيموثاوس ٥ : ٦ .

(١٩) لا معنى لهذه العبارة سوى أنها مستعملة كاسم صوت فيه محاكاة للهجة الثمل المتلعثمة عندما يحاول أن يتكلم .

(٢٠) « ليبى » Lepe مدينة فى جنوب غربى أسبانيا بالقرب من قادش (Cadiz) اشتهرت بقوة نبيذها .

(٢١) شارع فيش (Fish) فى حى (Cheapside) بالقرب من نهر التيمز فى لندن كان قريبا جدا من شارع تيمز (Thames) الذى كان يملك فيه والد تشوسر متجرا للنبيذ . ويبدو أن الشاعر كان يريد هنا أن يلمح الى صناعة أبيه تلميحا رقيقا .

٢٢ مدينتا بوردو (Bordeaux) ولاروشيل (La Rochelle) كانت تعبأ فيها أنواع النبيذ الفرنسى التى كانت تصدر الى انجلترا بكميات كبيرة . أما النبيذ الأسبانى فكان يعتبر أقل جودة منه ، وكان يخلط به لأغراض تجارية غير شريفة .

(٢٣) أتيلا (Attila) ملك الهون (Huns) الذى توفى سنة ٤٥٣ م واجتاح أوروبا من نهر الراين الى حدود الدولة الصينية كما دمر أغلب المدن القائمة بين البحر الأسود والبحر المتوسط ، وفرض الجزية على دولتى الرومان شرقا وغربا . واعتبره الكثير من الأتقياء عقابا وقع على المسيحيين لسلوكهم الآثم فلقبوه « غضب الله » أو « سوط الله » . وهناك روايتان عن كيفية موته احداهما أنه مات من جلطة فى المخ نتيجة لليلة حمراء ، والأخرى أنه قتل على يد زوجته .

(٢٤) جاءت هذه الحكاية فى سفر الأمثال ٣١ : ٤ .

(٢٥) اسم « سيتلبون » تحريف لاسم أحد حكماء اليونان السبعة (فى القرن السادس ق.م) وهو « خيلو » (Chilo) وجاء اسمه والقصة المنسوبة اليه فى كتاب باللاتينية اسمه « فى تفاهات المستشارين » (De Nugis Curialium) للكاتب الانجليزى جون أوف سولزبرى (John of Salisbury) المتوفى سنة ١١٨٠ م الذى كان أسقفا وفيلسوفا مدرسيا وصديقا للمطران توماس آبكت (Thomas à Becket) الذى اغتيل والمعروف أن تشوسر كان شغوفا بقراءة ما كتبه هذا الأسقف ، ولكن الخطأ فى الاقتباس هنا دليل على أنه كان يعتمد هنا على الذاكرة لا على القراءة .

(٢٦) هذه الحكاية مأخوذة كسابقتها من نفس المصدر المذكور أعلاه .

(٢٧) انجيل متى ٦ : ٣٤ .

(٢٨) هو الأمر الثانى فى الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس للقديس ايرونيمس (St. Jerome) ولكنه يصبح الأمر الثالث فى الترجمة الانجليزية التى أصبحت أساس النصوص المأخوذ بها بعد عصر الاصلاح . وكان تشوسر بطبيعة الحال يستعمل الترجمة اللاتينية .

(٢٩) كانت كنيسة هيلز (Hailes) فى جنوب انجلترا تفخر بأن لديها قنينة صغيرة فيها بعض دم المسيح ، وكان الناس يزورون هذه الكنيسة ليتباركوا برؤية هذه القنينة .

(٣٠) يبدو أن ذكر الشيخ هنا من صميم ابتكار تشوسر ولا ذكر له فى أى رواية أخرى لهذه القصة . والاحتمال الوحيد أنه يكون قد استوحاه من مرثية ماكسميانوس المذكورة فى أول هامش لهذه الحكاية ، أو من القصص الشعبى الخاص بأسطورة اليهودى التائه .

(٣١) هنا يقترب النص مما جاء فى المرتبة الأولى لماكسميانوس .

(٣٢) هناك حكاية وردت فى كتاب الحيوان للدميرى تتلخص فى أن أحد الأولياء اصطحب رجلا ، وجلسا للغداء ، فاختلس الرجل رغيفا وأكله ، وسأله الولى عن الرغيف فأنكر أنه قام باختلاسه . ومر بهما ظبيان ، فدعا الولى أحدهما ، وذبحه ، وشوى لحمه ، وأكلا بعضه ، ثم أمر الولى الحيوان بالقيام فدبت فيه الحياة . وعندئذ سأل الولى الرجل عن الرغيف واستحلفه أن يقول الحق بعد أن شهد هذه المعجزة فأنكر الرجل للمرة الثانية أنه أخذ الرغيف . فأمر الولى التراب أن يتحول الى ذهب ، ثم قسم هذا الذهب الى ثلاثة أقســـام ، وجعل ثلثه له ، والثانى للرجل ، والثالث لمن أخذ الرغيف . وعندئذ بادر الرجل بالاعتراف بأنه هو الذى أخذ هذا الرغيف ، فأعطاهالولى الذهب كله وانصرف . ومر بالرجل رجلان آخران ، وهما بقتله للاستيلاء على الذهب ، فاقترح عليهما تقسيم الذهب بينهم ، وطلب منهما أن يرسلا أحدهما لاحضار طعام . وانطلق هذا الرجل ثم عاد اليهما بالطعام بعد أن وضع فيه سمها ليقتلهما . وكانا قد اتفقا على قتله للاستئثار بنصيبه من الذهب . وما أن وصل اليهما حتى انقضا عليه وقتلاه . ثم أكلا الطعام الذى أحضره لهما فماتا . ومر الولى بالمكان فرأى الذهب وحوله القتلى الثلاثة .

(٣٣) الاشارة هنا الى « القانون فى الطب » لابن سينا الذى كان يدرس بكل جامعات أوربا وقتئذ فى ترجمة لاتينية . وكان هذا الكتاب يقسم الى ما سماه مؤلفه « بفنون » ، ونقلت كلمة « فن » الى الترجمة اللاتينية كما هى ودخلت اللغة بمعنى فصل أو باب ولكن فى مجـال كتب ابن سينا فقط .

(٣٤) كانت القديسة هيلانة أم الامبراطور قسطنطين الأول الذى أصبح نصرانيا ونصر الدولة الرومانية الشرقية فى عهـده . ويروى أن القديسة هيلانة كانت قد عثرت على بقايا الصليب الأصلى الذى صلب عليه المسيح . وأن الكنيسة الغربية قد جعلت يوم ٣ مايو من كل سنة عيدا لاكتشاف الصليب المنسوب الى القديسة هيلانة .

حكاية البحار (١)

هنا تبدأ حكاية البحار :

فى قديم الزمان كان هناك تاجر يعيش فى قرية سان دينى (٢) وكان غنيا، ومن ثم اعتبره الناس حكيما · وكانت له زوجة جميلة جدا ، وكانت خلافه أنيسة ومحبة للهو والمرح · وهذه حالة تستدعى انفاق مزيد من المال فى مقابل الاحترامات والمغازلات ، التى يوجهها الى النساء فى ليالى المرح · اذ أن مثل هذه المجاملات والايماءات تفنى كلها وتنقضى ، مثلما يمضى الظل الملقى على جدار الحجرة · ومع ذلك فياويح من يضطر الى تحمل نفقات كل ذلك ·

أما الزوج فهو الذى يتحمل النفقات ، اذ عليه أن يكسونا ، وعليه أن يزيننا بالحلى ، لكى يرفع من شأنه فى المجتمع ، فى حين أننا نتمتع بالأثواب الفخمة ، ونرقص بها فى الحفلات · واذا اتفق أنه لم يستطع أن ينفق علينا ، أو اذا كان يأبى أن يتحمل مثل هذه النفقات ، اعتقادا منه أن ذلك مال ضائع ، فانه يتحتم عندئذ على شخص غيره أن يتولى الانفاق علينا ، أو أن يهبنا بعض الذهب ، وهذه الحالة محفوفة بالأخطار ·

وكان هذا التاجر الفاضل رب بيت كريم ، وكانت تتردد عليه أعداد كبيرة من الضيوف لسخائة فى استضافتهم ، ولأن زوجته كانت فاتنة للغاية · الا أننى أرى أنه يجدر بكم أن تنصتوا الى حكايتى ·

كان من بين كل ضيوفه ، كبارهم وصغارهم ، راهب وكان هذا الراهب رجلا وسيما مقداما ، (وانى أعتقد أنه كان لم يتجاوز الثلاثين من عمره) ، وكان من أكثر المترددين على هذه الدار الكريمة · وكان هذا الراهب الشاب

الوسيم يعرف الرجل الطيب ، منذ أمد بعيد ، وكان على ألفة معه فى بيته الى أقصى حد ، يستطيعه أى صديق مع صديقه ٠

اذ أن هذا الرجل الطيب وذلك الراهب ، الذى حدثتكم عنه من قبل ، من نفس القرية ، وقد ادعى الراهب أن الرجل الطيب قريب له ٠ أما هذا الأخير فلم يعترض عليه مرة واحدة ، بل ابتهج لذلك بهجة الطيور بالتيار ، لأن هذه القرابة كانت مصدر سعادة كبرى له ٠ وعلى هذا النحو ربطت بينهما روابط حلف سرمدى ، وأصر كل منهما على طمأنة صاحبه باتصال الأخوة الدائمة بينهما طوال حياتهما ٠ وكان السيد الراهب جون كريما للغاية ، بل كان سخى العطاء مع أهل هذا البيت ، كما كان دائما مشغوفا بأن يخدم غيره ويسعده ، وكان كثير العطاء ، فلم ينس أبدا أن يعطى أقل الغلمان شأنا فى ذلك البيت ٠ وكان يعطى كل واحد من أهل البيت حسب منزلته ، فأغدق بما يليق على رب البيت وعلى كل فرد من حاشيته ، الأمر الذى جعلهم جميعا يسعدون لمجيئه سعادة الطائر بانبلاج الفجر ٠ وكفانا هذا الآن ولننتقل الى حكايتنا ٠

لقد حدث ذات يوم أن أعد التاجر العدة ليرحل الى مدينة بروج ، لكى يشترى منها بعض السلع ٠ ومن أجل ذلك أمر أحد رسله أن يذهب الى باريس ليرجو السيد الراهب جون أن يحضر الى سان دينى ليقضى السيد معه ومع زوجته بعض الوقت يوما أو يومين ، وذلك قبل مغادرته البيت ليذهب الى بروج ٠

وكان هذا الراهب النبيل ، الذى أحدثكم عنه ، قد حصل على ترخيص خاص من رئيس الدير ، الذى ينتمى اليه ، لأنه كان رجلا على جانب كبير من الحكمة ومحترما للغاية ، بل كان من كبار ملاحظى الدير ، ومكلفا بالتجول فى أملاك الدير ، ليتفقد مخازنه ومستودعاته الفسيحة للغلال ، فجاء الى قرية سان دينى ٠ ومن من الناس أجمعين كان يلقى ترحيبا به مثل الترحيب الذى حظى به سيدى الراهب جون قريبنا العزيز مثال الأدب وآية التهذيب ؟ لقد أحضر معه اناء من النبيذ اليونانى المعتق كما أحضر آخر ممتلئا بأرقى أنواع النبيذ الأحمر الايطالى وبعض الطيور البرية كما جرت عادته ٠ وهكذا أترك هذا التاجر وذاك الراهب معا ، وهما يتناولان الطعام والشراب وينعمان بفنون اللهو واللعب لمدة يوم أو يومين ٠

وفى اليوم الثالث نهض التاجر ، وأخذ يفكر تفكيرا جادا فيما يحتاج اليه من أشياء ، وذهب الى مخزن نقوده ، لكى يقدر احتياجاته على النحو المراد ، ولكى يتعرف على موازنة أمواله فى تلك السنة ، وليقف على حال تصريفه لبضاعته ، حتى يعرف ما اذا كان قد كسب أو خسر ، على مدار السنة ، فطرح أمامه على منضدته كتب حساباته ودفاتره وأكياس النقود ، وكان ما اقتناه كثيرا ونفسيا ٠ لذلك نهض ، وأغلق باب مكتبته ، خوفا من أن يطلع أحد على حساباته فى ذلك الوقت ٠ وجلس على هذا النحو حتى حانت الساعة التاسعة صباحا ٠

أما السيد الراهب جون فقد استيقظ فى الصباح ، وأخذ يتريض فى

الحديقة من هنا وهناك • وأدى صلاته الصباحية على نحو لائق مهذب • وبينما كان يصلى نزلت زوجة التاجر الى الحديقة خلسة ، حيث كان الراهب يمشى مشيته الرقيقة ، وحيته كما كانت تفعل كثيرا من قبل • وكانت تصحبها فتاة ، تعمل وصيفة لها ، وكانت صغيرة مطيعة لأوامر سيدتها لأنها كانت لا تزال فى سن الطاعة والائتمار • وقالت السيدة : « يا ابن عمى العزيز ، يا سيدى جون مالك تنهض فى مثل هذه الساعة المبكرة ؟ » • فأجابها قائلا : « يا ابنة عمى ان المفروض ألا ينام المرء أكثر من خمس ساعات ليلا ، ما لم يكن شيخا هرما ، مثل أولئك المتزوجين الذين يختفون فى فراشهم ، كما يفعل الأرنب البرى المرهق المفزوع الذى تطارده كلاب الصيد كبارها وصغارها • ومع ذلك يا ابنة عمى العزيزة لماذا شحب وجهك على هذا النحو ؟ انى أقسم أن صديقى الكريم قد بذل قصارى جهده معك منذ أن بدأت الليلة ، ولذلك أرى أنه يحسن أن تعودى بسرعة الى فراشك » • وبعد أن نطق بهذه الكلمات انفجر ضاحكا فى مرح واحمر خجلا مما كان يضمره من أفكار •

أما الزوجة الجميلة فقد هزت رأسها قائلة : « آه أنت يا الهى عليم بكل شىء ، وأقول « لا يا ابن عمى ، ان الحالة ليست كذلك ، فقسما بالله الذى منحنى نفسا وحياة أنه لا توجد فى كل أنحاء مملكة فرنسا زوجة ، تتمتع بأقل مما أتمتع به أنا من متسع تلك اللعبة المنحوسة وانه ليحق لى أن أغنى أغنية « ويلى وويح اليوم الذى ولدت فيه » • ومع ذلك فانه لا يحق لى أن أشكو حالى لأى انسان ، ولذلك بدأت أفكر فى أن أغادر هذه البلاد ، أو أن أنتحر لشدة وهمى » •

وعندئذ أخذ راهبنا هذا يحدق فى الزوجة هذه وقال : « ويل لك يا ابنة عمى لا سمح الله لك بأن تقتلى نفسك ، بسبب أى أسى كان أو أى خوف • ومع ذلك فهيا صارحينى بما يحزنك فقد أستطيع أن أنصحك وأنت فى همك هذا ، أو أن أمد لك يد العون • تعالى اذن وقولى لى ماذا يشقيك • أما وأنا سوف أكتم سرك • وانى لأقسم بكتاب الصلاة هذا أنه حتى لو مزقنى الناس اربا اربا ، فلن أفشى أبدا سرك ، ولو أدى ذلك الى طردى الى جهنم • وأقسم بذلك لا بسبب ما بيننا من صلة القرابة أو النسب ، وانما فى سبيل المحبة والثقة السائدة بيننا •

وعلى هذا النحو تبادلا القسم والحلف ، وتبادلا القبلات توثيقا لذلك ، وأسر كل منهما للآخر بما يضمره من سر • ثم قالت الزوجة : « يا ابن عمى لو أتيحت لى فرصة من الزمن (ولم تتح لى هنا) لرويت لك سيرة حياتى ، ولقصصت عليك ما عانيته من شقاء ، منذ أن أصبحت قرينة لزوجى وهذا برغم أنه قريب لك • فقاطعها الراهب قائلا : « كلا ، كلا •• قسما بالله وبالقديس مارتن (٣) انه لا تربطه بى صلة قرابة ، أكثر من هذه الورقة المعلقة بتلك

الشجرة ! وانى ، قسما بالقديس دينى راعى فرنسا ألقبه كذلك لا لأمر إلا لكى أستطيع التقرب منك يا من أحببتها أكثر من أية امرأة أخرى حبا مخلصا ٠

وهذا أمر ، أنا مستعد أن أقسم عليه قسما برسالتى فى الحياة ٠ فهيا يوحى لى بما يحزنك ، قبل أن ينزل من حجرته ، وأسرعى حتى يمكن أن تتصرفى بعد ذلك بأمان » ٠

فقالت له : « يا حبى العزيز ٠٠ يا سيدى جون ، لشد ما أبغض أن أبوح بسرى ، ولكن لابد لى الآن من ذلك ، فانى لا أستطيع أن أصبر أكثر مما صبرت ٠ ان زوجى هذا هو أسوأ رجل وجد منذ بداية الكون ٠ ولكن لأننى زوجة شرعية له فلا يليق بى أن أخبر أحدا عما يدور سرا فى حياتنا الخاصة ، لا فى فراشنا ولا فى أى مكان آخر من الدار ٠ وأطلب من الله الستر من فضله تعالى ، لكى لا أبوح بأسرار أسرتنا ! وحسب ما عرفته ، لابد أن تتكلم الزوجة عن زوجها بما يشرفه ٠ ومع ذلك فسوف أحدثك عن بعض الأمر : وانى ، قسما بعون الله تعالى ، أقر أنه لا يساوى بأية حال من الأحوال ذبابة واحدة ٠ وأكثر ما يؤلمنى أنه بخيل للغاية ٠ وأنت تعلم جيدا مثلما أعلم أن النساء يرغبن بفطرتهن أن يحصلن على أمور ستة : انهن يرغبن أن يكون أزواجهن مقدامين حكماء أغنياء وكرماء أيضا ، ومطيعين لزوجاتهم ، ونشطين فى الفراش ٠ وانى لأقسم بسيدنا المسيح الذى أراق دمه من أجلنا جميعا أنى اضطررت فى سبيل أن أكسو نفسى ، محافظة على شرفه ، أن أقترض مائة فرنك ، تستحق الدفع يوم الأحد القادم والا أصبحت فى سلك الضائعات ٠

ومع ذلك فانه أحب الى ألا أولد من أن أتعرض لفضيحة أو لعمل غير كريم ، علما بأن زوجى لو رأى ما فعلته لكنت من الضائعات أيضا ٠ ولذلك أرجوك أن تقرضنى هذا المبلغ ، والا فانى هالكة لا محالة ٠ يا سيدى جون أقول لك اقرضنى هذه المائة فرنك وحق الله وأنا لن أخيب ظنك فى وسأكون مدينة لك بالشكر والامتنان ، اذا نفذت ما أطلبه أنا منك ، بل سأكون مستعدة لتقديم أية خدمة أو متعة تراها مناسبة ، وأستطيع القيام بها ٠

واذا لم أف بوعدى فليصبنى الله بمصيبة مثلما أصاب جانيلون الفرنسى (٤) ٠ فأجابها الراهب الوجيه على النحو التالى : « حقا يا سيدتى العزيزة ، لقد امتلأ قلبى عطفا وشفقة على حالك ، الى حد أننى على أتم استعداد للقسم والحلف أنه عندما يسافر زوجك الى بلاد الفلمنكيين فسوف أحررك من همك هذا ، وسأحضر لك المائة فرنك » ٠

وعندما قال ذلك قبض عليها من مؤخرها ، وقبلها تقبيلا ، وكرر قبلاته مرارا ثم قال : « والآن اذهبى الى حال سبيلك ، وكونى مخلصة لى كما أنا مخلص لك » فأجابته قائلة : « لا سمح الله يا سيدى بأن أخالفك » ٠ ثم

انصرفت مرحة سعيدة كأنها طائر العقعق • وذهبت للمطبخ ، حيث أمرت الطهاة أن يسرعوا باعداد الطعام حتى يستطيع أهل البيت أن يتناولوه بعد قليل • ثم ذهبت الى حيث يقيم زوجها وطرقت باب مخزنه • فصاح : « من بالباب ؟ » فقالت « قسما ببطرس ! أنا زوجتك ! وانى لأسألك يا سيدى الى متى تصوم ؟ وكم من الوقت تستغرق فى حساب مبالغك من المال ، وفى مراجعة دفاترك وشئونك ؟ لقد أخذ الشيطان نصيبه من كل هذه التقديرات والحسبات ان ما عندك كاف جدا ، قسما بالله • فانزل اذن من حجرتك العلوية واترك أكياس نقودك بعض الوقت ألا تخجل من أن تترك السيد جون العظيم يقضى اليوم كله صائما ؟ تعال ! لنذهب لحضور القداس ثم ندخل الى بهو الطعام » •

فقال الرجل : « أيتها الزوجة لن تستطيعى أن تدركى تعقيد الأعمال التجارية التى نهتم بها • وبالنسبة للتجار مثلنا ، قسما بذلك السيد العظيم المسمى القديس ايف (٥) ، لا يوجد بين كل اثنى عشر تاجرا منا أكثر من اثنين موفقين باستمرار على هذه الحال حتى وقتنا هذا • ومهما أبدينا من مظهر مشرق ، ووجه مطمئن ، ومهما اتخذنا طريقنا فى الحياة بأسلوب مشرف ، فان أعمالنا لابد أن تدبر فى السر ، بعيدا عن أنظار الناس ، حتى يوم موتنا غير أننا نتظاهر بأننا سنقوم برحلة حج ، لكى نبعد عن أنظار الدائنين • ولذلك فانى فى أشد الحاجة الى أن أتعرف على حقيقة هذه الدنيا العجيبة اذ لابد أن نقف دائما فى خشية من نتائج أعمال الحظ والمصادفة فى أعمالنا التجارية • وسوف أذهب الى البلاد الفلمنكية غدا ، وأعود فى أقرب فرصة ، ولذلك ، يا زوجتى العزيزة أرجو أن تكونى مطيعة ومهذبة ووديعة مع كل شخص فى غيابى ، وأن تكونى حريصة على المحافظة على أملا كنا ، وأن تدبرى شئون منزلنا على خير ما يرام • فلديك ما يكفى بأية حال من الأحوال • لتدبير شئون منزلك أحسن تدبير • ولا تنقصك أثواب ولا مؤن ، وسيكون فى جعبتك ما يكفيك من الفضة » •

ولما ختم كلمته أغلق باب مصرفه ونزل من غير تردد ولا مماطلة • وأقيم من أجله قداس سريع ، وأعدت المائدة فى الحال ، وهرول الجميع الى قاعة الطعام ، وأكرم التاجر الراهب خير اكرام فى بهو الطعام • وبعد العشاء انفرد الراهب جون بالتاجر وأسر له ما يأتى : « يا بن عمى ، الأمر وما فيه أننى أرى بوضوح أنك تستعد للذهاب الى مدينة « بروج » لأمر يهمك ، وفقك الله فى سيرك ، وألهمك القديس أوغسطينوس ! وانى أتوسل اليك يا قريبى أن تسير بحكمة وحرص ، وأن تكون أيضا فى اختيار ما تأكله وكمية ما تتناوله ، وكن معتدلا عند تناول الطعام والشراب عامة ، خاصة فى هذا الجو الحار •

وعلى العموم فليس بيننا أى كلفة ، ولذلك أقول لك « تصحبك السلامة

يا ابن عمى ! وحجب الله عنك كل هم ! واذا كان هناك أى شىء تأمرنى به ليلا أو نهارا ، بوسعى أن أقوم به ، فسينفذ أمرك بلا شك ، وعلى النحو الذى يروقك • ولكن هناك شىء واحد أرجو أن توافق عليه قبل سفرك هو أن تقرضنى مائة فرنك لمدة أسبوع أو أسبوعين ، وذلك لكى أشترى بعضا من الدواب وأضعها فى حظيرة تابعة لديرنا • وانى أستشهد بالله أنه كان بودى أن تصبح هذه الحظيرة ملكا لك • وتأكد أننى لن أتأخر فى رد ما على حتى لو كان المبلغ ألف فرنك ، وكل ما فى الأمر أننى أرجو أن يبقى الأمر سرا بيننا ، فانى مضطر الى شراء هذه الدواب الليلة • والآن أستودعك الله يا قريبى العزيز وأشكرك شكرا جزيلا على حسن ضيافتك وكرمك ازائى » •

فأجابه التاجر الكريم برقة وتؤدة قائلا : « سيد جون يا قريبى ! هذا بلا شك طلب متواضع • ان ذهبى كله ملك يديك تأخذ منه متى شئت ، ولا أقول الذهب فحسب بل كل ما أملكه من بضائع وأموال ، خذ ما تريده ، فلا قدر الله أن تضن على نفسك ، الا أن هناك أمرا واحدا وأنت تعرفه جيدا هو أن النقود بالنسبة للتاجر بمثابة محراث بالنسبة للفلاح ، انك نستطيع أن تحصل على اعتمادات باسمنا فحسب ، ولكن افتقاد الذهب أمر مؤلم للغاية • ولذلك أرجو أن ترد لى المبلغ الذى ستقترضه متى شئت واستطعت ، فانى تواق الى ارضائك بكل ما فى وسعى من امكان » • وعندئذ أخذ المائة فرنك من خزينته ، وأعطاها للسيد جون سرا ، ولم يعلم أحد فى العالم كله شيئا عن هذا القرض ، ماعدا هذا التاجر والسيد جون •

ثم شربا معا وتحدثا وتريضا فى الحديقة ، وتبادلا المزاح ، حتى أن الأوان لركوب السيد جون للذهاب الى ديره • وفى الصباح التالى امتطى التاجر جواده فى طريقه الى بلاد الفلامنك • وكان غلامه يقود زمام حصانه طوال الطريق ، حتى وصلا الى مدينة بروج فى سعادة وأمن • وبينما كان فى المدينة أخذ التاجر يجول بها بنشاط وسرعة ، يأخذ حاجاته ويشترى ما يريد ، ويفتح الاعتمادات اللازمة • ولم يله بالنرد ، ولم يذهب الى حفلات الرقص ، والخلاصة أنه عمل كل ما كان ينوى أن يعمله ، ويجدر بنا أن نتركه فى نشاطه هذا •

وفى يوم الأحد التالى لسفر التاجر عاد السيد جون الى « سان دينى » بعد أن قص شعر رأسه ولحيته • وكان لا يوجد فى البيت كله غلام أو خادم ، ولا أى انسان آخر ، لم يسعد بعودته ثانية • وحتى أصل بسرعة الى صلب الموضوع أقول ان زوجة التاجر الفاتنة اتفقت مع السيد جون أنه فى مقابل المائة فرنك يقضى الليلة كلها وهى بين ذراعيه ، وقد نفذ هذا الاتفاق بحذافيره • وقضيا طوال الليل فى نشاط مرح حتى انبلج الصباح وانصرف السيد جون بعد أن قال لحاشيتها : « السلام عليكم ، طاب يومكم ! » •ولم يكن أحد منهم

ولا أحد في المدينة يشك وقتئذ في عفة السيد جون • فامتطى جواده وركب عائدا الى ديره أو الى أى مكان آخر كان يقصده ولن أتكلم عنه بعد •

أما التاجر فانه لما انتهى السوق في « بروج » أخذ يستعد للعودة الى سان دينى • ولما رجع بالفعل جلس الى وليمة بهيجة مع زوجته ، وقال لها ان البضائع ، التى اشتراها كانت غالية ، الى درجة أنه اضطر الى عملية مصرفية للحصول على اعتماد ، وأنه كان لابد له من تحرير صك مديونية على نفسه بمبلغ عشرين ألف « شيلد » • وعلى ذلك قال انه ذاهب الى باريس في اليوم التالى لكى يقترض من بعض أصدقائه مبلغا ما ، يستطيع أن يضيفه الى ما كان عنده من قبل ليسد حاجته •

ولم يكد يصل الى المدينة حتى زار السيد جون أولا ليأتنس به ويظهر حبه له ، لا ليطلب منه قرضا ، ولكن لمجرد أن يراه ، وأن يسأل عن حاله ، وليقول له ما فعله بالنسبة لصفقاته الأخيرة ، مثلما يفعل الأصدقاء عادة عندما يلتقون • ورحب به السيد جون خير ترحيب ، وحكى للتاجر بدوره ما وفق فيه من صفقات رابحة ، وما دار من شراء بضاعته ، والحمد لله تعالى • الا أنه كان لابد له مع ذلك أن يقترض مبلغـا من المال ، ليكمل به صـفقته ، ثم يرتاح باله تماما ، ويصبح سعيدا حقا •

وعلى ذلك قال السيد جون للتاجر : « لا شك أننى سعيد جدا أن أراك قد عدت الى بيتك في تمام الصحة والعافية ، ولو كنت أنا غنيا فانى أقسـم بغبطتى في الآخرة ، ما افتقرت أنت للعشرين ألف « شيلد » ذلك لأنك قد أقرضتنى مبلغا من الذهب منذ أيام بكرم بالغ • وانى لأشكرك على ذلك قسما بالله وبالقديس يعقوب ! ولكننى أعطيت هذا الذهب لزوجتك المصون في بيتها لتضعه في خزينتك • وهى تعلم ذلك تمام العلم ، ولى بعض الأدلة القاطعة على صحة ما أقوله • أما الآن فاستأذنك لأننى لا أستطيع الانتظار أكثر من ذلك ، لأن رئيس ديرنا سيغادر المدينة قريبا ، وأنا أحد الرفقة التى تصحبه • وأتمنى كل خير لحرمكم المصون وقريتى اللطيفة ، وأستودعكم الله يا ابن عمى حتى نلتقى ثانية ! » •

أما هـذا التاجر الذى كان حصيفا حكيما فقد استطاع أن يحصل على القرض المناسب في باريس من بعض الصيارفة اللومبرديين ، وكان في يديه ما طلبه من الذهب ، وترك لهم صـك المديونية الـذى طلبوه • وعاد الى بيته سـعيدا مرحا كالبلبل الصـداح ، لأنه كان يعلم حق العلم أنه على درجة من الاستعداد والتمويل يجعله الآن رابحا « ألف فرنك مكسبا فوق ما أنفقه » •

أما زوجته فكانت مستعدة لاستقباله ورحبت به عند باب البيت كما كانت قد اعتادت ذلك منذ أمد بعيد وقضيا الليلة في مرح وسعادة ، لأنه كان قد

أصبح غنيا ومحررا من كل ديونه . ولما انبلج النهار أخذ التاجر يستأنف التقبيل لزوجته بل تمادى فى ذلك بعض الشىء . فصاحت به قائلة : « كفى ! قسما بالله لقد أعطيتك ما يكفى مما تريد ! وداعبته قليلا من جديد بدلال وخفة حتى نهض التاجر وقال لها : « قسما بالله يا عزيزتى ان لى عليك عتابا ، ولو كان ذلك لا يروقنى ، أتعرفين لماذا ؟ أقسم بالله أنك قد أثرت بعض الجفوة بينى وبين ابن عمى السيد جون اذ كان من واجبك أن تخطرينى قبل سفرى أنه قد رد لك المائة فرنك بدليل قاطع . ولم يكن يبدى أى ارتياح نفسى ولا انصات متعاطف عندما حدثته عن شدة حاجتى للاقتراض . ومع ذلك لم يكن فى نيتى أن أطلب منه أى مبلغ قسما بالله مالك السموات . وأرجوك اذن يا زوجتى العزيزة ألا تعودى الى مثل هذا التصرف ، ويجب أن تبوحى لى دائما قبل مغادرتى البيت بما اذا كن أى مدين قد رد لك فى غيابى ما اقترضه منى ، وذلك خوفا من أن أطالبه بما قد دفعه بالفعل نتيجة لاهمالك أنت » .

ولم تفزع الزوجة ، واحتفظت برباطة جأشها بل قالت بجرأة وفى الحال ما يلى : « قسما بالعذراء مريم انى أتحدى هذا الراهب الكذاب الغدار المسمى السيد جون . ولا أبالى بأدلته القاطعة على حد قوله . لقد أعطانى مبلغا من الذهب ، وهذا ما أقربه أنا ، وماذا بعد اذن ؟ لعنة الشر على خطم هذا الراهب ! ان الله يعلم أننى اعتقدت أنه أعطانى هذا المبلغ تكريما لك أنت يا زوجى ، حتى أكون على أتم استعداد لتشريف بيتك بما يليق مما لذ وطاب . كم من مرة تناوله هو هنا بحجة القرابة التى تربطبينكما . وبما أن الأمور قد ساءت الى هذا الحد ، فسأرد عليك بما قل ودل .

ان لك من المدينين كثيرين ، هم أشد تباطؤا منى فى رد الدين ! وانى على أتم استعداد لرد ما أنا مدينة به لك يوما بعد يوم ، واذا كان ذلك لا يكفيك فاعرف أننى زوجتك وسجل ذلك على سجل الدين وسأدفع لك بطريقتى كل ما تستحق وانى أؤكدلك أننى قد أنفقت المبلغ كله على الملابس الجميلة اللائقة بمنزلتك ، ولم أضع النقود سدى . وأقول لك يا حبيبى انه لا مجال للغضب ، وقسما بالله أرى أن ما فعلته قد فعلته من أجلك فلنلهو ولنمرح . ولك التمتع بجسمى تضاجعه ، كما تشاء ، وأقسم بالله ألا أرد دينى الا فى الفراش . لذلك يا زوجى العزيز أرجو أن تلتفت لى وأن تظهر وجها أكثر ابتساما » . فرأى التاجر أنه لا علاج للموضوع ، وأن التوبيخ من الحمق مادام الأمر لا يمكن اصلاحه . فقال : « والآن اذن يا زوجتى صفحت عنك ، ولكن أتوسل اليك بحياتك ألا تعودى الى مثل هذا الاغداق ، وكونى أكثر محافظة على أموالى المعهودة لك (٦) ، وهذه هى وصيتى لك » وهكذا تنتهى قصتى وأرجو أن يمنحنا الله تسهيلات فى الاعتماد والقرض وتسهيلات لنا حتى نهاية حياتنا آمين .

(وهنا تنتهى حكاية البحار)

واليكم الآن كلمات المضيف المرحة التى قالها للبحار ولرئيسة دير الراهبات ٠

قال مضيفنا : « قسما بجسد سيدنا المسيح ، لقد أحسنت القول وأطال الله حياتك لتبحر كثيرا على شواطئنا أيها السيد الكريم يا أحسن البحارة ! وأوقع الله على الراهب ألف حمل عربة من المصائب ! آه يارفاقى اياكم من أمثال هذه الخدع ! فقد استطاع الراهب أن يسخر التاجر قردا تحت معطفه كما استطاع أن يفعل ذلك تحت معطف زوجته أيضا قسما بالقديس أوغسطينوس ! لا تفسحوا المجال بعد اليوم للرهبان ! أما الآن فلندع الأمور كما هى وأسأل من منا سيحكى الحكاية القادمة ؟ » ٠ ولما انتهى من كلامه اتجه نحو رئيسة دير الراهبات بأدب جم ، كما لو كانت عذراء حيية وقال : « يا سيدتى رئيسة الدير ، اذا سمحت ، واذا لم يضايقك ، أعتقد أنه من اللائق أن تحكى الحكاية القادمة اذا كان ذلك ما تريدينه ٠ فهل تسمحين بذلك الآن يا سيدتى العزيزة ؟ فأجابته قائلة : « بكل ممنونية » ثم استمرت قائلة ما ستسمعونه ٠

هوامش حكاية البحار

(١) حكاية البحار : انه يتضح من قراءة الأبيات من ١٢ الى ١٩ أن حكاية البحار كانت منسوبة أصلا لامرأة وأن تشوسرنسى أن يلتزم بالتذكير فى مقدمة الحكاية بصفة خاصة . ونوع هذه الحكاية معروف فى القصص الشعبى بحكاية « هدية العشيق المستردة » ولكن يبدو أن المصدر المباشر كان أحد القصص الفرنسية القديمة المعروفة باسم « الفابليو » (Fabliau) التى هى حكاية شعرية هزلية قصيرة تتميز غالبا بالمجون والاستهتار وقد كانت شائعة فى فرنسا أثناء القرنين الثانى عشر والثالث عشر . ولهذه الحكايات أثر واضح فى حكايات تشوسر ، وفى حكايات بوكاتشيو الشاعر الايطالى الذى عاصره .

(٢) قرية سان دينى (Saint Denis) فى ضواحى باريس .

(٣) هو القديس مارتين من مدينة تور بفرنسا (St. Martin de Tours)

(٤) هو جانيلون (Ganelon) الذى خان جيش شارلمانى (Charlemagne) فى معركة رونسفال (Roncesvalles) بجنوب فرنسا وأعطى النصر لجيوش العرب وتحكى ملحمة رولاند أنه قتل بعد ذلك ممزقا تحت أقدام جياد مفترسة برية .

(٥) القديس ايف (Yves) وقد يكون أحد ثلاثة :

١ ـ أسقف فارس مشكوك فى حقيقته التاريخية قيل انه كان يبشر الانجليز فى القرن السابع الميلادى . ٢ ـ القديس الراعى لمقاطعة بريتانيا فى فرنسا وقد رفع الى مرتبة القديسين سنة ١٣٤٧ أى فى حياة تشوسر . ٣ ـ أسقف لكاتدرائية شارتر (Chartres) فى شمال فرنسا عاش فى القرن الثانى عشر .

(٦) المذكور فى الأصل هو « عصا الحساب » (tally) هى عصا ذات ثلم تمثل أعدادا تبين مقدار الدين أو المبالغ المدفوعة منه . وكثيرا ما كانت تفسخ هذه الثلم الى شقين يحتفظ كل من الدائن والمدين بواحد منهما . وعند استحقاق الدين كانا يلصقان الشقين معا ليتأكدا أن الحسابين متساويان تماما .

حكاية رئيسة الراهبات (١)

مقدمة حكاية رئيسة الراهبات

« أيها الرب سيدنا »

قالت :

أيها الرب سيدنا (٢) ، ما أمجد اسـمك فى كل الأرض ، فان حمدك العزيز لم يقم به رجال محترمون فحسب ، بل قامت به أيضا أفواه الأطفال والرضع ، تحمدك وترفع لك مديحها ٠ ولذلك سأبذل قصارى جهدى فى حمدك وحمد تلك العذراء ناصعة البياض كالزنبق ، تلك التى أنجبت المسيح من خلال قصة أحكيها لكم ٠ وليس ذلك اضافة الى مجدها فانها هى المجد نفسه وأصل الأفضال كلها الى جانب ابنها كما أنها دواء كل نفس ٠

يا أيتها الأم العذراء ! ياأيتها العذراء الأم الفاضلة ! ياأيتها العليقة التى تتقد نارا ولا تحترق (٣) ، فى حين أنها ملتهبة فى نظر سيدنا موسى ! يا من جذبت من الذات الالهية بفضل وداعتها تلك الروح التى حلت فيك ، واستطاعت أن تنير قلبك بحكمة الله الأب ! ياأيتها العذراء مريم ساعدينى على القاء قصتى هذه ، وحمدا لك ٠

يا سيدتى ان عطاءك الكريم وجودك السخى وفضيلتك ووداعتك العظيمة ، لا يستطيع أحد أن يعبر عنها بأسلوب علم أو معرفة فانك اذا تضرع اليك

أحد تسبقينه بلطفك العظيم ، وتمنحينه النورانية بشفاعتك المباركة لكى ترشدينا جميعا الى ابنك الذى لا يوجد أعز منه وان قدرتى أضعف من أن توفى عظمتك حقها من الوصف يا أيتها الملكة المباركة ، حتى أننى لا أستطيع تحمل مثل هذا الحمل (٤) ، بل انى مثل طفل لا يتعدى الاثنى عشر شهرا من عمره ولا يكاد يستطيع أن ينبس ببنت شفة ، أجل انى هكذا ، ولذلك أتوسل اليك أن تكونى المرشدة لنشيدى ، الذى سأتغنى به من أجل مجدك ٠

(انتهت المقدمة)

وهنا تبدأ حكاية رئيسة الراهبات :

كان هناك فى مدينة كبيرة فى آسيا (٥) حى يهودى ، فى وسط قوم من المسيحيين ، وكان زعيم من هذه البلاد يعولهم ويحميهم فى نظير الربا الآثم وطمعا فى مالهم النجس (٦) وهما أمران ، يكرههما المسيح وأتباعه ٠ وكان مسموحا للناس أن يركبوا أو يمشوا مارين من خلال الطريق الرئيسى فى الحى اليهودى ، لأنه كان حيا مفتوحا ، وغير مغلق الأبواب من طرفيه ٠

وكانت هناك مدرسة صغيرة للنصارى ، قائمة بآخر الحى اليهودى ، حيث كان عدد كبير من أولاد المسيحيين يترددون عليها ويتعملون السنة تلو السنة ما كان يدرس فيها من علوم ومعارف ، أى تجويد الترتيل والقراءة ، مثلما تكون الحال مع الأطفال فى أوائل سنى طفولتهم ٠

ومن بين هؤلاء الأطفال كان هناك تلميذ صغير ابن أرملة بلغ السابعة من عمره ، يتردد على المدرسة ، كل يوم ، واعتاد أن يركع فى الطريق وأن يصلى « السلام لك يا مريم » (٧) كلما رأى صورة من صور العذراء مريم ، وذلك حسب ما كان قد لقن له ٠

وعلى هذا النحو كانت هذه الأرملة ، التى ذكرتها قد علمت ابنها الصغير أن يتعبد دائما لسيدتنا المباركة أم السيد المسيح العزيزة ٠ ولم ينس أبدا أن يقوم بذلك لأن الطفل البرىء يكون دائما مستعدا للتعلم والدراسة والحفظ ٠

وانى كلما تذكرت هذا الموضوع مثل فى ذهنى رؤى القديس نقولا ، الذى كان يتعبد للمسيح ، منذ كان رضيعا • وكأن هـذا الطفل الصغير ، الذى ذكرته جالسا فى المدرسة ، يدرس كتابه الصغير « المدخل فى علوم الدين » ، وسمع أصوات الانشاء تتصاعد فى ترنيمة « يا أم مخلصنا » (٨) عنـدما كان بقية التلاميذ يرتلون من كتاب الترانيم • وتشجع فدنا منهم قدر ما اسـتطاع ، وأنصت للكلمات وللنغم ، حتى استطاع أن يحفظ عن ظهر قلب البيت الأول من الترنيمة المذكورة بأسره •

ولم يفطن أبدا لمعنى الكلمات اللاتينية ، لأنه كان صـغيرا جـدا وحديث العهد بالتعلم فى المدرسة • وفى يوم من الأيام توسل الى أحد زملائه أن يشرح له معانى النشيد بلغته الدارجة ، أو أن يفسر له لماذا أصبح هذا النشيد يترنم به وتضرع له مرارا ، راكعا بين يديه ، لكى يشرح له ما لم يفهمه •

فأجابه زميله ، الذى كان يكبره ببضع سنين على النحو الآتى : « لقد سمعت من قال ان هذه الترنيمة قد ألفت من أجل سـيدتنا العذراء المبـاركة الكريمة ، حتى ترفع لها آيات الحمد ، وحتى يرجى منها أن تكون شفيعة لنا بعد موتنا • وانى لا أستطيع أن أشرح لك أكثر من ذلك • فانى قد تعلمت تجويد الترتيل ، ولكننى لم أعرف كثيرا من فقه اللغة » • فسأله الطفل البرىء : « وهل ألف هذا النشيد ، اذن لتمجيد آلام سيدنا المسيح ؟ انى سأبذل قصارى جهدى فى أن أحفظه قبل عيد ميلاد المسيح ، حتى لو أدى ذلك الى أن أتلقى توبيخا ، وحتى لو تسبب ذلك فى أن يضربنى معلمى ثلاث مرات فى الساعة ، فانى سأحفظه ، تمجيدا لسيدتنا العذراء » وبينما كانا عائدين الى بيتيهما لقنه زميله الأبيات سرا يوما بعد يوم ، حتى حفظه حفظا كاملا • ثم أخذ يرتله ترتيلا جيدا وجريئا ، واستطاع أن يرتله كلمة كلمة وفقا للجن المدون • وكان يتغنى بهمرتين فى النهار عند ذهابه الى المدرسة أوعودته منها الى بيته • وكان عقله كله وأحاسيسه كلها موجهة نحو أم السيد المسيح •

وكما قلت من قبل كان هذا الطفل الصغير يغنى بصوت عال وسعيد مرتلا « يا أم مخلصنا » وهو يسير ذهابا وايابا مخترقا الحى اليهودى • وكانت عذوبة أم المسيح تخترق قلبه اختراقا ، حتى أنه لم يستطع أن يكف عن الانشاد أثناء سيره تعبيرا عن صلاته لها •

أما عدونا الأول الشـيطان ، ذلك الثعبان الذى يقيم بعض الزنبور (٩) فى قلب كل يهودى فقد تضخم شماخة قال : « أيها الشعب العبرانى ويحكم ! أيليق أن يمشى مثل هذا الولد ، أينما أراد ، بالرغم منكم وأن ينشـد نشـيدا خاصا بدينه ، الذى يتعارض مع الاحترام اللائق بشرائعكم ؟ » •

ومنذ ذلك الحين تآمر اليهود على أن يطردوا هذا الطفل البرىء من عالمنا

هذا ومن ثم أجروا قاتلا محترفا كان يقيم بمخبئه فى أحد الأزقة • وبينما كان الطفل يمر بذلك المكان قبض عليه ذلك اليهودى اللعين وأخذ بخناقه أخذا شديدا حتى فصل عنقه ، ثم ألقى به فى حفرة •

وانى أقول فى الحقيقة انهم ألقوا به فى مرحاض حيث كان هؤلاء اليهود يتبرزون ويتبولون • أيها المعاصرون المنحدرون من شعب (١٠) هيرودس الملك ما الفائدة التى تعود عليكم من شروركم ؟ ان جريمة الاغتيال لابد أن تكشف ، وهذا أمر لا مفر منه خاصة ، حيث يسمو مجد الله اذا كشف الاثم • فدم القتيل يحتج بصوت عال على فعلتكم اللعينة •

أيها الشهيد الممتزج بطهارة البكارة ، انك تستطيع الآن أن ترتل وتنشد مع الذين يتبعون الحمل (١١) حيثما ذهب ، ذلك الحمل الذى ذكره يوحنا اللاهوتى فى جزيرة بطس (١٢) عندما كتب عن أولئك الذين لم يبخسوا أنفسهم مع النساء ، لأنهم أطهار ، وهم يترنمون بترنيمة جديدة أمام العرش (١٣) •

وبقيت الأرملة المسكينة تنتظر طوال الليل أن يعود طفلها الصغير ، ولكنه لم يحضر ، الأمر الذى جعلها تنهض عند انبلاج الفجر ، ووجهها شاحب من الخوف والتفكير القلق ، وتبحث عن طفلها فى المدرسة ، وفى أماكن أخرى حتى اكتشفت أنه كان قد رئى آخر مرة فى حى اليهود •

فذهبت وصدرها مختنق بعطف الأم الحنون ، وهى تكاد تجن الى كل مكان ، يحتمل أن تجد فيه طفلها • وكانت دائما وبدون انقطاع تنادى أم المسيح الوديعة الحنون ، وفى نهاية الأمر بحثت عنه بين اليهود أنفسهم • وكم سألت ، وكم تضرعت بشكل يمزق نياط القلوب ، وأخذت تتوسل لكل يهودى يقيم فى ذلك المكان أن يقول لها ما اذا كان ابنها قد مر بذلك المكان • وقالوا لها لا • ولكن يسوع المسيح ألهمها بفضل لطفه الكريم بعد قليل أن تنادى على ابنها بالقرب من الحفرة ، التى كان قد ألقى فيها • يا الله العظيم يا من تنتزع حمدك من أفواه الأبرياء ها هو ذا جلالك يبين ! ان هذه الجوهرة العفيفة ، هذا الزمرد وهذا الياقوت الناصع للاستشهاد ، هاهوذا ماثل أمامها ،وعنقه مقطوع ، أخذ ينشد ترنيمة « يا أم مخلصنا » بصوت عال للغاية ، حتى أن المكان كله أخذ يردد الصدى •

أما المسيحيون الذين كانوا يمشون فى الطريق فقد جاءوا ليعجبوا مما كانوا يرونه ، وأسرعوا باستحضار القاضى الذى جاء بعد قليل من غير تأخير ، وحمد السيد المسيح ملك السموات ، وأيضا والدته مجدا لبشر • وبعد ذلك أمر بأن يقبض على اليهود •

وهذا الطفل أحاطه الناس بالبكاء والنواح المؤلمين ، ثم رفع من الحفرة وهو

لا يزال ينشـد نشيده ، وحملوه في موكب وقور الى أقرب كنيسـة كبيرة • أما والدته فظلت بجوار تابوته تبكي ، حتى يغمى عليها • ولم يكد أحد من الموجودين أن يبعد الراحيل المحدثة (١٤) هذه من جوار التابوت •

وأمر القاضى أن يعذب اليهود الذين كانوا يعرفون أمر الاغتيال تعذيبا ، وأن يعدموا اعداما مشينا ، وأن ينفذ حكمه في الحال • ولم يرض أبدا أن يقبل مثل هذا الاجرام اللعين • ان جزاء الشر لابد أن يكون شرا • ولذلك أمر أن يمزقوا تمزيقا ، وهم مربوطين الى جياد متوحشة ، ثم أمر أن يعلقوا بالمشانق ، حسبما يقضى به القانون •

وكان هذا الطفل البرىء ملقى على التابوت أمـام الهيكل الأعظم طوال القداس ، وبعد ذلك اهتم رئيس الدير والرهبان ، الذين يرأسهم ، بدفنه على وجه السرعة • وبعد أن ألقى الماء المبارك (١٥) على الجثة استمر الطفل يتفوه ، والماء يرش عليه ، وأنشد نشيد « يا أم مخلصنا » • أما رئيس الدير الذى كان ناسكا فاضلا ، شأنه فى هذا شأن جمهرة الرهبان (أو وفق ما يجب أن يكونوا عليه) فقد أخذ يتضرع الى الطفل قائلا : « أيها الطفل العزيز أتوسل اليك بحق الثالوث المقدس أن تقول لى كيف تستطيع أن تترنم ، وعنقك مقطوع قطعا بينا ؟ » •

فقال الطفل : « ان عنقى مقطوع حتى العظم ، وحسبما تقضى به الطبيعة كان ينبغى أن أموت منذ وقت طويل • ولكن يسوع المسـيح كما تقرءون فى الكتب شاء أن يدوم مجده ، وأن تبقى ذكراه بين الناس • ولذلك ، وحمدا لأمه العزيزة ، أترنم بترنيمة « يا أم مخلصنا » بصوت عال رنان • اذ أنى كنت دائما أحب ينبوع الرحمة أعنى أم المسيح الحنون ، الى أقصى حدود عواطفى ، ولما اضطرت الى مفارقة حياتى ، جاءت لى وأمرتنى أن أترنم بهذه الترنيمة ، بينما كنت أموت ، كما سمعتم • ولما انتهيت من الانشاد بدالى أنها وضعت لؤلؤة صغيرة على لسانى • ولذلك أترنم ، ولا شك أننى مضطر الى أن أترنم تمجيدا لتلك العذراء المباركة الكريمة ، حتى ترفع اللؤلؤة من على لسانى (١٦) • وبعد ذلك قالت لى ما يأتى : « يا طفلى الصغير سأحضر لآخذك معى ، بمجرد رفع اللؤلؤة من على لسانك ، ولا تفزع فلن أهجرك أبدا » •

أخذ هذا الراهب التقى أعنى رئيس الدير اللؤلؤة من على لسان الطفل ورفعها ، وعندئذ لفظ الطفل أنفاسه الأخيرة لفظا هادئا ، ولما رأى كبير الرهبان هذا تلك المعجزة انهمرت الدموع المالحة على خديه كالمطر ، وخر على الأرض ساجدا ، وظل هكذا يتعبد كأنه أسير وحذا حذوه باقى الرهبان ، وهم يبكون ويمتدحون أم السيد المسيح العزيزة • ثم نهضوا ، وذهبوا ، وحملوا الشهيد

من على تابوته ودفنوا جسـده الصـغير اللطيف فى قبر من الرخام الناصع . ومنحنا الله حق اللقاء معه أينما هو الآن !

أيها الطفل « هيو » (١٧) من لنكن يا من قتله أيضا اليهود الملاعين (وهذا أمر معروف لأنه لم يحدث الا منذ أمد قريب) صل من أجلنا أنت أيضا لأننا آثمون خاطئون وعلى غير سجية واحدة . اشفع لنا عند الله لكى يغدق علينا من رحمته الكبرى ، تمجيدا لمريم أم المسيح . آمين .

(وهنا تنتهى حكاية رئيسة الراهبات)

هوامش حكاية رئيسة الراهبات

(١) رئيسة الراهبات : جاء وصفها بشيء من السخرية المخففة فى المقدمة العامة ، حيث اتهمت بالحساسية المرهفة ، والعاطفية المغالى فيها ، والاهتمام بمظهرها اهتماما لا يليق بمن فى وظيفتها . والقصة التى نسبت اليها هنا ، تتصف بنفس العاطفة والحساسية المرهفة ، ولكن فى موضوع يتميز بالعنصرية المتطرفة والكراهية الشديدة لليهود ، وهذا لا يتفق مع مبادىء المحبة والتسامح اللذين يجب أن تتصف بهما راهبة مسيحية . ومن المفارقات الغريبة أن تقدم لحكايتها بابتهالات وصلوات مشتقة من الكتاب المقدس فى عهديه القديم والجديد . والحكاية المتعلقة بقديس طفل تتميز بالعاطفية التى كانت تنسب دائما لحكايات القديسين واستشهادهم تقليديا فى العصور الوسطى . والعادة التى اتبعت فى هذه الحكاية بالابتهال للعذراء مريم لطلب مساعدة والالهام ، هى أيضا سمة مميزة لحكايات القديسين فى العصور الوسطى . أما الخلفية العنصرية للقصة فهى أيضـــا تقليدية ، وأساسها الاعتقاد المتفشى فى أوساط العامة من المسيحيين أن اليهود يقتلون طفلا مسيحيا كل سنة ليخبزوا بدمائه الخبز ، الذى يأكلونه فى أعيادهم ، ويلاحظ أن هذه الخرافة ظلت منتشرة فى غرب أوربا مدة طويلة ، وحتى منتصف القرن الثامن عشر . وكانت بعض الفئات تشجع هذا الاعتقاد لمصلحة خاصة . فبعض القساوسة والرهبان ، خاصة فى المدارس (حيث كانت تستخدم مقتضيات تخويف التلاميذ والحفاظ على النظام) وبعض الفرسان والسادة الاقطاعيين الذين كانوا يقترضون (لا يريدون ردها) من الصيارفة اليهود وبعض الملوك ، الذين كانوا يريدون تحويل غضب الفقراء والمساكين من تعسفات الحكم الظالم الى كباش فداء مستضعفين ، كل هؤلاء كانت لهم مصلحة واضحة فى اثارة الكراهية ضد اليهود فى أحيائهم بالمدن الكبرى .

ويلاحظ أن الكراهية أو الخوف اللذين كانا يوجهان ضد اليهود ، كانا بمثابة تعويض عن الكراهية العاجزة التى كانت توجه ضد كل ما هو خارج دار المسيحية ، وخاصة دار الاســـلام والعرب الذين ظلوا أعداء تقليديين للأوربيين ؛ طوال مدة الحركة الصليبية بين النصارى والمسلمين فى الأندلس . ويلاحظ أن اليهود كانوا قد طردوا من انجلترا سنة ١٢٩٠م ، ولم يســـمح لهم بالعودة ثانية الى انجلترا الا فى منتصف القرن السابع عشر وبفضل الرئيس الجمهورى أوليفركرومويل (Oliver Cromwell) الرغم من أنه لم يكن للانجليز خبرة مباشرة باليهود فى مجتمعاتهم فى عهد تشوسر الا أن الخرافات المتعلقة بهم كانت مستمرة فى الخيال الشعبى . ومع ذلك يجب أن يلاحظ أن القيادة المسيحية ممثلة فى البابا ورئيس الكنيسة الكاثوليكية ، لم تكن توافق على مثل هـــذه الكراهية المغرضة لليهود . فأصدر البابا انوكنتوس (Innocentus) الرابع بيانا لأساقفة ألمانيا سنة ١٢٤٧ يهدد بالحرمان الكنسى كل مسيحى يهاجم اليهود أو يضطهدهم . وهذا ما فعله أيضا جريجوريوس العاشر سنة ١٢٧١م . واستمرت هذه الانذارات تصدر من البابا حتى وقتنا هـــذا ، ولكن يلاحظ أن اتهامات الاغتيال الدينى للأطفال المسيحيين استمرت طوال القرنين الثالث والرابع عشر فى غرب أوربا . ولا شك أن تشوسر قد اشترك دون أن يدرى ، فى هذه المعتقدات البربرية ، التى تتنافى مع أبسط قواعد المسيحية الحقة ، كما أن هذا الشعور استمر حتى وقت شكسبير بدليل شخصية شايلوك فى « تاجر البندقية » . وربما يجب علينا أن نميز بين الكراهية الناتجة عن كراهية المرابين بالصيارفة الايطاليين (الذين لم يلقوا ما لقيه اليهود وذلك لأنهم مسيحيون مثل المقترضين منهم) واليهود وبين الكراهية الممتزجة بفزع خرافة الاغتيال ، الا أنه فى النهاية أدت التهمتان الى

تشريد مستمر للطوائف اليهودية فى كل أنحاء أوربا ، وحكامهم أحيانا على التنصر جبرا • ويلاحظ من ناحية أخرى أن « حكاية رئيسة الراهبات » من أقصر حكايات كانتربرى ، وتتكون من فقرات شعرية ، يتألف منها من سبعة أبيات مقفاة على النحو الآتى : أ ـ ب ـ أ ب ـ ب ـ جـ ـ جـ •

(٢) الفقرة الشعرية الأولى فى مقدمة حكاية رئيسة الراهبات والمؤلفة من الأبيات السبعة الأولى هى بمثابة نقل مع بعض التغيير لاستهلاك المزمور رقم ٨ وهناك اعادة لها فى البيتين ١٥٥ و ١٥٦ فى منتصف الحكاية •

(٣) انظر سفر الخروج ، الاصحاح الثالث ٢ ـ ٤ ويلاحظ أن لهيب النار من وسط العليقة فى هذا النص يرمز الى العذراء مريم فى المسيحية • والابتهال للعذراء مريم جاء أيضا فى كتاب « الفردوس » لدانتى (٣٣ : ١٦ ـ ٢١) الذى جاءت ترجمة متصرفة له فى مقدمة الراهبة الثانية • كما أن تشوسر لجأ الى مثل هذا النوع من الابتهال فى قصيدته « برلمان الطيور » (الأبيات ١١٣ الى ١١٩) حيث يوجه الابتهال الى الهة الجمال والحب الرومانية فينوس ، وكذلك فى استهلال الكتاب الثالث من ملحمته « ترويلوس وكريسايدس » •

(٤) هذا التعبير عن تواضع الشاعر سمة مميزة لأسلوب تشوسر نجده فى حكاية الفارس (٨٨٧) ومقدمة حكاية المالك (٧١٨ ـ ٧١٩) ومقدمة حكاية الراهب (١٠٠) وحكاية الراهبة الثانية (٧٨ ـ ٨٠) ومقدمة حكاية القسيس (٥٥ ـ ٥٧) •

(٥) المقصود بآسيا هنا آسيا الصغرى ، حيث كانت توجد دولة مسيحية •

(٦) كانت الكنيسة تحرم الربا على المسيحيين ولكن التحريم لم يمتد الى غير المسيحيين • ومع ذلك فأولى مصارف أوربا الغربية كانت ايطالية مسيحية ! ويلاحظ أن الطوائف اليهودية كانت تحت حماية الملك مباشرة ، الأمر الذى لم يحببهم لعامة الشعب •

(٧) « السلام لك يا مريم (Ave Maria) ابتهالة مألوفة جدا فى الكنيسة •

(٨) هذه ابتهالة متعلقة بالمدة السابقة على عيد ميلاد المسيح ، واللاحقة مباشرة ، والترجمة الحرفية لها : « يا أم المخلص الكريمة ، يا من تقيمين حارسة على باب الجنة ، وترشدين الساقط المذنب ، مثلك مثل النجمة المشرقة فوق البحار ليلا » •

(Alma redemptoris mater, quae pervia caeli
Porta manes et stella maris, succurre cadenti)

(٩) من المفارقات العجيبة أن يتصور ثعبان مقيم فى عش زنبور ولكن التناقض هنا بلاغى ، مقصود من ورائه تقوية معنى اللدغ والسم •

(١٠) الاشارة هنا الى أمر الملك هيرودس « بقتل جميع الصبيان الذين فى بيت لحم وفى كل تخومها من ابن سنتين فما دون •• » (انجيل متى ٢ : ١٦) •

(١١) رؤيا يوحنا اللاهوتى ١٤ : ٤ « هؤلاء هم الذين لم يتنجسوا مع النساء لأنهم أطهار هؤلاء هم الذين يتبعون الخروف ، حيثما ذهب •• » •

(١٢) رؤيا يوحنا اللاهوتى ١ : ٩ : « أنا يوحنا أخوكم وشريككم فى الضيقة ، وفى ملكوت يسوع المسيح وصبره ، كنت فى الجزيرة التى تدعى بطمس ، من أجل كلمة الله ، ومن أجل شهادة يسوع المسيح » • وجزيرة بطمس قريبة من الساحل الغربى لتركيا •

(١٣) رؤيا يوحنا اللاهوتى ١٤ : ٣ : « وهم يترنمون كترنيمة جديدة أمام العرش •• » •

(١٤) انجيل متى ٢ : ١٨ : « صوت سمع فى الرامة نواح وبكاء وعويل كثير • راحيل تبكى على أولادها ، ولا تريد أن تتعزى ، لأنهم ليسوا بموجودين » • وجاء هذا بعد أن أمر هيرودس الملك بقتل «الصبيان الذين فى بيت لحم » •

(١٥) رش الماء الذى باركه القســـيس على المعزين طقس من طقوس القــداس الجنائزى فى « الكنيسة الكاثوليكية » •

(١٦) هناك روايات مختلفة لهذه الأسطورة فى الآداب الشعبية والمهم أن يوضع شيء نفيس أو جميل على اللسان وفى رواية أن زهرة الزنبق توضع على اللسان أحيانا حبة غلة • وهنا يلاحظ أن اللؤلؤة رمز للعذراء •

(١٧) هيو أف لنكن (Hugh of Lincoln) ومسيحى قيل ان اليهود ذبحوه سنة ١٢٥٥م ، ولكن يبدو أن هذه الخرافة ترجع الى عهد أقدم من القرن الثالث عشر • أما الطفل الآخر الذى تحكى عنه خرافة مشابهة فهو وليم أف نرتش (William of Norwich) قيل ان اليهود صلبوه سنة ١١٤٤م ، ولكن أغلب الظن أن مثل هذه الحكايات كانت متداولة منذ القرن الخامس الميلادى •

حكاية السير توباس (لتشوسر نفسه)

مقدمة حكاية الفتى توباس

واليكم كلمات المضيف المرحة الى تشوسر :

ولما انتهى من قص هذه السيرة العجيبة سكت الجميع حتى أنه بدا غريبا أن مضيفنا أخذ يمزح • وبدأ أولا بأن اتجه نحوى وسألنى : « ما معدنك ؟ فأنت دائما لا تنقطع عن التحدق كأنك تبحث عن أرنب برى تقتنصه • ولاترفع عينيك من الأرض ! فاقترب وكن سعيدا • ياسادتى افسحوا الطريق لهذا الرجل ! فانه رشيق البدن مثلى ! وانه مثل الدمية تشتاق أية امرأة ذات وجه جميل رقيق أن تضمها بين ذراعيها ! ويبدو من ملامحه أنه قد ولد وسلوكه سلوك من لا يهتم بمن حوله لأنه لا يتناول أى حديث خفيف مع أحد منا • والآن ياسيدى أما وغيرك قد حكوا حكاياتهم فقل لنا شيئا • تعال اقترب وقل لنا قصة مرحة فى الحال ! » •

فأجبته قائلا : « ياسيدى المضيف ، لا تغضب فانى لا أعرف من الحكايات سوى واحدة منظومة تعلمتها منذ أمد بعيد » • فقال المضيف : « أجل ؛ خيرا اذن فالآن سنستمع الى قصة ممتازة كما يبدو لى من أسلوبك فى الكلام •

وهنا تبدأ حكاية تشوسر عن الفتى توباس (١)

النشيد الأول

والآن ياسادتى انصتوا بروح طيبة وسأقص لكم قصة خفيفة مرحة تخص فارسا كان وسيما مقداما فى المعارك والمبارزات ، اسمه الفتى توباس .

ولد الفتى توباس فى بلاد بعيدة هى الأقطار الفلمنكية عبر البحار بقصر مقاطعة « بوبرنج » (٢) . وكان أبوه رجلا عظيم الشأن ، يحكم المنطقة كلها بفضل الله تعالى . وكبر الفتى توباس حتى أصبح رجلا شجاعا . وكانت بشرته بيضاء بياض أرق الخبز وكانت شفتاه حمراوين كالوردة . وكان لون وجهه ضاربا الى الاحمرار لا يتغير وأذكر لكم أن أنفه كان جميلا . أما شعره ولحيته اللذان كانا يتدليان حتى منطقة وسطه فكانا فى لون الزعفران . وصنعت أحذيته من جلد قرطبى . أما جواربه البنية فقد وردت من مصانع «بروج» وقد فصل رداؤه من أحسن الأقمشة التى كلفت نقودا كثيرة . وكان حاذقا فى صيد الوعل البرى والقنص بالباز على ضفاف النهر يحمل على معصمه بازا رماديا . زد على ذلك انه كان قواسا ماهرا ولم ينافسه أحد فى المصارعة اذا كان الكبش جائزة للمنتصر .

وكم من فتاة جميلة تشتاق اليه فى مضجعها بهيام الحب فى أوقات كان أجدى بها أن تكون فيها نائمة . ولكنه كان عفيفا ولا يميل الى الفجور وكان وسيما وسامة الورد البرى الذى ينفح زهرته الحمراء .

وذات يوم حدث حقا ما سأقصه عليكم . أراد الفتى توباس أن يمتطى جواده ويغادر القصر . فركب حصانه الرمادى وأمسك برمحه فى حين أن سيفا طويلا كان يتدلى بجانبه . وتقدم الى غابة جميلة حيث كانت تعيش حيوانات مفترسة كثيرة وكذلك وعول وأرانب برية . الا أننى أستطيع أن أقول لكم انه لسوء الحظ بينما كان ذاهبا نحو الشمال الشرقى كادت تصيبه فاجعة مؤلمة .

ففى كل مكان كان النبات ينمو بغزارة وكثرة مثل * (٣) السوس والجدوار والقرنفل الغزير وجوزة الطيب التى توضع فى الجعة سواء أكانت غضة أم بالية أم تلك التى تخزن فى صندوق . ولا شك أن الطيور على أنواعها كانت تغرد ومنها الباشق والأخيل (نقار الخشب) حتى ان صوتها كان متعة للأذن . وكانت السمنة الغريدة تغنى أيضا وكان الورشان يطلق أنغامه بوضوح وبصوت عال بينما كان راقدا على الفرع . وامتلأ الفتى توباس هياما لما سمع السمنة

تغرد ودفع حصانه الى الأمام كما لو كان مجنونا تماما . أما جواده الجميل فقد عرق عرقا غزيرا نتيجة السير الطويل والعدو المستمر وكان جانباه مغشيتين بالدماء الى حد أن الانسان يستطيع أن يعصرها عصرا لو أراد . وبعد قليل مل الفتى توباس الركوب فوق الأعشاب الناعمة فترجل واستلقى على الأرض فى نفس المكان لكى يعطى حصانه فرصة الاستراحة كما أعطاه بعض العلف . وناجى نفسه قائلا : « باركك الله ياقديسة مريم ماذنبى عند الحب حتى يقبض على بمثل هذه القبضة ؟ وانى قد حلمت حقا طوال ليلتى هذه أن احدى ملكات الجان ستصبح خليلتى وأنها ستنام تحت معطفى . ولا شك أننى سأعشق ملكة من الجان لأنه لا توجد قط فى هذه المدينة امرأة جديرة بأن تكون شريكة حياتى . فها أنذا أهجر كل النساء وأضع كل همى فى البحث عن ملكة من الجان عبر الجبال والوديان .

وعندئذ ركب مطيته وعدا فوق أسوار الحقول والصخور باحثا عن ملكة من الجان ، حتى أنه قطع مسافة طويلة أدرك بعدها وطن الجان فى مكان موحش معزول للغاية . وفى تلك البلاد لم يوجد أحد لا امرأة ولا طفل يجرؤ أن يمتطى جوادا لمقابلته بما يليق به ؛ الى أن يقترب منه عملاق ضخم كان اسمه الفتى أولفانت (أو الفيل) (٤) وكان رجلا خطير الشأن وقال له : « قسما بالمعبود تيرماجلنت » * (٥) يابنى اذا لم تغادر وطنى فى هذه المنطقة بسرعة قتلت حصانك بضربة من صولجانى . فان ملكة الجان تقيم هنا وسط حاشية ممن يعزفون الناى والقيثارة والدف » .

فأجابه الشارس الشاب قائلا : « قسما بأملى فى الحياة سأقابلك غدا بعد أن أكون قد ارتديت صفائحى . وانى آمل قسما بايمانى أنك ستدفع ثمن ماقلته دمعا مرا على حد رمحى هذا . فاذا أتيحت لى الفرصة اخترقت معدتك أن استطعت وأكون قد أنجزت ذلك قبل الفجر . فانك ستقتل فى هذا المكان بالذات » .

وعندئذ رماه العملاق بالحجارة من مقلاعه الضخم المفزع ولكن الفتى توباس استطاع أن يفك الاشتباك بعدوه فى الحال وفراره بسرعة من أمامه ولم يرجع ذلك الا للطف الله ولرشاقة حركته .

والآن يا سادتى انصتوا الى حكايتى التى هى أكثر مرحا من تغريد البلبل نفسه . فأقص عليكم الآن بهدوء كيف امتطى الفتى توباس جواده وهو رجل رشيق وركب عبر التلال والوديان حتى عاد الى مدينته . وأمر حاشيته السعيدة أن تعد له الترفيه وأسباب التسلية لأنه كان أمام واجب مقدس هو أن يضارع عملاقا ذا رؤوس ثلاثة لكى يفوز بحب بطلة متألقة .

فقال : « تعالوا ياشعرائى وعازفى وتعالوا ياقصاصى هنا بينما أرتدى عدة الحرب من الصفائح واحكوا لى الحكايات والقصص الخيالية عن الملوك

والأحبار والرادلة « ملذات الحب » بادئين أولا باحضار النبيذ العذب وخمر العسل في اناء من خشب القيقب والبهارات اللائقة بحذاق الملوك وكعكة الزنجبيل الخاصة والسوس والكمون الذى يطيب طعمه ممتزجا بالسكر .

ثم ارتدى فوق جلده الأبيض سروالا وقميصا رقيقا من الكتان الأبيض الصافى . وفوق القميص ارتدى سترة طويلة : وفوق ذلك زردا صيانة لقلبه من الطعن ثم ارتدى معطفا كاملا من الزرد من صنع اليهود * (٦) وصفيحة للصدر الساطع وسرجه من عاج الحوت وزمامه يتألق كأنه شعاع الشمس أو القمر . قوية للغاية . وفوق كل ذلك ارتدى معطفا مزدانا بشعار أسرته كان ينوى أن يدخل به المعركة وكان أبيض بياض الزنبق . وترسه كله من الذهب الضارب للاحمرار ؛ وعليه شعار يمثل رأس خنزير برى وحجرا كريما من العقيق الأحمر . ثم قسم بالجعة والخبز أن العملاق لابد أن يلقى مصرعه مهما حدث . وكان رمحه مثقفا من خشب السرو المنذر بالحرب لا بالسلم ؛ وكان رأس الرمح مبرما الى حد دقيق للغاية وكان جراده رماديا أرقش يتقدم محكما هادئا بخطى وكانت وقاية ساقه من الجلد المغلى وغمد سيفه من العاج وخوذته من النحاس الرهو فى طريقه عبر الأرياف .

والآن ياسادتى انتهيت من نشيد واحد من أجلكم ! واذا كنتم تريدون الاستماع الى مزيد من الحكاية فسأحاول أن أفعل ذلك .

النشيد الثانى

والآن أرجو أن تسكنوا فى سبيل محبة الله أيها الفرسان الكرام . وأيتها السيدات الفاضلات انصتوا الى قصتى فى المعارك والفروسية وسأقص فى الحال قصة مغازلته للسيدات الجميلات الكريمات .

ويحكى للناس حكايات جديرة بالاهتمام عن شهرة الفتى هورن والفتى ايبوتيس والفتى بيفيس والفتى جاى والفتى ليبو والفتى بلاندامور (٧) ولكن الفتى توباس الذى أحكى عنه كان زهرة الفروسية الملكية بالنسبة لهم جميعا .

فامتطى جواده الكريم واندفع فى طريقه راكبا كأنه شرارة من شعلة . وعلى عرف خوذته وضع رمز حصن وزرع فيه زهرة زنبق . صان الله جسده من كل عار ! قد كان فارسا مقداما يحب المغامرة ولم يرض أن ينام فى أى بيت فى الطريق بل كان يستلقى راقدا على الأرض مرتديا كل عدة حربه . وكانت خوذته المتألقة وسادته بينما كان جواد القتال بجواره يرعي الأعشاب الطيبة الفضة ؛ أما هو فكان يشرب ماء الآبار مثلما فعل الفارس المدعو الفتى بيرسيفال

الذى كان مشهورا لشجاعته وبسالته فى حلبة القتال حتى حدث ذات يوم أن . . .

وهنا نهض المضيف وقاطع تشوسر بينما كان يحكى حكاية الفتى توباس وصاح قائلا : « أستحلفك بالسموات أن تكف عن كل هذا . فقد أتعبتنى ومللتنى بحماقاتك الى حد أننى بقدر ما أرجو أن يخلص الله نفسى ويباركها فان أذنى موجعتان من الاستماع الى حكايتك التافهة وأدعو أن يذهب الشيطان بمثل هذه المنظومة الزهيدة ! فما هذا الا قرض لا يجرى على وزن من الأوزان ولا قيمة له » .

هوامش حكاية السير توباس (لتشوسر نفسه)

حكاية الفتى توباس ٠

(١) هذه الحكاية التى نسبها تشوسر الى نفسه عبارة عن معالجة ساخرة لعدد كبير من القصص الخيالية فى مآثر الفرسان التى كانت شائعة فى العصور الوسطى قبل عصر تشوسر ٠ وهذه القصص فيها تمجيد مبالغ فيه لصفات المروءة والبسالة والكرم التى كان من المفروض أن يتميز بها الفرسان وقتئذ ٠ وكتب تشوسر معالجته الساخرة هذه على شكل قصة منظومة خفيفة يمكن أن تغنى اذا صاحبتها موسيقى ٠ وهناك اجماع لدى العلماء أن هذه الحكاية لا تقصد طائفة معينة من قصص الفرسان بالذات ، وانما تسخر من الجنس الأدبى بأسره ٠ كما أنه لا يعالج بطلا معينا خرافيا كان أم تاريخيا ٠ وان كان بعض النقاد يرون فى هذه الحكاية سخرية خفية من طبقة الفرسان حديثى النعمة التى ظهرت فى البلاد الفلمنكية ابان القرن الرابع عشر ٠ وفى ترجمتنا لبطل حكايتنا الساخرة وتقريبا لمفهوم الفروسية القومية لأذهان القارىء العربى آثرنا أن نورد لفظ « الفتى » مقابلا للقب (Sir) فى الأصل ٠ واسم‌البطل فى هذه الحكاية به مزج مضحك لكلمة « توما » ، وهو اسم القسيس الذى بنى المزار تكريما له ، وكلمة « توباز » ، وهو حجر كريم مختلف الأشكال والألوان ، كما أن للتوباز رمزية أخرى هى حماية عفة العذارى من اعتداءات شبق الفتيان ٠

(٢) نسبة البطل الى مدينة فى البلاد الفلمنكية فيها سخرية خفية ، لأن أهل هذه المدينـــة كانوا مشهورين بالبلاهة ، زد على ذلك أن سيد هذه المدينة الاقطاعى فى وقت تشوسر كان كاهنا رئيس دير للرهبان ، فكأن قوله بأن الفتى توباس ابن سيد المدينة يوحى بأن الكاهن كان فاجرا ٠

(٣) ان ذكر القوائم الطويلة للطيور أو الأشجار أو أنواع الطعام أو الأدوية سمة مميزة للقصص الخيالى عن مآثر الفرسان ٠

(٤) اسم العملاق يوحى بمعنيين أولهما أنه تحريف لكلمة « اليفانت » التى تعنى « الفيل » بالعربية ، وثانيهما « أوليفانت » هو اســم لنفير الحرب الذى كان يحمله الفتى رولاند ، بطل شارلمانى فى حروبه ضد العرب ٠ ويأتى ذكر هذا النفير أكثر من مرة فى ملحمة رولاند ٠

(٥) هذا قسم لا معنى له ، ولكنه ورد أحيانا فى القصص الخيالى كاسم صنم اعتقدت جيوش النصارى أن العرب يعبدونه فى الأندلس ، وهذا اعتقاد باطل بطبيعة الحال ٠

(٦) اشتهر اليهود فى اعلصور الوسطى بالمهارة فى تشكيل دروع الفرسان وزخرفتها ٠

(٧) أغلب هذه القصص الخيالية كانت معروفة فى العصور الوسطى الا أن الفتى « ليبو » لم يكن له وجود ، ويظهر أنه تحريف واساءة فهم فى نفيس الوقت لعنوان حكاية هو « الجميل المجهول » (Li Biaux Desconeus) ٠

٠ تلك الحكاية التى كانت رائجة فى الأدب الفرنسى وقتئـــذ ٠ أما الفـتى بلاندامور فلا أثر له أصـــلا ٠

حكاية مليبى (ملخصة)

ان قصة تشوسر النثرية ، حكاية مليبى ؛ تلى بعد ذلك فى الأصل التشوسرى . وهى موعظة على شكل محاورة أخلاقية تبدو كأنها خزانة غنية بالمبادىء الأخلاقية المستوحاة من مراجع قديمة مختلفة . وأهم شخصية فى هذه المحاورة هى السيدة « الحكمة » زوج مليبى ، ولكننا نقف فى هذه المحاورة الى جانب ذلك على آراء بعض أصدقائه ومعارفه من الأطباء والمحامين والشيوخ العقلاء والشبان الطائشين . ويعبر « مليبى » نفسه عن بعض الآراء ولكن أغلبها تفنده زوجته . والواقع أن الكلام يوجه اليه أكثر مما يوجه هو الكلام الى غيره . وأخيرا ينتهى الى ما يعتبره تشوسر الرأى الصحيح وأهم موضوع فى هذه المناظرة هو : هل يجب أن نثأر للأذى العنيف بأذى عنيف مثله ؟ وسبب ظهور هذا الموضوع أنه بينما كان مليبى غائبا عن بيته اعتدى ثلاثة من الأوغاد على بنته « سوفيا » (أى الحكمة باليونانية) وأصابوها بجراح بعد أن اقتحموا المنزل . والسؤال المطروح هو هل يتحتم القصاص : الجرح بالجرح ؟

وفى أثناء المناظرة تذكر الموضوعات الآتية معالجة بأسلوب منطقى علمى من جانب السيدة « الحكمة » وهذه الموضوعات هى :

كيف يطهر القلب من الغضب ، واشتهاء مال الغير والطيش ؛ وكيف يكتم الرأى فى نفس صاحبه ، وكيف يميز بين الأصدقاء الأوفياء والخونة ؛ وكيف يميز بين الأحمق والمنافق ، وكيف تفحص النصيحة المقدمة ، ومتى ينبغى تغيير المستشارين .

ثم هل النساء جديرات بأن يوثق بهن ؟ وهل نصغى باطمئنان الى

نصائحهن ؟ واذا صح ذلك فهل يجب على الرجال أن يخضعوا لتوجيهاتهن ؟ (وهذا موضوع تنتصر فيه السيدة « الحكمة » فى المناظرة نصرا مبينا) .

ثم هل يعتبر القصاص الفردى (أ) خطرا ، أو (ب) له ما يبرره من الأخلاق (ج) واذا كان كذلك فهل تترتب عليه مصلحة ؟ (ومع أن فى القصاص حياة للآخرين ، الا أنه شرا : فلماذا يجيزه الله . والجواب على ذلك : علمه عند ربى » .

ومما لاشك فيه أن نتيجة القصاص غير مؤكدة اذ لا يستطيع المرء أن يكون واثقا من نجاحه عن طريق الأخذ بالثأر ، وخير منهاج هو أن يتفق المرء مع أعدائه على حل وسط . ثم يرد السؤال الآتى : ألا يؤدى ذلك الى اراقة ماء الوجه ؟ ويليه البحث فى كرامة الفرد وما الى ذلك .

ثم أهمية الطاعة لأوامر الله ، الذى له هو وحده أن يثأر ؛ فاذا أطاع المرء الخالق وفق بينه وبين أعدائه . ثم تصدر الأوامر باحضار أعداء «مليبى»، وتتحدث السيدة « الحكمة » معهم على انفراد ، وتشرح لهم مزايا المصالحة والحل السلمى ، فيعجبون أولا ، ثم يسعدون بذلك .

وأخيرا يقرر « مليبى » أن يعفو عنهم مقابل دية . غير أن السيدة « الحكمة » تقنعه بأن يصفح عنهم كلية .

وبعد ذلك يمثل أعداء «مليبى» بين يديه ، فيعفو عنهم عفوا شاملا ؛ ولكن بعد أن يوبخهم أشد توبيخ . ويبرز فى أثناء حديثه رفعة شأنه وشهامته . وهذه هى المرة الوحيدة ، التى يحظى فيها بالنصر أثناء المناظرة .

ولا يقال شىء فى الحكاية عما حدث « لسوفيا » بعد ذلك ، ولا عما اذا كانت قد شفيت من جراحها ، بل تعقب نهاية المحاورة الوعظية مباشرة حكاية الراهب .

حكاية الراهب

المقدمة : كلمات المضيف المرحة الموجهة الى الراهب * (١)

ولما انتهيت من حكاية مليبى والسيدة « الحكمة » وفضلها ، قال المضيف:
« قسما بكونى مؤمنا ؛ وقسما بجسد «مادريان» * (٢) العزيز ، كنت أفضل على احتساء برميل من الجعة أن تكون زوجتى «جودليف» * (٣) قد سمعت هذه الحكاية . فهى لا تتصف بشىء من الصبر ، الذى تميزت به السيدة الحصيفة زوجة « فليبيوس » وقسما بعظام المسيح انها كانت عندما أضرب غلمانى تحضر لى العصا الكبرى المرصعة بالمسامير وتصيح : « اقتل كل من هؤلاء الكلاب ، واكسر كل عظمة فى أجسادهم وظهورهم ! « واذا تصادف أن أحدا من جيراننا لم يطأطىء رأسه أمام زوجتى فى الكنيسة ، أو تجرأ على أن يتقدمها فى الدخول غضبت غضبا شديدا ؛ وصاحت فى وجهى بمجرد عودتنا الى البيت ، وقالت بصوت عال : « أيها الجبان الغدار ، انتقم لزوجتك ! قسما بعظام المسيح سأقبض أنا على مدينتك ، أما أنت فخذ فلكة مغزلى ، واذهب الى حيث تغزل كالنساء ! . وكانت دائما ليلا ونهارا تخاطبنى تعاتبنى قائلة : « ياويحى ! لقد قدر لى أن أتزوج من شخص خرع أو قرد جبان ، يستطيع أى انسان أن يملى عليه ارادته ؛ يامن لا تجرؤ على أن تدافع عن حقوق زوجتك ! وحياتى تتألف من مثل هذه المواقف الحرجة ، الا اذا نهضت وتشاجرت من أجلها ، وخرجت فى الحال من البيت . ولولا ذلك أصبح ضائعا ضياعا كاملا ، ولذلك لابد أن أصير مندفعا وطائشا كالأسد البرى . وانى لأعرف تماما أنها ستجعلنى يوما

ما ، أقتل جارا من خيراني • وعندئذ سأضطر الى الفرار ؛ ذلك أننى أكون خطيرا جدا ؛ اذا أمسكت بالمدية • وعلى أية حال فأنا لست قادرا على مقاومتها ، لأن ذراعيها ضخمتان ، وقسما بايمانى ان ذلك أمر سيكشفه من يعترض طريقها ، أو يقول ما يغضبها •

ومع ذلك فلنترك هذا الموضوع ، وأنت يا سيدى الراهب كن مرحا سعيدا ، لأنك ستروى لنا الآن حكاية بلا شك • ها هى ذى مدينة «روتشتسر» * (٤) قريبة منها • تقدم اذن على جوادك ياسيدى ، ولا تخالف قواعد لعبتنا ، ولكنى أقسم بايمانى أننى لا أعرف اسمك • فأى اسم أطلقه عليك : السيد جون أم ألبون ؟ وأين بيتك ؟ ومن أهل أبيك ؟ فانى اقسم بالله ان لون بشرتك أبيض • ويبدو أنك أكول ، ولست شبيها بالتائبين ولا الأشباح • وانى أقسم بايمانى أنك ضابط أو قائم وقور على المؤن أو مخازن النبيذ ، كما أقسم برحمة أبى أنك ، فى ظنى ، سيد من كبار الناس فى بيتك ، ولست ناسكا مسكينا ، ولا مبتدئا فى نظام الرهبنة ، وانما لابد أنك مدير أو حاكم دير حكيم وداهية • ولكن اذا نظرنا الى عضلاتك وعظامك فأنت شخص وسيم ووجيه للغاية • وأرجو الله أن يصب المصائب كلها على أول من قادك الى الكنيسة والدين ! فأولى بك أن تكون مولدا خصبا ، ولو ترك لك الحق فى أن تشبع كل رغباتك فى الاخصاب والتوليد لأنجبت كثيرا من المخلوقات • ويلاك ! لم ترتدى مثل هذه القلنسوة العريضة ؟ ولو كنت فى منزلة البابا ، لقبلت أن يعاقبنى الله بالأسى اذا ما أمرتك أنت ، بل وكل رجل قوى ، أن يتخذ لنفسه زوجة ، حتى لو كان شعر رأسه محلوقا تماما ، لأن العالم كله ضائع ــ فان الدين قد سلب كل الخير من الجماع ؛ وأصبحنا نحن الرجال ، الذين لا يعملون بالكنيسة أقزاما • ان الأشجار الضعيفة لا تخرج الا نبتات تعيسة • وهذا هو السبب فى أن ذريتنا ضعيفة نحيلة ، الى حد أنهم غير قادرين على الانجاب ولذلك فان زوجاتنا قد يجربن أهل الكنيسة أنفسهم لأغراضهن ، لأنكم أقدر منا نحن على دفع ضريبة الهة الحب فينوس والله يعلم أنكم لا تدفعون دين الحب بنقود مزورة ! ومع ذلك لا تغضب مما أقوله ياسيدى فانى أمزح ، وأداعبك الا أن حقائق كثيرة قد تذكر فى ثنايا المزاح » •

واستمع الراهب الفاضل الى كل هذا الكلام بأذن صابرة ، ثم قال : سأبذل قصارى جهدى (فى حدود ما تمليه اللياقة) لأروى لكم حكاية أو حكايتين أو ثلاثا واذا راقكم الانصات الى فسأقص عليكم سيرة القديس ادوارد ••• والا سأسرد لكم بعض المآسى وعندى مائة منها فى خزانتى بالخلوة» التى أقيم فيها •

وان المأساة * (٥) هى أن تحكى حكاية من كان فى منزلة سامية ثم سقط من عل الى هاوية التعاسة وانتهى نهاية بائسة ، وهذا ما تذكرنا به الكتب

القديمة • وتكون المآسى عادة منظومة فى أبيات مكونة من ست تفعيلات تسمى « ذات التفعيلات الست » • ومع ذلك قد تكتب المأساة نثرا أو شعرا وبأساليب مختلفة • والأرجح أن هذا التعريف فيه ما يكفى • فانصتوا لى ، اذا راقكم ذلك • ولكن أرجوكم أولا فى هذا الموضوع ـ ولو أننى لا أتكلم عن هذه الأمور بالترتيب الزمنى ـ فسواء أكان من أروى قصتهم بابوات أم أباطرة أم ملوكا فلن أتناولهم حسب ظهورهم فى عصورهم كما درج عليه من يكتبون عنهم ، ولكننى قد أحكى عن اللاحقين قبل السابقين ، حسبما ترد حكاياتهم فى ذاكرتى • ولذلك أرجو أن تغتفروا لى جهلى هذا •

وهنا تبدأ حكاية الراهب فى سقوط مشاهير الرجال (٦)

سأرثى بأسلوب المأساة الذى يصيب من كان فى درجة سامية من الفلاح ، ثم هبطت بحيث لا يوجد علاج للأمر ، ولا امكان لرفعه من وهدة شقائه • ومما لا شك فيه أن ربة الحظ اذا شاءت أو تولى هاربة ، فان أحدا من البشر لا يستطيع أن يعترض طريقها • فليكف أى انسان عن الثقة فى الفلاح الذى لا يهتدى الى طريقه واعتبروا جميعا بهذه الأمثلة الحقيقية والقديمة •

ابليس(٧)

سأبدأ بابليس لأنه كان ملاكا ، ولم يكن بشرا أبدا • وبالرغم من أن ربة الحظ لا تستطيع أن تؤذى ملاكا ، الا أنه سقط من منزلته العليا بسبب اثمه حتى هبط الى جهنم • حيث يقيم حتى الآن ، يا ابليس يا من كان أكثر الملائكة كلهم اشراقا ، لقد تحولت الآن الى الشيطان الذى لا يستطيع الفرار من الشقاء ، الذى وقع فيه •

آدم

وها هو ذا آدم فى حقول دمشق(٨) حيث صنعه اصبع الله سبحانه نفسه ، ولم يولد من منى الانسان النجس ، وكان يحكم الجنة بأسرها ، ماعدا شجرة واحدة • ولم يتمتع رجل من الدنيا بمثل المنزلة العليا ، التى كان يتمتع بها

آدم ، حتى بلغ به سوء التدبير ان طرد من فلاحه السامى ، الى العمل المضنى وجهنم والشقاء ..

شمشون(٩)

وها هو ذا شمشون الذى بشر به الملاك قبل ميلاده بوقت طويل وكان قد كرس حياته لخدمة الله العلى العظيم ، وكان محترما مبجلا طوال المدة التى كان ينعم فيها بالنظر . ولم يكن هناك أحد يصارعه فى القوة والجلد ، الا أنه باح بسره لزوجاته ، الأمر الذى أدى الى أنه قتل نفسه لشدة بؤسه . وشمشون ، ذلك البطل القدير الكريم ، قتل أسدا ومزقه ، من غير سلاح سوى يديه ، بينما كان ذاهبا الى حفل عرسه . واستطاعت زوجته الغادرة أن تبلغ درجة من ارضائه والتوسل اليه ، حتى أدركت كل ما كان يضمره فى عقله ، وأفشت سره لأعدائه وهجرته ، واتخذت لنفسها زوجا غيره .

واستولى شمشون على ثلاثمائة ثعلب من شدة غضبه وربط ذيولها كلها فى عقدة واحدة ، ثم أشعل النار فى ذيولها لأنه كان قد ربط بذيل كل منها مشعلا ملتهبا . وترتب على ذلك أن أحرقت الثعالب كل حقول الغلة فى البلاد كما أنها أحرقت مزارع الزيتون والكروم . كما قتل شمشون ألف رجل بيده وحدها ، ولم يكن يملك سلاحا سوى لحى حمار .

وبعد أن قتلهم أصابه ظمأ شديد ، الى حد أنه أحس بالضياع ، الأمر الذى جعله يتضرع الى الله ، لكى يشفق على آلامه ، ويمنحه ما يشربه . والا لقى حتفه لا محالة ، وعندئذ تفجر من ضرس فى لحى الحمار الجاف ينبوع من الماء ، فشرب منه بعد قليل ، وعلى هذا النحو ساعده الله كما جاء فى سفر القضاة بالكتاب المقدس .

كما استطاع ذات ليلة فى غزة أن يقتلع أبواب المدينة ، بالرغم من الفلسطينيين المقيمين فى هذه المدينة ، وحمل هذه الأبواب على عاتقه الى أعلى تل ، حيث رآه الناس أجمعون . ياشمشون يا أيها البطل العظيم القوى العزيز لو لم تبح بسرك لامرأة لخلا العالم كله ممن يضارعك ! شمشون هذا لم يشرب أبدا جعة التفاح ولا نبيذا ، ولم يحلق شعر رأسه أبدا بمحلقة ، وذلك تنفيذا لأمر رسول ربه ، اذ أن قوته كانت كامنة فى شعره . وحكم اسرائيل عشرين شتاء ، ولكنه لم يدر أنه سيبكى بكاء مريرا بعد قليل ، لأن النساء كان مقدرا لهن أن يصحبنه بسوء الحظ .

اذ قال لخليلته دليلة ، ان قوته البدنية كامنة فى شعر رأسه ، فخانته ؛ وباحت بسره لأعدائه ، وباعته لهم . وذات يوم بينما كان نائما على ركبتها قصت

شعره كله وأتاحت الفرصة لأعدائه أن يروا ما كانت قد فعلت به ، فلما وجدوه على هذا النحو قيدوه وقلعوا عينيه ٠

وقبل أن يحلق شعره كله كان لا يوجد قيد ولا أغلال يستطيع بها الناس أن يقيدوه بها ٠ أما الآن فقد أصبح سجينا فى كهف ، حيث أجبروه على تشغيل المطحنة بيديه ٠ يا شمشون يا أقوى البشر ، يا عالى الشأن ؛ يا من كنت قاضيا تتمتع بالغنى والمجد عليك الآن أن تبكى بعينيك الكفيفتين ، ما دمت قد سقطت من حال الرخاء الى حال البؤس والذلة ٠

أما نهاية هذا الأسير التعيس فهى النحو ، الذ سأحكيه : فذات يوم كان أعداؤه يقيمون وليمة وجعلوه يقوم بحركات بهلوانية أمامهم كانه مهرج ، وقد حدث ذلك داخل معبد مزدان بصورة فخمة ٠ ولـكنه فى آخر الأمـر تسبب فى اضطراب صاخب كبير ، لأنه هز عمودين ؛ وجعلهما يقعان ، وهكذا وقـع المعبد وكل ما به بقى ملقى على الأرض ٠ أما شموشون فكان قد أهلك نفسه أثناء ذلك ، كما أهلك كل أعدائه أيضا ٠

ومعنى ذلك أن كل واحد من أمرئهم سقط قتيلا الى جانب ألف جثة تحت أنقاض ذلك المعبد الكبير المبنى بالحجر ٠ ولن أتكلم أكثر من ذلك عن شمشون ٠ فاعتبروا بمثله القديم والواضح ، حتى لا يبوح أحـد بسره لزوجتـه ؛ اذ كان ذلك أمر يمس جسمه أو حياته ٠

هرقـل(١٠)

عن هرقل الفاتح الأسمى تترنم مآثره بشهرة عالية ، ومدح عظيم ، لأنه كان زهرة الفتوة فى زمنه اذ قتل الأسد وسلخه ، وأذل تفاخر القنطور ؛ وأهلك ربات الانتقام ، تلك الطائرات المفزعة القاسية ٠ وسلب التفاحات الذهبية من أمام التنين ، وأخرج « كربيروس »(١١) الكلب الحارس لجهنم ؛ الى عالمنا وقتل بوسيروس(١٢) الظالم المفترس ، وجعل جواده يأكله بلحمه وعظـامه ٠ وقتل الحية النارية السامة ٠ وكسر قرنا من قرنى أخـيلوس ٠ وقضى على العمـلاق كاكوس(١٣) فى كهف حجرى ٠ كما قتل المارد أنثيوس(١٤) القوى ٠ وذبـح الخنزير البرى المخيف(١٥) ، ورفع السموات على عاتقه العريض ٠

ولم يوجد قط مخلوق ، منذ بدأ العالم ، قتل مثل ما قتل من الوحوش ٠ وكان اسمه شهيرا فى أطراف العالم ، بسـبب قوته البدنية ، وبسـبب رفعة كرمه أيضا ، وقد زار كل ممالك الدنيـا فى جولاته ٠ وكان من القوة ، بحيث لم يستطيع أى انسـان أن يعترض طريقه ٠ وذكر المؤلف « تروفى »(١٦) أنه أقام عمودا عند كل واحد من طرفى العالم ، بوصفه حدا ٠

وكان لذلك البطل العظيم خليلة تدعى ديانيرا(١٧) وكانت بضة وحلوة ، مثل شهر مايو ، وكما يذكر ذلك مؤلفو الكتب كانت قد أهدته قميصا أنيقا جميل الألوان • يا ويح ذلك القميص ! يا ويلاه ! فقد كان القميص ملقحا بالسم تلقيحا لم تظهر له أعراض ، حتى أنه ما كاد يرتديه نصف يوم ، حتى أخذ اللحم يتساقط فوق عظامه •

وعلى كل حال فهناك بعض الكتاب ، الذين يلتمسون لها العذر ، بحجة أن صانع القميص كان شخصا يدعى تيسوس • ومهما يكن من واقع الأمر فلن أوجه لها التمهة • فالواقع أنه أرتدى القميص على ظهرة العادى حتى أصبح لحمه كله مشبعا بالسم • ولما أدرك ألا علاج لما جرى له طلب أن يخدش ، ويجرف بجمرات الفحم المتقدة ، لأنه لم يرض لنفسه أن يموت بالسم •

وهكذا مات ذلك البطل القدير الكريم المدعو هرقل • فمن يستطيع اذن أن يعتمد على الحظ أية مدة من الزمن ؟ ان من ينقاد لهذه الدنيا الصاخبة عليه أن يعتبر ، لأن الدنيا قد تعود عليه بأقل القليل • ومن عرف قدر نفسه فذلك هو الحكيم العليم ! وانتبهوا لأن ربه الحظ ، ان شاءت أن تخدع ، انتظرت لكى تسقط رجلا ما ، حتى تجد طريقة أبعد ما تكون عن تخيلها •

نبوخذ نصر(١٨) (أو بختنصر)

ان العرش العظيم والكنز النفيس والصولجان المجيد والجلالة الملكية ، التى كان يتمتع بها نبوخذ نصر لا تكاد الألسنة تستطيع وصفها • فقد فتح مدينة أورشليم مرتين ، وأتى بكنوز المعبد • وكان مركز حكمه فى بابل ، حيث كان يتمتع بمجد عظيم وبهجة كبرى •

وأمر بأن يخصى أو يسم أولاد بيت ملوك اسرائيل ، وجعل منهم عبيدا له • وكان من بين هؤلاء ، فتى ، يدعى دانيال ، كان أشدهم حكمه ، وأكثرهم حصافة ، اذ أنه كان قادرا على تفسير أحلام الملك ، فى حين أنه كان لا يوجد بين الكلدانيين أحد من العلماء يستطيع أن يعرف ما يشير اليه حلم الملك •

وأمر هذا الملك المتكبر بصنع تمثال من الذهب ، حجمه ستون ذراعا فى العلو وسبعة فى العرض ، كما أمر أن يسجد أمام هذا التمثال الناس كلهم شبانا وشيوخا ، ومن لا يفعل يحرق فى أتون نار متقدة بلهب حمراء • ومع ذلك لم يرض دانيال ورفيقاه ان يطيعا هذا الأمر •

وكان ملك الملوك هذا متكبرا ومتغطرسا ، وظن أن الله سبحانه ، الذى يتربع على عرش الجلالة ، غير قادر على حرمانه من منزلته • وفجأة أضاع

منزلته السامية وظهر كأنه حيوان ، وبدأ يأكل كأنه ثور وابتل جسمه بندى السماء ،وكأنه يمشي فى الدنيا مع الحيوانات المفترسة الى أجل قدر له . وأصبح شعره كريش النسور ، وتحولت أظافره الى مخالب شبيهة بمخالب الطير . وبقى الأمر هكذا حتى عفا الله عنه بعد بضع سنين ، ومنحه العقل والفطنة ، وبعد ذلك بكى الملك بكاء غزيرا ، وحمد الله ، وقضى بقية حياته فى خشيةمن أن يرتكب خطيئة ، أو أن يخالف الشرائع . وعاش حتى جاء الوقت ، الذى وضعت فيه جثته على تابوت الموتى ، عالما أن الله قوى البأس ، كثير الفضل واللطف .

بلطشاصر(١٩) (أو بلشصر)

أما ابنه الذى كان يدعى بلطشاصر فحكم البلاد بعد عهد أبيه . ولم يعتبر بما حدث لأبيه ، لأنه كان متكبرا فى قلبه وفى مظهره ؛ وظل كافرا وثنيا دائما . وكانت منزلته السامية تطمئنه فى غطرسته . الا أن الحظ أسقطه من على ، وظل ملقى فى الأرض ، وفجأة بدأت مملكته تنقسم وتتفتت .

وذات يوم أقام وليمة لكل امرائه ، وأمرهم بأن يكونوا سعداء ، ثم دعا ضباطه قائلا لهم : « اذهبوا واحضروا الآنية التى أخذها والدى ، فى وقت رخائه ويمنه ، من هيكل معبد أورشليم ، ولنسبح لآلهتنا السامين على المجد ، الذى تركه لنا أسلافنا » .

وطوال الفترة التى بقيت فيها شهيتهم مفتوحة ظل امراؤه وزوجته ومحظياته يشربون أنواعا مختلفة من النبيذ من هذه الأوعية . ثم ألقى هذا الملك نظراته على جدار فى البهو ورأى يدا من غير ذراع تكتب بسرعة . فخشى ما رآه وارتجف ، وتنهد فى أسى . فاليد التى أفزعت بلطشاصر مثل هذا الفزع ، كانت قد كتبت « منا منا تقيل وفرسين » (٢٠) ولا كلمة بعد ذلك .

ولم يوجد فى البلاد كلها ساحر ولا عالم يستطيع أن يفسر هذه الكلمات ، الا أن دانيال استطاع أن يفعل ذلك قائلا : « أيها الملك ان الله أعطى اياك ملكوتاوعظمة وجلالا وبهاء وكنوزا ودخلا كبيرا ، فتكبر ولم يخش الله ، ولذلك أنزل به الله الشقاء والبؤس وسلبه ملكه . وطرد من بين الناس ، وكانت سكناه من الحمير الوحشية وأطعمه الناس العشب والتبن كالبهائم فى الجو الجاف والمطر على السواء ، حتى علم ان الله على السلطان يملك كل مملكة وكل مخلوقاته . ثم أشفق الله عليه ورد له ملكه وهيئته الأولى .

وأنت ابنه تعاظمت ، مع أنك عرفت كل هذا ، بل تمردت على الله ؛ أصبحت عدوا له . وشربت من آنيته بجرأة ، وكذلك شربت زوجتك ومحظياتك

وكلكم آثمون ، وأنتم تحتسون الخمور من نفس الآنية ، وتعبدون الآلهة الباطلة عبادة ملعونة . ولذلك قدر لك شقاء ! عظيما ، عقابا لك .

وقد أرسل الله هذه اليد التى كتبت على الجدار : « منا منا تقل وفرسين » وثق بما أقوله . فان ملكك قد انتهى ، ولا يقام لك أى وزن الآن . وقد انقسمت مملكتك وستعطى لمادى وفارسى » . وفى الليلة نفسها قتل الملك ، وتولى دارا الملك مكانه ، وان لم يكن له فيه أى حق شرعا .

يا أيها السادة الكرام اعتبروا بكل ذلك ، فالسيادة ليست ضمانا ولا مضمونة ، لأن ربة الحظ ، اذا هجرت انسانا ؛ أخذت معها ملكه كله وغناه ؛ بل وغالب أصدقائه . وان الانسان الذى يجدأصدقاء بفضل الحظ سيحولهم سوء الحظ الى أعداء . وهذا مثل صادق شائع .

الزبــاء(٢١)

كانت الزباء ملكة تدمر ، ويصف المؤلفون الفرس رفعة شأنها بأنها كانت مقدامة ومتحمسة فى القتال الى حد لم يكن هناك أحد يفوقها فى الشجاعة والبسالة ولا فى عراقة السلالة ولا فى أية صفة أخرى متعلقة بالكرم وسمو الخلــق .

وقد انحدرت من دم ملوك الفرس(٢٢) ولاأقول انها كانت أجمل النساء ، الا أن هيئتها العامة لم يمكن الاتيان بخير منها .

ومنذ طفولتها كانت (على ما قرأت) تتجنب أعمال النســاء ، وتذهب الى الغابات ، وكم من وعل أراقت دمه بالسهــام الشـاقبة ، التى كانت تطلقها . وكانت سريعة العدو بحيث كانت تلحق فريستها فى الحال . ولما كبر سنها أخذت تقتل الأسود والفهود ، وتمزق الدببة تمزيقا ، وتصارعها بذراعيها مجردتين كما تشاء .

وكانت تجرؤ على أن تسعى بنفسها وراء عرن الحيوانات المفترسة ، وأن تجرى طوال الليل على سفوح الجبال ، وأن تنام تحت شجيرة ، كما كانت قادرة على أن تصارع بقوة وعافية أى شاب قوى مهما بلغت قوته . ولم يصمد أمامها شىء كما حافظت على بكارتها من هتك عرض أو اعتداء ، لأنها لم تقبل أن تصبح أسيرة لأى رجل ومع ذلك فان أصدقاءها استطاعوا فى النهاية أن يزوجوها من أمير فى البلاد يدعى « أودناثوس » ، ولو أنها تركته مدة طويلة ينتظر ردها بالقبــول .

وستدركون من حكايتى أنه كان يضمر نفس الطموح والرغبــات ، التى

كانت تضمرها وعلى كل حال فانه عندما ارتبطت حياتاهما بالزواج عاشا فى هناء وسعادة ، لأن كلا منهما كان يعز الآخر ٠

ومع ذلك كان هناك أمر لا ترضى به أبدا ، وهو أن يضاجعهـا أكثر من مرة واحدة ٠ اذ أنها كانت تريد حقا أن تنجب طفلا لتكثر من سكان المعمورة ثم اذا لاحظت أنها لم تحمل من مضـاجعة واحدة ، دعته يملى ارادته مرة أخرى واحدة بلا شك ٠

واذا حملت بعد ذلك كانت لا تلعب هذه اللعبة مرة أخرى ، حتى يمر أربعون أسبوعا كاملة ٠ ثم تسمح له بأن يستأنف الأمر مرة واحدة ٠ ومهمـا بلغت شهوة أودناثوس وتوقه اليها من الشبق أو الاعتدال فانه لا يحصل على أكثر من ذلك ، لأنها كانت تقول دائما أن من المجون أو العـار أن يلهو الرجل بزوجته لغرض غير الانجاب ٠

وأنجبت من أودناثوس هـذا ولدين ، ربتهمـا خير تربية ، وعلمتهمـا الفضيلة والآداب ٠ أما الآن فلنعد الى حكايتنا ٠ أقول اذن ان هذه الملكة كانت جديرة بالاحترام والتبجيل وكانت حكيمة ومعتدلة فى كل ما تقدم عليه اعتدالا محمودا ، وكانت تعمل جادة اذا ما أقدمت على حرب ، وظلت دائما مثالا للأدب والكرم ولم يكن هناك أحد يضارعها فى أعمال الحرب والجلد مهما بحثنـا بين الناس فى العالم كله ٠

ويصعب على وصف عدتهـا وجهازهـا من الآنية النفيسة ومن أرديتهـا الثمينة وكانت دائمـا ترتدى مـلابس مرصعـة بالأحجـار الكريمة ومطرزة بالقصب ٠ وبالاضافة الى ذلك كانت لا تكف عن الخروج فى رحلات الصيد كما كانت تتقن تعلم لغات شتى ، عندما كان يتسع لها الوقت ٠ وكان كل همها فى تعلم ما فى الكتب من علم ، ومعرفة ، كيف تستطيع أن تقضى حياتها فى فضيلة وخلق سام ٠

وخلاصة القول ان زوجها كان على درجة عالية من البسـالة ، كما كانت هى أيضا الى حد أنهما فتحا ممالك كثيرة فى الشرق واستوليا على مدن شتى ، كانت تحت الحكم الرومانى ، واستطاعا أن يثبتا حكمهما على هذه البلاد ، بقبضة قوية ، ولم يستطع قط أحد من أعدائهما أن يجبرهما على الفرار ، وكان ذلك طوال عمر أودناثوس ٠

واذا أراد أحد أن يقرأ عن معاركهـا ضد الملك شابور(٢٣) ، وكثيرون غيره ، وعن كيفية وقوع كل هذه المآثر ، ولمـاذا انتصرت ، وأى لقب حصلت نتيجة لذلك ، واذا أراد أحد بعد ذلك أن يعلم ما أصابهـا من شقـاء ، وكيف حوصرت وأسرت ، فليلجأ الى كتابات الشاعر بترارركا(٢٤) ، الذى كتب فى هذا الموضوع بما فيه الكفاية ، وهذا أمر أنا واثق منه ٠

ولما مات أودناثوس قبضت بقوة على زمام الحكم وحدها ، وقاتلت أعدائها بنفسها قتـالا قاسيا شديدا ، الى حد أنه لم يوجد ملك أو أمير فى كل البلاد سعد (اذا قدر له أن يسعد) ، بأنها لم تقاتله فى اقليمه • وتحالف كل منهم معها ، محافظة على السلام ، وتركوهـا هى تخرج الى البـلاد الأخرى للحرب والمتعـة •

ولم يجرؤ امبراطور روما المدعـو اقلديوس (٢٥) وسـلفه الامبراطور جالينوس ولا أى أحد من بلاد الأرمن أو من بلاد المصريين أو من سوريا أو من بلاد العرب على أن يواجهها فى القتال بأى ميدان ، خوفا من أن تقتلهم بيديها ، أو من أن تردهم على أعقابهم بعون حاشيتها القوية •

وكان ابناها الاثنان يذهبان مرتدين ملابس الملوك بوصفهما خليفى حكم أبيهما وكانا يدعوان « هيرمانو » و « ثيمالاو » كما كان الفرس يسمونهمـا • الا أن ربة الحظ كانت قد مزجت شهدهما بمرارة اذ أن هذه الملكة العظيمة كان قد كتب لها ألا تستمر فى منزلتها العليا ، فقد أسقطتها ربة الحظ من سلطانها، وأوقعتها فى الشقاء والأسى •

أما الامبراطور أورليانوس ، لما قبضت يداه على زمام الحكم فى رومـا ، فقد أعد العدة ليثأر من تلك الملكة • وذهب على رأس فيالقه ، ليقاتل الزباء ، واستطاع باختصار أن يجبرها على الفرار ثم قبض عليها فى آخر الأمر وقيدها، كما قيد ابنيها الاثنين ، وفتح بلادهـا ، ثم عاد الى روما ، ومن بين الغنائم ، التى أخذها منها ، عربة الحرب الذهبية الخاصة بها ، وكانت مرصعة بالأحجار الكريمة • فأخذها معه ذلك القـائد الرومانى العظيم الامبراطور أورليانوس ، حتى يشهد الناس ما أتى به • ومشت الملكة مقيدة حول عنقها بأغلال من ذهب، تتبع موكب النصر الذى قاده ، الا أنها كانت متوجة كما يستدعى ذلك كونها ملكة ، وكانت أرديتها مطرزة بالقصب ، والأحجار الكريمة •

وأسـفاه يا ربة الحظ ! تلك القوة التى كانت تفزع الملوك والأباطرة وقتاما ، أصبحت هدف كل من يتطلع اليها • وا أسفاه ! ان تلك المرأة ،التى تشترك فى أعنف المعارك مرتدية خوذة القتال ، وتفتح المدن والقلاع الحصينة ، أصبحت الآن ترتدى قلنسوة الغباء ، أجل فان تلك التى كانت تمسك الصولجان المزدان بالزهور ، أصبحت الآن تحمل المغزل ، حتى تكسب به رزقها •

بطرس ملك الاسبان(٢٦)

يا أيها الكريم العظيم يا بطرس يا مجد اسبانيا ! يا من رفعته ربة الحظ الى أعلى مراتب الجلالة ، ما أجدرك بأن يتحسر الناس على وفاتك الأليمة • لقد

جعلك أخوك تهرب من وطنك ، ثم خدعت أثناء حصار مدينة ما ، وغدر بك ، وأتى بك الى خيمته ، حيث قتلك بيده ، فخلفك فى الملك وفى الثروة ٠

ان الشعار(٢٧) المميز لأسرة من ساعد على اسقاطك يتكون من مجال أبيض يتوسطه نسر أسود ، اقتنصه صولجان الصيد الأحمر ، احمرار الفحم المتقد ، نعم هذا الشعار هو سبب لعنتك ، والجريمة التى ارتكبت ضدك ٠ وفاعل الشر هو صاحب ذلك العش الشرير ٠ ولست أعنى الفارس «أليفر» (٢٨) الذى كان تابعا للامبراطور شارك الأكبر ، لأنه كان دائما يحرص على الوفاء والشرف ، بل أقصد « أليفر الجانيلون »(٢٩) من ولاية آرموريكا ، ذلك المرتشى؛ الذى جاء بهذا الملك الى مثل ذلك الفخ ٠

بطرس ملك قبرص(٣٠)

يا بطرس ! يا ملك قبرص الكريم ، يا من فتح الاسكندرية بتفوق بالغ ، انك قد أنزلت الشقاء بكثير من الكفرة الوثنيين ممن كان أتباعك يغيرون عليهم٠ لفروسيتك وفتوتك لا لأى سبب آخر ، قتلوك وأنت نائم فى سريرك بالفجر ٠ وعلى هذا النحو تستطيع ربة الحظ أن تتحكم فى عجلتها ، وترشدها ، فمن السعادة تطلق الناس الى أعماق الأسى ٠

برنبة اللومباردى(٣١)

ما المانع من أن أحكى ما حدث لبرنبة فيسكونتى « حاكم ميلانو العظيم » الذى كان الها فى جلسات البهجة والمرح ، وسيفا ممتشقا على ولاية لومبارديا ، خاصة أنه صعد الى الأعالى فى منزلته ؟ يا برنبة ، ان ابن أخيك ، وهو قريبك من جانبين (بوصفه ابن أخيك وزوج بنتك) هو الذى أمر بقتلك فى سجن من سجونه ، الا أننى أجهل تماما طريقة قتلك ٠

هوجولينو كونت بيزا(٣٢)

عن محنة الكونت هوجولينو من بيزا لا يستطيع أى انسان أن ينطق بكلام ، لشدة الاشفاق والألم ٠ الا أنه يوجد على مقربة من مدينة بيزا برج عال ، به سجن ألقى فيه ٠ وشاركه فى السجن أولاده الثلاثة الصغار ـ ولم يكن أكبرهم قد تجاوز سن الخامسة ٠ ياويحك ياربة الحظ ان من أشد القسوة أن تضعى مثل هذه العصافير فى مثل هذا القفص !

لقد حكم عليه بأن يموت فى السجن لأن « روجيرو » أسقف بيزا كان قد أوحى له بسياسة مخطئة ؛ الأمر الذى أدى الى أن يثـور الشعب ويتمرد عليه ويحبسه فى سجن على النحو ، الذى وضعناه لكم من قبل . ولم تعط له كفايته من الطعام والشراب ، كما أن نوع ذلك الأكل كان رديئا للغاية .

وذات يوم بينما كانوا يحضرون له طعامه حسب العـادة أغلق السجان باب البرج ، وقد سمع صوت اغلاق الباب ، ولكنه لم يتكلم ؛ بيد أنه خطر له أنهم قرروا أن يموت جوعا فى السجن وقال « ويحى يـا ويلى » وا أسفـا على اليوم الذى خلقت فيه ! » . وعندئذ بدأت الدموع تنهمر من عينيه .

فقال له ابنه الصغير الذى كان يبلغ من العمر ثلاث سنين : « يا أبى لم تبكى ؟ ومتى يحضر لنا السجـان يخننـا ؟ ألم تحتفظ بقطعة من الخبز ؟ انى جوعان لدرجة أننى لا أسـتطيع أن أنام . ليت الهى يجعلنى انام الى الأبد ! وعندئذ لا يتسلل الجوع الى معدتى . ليس أحب الى الآن الا قطعة خبز » .

وعلى هذا النحو كان الطفل يبكى يومـا بعد يوم ، حتى ألقى بنفسه فى حضن أبيه قائلا « الوداع يا أبى فلا مفر لى من أن أموت » . ثم قبل أباه ومات فى اليـوم نفسـه . ولما رأى الأب التعيس ابنه ميتا أمامه أخذ يمزق ذراعيه بأسنانه غيظا وحزنا . وصاح قائلا : يا ويلاك ؛ يا ربة الحظ ؛ وويحى أنـا انى أقذف باللوم كله على عجلتك الغدارة ، التى أنزلت بى كل هذا الشقـاء الأليم » . وظن ولداه أنه يقرض ذراعيه جوعا لا حزنا فقالا له : « يـا أبانـا لا تفعل ذلك ؛ وخير لك أن تأكل اللحم من أجسادنـا نحن الاثنين ؛ واذن خـذ لحمنا وكل كفايتك » . وهذا مـا قالاه له ، وبعد ذلك بيوم أو اثنين ألقيـا بأنفسهما فى حجرة وماتا .

فأصابه اليأس ومات جوعا . وعلى هذا النحو انتهت حيـاة كونت بيزا العظيم ، لأن ربة الحظ ألقت به من منزلته العليـا الى أسفل . والمفروض أن نكتفى بهذا القدر من هذه المأساة . أما اذا كان أحد يريد الاستزادة من القراءة فيها ، فليطلع على ما كتبه شاعر ايطاليا العظيم المدعو « دانتى » لأنه قادر على وصف كل ما حدث مرحلة مرحلة ولم تفته كلمة واحدة .

نـــيرون

بالرغم من أن نيرون كان رذلا بقدر رذالة أى شيطـان مقيم فى أعمـاق جهنم ، فانه على حد قول المؤرخ « سويتونيوس » (٣٣) ــ كان سـيدا للعـالم بأسره ؛ شرقه وغربه ؛ وجنوبه وشمالة . وكانت أرديتة كلها مرصعة بالياقوت الأحمر والأزرق وبالبدر الأبيض لأنه كان مغرما بالجواهر .

ولم يوجد قط امبراطور أكثر منه شهوانية ولا أشد منه تعجرفا ولا أكثر منه تكبرا • فاذا ارتدى نسيجا فى يوم ما لم يرض أن يراه ثانية بعد ذلك • وكانت لديه شبكات كثيرة من التبر الخاص ليصطاد بها فى نهر التايبر ، اذا أراد أن يلهو على هذا النحو • وكانت كل شهواته ورغباته بمثابة شرائع للناس؛ لأن ربة الحظ كانت مطيعة له ، بحكم الصداقة التى كانت تربطهما •

وقد أحرق روما من أجل متعته • وذات يوم قتل كل أعضاء مجلس الشيوخ ، حتى يستطيع أن يستمع الى نواح الرجال • كما قتل أخاه ، وضاجع أخته ، وأذل أمه ، شر اذلال ، لأنه شق رحمها ، لكى يرى أين حملته • ويا ويل من أهان أمه مثل الاهانة •

ولم تنحدر الدموع من عينيه ، عندما رأى ما رآه ، بل اكتفى بأن يقول « كانت امرأة جميلة » • والعجيب فى الأمر أنه استطاع أن يقيم نفسه حكما على جمال جثتها الهامدة • وكل ما فعله هو أن أمر بأن يحضر له النبيذ ، فشربه • ولم تبد عليه أية سمة من سمات الأسى • واذا اقترنت القوة بالقسوة خاضت السموم نفس الشرير خوضا يتجاوز الحد •

وكان لهذا الامبراطور فى شبابه أستاذ يعلمه الآداب ، وأصول اللياقة • ولا شك أن هذا المعلم كان زهرة فلاسفة الأخلاق أجمعين • فطوال مدة تعليمه للأمير الشاب استطاع أن يجعله ذكيا متضلعا فى العلوم ، سريع البديهة (الا اذا كانت المراجعة كاذبة) الى حد أنه انقضى وقت طويل قبل أن يستطيع حب الظلم أو يقترف أية خطيئة أخرى •

وهذا الحكيم الذى أحدثكم عنه كان يدعى « سينيكا » وكان دائما يثير الاحترام فى نفس تلميذه نيرون يحذره دائما من الوقوع فى الخطيئة ؛ وذلك بمنتهى الحكمة والحصافة وبالنصيحة لا بالضرب • وذات يوم قال له : « يا سيدى ! على الامبراطور أن يكون فاضلا ؛ وأن يكره الظلم » • وعاقبه الامبراطور على هذه الكلمة بأن أمر أن تشق شرايين ذراعيه ، وأن ينزف دمه حتى يموت فى حمام •

وكان نيرون فى شبابه قد اعتاد دائما أن ينهض واقفا ، اذا دخل عليه معلمه ، الأمر الذى اعتبره فيما بعد اهانة كبرى • ولذلك أمر بأن يموت على هذا النحو • وعلى كل حال فقد آثر سينيكا الحكيم أن يموت بهذه الطريقة فى حمام على أن يعرض نفسه لأنواع أخرى من التعذيب • وبذلك قتل نيرون معلمه الحبيب •

وتصادف بعد ذلك أن أبت ربة الحظ أن تراعى غطرسة نيرون المتشامخة ، لأنه وان كان قويا فانها كانت أقوى ، فناجت هى نفسها قائلة : « قسما بالله انى

لحمقاء حقا اننى رفعت رجلا ممتلئا بالخطايا الى أعلى درجة حتى يسمى امبراطور ؛ بل اننى أقسم بالله أننى سأخطفه من عرشه ٠ دون أن يدرى ٠ وسيقع وقوعا فاضحا قبل أن يتوقع ذلك » ٠

وثار الشعب ضده ذات ليلة بسبب كثرة خطاياه ؛ ولما أدرك ما حدث انطلق خارج باب القصر وحده وذهب الى حيث كان يظن أن أصدقاءه ينتظرونه ٠ وكان كلما طرق أبوابهم وصاح مستنجدا أسرعوا الى غلق الأبواب فى وجهه ٠ وعرف عندئذ أنه كان قد أخطأ فى حسبانه ، فمضى فى طريقه وحده ولم يجرؤ ثانية على أن يستنجد بهم ٠

وصاح الناس وصخبوا ٠ وهاموا على وجوههم هرجا ومرجا ٠ حتى سمع بأذنيه صيحاتهم وهم يقولون : « أين ذلك الظالم الغدار ؛ ذلك النيرون ؟ » فانتفض فزعا ٠ وكان يجن ٠ وأخذ يتضرع الى آلهته على نحو بائس تعيس مستنجدا ٠ ولكن النجدة لم تأت ٠ ولما زاد الفزع عن حده تصور أنه سيموت رعبا ٠ فجرى الى بستان ٠ حيث أخفى نفسه ٠

وصادف فى هذه الحديقة وغدين ٠ كانا جالسين حول نار كبيرة حمراء الجمر ٠ وتوسل الى هذين الوغدين أن يقتلاه ويضربان عنقه ٠ حتى لا يصاب جسده بعد موته بأى تدبير مشين ٠ ثم انتحر وحده ٠ ولم يجد غير ذلك سبيلا آخر أو أحسن ، فضحكت ربة الحظ من ذلك ، واعتبرت الموضوع مزاحا ٠

أليفانا (٣٤)

لم يوجد قط قائد تابع لملك ، فتح ممالك ، وانتصر فى ميدان القتال ٠ واشتهر فى عصره ، بقدر ما كان اليفانا ٠ الذى قبلته ربة الحظ قبلة غاية فى المجون ٠ ثم رفعته ، ثم أسقطته ؛ حتى أصبح مسلوب الرأس قبل أن يدرك ذلك ٠

ولم يكن مهابا فى هذه الدنيا خشية فقدان الثروة أو الحرية فحسب بل انه أيضا جعل كل انسان يتبرأ من شرائعه خوفا منه ٠ وكان يقول : « ان نبوخذ نصر كان الها ولا يعبد اله سواه » ٠ ولم يجرؤ أن يعصى له أمرا الا فى « بثوليا » ، وهى مدينة محصنة ؛ كان فيها « الياكيم » كاهنا ٠

وتربص الاهالى باليفانا الدوائر ؛ وذات ليلة كان ثملا ومضطجعا فى وسط جنوده بداخل خيمته الواسعة ، اتساع مخزن الغلال ٠ ومع ذلك فبالرغم من كل أبهته وعظمته استطاعت امرأة تدعى يهوديت أن تضرب عنقه وهو نائم على ظهره ، كما استطاعت أن تختلس رأسه سرا دون أن يراها أحد ، وأن تأتى بها الى مدينتهما ٠

الملك انطيوخوس الشهير(٣٥)

مالى لا أحكي شيئا عن جلالة الملك أنطيوخوس العليـا ؛ وعن كبريـائه السامية ، وعن أعماله السامة ؟ انه لم يوجد له مثيل فى الأرض واقرأوا عن كل ذلك فى سفر المكابيين ، واقرأوا أيضا ما قاله من كلمات متغطرسة ، ولماذا سقط من منزلته العليا ، وكيف مات تعيسا فى سفح تل ٠

وكانت ربة الحظ قد رفعت من شأنه ٠ الى حد أنه ظن أنه يستطيع أن يدرك النجوم فى السماء ٠ وأن يزن الجبال بيديه ٠ وأن يحبس طوفان البحار ٠ وكان أبغض الناس اليه شعب الله المختار ٠ بل انه أراد أن يقضى عليهم جميعا قضاء مؤلما معذبا ٠ اعتقادا منه أن الله لن يحط من عظمته ٠

وبما أن اليهود قد هزموا هزيمة منكرة فانه وجـه كراهية خاصة ضد اليهود ، الى حد أنه أمر بأن تعد عربة الحرب على وجه السرعة ، كما أقسم ، وهو غاضب غضبا شديدا أن يذهب الى أورشليم ليعاقبها بشدة غضبه وقسوته ٠ ومع ذلك فـانه منع من تنفيذ خطته ٠ وعقابا لتهديده هـذا ضربه الله ضربة شديدة ، بأن أصابه بجرح غير مرئى لا دواء لعلاجه ٠ وكان الألم يمزق أمعاءه ويقرضها ، الى حد أن آلامه أصبحت لا تطاق ٠ ولا شك أن هذا التأثير كان له تبريره فكم من أمعاء الرجال مزقها من قبل ٠ ومع ذلك فانه ، بالرغم من آلامه ؛ لم ينحرف عن مقصده اللعين ٠

بل أمر بأن يعد جيشه ٠ ولكن فجأة ، وقبل أن يدرك ماذا جرى ثبط الله كل كبريائه وتفاخره ٠ اذ أنه سقط من عربة الحرب ٠ التى كان يركبهـا سقطة مؤلمة حتى أنه مزق أعضاءه وجلده كله ٠ ونتج عن ذلك أنه لم يستطع الركوب ولا المشى بعد ذلك ٠ بل كان يحمل من مكان لى مكان فى نقالة يحملها تابعوه ٠ وأصيب ظهره وجانباه برضوض وكدمات شديدة ٠

وقد أصابه عقاب الله اصابة عظمى ٠ أدت الى أن الديدان أخذت تتسلل الى جسـده ، وأصبحت رائحته نتنة للغاية لدرجة أن النـاس ، الذين كانوا يحملونه ويخدمونه لم يستطيعوا بعد قليل أن يقفوا بجواره ، سواء أكان نائما أم يقظا ٠ ولما وجد نفسه فى هذه المحنة بكى وانتحب ، وعرف أن الله مالك كل مخلوقاته ٠

وأصبح بغيضا لجيشه كله ولنفسه وغدت رائحتة لا تحتمل ٠ ولم يرض أحد أن يحمله من مكان لآخر ٠ وظل يعانى من هذا النتن والشقاء حتى مات موتا تعيسا فى سفح جبل ٠ وهكذا أصيب هذا اللص القاتل المغتال ، الذى تسبب فى شقاء الكثيرين وبكائهم ، هكذا نزل به العقاب المناسب للغطرسة ٠

الاسكندر(٣٦)

ان حكاية الاسكندر معروفة وشائعة لدرجة أن كل انسان ، بلغ سن الرشد ، يعرف شيئا عن تقلبات حظه • والخلاصة أنه استطاع أن يفتح العالم كله ، وأن يخضعه لسلطانه بحكم قوته الجبارة ، أو لأن شهرته السامية جعلت الشعوب سعيدة بأن تطلب منه الأمان والسلام • وكذلك أخضع كبرياء الانسان والحيوان ، حتى أدرك مشارق الأرض ومغاربها • ولم يستطع أحد أن يقارن بينه وبين أى فاتح آخر • لأن العالم بأسره كان يرتعد فرقا أمامه • وكان زهرة الفتوة والكرم • وجعلته ربة الحظ وريثا لشرخها • وفيما عدا الخمر والنساء لم يستطع شىء أن ينال من عزمه فى القتال والعمل ، اذ أنه كان شجاعا مثل الأسد •

وهل يعتبر مدحا له أن أقص عليكم كيف هزم دارا ومائة ألف غيره من الملوك والأمراء والكونتات والدوقات الشجعان وكيف أنزل بهم جميعا الأسى والشقاء ؟ انى أقول بصدق انه على مدى ما استطاع الانسان أن يذهب ، أو يركب ؛ كانت الأرض كلها ملكه • وماذا أستطيع أن أقول أكثر من ذلك ؟ فحتى لو حكيت لكم المزيد عن فتوته وفروسيته لما كفى ذلك •

وحكم اثنتى عشرة سنة على حد قول المكابى (٣٧) وكان ابن « فيليب » ملك مقدونيا الذى حكم بلاد اليونان• يا أيها الاسكندر الكريم العظيم ، يا ويحك اذ يحدث ما حدث لك ! ان أهلك هم الذين أعطوك السم ؛ وقد حولت ربة الحظ رمية الستة فى النرد الى أقل قيمة وهى الواحد • ومع ذلك لم تذرف عليك قطرة واحدة من الدمع • ومن يعطينى دموعا أذرفها على موت مثال رفعه الخلق وكرم القلب ، الذى كان ملكا على العالم بأسره • ومع ذلك اعتبر ما يملك غير كاف ؟ لقد كان قلبه ممتلئا بأسمى المساعى • وا أسفاه من من الناس يساعدنى على أن أتهم ربة الحظ الغدارة وأن أعبر عن امتعاضى من السم وصاحبه ، وأنا أنسب اللوم للاثنين فى هذه الفاجعة ؟

يوليوس قيصر

عن طريق الحكمة والفتوة والعمل المضنى رفع يوليوس الفاتح نفسه من قاع متواضع الى جلالة الملك ، واستولى على الغرب كله برا وبحرا ، اما بقوة السلاح أو بالأحلاف ، وجعل كل بلاده خاضعة له ، تدفع الجزية لروما • وبعدئذ أصبح امبراطورا لروما • حتى تحولت ربة الحظ الى عدوة له •

يا أيها البطل القدير ياقيصر يا من قاتل « يومبيوس » حميك(٣٨) فى « تيساليا » ، وهو قائد كل فرسان الشرق الى أبعد حدود اشراق الشمس فى

الفجر • فانت الذى استطاع بما لديه من مهارة الفرسان والفتوة أن يأسر أتباعه وأن يقتلهم فيما عدا قليلين ، ولو فرارا مع قائدهم بومبيوس • فاستطعت بذلك أن تجعل الشرق كله يهابك ! وعليك أن تشكر ربة الحظ على معاونتها لك فى ذلك •

ومع ذلك فبعد قليل سأروى لكم قصة بومبيوس هذا ، ذلك الحاكم الرفيع المقام لروما ، لذى هرب بعد المعركة المذكورة • وأقول لكم ان أحد أتباعه ، وهو خائن غدار ، ضرب عنقه • حتى يحظى برضى يوليوس • فأحضر له الرأس المقطوعة • وأسفاه وويلاك يا بومبيوس يا من كنت فاتح الشرق كله ، لقد أتت بك الآن ربة الحظ الى هذه النهاية البائسة •

وعاد يوليوس الى روما متوجا بأكاليل الغار ، على رأس موكب نصر • الا أن بوتوس كاسيوس (٣٩) ، الذى كان حاقدا باستمرار على منزلته العليا ، دبر مؤامرة ضد يوليوس هذا ، بطريقة خبيثة سرية ، كما خطط للمكان الذى قرر أن يلقى فيه حتفه مطعونا بالخناجر • كما سأحكى لكم •

فذات يوم ذهب يوليوس الى مجلس الشيوخ بتل الكابيتولين • كما كانت عادته • ولما وصل الى المكان • انقض عليه بروتوس الغدار هذا • مع أعوانه المعادين ليوليوس • وطعنه بعدة خناجر • فأصابه بجروح عديدة • ثم تركه على الأرض على هذا النحو • ولم يئن مرة واحدة من الطعنات • التى أصابته الا مرة واحدة أو مرتين • اذا صدق التاريخ فى ذلك الأمر •

وكان قلب يوليوس يتصف بالرجولة • كما كان ممن يقدرون اللياقة الوقورة • حتى أنه بالرغم من أن جروحه القاتلة كانت تؤلمه أشد الألم ، فانه التف بعباءته حول وسطه ، لكى لا يرى أحد من الناس سوأته

وبينما كان يحتضر ويتمنى أن يكون قد مات نهائيا لم ينس واجب السلوك الوقور : وانى أقترح أن تقرؤوا هذه القصة فى ملحمة لوكانوس(٤٠) وفى تاريخ سوبتونيوس ، وكتاب السير لفاليروس ، حيث تجدون أن ربة الحظ بدأت صديقة ، ثم أصبحت عدوة لهذين القائدين الفاتحين العظيمين •

لا يستطيع أى انسان أن يثق برضاها طويلا ، بل لابد من مراقبتها باستمرار والشاهد على ذلك مصير كل الفاتحين الأقوياء ، الذين ذكرتهم •

كريزوس

كريزوس الثرى ملك ليديا(٤١) السابق ، كان يخشاه قورش ؛ ومع ذلك فقد وقع فى شرك كبريائه ، وقاده الناس للمحرقة ؛ حيث أعدموه حرقا • غير

أن الأمطار أخذت تنهمر من السماء ، حتى أطفأت النار ، واستطاع كريزوس أن يهرب • ولكن أرجو أن تنتبهوا الى أنه لم يحظ برضى الحظ ، اذ أنه انتهى معلقا على المشنقة •

ولما هرب من المحرقة لم يستطع أن يكف عن استئناف الحرب ، وقد وفق فى ذلك بفضل ربة الحظ ، التى أرسلت له التوفيق من خلال مطر غزير ، لكى ينجو من أعدائه • كما أنه رأى حلما ذات ليلة ، وكان بهذا الحلم فخورا سعيدا ، لأنه طمأنه على أن يقدم على حرب انتقامية •

لقد رأى فى منامه أنه فوق شجرة ، وأن رب الآلهة جوبيتر كان يغسله على ظهره وعلى جنبه ، وأن اله الشمس فيبوس أحضر له منشفة جميلة ؛ لينشف نفسه بها • ولذلك أصبح يفتخر بما رآه ، وسأل ابنته ؛ التى كانت بجواره • والتى كان يعلم أنها حكيمة للغاية ، عن تفسير حلمه هذا • وعندئذ أخذت ابنته تفسر له ما رآه فى المنام • فقالت : « ان الشجرة معناها المشنقة ، أما جوبيتر فوجوده يدل على الجليد والأمطار وأما فيبوس بمنشفته النظيفة فمعناه أنك سترى أشعة الشمس ، ولكنك فى الوقت نفسه ستعلق على المشنقة ولا شك فى ذلك يا أبى » • وحينما تكون معلقا بها ستبتل جثتك بالأمطار ثم تجف تحت أشعة الشمس » • وعلى هذا النحو أنذرته ابنته بوضوح وكانت تدعى « فانى » •

وحدث فعلا أن شنق كريزوس الملك المتكبر ، ولم يسعفه عرشه الملكى • وعبرة المآسى عامة أنه لا فائدة من البكاء والنحيب ، لأن ربة الحظ ستضرب دائما ملكا فخورا متكبرا • واذا وضع أحد ثقته فيها خانته وحجبت عنه وجهها بسحابة •

(انتهت حكاية المأساة)

وعندئذ أوقف الفارس الراهب قبل أن يتابع حكايته .

هوامش حكاية الراهب

(١) تكمن أهمية هذه المقدمة فى أمرين أولهما أنها تعطى صورة حية مقنعة لأخلاق المضيف وسلوكه فى الحياة وظروفه الزوجية ، فتكمل بذلك اللمسات المختلفة التى تعطيها الحكايات والأوصاف المختلفة لتصور تشوسر للحياة الزوجية وتقلباتها • كما أن الكلمات التى يتحدث بها المضيف الى الراهب • تعطى فكرة أيضا عن نظرة العامة من الناس فى العصور الوسطى الى أهل الدين ، وخاصة من يعيشون فى سلك الرهبنة ذكورا كانوا أم اناثا • وأهم موضوع فى الهجاء الذى كان يوجه للرهبنة وللكهنة أيضا هو تهمة عدم قدرتهم على الالتزام بالطهارة الجسدية ، التى تقتضيها عزوبتهم المقررة حسب قواعد الدين المسيحى • ويلاحظ أن كثيرا من النقد الذى كان يوجهه المصلحون الدينيون من داخل الكنيسة الى أنظمة الكنيسة كان ينصب على هذه النقطة بالذات ، ألا وهى صعوبة الامتناع عن ممارسة الحياة الجنسية ، والذنوب المختلفة التى تترتب على خرق هذه القاعدة خلسة أو علنا • وان التيار البروتستنتى الذي كان يتخلل تفكير بعض المصلحين الثائرين فى ذلك الوقت ، مثل جون وكليف ، كان بلا شك يتضمن المناواة بزواج الكهنة ، حتى يعيشوا حياة طبيعة ويبتعدوا عن اغراءات الزنا والجنس المحرم • يضاف الى هذا تهمة الاستغلال الاقتصادى والاستفادة من الثراء الفاحش ، الذى كانت الكنيسة وقتئذ تتميز به (انظر المقدمة للاستزادة من مناقشة هذه النقطة) •

والموضوع الثانى الذى يعطى أهمية خاصة لهذه المقدمة هو تعريف المأساة ، كما كان يتصورها الأدباء والمفكرون فى العصور الوسطى • ويلاحظ أن المأساة أو الملهاة فى هذا الصور ، لا تنصب بصفة خاصة على المسرح أو الأدب المسرحى ، بل كانت توصف بها القصائد والملاحم وأى لون من ألوان القصص • فالمهم فى المأساة أو الملهاة هو الموضوع وأحداث القصة • فملحمة دانتى الشهيرة سميت ملهاة ، لأن أحداثها تبدأ فى جهنم ، وتنتهى فى الجنة • أما ملحمة فرجيل « الانيادة » فكان أهل العصور الوسطى يعتبرونها مأساة لأنها تصف سقوط العظماء وتقلبات الدهر ، التى تؤدى الى هلاكهم أو ذلتهم •

ويلاحظ أن المصدر الفلسفى لتصور المأساة فى العصور الوسطى كان يرجع الى كتاب لفيلسوف رومانى مسيحى متأخر يدعى بوثيوس (Boethius) الذى عاش من ٤٨٠ الى ٥٢٤م ، واسم هذا الكتاب « سلوى الفلسفة » (Consolatio Philosophiae) قد كتبه مؤلفه فى السجن « قبل اعدامه بمدة قصيرة ، بتهمة الاتصال السرى بامبراطور الدولة الرومانية الشرقية ، الذى كان عدوا للامبراطور الرومانى الغربى « ثيودوريكوس » (Theodoricus) الذى كان بويثيوس يعمل قنصلا تحت حكمه (انظر المقدمة لمناقشة الدور الكبير ، الذى لعبه هذا الكتاب فى العصور الوسطى ، وخاصة فى مفهوم ربة الحظ) • وان موضوعا مهما للغاية يتناوله هذا الكتاب ، هو تبرير فكرة تقلبات الدهر فى ضوء الايمان باله واحد خير حكيم مدبر • وهذا موضوع قريب جدا من قضية القدرية فى الفلسفة الاسلامية • ويلاحظ أننا قد وصفنا الحظ أو الدهر بعبارة « ربة الحظ » فى ترجمتنا ، لكى نعطى فكرة عن تصور مفكرى العصور الوسطى لها ، كقوة عمياء ، ترمز لها مجازا ملكة ، أو أميرة عمياء ، أو معصوبة العينين تدير عجلة الدهر ، التى ترفع الناس الى أعلى درجات

المجد ، ثم تسقطهم من غير تردد ، ولا تبرير واضح ولا سبب • وكانت هذه القوة تعمل بأمر الله سبحانه وتعالى •

(٢) لا دليل على وجود قديس أو شهيد بهذا الاسم (Madrian) وقد يكون تحريفا لاسم القديس ماتوران (Mathurin)

(٣) هذا اسم مشكوك فى صحته أيضا ، واقترح البعض أن Goodelief مشتق من كلمتى gode, lief بمعنى « الحب الصالح أو الطاهر » •

(٤) كانت مدينة « رتشستر » (Rochester) على بعد ٣٠ ميلا من لندن أو بصفة أدق من الحانة التى بدأ منها الحجاج رحلتهم ، وتعتبر تقريبا فى منتصف الطريق •

(٥) هناك تعريف آخر قريب من هذا جاء به تشوسر فى شرح كتبه لمتن ترجمته « لسلوى الفلسفة » لبويثيوس (الكتاب الثانى الفقرة الثانية السطر ٧) : « شرح أو تعليق : المأساة هى أن تقص قصة سعادة الى أن تنتهى بالشقاء » •

(Glose : Tragedye is to seyn a dite of a prosperite for a tyme, that : endeth in wrecchidnesse).

ولا شك أن نظرية بويثيوس فى المأساة وخاصة الدور الذى تلعبه فهما تقلبات الدهر ، الممثلة مجازا كربة الحظ (Fortuna) هى أساس حكاية الراهب فى كل أقصوصاتها وسيرها المختصرة • والى جانب تعريف المأساة على هذا النحو ، الذى يخرج عن القاعدة الأرسطاطيلية القديمة من ناحية ، وفكرة الصراع الدرامى من ناحية أخرى ، فان هناك وظيفة دينية أخرى يجب ملاحظتها بهذا الصدد وهى أن المأساة تؤلف درسا ضد الكبرياء ، التى هى أولى الكبائر وأمها ، حسب علوم الدين المسيحية •

(٦) هذا العنوان هو ترجمة لعنوان كتاب باللاتينية للمؤلف الايطالى جوفانى بوكاتشيو De Casibus Virorum Illustrium) ولا شك أن السير القصيرة الآتية جاءت من كتاب بوكاتشيو ، الا أن الرجوع باستمرار الى فكرة ربة الحظ ، تلك الربة التى تكلم عنها مجازا بوثيوس فى كتابه « سلوى الفلسفة » ، هى فكرة مأخوذة الى حد بعيد من « رواية الوردة » ، التى تكلمنا عنها فى المقدمة • واذا بحثنا عن مصادر لهذه السير القصيرة ، وجدنا أن سير آدم وهرقل ونيرون وشمشون فيها ملامح كثيرة من كتاب بوكاتشيو ، وأن سيرة الزباء لها مقابل فى كتاب آخر لنفس المؤلف اسمه « فى النساء الشهيرات » (De Claris Mulieribus) أما قصة هرقل ففيها عناصر توحى بكتاب بويثيوس (الجزء الرابع الفقرة الشعرية التابعة) • أما هوجوليتو فسيرته فى جحيم دانتى (النشيد ٣٣ ــ انظر ترجمة المرحوم الدكتور حسن عثمان) • وأما ابليس وشمشون وبنوخذ نصر وبلطشاصر واليفانا وانطيوخوس فكلها من العهد القديم أو من الأسفار المشكوك فى صحتها • أما موضوع الدور الذى تلعبه تقلبات الدهر (أو ربة الحظ مجازا) فى هذه السيرة فالرجاء الرجوع الى المقدمة للاستزادة من المعلومات فى هذا الموضوع •

(٧) هو الشيطان باسمه العربى أما الاسم اللاتينى الذى يأتى ذكره تحته هنا فهو Lucifer أى « حامل الضوء » وهو أيضا اسم الزهرة أو نجمة الصباح (انظر سفر اشعيا ١٤ : ١٢) ، وقد أطلق هذا الاسم على الشيطان بناء على ما جاء بسفر اشعيا •

(٨) هناك اعتقاد شائع فى القصص الشعبية الغربية أن مدينة دمشق قد أسست فى المكان الذى خلق فيه الله آدم • وهناك ذكر لذلك فى كتاب بوكاتشيو المذكور أعلاه •

(٩) أغلب وقائع هذه السيرة مأخوذة من سفر القضاة ١٣ ــ ١٦ •

(١٠) سيرة هرقل مشتقة من « سلوى الفلسفة » لبويثيوس (٤ فقرة شعرية ٧) ومصادر أخرى كثيرة منها « مسخ الكائنات » لأوفيد (الكتاب التاسع) ٠

(١١) كربروس (Cerberus) هو كلب أسطورى ذو رءوس ثلاثة (أو خمسين على رأى البعض) ، يحرس العالم السفلى ، الذى صارعه هرقل كاحدى مآثره الاثنتى عشرة ٠

(١٢) بوسيروس تحريف لاسم بوسيريس (Busiris) حاكم أسطورى لمصر ، قتله هرقل ، لأنه كان يحكم بالاعدام على كل أجنبى ، يدخل ديارها ٠ وسميت بعض القرى فى مصر « أبوصير » و « بوصير » نسبة اليه ٠

(١٣) كاكوس (Cacus) اسم لاله رومانى قديم قتله هرقل فى اسطورته الرومانية ، بعد أن حاول أن يسرق بعض المواشى ، التى كان هرقل يحرسها ٠

(١٤) أنثيوس تحريف لاسم أنتايوس (Antaeus) ، الذى كان ابن اله البحر بوسايدون (Poseidon) ، واله الأرض أو التربة جى وقد صارعه هرقل ، واكتشف أن هذا المارد يجرذ قوته ، كلما لمست قدماه الأرض فرفعه بذراعيه ، وخنقه ، وهو مرفوع ، وقبل أن يستطيع أن يلمس الأرض ٠

(١٥) قتل الخنزير البرى من ايريمانثيا **Erymanthia** هو أحد مآثر هرقل الاثنتى عشرة ٠

(١٦) اسم خيالى لا وجود له فى الواقع ولا فى الأساطير ٠

(١٧) زوجة هرقل التى انتقمت من خيانته لها باعطائه قميصا ملطخا بدم القنطـــور نيسوس المسموم ، الأمر الذى أدى الى موته معذبا ٠

(١٨) حكاية الملك بنوخذ نصر مأخوذة من سفر دانيال ١ ـ ٥ ٠

(١٩) هذه الحكاية أيضا مشتقة من نفس السفر ٠

(٢٠) دانيال ٥ : ٢٦ ـ ٢٨ : « وهذا تفسير الكلام ٠ منا أحصى الله ملكوتك وأنهاه ٠ تقيل وزنت بالموازين فوجدت ناقصة ٠ فرس قسمت مملكتك وأعطيت لمادى وفارس » ٠

(٢١) قصة الزباء مأخوذة الى حد بعيد من كتاب بوكاتشيو « فى النساء الشهيرات »

والزباء هو الاسم الذى اشتهرت به عند العرب زنوبيا ملكة تدمر ، وكانت سيدة موهوبة وهى زوجة فيلاتوس ٠ ورثت الملك بعد وفاته ووسعت رقعة مملكتها فى عهـــد الامبراطور الرومانى أورليان ٠ وشبت فى تدمر ثورة ضد الرومان ، وهزمت الزباء عام ٧٣٠ م وسلمت تدمر ولكنها ثارت من جديد ، فهدمها أورليان وفرت الزباء وجىء بها أسيرة الى روما وقد اشـــتهرت الزباء بجمالها وذكائها وتأثيرها القوى على معاصريها ٠ وتدور حولها قصص كثيرة ، تغلبت عليها الخرافة ٠ ومن ذلك أنها أغرت الملك العربى جذيمة ، ثم قتلته بقطع شرايينه واستطاع ابن أخيه عمرو بن عدى بمساعدة قصير الايقاع بها ، ولكنها تناولت سما كانت تحتفظ به دائما فى خاتم تلبسه قبل أن يذيقها عمرو كأس المنون وقالت « بيدى لا بيد عمرو » فذهبت مثلا ٠

(٢٢) فى رواية بوكاتشيو انحدرت من سلالة بطلمية ٠

(٢٣) شابور الأول ملك الفرس من ٢٤١ الى ٢٧٢م ٠

(٢٤) النسبة الى بترازكا (Petrarca) مناورة تمويهية ، لينفى تشوسر عن نفسه تهمة الأخذ كلية من بوكاتشيو ٠ وهناك رأى قائل بأن هذا مجرد خطأ فى النسبة ٠

(٢٥) كان Claudius Gothicus امبراطورا من ٢٦٨ الى ٢٧٠م ، وسبقه Gallienus من ٢٥٣ الى ٢٦٨ وجاء بعده Aurelianus من ٢٧٠ الى ٢٧٥م .

(٢٦) هو بدرو « القاسى » (Pedro) لك قشطالة من ١٣٥٠ الى ١٣٦٩م الذى قتله أخوه « دون انريكى (Don Enrique) . وكانت توجد صلة بين تشوسر وهذا الملك ، اذ أن جون أو جونت John of Gaunt راعى تشوسر وحاميه ، قد تزوج كونستانسيا بنت الملك كما أن « ڤليبا » (Philippa) زوجة تشوسر ، عملت وصيفة لها مدة قصيرة .

(٢٧) هذا وصف لشعار القائد الفرنسى بيراتران دى جيكلان (Bertrand du Guesclin) الذى كان حليف دون انريكى ، وأغرى الملك بدرو بأن يدخل خيمة أخيه ، حيث لقى حتفه .

(٢٨) كان « أوليفر » (Oliver) من زهرة فرسان شارلمانى ورفيقا فى المعارك لرولاند (Roland) وصديقا حميما مخلصا له ، وجاء ذكره كثيرا فى ملحمة « نشيد رولاند » (La Chanson de Roland)

(٢٩) أما جانيلون أوليفر (Ganelon Oliver) فهو الفارس الخائن ، الذى تخلى عن رولاند فى وقت حاجته ، والملحمة المذكورة تنسبه الى ولاية آرموريكا (أوبريتانيا) .

(٣٠) هو بيير دى لوزينيان (Pierre de Lusignan) ملك قبرص ، الذى اغتيل سنة ١٣٦٩م ، وكانت سمعته كفارس عالية جدا ، وقد زار ملك انجلترا سنة ١٣٦٣ ، ليطلب منه المساعدة فى حملته العسكرية الى مصر ، حيث حاصر مدينة الاسكندرية ، وفتحها سنة ١٣٦٥ . ويلاحظ أن وصف الفارس فى المقدمة العامة يشير الى هذه الحملة (البيت ٥٠) . ويبدو أن تشوسر تأثر هنا بما جاء فى ملحمة جييوم دى ماشو (Guillaume de Machaut) بالفرنسية عن فتح الاسكندرية (La Poise d'Alexandrie)

(٣١) اسمه بالايطالية Bernabô Visconti وتعرف عليه تشوسر أثناء احدى رحلاته الدبلوماسية الى ميلانو سنة ١٣٧٨م ، وقتله ابن أخيه سنة ١٣٨٥م .

(٣٢) هذه الحكاية مأخوذة من النشيد الثالث والثلاثين فى « جحيم » دانتى . انظر الترجمة العربية للدكتور حسن عثمان . الا أنه يلاحظ أن دانتى ذكر أربعة أولاد لا ثلاثة ، كما أنه لم يذكر « روجيرو » وصحته روجيرى (Ruggieri) وادخال فكرة ربة الحظ من ابتكار تشوسر وحده .

(٣٣) أغلب الظن أن تشوسر لم يستعمل تاريخ سويتونيوس (Suetonius) للقياصرة الاثنى عشر ، بل لجأ الى ما جاء برواية الوردة و « سلوى الفلسفة » فى هذا الموضوع .

(٣٤) حكاية اليفانا مأخوذة من سفر يهوديت المشكوك فى صحته فى الكتاب المقدس .

(٣٥) حكاية أنطيوخوس ملك الشام مأخوذة من السفر الثانى للمكابيين (المشكوك فى صحته) الاصحاح التاسع .

(٣٦) كان الاسكندر بطل عدة حكايات وملاحم فى العصور الوسطى ولا يمكن تعيين مصدر معين لها .

(٣٧) السفر الأول للمكابيين الاصحاح الأول الآية السابعة .

(٣٨) هذا خطأ فكان بومبيوس (Pompeius) زوجا لبنت قيصر . ويلاحظ أن قيصر هزم بومبيوس فى الحرب الأهلية بينهما فى فارساليا (Pharsalia) فى مقاطعة تيساليا (Thessalia) سنة ٤٨ ق.م .

(٣٩) هذا خطأ فاسمه ماركوس جونيوس برتوس (Marcus Junius Brutus)

(٤٠) لوكانوس (Lucanus) عاش من ٣٩ الى ٦٥م ، كتب ملحمة فى عشرة أجزاء عن الحرب الأهلية بين قيصر وبومبيوس • أما سويتونيوس (Suetonius) فعاش من سنة ٧٠ الى ١٦٥م تقريبا ، وكتب « سير القياصرة » (De Vita Caesarum) التى تشتمل على سيرة يوليوس قيصر واحد عشر امبراطورا رومانيا من أوغسطس (Augustus) حتى دومتيانوس (Domitianus) وفاليريوس ماكسيموس (Valerius Maximus) لا يعرف عنه شىء كثير (ولا تاريخ حياته) الا أنه الجامع ل « نوادر أقوال جديرة بأن تذكر » (Facta et Dicta Memorabilia) وكانت لها رواج فى العصور الوسطى •

(٤١) كانت ليديا مملكة فى غرب آسيا الصغرى ، عاصمتها سارديس (Sardis) على بعد ٨٠ كيلومترا شرقى ازمير • وكان عصرها الذهبى فى القرن السابع ق•م • ويلاحظ أن اغلب سير كريزوس (Croesus) مشتقة تقريبا حرفيا من « رواية الوردة » (البيت ٦٤٨٩ وما بعده) •

حكاية قسيس دير الراهبات (١)

مقدمة حكاية قسيس دير الراهبات

قال الفارس : « هو ! صه ! يا سيدى الفاضل . كفانا ما سمعناه من كل هذا ، فما قلته حتى الآن يكفى تماما بل يزيد عن حاجتنا ! وانى واثق أن قليلا منالحزن هو غاية ما يستطيع أن يتحمله أغلب الناس . أما فيما يتعلق بى فأقول انه أمر مؤسف للغاية أن أسمع أن أناسا عاشوا فى رغد وسعة ثم فجأة ينهارون الى الأعماق . يا ويحهم ! أما العكس فكان مصدر بهجة بل سلوى كبرى للنفس ، كأن نسمع عمن كان يعيش فى ضنك ومنزلة متواضعة ثم ينهض ويرتفع الى قمة الحظ ويستقر بها فى حالة سعيدة كل السعادة . هذا بلا شك أمر يسعدنا كما يبدو لى ومثل هذه الأمور يمكن أن نحكيه ونجد فيه فائدة محققة » .

وقال مضيفنا : « أجل ! أجل ! قسما بجرس كنيسة القديس بولس أنت صادق . أما هذا الراهب فهو ثرثار للغاية وبصوت عال ، وحدثنا كيف أن ربة الحظ قد غطت ما لا أدريه بسحابة . كما تكلم عن مأساة قد سمعتموها منذ قليل وقسما بالله أنه لا طائل من أن نبكى ونشكو ما حدث بالفعل . وكم يحز فى نفوسنا أن نستمع كثيرا الى موضوعات محزنة كالتى قلتها أنت . ولذلك يا سيدى الراهب لا تستمر فى هذا الموضوع ، وبارك الله سكوتك ! فان قصتك تمل كل رفعتنا هذه . ومثل حديثك لا يساوى ذرة تافهة لأنه ليس منبعا للترفيه ولا للتسلية . ولذلك يا سيدى الراهب ، أو ما يسمونه بلقب

أبينا بطرس(٢) أناشدك الله أن تحدثنا عن شيء آخر ، لأنه ؛ بلا شك ؛ لولا جلجلة أجراس زمامك لأقسمت بملك السموات الذى مات من أجلنا جميعا ، اننى كدت أنام مللا ، حتى لو كانت حفر الطريق أعمق ما تكون · ولذلك أرى أن حكايتك قد رويتها سدى · ومما لا شك فيه أنه ، على حد قول غالبية العلماء(٣) ، اذا كان الراوى لا يصادف أذنا مصغية من المستمعين لم تكن هناك فائدة من أن يعبر عما يضمره من أفكار · أما أنا فاذا سمعت حكاية تروى على خير وجه ، فأنا أعرف تماما أن مكونات المستمع الطيب متوفرة لدى · أرجوك اذن أن تحكى حكاية فيها شيء عن القنص والصيد ! » ·

فأجابه الراهب قائلا : « لا ، فلست ميالا الى اللهو واللعب ، ودع شخصا آخر يحكى كما حكيت الآن » ·

وعندئذ تكلم مضيفنا بعبارات جريئة وبسيطة وقال لقسيس دير الراهبات ما يأتى : « تعال واقترب ، أيها القسيس ، احضر بجانبى يا سيد جون ! وقل لنا شيئا يثلج صدورنا ، وكن مرحا مداعبا ، وان كنت تمتطى جوادا تعيسا ! واذا كان حصانك نحيفا ورديئا ، فلا تبال أقل مبالاة ، ما دام يخدمك كما تريد ! ودع قلبك بمرح ويسعد دائما ! » ·

وقال القسيس : « نعم يا سيدى ، نعم يا مضيفنا ها أنا ذا مستعد ؛ ولكنى أعرف أننى بقدر ما صرت مرحا سأكون موضع اللوم والتوبيخ » · وبعد قليل استهل حكايته وروى لنا جميعا هذا القسيس الفاضل والانسان الخير المدعو السيد جون ما يأتى :

(انتهت المقدمة)

وهنا تبدأ حكاية قسيس دير الراهبات
الخاصة بالديك والفرخة المسمين شانتكلير وبيرتلوث

كانت فى قديم الزمان أرملة فقيرة ومتقدمة فى السن الى حد ما ، تعيش فى كوخ ضيق ، بجوار غابة ، فى واد صغير وكانت هذه الأرملة التى أروى عنها قصتى قد عاشت منذ أن فارق زوجها الحياة ، وكانت زوجة فى عصمته ، حياة بسيطة للغاية ، تمتاز بالصبر والمثابرة ، لأنها لم تكن تملك من أموال ودخل

سوى الكفاف · واستطاعت أن تعول نفسها وبنيتها بتدبير ما كان لديها مما رزقها به الله سبحانه وتعالى · وكانت تملك ثلاث خنزيرات من ثلاث بقرات وخروف واحد أسمته « مال »(٤) ·

وكانت حجرتها كلها ملطخة بالسخام والدهم وكذلك مدخل بيتها ، حيث كانت تأكل كثيرا من واجباتها الضئيلة للغاية · ولم تكن قط فى حاجة الى صلصات شهية ، فلم تبتلع أبدا ما لذ وطاب ، بل كان طعامها متناسبا مع تواضع كوخها · ولم تمرض أبدا نتيجة للتخمة وكل دوائها الحمية المعتدلة فى الأكل والمجهود الشاق وقناعة القلب · أما النقوس فلم يترك لها فرصة للرقص، ولم تشق أبدا من جلطة فى المخ · ولم تشرب نبيذا أحمر أو أبيض ، وكان لا يوجد على مائدتها الا اللونان الأبيض والأسمر كناية عن اللبن والخبز الأسمر اللذين لم ينقصانها · وكانت تأكل أحيانا بعض لحم الخنزير المدخن ، وبيضة أو بيضتين ، لأنها كانت تتقن فنون الملبنة والمزرعة · وكانت لها حظيرة مسورة بالعصى ويحوط بها من الخارج قناة جافة حيث كانت تربى ديكا اسمه « شانتكلير » (٥) · كان لا يوجد فى القطر كله مثيل له ، اذا صدح · فقد كان صوته أشجى من صوت الأرغن الشجى فى الكنيسة أيام الأعياد الدينية ·

وحينما يصدح هذا الديك كان يحافظ على دقة التوقيت أكثر من أية ساعة عادية ، أو ساعة كبيرة فوق برج الكنيسة · وكان بالفطرة حافظا لأوقات طلوع خط الاستواء السماوى فى تلك المنطقة ، فاذا ارتفعت الشمس بمعدل خمس عشرة درجة ، كان يصدح بتوقيت دقيق ؛ لا يستطيع أحد أن يراجعه فيه · وكان عرفه أشد احمرارا من المرجان الرفيع وكن طرف عرفه مجمدا على شكل شرفات سور القلعة الحصينة ، ومنقاره أسود يلمع ، كأنه حجر موسى ، ورجلاه لازورديتين وكذلك كانت مخالبه · أما أظافر مخالبه فكانت بيضاء بياض زهرة السوسن ، ولون ريشه كالذهب المصقول · وكان فى رعاية هذا الديك الكريم سبع دجاجات · يشبعن كل نزواته · وكانت هذه الدجاجات أخوات له وعشيقات وتشبهه فى اللون شبها غريبا · ومن أجمل هذه الدجاجات وأروعها لونا فى صدورها دجاجة اسمها « برتلوت »(٦) الجميلة · وكانت مؤدبة حصيفة ودمثة الخلق وأنيسة ، وكانت دائما تسلك سلوكا حسنا منذ ذلك اليوم الذى بلغت فيه عمر الليالى السبع ، الأمر الذى مكنها من السيطرة على قلب «شانتكلير» الذى صار أسيرا لها بكل جوارحه · وقد أحبها حبا جما ، الى حد أنه كان لايشعر بالطمأنينة والغبطة الا فى صحبتها · وما أجمل الاستماع اليهما وهما ينشدان معا ، عندما تبدأ الشمس فى الاشراق انشادا منسجما يتغنيان الأغنية المسماة « حبيبى قد هجرنى وجفانى » · والمعروف أنه فى ذلك الوقت الذى أتكلم عنه ، كانت الحيوانات والطيور تستطيع الكلام والغناء ·

وحدث ذات يوم فى الفجر بينما كان شانتكلير جالسا على محطة فى مدخل

الكوخ وكانت بيرتلوت الفاتنة هذه تجلس بجواره ؛ أن أخرج الديك الوسيم آهة من حلقه كما لو كان ينزعج انزعاجا شديدا من حلم مفزع أو كابوس .

ولما سمعته بيرتلوت يصيح مثل هذه الصيحات الجشة شدهت وقالت : « يا قلبى العزيز ، ماذا بك حتى تأوهت هذا التأوه ؟ فانت سيد من ينام نوم العافية ! أف ! عار عليك ! » . فأجابها قائلا : « يا سيدتى المحترمة أرجو ألا تأخذى ذلك على محمل سيىء : قســما بالله أننى رأيت فى المنــام منذ قليل ما أفزعنى الى حد أن قلبى لا يزال يرتجف مما شاهدت » . ثم استطرد قائلا : يا الهى ، اجعل حلمى هذا خيرا ، واحفظ جسدى من السجن القذر ! فانى قد حلمت أننى كنت أجول هنا وهناك بكل أنحاء حظيرتنا ، الى أن رأيت حيوانا مخيفا شبيها بالكلب ، كاد أن يقبض على ليقتلنى . وكان لون هذا الحيوان بين الصفرة والحمرة ، وكان ذيله وأذناه مشذبين بالأسود على عكس بقية الشعرات فى فرائه . وكان خطمه مدببا ، وعيناه تتألقان ؛ ومع ذلك فان شكله كاد يفزعنى الى حد الاهلاك ! ولابد أن تكون هذه الرؤيا هى السبب فى تأوهاتى ! » .

فصاحت الدجاجة قائلة : « عيب عليك ! يا للعار يا عديم الشـــجاعة ! ياويلك ! فقسما بالله فى الأعالى أقول لك أنك قد فقدت قلبى وكل حبى . ولا أستطيع أن أعشق جبانا قسما بايمانى ! وحقيقة الأمر أنه مهما قالت بهذا الصدد أية من النساء فنحن كلنا نعشق ونتودد الى أزواج يتحلون بالشجاعة والحكمة والكرم والحصافة ما أمكن ذلك ، وليسوا من البخلاء أو الحمقى ولا ممن يفزعون من كل سلاح أو يتفاخرون . وأقسم بالله فى الأعالى كيف تستطيع أن تقول من غير خجل لحبيبتك أن هناك شيئا ما فى الدنيا يمكن أن يفزعك ويفقدك رباطة جأشك ؟ أتكون ذا لحية (٧) ولا تملك قلب رجل ؟ يا ويحك أيمكن أن تخشى أشباح الأحلام ؟ والله يعلم أن الأحلام ما هى الا أشباح وهمية . فالأحلام بنات التخمة المزاجية وأبخرة الأخلاط الجسدية ومزج الأخلاط على وجه غير مرغوب فيه عندما تكون غير متعادلة فى الانسان ويتغلب بعضها على بعض(٨) . ولا شك أن هذا الحلم الذى صادفك ليلة أمس جاء من غلبة خلط صفراء المرارة الضاربة الى الاحمرار ، وقسما بالله هذا هو مــا يجعل النــاس يفزعون فى أحلامهم من السهام ، ومن النار ذات اللهب الحمراء ، ومن الوحوش الحمراء خوفا من أن تعض الحالم ، ومن الشقاق والمشاجرات ، ومن الأشبال الكبيرة والصغيرة (٩) . وكذلك خلط السوداء الذى يجعل النائم يصرخ أثناء نومه خوفا من الدببة السوداء أو الثيران السوداء ؛ أو فزعا من أن تختطفه عفاريت سوداء . وانى لأستطيع أن أحدثك أيضا عن غير هذين الخليطين اللذين يصيبان الانسان أثناء نومه بأسى شديد . ولكنى سأمر على هذا الموضوع مر الكرام . فاليك مثلا « كاتو » ذلك الفيلسوف الحكيم (١٠) آلم يقل « لا تقيموا للأحلام أى وزن ! » .

ثم استطردت وقالت : « والآن يا سيدى بعد أن نكون قد طرنا من على

محطنا أناشدك بحب الله للبشر أن تأخذ دواء ملينا ! وقسما بمصير روحى الأبدية وحياتى الدنيا سأعطيك خير النصائح وهى - من غير كذب ولا خداع - أن تطهر نفسك من خلط الصفراء والسوداء • وحتى لا تضطر الى الانتظار طويلا ، بما أن هذه القرية لا يوجد فيها صيدلى ، سأوجه اهتمامك لبعض الأعشاب التى تعود عليك بالصحة والفائدة ، بل سأجد أنا نفسى فى تربة حظيرتنا تلك الأعشاب ، التى من صميم طبيعتها أن تطهرك من أسفل ومن أعلى • ولا تنس هذا الذى أقوله لك أناشدك بمحبة الله ، بما أنك ممن لهم مزاج صفراوى الأخلاط • واحترس ألا تلقاك الشمس فى صعودها ممتلئا بأخلاط حارة مقلقة • واذا حدث ذلك فانى أراهن بقرش أنك سوف تمرض بحمى تزداد حدة كل ثلاثة أيام أو بحمى الرعدة التى قد تؤدى الى هلاكك وعليك أن تأخذ الملينات لمدة يوم أو يومين من الديدان (١١) قبل أن تأخذ المسهلات المعدة من أعشاب مختلفة كدفنة عود النار والقنطريون الصغير والشاهترج أو الخربق الأسود الذى ينمو فى نفس التربة ولماهودانة والنبق وعشب قرن الايل ، الذى ينمو فى حظيرتنا بضا مبهجا • التقطها اذن كلها وهى تنمو فى الأرض ثم ابتلعها • وكن سعيدا يا زوجى العزيز من أجل سلالة أبيك ؛ ولا تخشى أى حلم من الأحلام ، ولا أستطيع أن أحدثك عن أكثر من ذلك » •

فقال الديك : « يا سيدتى أشكرك على غزارة معلوماتك • ومع ذلك ففيما يتعلق بالسيد كاتو الذى اشتهر بالحكمة أية شهرة ، أقول مع أنه قد قال ان الأحلام يجب ألا يخشاها أحد ، الا أن الانسان يستطيع أن يقرأ فى الكتب القديمة عن كثيرين ممن كانوا أكثر حجية من كاتو فى جميع أوقات حياته ، بأن العكس هو الصحيح ، فيما يتعلق برأيه هذا ، كما أنهم قد دللوا ؛ بالأدلة والتجارب ؛ أن الأحلام لها معان ودلالات فيما يتعلق بالسعادة وبالشقاء أيضا الذى يعانيه الناس فى هذه الحياة • ولا أساس لأى جدل فى ذلك الامر فالتجربة نفسها هى خير برهان على ذلك •

وقد روى واحد من أعظم المؤلفين (١٢) ، الذين يقرأ لهم الناس ما يلى : ذات يوم كان صديقان قد ذهبا معا لزيارة قبر ولى أو قديس ، وكانت نيتهما حسنة للغاية • واتفق أنهما عندما دخلا مدينة من المدن وجدا زحاما شديدا وضيقا فيما يتعلق بالايواء الى حد أنهما لم يجدا كوخا واحدا يستطيعان أن يقيما فيه معا • ولذلك اضطرا الى أن يفترقا تلك الليلة وأن يقيم كل منهما على حدة فى نزل ، وأن يتخذه مأوى حسب ما يقضى به حظه • فأقام أحدهما فى مربط الدابة فى آخر الحظيرة الى جوار الثيران المخصصة للحرث والفلاحة • أما الآخر فقد وجد اقامة حسنة نسبيا ، كما قضى بذلك حظه ومحض المصادفة ، التى تحكمنا جميعا فى كل أنحاء العالم •

وحدث قبل انبلاج النهار بوقت طويل أن رأى هذا الرجل بينما هو راقد

فى فراشه ، رأى فى منامه أنه تلقى زيارة رفيقه قال له : « يا ويلى فانى سأغتال حتما هذه الليلة وأنا راقد فى مربط الدواب ! ساعدنى اذن يا أخى العزيز ، والا مت بلا شك ؛ اسرع وتعال الى حيث أرقد » .

فنهض هذا الرجل النائم فزعا ولما استيقظ تماما تقلب ورقد ثانية ؛ ولم يلق أية أهمية على ما حدث ، بل كان الامر يبدو له وكأن ما رآه لم يكن سوى أضغاث أحلام . ولكنه حلم نفس الحلم مرتين بينما كان نائما ، وفى المرة الثالثة توهم أن رفيقه جاء له وقال : « صرت الآن قتيلا : وتأمل جروحى الدامية العميقة العريضة . فانهض فى ساعة مبكرة من الصباح واذهب الى باب القرية الشرقى حيث تجد عربة محملة بالروث ، وهناك تلقى جثتى مدفونة تحته سرا . فاقبض على زمام هذه العربة بشجـاعة وجرأة ، لأن حقيقة الأمر أن الذهب الذى كنت أحمله معى هو السبب فى قتلى » . ثم شرح له كل تفاصيل مقتله ، بينما كان وجهه الشاحب ينم عن التعاسة . وثق تماما بأنه اكتشف بعد ذلك حقيقة ما قيل له فى الحلم . اذ ذهب فى التالى أول ما انبلج النهار ، ليلتقى برفيقه . ولما أدرك مربط الدواب أخذ يصيح بصديقه . فأجابه صاحب النزل وقـال : « يا سيدى لقد غـادر رفيقك هذا المكان ، اذ خرج من القرية فى أول انبلاج النهار « وأخذ الرجل عندئذ يتشكك فى الأمر تشككا ، لأنه تذكر ما رآه فى المنام وتقدم ومضى فى طريقه من غير أن يتوانى دقيقة واحدة ، حتى أدرك باب القرية الغربى ، حيث وجد عربة سباخ تظهر كأنها على وشك نقل السباخ الى الحقول . كما وجد هذه العربة على نفس الشكل الذى كان القتيل قد وصفه فى الحلم . وأخذ يصيح صياحا عاليا بقلب مقدام جرىء ، ويطالب بالثأر وبايقاع عقاب القانون على هذه الجريمة البشعة فقال : « ان رفيقى قد اغتيل هذه الليلة نفسها وانه راقد على ظهره فى هذه العربة ! أناشد أولى الأمر المسئولين عن تنفيذ القانون والنظام العام فى هذه المدينة ! ويحنا ! النجدة ! النجدة ! فهنا يرقد رفيقى ضحية الاغتيال ! « وما الداعى أن أستمر فى حكايتى ؟ لقد أخذ الناس يسرعون فى الخروج من بيوتهم والتفوا حوله ثم قلبوا العربة قلبا ، ووجدوا فى السباخ جثة القتيل . ولم يمض على قتلها وقت طويل أيها الرب المبارك ، يا الله ، ما أعدلك وأوفاك ، انك دائما تكشف عن اثم القاتل ! فلابد أن ينكشف سر الاغتيال وهذا أمر نشهده كل يوم . ان جريمة الاغتيال مكروهة للغاية ، بل باعثة على عدم الرضى من الله ، وهو عادل وحكيم فى جزائه الى حد أنه لن يسمح أبدا أن يبقى خفيا ولو لمدة سنة أو سنتين أو ثلاث . وخلاصة قولى ان الاغتيال لا بد أن ينكشف !

وبعد قليل جاء بعض الشرطة من القرية وقبضوا على سائق العربة وعذبوه عذابا شديدا ، كما أخذوا صاحب النزل وعذبوه كذلك ، الى أن اعترفا باثمهما ، وبعدئذ علقا بالمشنقة . ونفذ فيهما حكم الاعدام . وهذا مـا يبين للنـاس أن

الأحلام لا بد أن تراعى ، بل وتخشى ! وانى قد قرأت فى نفس الكتاب فى الفصل التالى للفصل الذى ذكرته لك (وأنا لست كاذبا قسما بمصيرى فى النعيم أو الشقاء !)

كان هناك رجلان يريدان الرحيل وراء البحار ، لسبب ما حتى يذهبا الى بلد معين : ولكن الريح لم تكن مواتية ، فاضطرا الى الانتظار فى المدينة ، كانت على مقربة من الميناء . وذات يوم عندما قرب المساء بدأ اتجاه الريح يتغير . ويهب كما يريدان تماما . فسعدا وأويا الى فراشهما مسرورين ، وقررا أن يبحرا فى ساعة مبكرة من اليوم التالى .

وحدث لأحدهما أمر عجيب حقا : فبينما كان نائما صادفه حلم غريب قرب الفجر . وتصور انه يرى رجلا واقفا بجوار فراشه يأمره بألا يتحرك ويقول له ما يأتى : « ان ذهبت بـاكرا فلا ريب أنك غارق وهذا نهاية ما أقوله ! » ثم استيقظ وروى ما كان قد رآه فى الحلم لصديقه فتوسل اليه ألا يقدم على سفره ، كما رجاه أن يبقى فى ذلك اليوم بالمدينة . أما صديقه الذى كان راقدا بجوار فراشه فقد أخذ يضحك ويسخر منه سخرية . ثم قـال : « لا يوجد حلم فى الدنيا يستطيع أن يقلق نفسى قلقا أمتنع بمقتضاه عن القيام بما أنويه . فانى لا أقيم قدر قشة لأحلامك لأن الرؤى والأحلام ليست الا أوهاما وخداعا فان الانسان يحلم يوميا عن البوم والقردة وبأوهام أخرى كثيرة الى جانب ذلك لأنه يحلم بأشياء لم تكن ولن تكون . ومع ذلك فبما أننى أرى أنك قد قررت المكوث هنا وأنك نويت أن تضيع فرصة القيام فى موعد المد بسبب الكسل أستودعك الله وأسلم بأن الامر يؤسفنى جدا والله يعلم ذلك » .

وعلى هذا النحو استأذنه وانصرف وأبحر ومضى فى طريقه ، الا أنه قبل أن يقطع نصف المسافة . التى كان ينوى المضى فيها ، ولست أدرى ماذا جرى : ولا أى سوء طالع أصابه تهشم قاع السفينة بمحض المصادفة وترتب على ذلك أن غرقت السفينة بمن عليها على مرأى من كل السفن الموجودة بجوارها ، والتى أبحرت معهـا ؛ فى الموعد نفسه . لذلك أقول لك . يـا عزيزتى بيرتلوت انك تستطيعين أن تعرفى من هذه الأمثلة القديمة أنه يجب ألا يستهتر الانسـان بالأحلام الى مثل هذا الحد ، اذ أننى أقول لك انه لا شك أن أحلاما كثيرة تستحق أن تخشى خشية شديدة . واليك ما قرأته فى كتاب سيرة القديس كينلم (١٣) الذى كان ابنا لكينولفوس ملك دولة ميرشيا العظيم ، أقول قرأت فى هذا الكتاب ما صادف كيلنم من أحداث . فذات يوم ، قبيل قتله غدرا ، رأى حادث اغتياله فى المنام أنه اغتيل وشرحت مربيته هذا الحلم بحذافيره وفسرته له وأمرته بأن يحافظ على نفسه من الخيانة أشد محافظة . ولكنه لم يكن يبلغ من العمر وقتئذ الا السابعة فلم يبال بكلامها عن أى حلم ، وذلك لأن قلبه كان طاهرا بريئا . وقسما بالله كنت أود أن أضحى بقميصى فى سبيل أن تكونى قد قرأت هـذه

الرواية كما قرأتها أنا • يا سيدتى بيرتلوت أقول لك الحق ان الفيلسوف « ماكروبيوس » الذى كتب عن رؤيا اسكيبيو العظيم فى افريقية(١٤) يؤكد الحقيقة الموجودة فى الأحلام ، كما يقول انها بمثابة اندار وتحذير بما سيشهده حتما فى المستقبل • وزيادة على ذلك أرجو أن تمعنى النظر فى كتاب النبى بالعهد القديم(١٥) حتى تلاحظى أنه لم يعتبر الأحلام خداعا ووهما •

اقرئى أيضا عن سيدنا يوسف (١٦) لتعرفى أن الأحلام قد تكون أحيانا ــ لا أقول دائما ــ نذيرا بأشياء تقع فيما بعد • وتأملى فى تاريخ السيد فرعون ملك مصر ألم يشعر حاجب الملك وخبازه بنتيجة حلمه ؟ (١٧) ومن يبحث فى وثائق الممالك المختلفة يستطيع أن يقرأ العجائب الكثيرة عن الأحلام • فاليك مثلا « كريزوس » (١٨) الذى كان ملكا لدولة ليديا ، ألم ير فى المنام أنه جالس فوق شجرة ، الأمر الذى أنبأه بأنه سيموت شنقا ؟ واليك أيضا أندروماكى (١٩) زوجة هيكتور ، ففى ليلة اليوم المقدر لهلاك زوجها ، حلمت بأن حياة زوجها هيكتور لابد من فقدانها اذا قرر الاشتراك فى المعركة • فأنذرته ، ولكنه لم يبال ، بل ذهب الى المعركة ، وبعد قليل قتله أخيل • الا أن هذه القصة أطول كثيرا من أن تحتمل القص • وعلى أية حال فقد دنا النهار ، ولا أستطيع أن أتلكأ ولذلك أقول تلخيصا وختاما اننى سأتلقى من رؤياى شقاء وعناء ، كما أقول زيادة على ذلك اننى لا أقيم أى وزن للملينات ، فما هى الا سموم ، وأعلم ذلك تمام العلم وأرفضها رفضا باتا ، لأننى لا أحبها قط ! ولذلك أرجوك ، دعينى أترك هذا الموضوع بحذافيره ، ولنتكلم فى موضوع مرح يا سيدتى بيرتلوت وباركنا الله بالسعادة ! وهناك شىء منحنيه الله منحا سخيا ، لأننى اذا تأملت جمال وجهك ، ورأيت الاحمرار القرمزى الذى يحيط بعينيك ، فعندئذ يأخذ أى شعور بالخوف يتلاشى • كما أنه مما لا شك فيه أن القول المعروف بأن المرأة « فى البدء مبدأ حيرة الرجل •• » ويا سيدتى ان ترجمة هذه العبارة اللاتينية هى : « المرأة مبدأ سعادة الرجل وسروره كله » (٢٠) وانى اذا شعرت بجنبك اللطيف الناعم ليلا امتلأ قلبى بالبهجة والسلوى الى حد أننى لا أبالى بالرؤى ولا بالأحلام ، ولو أننى لا أستطع مضاجعتك بالقدر الذى أريده اذ أن محطنا واأسفاه ! ضيق للغاية •

وبعد انتهائه من الكلام هبط من محطه طائرا لأن النهار كان قد انبلج ، وحذت حذوة دجاجاته كلها وأخذ ينادى عليها كلها بصدحة ديكية ، لأنه عثر على بعض حبوب الغلة ملقاة فى الحظيرة •

وكان ملكا بمعنى الكلمة ، ولم يكن خائفا بعد • وضم بيرتلوت ضما بريشه المنفوش عشرين مرة ، وخطا خطواته نفس عدد المرات ، قبل أن تمضى الساعة التاسعة (٢١) صباحا • وكانت هيئته هيئة أسد مفترس فكان يمشى شامخا على طرف أظافر قدميه ذهابا وايابا ، وأبت نفسه أن يضع قدميه على الأرض تماما •

واذا وجد حبة قمح صدح صدحة الديوك وعندئذ تهرول نساؤه كلها نحوه • وأترك اذن شانتكلير هذا فى ملقطه كأنه أمير متربع على عرشه فى قصره العظيم ، وأستمر بحكايتى لأقص لكم ما حدث له من مغامرات •

ولما اكتمل الشهر الذى بدأت فيه الدنيا (٢٢) والذى يسمى بشهر مارس حين خلق الله الانسان ، ولم يكد يمضى على بداية مارس اثنان وثلاثون يوما حتى حدث ان كان شانتكلير فى أعظم مظهر من مظاهره العظيمة ، يتوسط زوجاته السبع الماشيات بجانبه ، فرفع عينيه الى الشمس المشرقة ، التى كانت قد قضت واحدا وعشرين درجة ونيفا فى برج الثور (٢٣) ، فعرف بفراسته الفطرية ، لا بسبب أى علم آخر أن أولى ساعات الصباح قد حلت ، فصدح صدحة سعيدة وقال : « أعتقد أن الشمس قد صعدت فى السماء احدى وأربعين درجة ونيفا • فيا أيتها السيدة بيرتلوت يا بهجة حياتى أنصتى الى تغريد هذه الطيور السعيدة ، وتأملى الزهور اليانعة كيف تنمو وتترعرع ! فان قلبى ممتلىء مرحا وسلوى » • ولكن فجأة حدث حادث مؤلم لأن المعروف أن نهاية السرور هى دائما الشقاء ، والله يعلم أن بهجة الدنيا سريعة الزوال ! واذا استطاع أحد من علماء البلاغة المؤلفين لدون ذلك فى حوليات من غير خشية أن ينقض قوله قبل أن يقرأ ما يكتبه أحد من علية القوم أو أعيانهم • أما الآن فلينصت كل انسان حكيم • فانى أتعهد بأن أؤكد أن قصتى هذه حقيقية ككتاب رواه « لانسلوت دىلاك » (٢٤) الذى تكرمه النساء تكريما عظيما • وحان الآن وقت التفاتى من جديد لمضمون قصتى وموضوعها •

كان هناك ثعلب أسمر لئيم غدار عاش فى الغابة ثلاث سنين وشاءت القدرة الالهية فى الأعالى أن يقتحم هذا الثعلب الشجيرات المحيطة بالضيعة ، وأن يدخل الحظيرة التى كان شانتكلير الوسيم يتردد عليها مع زوجاته • وبقى هذا الثعلب متربصا فى حوض من الخضر حتى انقضى أغلب النهار ، انتظارا للوقت ، الذى يستطيع فيه أن ينقض على شانتكلير مثلما يفعل المغتالون جميعا ، عندما يتربصون للاغتيال والقتل العمد • فيا أيها القاتل المغتال المتربص فى مخبئك ! أيها اليهوذا الجديد (٢٥) ! أيها الجانيلون (٢٦) ! أيها المرائى المنافق ! أيها السينون اليونانى (٢٧) يا من جلبت المصائب على طروادة ! يا شانتكلير ، بئس ذلك الصباح الذى هبطت فيه من محطك فوق ألواح السقف ! ومع ذلك فقد جاءك النذير فى الرؤيا بأن هذا اليوم سيكون خطرا عليك • ومع ذلك فان ما يقدره الله مسبقا لابد أن يحدث ، كما يشير بذلك بعض فقهاء الدين • (٢٨) واستشهدوا بأى عالم حاذق فان المجادلات الشديدة والخلافات تستمر فى الجامعات فى هذا الموضوع وكانت هذه الخلافات جارية بين مئات من آلاف البشر منذ أمد بعيد • ومع ذلك فأنا لا أستطيع أن أفرز الحب من الردة ، كما فعل ذلك أوغسطين الفقيه التقى ، أو بوثيوس ، أو الأسقف

برادواردين • وسواء أكانت معرفة الله المسبقة تجبرني جبر الضرورة وهـــذا ما أسميه الضرورة البسيطة على أن أفعل شيئا ما ، أم نعمت بحرية الاختيار في اتيانه مع علم الله أزلا باختياري قبل أن يتبلور ، أم كانت معرفة الله لا تجبر بأى شكل ما الا بما يسمى بالضرورة المشروطة (٢٩) •• فلا يهمني شيء من كل ذلك • فان قصتي تتناول ديكا ، كما يمكن أن تسمعوا ، بل ديكا استشار زوجته في التروض بالحظيرة ، مما أدى الى نتيجة مؤسفة ، بالرغم من الحلم الذي ذكرته لكم •

ان مشورة النساء كثيرا ما تؤدي الى مصيبة ، وان نصيحة المرأة هي أول ما أدى بنا الى الشقاء وجعلت آدم يطرد من الجنة ، حيث كان سعيدا وفي غاية الراحة • ومع ذلك فلأنني لا أعلم من يتأذى من القاء اللوم على نصيحة النساء ، أرجو أن تتغاضوا عما أقوله فاني لم أقل ذلك الا دعابة وهزلا • اقرأوا اذن كتبا لمؤلفين ، عالجوا مثل هذه الأمور ، حتى تعرفوا ماذا يقولونه في موضـــوع النساء • وهذه هي كلمات الديك وليست كلماتي ، فاني لا أعلم أبدا شيئا عن أي أذى صدر من امرأة •

وكانت بيرتلوت سعيدة مرحة ملقاة فوق الرمال مع كل أخواتها تتمشى • أما شانتكلير الكريم فكان يغرد تغريدا مرحا أشجى من تغريد عروس البحر • فان « فيزيولوجوس » (٣٠) يشرح لنا شرحا حقا كيف تغرد الطيور تغريدا بهيجا •

وتصادف أنه بينما يلقي نظرة على فراشة في حوض الخضر أدرك وجود الثعلب متربصا • ولم يرغب عندئذ أن يصدح صـــدحة الديوك ، بل صاح بصوت ضعيف « كوكوكو » ونهض منتفضا ، وفجأة ، مثل رجل فزع في أعماق قلبه • اذ أنه من الطبيعي أن يرغب الحيوان في أن يهرب من نقيضه وعدوه لو لمحه ، حتى لو لم يكن قد رآه بعينيه من قبل •

ولذلك فانه عندما لمحه ديكنا شانتكلير هذا ، بدأ يولي فرارا ، الا أن الثعلب نهض عندئذ وقال : « ياسيدي الكريم ، يا ويلك ، اني سأكون أوفى صديق لك ، أين ترغب أن تذهب ؟ أتخشاني أنا صديقك ؟ اني أكون أســـوأ من الشيطان ، اذا أوقعت بك أي أذى أو سوء • اني لم أجيء لأتجسس على أسرارك وانما السبب الحقيقي في مجيئي هنا لم يكن الا أن أستمع الى تغريدك العذب • والحق يقال انك تملك صوتا رخيما ، ينافس صوت أي ملاك في الجنة • زد على ذلك أنك تظهر في أداء الأنغام عواطف أكثر حساسية من تلك التي أظهرها بويثيوس (٣١) أو أي شـــخص يســـتطيع أن يغني • وان مولاي والدكم — رحمه الله — وكذلك والدتك قد تنازلا وتفضلا على فزاراني في بيتي ، الأمر الذي أثلج صدري للغاية • وكذلك يا سيدي أود أن تتفضل أنت بدورك ، لكي

أقدم لك ما يثلج صدرك • ومادام موضوعنا هو الغناء أود أن أقول ــ قسما بنعمة الرؤية من عينى الاثنتين ! ــ اننى لم أسمع أحدا غيرك يصدح فى الصباح بمثل صوتك الرخيم ، اذا استثنينا صوت والدكم ، الذى كان يغرد تغريدا يأتى من أعماق القلب • وحتى يجعل صوته أقوى وأرخم ، كان يضغط على نفسه بحيث يغمض عينيه لكى يرفع صوته الى أعلى درجة ممكنة ، وكان يقف على طرفى أصابعه ويمد عنقه الطويل الرفيع • وزيادة على ذلك كان على درجة من الحصافة والحكمة لم يضارعه أحد بكل المنطقة فى حصافته وغنائه أيضا • لقد قرأت فى قصة « السيد بورنيل الحمار » (٣٢) بعض الأبيات تروى حكاية ديك ، كان ابن قسيس قد ضربه فى رجله ، وهو لم يزل فتيا وساذجا ، فدبر هذا الديك الأمور ، بحيث لم يحظ الشاب فيما بعد بوظيفة قسيس بقريته • وعلى كل حال فلا مجال للمقارنة بحكمة والدكم وحصافته ونفاذ رأيه • ولذلك أناشدك يا سيدى بالمحبة القدسية أن تغنى ، حتى نرى ما اذا كنت تستطيع أن تدرك سمو قدرة والدك فى هذا المجال •

أما شانتكلير فأخذ ينقض جناحيه كما لو لم يلحظ ما يدبر له من غدر ، لأن عقله قد جذب تماما بفضل النفاق والمماحكة • ويحكم يا سادتى وولاتى ، فكم من مداهن فى بلاطكم ، وكم من مخادع ، يستطيع أن يحظى برضـاكم ، قسما بايمانى ، أكثر ممن يصارحكم بالحقيقة • اقرأوا كتاب حكمة سليمان (٣٣) حيث يقول احذروا يا أمراء من غدر المنافقين •

ووقف شانتكلير على أطراف أصابعه ومد عنقه وأغمض عينيه ، وأخذ يصدح صدحا طنانا ، ونهض السيد « راسل » فجأة وانقض عليه وقبض عليه من عنقه ، وحمله على ظهره ليذهب الى الغابة ولم يطارده أحد من أهل المزرعة •

أيها القضـاء والقدر ، يا من لا يسـتطيع أحـد أن يتجنبهما ! ويحك ياشانتكلير ساعة ما طرت من على محطك ! ياويل زوجته التى لم تقم أى وزن للأحلام ! وقد وقعت كل هذه المصائب يوم جمعة ! (٣٤) •

يا فينوس أنت الهة المتعة البهيجة ، ومادام شانتكلير هذا كان من خدمك الأوفياء ، وقد عمل أقصى ما يستطيع ليلبى طلباتك فى سبيل المتعة أكثر من الرغبة فى تعمير الدنيا ، يافينوس لماذا تتركينه يموت فى هذا اليوم •

يا « جوفروا » (٣٥) أيها المعلم الأعظم لما قتل ملكك الكريم ريكاردوس برمية سهم ، قد شكوت موته شكوى حزينة للغاية ، لماذا لا أملك من رأيك السـديد وحذقك القوى لأعتب على يـوم الجمعة ، مثلما فعلت أنت ؟ اذ أن ريكاردوس قد قتل يوم جمعة وهذا هو الحق (٣٦) آه لو كنت قادرا لأظهرت لكم مقدرتى فى الرثاء على فزع شانتكلير وألمه • ولا شك أنه لم يسمع أحد مثل هذا البكاء والندب عند النساء يوم فتحت مدينة طروادة وكان بيروس بسيفه

القويم ، قد أمسك بريام من لحيته وقتله قتلا ، على ما يخبرنا كتاب الانيادة (٣٧) • وكان كل هذا البكاء والندب يأتى من الدجاج فى الحظيرة حين رأت ما حدث لشانتكلير •

أما السيدة بيرتلوت فقد صرخت صراخا عظيما أعلى من صراخ زوجة « هازدرويال » (٣٨) عندما فقد زوجها حياته ، وأحرق الرومان مدينة قرطاجة • فقد امتلأت شقاء وهياما يائسا ، الى حد أن ألقت بنفسها فى النار وانتحرت حرقا بقلب شجاع •

أيتها الدجاجات التعيسات كان بكاءكن بمثل هذه الدرجة مثل بكاء زوجات أعضاء مجلس الشيوخ عندما أحرق نيرون مدينة روما وبكين على موت أزواجهن جميعا ، لأن نيرون كان قد تسبب فى قتلهم وهم أبرياء • والآن أعود الى قصتى من جديد •

كانت الأرملة التعيسة المسكينة وبنتاها أيضا قد سمعن الدجاجات تصيح وتندب • فخرجن من كوخهن ورأين الثعلب وهو يهرول تجاه الغابة حاملا الديك على ظهره فوقفن عند الباب وصحن : « النجدة ! أنقذونا ! ياويلنا ! ادركونا ! هاها ! الثعلب ، الثعلب ! « وأخذن يطاردن الثعلب قابضات على العصى ولحقهن كثير غيرهن • وها هم أولاء كلبنا نقولا وتالبوت وجيرلاند والفلاحة مالكين حاملة مغزلا فى يدها • كما هرول العجل والبقرة والخنازير أنفسها مطاردين ومفزوعين بسبب نباح الكلاب وصراخ الرجال والنساء • وأخذ الكل يفرون كأن قلوبهم ستنفجر من شدة المجهول • وصرخوا كما يفعل الشياطين فى جهنهم • وصاح البط وزيط كما لو كان الناس يريدون ذبحه • أما الأوز فطارت الى أعلى الأشجار من فزعها ، وانطلقت أسراب النحل من مناحلها • ما أشد الصراخ والضوضاء الناشئين عن الفزع ! يا الهى باركنى ! ولا شك أن « جاك سترو » (٣٩) نفسه ورفقته لم يثيروا مثل تلك الضوضاء ، عندما كانوا يحاولون قتل أحد من أهل الفلمنك ، وكل ذلك لم يكن شيئا يذكر الى جانب ما أثير من فوضى وصياح فى مطاردة الثعلب • وأحضر الناس معهم أبواقا من خشب البقس (٤٠) ومن النحاس ومن القرن ومن العظم ونفخوا فيها ، وزمروا ، وصرخوا وأوعولوا • وبدت الحال كأن السموات تسقط على الأرض • والآنأيها الخيرون أرجو أن تنصتوا كلكم الى •

انظروا كيف تدير ربة الحظ عجلتها على آمال عدوها بل وعلى كبريائه ! فهذا الديك الذى كان يلقى على ظهر الثعلب أخذ يخاطب الثعلب والفزع يملأ قلبه قائلا : « يا سيدى لو كنت مكانك لقلت ــ بمساعدة الهى العليم الحكيم ــ «عودوا الى منازلكم أيها الفلاحون المتغطرسون فلتصبكم لعنات الطاعون المهلك ! انى قد وصلت الى طرف الغابة وبالرغم من أى شى تفعلونه سيبقى الديك هنا

وسآكله قسما بايمانى وذلك بعد قليل ! • فأجابه الثعلب قائلا : « قسـ
بايمانى ذلك ما سأفعله تماما ! » وبينما كان يتكلم هبط الديك من أنيابه بحر
رشيقة ، وطار الى أعلى شجرة مجاورة • ولما أدرك الثعلب أن الديك قد فر صا
قائلا : « ويحى ياشانتكلير ويحى ! لقد ظلمتك وأسأت اليك ، لأننى أفزعتك
عندما أخذتك معى وأخرجتك من الحظيرة • ولكن صـــدقنى يا سيدى ، ان
لم أفعل ذلك بسوء نية فانزل من الشجرة وأقل لك ما كنت أقصده ، وسأقو
لك الحق بصدق تام (ساعدنى الله على ذلك !) •

فقال : « كلا ثم كلا ! فانى ألعن كلينا ولكن سألعن نفسى أولا بكل ماف
من دم وعظام ، اذا تركتك تخدعنى أكثر من مرة • لن تنجح مرة أخرى بنفاقا
فى أن تجعلنى اغنى وأغمض عينى • فان الذى يغمض عينيه بمحض ارادته
بينما المفروض أن يكون محملقا ، أصابه الله بالشقاء دائما فى حياته •

ثم قال الثعلب بدوره : « كلا ، بل أصاب الله بسوء الحظ كل من كا
قليل الحصافة فى السيطرة على لسانه الى حد أنه يثرثر فى الوقت الذى يحسـ
فيه الكتمان ! » •

هذه اذن حال الذين يحمقون ويستهترون ويهملون فى أمرهم ويثقو
بكلمة المنافقين ! أما أنتم يا من تعتبرون هذه القصة من باب الحماقة والعته وأنـ
مجرد حكاية ثعلب وديك ودجاجة اعتبروا يا أيهـا الخيرون • اذ أن القديس
بولس الرسول (٤١) يقول ان كل ما كتب من أجل تعليمنا تعليما حقا • فخذو
الثمار ، واتركوا القشور الخارجية • والآن ياالهى الرحيم ، اذا كانت مشيئتنا
كذلك (كما علمنا ذلك السيد المسيح) فاجعلنا جميعا رجالا طيبين ، وأوصلـ
الى غبطة جنة الخلود آمين •

(وهنا انتهت حكاية قسيس دير الراهبات)

الخـــاتمة

وبعد قليل تفوه مضيفنا قائلا : « يا ســـيدى يا قسيس دير الراهبا
بارك الله سروالك وكلا من خصيتيك ! لقد كانت حكايتك عن شانتكلير مر
حقا • وقسما بايمانى أنك لو كنت علمانيا لأصبحت ديكا بدورك ! ولو كنـ
عاشقا بقدر ما أنت قوى لاحتجت الى عدد من الدجاجات ، كما أظن • نعم بـ
أكثر من سبع عشرة منها فى سبعة • انظروا أيها الناس الى ضخامة عضلا
هذا القس الكريم ، ولاحظوا سمك عنقه وعرض صدره ! انه ليبدو كأنه با
من شـــدة قوة نظراته ، وهو ليس بحاجة الى أن يصـــبغ باللون الأحمر ، لكـ
يبدو وردى الوجنات ، ولا بالصبغة البرتقالية القرمزية (٤٢) والآن وختاما أقو
لك « أتمنى لك حظا سعيدا مكافأة على حكايتك المسلية » •

هوامش حكاية قسيس دير الراهبات

(١) حكاية قسيس دير الراهبات :

لا ذكر لهذا الراوى فى مقدمة « حكايات كانتربرى » التى تحدد عددها بتسع وعشرين (البيتان ٢٣ و ٢٤) ولكن البيتين ١٦٣ و١٦٤ من نفس المقدمة يذكران أن رئيسة الدير كانت تصطحبها راهبة وثلاثة من القسس • فاذا صح هذا التقويم أصبح عدد الحجاج واحدا وثلاثين • وأغلب الظن أن الراوى لقصتنا هنا هو أحد القسس الثلاثة • فالنص الانجليزى القديم الأصلى يذكر أنه « قسيس الراهبة » ، وهذه التسمية لا شك أنها تبدو غريبة في العربية بل فى الانجليزية أيضا (الا أنها قد أصبحت شائعة فمقبولة فى هذه اللغة لكثرة ذكرها) • لذلك رؤى أنه من الأوضح أن تترحم وظيفة الراوى الى العبارة التى وصفت فى أعلى حكايته أى أنه قسيس تابع لدير الراهبات الذى ينسب الى رئيسته حكاية أخرى ستأتى فيما بعد • وعلى أية حال فان « حكايات كانتربرى » لم تكتمل بعد ، اذ كان المفروض أن يحكى كل حاج قصتين فى طريق الذهاب وقصتين أثناء العودة !

الراوى والمستمع

يقوم الروى بأهم دور فى القصص ، وهو يؤلف قصته ، التى يسردها على الناس فى كثير من الأحيان • ويتصور المستمع له أن الراوى هو الشخصية الرئيسية فى السيرة أو الملحمة ، لأنه يمثل أحداث البطل • ويختلف موقف الأفراد والجماهير من الروى ، تبعا لعلاقة القصة بهم ، فمنهم من يتصورها تاريخا لشعب أو عصر ، وهم فى هذه الحالة يتابعون السرد متابعة واعية ، ويصححون أخطاء الراوى فى مسار الأحداث أو وصفها • واذا كانت الجماهير والأفراديستمعون الى روايات لا علاقة لها بتاريخهم ، فانهم لا يلتفون كثيرا الى القصص ، الا اذا كان فيه ما يثير الخيال ، أو يجتذب أسلوب السرد • ومن المألوف أن يواجه الراوى هذا الموقف من انصراف الآذان عنه ، وعدم الالتفات الى المضمون وفن السرد ، وهو يجتذبهم اليه بوقفة ، يعرض عليهم فيها ألحانه البارعة بآلته الوترية ، أو بغيرها من آلات النفخ ، ويستغل هذه الوقفة الموسيقية ليسقط ما كان الباعث على انصراف المستمعين عن روايته ، يبدأ حلقة جديدة مثيرة فى قصته •

ولا شك أن هذه الحكاية لها نظائر كثيرة وفى ثقافات مختلفة ، بل انه من المعروف أن قصص الحيوان الناطق كالانسان صيغة من أهم صيغ القصص الشعبى والحكمة الشعبية أيضا • ومن الطريف هنا أن هذه القصة قد نسبت الى قسيس خاص بدير من أديرة الراهبات ، اذ يفترض ، فيه شيء من الدقة فى الكلام والالتزام بالعبارات المهذبة ، التى تتناسب مع البيئة الدينية النسائية التى يتصل بها • ولذلك استطاع هذا القسيس أن يجمع بين مقتضيات الحكمة والموعظة ومقتضيات الترفيه • ويلاحظ أيضا أن الديك له رمزية خاصة فى القصص الدينى الانجليزى فى العصر الوسيط ، اذ يمثل اليقظة (لأنه هو الذى يتعهد بأن يعلن انبلاج النهار للناس) وخاصة اليقظة اللازمة عند المؤمن • كما أنه هو أيضا الذى صدح عندما أنكر بطرس الرسول

ثلاث مرات ولاءه للسيد المسيح وكما ذكر ذلك فى الانجيل • فهو اذن له رمزية أخرى أيضا ، هى رمزية الولاء المخلص للسيد المسيح • ومع التسليم بأن تشوسر استقى قصته من منهل شعبى دولى لقصة الحيوان ، التى يحكيها القسيس الا أنه يلتزم بثلاث صيغ من التجديد فى اعادته لرواية القصة : أولا أنه يضع القصة فى داخل موعظة ويدع عبرة الموعظة والقصة نفسها تتداخلان على طول الرواية بحيث تقدم للمستمع كلمات جادة متخللة كلمات القصة • وثانيا يجعل بطلى قصته الديك وزوجته المفضلة الدجاجة بيرتلوت ، لا يمثلان وجهتى نظر أو نظريتين فحسب ، بل يتصفان بصفات الزوجين المألوفة ، حيث تحاول الزوجة أن تملى رأيها على زوجها ، ويتظاهر الزوج بالتمشى مع رأى زوجته فى سبيل راحة البال والسكينة النفسية • وهناك لمســات اجتماعية أخرى فى تصويرهما ، فالزوجة فى حديثها الخاص مع زوجهـا لا تقيم لكلامه اعتبارا كبيرا بل تنتقد كل ما يقوله • وثالثا اظهار تشوسر من خلال حوار القصة وسرد أحداثها لعلمه الغزير بفنون المعرفة ، التى كانت منتشرة فى العصور الوسطى بأوربا ومثـال ذلـك المجادلة المتقعرة فى موضوع الأحلام وتفسيرها ، وذكر المراجع الفلسفية الجادة مثل كتب بويثيوس وماكرومبيوس وغيرهما فى ذلك الشأن . ومناقشة قضية الجبر وحرية الاختيار • وقد يكون أهم مظهر من مظاهر علم تشوسر فى هذه القصة التزامه الساخر بقواعد علوم البلاغة التى كانت تعتبر واجبة فى فن الانشاء والتى كانت موضوعدراسة تفصيلية فى جامعات العصور الوسطى • فنجده يلتزم بكثير من الصيغ البلاغية والأساليب البيانية ، التى كان ينصح بها مؤلف أهم كتاب فى البلاغة وفن الشعر فى عصر تشوسر وهو المسمى « النظم العصرى » (Nova Poetria) ومؤلفه الفرنسى جوفروادى فانسوف (Geoffroi de Vinsauf) كان قد كتبه شعرا وباللاتينية فى أوائل القرن الثالث عشر • ومن أهم ما كان ينصح به هذا الكتاب هو الوسائل المختلفة للتفريع والاطناب (amplificatio) وكلها ممثلة فى هذه الحكاية ، وهناك عنصر من السخرية الرقيقة فى أسلوب تطبيق هذه الصيغ على موضوع ، لا يرقى الى مستوى موضوعات الملاحم أو الشعر التعليمى ، الذين وضعت هذه القواعد
على موضوع ، لا يرقى الى مستوى موضوعات الملاحم أو الشعر التعليمى ، الذين وضعت هذه القواعد
من أجلها • فهناك الوصف مثلا (descriptio) الذى يلتزم فيه تشوسر عندما يصف الديك ، ويتبع نصيحة دى فانسوف فى وصف الفتاة الجميلة : « دعوا روعة الوصف التى تهبط من قمة رأســها الى أخمص جذرهـا نفسـه ، ودعوا الكل يبدو مصقولا حتى ظفر القدم » •

(A Summo capitis descendat splendor ad ipsam Radicem, totumque simul poliatur ad unguem)

وهناك صيغة المفاجأة المتألمة (exclamatio) كما هى الحال فى مخاطبة القضاء والقدر ، بعد اختطاف الديك • وهناك أيضا الاستطراد المتقعر (digressio) كما هى الحال فى مناقشة حرية الاختيار والجبر استنادا الى آراء فقهاء اللاهوت والفلاسفة وهناك التشخيص (prosopopeia) أو اعطاء صفات الانسان الى ما هو ليس بانسان كما هى الحال فى الأحاديث المختلفة بين الديك والدجاجة • وهناك التشبيه (collatio) فى وصف صوت الديك وصدحه ، أو ندب الدجاجات بعد اختطافه ، وهناك الاطناب (interpretatio) أو اعادة الكلام بعبارات أخرى ، كما هى الحال فى تأكيد معنى التفسير المادى لأسباب الأحلام فى حديث الدجاجة • ثم هناك صيغة اللف والنشر (circumlocutio) كما هى الحال فى توقيت أحداث القصة استنادا الى معلومات فلكية بالتفصيل وهناك صيغة الاقرار بالنفى (oppositio) خاصة فى وصف حالة الأرملة بانكار ما لا تتمتع به من خيرات • وأخيرا هناك صيغة الوقت الحسن أو الاكتفاء أو حسن السـكوت (occupatio) أو القول بأن الكلام فى موضــوع ما قد كفى ، فلا داعى للاستمرار فيه ، وهذه هى صيغة يلجأ اليها تشوسر فى كثير من مواضع القصة •

ومع أنه لا شك أن مصادر هذه الحكاية تمتد فى الماضى البعيد الى القصص الشعبى وحكايات ايزوب وكليلة ودمنة وغيرهما من المصادر الأدبية والشعبية الا أن هناك معالجتين لهذه القصة باللغة

الفرنسية القديمة يحتمل أن يكون تشوسر قد قرأهما قبل كتابته لحكاية الديك والثعلب . وهما قصيدة قصيرة لشاعرة فرنسية عاشت فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، واسمها مارى دى فرانس (Marie de France) ولا تعرف بأى اسم آخر وقصيدة أخرى طويلة جدا اتخذت أشكالا واضافات مختلفة على مر الزمن ، وهى « رواية الثعلب (Roman de Renart) وهناك احتمال قوى أن تشوسر قد اقتبس عنصرين فى قصته من هذه الملحمة الحيوانية الأخيرة مجهولة المؤلف ، هما أولا أن الديك كان متزوجا دجاجة قوية الشخصية وأنه حلم حلما فيه نذير بما سيحدث له . أما موضوع الأحلام المتنبئة فكانت موضوعا لمناقشات طويلة ونظريات مختلفة كما يتضح من مناقشتنا لموضوع الأحلام فى مكانه .

(٢) الاسم المذكور فى النص هو « بيرز » (Piers) وهو الشكل الذى اتخذه الاسم الفرنسى Pierre فى انجلترا بدلا من (Peter) المشتق أصلا من اللاتينية (Petrus) وفضلنا أن نترجم الاسم بالكلمة المألوفة فى اللغة العربية « بطرس » .

(٣) المصدر هنا ليس مجموعة من العلماء وانما هو آية فى سفر يشوع بن سيراخ ٣٢ : ٦ : لا تطلق كلامك عند السماع ولا تأت بالحكمة فى غير وقتها .

(٤) « مال » تصغير لاسم « مارى » (Mary)

(٥) هذا اسم مشتق من الفرنسية ومعناه « يصدح صدحا واضحا » . وهذا الاسم يطلق عادة على الديك فى أغلب الروايات الغربية للقصة .

(٦) يبدو أن هذا الاسم كان شائعا بالنسبة للقصص ، التى بها دجاجة فصيحة . وقد دخلت اللغة الانجليزية بشكل « بارتلت » (Partlet) كاسم يطلق على الدجاجة .

(٧) اللحية رمز للرجولة بطبيعة الحال ، وخاصة فى هذه القصة الرمزية ، وانما هناك مبرر لوجودها اذ أن نوع الدواجن الذى ينتمى اليه هذا الديك تمشيا مع وصفه الدقيق هو المسمى هامبورج الذهبى المبرقش (Golden Spangled Hamburg) الذى يتميز بشعيرات تحت منقاره توحى بوجود لحية .

(٨) قد أشرنا فى المقدمة العامة وفى شرح حكايات أخرى من هذه المجموعة القصصية الى نظرية الأخلاط التى كانت أساسا للطب عند العرب وعند الأوربيين فى العصور الوسطى . ولكنه يجدر بنا أن نشير الى أن الأبخرة هنا ظاهرة دقيقة تتصاعد من الأخلاط وتكون السبب المباشر لأعراض المرض الناتج من عدم توازن الأخلاط كالحمى والصداع والأحلام المفزعة مثلا .

(٩) كانت كل هذه الظواهر مرتبطة ، عند علماء الطب القديم ، بازدياد الصفراء عن القدر المفروض لها . ومن هذه الظواهر سرعة الغضب والشبق والحلم بأشياء لونها يتراوح بين الصفرة والحمرة اللتين كانتا اللونين المميزين للصفراء نفسها . ويترتب على ذلك ذكر اللهب والسهام والأشبال (أو الكلاب على حد قول بعض المفسرين) .

(١٠) هو ديونيسيوس كاتو (Dionysius Cato) المؤلف المزعوم لديوان من الحكم المنظومة باللاتينية سميت « الأبيات المزدوجة فى الأخلاق مهداة (Disticha de Moribus ad Filium) والغالب الظن أن هذا الديوان مجهول المؤلف قد صنف فى القرن الثالث أو الرابع الميلادى وكان يستخدم فى تعليم اللاتينية فى أغلب المدارس الابتدائية فى أوربا بالعصر الوسيط .

(١١) ان اعطاء الديدان لطائر أمر طبيعى اذا راعينا طبيعة الطيور عامة ، ولكن اعطاء الديدان

للمريض بالحمى كان أمرا شائعا فى كتب الطب البشرى بالعصور الوسطى ، ونجد أن أصل هذا التوجيه يرجع الى كتاب ديوسـخوريدس (Dioscorides) « فى المواد الشـافية » (De Medica Materia) حيث يوجد فصل خاص بديدان الأرض كدواء لمرضى الحمى ٠

(١٢) هنا لبس فنفس الأمثلة موجودة فى كتاب شيشرون (Cicero) « فى العرافة » (De Divinatione) وفى كتاب فاليريوس ماكسيموس (Valerius Maximus) المسمى « الأجزاء التسعة فى المآثر والأقوال الجديرة بأن تذكر » Factorum ac dictorum memorabilium libri ix) وكان فاليريوس ماكسيموس مؤرخا رومانيا عاش فى القرن الأول الميلادى ، وكان لكتابه هذا شهرة كبرى فى العصور الوسطى ٠

(١٣) كان « كينولفوس » (Kenulphus) التحريف اللاتينى لاسم Coenwulf أعظم ملوك مملكة مرشيا (Mercia) الممتدة من شمال نهر التيمز الى جنوب نهر الهامبر (Humber) وظل ملكا من سنة ٧٩٦ الى سنة ٨٢١ م ، وخلفه أخوه بعده ولكن أسطورة أخذت تشيع فى القرن الحادى عشرمؤداها ان ابنه هو الذى خلفه وهو فى السابعة من عمره ، وأن هذا الولد كان اسمه Kenelm الا أن أخته كونثريث (Cwenthryth) وهى رئيس دير للراهبات أمرت بقتله سرا فى غابة ٠ ويذكر فى الأسطورة أن الطفل قد حلم قبل اغتياله بأنه تسلق شجرة ، وبأن الشجرة قد قطعت تحته ، وأن يمامة طارت الى روما بعد مقتله ، ووضعت بردية على مذبح كنيسة بطرس الرسول فيها شرح لكيفية قتله ومكان دفنه ٠ وبقيت هذه الأساطير المختلفة عن مقتل كينلم تتزايد مع الزمن حتى أصبح قديسا فى تصور الناس بالعصور الوسطى ودشنت من أجله كنائس كثيرة ٠

(١٤) كان شيشرون قد كتب مقالا رمزيا طويلا اسمه «حلم سكيبيو» (Somnium Scipionis) وفيها يحلم سكيبيو الأصغر (Scipio Africanus Major) القائد الرومانى الذى هزم أهل قرطاجة بعد حصار طويل مرير بأن جده سكيبيو الأكبر (Scipio Africana Major) مثل أمامه فى رؤيا وتنبأ له بنصره فى قرطاجة ٠ وتناول هـذا المقال الفيلسـوف الرومانى المتأخر مكروبيوس (Ambrosius Theodosius Macrobius) الذى عاش فى المدة بين سنة ٣٩٥ وسنة ٤٢٣ م وكتب له حاشية طويلة وتعقيبا ٠ وقسم ماكروبيوس موضوع الأحلام الى قسمين : أحلام متنبئة وأحلام غير دالة ٠ أما الأولى فهى ثلاثة : (١) الحلم الدال ٠ وهو ذلك الذى يومىء الى المستقبل ايماء رمزيا لا تفهم دلالته الا بالتفسير ٠ (٢) الرؤيا (Visio) وهو الحلم الذى يرى فيه المستقبل بوضوح كما سيكون (وهذا هو الحلم الذى حلمه) شانتكلير ٠ (٣) والهاتف الالهى Oraculum وهو الحلم الذى تظهر فيه شخصية محترمة ، وتأمر الحالم بما يجب أن يفعله أو ألا يفعله ٠

أما الأحلام غير الدالة فهى من نوعين : (١) الهذج (Insomnium) وهى الرؤيا الغامضة غير الصادقة و (٢) الأطياف (Phantasma) وهى ما يراه النائم من أشكال مفزعة تبدو كأنها تهاجمه عندما يكون على وشك الاستغراق فى النوم ٠ والى جانب هذه التفرقة من حيث مضمون الحلم ، الذى يرجع الى ماكروبيوس كانت هناك تفرقة أخرى ترجع الى كتب الطب القديم منذ عهد جالينوس ، وذكرها أيضا العالم العربى ابن سينا ٠ وحسب هذه النظرية الطبية التى تقسـم الأحلام حسب مصدرها هناك ثلاثة أنواع للحلم : (١) الحلم الطبيعى (Somnium Naturale) الناتج عن اخلال فى توازن الأخلاط والأمزجة فى الجسم ٠ وفائدة هذا النوع من الأحلام أنه يمكن الاستناد اليه كأحد عوارض الغلبة المريضة للصفراء أو السوداء أو الدم أو البلغم ٠ وهذا هو نوع الحلم الذى كانت بيرتلوت تظن أن زوجها يشكو منه ٠ (٢) الحلم النفسى (Somnium Animale)

وهو الذى يرجع الى الاضطراب النفسى والتى تستعرض فيها النفس (Anima) اهتمامات ساعات اليقظة • وهذا النوع من الأحلام ليس ممثلا فى حكايتنا وأخيرا (٣) الحلم الملهم من السموات (Somnium Coeleste) وهو الذى يصدر مباشرة من هاتف أو وحى الهى أو من ملاك أو ولى ويكون توقيت هذا النوع من الأحلام قرب الفجر عادة عندما تكون نفس الحالم هادئة ، ومتقبلة للالهام ، وغير قلقة نتيجة لحركة الأمزجة فى الليل • والخلاف بين الديك وزوجته يرجع الى أنه كان يظن أن حلمه من هذا النوع ، بينما هى تعتبره مجرد حلم طبيعى • وقد رأينا أن نشير بهذه المناسبة الى نظرية الأحلام عند ابن سينا وقد شاعت هذه النظرية فى تاريخ الحضارة العربية وأضفنا مذكرة فى هذا الموضوع للأستاذ سعيد زايد فى آخر هذه الهوامش ، وأشرنا اليها بعلامة النجمة الواحدة ★

(١٥) انظر سفر دنيال الاصحاح السابع وما بعده •

(١٦) سفر التكوين الاصحاح السابع والثلاثين •

(١٧) اشارة الى أن سيدنا يوسف عرف كيف يفسر أحلامهما بينما كان الثلاثة مطروحين فى سجن فرعون فى سفر التكوين الاصحاح الأربعين •

(١٨) حكاية حلم كريزوس (Croesus) مصدرها هنا «رواية الوردة» (Roman de la Rose) التى قام بترجمتها تشوسر من الفرنسية القديمة على أغلب الظن • وخلاصة الحكاية أن الملك كريزوس حلم أنه كان جالسا بأعلى شجرة فجاءه رب الالهة جوبيتر (Jupiter) وغسله فى حين أن فيبوس اله الشمس كان ينشفه بمنشفة • ثم استيقظ وحكى حلمه لبنته « فانى (Phanye) ففسرته على أنه نذير بأنه سيشنق ثم تترك جثته معلقة على الشجرة فتفسده مياه الأمطار وتجففه حرارة الشمس • ثم حدث ذلك بالفعل • أما أهم ما فى أسطورة كريزوس فهو أنه كان من أغنى البشر ولكن الغنى لم يعطه السعادة • وهذا الجانب من الأسطورة لم يتعرض له تشوسر •

(١٩) كانت أندروماكى (Andromache) زوجة هيكتور بطل طروادة ولكن لم يأت ذكر لحلمها فى « الياذة » هوميروس وانما جاءت من « كتـــاب تاريخ تدمير طروادة (De Excidio Trojae Historia) المنسوبة لداريس الفريجى (Dares Phrygicus) وهذه ترجمة لاتينية مزعومة لأصل يونانى لم يصل الينا • واصطلح الشراح على تاريخه فى القرن الخامس الميلادى تقريبا وكان هذا المصدر شائعا جدا فى العصور الوسطى ، وطغى على ملحمة هوميروس كتاريخ لحرب طروادة • وكان هناك مصدر آخر مماثل نسب الى ديكتيس الكريتلى (Dictys Cretensis) وهو أيضا باللاتينية ، وقد يرجع الى القرن الرابع الميلادى • ولا شك أن هذين المصدرين هما أكثر المراجع شيوعا فى العصور الوسطى •

(٢٠) هنا يبدى تشوسر سخريته بطريقتين ، أولا بأنه جعل كلام الديك فيه ايحاء من فاتحة انجيل يوحنا (« فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله ») وهكذا ورد فى النص بالكتاب المقدس وثانيا بأنه يدع الديك يستغل جهل الدجاجة باللاتينية حتى يترجم ما قاله ذما فى النساء بعبارة كلها مجاملة وتودد •

(٢١) ليست هذه ترجمة حرفية فالأصل ينص على « أولى مواقيت الصلاة فى الضحى » وقد تتراوح هذه بين الساعة السادسة والتاسعة صباحا حسب أحوال الجو والمكان الجغرافى •

(٢٢) كان هذا اعتقادا شائعا ، وان لم يكن له سند فى الكتاب المقدس • وشهر مارس هو الذى يتم فيه الاعتدال الربيعى وتكون الشمس عندئذ فى أول طريقها من برج الحمل الى بقية البروج فى السنة •

(٢٣) التاريخ المقصود هنا يكون ٣ مايو ومن الجدير بالذكر أن تشوسر يذكر هذا التاريخ في حكاية الفارس وفي ملحمته الطويلة ترويلوس وكريسيدى **(Troilus and Criseyde)** ويبدو أن هذا التاريخ بالذات كان يعتبره علماء الفلك القديم من الأيام المشئومة **(dies mali)** التي يحسن ألا يقدم فيها المرء على مشروع ما ٠

(٢٤) هولانسلوت **(Lancelot)** الذي كان من أحب فرسان الملك آرثور اليه ، ولكنه هام بالملكة جوينفير **(Guinevere)** وصار خليلا لها ، ثم بذل قصارى جهده في الدفاع عن سمعتها وشرفها ، حتى بعد أن عرف الملك حقيقة الأمر ٠ وقد أصبح بسبب ذلك بطلا من أبطال الدفاع عن شرف النساء في القصص الخيالية القديمة ٠

(٢٥) اشارة الى يهوذا الاسخريوطي ، الذي خان معلمه ، وسلمه للجنود الرومان ٠

(٢٦) كان الكونت جين **(Guesnes)** الذي جاء ذكره في «ملحمة رولاند» **(Chanson de Roland)** بأنه خان قائده شارلماني وسلم مؤخرة الحرس لجيوش العرب ٠

(٢٧) هو الجندي اليوناني الذي أوهم الطرواديين بأنه خائن لليونان والتجأ اليهم وأقنعهم أن يستقبلوا الحصان الخشبي هدية لهم من اليونان ٠ وكان هذا الحصان الضخم بداخله جنود يونانيون خرجوا من جوفه ليلا وفتحوا المدينة المحصنة من داخلها ٠

(٢٨) ان قضايا علم الله المسبق وتقديره المسبق وحرية الارادة البشرية والعناية الالهية والحرية والضرورة كانت كلها من الموضوعات الفلسفية الهامة التي تشغل فقهاء العصورالوسطى في أوربا ٠ وكان الأسقف توماس برادواردين **(Bradwardine)** الذي عاش من ١٢٩ الى ١٣٤٩ م صاحب كتاب مشهور وقتئذ اسمه « في قضية الله ضد بيلاجيوس » **(De Causa Dei contra Pelagium)** وجلب هذا الكتاب على صاحب لقب « المعلم العميق » **(Doctor Profundus)** وفيه أكد على أن ارادة الله هي المسيرة للأمور دون أية معاونة من ارادة البشر ، فأنكر فكرة حرية الاختيار التي كان الراهب بيالاجيوس **(Pelagius)** قد نادى بها في القرن الخامس الميلادي ٠ أما القديس أوغسطينوس **Augustinus** فلا يشير اليه تشوسر مباشرة ، وانما من خلال شرح وتعليق بويثيوس على آرائه في كتابه المشهور « في سلوى الفلسفة » **(De Consolatione Philosophiae)** الذي تكلمنا عنه في المقدمة وفي أماكن أخرى من شرح « حكايات كانتربرى » يحدد دائرة محدودة لما يمكن أن نسميها حرية الاختيار ٠ ولا شك أن اهتمامات فلاسفة العصور الوسطى في أوربا كانت تحمل طابع فكر المعتزلة ٠ وهناك تشابه واضح بين هذه النظريات وما جاء بها المعتزلة عند العرب ٠ (أنظر في هذا الموضوع المذكرة التي كتبها الأستاذ سعيد زايد في تعريف آراء المعتزلة في آخر هذه الهوامش وأشرنا اليها بعلامة النجمتين ★★) ٠

(٢٩) هذه العبارة مشتقة من كتاب بويثيوس « في سلوى الفلسفة » حيث يقوم حوار بين الفلسفة مجسدة والمؤلف فتسلم الفلسفة بأن الضرورة موجودة مادام الله يقدر الأمر مسبقا ولكنها تفرق بين الضرورة البسيطة (وتمثل لذلك بضرورة الفناء والموت لكل البشر) والضرورة المشروطة حيث تقدير الله المسبق يعني علمه بما سيقع من غير أن يجبر العبد على ايقاعه ضرورة ٠

(٣٠) اشارة الى كتاب الوصف الرمزي للحيوان **(Bestiary)** الذي كان جنسا أدبيا شائعا في العصور الوسطى واسمه الكامل **(Physiologus de Natura xii Animalium)** أي « بحث طبيعي في صفات ١٢ من الأحياء » وهو منسوب الى ثيوبالد **(Theobald)** كبير أساقفة كانتربرى المتوفى سنة ١١٦١ م٠ وفيه يحث عن صفات عروس البحر ، وما ترمز اليه بالنسبة للمسيحي المؤمن ٠

(٣١) بحث بويثيوس « فى الموسيقى » (De Musica) كان من الكتب المقررة فى الجامعات وقتئذ . وكان بويثيوس من أنصار نظرية فيثاغورس (ق٦ق٠م » الذى أخضع كل قواعد النغم للرياضة البحتة ، على حساب فكرة الالهام أو العاطفة الشجية .

(٣٢) اشارة الى أهجية طويلة اسمها « مرآة الحمقى » (Speculum Stultorum كتبها باللاتينية راهب انجليزى اسمه نايجل ويركر (Nigel Wireker) فى القرن الثانى عشر الميلادى . والقصيدة تصف مغامرات حمار ، يجمع بين السذاجة ، والذكاء . وفيها حكاية شاب يدعى « جوندلف » (Gundulf) كان يدرس لكى يرسم قسيسا . وفى اليوم المحدد لطقوس الرسم لم يصدح ديكه ليوقظه ففاته موعد الرسم . وكان ذلك انتقاما من جانب الديك ، الذى كان الشاب قد كسر ساقه حينما كان الديك فرخا صغيرا .

(٣٣) سفر الأمثال ٢٩ : ٥ « الرجل الذى يطرى صاحبه يبسط شبكة لرجليه » .

(٣٤) كان الرومان يسمون يوم الجمعة بيوم الالهة فينوس (Veneris dies) احتفظ بتطوير لهذه التسمية فى اللغة الفرنسية (Vendredi) .

(٣٥) هو جوفروا دى فانسوف Geoffroi de Vinsauf) صاحب كتاب علوم البلاغة والنظم المسمى » النظم العصرى » (Nova Poetria) الذى سبقت لنا الاشارة اليه .

(٣٦) كان الملك ريكاردوس « قلب الأسد » قد أصيب بسهم يوم الجمعة ٢٦ مارس سنة ١١٩٩ ، ولكنه لم يمت الى يوم ٦ ابريل ، فيرثيه جوفروا دى فانسوف بهجاء مرير ليوم الجمعة .

(٣٧) بيروس (Pyrrhus) ابن أخيل ، الذى قتل بريام (Priam) ملك طروادة عند معبد الالهة زيوس (Zeus) . ويحكى فرجيل هذه الحادثة فى الكتاب الثانى من « الانيادة » (البيت ٤٦٩ وما بعده) . انظر الترجمة العربية للدكاترة عبد المعطى شعراوى ومحمد حمدى ابراهيم وأحمد فؤاد السمان ، التى صدرت بالقاهرة سنة ١٩٧٧ .

(٣٨) كان هازدروبال (Hasdrubal) زعيم أهل قرطاجة ، لما هزمهم القائد الرومانى اسكيبيو الأصغر (Scipio Africanus Minor) سنة ١٤٦ ق٠م٠

(٣٩) كان جاك سترو (Jack Straw) أحد رفاق وات تايلر (Wat Tyler) زعيم ثورة الفلاحين فى انجلترا سنة ١٣٨١ .

(٤٠) خشب شجرة البقس ، أو الشمشاء ، يمتاز بثباته وبثقله فهو يغرق فى الماء مثلا ، وكان يستعمل فى صنع أدوات دقيقة .

(٤١) رسالة بولس الرسول الى أهل رومية ١٥ : ٤ . « لأن كل ما سبق فكتب لأجل تعليمنا حتى بالصبر والتعزية بما فى الكتب يكون لنا رجاء » .

(٤٢) هذه صبغة تستخرج من حشرة طفيلية اسمها « القرمزية » وكثيرا ما توجد معلقة بأشجار الفاكهة والموالح خاصة ولذا نسبت الى البرتغال .

★ الأحلام عند ابن سينا

القوة المتخيلة أو القوة المفكرة ــ عند ابن سينا ــ هى القوة الباطنة التى نستعيدبها احساساتنا الماضية • وبعبارة أخرى ، هى القوة التى نستعيد بها صور المحسوسات التى تدركها الحواس الظاهرة ، والمعانى الجزئية التى يدركها الوهم • وهى أيضا القوة التى نفرق بها بين صور المحسوسات بعضها عن بعض ، وبين المعانى بعضها عن بعض ، أو بين صور المحسوسات والمعانى ، أو نؤلف بينها جميعا فى عمليات التفكير والابتكار •

وتعمل القوة المتخيلة فى النوم كما فى اليقظة ، بل قد يكون عملها أثناء النوم أوضح وأقوى ، اذ تتحرر من القيود التى تلحق بها من الحواس الظاهرة والعقل فتعوقها عن أفعالها الخاصة • فالنفس اذا اشتغلت بقوة أو بعدة قوى ، شغلت عن استعمال القوة الأخرى • أما اذا كانت النفس وادعة ساكنة ، غير مشغولة باستعمال قوة ما ، فان أقوى القوى تنشط فى القيام بأفعالها الخاصة • وهذا السكون ، اما أن يكون لآفة أو لضعف يعوق النفس عن استعمال قواها المختلفة ، واما أن يكون بسبب سكون القوى أثناء النوم ، فتنشأ الأحلام •

هذا هو التفسير العام البيولوجى والسيكلوجى لأسباب حدوث الأحلام عند ابن سينا • فاستدعاء الصور والمعانى قد يحدث عن قصد وتوجيه من العقل ويكون ذلك تخيلا وابتكارا • وقد يحدث ذلك من تلقاء نفسه ، ومن غير قصد ، فيكون خيالات اليقظة وأحلام النوم •

وهناك مؤثرات أخرى هامة ، لها تأثير كبير فى الأحلام • من ذلك الاحساسات التى تحدث أثناء النوم عن مؤثرات خارجية • فالحواس الظاهرة ــ عند الشيخ الرئيس ــ لا تتعطل نهائيا أثناء النوم ، ولكنها تحس احساسا ضعيفا ببعض المؤثرات الخارجية ، فيكون هذا سببا للأحلام . وقد دلت التجارب الحديثة على ذلك • فالنائم الذى يشعل بجانبه ضوء ، يحلم أنه يشاهد احتراق شىء ما • وهناك مصدر آخر هام له تأثير كبير فى الأحلام ، وهو ما يتعلق بالاحساسات العضوية الداخلية التى تجد ــ فى حالة النوم وسكون القوى النفسية ــ مجالا للظهور والنشاط • ولهذا النوع من الأحلام أهمية طبية ، أدركها ابن سينا قبل العلماء المحدثين الذين قالوا بذلك ، بعدة قرون ، وذكرها فى كتابه « القانون » فى الطب •

وهناك نوع من الأحلام ، ينشأ عن استمرار بعض الأفعال والأفكار التى تشغل الانسان أثناء اليقظة ، حتى اذا نام استمرت المتخيلة مشغولة بها • ونوع آخر ، وهو أهمها وأنفعها لا ينشأ عن احساسات خارجية أو عضوية ولا يكون عن بقايا اليقظة • وانما ينشأ عن اتصال النفس بالملكوت (أو بأنفس

الملائكة أو بالعقل الفعال) ويحدث ذلك أثناء النوم وفى بعض حالات اليقظة ، فتتلقى النفس من هناك الوحى والالهام . فاذا حدث ذلك أثناء النوم فهو رؤيا ، واذا حدث أثناء اليقظة فهو وحى والهام .

ويذهب ابن سينا الى أن الأحلام الناشئة عن الاحساسات البدنية كاذبة . ويسميها أضغاث أحلام ، أما يراه الانسان عن اتصال بالعالم الآعلى ، فهو الرؤيا الصادقة .

سعيد زايد

★ ★ المعتزلة

كان الاسم المحبب لدى فرقة المعتزلة ، والذى كانوا يطلقونه على أنفسهم ، هو الموحدة أو العدلية ، أو أنهم أهل التوحيد والعدل . فهم قد نزهوا البارى – جل شأنه – أعظم تنزيه ، وقالوا بحرية الارادة . واصطنعوا فى سبيل ذلك منهج التأويل .

فبالنسبة للتوحيد ، تمسكوا بآيات القرآن الكريم التى تدل على الوحدة والتنزيه ، وشرحوها ، وحللوها ، وأوضحوها . أما الآيات التى يدل ظاهرها على التجسيم ، أو على الجهة ، فقد أولوها . وفعلوا نفس الشىء فى أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم .

أما بالنسبة للعدل ، فقد قرروا أن الله يسير بالخلق الى غاية ، وأنه يريد الخير لخلقه ، ولا يريد لهم الشر ، وأنه لم يخلق أفعال العباد ، وأن ارادة الانسان حرة ، وهو خالق لأفعاله . وأمام هذا ، استمسكوا بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تؤيد مذهبهم ، وأولوا غيرها من الآيات والأحاديث التى يدل ظاهرها على خلاف ذلك . فاستمسكوا – مثلا – بقوله تعالى : « وقل الحق من ربكم ، فن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » ، [الكهف ، ٤٦] ، و « كل نفس بما كسبت رهينة » . [المدثر ، ٤١] و « انا هديناه السبيل اما شاكرا ، واما كفورا » . [الانسان ، ٣] ، و « قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها » . [يونس ، ١٠٨] . أما الآيات القرآنية التى تقول بالجبر فقد أولوها حسب مذهبهم فى حرية الانسان ، وقولهم بالاختيار . وكذلك فعلوا فى الأحاديث النبوية الشريفة .

والخلاصة أن المعتزلة سلموا – فى مجال النقل – بما يوافق البرهان العقل ، وأولوا ما يخالفه . فالعقل – عندهم – هو الحكم بين الآيات المتشابهات . وهو الحكم على الحديث ليقرر عدم صحته ان لم يوافق العقل ويحتمل التأويل .

سعيد زايد

حكاية الراهبة الثانية

مقدمة حكاية الراهبة الثانية (١)

ان خادمة الرذائل كلها ومرضعتها التى تسمى بالانجليزية «Idleness» الكسل (٢) هى حارسة بوابة المتع كلها (٣) ، وينبغى أن نتجنبها وأن نتغلب عليها بالالتجاء الى نقيضها (ألا وهو العمل المباح) الى أقصى حدود استطاعتنا حتى لا يستولى علينا الشيطان عن طريق كسلنا ٠

وان الذى يتربص بنا دائما وينصب لنا آلاف الشراك ، اذا رأى انسانا لا يعمل عملا مفيدا ، بل يبقى كسولا ، اســـتطاع أن يوقعه فى فخه ٠ وان الانسان ، اذا لم يشد من طرف ردائه فلن يدرك أن الشيطان يمســك به فى قبضته ٠ فينبغى اذن أن نعمل جاهدين ، وأن نقاوم الكسل ٠ وبالرغم من أن الناس لا يخشون عادة أن يكون الموت مصيرهم ، اذ أنهم بلا شك يدركون أن الكسل ان هو الاخمول فاسد لا يأتى منه خير ، ولا جدوى ٠ ان الكســـل لا يقبض على فريســـته الا ليجعله ينـــام ويأكل ويشرب ، ويلتهم نتيجة عمل غيره ٠

ولكى نبعد عن أنفسنا مثل هذا الكسل ، الذى يتسبب فى ضياع كبير فقد كرست همى كله لأحكى لكم الســـيرة المجيدة للفتاة العـــذراء القديســـة « سيسيليا » ، التى أصبحت شهيدة لايمانها كما جاء فى تاريخها المنقول الينا عبر السنين ، وهى القديسة التى كللت بالورد والزنبق ٠

ابتهال لمريم العذراء (٤)

أما أنت فزهرة كل العذراى ، التى ترجم لها القديس برناردوس (٥) خير ترجمة فأتوجه اليك أولا فى مستهل كلامى ٠ أملى ، يا سلوى البؤساء أن أروى حكاية وفاة هذه الفتاة البكر ، التى كانت تابعة لك وكسبت بحق حياة الأبدية ، والانتصار على الشيطان ، على نحو ما يستطيع الانسان أن يقرأ ذلك فى سيرتها ٠

أنت يا مريم ، أيتها العذراء الأم ، أيتها البنت لابنك ، يا بئر الرحمة يا دواء النفوس المذنبة ، يا من اختار الله أن يقر داخلك بنعمته اللطيفة ، يا من كانت وديعة وأسمى من كل الخلق ، لقد شرفت طبيعتنا تشريفا عظيما ، حتى أن الخالق لم يأنف من فطرة البشر ، وأرسل ابنه لنا ملتفا برداء الجسد والدم ٠

وفى داخل رواق رحمك المبارك تجسدت تلك المحبة الأبدية والسلام ، اللذان يرشدان العالم الثلاثى ويقودانه ، ذلك العالم الذى تحمد فيه الأرض والبحر والسموا تخالقها دون ما انقطاع ٠ أما أنت يا أيتها العذراء ، بلا دنس ، فقد حملت فى جسدك (مع بقائك عذراء طاهرة) خالق الخلق كله ٠ وفيك اجتمع الكرم السامى والرحمة والطيبة والشفقة أيضا تجعلك شمس الخير بأسره الذى لا يمد يد العون لمن يتضرعون لك فحسب ، بل انك كثيرا ما تغدقين بكرم سخى ، قبل أن يطلب البشر منك ذلك فأنت تسبقين السائل وتصبحين دواء حياته ٠

والآن أيتها الفتاة الوديعة المباركة الجميلة ، ساعدينى أنا البائس الموحش المبعد فى هذه البيد من مرارة العيش ٠ واعبرى بتلك المرأة الكنعانية (٦) ، التى قالت ان الكلاب أيضا تأكل من الفتات الذى يسقط من مائدة أربابها ٠ وبالرغم من أننى ابن (٧) حواء الحقير والآثم أى اثم ، فانى أرجو أن تتقبلى تعبدى الورع ٠

وبما أن الايمان الذى يفتقد الأعمال يكون فى حكم الميت ، لذلك أرجو أن تعطينى العقل والوقت للقيام بأعمال فى سبيلك حتى أنجو من أحلك الظلمات يا من أنت جميلة وممتلئة بالنعمة الى هذا الحد ، اشفعى لى فى ذلك المكان العالى ، حيث ترفع أناشيد و « أوصنا » (٨) الى أبد الآبدين ، اشفعى الى يا أم المسيح وبنت « حنة » العزيزة ٠

واغدقى بنورك على نفسى السجينة فى هذا السجن (٩) ، لأنها تتحرج وتقلق من قرب جسدى لها ، كما تتأذى من ثقل ملذات الدنيا والعواطف الخادعة ٠

يا ملجأ اللاجئين ، يا مخلصة من ينتابهم الأسى واليأس ، ساعديني الآن لأنني قررت أن أنكب على عملي ٠

ومع ذلك أرجو من يقرأ ما كتبه أن يغتفر سذاجتي في القص على نحو ذكي ٠ وانى استعمل العبارات والمعاني التي كانت لدي من كتب الحكاية تبجيلا للقديسة أول الأمر وأتابع سيرتها فأرجو أن تصلحوا ما عسى أن يقع في عملي هذا من خطأ يستوجب الاصلاح ٠

تفسير اسم سيسيليا الذي جاء به الأخ الراهب يعقوب الفوراجيني في سيرته الذهبية (١٠)

أولا أريد أن أشرح لكم بعض الشيء عن اسم القديسة سيسيليا ، حسبما سيراه من يقرأ سيرتها ٠ فمعنى الاسم بالانجليزية (سيسيليا أي « زنبق السماء ») (١١) وذلك كناية عن العفة الطاهرة والبكارة ٠ والا فالسبب هو أنها كانت تتمتع ببياض البشرة المتصلة وبالمقام الرفيع وبخضرة الحساسية المرهفة وبالرائحة الزكية للسمعة الطيبة ، ولذلك كان اسمها « ليلي » أي «الزنبق» وهناك تفسير آخر وهو أن «سيسيليا» معناها «الطريق الواضح» (١٢)، ذلك لأنها كانت قدوة حسنة وخير معلمة ٠ وهناك احتمال أن اسم « سيسيليا » (كما رأيته مكتوبا) هو وصل الكلمة التي تعني « السماء » باسم ليئة (زوجة يعقوب) (١٣) ، والتفسير الرمزي لذلك الجمع بين الكلمتين ، « فالسماء » تدل على أفكار التقوى ، و « ليئة مثال للمرأة التي تعمل بنشاط وجد ٠

ولاسم « سيسيليا » معنى آخر ، الى جانب ذلك ، ألا وهو « افتقاد العمى » (١٤) ذلك لنورانيتها الكبرى في الحكمة الدينية ، ولفضائلها الناصعة ٠ وقد يعني اسمها أيضا اقتران كلمة «السماء» بالكلمة اليونانية «لويس» (١٥) ، التي تعني « الشعب » أو مثالا للأعمال الحكيمة والخيرة ٠ فكلمة « ليوسى » تعني « الناس » أو « الشعب » بالانجليزية وبالضبط كما يستطيع الناس أن يروا الشمس والقمر والنجوم في كل أنحاء السموات ، فكذلك يستطيع الناس أن يدركوا روحيا ما يدل عليه اسم هذه العذراء الكريمة من عظمة الايمان ، وروعة الحكمة الدينية ، وعدة أعمال ممتازة ٠ وعلى نفس النحو الذي يكتب به أولئك الفلاسفة عن أن السموات تدور دورانا سريعا ومحترقا باستمرار (١٦) ، كذلك كانت سيسيليا الجميلة البيضاء ، تعمل عملا مضنيا دائبا ، ولا تكف عن الخير والمثابرة على خدمة الناس ، وهي متقدة دائما بالمحبة العليا ٠ وقد قلت لكم كاما يتعلق باسمها ٠

انتهى

ولدت هذه الفتاة الممتازة سيسيليا فى أسرة رومانية عريقة ، كما يرد ذلك فى سيرتها ، ومنذ المهد ربيت فى رحاب ايمان المسيح وحفظت انجيله فى ذهنها ، كما أنها لم تنقطع عن الصلاة ، وعن مخافة الله وعشقه ، حسبما وجدت ذلك مكتوبا فى الكتب وكانت دائما تتضرع الى الله أن يحافظ على بكارتها ٠

ولما حان الوقت لخطبتها من شاب ، اسمه «فاليريانوس » ، وجاء اليوم المحدد للزواج كانت تقية ومتواضعة فى قلبها ، وجلست مرتدية رداء من القصب ، ولكنها كانت قد وضعت قميصا من الخيش بجوار جلدها ٠ وبينما كانت أنغام الأرغن (١٧) تتصاعد فى الكنيسة ، كان قلبها لا ينشد الا الله وحده ، وكانت تناجى ربها قائلة : « يارب احم نفسى وجسدى واجعلهما طاهرين غير مدنسين ، حتى لا يقعا تحت طائلة اللوم » ومن أجل محبة ، الذى مات على الصليب ، كانت تصوم يومين من كل ثلاثة ، ولا تكف عن الصلاة باستمرار ٠

وخيم الليل ، وحان الوقت لذهابها الى الفراش مع زوجها ، كما هى الحال فى مثل هذه المناسبات ، فقالت له سرا « أيها الزوج العزيز الحبيب ، هناك سر سأبوح له به بمنتهى السعادة ، على ألا تفشيه » ٠ وأقسم لها فاليريانوس أنه لن يفشى سرها ، وألا يخونها أبدا بأية حال من الأحوال ٠ فالتفتت نحوه وقالت : « لى ملاك يحبنى حبا عميقا ، وأنا نائمة يقظة ، وهذا الملاك مستعد دائما لحماية جسدى ٠ واذا شعر بلا ريب أنك تمسنى ٠ أو تحبنى حبا شائنا ، فتلك فى الحال بمجرد دنوك منى ، وبذلك ستموت وأنت لا تزال شابا ٠ انما اذا أحببتنى حبا طاهرا ، أحبك هو أيضا بدوره من أجل طهارتك ، وأظهر لك بهجته ونورانيته » ٠

ولما سمع هذه الكلمات الناصحة بحسب مشيئة الله أجابها قائلا : « اذا أردت أن أثق بكلامك ، فاجعلينى أتطلع الى هذا الملاك وأراه بعينى ، فاذا كان ملاكا حقا فعلت ما طلبته منى ٠ ولكن اذا كنت تعشقين رجلا غيرى فانى أقسم حقا أن أقتلكما معا بسيفى » ٠ فردت سيسيليا على النحو الآتى : « اذا أردت ذلك فسترى الملاك ، لكى تؤمن بالمسيح ، وتتنصر ٠ اذهب الى طريق آبيا (١٨) ، الذى لا يبعد عن هذه المدينة الا ثلاثة أميال ، حينما تصل الى ذلك المكان فقل للفقراء المقيمين به ما أقوله لك ٠ قل لهم اننى أنا سيسيليا قد أرسلتك لهم ، لأعرض عليك هناك أرباثوس الطيب العجوز ، من أجل حاجة خفية ، ومعان خيرة ٠ واذا رأيت القديس أرباثوس فقل له الكلام الذى قلته لك ٠ وبعد أن يخلصك من كل آثامك وذنوبك ، سترى الملاك قبل مغادرتك» ٠

فذهب فاليريانوس الى ذلك المكان ، وكما قيل له التقى بأرباثوس الشيخ ، بعد قليل ، بين مدافن القديسين والشهداء • فبلغ رسالته فى الحال ، ولما سمعها أرباثوس رفع يديه الى أعلى تعبير عن سعادته ورضاه • ثم أخذت الدموع تنهمر من عينيه وصاح قائلا : « أيها الرب القدير يســوع المســيح ، يا مانع الرأى الســديد ، ياراعينا جميعا ، خذ ثمــار بذرة العفة ، تلك التى زرعتهـــا فى سيسيليا ، واستردها ! ان خادمتك سيسيليا مثل النحلة ، التى لا تكف عن العمل ، فهى تعمل دائبة فى خدمتك ، ومن غير خبث ولا لؤم •

وقد أرسلت لك هنا ذلك الزوج الذى تزوجته منذ قليل ، وبعد أن كان مفترسا كالأسد أدركك وديعا متواضعا كالحمل » • ولما انتهى من كلامه ظهر أمامه شيخ هرم ، مرتد أردية ناصعة البياض • وكان يحمل فى يده كتابا مدونا بحروف من الذهب ، ومثل أمام فاليريانوس • وعندئذ أغمى على فاليريانوس ، وخر على الأرض صريعا كأنه جثة هامدة لما رأى الشيخ ، الذى رفعه ، وساعده على الوقوف ، وعرض عليه الكتاب الذى كان يمسك به فقرا فيه ما يلى (١٩) : رب واحد ، يمان واحد ، اله واحد ولا أحد غيره ، مسيحية واحدة وكذلك آب واحد للكل على الكل وبالكل » وكانت هذه الكلمات مكتوبة بسلاسل الذهب •

وبعد أن قرأ ما قرأه قال له الشيخ : « هل تؤمن بهذا أم لا ؟ أجب بنعم أو لا » • فقال فاليريانوس : « انى أومن بكل هــذا لأنه لا يوجد ما هو أكثر حقيقة وصدقا ، يستطيع أى انسان فى الدنيا أن يتصوره » • ثم اختفى الشيخ الى حيث لا يدرى فاليريانوس وعمــده أربانوس البابا فى الحــال ، حيث كان موجودا •

وعاد بعد ذلــك فاليريانوس الى منزله ، حيث وجدسيســيليا واقفة فى حجرتهــا ، والى جوارها ملاك • وكان فى يد الملاك اكليل من الزنبق وآخر من الورد ، وأعطى أحدهما لسيسيليا أولا ، على حسب ما أذكر ، ثم أعطى الآخر لزوجها فاليريانوس •

ثم قال لهما : « بجسد طاهر ، وتفكير غير مدنس ، احتفظا بهذين الاكليلين دائما ، فانى قد أحضرتهما لكما من جنات الخلد ، وهما لن يذبلا ، ولن يفقدا رائحتهما الزكية ، وكونا واثقين مما أقوله لكما • وكذلك لن يراهما انسان بعينيه ، الا اذا كان عفيفا ، كارها للشر •

أما أنت يا فاليريانوس فقد تقبلت النصيحة الطيبة بسرعــة ، ولذلك أطلب ما تريد وسأحقق طلبك • فقال فاليريانوس : « لى أخ لم أحب أحدا أكثر منه فى هذه الدنيا • فأرجو أن ينعم أخى بأن يعرف الحقيقة ، كما عرفتها أنا ، وفى هذا المكان » •

فقال الملاك : « لقد حاز رجاؤك رضا الله سبحانه ، ولذلك ستمثلان أمامه ، وتحضران وليمته المباركة ، حاملين سعف الاستشهاد فى سبيله » وعندئذ حضر أخوه « تيبورسيوس » ، حالما انتهى الملاك من كلامه • ولما أدرك الرائحة الزكية ، التى حملتها الورود والزنابق ، أخذ يتأمل فى سر قلبه ويناجى نفسه قائلا :

« ترى من أين يأتى هذا العبق العذب للورد والزنبق ، فى هذا الفصل من السنة ؟ وحتى لو كنت أمسك الزهور فى يدى ، لما اخترقت رائحتها أعماق نفسى على هذا النحو • وان هذا العبق الزكى الذى أشم عبيره فى داخل قلبى قد غير طبيعتى تغييرا شاملا » •

ثم قال فاليريانوس : « لدينا اكليلان ، أحدهما أبيض ناصـعا فى لون الثلوج ، والآخر من الورد الأحمر ، وكلاهما يشرقان اشراقا منيرا ، ولكن عينيك لاتريانهما • ولكن بما أنك تستطيع أن تشم عبقهما ، من خلال صلواتى التقية ، فكذلك ستراهما يا أخى العزيز ، اذا كنت تؤمن ايمانا صحيحا ، وتعرف الحقيقة بعينها من غير تلكؤ ولا تردد » •

فأجابه تيبورسيوس قائلا : « هل صحيح أنك تخاطبنى بهذا الكلام ؟ هل أنا منصت لكلامك فى حلم ؟ » • فقال له أخوه فاليريانوس : « كنا يا أخى فى حلم حتى الآن ، أما الآن فاننا لأول مرة نقيم فى علم الحق » • فســـأله تيبورسيوس : « وكيف تعلم ذلك ؟ « فأجابه فاليريانوس : « ها أنا ذا أشرح لك ما كان • ان ملاك الله تعالى علمنى الحقيقة ، وانت أيضا تستطيع أن تدرك نفس الحقيقة ، اذا تبرأت من عبادة الأصنام وطهرت نفسك ، والا فانك لن تدرك شيئا ما » • وفى موضوع الاكليلين المعجزتين يتكلم القديس « أمبروزيوس » فى مقدمته للقداس (٢٠) ويمتدح هذا المعلم الكريم العزيز هذه المعجزة بأسلوب رصين وقور ويقول بين ما يقول : « فى سبيل الحصول على سعف الاستشهاد فى سبيل الله ، اعتزلت القديسة سيسيليا (وهى ممتلئة بهبات الله لها) الدنيا وما فيها ، بل هجرت نفس مضجعها فى بيتها • كما أشرفت شاهدة على تنصر فاليريانوس وأخيه تيبرسيوس فجازاه الله بأن أعطاهما بنعمته اكليلين من الزهور العبقة ، وأمر ملاكه باحضارهما لهما •

ان الفتاة العذراء هى التى أرشدت هذين الرجلين الى البركات السماوية • وعرف العالم قيمة الورع والعفة والمحبة • ثم بينت لهما سيسيليا ، بأسلوب بين واضح ، أن الأصنام ما هى الا أباطيل ، لأنها صماء وبكماء ، ومن ثم حملتهما على هجر تلك الوثنية الكريهة •

وقال تيبرسيسوس بعد ذلك : « ان الذى لا يؤمن بهذا الذى آمنت به ، ما هو الا حيوان ، اذا كنت صادقا » • وعندئذ قبلته على صدره فى ابتهاج لأنه أدرك الحقيقة وقالت : « فى هـــذا اليوم اتخذتك معاونا لى » • هذا ما قالته

تلك الفتاة المباركة العزيزة ثم استطردت وقالت : « انصت لى ، فمثلما جعلتنى محبة المسيح زوجة لأخيك ، فكذلك أتخذك الآن حليفا لى ، مادمت قررت أن تلفظ الأصنام التى كنت تعبدها اذهب اذن مع أخيك الآن ، واطلب التعميد ، حتى تصبح طاهرا ، وبهذا ترى وجه الملاك ، الذى تكلم عنه لك أخوك » .

فأجاب تيبرسيوس قائلا لأخيه : « يا أخى العزيز . قل لى أولا أين أذهب والى من أقصد ؟ « فقال أخوه : « أنت تسألنى لمن تسعى ؟ تعالى معى وسأصطحبك الى أوريانوس البابا » . ثم تساءل تيبرسيوس : « الى أوريانوس نفسه ؟ ياأخى فاليريانوس أأنت جاد فى قولك انك ستقودنى اليه ؟ ان ذلك يبدو لى شيئا عجيبا . أتعنى أوربانوس ، الذى كثيرا ما حكم عليه بالاعدام ، ويقيم فى مخابىء خفية ، ويتجول دائما هنا وهناك ، ولا يجرؤ على أن يظهر وجهه للناس ؟ اذ أن الناس اذا وجدوه أحرقوه فى محرقة لهبها أحمر واذا لمحوه يقتلوه حرقا ، كما يقتلونا أيضا لمجرد وجودنا معه . وبينما نبحث نحن عن الذات الالهية ، التى تختفى فى أطراف السموات ، سنعدم نحن فوق المحرقة فى دنيانا هذه » فأجابته سيسيليا اجابة جريئة قائلة : « قد يخشى الانســـان ، بحق وتبرير معقول ، ألا يتمتع بحياتنا هذه ، أيها الأخ العزيز ، اذا كانت لا توجد الا هذه الحياة وحدها ، ولا توجد حياة أخرى . الا أن هنـــاك حياة أفضـــل فى مكان آخر ، ولن تفقد هذه الحياة أبدا ، فلا تخ ف، لأن ابن الله نفســـه ، هو الذى بشرنا بذلك ، بفضل نعمته . فان ابن ذلك الآب الأوحد قد خلق كل شىء وكل الخليقة البشرية وهبت بعقل فطن . أما الروح القدس التى أتت من الآب ، فقد وهبت الانسان روحا ، ولا ريب فى ذلك .

وقد بشرنا ابن الله أثناء وجوده فى الدنيا ، بالكلمة وبالمعجزات ، أن هناك حياة أخرى يستطيع الانسان أن يعيشها غير هذه الحياة . فأجابها تيبرسيوس قائلا : « أيتها الأخت العزيزة ، ألم تقولى منذ قليل انه لا اله الا الله ، وهو أحد فى الحقيقة ؟ فكيف تشهدين الآن بوجود ثلاثة ؟ »

فقالت : « سأشرح لك ذلك ، قبل أن أنصرف . فمثلما يكون للانسان ملكات ذهنية ثلاث ، هى الذاكرة والمخيـــلة والعقل ، فكذلك يمكن فى ألوهيـــة واحدة أن توجد ثلاثة شخوص » وعندئذ أخذت تلقنه فى موضوع مجىء المسيح فى الدنيا وشقائه وبعض المواقف الهامة فى آلامه قبل الصلب . كما بنيت له كيف جعل ابن الله يبقى فى هذه الدنيا ، لكى يخلص الانسان من ذنوبه ، بعد أن كان أسير الخطيئة والهموم القارصة . وفى كل ذلك تكلمت مع تيبرسيوس . وبعد ذلك ذهب بنية طاهرة مع فاليريانوس قاصدا البابا أوربانوس ، الـــذى شـــكر الله لما رآه ، ونهض بقلب بهيج ســـعيد ليعمده ، وكمل علمه فى ذلك المكان ، ونصبه فارسا من فرسان الله . وبعد ذلك حصل تيبرسيوس على نعمة

الهية ، جعلته يشهد ملاك الله كل يوم من أيام حياته • وكان كل رجاء يطلبه من الله يمنح له فى الحال •

وانه لمن الصعب أن أقص عليكم ما قام به المسيح من معجزات فى سبيل هؤلاء الأخيار ، الا أنه فى نهاية الأمر (اذا عبرت عن الموضوع بكل حذافيره) جاء اليهم شرطة مدينة روما وأحضروهم أمام رئيس الشرطة المدعو «الماخيوس» • فاستجوبهم ، وعرف سرهم ، وأمر بارسالهم الى حيث يوجد صنم جوبيتر قائلا : « من لا يقدم له القرابين منكم ستقطع رأسه وهذا هو ما آمر به » وبعد قليل جاء شخص يدعى ماكسيموس ، وكان ملازما للمحافظ ونائبا له ، وقاد هؤلاء الشهداء ، الذين حدثتكم عنهم ، ولم يستطع أن يمنع الدموع من أن تنهمر من عينيه شفقة عليهم •

ولما سـمع ماكسيموس تعاليم القديسـين ، حصل على اذن من الجلادين واصطحبهم الى بيته في الحال • وقبل أن يخيم الليل ، بذلوا كل جهدهم فى أن يزيلوا الديانة الباطلة من الجلادين ومن ماكسيموس ، ومن كل أفراد أسرته ، حتى يؤمنوا بالله وحده •

ولما خيم الليل جاءت سيسيليا ومعها بعض الكهنة ، لتنصرهم جميعا ، ولما انبلج الفجر قالت لهم بخلق صبور هادىء : « والآن ، يا أحب فرسان المسيح وأعزهم ، تخلوا عن أعمال الظلمات ، وتدرعوا بدروع النورانية (٢١) •

لقد خضتم معركة كبرى بالحق ، وأدركتم نهاية الطريق ، وحافظتم على ايمانكم ، (٢٢) فاتجهوا الآن نحو تاج الحياة الخالدة • ان القاضى العادل الحق الذى أنتم عبيد له ، سيعطيكم مكافأة تستحقونها • ولما انتهت من كلامها هذا على النحو الذى أرويه لكم ، قادهم الناس ليقدموا القرابين •

وبمجرد احضارهما الى المكان المخصص لذلك (اختصارا لسرد الحوادث وادراكا لختام الكلام) لم يرض أحد من الأخوين أن يقدم القرابين بل سجدا بقلوب خاشعة ، وتقوى ثابتة ، وفى المكان نفسه فقدا رأسيهما وصعدت روحاهما الى مالك النعمة •

أما ماكسيموس ، الذى شهد ما حدث ، فقد روى فى الحال ، والدموع المؤثرة تنهمر من عينيه ، أنه كان يرى روحيهما ترفرفان فوق الجمع وتطيران الى السموات ، وتصطحبهما الملائكة المشرقون المغيرون • وبهذا الحديث جذب الكثيرين الى الايمان الحق ، الأمر الذى جعل الماخيوس يأمر بأن يجلد بأسواط من الرصاص ، حتى لفظ أنفاسه الأخيرة •

فحملته سيسيليا ، ودفنت جثته الى جانب تيبرسيوس وفاليريانوس ، فى المدفن نفسه وتحت نصب حجرى • وبعد ذلك أمر الماخيوس مساعديه بأن

يحضروا سيسيليا على وجه السرعة ، حتى تقوم أمامه بتقديم القرابين الى صنم جوبيتر واحراق البخور بين يديه •

ولكن الحاضرين لشدة تأثرهم بحكمة تبشيرها وتعاليمها ، أخذوا يبكون بكاء مريرا ، وآمنوا بكل ما قالته ، وزاد بكاؤهم ، وصاحوا قائلين : « أيها المسيح ان الله (ولا تمييز بينهما) يا من أنت الله الحق (وهذه خلاصة رأينا) ها هو ذا عبد وفي يخدمك ، وها نحن أولاء نقرر بصوت واحد أننا آمنا بك ، حتى لو أدى ذلك الى هلاكنا » ولما سمع ألماخيوس بكل ذلك أمر باحضار سيسيليا لكي يراها وما ان رآها حتى سألها : « ما الجنس الأنثوى الذى تنتمين اليه ؟ » • فقالت له : « انى امرأة من سلالة عريقة » فقال لها بعد ذلك : « أود أن أسألك (حتى لو كان ذلك يؤلمك) عن دينك وايمانك »

فقالت : « لقد وضعت سؤالك بأسلوب غير معقول ، لأنه يتطلب اجابتين على سؤال واحد • فسؤالك اذن يدل على جهل « فأجابها ألماخيوس معلقا على قولها بالسؤال الآتى : « ما الداعى لاجابتك بمثل هذه الغلظة ؟ » • فردت سيسيليا بدورها قائلة : « ما الداعى ؟ الداعى هو قوة الضمير ، والايمان الصادق » فسألها الماخيوس : « ألا تعبئين بسلطتى ؟ » فأجابته بما يلى : « ان سلطانك لا يثير خوفا كبيرا ، لأن سلطة كل انسان مثلها مثل نفاخة ممتلئة بالهواء ، اذا اخترقها حد الابرة ، تفتقت واندثر كل ورم الفخر الكاذب » •

فقال : « انك بدأت الكلام بداية خاطئة للغاية ، وها أنت ذى تستمرين فى الخطأ • أفلا تعلمين أن أمراءنا العظام الكرام ، قد أمروا ، وقرروا أن كل مسيحى لابد أن يكفر عن مسيحيته ، الا اذا ارتدعن دينه ، فانه عندئذ سيكافأ على ذلك ؟ » •

فقالت سيسيليا : « ان امراءك مخطئون ، وكذلك أعيانكم ، وهذا الرأى المجنون يحكم علينا بالذنب ، بينما يتنافى ذلك مع الحق • فأنت تعلم حق العلم أننا أبرياء لأنك تعلم انك اعتبرت أننا نقترف جريمة بل اثما عندما نقدس المسيح ونحمل أسماء مسيحية • أما نحن فاننا نعلم أن اسم المسيح هو دليل على كل فضيلة ولا نستطيع أن نتخلى عنه » • فأجابها ألماخيوس قائلا : « اختارى أحد أمرين : اما أن تقدمى القرابين واما أن تتخلى عن المسيحية ، وهذا هو الطريق الوحيد لنجاتك » • وعندئذ أخذت الفتاة المباركة الجميلة تضحك ثم قالت : « يا أيها القاضى ان حمقك قد كشف ، واختلط أمره ـ أتريد حقا أن أتخلى عن البراءة ، لكى أصبح شخصا شريرا ؟ تطلعوا اليه أيها الناس ، ها هوذا يخفى نيته الصحيحة ، ويخادع علنا على مرأى من الجميع ، ويلقى أنظارا محدقة مجنونة حوله ، ويهذى ، مع أن عقله متزن « فقال لها ألماخيوس عندئذ بغضب : « أيتها الفتاة الحقيرة المشئومة ، ألا تعرفين الى أى مدى يمتد

بأسى وسلطاني ؟ ألم يعطنى أمراؤنا الجبابرة سلطة الاعدام ومنح الحياة عفوا ؟ كيف تجرؤين اذن على أن تخاطبينى بمثل هذه الوقاحة المتحدية ؟ • فردت قائلة : « انى لا أتكلم الا بعزم موطن وتصميم • ولا تخالجنى الكبرياء ، اذ أقول لك حقا ، اننا ، فى طائفتى ، نكره الكبرياء كراهيتنا لاحدى الكبائر • واذا كنت لا تخشى أن تسمع الحقيقة ، فانى أعرض عليك عرضا جليا وأقول انك ارتكبت هنا كذبا عظيما • فقد قلت ان أمراءك أعطوك حق الحياة والموت ، ولكن الواقع هو أنك لا تستطيع الا أن تسلب شخصا حياته ، وليس لديك أى حق آخر • ولذلك يصح أن تقول ان أمراءك جعلوك وزيرا للموت فحسب ، لأنك اذا أضفت لذلك شيئا تكون قد كذبت ، لأن سلطتك ضعيفة للغاية » • فصاح ألماخيوس قائلا : « كفى عن جرأتك ووقاحتك ، وعليك أن تقدمى القرابين لآلهتنا ، قبل انصرافك • أما أنا فلا أبالى بما توجهين الى من كلام ظالم بغيض ، اذا أننى قادر على تحمله بوصفى فيلسوفا • ولكنى لا أتحمل قط أن تسيئى الى آلهتنا هنا بكلمة واحدة » •

فردت سيسيليا قائلة : « أيها المخلوق الأحمق ! انك لم تخاطبنى الى الآن الا بما يكشف لى عن حماقتك ، حتى لقد أدركت تماما أنك ، على كل حال من الأحوال ، قائد جاهل وقاض فاشل • ومع أن عينيك الجسديتين سليمتان فانك كفيف ، لأنك تقدس شيئا نرى كلنا أنه لوح من الحجر وتراه أنت الها • أنصحك أن تضع يدك عليه ثم العقها ، وذقها ، وسوف تجد أنه مجرد حجر ، مادمت لا تستطيع أن تدرك ذلك بعينيك الكفيفتين • ويح لك ، لأن الناس ستسخر منك ، وتضحك عند ذكر حماقتك ، لأن أغلب الناس يعرفون بلا شك أن الله تعالى موجود فى أعلى سمواته • أما هذه التماثيل فمن الواضح انها لا تعود عليك ، ولا على نفسها ، بأى نفع ، لأنها لا تساوى بصلة »

ونطقت سيسيليا بهذا الحديث وبكلام كثير غيره • أما هو فقد أخذ غضبه يشتد ، وأمر رجاله أن يقودوها الى بيتها آمرا اياهم بما يأتى : « عندما تكونون فى بيتها احرقوها فى حمام (٢٣) من النيران الحمراء » • وتنفيذا لأمره كان هذا هو ما حدث ، اذ ربطوها وحبسوها فى حمام ، وأشعلوا النار تحته ، وأخذوا يضرمو نها ليلا ونهارا •

وبقيت طوال الليلة ويوما بعد ذلك باردة ، لا تشعر بألم بالرغم من النار ، ومن حرارة الحمام • فلم تقطر من جسدها قطرة واحدة من العرق ، ولكنها استسلمت لفكرة أنها لابد أن تموت فى ذلك الحمام • وأوفد ألماخيوس ، بنية سيئة للغاية ، رسولا الى رجاله ليقتلوها فى الحمام وضربها الجلاد ثلاث مرات فى عنقها ، ومع ذلك لم يستطع أن يقطعه تماما • وبما أن قرارا عاليا كان يقضى وقتذاك بأن تنفيذ الاعدام فى انسان على يد انسان آخر لا يكون بضربة رابعة خفيفة كانت الضربة أو ثقيلة ، فان الجلاد لم يجرؤ على أن يفعل أكثر من

ذلك • بل تركهـا نصف ميتة وعنقهـا مقطوع ، وانصرف فى طريقه • أما المسيحيون ، الذين كانوا قريبين منها فضمدوا جراحها بقطع من النسيج لتمتص النزيف السائل • وبقيت على قيد الحياة ثلاثة أيام فى هذا العذاب الأليم ، ومع ذلك لم تكف عن تعليم من حولها أصول الايمان ، الذى كانت قد نمته بينهم • وظلت تعظهم طوال الوقت ، ثم وهبتهم أثاثها وأموالها كلها ، وعهدت بهم الى البابا أوربانوس قائلة : « لقد طلبت ذلك منة من الله سبحانه ملك السموات لكى يمهلنى ثلاثة أيام ولا أكثر لكى أعد لك قبل رحيلى بهذه الأرواح ، وذلك حتى أكون قد خلقت من بيتى هذا كنيسة لا تفنى » •

فجاء البابا أوربانوس مع شمامسته فى السر ، وأخذ الجثة ودفنها ليلا بين كل شهدائه وقديسيه الآخرين • وسمى بيتها كنيسة القديسة سيسيليا • ودشنها القديس أوربانوس ، كما يليق بالمقام ، وحتى يومنا هذا يقدم فيها الناس خدمات التقوى للمسيح ولقديسته •

(وهنا تنتهى حكاية الراهبة الثانية)

هوامش حكاية الراهبة الثانية

(١) **الراهبة الثانية** : جاء ذكرها فى مقدمة حكايات كانتربرى بعد وصف رئيسة دير الراهبات (البيتان ١٦٤ و ١٦٤) ، حيث وصفت بأنها بمثابة مساعدة لها ، وأمينة لسرها ، خاصة أن الراهبات وقتذاك لم يكن مسموحا لهن بأن يخرجن من الدير الاجماعة ، أو فى صحبة راهبة أخرى على الأقل ، وذلك حماية لسمعتهن .

وان الأسلوب المتبع فى هذه الحكاية فيه انعكاس لتقاليد القصص الدينى فى العصور الوسطى ، حيث يبدأ بمناقشة لموضوع خلقى ، يتضمن عادة وصف لاحدى الكبائر السبع ، ثم ينتقل لابتهال لله أو للمسيح أو للسيدة العذراء التماسا للالهام الشعرى وقوة البيان ، للاستمرار فى القصيدة أو القصة (وفى ذلك صدى لطريقة الاستهلال فى القصائد اليونانية واللاتينية) . ثم تأتى الحكاية نفسها وتختتم بدرس خلقى أو عبرة . والحكاية ، التى نحن بصددها هنا ، تتبع نفس التقسيم .

أما من حيث طريقة نظمها فهى تنقسم الى فقرات شعرية من سبعة أبيات ، كل بيت منها يشتمل على عشرة مقاطع موزعة على خمس تفعيلات يامبية ، وتلتزم بنظام السرد الروى الآتى : أ ـ ب ـ أ ـ ب ـ ب ـ ج ـ ج . أما الاستهلال ، الذى يتضمن مناقشة لخطيئة الكسل ، فهو مشتق من تقليد دينى شائع فى العصور الوسطى ، خاصة فى الشعر الأخلاقى والدينى . وكذلك الابتهال للسيدة العذراء ، الذى يجمع بين العناصر الدينية البحتة وأسلوب مخاطبة السيدة المحبوبة فى تقاليد الحب الرفيع عند شعراء « التروبادور » . وهناك مصدر آخر لهذا الابتهال فى شعر دانتى ، حيث ينسب مثيل له على لسان القديس برناردوس (« الفردوس » ٢٣ البيت الأول وما بعده) . أما المصدر المباشر لهذه الحكاية ، فيشير اليه تشوسر صراحة فى التفسير لاسم القديسة سيسيليا ، الذى اشتقه من كتاب فى سير القديسين باللاتينية اسمه الأسطورة الذهبية (Legenda Aurea) للراهب الفرنسى « جاك دى فوراجين » Jacques de Voragine الا أنه يشير فى البيتين ٢٥ و ٨١ الى مصدر آخر لم يذكر اسمه صراحة .

وقصة استشهاد القديسة سيسيليا قديمة جدا ، ويعطى فكرة عن الحياة فى الطوائف المسيحية السرية ، فى ظل الدولة الرومانية . والاجماع لدى أغلب المؤرخين أن القديسة سيسيليا كانت بالفعل من أسرة أرستقراطية رومانية وثنية ، وأنها أعدمت بين عامى ١٦ و ١٨٠ م وفى قصتها عنصران للجو النفسى ، الذى كان سائدا بين أعضاء هذه الأقلية المضطهدة الجديدة حينذاك : فمن ناحية نجد شدة التعصب والتماسك بين أعضاء الطائفة ، والصمود أمام الاضطهاد ، والترحيب بالاستشهاد فى سبيل الايمان ، ومن ناحية أخرى نجد حب الجدل والتحاجى فى موضوعات دينية فلسفية عامة كما هى الحال بين القديسة وزوجها ثم أخى زوجها ، ثم القاضى الذى حكم باعدامها . وهناك عنصر آخر جدير بالملاحظة هو الجمع بين الالتجاء للزواج فى سبيل الحصول على متنصرين جدد ، وبين الالتزام ببكارة صارمة ، تدل على تعصب نسائى ، لعب دورا هاما فى التأثير السياسى كما هى الحال مع البطلات النسائية ، مثل كاترينادى سينا ، وجان دارك ، وغيرهما من القديسات الايجابيات المستشهدات فى تاريخ المسيحية بالغرب .

(٢) الكسل احدى الكبائر السبع فى المسيحية وهو من الخطايا ، التى كان الرهبان والراهبات يهتمون بها ، بصفة خاصة ، لتعرضهم لها ، الأمر الذى كان يملى عليهم فى العصور الوسطى أن يلتزموا بأعمال خاصة داخل الدير وخارجه ، كالفلاحة والنسخ والترجمة وتوشية المخطوطات ٠

(٣) فى القصيدة الرمزية المسماة « رواية الوردة » كان الكسل كمعنى مجسد معينا حارسة لحديقة الحب ، وسميت ، « السيدة كسل » ، وكانت وظيفتها أن تهيىء الظروف للحب الرفيع بين المحبين فى اطار الحب الرفيع ، على أساس أن مناظرات الحب وتبادل القصائد الغنائية الرمزية لا يكون الا فى جو مجرد من أية التزامات أخرى ٠ وهذه طبعا حالة ينبغى أن يتجنبها أى شخص متصل ، عن قريب أو بعيد ، بالحياة الدينية ٠

(٤) هذا ابتهال تقليدى فى القصائد الدينية ، وقد جاء أيضا فى « فردوس » دانتى ، كما ذكرنا ،وله مقابل فى مقدمة حكاية رئيسة الراهبات فى « حكايات كانتربرى » نفسها ٠

(٥) القديس برناردى كليرفو (Bernard de Clairvaux) عاش من ١٠٩٠ الى ١١٥٣ م ، ولعب دورا كبيرا فى تنظيم حياة الرهبنة فى أوربا الغربية ، تطويرا لها ، لما كان قد نشأ فى صحراء مصر من قبل ٠ ومن أهم اضافاته للعبادات المسيحية فى العصور الوسطى الاهتمام الشديد بالتوسل الى العذراء مريم لشفاعتها ، وخاصة بالنسبة للنساء ٠

(٦) الاشارة هنا الى انجيل متى ١٥ : ٢١ ـ ٢٨ ، حيث قالت امرأة كنعانية كانت ابنتها مجنونة : « ٠٠٠ الكلاب أيضا تأكل من الفتات ، الذى يسقط من مائدة أربابها » ٠ حينئذ أجاب يسوع وقال لها : « يا امرأةعظيم ايمانك ٠ ليكن لك كما تريدين » ٠ فشفيت ابنتها من تلك الساعة ٠

(٧) يقول بعض النقاد ان هذه الاشارة الى ابن حواء دليل على أن تشوسر كان يقصد بادىء الأمر أن ينسب هذه الحكاية الى شخصية غير احدى النساء (كالراهب مثلا أو القسيس) الا أن هناك دليلا فى أحد الترانيم ، التى ينشدها جماعة الرهبان والراهبات على السواء ، بعنوان « تحية لك يا ملكة السموات » (Salve Regina Coeli) وفيها البيت الآتى : « اليك نصيح متوسلين ، نحن أبناء حواء المنفيين ٠ Ad te clamamus exules filii Evae

(٨) الاشارة هنا الى انجيل متى ٢١ : ٩ فى وصف دخول المسيح أورشليم : « والجموع الذين تقدموا ، الذين تبعوا ، كانوا يصرخون قائلين « أوصنا لابن داود مبارك الآتى باسم الرب ٠ أوصنا فى الأعالى » وكلمة « أوصنا أصلها عبارة عبرية معناها » نرجوك خلصنا ! ٠

(٩) اعتبار الجسد سجنا للنفس فكرة قديمة جدا ، ترجع لأفلاطون ، ولكنها أحييت من جديد فى العصور الوسطى ، فى الجدل حول الروح والجسد ٠ فكان هناك اتجاه ، يرجع الى مذهب المانوية ، المبنى على مبدأ ثنوى ، قوامه الخير والشر ، والنور والظلام ، فى كل مظاهر الخليقة ٠ وكانت الكنيسة مضطرة الى مكافحة هذا الاتجاه المتفشى بين المتعصبين لفكرة أى الروح تمثل الخير ، بينما الجسد يمثل الشر ، ويجب السيطرة عليه بطرق شتى منها الايلام والتعذيب ٠ فالمبدأ المسيحى الأصلى يعطى أهمية للجسد باعتباره من خلق الله ، كالنفس تماما ٠

(١٠) جاء ذكر جاك دى فوراجين فى أولى تهميشاتنا ٠

(١١) يلاحظ أن كل المحاولات الآتية لتأصيل اسم سيسيليا اعتبارية بحتة بل خيالية ٠ فالكلمة اللاتينية للسماء هى «Caelum» والكلمة للزنبق هى «Lilia» ويمكن استخلاص Cecilia من ادماج الكلمتين ٠

(١٢) كلمة كفيف باللاتينية هى caecus والطريق هى والطريق للكفيفين يكون caecis via وهذا بعيد جدا ٠

(١٣) جاء ذكر « ليئة » فى سفر التكوين ٢٩ : ٣٢ وما بعده ، وهى ترمز دائما للنشاط والعمل الدؤوب ٠ فالادماج هنا لكلمتى Caelum السماء و Leah, (ليئة) ٠

(١٤) لا أساس مطلقا لهذا التفسير ٠

(١٥) هناك خطأ هنا فكلمة « الشعب » أو « الناس » باليونانية هى « لاوس » (Laos) لا « ليوس » (leos)

(١٦) الدوران هنا دليل على تطبيق التفسير البطلمى للكون ، حيث تحرك الارادة الالهية الدائرة التسعة للكواكب المسماة « الدائرة القابلة للتحريك الأولى (Primum Mobile) وحركة هذه الدائرة الخارجية ، هتى التى تعطى الحركة العكسية للدائرة الثامنة ، وهكذا حتى الكرة الأرضية فى مركز الكون ٠ وهذا التفسير الفلكى هو الذى كان شائعا فى الغرب وفى العالم الاسلامى ، حتى جاءت نظرية كوبرنيك العالم الفلكى البولاندى ، الذى اعتبر الشمس مركزا للكون ، ومصدرا للحركة والحياة فيما حولها ٠ أما الاحتراق الدائم فهذه هى الحالة المتصورة للكون خارج الدائرة التاسعة ، حيث كان يظن أن الملائكة والأولياء يقيمون ٠

(١٧) أصبحت القديسة سيسيليا راعية للموسيقى وتأليف الموسـيقى الكنيسية فى عصر النهضة ، أى بعد القرن الخامس عشر ، ولكن وقت كتابة هذه القصيدة لم تكن متصفة بهذه الصفة ٠

(١٨) هو البابا أوربانوس الذى استشهد سنة ٢٣٠ م بضرب عنقه ٠

(١٩) رسالة بولس الرسول الى أهل أفسس : ٥ ــ ٦ ٠

(٢٠) كان القديس أمبروزيوس (Ambrosius) أسقف لميلانو فى القرن الرابع الميلادى ، ولد سنة ٣٤٠ وتوفى سنة ٣٩٧ ، وكان أحد واضعى نص القداس ، الذى كان يقام فى أغلب كنائس غرب أوربا ، وله قداس خاص فى ذكرى القديسة سيسيليا ٠

(٢١) اشارة الى رسالة بولس الرسول الى أهل أفسس ٦ ق ١١ ــ ١٣ : « البسوا سلاح الله الكامل ، لكى تقدروا أن تثبتوا ضد مكايد ابليس ، فان مصارعتنا ليست مع دم ولحم ، بل مع الرؤساء ، مع السلاطين ، مع ولاة العالم على ظلمة هـذا الدهر مع أجناد الشر الروحية فى السماويات ٠ من أجل ذلك احملوا سلاح الله الكامل ، لكى تقدروا أن تقاوموا فى اليوم الشرير ، وبعد أن تتمموا كل شىء أن تثبتوا » ٠

(٢٢) اشارة الى رسالة بولس الرسول الثانية الى تيموثاوس ٤ : ٧ ــ ٨ : « قد جاهدت الجهاد الحسن ٠ أكملت السعى ٠ حفظت الايمان ٠ وأخيرا قد وضع لى اكليل البر ، الذى يهبه لى فى ذلك اليوم الرب الديان العادل ، وليس لى فقط ، بل لجميع الذين يحبون ضهوره أيضا ٠

(٢٣) هذا الحمام المقصود هو الحمام بالمعنى الرومانى القديم ، والتركى بعد ذلك ، أى حجرة محكمة النوافذ ، أرضيتها من الرخام ، وتوقد تحت أرضيتها نيران حتى يعرق المستحم فيها عرقا غزيرا ، قبل أن ينتقل الى حجرة أخرى ، بها ماء ساخن ثم تدريجيا ينتقل الى حجرة فيها ماء فاتر ٠ وكانت البيوت الأرستقراطية الغنية فى روما قديما تشتمل على مثل هذه الحجرات للاستحمام ٠ ولكن القاضى هنا أراد أن يحول حمام سيسيليا الى فرن ، تحترق فيه تدريجيا ٠ وهناك تفسير دينى لهذا الحمام يتصل بتقسى المعمودية ، حيث يعمد المؤمن المسيحى الجديد فى ماء ٠ ولكن المعمودية هنا اقترنت بنار الاستشهاد فى سبيل الايمان ٠

حكاية خادم القمص

مقدمة خادم القمص (١)

لما انتهت سيرة القديسة سيسيليا لحق بنا رجل ، كانت ملابســه كلها سوداء ، ومن تحتها مدرعة بيضاء وكان ذلك قبل أن نكون قد قطعنا خمسة أميال فى الطريق ، بينما كنـا قـد اقتربنا من قرية « بوتن أندربلى » (٢) ٠ أما حصانه فكان رماديا أرقط ومبتلا بالعرق على نحو غريب ٠ ويبدو أن راكبه قد حثه بمهمازه على العدو مسافة أميال ثلاثة ٠ أما الحصان الذى كان يركبه خادمه ، فكان أيضا مبتلا بالعرق ، الى حد أنه كان لا يكاد يستطيع أن يتقدم ٠ وكان الزبد السميكا على عنق الحصان ، وكان هناك كيس مطوى فوق ردفه ، ويبدو أنه لم يكن يحمل معه الا قليلا من الأردية والمتاع ٠ وكان هـذا الرجل الكريم لا يحمل معه كثيرا من المتاع من أجل فصل الصيف ٠ أما أنا فقد بدأت أعجب فى السر من طبيعة هذا الرجل ، وأتساءل من أين أتى ، حتى أدركت أن قلنسوته كانت مخيطة لمعطفه ، الأمر الذى جعلنى أدرك بعد التروى والتفكير أنه لابد أن يكون قمصا كنسيا (٣) ٠ وكانت قبعته تتدلى على ظهره من سلك ، لأنه كان قـد هرول الينا جاعلا جواده يسرع ، ولم يكتف بمجرد الخبب أو الرهو ، بل كان قد مهمز دابته بشدة كأنه مجنون تماما ٠

وقد وضع ورقة الأرقطيـون تحت قلنسـوته وقاية من العرق (٤) ومن حرارة الجو على رأسه ٠ ومع ذلك فما أبهج رؤيته وهو يتصبب عرقا ٠ لقد كان جبينه يقطر العرق كأنه بقطرة ممتلئة بعشب لسان الحمل وجذر عاقر قرحا ٠

ولما أدركنا صاح قائلا : « سلام الله على هذه الرفقة السعيدة ! لقد عدوت بسرعة قصوى لكى أدرككم ، لأننى كنت أريد أن ألحق بكم ، لأسير فى ركب هذه الجماعة المرحة » . وكان خادمه أيضا مهذبا الى أقصى حد ، وقال : « ياسادتى لقد رأيتكم فى الضحى تغادرون نزلكم ، وأخبرت سيدى ومولاى هنا فأبدى اســـتعدادا واضحا ، ليركب معكم من أجل متعته ، اذ أنه مغرم بالحديث المرح الخفيف (٥) .
وقال مضيفنا : « يا صديقى وفقك الله على أخبارك لأن سيدك تبدو عليه الحكمة والحصافة ، بقدر ادراكى لذلك وانى أقسم أيضا أنه مشغوف بالدعابة والمرح فهل يستطيع أن يحكى لنا قصة أو قصتين ، يسعد بهما هذه الرفقة ؟ فأجابه الرجل قائلا : « عمن تتكلمون يا مولاى ؟ عن سيدى ؟ أجل ثم أجل ، فلا كذب فى ذلك ، لأنه عليم بالدعابة محب للمرح والمزاح . ثم يا سيدى ثقوا بى ، فأنتم اذا عرفتموه حق المعرفة كما أعرفه أنا ، لعجبتم أشد العجب لحذقه ومهارته فى أمور ، يستطيع أن يقوم بها بطرق شـــتى . لقد قام بأكثر من مشروع كبير ، لم يكن فى وسع أحد منكم هنا بلا ريب أن يقوم به الا اذا لقنه بأصوله . ومع أنه يصحبكم فى ركبكم ، كأنه رجل لا يمتاز عنكم فى شىء فانكم ، لو عرفتموه على حقيقته ، لكان ذلك لمصلحتكم ، ولما استغنيتم عن معرفته ، لما فى قدرته من خير عظيم ، وانى لمستعد للمراهنة على ما أقوله ، بكل ما لدى من أموال . انه رجل عظيم الشأن والحصافة وانى لأخبركم بأنه رجل يفوق كل تقدير . وعندئذ قال مضيفنا : « خير ، فقل لنا اذن من فضلك ، أهو من أحبار الكنيسة أم لا ؟ قل لنا ما هو ؟ » . فأجابه الخادم قائلا : « كلا ، بل انه أعظم من مجرد حبر فى الكنيسة ، وأنا أعلم ذلك واذا أردتم أيها المضيف ، فسوف أقدم لكم فكرة مختصرة عن علمه ومقدرته العجيبة . وأقول لكم ان مولاى متبحر فى معرفة أشياء عويصة (ولكن حتى لو ساعدتكم على ذلك ، لما استطعتم أن تتعلموا فنه كله منى) ذلك أنه يستطيع فى هذه الأرض التى نركب فوقها أن يقلبها رأسا على عقب ، وأن يجعلها كلهـــا تتحول الى فضـــة وذهب ، من هنـــا الى مدينة كانتربرى » .

وبعد أن روى الخادم حكايته هذه اتجه نحوه المضيف قائلا : « بارك الله فيك ، وانه ليثير اعجابى حقا ، أن سيدك ، وهو على هذه الدرجة العالية من العلم والحكمة ، التى تجعل الناس كلهم يحترمونه احتراما بالغا ، أقول ان سيدك لا يبالى بمظهره بين الناس . بل ان معطفه لا يساوى فولة فى نظره ، وأنا متأكد مما أقوله . فمعطفه بأسره قذر ومهلهل . ولذلك أرجو أن تقول لى لماذا يبدو سيدك بمثل هذا المظهر غير اللائق فى حين أنه قادر على أن يشترى لنفسه نسيجا أحسن نيرتديه ، خاصة اذا كانت أعماله تتفق مع ما قلته عنه ؟ انى أتوسل اليك أن تخبرنى بحقيقة الأمر » .

فأجابه الخادم قائلا : « ولماذا تسألنى ؟ والله وليى انه لم يوفق فى الحياة

(ومع ذلك فلا أريد أن أقول ذلك علنا وأرجو أن تكتم سرى) لأنه قسما بايمانى بالغ الحكمة ، على ما أعتقد ، لا يريد أن يكشف عن غناه • ولا شك أنه يبالغ فى سلوكه هذا ، ولا يمكن أن يوفق فيه ، كما يقول فقهاء الدين ، بل ان ذلك عيب فيه • وانى أرى أنه يسلك سلوكا جاهلا بل أحمق • فالانسان فى كثير من الأحيان اذا كان عليما للغاية ، قد يسىء استعمال عقله • وهذا هو أمر سيدى وهو أمر يؤلمنى جدا • أصلح الله الحال ، أما أنا فلا كلام لى بعد ذلك » • فاقل مضيفنا بعد ذلك : « لا بأس ، ولكن مادمت تعلم شيئا عن فقه سيدك ، وفنه فقل لنا كيف يعمل ، وأرجوك من صميم قلبى ، أن تخبرنى بذلك ، مادام هو فى مثل هذا المستوى من العلم والدهاء • فأين تقيمون ، اذا جاز لك أن تقول ؟ » •

فأجابه قائلا : « فى ضواحى مدينة ومندسا فى زوايا وحوار وأزقة ، حيث بالفطرة هؤلاء اللصوص والأشقياء فى بيوتهم السرية المخيفة ، اذ أنهم لا يجرؤون أن يكشفوا عن وجودهم • وعلى هـذا النحو نقيم نحن أيضا ، اذا قلت لكم الحق » • فقال مضيفنا : « والآن دعنى أحدثك قليلا ، لماذا وجهك شاحب على مثل هذا النحو ؟ **فأجابه قائلا :** « قسـما ببطرس الرسـول ولعنة الله على نار الموقد ، انى اعتدت النفخ فى لهيبه ، حتى أن لون بشرتى قد تغير وشحب • وليست عادتى أن أنظر الى وجهى فى المرآة بل انى أعمل دائما عملا شـاقا ، وأدرس تحولات المعـادن • ونحن لا نكف عن الطواف (٦) حول الموقـد وعن التحديق طويلا فى لهيب النار • ومع ذلك فنحن نفشل دائما فى ادراك مرادنا ، لأننا لا نصل أبدا الى نهاية بحثنا واننا نخدع كثيرا من الناس بأن نستعير بعض الذهب بحيث لا يزيد على جنيه أو جنيهين ، أو حتى عشرة جنيهات ، أو اثنى عشر أو مبالغ أضخم من ذلك حتى نجعل الناس يظنون أننا نستطيع أن نحول الجنيه الواحد الى جنيهين ومع ذلك فهذا عمل باطل ، ولم ننجح حقيقة حتى الآن ، ولكننا لا نفقد الأمل بأننا سنحرز النجاح يوما ، بل لانكف عن اجراء التجارب باستمرار • على أن هذا العلم يمثل دائما أمامنا ، وكأنه يدعونا للاقتراب منه ، ولا نقدر على ادراكه ، ولو أننا أقسمنا أحيانا بأننا قد أدركناه الا أنه ينسـل من أيدينا ، بمجرد تصور اللحاق به ، وأنا متأكد أن هذا العلم سيحولنا الى شحاذين فى آخر الأمر •

وبينما كان هذا الخادم يتكلم على هذا النحو دنا منه القمص وسمع كل ما قاله خادمه ، لأن هذا القسيس كان دائما يشك فيما يقوله الناس • وقد قال كانو (٧) فى هذا الصدد ان الانسان ، الذى يشعر بذنب ، يتصور دائما أن كل ما يقال حوله يدور حوله • ولذلك اقترب من خادمه لكى ينصت الى ما يقوله • ثم قال لخادمه : « كفى والتزم السكوت ولا تنبس ببنت شفة ،

والا دفعت ثمن ذلك غاليا • انك تفترى على هنا بين هذه الرفقة ، وذلك يكشف عن سرك ، الذى كان يجب أن يبقى خفيا » •

ولكن المضيف نهض وقال للخادم : « تكلم ، واستمر فى الكلام ، مهما حدث ، ولا تقم قدر بصلة لما يهددك به » • فأجابه الخادم قائلا : « قسما بايمانى لم يبق لدى كثير من الكلام أقوله » • ولما أدرك القمص ألا مفر من أن يبوح خادمه بسره للجميع ، نهض ، وهرول هاربا من شدة غيظه وخجله • فاستأنف الخادم كلامه قائلا : « آه لقد افترست فريستى هنا ! وسأطلعكم على كل ما أعرفه ، مادام القمص انصرف ، قتله الشيطان الرجيم ! انى لن ألتقى به ثانيا ، من الآن فصاعدا ، فى مقابل القرش أو فى مقابل الجنيه ، وانى لأعدكم بذلك ! وأتمنى أن أرى ذلك الشخص ، الذى كان أول من أطلعنى على تلك اللعبة الخداعة ، تنهال عليه مصائب الأسى والشقاء والعار قبل أن يلقى حتفه فان هذه اللعبة هى غاية الجد فى نظرى ، وأقول ذلك قسما بايمانى • وهذا هو شعورى الصادق مهما قال الناس فى ذلك الشأن • فأنا بالرغم من كل شقائى وأساى وتعبى وآلامى ، لا أستطيع أن أتخلى عن هذا البحث • وأرجو أن يمنحنى الله الكفاية من الذكاء ، لكى أحكى لكم كل ملابسات هذا الفن وصفاته ، وعلى أية حال فانى سأحاول أن أقص بعض ما يتعلق به • ومادام سيدى قد غادر المكان فلن أكف عن الكلام ، بل سأحكى لكم كل ما أعرفه • لقد قضيت سبع سنين مع هذا القمص ، ومع ذلك لم أقترب من لب علمه بل انى فقدت كل ما كنت أملكه من أموال ، والله يعلم أن كثيرين غيرى قد فقدوا أموالهم كذلك • كنت قبل ذلك قد اعتدت أن أرتدى الملابس الأنيقة الثمينة وأتزين بكل أنواع الحلى ، أما الآن فانى لا أستطيع أن أرتدى سوى قديم أضعه فوق رأسى بدلا من القلنسوة • وكان لون بشرتى ورديا غضا ، وأصبح رصاصيا شاحبا ، وما من شك فى أن من يلجأ لهذه العلوم سيندم على ذلك ، وأن شدة العمل وكثرته جعلتا عينى غائمتين آه ما أشد الخسران فى صفقة محاولة تحويل المعادن الى ذهب ! ان هذه العلوم المنسلة كالثعبان (٨) قد جردتنى من كل ما أملك حتى ان كل أموالى قد استنزفت تماما ، بل انى قد أصبحت مدينا بالذهب ، الذى اقترضته ، ولن أستطيع رده والوفاء بدينى ، الى أن أموت • فليعتبر كل انسان بى ، لأنه اذا بدأ فى أن يتناول هذه العلوم ، واستمر فيها استنزف كل ما لديه من أموال ومدخرات • وقسما بعون الله لن يكون هذا الانسان من الرابحين ، بل ان جيبه سيصبح خاويا ، وعقله سيصبح نحيلا •

وبعد أن يفقد كل أمواله ويضيعها نتيجة لجنونه وحمقه ، سيبدأ فى حث غيره على أن يفعل مثل ما فعله وأن يضيع ما يملكه كما أضاعه هو • على أن الأنذال يبتهجون ، عندما يرون رفاقهم فى شقاء ومرض ، وهذا الدرس لقنه لى أحد القساوسة قديما • ولكن هذا الأمر تكلمت عنه بما فيه الكفاية ، وسأحكى

لكم قليلا عن عملنا . فاينما اعتزمنا أن نباشر فنوننا الخارقة للطبيعة ، كما نبدو غاية فى الحكمة والتبحر فى العلم بسبب عباراتنا الفنية الخاصة والغريبة .

لقد كنت أنفخ فى النار حتى ضعف قلبى من شـدة ما أبذله من جهد . ولماذا أشرح لكم كل النسب الخاصة بالمواد التى نعمل بهـا ؟ قد يكون عملنا منصبا على خمس أو ست آونسات من الفضة ، ولذلك سأشغل نفسى بأن أذكر لكم أسـماء بعض هـذه المواد كالزرنيخ والعظام المحترقة وقشرة الحديد التى تطحن طحنا جيدا ، حتى تصبح مسحوقا ثم توضع فى قدر من الفخار ، ويضاف اليها بعض الملح والورق أيضا فوق هذا المسحوق ، الذى ذكرته لكم . ثم يغطى كل ذلك بلوح من الزجاج ، كما يضاف الى هذا المزيج أشياء كثيرة أخرى ، ثم يغشى القدر ولوح الزجاج بطين أو جص ، حتى لا تنسـاب منهما الأبخرة .

وهل أحدثكم عن النار الهادئة أو النار الشديدة (٩) أيضا ، تلك التى كنا نوقدها ، أو عن الهم والشـقاء اللذين تحملناهما ، فى أثنـاء التصعيد الكيميائى للعناصر التى كنا نعالجها ؟ وهل أحدثكم عن الخلط والاصهار ، اللذين كنا نجربهما على الزئبق ؟ الا أنه بالرغم من كل الحيل والمهارة ، فان تجاربنا لم تنته الى شىء وما كان لدينا من الزرنيخ ومن الزئبق المصعد كيميائيا ومن حجر الفرفير ، كنا نأخذ منه بعض الكميات الموزونة بالآونسات ومع ذلك لم نوفق للوصول الى نتيجة بل ذهب عملنا كله سدى . كما أن الأبخرة المتصاعدة من هذه العناصر والرواسب ، التى كانت تبقى فى قعر القدر لم تساعدنا على الوصول الى ما يساعدنا فى تحقيق غرضنا ، بل ظل كل ما نبذله من جهد كأن لم يكن ، بل ان حياتنا كلها ضاعت وذهبت فى مهب عشرين شيطانا .

وهناك أشـياء أخرى كثيرة تتعلق بأصول علمنا . ومع عدم اسـتطاعتى تلاوتها بالترتيب ، لأننى مجرد رجل جاهل بسيط ، الا أننى سـأقص عليكم هذه الأشياء حسب مثولها فى ذهنى ، ولو أننى لا أعرف كيف أصنفها حسب أصول العلم ، وذلك مثل الصلصال الأحمر (١٠) والزنجار (صدأ النحاس) والبوركس والأوعية المختلفة المصنوعة من الفخار والزجاج والمباول ، التى كنا نحرزها ، وآنية قطرات السوائل والقنينات والبوتقات وأوعية تبخير السوائل والمقطرات والأنابيق وغير ذلك وأمثالها ثمنها ، يفوق المعقول ، ولا داعى لأن أتلو عليكم قائمة كل ما اسـتعملناه ، مثل الميـاه المحولة الى الذهب ، وصفراء الثيران والزرنيخ وماء النشادر وكبريت العمود وأنواع كثيرة من الأعشاب ، مثل زهرة النافث وحشيشة الهر وعشـبة القمر وغيرها ، لو أردت أن أنتظر لأحدثكم عنها . لقد كانت صفائحنا تحترق ليلا ونهارا ، من أجل غرضنا الذى كنا نسعى وراءه .

ويمكننى أن أحدثكم عن موقدنا لصـهر المعـادن والمياه الخاصة بتبييض

المعادن (١١) ، لتحويلها الى فضة ، والجير الكاوى ، والجير المطفأ ، وزلال البيض ، والمسحوقات المختلفة والرماد ، وبراز الحيوانات وبولها ، والصلصال والأكياس المفشاة بالشمع ، وملح البارود ، والزاج (حامض الكبريتيك) ، والنيران المختلفة الناشئة عن الخشب أو الفحم ، وملح الطرطير ، والملح الكيميائى ، وملح الأكل والمواد المحترقة ، والسوائل المجلطة ، والصلصال المخلوط بشعر الخيل أو الانسان ، وزيت زبدة الطرطير ، والشب المبلور ، والخميرة ، وبعض النباتات ، والطرطير ، وزرنيخ ثانى الكبريتيد ، ومواد أخرى للترطيب ، وغيرها للتجميد ، والسائل الذى يضفى الاصفرار على الفضة ، الى جانب ما كنا نعلمه فى سبيل الربط والتخمير ، وما كنا نعالجه من سبائك وأوعية اختبار ، وأكثر من ذلك بكثير وكثير ٠

سأحكى لكم ما لقنته وهو الأبخرة الروحية الأربعة ، والأجساد السبعة حسب ترتيبها ، كما سمعت سيدى يذكرها مرارا ٠ فالروح الأولى تسمى الزئبق ، والثانية الزرنيخ ، والثالثة كما أعلم ، هى ملح النشادر ، والرابعة كبريت العمود ٠ أما الأجساد السبعة فها هى أولا : اننا ندعو الذهب الشمس ، والفضة القمر ، والحديد المريخ ، والزئبق عطارد ، والرصاص زحل ، والصفيح كوكب المشترى ، والنحاس الزهرة ، وأقول ذلك قسما بأقربائى من الأعصاب وأقول أيضا ان من يقدم على مباشرة هذا العلم الملعون لن يجنى منه أية فائدة ولن يعود عليه بأى خير ، لأن كل ما ينفقه فى سبيل هذا العلم سوف يضيع سدى ، ولا يخالجنى شك فى هذا الأمر ٠ واذا كان أحدكم يريد أن يظهر جنونا أو حماقة ، فليتقدم هنا ويتعلم تحويل المعادن الى ذهب ٠

واذا كان هناك انسان يملك شيئا فى خزانته فليمثل أمامنا ويصبح فيلسوفا (١٢) ٠ وليت هذا العلم سهل التعلم للغاية ٠ كلا ثم كلا ، فالله يعلم ان الانسان ، سواء أكان راهبا فى دير ، أم راهبا جوالا ، أم قسيسا أم قمصا ، أم أى شخص آخر لن يجد أية جدوى من ذلك ، حتى لو عكف على كتابه ليلا ونهارا ، فى سبيل تعلم هذا العلم الدقيق الخارق للطبيعة ٠ ولا جدوى أبدا من أن يتعلم رجل جاهل هذه الدقائق ، وكفانا الكلام فى ذلك الأمر ، الذى لن يتحقق أبدا ٠ والواقع أن الشخص سواء أكان متعمقا فى العلوم ، أم لم يكن ، سيجد أن الأمر واحد على كل حال ٠ وأقسم بسعادتى فى الآخرة أن كلا الشخصين سينتهيان بالذهاب الى المرابين ، بعد أن يكونا قد انتهيا من عملهما ٠ وبعبارة أخرى فى كلتا الحالتين لابد من الفشل ٠ ومع ذلك فانى قد نسيت أن أتلو عليكم أمر المياه الأكالة ، وبراد المعادن ، وموضوع تلين الأجسام ، وأيضا تجمدها ، والزيوت وغسل الأجسام فى السوائل ، والمعادن القابلة للانصهار والحق أن تلاوة كل ذلك تفوق محتويات الكتاب المقدس بأسره أينما وجد ٠ ولذلك أرى أن من المصلحة العامة أن أريح نفسى من تلاوة كل هذه الأسماء والمصطلحات

وأنا متأكد أنني رويت لكم في هذا الأمر ما يكفي لاستحضار شيطان ، مهما بلغ شكله من الغلظة فتعالوا نترك هذا الموضوع ، فان كلامنا يبحث عن حجر الفلاسفة المسمى اكسيرا (١٣) ، لأننا لو جدناه لاطمأننا الآن ٠

ومع ذلك فاني أعترف أمام الله رب السموات ، أننا لم نتوصل اليه ، بالرغم من كل علمنا ، وبالرغم من كل ما نفعله ، ونقوم به من خدع وحيل ، ولقد فرض علينا هذا الحجر بذل المزيد من النفقات ، وكدنا نجن حزنا على ما أضعناه ، ولكن الأمل كان يتسلل الينا ثانية ، ويدخل قلوبنا ، ليوهمنا دائما بأننا ، بالرغم من شقائنا المرير ، سوف نفرح في المستقبل ٠ وان مثل هذا الايحاء الذاتي والأمل المتكرر أمر قاس وشاق واني أنذركم أن الأمر المرجو لن يتحقق أبدا ٠ وقد يتحقق مثل هذا الأمل فينا مستقبلا ، وهذا من شأنه أن يجعل الناس يضحون بكل ما يملكون ٠

ومع ذلك فانهم لا يملون التعمق في هذا العلم ، لأنه بمثابة حلوى مرة ، على ما يبدو ، ولو لم يملكوا الا لحافا يلتفون به ليلا ، ومعطفا يرتدونه نهارا لباعوهما لينفقوا على متاهة هذا العلم ٠ اذ أنهم لا يستطيعون أن يكفوا عن العمل حتى يضيعوا آخر ما لديهم من أموال ٠ وهم بعد ذلك ، أينما يذهبون في الدنيا ، يعرفهم الناس من رائحتهم الكبريتية ٠ ويصبحون في اعتبار الناس كريهي الرائحة ، كأنهم من الماعز ٠ ورائحتهم توحي برائحة الكباش ، وهم يفرزون حرارة خانقة ، الى حد أن الانسان ، حتى لو ابتعد عنهم ميلا ، لوثته رائحتهم ، وأرجو أن تثقوا بما أخبركم به ٠

وعلى هذا يسهل التعرف على أمثال هؤلاء برائحتهم النتنة ، وبملابسهم المهلهلة ، واذا اقترب منهم أحد ، وسألهم سرا ، لماذا يرتدون مثل هذه الثياب التعيسة ، همسوا في أذنه وقالوا ، انه لو رآهم أحد ، وتعرف عليهم ، لقتلهم بسبب ما يعرفونه من علوم وما لديهم من معرفة ٠ وعلى ذلك فهؤلاء الناس يخونون سذاجة الناس ، وبراءة المؤمنين على السواء ٠

وعلى أية حال اتركوا هذا الموضوع الآن ، وسأعود الى حكايتي ٠ فقبل أن يوضع القدر على النار ، وفيه بعض المعادن ، يصقلها سيدى ، ولا يفعل ذلك أحد سواه (والآن ، وقد انصرف ، أستطيع أن أجرؤ على الكلام) لأنه على حد قول الناس يستطيع أن يفعل ما يفعل بحذق ودهاء ومع ذلك ، فبالرغم من أنه على جانب كبير من الشهرة ، الا أن الأمر لم يمنعه من أن يتعرض لكثير من النقد واللوم ٠ هل تعرفون كيف كان ذلك ؟ كان القدر كثيرا ما يتهشم ، ثم وداعا لكل ما به ! وهذه المعادن تتفجر بشدة ، لا تصمد لها جدراننا حتى لو كانت قد شيدت بالجص والحجر ٠ اذ أن المعادن المتفجرة كانت تخترقها ، وتنطلق من خلالها ٠ وأحيانا كانت المعادن الذائبة تنغرس في الأرض (وبهذا

نكون قد فقدنا مبالغ كثيرة من الجنيهات) ، وبعضهـا يتبعثر على الأرض هنـا وهناك ، وبعضها ينطلق ليثب حتى السقف ولا شك فى أن الشيطان ، ولو لم يظهر بيننا ، فانه كان معنا ، ولا شك ، ذلك الوغد المقيم فى جهنم حيث يحكم حكم السيد والملك ، وحيث لا يوجد شقاء أشد ، ولا ضغينة ولا غضب أكثر مما كان يوجد عندنا ٠

ولما كان قدرنا يتهشم كما قلت لكم ، كان كل منها يشكو ، ويتذمر ، ويشعر أنه قد أسيئت معاملته ٠ وكان البعض يقول لنا ان القدر قد طالت مدة وضعه على النار ، والبعض كان ينفى ذلك ، ويقول ان السبب فى الفشل يكمن فى طريقة النفخ فى اللهب ٠ وعندئذ صرت خفاء لأن النفخ كان وظيفتى ثم يأتى لنا شخص ثالث ويقول : « ما هذا الا هراء ! أنتم جهال وحمقى ان السبب هو أن المعادن لم تصقل كما يجب » ٠ يقول رابع : « كلا ثم كلا ، كفوا عن الكلام ، وانصتوا الى ، فالسبب هو أن النار لم تذكوها بخشب الزان ، وهذا هو السبب الوحيد وليس غيره ، وأنا واثق من ذلك ثقتى بأنى حى هنا ! » ٠ ولست أدرى ماذا كان السبب الحقيقى ، الا أننى أعرف أن الموضوع كان مثار خلافات شتى بيننا أجمعين ٠ ثم قال سيدى : « ما هذا ! لن يعمل شىء بعد الآن ٠ وسأدرك أنا سبب هذه المشاكل فيما بعد ٠ وانى لواثق أن القدر كان مصدعا ، ومع ذلك فلنترك الأمر كما هو ، ولا تدهشوا ، فخير لنا أن نسير على مادرجنا أن نسير عليه ، ولنكنس الأرضية على وجه السرعة هيا ارفعوا قلوبكم وتشجعوا ، وكونوا سعداء مبتهجين » ٠

وعندئذ كنسـنا القمامة والبرادة أكواما ، ثم وضعنا قماشـا كبيرا على الأرض ، وألقينا بكل الفضلات هذه فى مصفى ، صفيناها والتقطنا منها ما نريد ٠ وصاح أحدنا قائلا : « قسما بالله ، ان بعض ما كان لدينا من المعدن موجود هنا ، ولكنا لم نجده كله ٠ واذا كنا فى الأمر قد فشلنا هذه المرة فاننا قد نوفق فيه مرة أخرى ٠ ولابد لنا أن نستثمر أموالنا الى حد أعمق من ذلك فى مغامرات أكثر خطورة ٠ والله ان التاجر لا يستطيع أن يسـتمر على درجة واحدة من التوفيق وأرجو أن تثقوا بحقيقة ما أقوله ٠ فقد يحدث أحيانا أن تغرق بضائعه فى البحر وقد تعود سلمة الى ميناء أمين » ٠ فقال سيدى عندئذ : « اسكتوا ، أرجوكم ، فانى فى المرة القادمة سأحاول أن أدير سفينتنا بحيث تصل الى خاتمة مختلفة تماما ، واذا لم أوفق فى ذلك ، يا سادتى ، فليكن اللوم على ، لأننى مدرك تماما أن العيب كان كامنا فى احدى مراحل عملنا « وقال آخر ان النار كانت شديدة أكثر مما يجب ٠ ومع ذلك فسواء أكانت النار ساخنة أم فاترة ، أقول اننا كنا دائما نصل الى نتائج خاطئة فى عملنا ٠ وكنا دائما نفشـل فى ادراك ما كنا نريده ، ومع ذلك كان جنوننا يجعلنا فى حالة هذيان مستمر ٠ واذا تصادف أننا (أى أهل العلم) كنا معا ، أصبح كل منا كأنه سـليمان

الحكيم . الا أن الأشياء ، التى تلمع كالذهب ، قد لا تكون ذهبا ، كما سمعت قائلا يقول . وليست كل تفاحة جميلة المنظر لذيذة الطعم ، مهما قال الناس فى ذلك . وهكذا الأمر لدينا . وقسما بالمسيح من يبدو منا أكثر حكمة لا شك أنه أكثرنا حماقة عند الاختبار ومن يبدو أكثر أمانة ووفاء هو لص حتما . وستعلمون ذلك بكل حذافيره قبل أن أغادركم ، وتدركونه من خلال قصتى ، قبل أن أختمها .

حكاية خادم القمص

هناك قمص فى الكنيسة ، يقيم بيننا ، يستطيع أن يلوث مدينة بأسرها ، حتى لو كانت فى حجم نينوة وروما والاسكندرية وطروادة وثلاث مدن أخرى اذ أن خداعه وغدره الذى لا حد له لا يستطيع أى انسان أن يوفيهما حقهما من الوصف فى اعتقادى ، حتى لو عاش ألف سنة . فهو لا نظير له فى الغش والخيانة فى العالم كله . اذ أنه يستطيع أن يلتوى ويتقعر فى مصطلحاته وألفاظه ، وأن يتفوه بكلام بالغ الدهاء ، عندما يكون فى رفقة أحد من الناس ، الى حد يجعله مخدوعا تماما ، الا اذا كان هذا الانسان من أهل الجن مثله . وكم من الرجال خدعهم ، قبل الآن ، وكم منهم سيخدع ، اذا طال عمره ، ومع ذلك فان الناس يمتطون جيادهم ويسافرون أميالا كثيرة ، لزيارته والتعرف عليه ، وذلك لجهلهم بسلوكه الغادر . واذا كانت رغبتكم أن تستمعوا الى ، فسأحكى لكم قصته هنا أمامكم ومع ذلك ، يا أحبار الكنيسة المحترمين (١٤) ، لا تظنوا أننى أريد أن أفترى على منزلتكم الوقورة ، حتى لو كانت قصتى تخص قمصا من بينكم ، فان فى كل طائفة من الناس من هو وغد وانى أقسم بالله ألا يسمح لسائر طائفة أو جماعة بأن تدفع ثمن حماقة شخص واحد من بينها . وليس فى نيتى أن أفترى عليكم ، بل أن أصحح أى خطأ ، وأن أقوم أى اعوجاج وهذه القصة لم تقص من أجلكم فحسب ، بل أكثر من ذلك لاصلاح الغير . وأنتم تعرفون حق المعرفة أن من بين تلاميذ المسيح الاثنى عشر لم يوجد خائن غدار سوى واحد فقط هو يهوذا نفسه . ولماذا اذن نلوم الباقين مع أنهم من الاثم أبرياء ؟ وأقول لكم القول نفسه اذا ما أنصتم الى وهذا هو قولى : اذا كان بينكم فى الدير أحد مثل يهوذا فاطردوه طردا فى أقرب وقت ، وهذه نصيحتى لكم ، قبل أن ينزل بكم عار أو ضياع . وأرجو ألا يخالجكم أسى أو غضب ، بل انصتوا الى فى هذا الموضوع .

كان يقيم فى مدينة لندن قسيس ، وظيفته أن يقيم القداسات السنوية السنوية فى ذكرى الموتى ، وكان قد عاش سنين طويلة فى لندن ، وكان دائما يسلك سلوكا ظريفا خدوما مع أرملة الميت ، خاصة وهى جالسة الى المائدة ، حتى انها كانت لا تسمح له بأن يدفع شيئا فى سبيل الاقامة أو الملبس ، الأمر الذى كان يجعله يبدو فى خير مظهر وكان لديه ما يكفيه من النقود الفضية للانفاق على نفسه • ولا داعى للتحدث عن كل ذلك الآن ، بل سأستمر فى الكلام ، وأقص حكايتى عن القمص ، تلك الحكاية ، التى أدت الى ضياعه وخرابه •

وجاء هذا القمص ذات يوم الى حجرة أحد القساوسة ، ورجاه أن يقرضه مبلغا من الذهب ، على أن يرده له فيما بعد ، وقال : « اقرضنى ماركا (١٥) لمدة ثلاثة أيام لا غير ، وسأرده لك فى الموعد المحدد • واذا حدث أن وجدتنى غير أمين ، فلك أن تعلقنى على المشنقة » • فأعطاه القسيس ماركا فى الحال ، وشكره القمص على ذلك جزيل الشكر ، ثم استأذن منه ، وانصرف • وفى اليوم الثالث عاد اليه وأحضر المبلغ المذكور ، ورد الذهب الى القسيس ، الأمر الذى جعل هذا القسيس يسعد للغاية • ثم قال له : « لا شك يا سيدى أننى لا أغضب ، لو أقرضت شخصا دينارا أو دينارين أو ثلاثة دنانير أو أى مبلغ ، يكون فى حيازتى خاصة اذا كان أمينا على عهده ، يحترم أجل دينه • فان مثل هؤلاء الرجال لا أستطيع أبدا أن أرفض لهم طلبا » •

فقال القمص عندئذ : « ماذا تقول ؟ أتعتقد أننى أستطيع أن أخون وعدى ؟ كلا ثم كلا ، هذا أمر مستحيل للغاية • ان الوفاء بوعدى أمر أحافظ عليه دائما ، حتى اليوم ، الذى سأحبو فيه الى القبر ، ولا سمح الله أن أفعل غير ذلك • أرجو أن تصدقنى فى ذلك تصديقك لقانون الايمان نفسه • وأشكر الله ، وأود أن أقول ذلك فى الوقت المناسب ، وهو أنه لا يوجد انسان لقى الشر فى سبيل قدر من الذهب أو الفضة اقرضه لى ، لأننى لم أنو وأبدا أن أغدر بأحد » • ثم استطرد قائلا : « والآن يا سيدى ، بيننا وبين بعض ، ما دمت معى طيبا وكريما ، ومادمت قد أبديت لى مثل هذه العواطف الخيرة ، اسمحوا لى أن أحاول مقابلة طيبتكم بمثلها ، فأصارحكم بأمر ما ، واذا كنت مستعدا للاستماع الى فسوف أحاول أن أعلمكم بوضوح كيف أعمل فى علوم السيمياء ، فكن واعيا ، وانصت لما أقوله ، سترى بعينيك أننى سأقوم بعمل عظيم ، قبل أن أنصرف » •

فقال القسيس : « أجل وأجل يا سيدى ، وهل ستفعل ذلك بالفعل ؟ وقسما بالعذراء مريم أكون شاكرا لو فعلتم ذلك » فقال القمص : « يا سيدى أنا تحت أمرك تماما ، والا لسمح الله » • انظروا كيف استطاع هذا اللص أن يقدم خدماته وكما كانوا يقولون ، لا شك أن مثل هذه العروض مثيرة للشك • ومن الأمور المقررة أيضا أن هذا القمص كان يضمر خططا ملعونة فى قلبه ،

ليوقع الخراب بالناس الطيبين · وسأستطيع بعد قليل أن أبرهن على صحة ذلك فى حالة هذا القمص ، مصدر كل غدر ، ذلك الذى يجد لذة بل بهجة (لأن مثل هذه الأفكار الشيطانية قد غرست فى نفسه) فى ابتكار طرق لجلب المصائب على شعب المسيح · وصاننا الله من ريائه الخائن الشرير ·

ولم يفطن القسيس الى حقيقة الشخص الذى كان يتعامل معه ، ولم يدرك احتمال اصابته بأى أذى أو شر منه · يا أيها القسيس الساذج التعيس ! يا أيها البرىء المسكين ! ستكون قريبا ضحية الفهم والجشع · يا أيها القلب القاسى ما أكثر عمى تفكيرك ، فأنت لا تعى أصلا مدى الخداع ، الذى يدبره لك هذا الثعلب الخبيث · ولن تستطيع الهروب من حيله اللئيمة · لذلك وحتى نصل الى خاتمة كلا منا ، الذى يتناول موضوع هلاكك ، سأبادر ، يا أيها الرجل التعيس ، بالحدث عن أقصى مدى وصلت اليه حماقتك وسذاجتك وعن قدر ذلك الوغد الآخر أيضا ، الى أبعد حدود قدرتى على معرفتى بذلك ·

هل تظنون أيها الناس أن هذا القمص هو نفس سيدى ؟ أقسم بايمانى يا سيدى المضيف ، بل أقسم بملكة السموات العذراء مريم ، أن موضوع قصتى قمص آخر ، وليس سيدى ، الذى يضمر فنونا من الخداع تفوق ذلك مائة مرة ، فكم من مرة غدر بالناس وخدعهم ، الا أننى أمل النظم فى موضوع أعماله الغدارة · فكلما تحدثت عن كذبه وخداعه ، يتورد خداى خجلا مما أقوله — أو بعبارة أدق يشرع خداى فى التورد ، لأننى أعرف تماما أنهما لا يتحملان أية قطرة من التورد · اذ أن الأبخرة المختلفة المتصاعدة من المعادن ، التى سمعتونى أتكلم عنها مرارا ، قد استهلكت كل قابلية للتورد فى وجهى وأذبلتها · أما الآن ، فانصتوا الى حكاية أعمال القمص اللعينة ·

لقد قال للقسيس : « يا سيدى دع خادمك يخرج ، ليشترى بعض الزئبق ، حتى يكون تحت تصرفنا ، وتأكد من أن يكون قد أحضر لنا آونسين أو ثلاثة من ذلك · وحالما يعود لنا سترى أمرا خارقا للطبيعة ، لم تره من قبل » · فقال القسيس : « سمعا وطاعة يا سيدى » · ثم أمر خادمه بأن يحضر ذلك الشىء المذكور ، ونهض الخادم ، وأسرع الى القيام بما طلب منه ، وذهب ، ثم عاد ومعه بعض الزئبق ، أى ثلاث آونسات منه ، وأحضرها للقمص ، فوضعها القمص على المنضدة أمامه ، حسب الأصول ، ثم أمر الخادم بأن يحضر له بضع قطع من الفحم ، حتى يستطيع الشروع فى أعماله · وقد أحضرت جمرات الفحم بالفعل ، ثم أخرج القمص بوتقة من جعبته المعلقة بصدره ، وعرضها على القسيس قائلا : « هذه الآلة التى ترونها ، خذوها فى أيديكم ، وضعوا بأنفسكم آونسة واحدة من هذا الزئبق ، وعندئذ ستشرع باسم المسيح الحى فى أن تصبح علما بالسيميا · وانهم لقليلون حقا هؤلاء الذين أكون على استعداد ، لاظهار هذا المقدار من علمى أمامهم · وستشهدون هنا بالاختبار المباشر ، أننى سأحول هذا

الزئبق الى فضة أمام أعينكم ، وهذا هو الحق تماما ، وسيصبح فضة من نوع رفيع وجيد ، بقدر ما هو الآن فى جيبى وجيبك ، أو فى أى مكان آخر وسيكون طبعا مثله ٠

واذا لم أنجح فى ذلك ، فاعتبرونى كاذبا غدارا ، وغير أهل بأن أمثل بين الناس من الآن الى الأبد ٠ وعندى هنا مسحوق (١٦) ، كلفنى كثيرا ، يستطيع أن يوجد كل الأشياء المفيدة ، لأنه سبب كل معلوماتى التى سأعرضها عليكم ٠ أرسل اذن خادمك يا سيدى القسيس ودعه ينتظر خارج البيت ، أثناء قيامنا بأعمالنا السرية ، حتى لا يرانا أحد ، ونحن نعمل ما نعمل من تجارب السيمياء وكل ما أمر به نفذ فى الحال وخرج الخادم ، وأغلق سيده الباب وراءه ، وانصرف القمص والقسيس فى الحال الى القيام بأعمالهما ، التى ذكرتها لكم ٠ فأخذ القسيس (نزولا على أوامر القمص اللعين) يضع تلك المادة على النار ، ثم نفخ فى اللهب ، وشغل نفسه بأعمال شتى على وجه السرعة ٠

أما القمص فسكب مسحوقا فى البوتقة ، لم أعرف مم كان يتكون ، فقد يكون من الطباشير ، أو من الزجاج ، أو من أى شىء آخر تافه لا قيمة له ، الا أنه أفاد فى أن يعمى القسيس عن رؤية الواقع ٠ ثم أمره بأن يبادر بوضع جمرات الفحم على البوتقة من فوقها ٠ ثم قال القمص : « سأقدم لكم دليلا بينا على حبى لكم ، اذ ستقوم يداك الاثنتان بالعمل فى التجارب التى سنجريها هنا » فقال القسيس : « أشكرك شكرا جزيلا » وكان سعيدا للغاية ، ثم وضع جمرات الفحم على نحو ما قال له القمص ٠ وبينما كان يعمل هكذا قام ذلك الوغد الشيطانى ، ذلك القمص الكاذب (خطفه الشيطان الى جواره) باخراج قطعة فحم من خشب الزان من جعبة فى صدره حيث كان قد فجر ثقبا بمهارة بالغة ، ووضع فيه آونسة من برادة الفضة ، ثم سده بالشمع حتى تبقى البرادة بداخله ٠ ويجب أن تفهموا أن هذه الأداة الخادعة لم تكن معدة وقت التجربة ، وانما أعدت مسبقا ٠ وسأحكى لكم عن أشياء أخرى أحضرها معه كذلك ٠ وقبل أن يحضر الى القسيس كان القمص قد قرر أن يخدعه ، وهذا ما فعله بالفعل ، قبل أن يفترقا ، ولم يهدأ له بال ، حتى جرده من كل أمواله ٠ ويذهلنى دائما كلما تكلمت عنه ٠ ولى رغبة قوية أن أثأر من غدره المطبق ، لو أننى أعرف كيف أقدم على ذلك ، الا أنه هنا الآن وهناك بعد ذلك ، ولأنه كثير التغير والتقلب ، وكأنه لا يقيم فى أى مكان ٠ ومع ذلك ، يا سادتى ، انصتوا لى ، بمحبة الله : لقد أخذ قطعة الفحم التى ذكرتها لكم ، وأخذها معه سرا ٠ وبينما كان القسيس يضع الفحم على البوتقة ، كما قلت لكم ، من قبل ، قال له القمص : « ياصديقى انك تخطىء العمل ، فليست هذه الجمرات موضوعة كما يجب ، الا أننى سأصحح الوضع فى الحال ، فدعنى أتدخل قليلا ، لأننى أشفقت عليك ، قسما بالقديس « ايجيديوس » (١٧) فانت تشقى من الحر ، وأرى ذلك جيدا لكثرة

عرقك. فخذ هذه القطعة من الجوخ ، وامسح وجهك من العرق » . وبينما كان القسيس يمسح وجهه أخذ القمص قطعة الفحم (لعنة الله عليه !) ووضعها فى وسط القطع الأخرى فوق البوتقة نفخ فيها نفخا شديدا ، حتى أخذت الجمرات كلها تحترق فى وقت واحد .

ثم قال القمص للقسيس : « والآن اعطنا شرابا ، وأنا أضمن أن كل شيء سيكون على خير ما يرام ، فلنجلس اذن ولنله معا » . ولما احترقت جمرة القمص من خشب الزان ، سقطت منها كل البرادة الى قدر البوتقة : وهذا ما كان لابد أن يحدث منطقيا ، لأنه كان موضوعا فوقه وضعا سويا . ولكن القسيس لم يعرف شيئا عن ذلك ، ويلاه اذ كان يتصور أن كل الجمرات على درجة واحدة من الجودة ، لأنه لم يدرك شيئا ما عن هـذه الحيلة الخادعة . ولما رأى عالم السيمياء أن الوقت مناسب صاح قائلا : « انهض يا سيدى القسيس ، وقف الى جانبى ، وبما أننى أعلم أنك لا تملك سبيكة ما ، أقول لك اذهب واحضر لى حجرا جيريا ، لأننى سأشكله على هيئة سبيكة ، اذا سنحت لى الفرصة لذلك واحضر أيضا معك طاسة ، أو بقلاة مليئة بالماء ، وعندئذ سترى كيف أننا سنوفق فى عملنا . وحتى لا ترتاب فى الأمر ولا يخالجك انطباع خاطىء عنى ، أثناء غيابى ، فلن أغيب عنك دقيقة واحـدة بل سـأذهب معك ثم أعود معك أيضـا » . وخلاصـة الأمر أنهما فتحا باب الحجرة ثم أغلقاه ، ومضـيـنا فى طريقهما ، وأخذا معهما مفتاح الباب ، ثم عادا الى الحجرة من غير تأخير . ولماذا أتلكأ طوال اليوم فى رواية قصـتى ؟ أعود الى موضـوعى، وأقول انه أخـذ الطباشير ، وشكله على هيئة سبيكة ، كما سأحكى لكم . ثم أقول لكم انه أخرج من كمه صفيحة رقيقة من الفضة ، (أساء الله آخرته !) لم تزد عن آونسـة واحدة وزنا . وانتبهوا الآن لحيلته الملعونة . لقد شكل السبيكة طولا وعرضا من هذه الصفيحة المذكورة ، دون تردد ، وفعل ذلك خلسـة ، حتى لا يرى القسيس شيئا من ذلك ، ثم أخفاه فى كمه ثانية ، وأخذ المادة المذكورة من النار ، وأدخلها فى السبيكة بروح خفيفة مرحة ، ثم ألقى بها فى الاناء المخصص للماء ، فى الوقت الذى راق له ، وأمر القسيس بأن يفعل مثلما فعل ، وقال له : « انظر ما فيه ، وأدخل يدك فى الاناء ، وتلمس طريقك فى داخله ، وأرجو أن تجد فيه بعض الفضة » .

وعلى أية حال فماذا يمكن أن يكون ذلك ، قسما بالشـيطان فى جهنم ، فبرادة الفضة فضة ولا شك فى ذلك . ووضع القسيس يده فى الاناء ، وأخرج صفيحة من الفضة الرفيعة ، وأصبح مسرورا بكل خلجات نفسه ، عندما رأى ما رأى . ثم صاح قائلا : « عليك بركات الله والعذراء أم المسيح وجميع القديسين يا سيدى القمص . وبما أنك قد تفضلت بأن تعلمنى هذا العلم ، فأنا فى خدمتك بكل ما أملك من قوى » . ثم قال القمص : « بل وانى سأجرى هذه التجربة

مرة ثانية ، حتى تلاحظوا أسرارها وكيفية القيام بهدا ، فاذا احتجت لمثل هذه التجارب مرة ثانيةاستطعت أن تقوم وحدك وفى غيابى ستحاول أن تطبق هذا العلم وأصول هذه المادة المعقدة • فعليك عندئذ أن تأخذ آونسا آخر من الزئبق من غير مزيد من الكلام ، وأن تعمل به ما فعلنا هنا بالآونس الآخر ، الذى تحول الى فضة » •

فشغل القسيس نفسه الى أقصى حد كما أمره بذلك القمص الملعون ، ونفخ فى النار بكل أنفاسه ، حتى يحقق رغبته • وبينما كان القسيس يعمل على هذا النحو ، كان القمص يستعد لخداعه ، وأمسك فى يده بعصا جوفاء (انصتوا الى وانتبهوا !) وفى طرفها آونس من بردة الفضة لا غير ، مثلما كان قد وضعه من قبل فى الفحم ، وكان طرف العصا مبرشما بالشمع ، حتى تحفظ فيه البرادة خير حفظ • وبينما كان القسيس يعمل مجتهدا ، أخذ القمص يسكب المسحوق فى البوتقة ، كما كان قد فعل من قبل (عاقبه الله من أجل غدره ، فما أشده غدرا فى أفعاله وأفكاره دائما !) ثم أخذ يحرك الفحم بعصاه من فوق البوتقة حتى بدأ الشمع ينصهر فى النار كما يمكن أن يتوقع ذلك أى انسان مهما بلغ من الجهل والبلاهة فانهمر ما فى جوف العصا فى البوتقة بنفس السرعة •

والآن ياسادتى المحترمين ماذا كان يمكن أن تجدوه أكثر احتمالا ؟ لقد خدع هـذا القسيس للمرة الثـانية ، اعتقادا منه أن كل ما يدور هو الحقيقة المطلقة ، بل انه سعد سعادة كبرى ، حتى اننى لا أعرف كيف أصف لكم بهجته وسعادته • ثم عرض على القمص بعد ذلك كل ما يملكه من أموال وخدمات • فأجابه هذا القمص قائلا : « أجل أجل ، فانك ستجدنى متبحرا فى هذا العلم ، ولو أنى فقير مع ذلك • وانى أخبرك أن علمى يتسع لأكثر مما شاهدته • فهل لديك هنا بعض النحاس ؟ » فقال القسيس : « نعم انى متأكد أنه لابد أن هنا بعض النحاس » فقال القمص : « والا فاذهب ، واشتر بعض النحاس على وجه السرعة ، هيا اذن وأسرع » •

فخرج القسيس ، وأحضر معه بعض النحاس ، فأخذه منه القمص وأمسك به فى يديه ووزن منه آونسا واحدا لا أكثر • وان لسانى أعجز من أن يعبر عما يضمره عقلى بخصوص رياء القمص ، أصل كل اللعنات • لقد كان يبدو أنيسا لمن لا يعرفه جيدا ، الا أنه كان شيطانيا فى أفكاره وأعماله على حد سواء وانى آمل أن أحكى عن ريائه ، ومع ذلك سأقول لكم عنه بعض الشىء لكى يعتبر الناس مما أقوله لا لأى سبب آخر حقيقة •

لقد وضع آونس النحاس فى البوتقة ، ووضعها فى الحال على النار ، وسكب فيها بعض المسحوق أيضا ، وجعل القسـيس ينفخ ، وأجبره على أن ينحنى فوق البوتقة ، كما كان قد جعله يفعل من قبل • ولكن ذلك كله لم يكن

الا خدعة وحيلة فقد استكرد القسيس كما أراد ثم وضع المادة فى السبيكة ، وأخيرا وضع الكل فى مقلاة من الماء ، ووضع فيها يده ، علما بأنه كان لديه فى كمه صفيحة رقيقة من الفضة (كما سمعتمونى أقص عليكم قبل الآن) فأخرجها خلسة ذلك الوغد اللعين ، دون أن يفطن القسيس لهذه الحيلة . ثم تركها فى قعر المقلاة ، وتحسس فى الماء هنا وهناك ، وبطريقة سرية عجيبة أخذ الصفيحة النحاسية من حيث لا يدرى القسيس ، وأخفاها ، ثم أمسكه من صدره — حدثه قائلا وهو يمزح : « انحن ، أستحلفك بالله ، وأنت مسئول عن نفسك ، ساعدنى الآن ، كما ساعدتك من قبل ، وادخل يدك فى البوتقة واخرج ما بها » . فأخرج القسيس قطعة الفضة بعد قليل ، ثم قال للقمص : « فلنذهب اذن ، ومعنا هذه القطع الثلاث التى صنعناها ، ونعرضها على صائغ ما ، لكى نعرف ما اذا كانت صحيحة أم لا . لأننى أقسم بايمانى اننى لا أرضى الا أن تكون قطعا من الفضة الرفيعة ، ولابد أن يقام البرهان على ذلك فى القريب العاجل » .

وذهبا الى الصائغ بقطعهما الثلاث ، وأجريا التجارب عليها بالنار والمطرقة ، ولم يستطع أحد من الحاضرين أن ينكر أنها من الفضة الخالصة كما يجب أن تكون . أما هذا القسيس الأحمق فمن يفوقه بهجة وسرورا ؟ ما كان أبهج منه طائر ، عند انبلاج النهار ، ولا بلبل فى فصل الربيع فى شهر مايو ، ولم يوجد أحد أكثر استعداد للانشاد سرورا ، ولا سيدة أكثر استعدادا للرقص والغناء فى آن واحد أو (اذا تكلمنا عن الحب وسيادة المرأة) لم يوجد فارس مسلح أكثر استعدادا للقيام بمآثر مجيدة ، بغية احراز محبة سيدة قلبه العزيزة ، ولم يوجد أحد أكثر سعادة من هذا القسيس ، وأكثر رغبة فى تعلم أصول الفن والتفت للقمص وقال له : « أستحلفك بمحبة الله وبالمسيح ، الذى مات فى سبيلنا ، أن تقول لى ما ثمن هذه الوصفة السرية ؟ قل لى الآن ! » فقال القمص : « قسما بالسيدة العذراء ثمنها غال ، وأنذرك بذلك ، لأنه لا يوجد أحد فى كل انجلترا سواى ، وسوى راهب واحد ، يستطيع أن يفعل ما فعلته من أجلك » فقال القسيس : « لا بأس ، والآن يا سيدى استحلفك بالله أن تقول لى ماذا على أن أدفع لك ؟ قل لى أتوسل اليك ! » . فقال : « حقيقة الثمن باهظ ولا شك . وأقول لك يا سيدى باختصار انك ، اذا أردت أن تحصل عليه ، فلابد أن تدفع لى أربعين جنيها (١٨) قسما بالله مخلصنا . ولولا صداقتنا والخدمة ، التى قمت بها نحوى ، لدفعت أكثر بكثير من غير شك » .

فأحضر القسيس المبلغ المقدر ، وهو أربعون جنيها ، وأعطاها كلها للقمص فى مقابل وصفته السرية . ما أكثر أعماله كلها خداعا وغدرا ! وقال : « ياسيدى القسيس ، انى لا أبحث عن المجد ، ولا الشهرة فى مقابل ما أعرفه من فنون سرية ، لأننى ميال الى أن أكتم سرى هذا . ولذلك أرجو ، ان كنت تحبنى

حقا ، أن تحافظ على سرى • ذلك لأن الناس لو عرفوا أسرار ما أعرفه لحسدونى حسدا بالغا قسما بالله ، ولحقدوا على معرفتى للسيمياء حتى أسقط قتيلا ، ولا سبيل آخر غير ذلك » •

فقال القسيس : « لا سمح الله ! ماذا تقول ؟ اننى أوثر أن أنفق كل ما عندى من مال ، قبل أن يلحقك أى ضرر أو أذى ، والا أصابنى الجنون ، حقا » • فقال القمص : « انك قد أبديت من حسن النية ما فيه الكفاية ياسيدى • فأستودعك الله ، وأشكرك شكرا جزيلا » • ومضى فى طريقه ولم يره القسيس بعد اليوم • وكلما حاول هذا القسيس أن يجرى تجربة للوصفة ، التى حصل عليها ، لم ينجح • وعلى هذا النحو خدع وغرر به ! وعلى هذا النحو كان يعد المقدمات لكى ينزل بالناس الدمار والمصائب شتى •

اعتبروا اذن يا سادتى ، واعلموا أن فى كل طائفة من الناس ، وفى كل طبقة ، يوجد حوار حاد بين الناس وبين المذهب ، الى حد أنه يكاد لا يبقى شىء من المال بعد ذلك • وان هذه التجارب فى تحويل المعادن الى ذهب قد خدعت الكثيرين ، الأمر الذى يجعلنى أعتقد أن هذه التجارب بالذات هى سبب ندرته • فان علماء السيمياء يتكلمون عن علمهم بدرجة من الابهام ، بحيث لا يستطيع الناس أن يفهموا مرادهم ، الأمر الذى يؤدى الى ألا يستطيع أحد أن يقف على حقيقة أمره فى يومنا هذا • فكل ما يصنعون هو أن يثرثروا مثل طائر أبو زريق ، ثم يضعوا كل ثقتهم فى المصطلحات الجوفاء ، والعبارات الرنانة ، ومع ذلك فانهم لن يصلوا أبدا الى تحقيق أغراضهم • فالانسان يستطيع أن يعطى دروسا بسهولة اذا كان لديه مال ، حتى يعلم غيره تحويل المعدن البخس الى ذهب خالص ، ولكن نتيجة هذه الدروس هى ضياع كل ما لديه •

وان هذه اللعبة المرحة فيها أمل فى كسب المال الى درجة أن سكينة الانسان النفسية تتحول حتما الى أسى وقلق ، وهى قادرة على أن تفرغ الأكياس الكبيرة والصغيرة على حد السواء ، بحيث لا يجنى الانسان ممن اقترض منهم بعض المال سوى اللعنات والشتائم • ويلاهم ، ويا للعار ، ألا يستطيع من احترق فى النار أن يتجنب لهيبها مرة أخرى ؟ يا أيها الذين يجأون الى هذه الحيل أنصحكم أن تهجروها ، حتى لا تضيعوا كل شىء ، فخير لكم أن تعتبروا متأخرين من ألا تعتبروا أبدا • وألا يوفق الانسان أبدا يستغرق زمنا أطول مما يحتمل • ومهما تجولتم فى الدنيا فلن تجدوه أبدا ، فأنتم جريئون جراءة الحصان « بايار » (١٩) الكفيف ، الذى كان يتقدم ولا يبالى بالمخاطر • فهو يجرؤ على الجرى فى مواجهة صخرة بدلا من أن يتجنب العقبات فى الطريق •

وأقول لكم يا من تحاولون تحويل المعادن الى ذهب انكم تفعلون تماما ما يفعله ذلك الحصان • فاذا كانت أبصاركم لا ترى على نحو سليم فصونوا

بصيرتكم من أن تغيب عنكم . وحتى لو أبقيتم عيونكم مفتوحة فلن تربحوا فى مثل هذه الصفقات بل ستخسرون كل ما تقبضون عليه وتمسكون به . فخففوا من شدة النار حتى لا تحترقوا بها . وأقصد من ذلك ألا تدفعوا بأنفسكم فى هذا الفن الباطل ، والا خسرتم كل ما تملكون وسأحكى لكم فى الحال رأى الفلاسفة فى هذا الموضوع .

فاليكم ما يقوله « آرنولدوس دى فيلا نوفا » (٢٠) فى كتابه « السبحة » :

« لا يستطيع الانسان أن ينقص من الزئبق الا وعرف أخوه ماذا يفعل » . ان أول من قال ذلك هو « هرميس » أبو الفلاسفة أجمعين (٢١) الذى أكد أن التنين لا يقتل الا لو قتل مع أخيه ، وكان يقصد من وراء ذلك أن التنين هو رمز الزئبق (٢٢) وأن الكبريت هو أخوه ، وأنهما وليدا ربى الشمس والقمر (٢٣) . وقال بهذه المناسبة : « وانتبهوا بهذه المناسبة الى قولى ان الانسان يجب ألا يشغل نفسه فى البحث عن أصول هذا الفن ، الا لو كان يدرك تماما معنى أغراض السيميائين ومصطلحاتهم .واذا فهمها فهو مع ذلك من أجهل الجاهلين ، لأن هذا العلم وأصول هذا الفن ، ما هى الا سر الأسرار (٢٤) قسما بالله » . وكان هناك أيضا أحد تلاميذ أفلاطون الذى قال لمعلمه كما يشهد بذلك كتاب « سنيور » (٢٥) ما يلى حرفيا : « قل لى ما اسم الحجر السرى ؟ » فأجابه أفلاطون قائلا : « خذ الحجر الذى يسميه الناس « تيتانوس » (أى حجر الشمس) . فسأله الطالب : « وما هو هذا الحجر ؟ » . فقال أفلاطون : » وله اسم آخر هو « ماجنازيا » . فقال الطالب : « حسنا يا سيدى أهذا هو الاسم ؟ أليس هذا التفسير تفسير المجهول بما هو مجهول أكثر منه ؟ فقل لى يا سيدى المحترم ما هى « الماجنازيا » ؟ . فأجابه أفلاطون قائلا : « انه سائل يتكون من العناصر الأربعة . فسأل الطالب ثانيا : « قل لى اذن يا سيدى الفاضل ما هو أصل ذلك السائل لو تفضلت بذلك » فقال أفلاطون : « كلا ثم كلا ، تأكد أننى لن أقول لك ذلك فقد أقسم كل علماء السيمياء ألا يكشفوا سره لأحد ، وألا يكتبوا فى هذا الأمر فى أى كتاب . والسبب أن سيدنا المسيح يهمه بصفة خاصة ألا يكشف الستار عن هذا السر ، الا اذا شاء الله أن يلهم أحدا من الناس أو الا اذا أراد الله أن يحمى بهذا السر أحدا ممن يحبهم . وبهذا أقول لكم ان هذا هو الغرض الأصلى من كل الأمر » .

ولذلك أختم كلامى على النحو التالى وهو أنه مادام الله رب السموات لا يشاء أن يذكر علماء السيمياء من الفلاسفة كيف يستطيع الانسان أن يصل الى سر الاكسير وحجر الفلاسفة ، انصح وأقول ان من المصلحة العامة أن تتركوا الأمر على ما فيه . فمن يجعل من الله عدوا ، بحيث يأتى بأمر يتنافى مع الارادة الالهية فلن يوفق أبدا فى حياته ، حتى لو عاش حياة طويلة وأنجب سلالة غزيرة . وهذا هو آخر قصدى وآخر كلامى ، لأن حكايتى قد انتهت . وليكافىء الله كل انسان مخلص بما يخفف عنه ثقل شقائه فى الدنيا .

هوامش حكاية خادم القمص

(١) **حكاية خادم القمص** : أطلقنا على الكاهن ، الذى يشغل وظيفة **canon** بالانجليزية او **Chanoine** (بالفرنسية) اسم « القمص » ، المستعمل فى الكنيسة الشرقية الناطقة بالعربية عامة والقبطية خاصة ويلاحظ أن القواميس تترجم هذا المصطلح « بالكاهن القانونى » وهذه وظيفة غير معروفة فى الكنائس الشرقية • ولكن يجب أن نحدد معنى ال **Canon** أولا • فهو على وجه الدقة قسيس ، يعيش ضمن مجموعة من القسس ، بجوار كاتدرائية ويكون قد تخلى عن الملكية الخاصة ، وقرر أن ينظم حياته وفقا لشرائع **canons** الكنيسة • وكان مثل هذا الكاهن يسمى « بالقمص المنتظم » **(Canon regular)** ولكن بعض هؤلاء الكهنة كانوا يعملون فى الأبرشيات العادية أو مدرسين بالمدارس ، التى تديرها الكنيسة ، وكان يحق لهم فى هذه الحالة أن يعيشوا وحدهم منفردين ، وأن يمتلكوا بعض الملكية الفردية • وكل كاهن من هؤلاء كان يسمى « بالقمص المختص بأمور الحياة الدنيا » **Canon secular** ويبدو أن القمص ، الذى فاجأ جماعة الحجاج فى بداية هذه الحكاية ، هو من هذا النوع الأخير • أما كلمة **yeoman** فمعناها التابع (خاصة فى النظام الاقطاعى ، لأحد الفرسان) ، الذى لا يعتبر رقيقا للأرض ، بل يعمل حرا وباختياره • ولكن المعنى المقصود هنا هو مجرد خادم أو مساعد (فى العمل) •

يبدو أن هذه الحكاية جاءت فى آخر حياة تشوسر الأدبية ، ولم تكن مقصودة فى الخطة الأولى « لحكاية كانتربرى » الا أنه لا القمص ولا خادمه جاءا فى المقدمة العامة ، حيث ورد وصف كل الحجاج • ولكى يعطى تشوسر مكانا طبيعيا لهذه الحكاية جعل القمص وخادمه يلحقان القافلة فجأة ، ومن غير سبق انذار • الا أن البيت الأول من مقدمة الحكاية يوحى بموضعها فى التسلسل القصصى ، اذ تذكر القديسة سيسيليا موضوع حكاية الراهبة الثانية • ويمكن القول ان هذه الحكاية تنقسم الى ثلاثة أقسام فالأول يشمل المقدمة ، التى تنقسم بدورها الى جزءين ، الجزء الأول، الذى يصف مجىء القمص وخادمه ثم هروب القمص ووصف الخادم لحياته مع القمص (وقد شمل الجزءان ما أسميناه بالمقدمة ، ولو أن بعض الطبعات والمخطوطات تنهى المقدمة عند البيت ١٦٦) • أما القسم الثانى فيبدأ من البيت ٤١٩ حتى البيت ٨٣٤ ، ويشمل الحكاية بالذات • ثم يختم ذلك القسم الثالث من البيت ٨٣٥ حتى النهاية ، حيث تتغير صفة الراوى من مجرد خادم ساذج مظلوم الى شخصية ، تتميز بالعلم الغزيز والحكمة المستندة الى مصادر علمية متعمقة فالخاتمة شبه مستقلة عن الحكاية ، وتعبر عن رأى الشاعر نفسه فى الفرق بين السيمياء الحلال ، والسيمياء الحرام ، وبين دور الانسان ودور الله فى الخليقة وبذلك تعطى الخاتمة الصفة الفلسفية الطريفة ، التى تحدد الفرق بين الدجال والمؤمن الحق • أما عن مصادر الحكاية فلا يوجد مصدر معين بالذات الا أن الحكايات التى كانت تتناول دجل أهل الدين خاصة فيما يتعلق بالبحث عن أكسير الحياة وحجر الفلاسفة كانت منتشرة طوال العصور الوسطى • واذا بحثنا عن حكايات شبيهة (لا أقول مصادر) وجدناها فى محاورة عن السيمياء **(De Alchimia)** للكاتب الايطالى بتراركا **(Petrarca)** ، كما نجدها أيضا فى محاورة من محاورات ارازموس **(Erasmus)** اللاتينية اسمها « حديث فى السيمياء **(Colloquium Alcumistica)** • الا أن المثال النموذجى

للمعالجة الأدبية ، لأحداث هذه الحكاية ، هو ماجاء فى مسرحية بن جونسون (Ben Jonson) السيميائى (The Alchemist) فى القرن السابع عشر ومع ذلك يمكن ذكر كتاب فيه ما يشبه أحداث الحكاية هو « كتاب عجائب الدنيا (Libre de les Maravelles del Mon) الذى كتبه باللغة الكاتالانية المفكر والمتصوف (الذى عرفه العرب) رامون لول (Ramon Llull) تقريبا ولعل تشوسر قد قرأ الترجمة الفرنسية لهذا الكتاب • فهناك فى الفصل المخصص للسيماء نادرة خاصة بعلب ثلاث فيها بعض الذهب ، ويحتال الدجال على شخص ساذج بعملية ذوبان شبيهه بتلك التى جاءت فى حكاية خادم القمص • وعلى أية حال فان تشوسر يذكر فى خاتمة الحكاية اسمى أرنالدوس دى فيلانوفا (Arnaldus de Villanoya) والفيلسوف العربى محمد بن عميل المعروف باسم « الصادق » وباسم Senior بكل أنحاء غرب أوربا فى العصور الوسطى • وعلى كل حال فان عناصر علم السيمياء ، التى تعرف عليها تشوسر ، جاءت كلها فى كتاب مرآة الطبيعة (Sjeculum Naturale) للكاتب الفرنسى فنسان دى بوفى (Vincent de Beauvais)

(٢) بوتن آندر بلى (Boughton under Blee) مكان فى وسط غابة ، على بعد خمسة أميال من أسبرنج (Ospring) ، كان يقف عنده الحجاج فى طريقهم الى كانتربرى ، ليسقوا دوابهم •

(٣) دليل على أنه كان قمصا متصلا بشئون الدنيا (Canon secular)

(٤) ذكر ورق الأرقطيون (burdock) ، وعشب لسان الحمل pellitory اشارة واضحة الى أنه سيتكلم فى موضوع السيمياء ، اذ أن هذه الأعشاب كانت تستخدم لمحاولة انتاج أكسير الحياة •

(٥) من الواضح أن مثل هذه الصفات لا تليق بالوقار والتؤدة المنتظر أن يتصف بها أحد أحبار الكنيسة •

(٦) هناك تورية فى أصل الكلمة الانجليزية القديمة «blondren» التى تحتمل معنيين (أ) الطواف (ب) ارتكاب الحماقة •

(٧) اشارة الى عالم الأخلاق فى القرن الرابع الميلادى المعروف باســـم ديونزيوس كاتو (Dionysius Cato) صـــاحب « كتـــاب المثنويات فى الأخلاق والعرف الموجهة الى ابنه » (Disticha de Moribus ad Filium) (والاشارة هنا الى الجزء الأول الفقرة ١٧) •

(٨) هذا التشبيه يعطى فكرة عامة عن جانب الخداع والغش والتدليس ، الذى يصف به تشوسر علم السيمياء لاغرائه الساذجين والجشعين •

(٩) حسب موسوعة « مرآة الطبيعة » لفنان دى بوفى ، كانت توجد تسع درجات للحرارة المســـتخدمة فى التجارب الســـيميائية وهاتان الدرجتان المذكورتان ما هما الا القصوى والأخف •

(١٠) الاسم الذى ذكره خادم القمص تحريف لكلمة «الصلصال الأرمنى» (bolus armenius) وقد يكون ذلك خطأ مقصودا ، لاظهار جهل الخادم عندما يتكلم •

(١١) هى عملية سرية فى علم السيمياء ، بمقتضاها يصب اكسير أبيض على المعدن أيا كان فيتحول الى فضة ، ما السائل المصفى الاصفرار فهو اكسير أساسه حامض خاص يحول المعدن الى ذهب ، هذا طبعا حسب خرافات علماء السيمياء فى العصور الوسطى •

(١٢) كلمة « فيلسوف » هنا تحتمل معنيين ، كما هى الحال فى العربية :

أحدهما مستهجن ، أى دجال ، أو سيميائى ، يدعى أنه اكتشف « حجر الفلاســفة » أو الاكسير ، الذى يحول المعادن الوضيعة الى ذهب ، والآخر هو العالم الحكيم .

فلسفة : « ان مؤرخى الفلسفة يؤثرون مصطلح « الفلسفة الاسلامية » ،كلما عرضوا لمكانة العرب فى الفكر والحضارة . ولقد عالجت المسائل العقلية ، وهى مسألة الاله والعالم والانسان .

وهى أولا فلسفة دينية وروحية ، تعد امتدادا لأبحاث دينية ودراسات كلامية سابقة ، وثانيا هى فلسفةعقلية ، تعتد بالعقل اعتدادا كبيرا ، وتعول عليه فى تفسير الألوهية والكون والانسان . وثالثا هى فلسفة توفيقية ، لأنها توفق بين مختلف المذاهب الفلسفية ، ورابعا هى فلسفة وثيقة الصلة بالعلم ، فهى تأخذ عنه ، ويأخذ عنها وقد عالج الفلاسفة قضايا علمية كثيرة ، وكانوا يعتبرون العلوم العقلية جزءا من الفلسفة » .

(من كتاب « العرب والاسلام فى النهضة الأوربية » الفصل الثانى ، فى الفلسفة (للدكتور ابراهيم بيومى مدكور)

(١٣) الاكسير كان يطلق عادة على الشراب ، الذى كان يظن أنه يمنح الخلود والسلطان المطلق ، أما السائل المحول للمعادن الوضيعة ، فكان يســمى « حجر الفلاسفة » ، ولكن كلمة « اكسير » أصبحت تستعمل فى المعنيين .

وكان من المعتقد فى الكيمياء القديمة أن حجر الفلاسفة يمكنه تحويل المعادن الى ذهب . وتعتبر الأسكندرية المركز الأول للكيمياء القديمة ، ونسب اليها أنها موطن البحث عن حجر الفلاسفة .

وهناك حكاية فى القصص الشعبى الهندى عن تاجر تحطمت به السفينة ، والتقى براهب قاده الى كوخه . ثم أوقد الراهب نارا ومزج حديدا باكسير وألقى بالمزيج فى النار فخرج ذها نقيا .

(١٤) يذكر هذا البيت أحيانا للدلالة على أن هذه الحكاية لم تكن مكتوبة أصلا لتكون أحدى « حكايــات كانتربرى » وقد رؤى أن هذه القصـــة قـد كتبت للتلاوة على مجموعـة من الكهنة ، وانذارهم ضد الاهتمام بشئون السيمياء ، ولكن قد يكون تفسير هذه العبارة أبسط من كل ذلك اذ أ نالراهب ، والراهب الجوال ، والقسيس ، وغيرهم من أهل الكنيسة ، كانوا كلهم حاضرين مع الحجاج .

(١٥) المارك (Mark) عملة قديمة تساوى تقريبا ثلاثة أربــاع الجنيه الانجليزى الحديث .

(١٦) كان هذا المسحوق مقصودا به الايهام بأنه حجر الفلاسفة الخرافى ، الذى يحول المعادن الى ذهب ، واذا دق فى سائل أصبح اكسير الخلود .

(١٧) كان هذا القديس مذكورا فى « الأسطورة الذهبية » (الفصل ١٢٠) ، ولما قام به من معجزات وأفعال عجيبة . وكان مشهورا لشفاعته عند الله فى علاج الجنون والعقم عند السيدات . وكانت مقبرته فى مدينة آرل (Arles) بجنوب فرنسا ، مزارا يقبل عليه الكثيرون .

(١٨) ويساوى ١٠٠٠ جنيه انجليزى تقريبا من العملة الحديثة .

(١٩) بايار (Bayard) اسم تقليدى لأى حصان فى العصور الوسطى ، وقد يكون له صلة باسم البطل الفرنسى بايار ، الذى كان يعتبر مثالا للشجاعة والاقدام .

(٢٠) أرنولدوس دى فيلانوفا (Arnoldus de Villanova) كان عالما فرنسيا فى السيمياء ، عاش من ١٢٣٥ تقريبا الى ١٣١٤ م · ومن أهم مؤلفاته فى علم السيمياء كتاب باللاتينية اسمه « سبحة الفلاسفة » (Rosarium Philosophorum)

(٢١) كان « هرميس تريسميجستوس » (Hermes Trismegistus) أو هرميس المثلث العظمة هو المنشىء الخرافى للفلسفة « الهرمسية » الخاصة بالتفسير الرمزى لظواهر الطبيعة ، ومنشىء علم السيمياء ، حسب المعتقدات السائدة حينئذ وهو اسم لقب به الاغريق اله الحكمة والعلم عند قدماء المصرين « تحت » (Thoth) · وجمعت أقواله المزعومة فى كتب سميت بالكتب الهرمسية ، بين القرنين الثانى والرابع الميلاديين ·

(٢٢) ان التنين رمز الاله ميركوريوس (Mercurius) ، الذى أطلق اسمه على الزئبق فى اللغات الأوربية الغربية كما أن الاله ميركوريوس المقابل الرومانى للاله هرميس (Hermes) عند قدماء الاغريق ، وكان رسولا للآلهة الى جانب اختصاصات سـحرية أخرى فى الخرافات القديمة ·

(٢٣) الشمس رمزها الذهب ، والقمر رمزه الزئبق فى السيمياء ، والشمس باللاتينية (Sol) مذكر ، أما القمر باللاتينية (Luna) فمؤنث وكانا يرمزان للذكورة والأنوثة ، المكملين بعضهما للبعض الآخر فى السيمياء القديمة ·

(٢٤) كتاب سر الأسرار ترجم من اليونانية (على اعتبار أنه كان منسوبا لأرسـطو) الى العربية ، ومن العربية الى اللاتينية بعنوان « أسرار الأسرار » (Secreta Secretorum) ثم ترجم الى كل لغات أوربا ، ومنها الانجليزية · وهو موسوعة ، تجمع بين علوم الأخلاق والطبيعة وفن الحكم والسياسة والسحر والسيمياء ومواد أخرى كثيرة ، وقد لعب دورا هاما فى العلوم الحديثة بأوربا ، فى أواخر العصور الوسطى · وخير تحقيق لهذا الكتاب المهم تم على يد عالمين مصريين : الدكتور عبد الرحمن بدوى للنص العربى واليونانى واللاتينى ، والدكتور محمود المنزلاوى للنصوص اللاتينية والعبرية والأوربية المختلفة ·

(٢٥) هو كتـاب فى العلـوم الفلكية والتنجيم والسـيمياء لمحمد بن عميل التميمى الملقب « الصادق » وكان يسمى كتابه اللاتينية « الكتاب الشيخ » (Senior)

حكاية المتعهد

مقدمة حكاية المتعهد(١)

وهنا تأتى مقدمة حكاية متعهد المؤن

أتعرفون أين توجد قرية صغيرة تسمى « بوب أب أند دون » انها على مقربة من غابة بلين » ، فى الطريق الى كانتربرى ؟ (٢) فهنـــاك بدأ مضيفنا يداعبنا ويسخر منا بسخرية لطيفة ويقول : « يا سادتى ماذا جرى » ؟ لقد غرس الحصان فى الوحل ! ألا يوجد انسان يقوم بأجر أو بلا أجر ، بايقاظ صديقنا المتلكئ فى الخلف ؟ ان أى لص يستطيع أن يســلبه ماله ويغل يديه ، دون أن يشعر بذلك . فانظروا اليه كيف يقبل ! وانظروا أيضا اليه ، أستحلفكم بعظام الديك ، كيف أنه على وشك السقوط من فوق حصانه ! أهذا هو الطاهى اللندنى ، ثكلته أمه ؟ دعوه يتقدم اذن فهو يعلم بوضوح تام ما يجب أن يكفر به عما ارتكبه ، اذ انه سيروى لنا حكاية ، قسما بايمانى ، وان لم تكن تساوى حزمة قش . ثم قال : « استيقظ أيها الطاهى لعنة الله عليك ! ماذا بك حتى تنام فى الصباح ؟ أقرصتك البراغيث طوال الليل أم كنت ثملا ؟ أم كنت تعمل طوال الليل فى صحبة مومس وبذلك لا تستطيع أن ترفع رأسك ؟ » فقال الطاهى الشـــاحب اللون لمضيفنا : « بارك الله نفسى » ان شعورا بالثقل قد هبط على ولست أدرى لماذا ، حتى اننى أفضل أن أنام على أن أشرب برميلا من أجود أنواع النبيذ فى حى « تشميب » . فأجابه المتعهد مقاطعا بقوله : « اذن يا سيدى الطاهى ـ اذا كان يريحك ولا يغضبك ذلك ـ يحسن ألا تقص قصتك ، فأنا مستعد لاعفائك من

حكايتها ، وأنت معنا تمتطى جوادك فى موكبنا ، ما دام المضيف لا يرى فى ذلك بأسا فان وجهك حقا شاحب للغاية وعينيك مبهورتان أيضا كما يبدو لى ، وانى لأعرف حق المعرفة أن رائحة فمك كريهة جدا • وكل ذلك دليل على أنك لست على خير ما يرام م • وأنا لست ممن سينافقونك • تطلعوا اليه • ويحه ما أبغض ذلك الثمل ، كأنه يود أن يبتلع الرفقة جميعها ! أستحلفك يا رجل بشرف أعصابك أن تبقى فمك مغلقا ! فان الشيطان نفسه قد أقام فيه ورائحة فمك ستعدينا جميعا ! عيب عليك أيها الخنزير النتن ! عار عليك أصابك الله بما يسوءك ! لاحظوا هذا الانسان القوى أيها السادة ! والآن يا سيدى العزيز أنت مستعد للمبارزة كفارس ؟ انى أراك قد أعددت خير اعداد من أجل ذلك ! وانى متأكد أنك قد شربت من براميل النبيذ خلسة ، كما يفعل الناس ، وهم يمتصون النبيذ من البرميل ، بوساطة أنبوبة من القش •

ولما سمع الطاهى كل هذا الكلام غضب غضبا صاخبا ، وأخذ يومىء برأسه نحو المتعهد لأن القدرة على الكلام قد خانته لشدة غضبه ، ثم سقط من فوق حصانه وبقى مستلقيا على الأرض ، حتى رفعه بعض الناس حوله • ما أعظم فروسية هذا الطاهى ، وليته كان يستطيع أن يرفع نفسه الى مطيته بالكبشة التى كان يمسك بها ! وقبل أن يستأنف امتطاءه الجواد ، حدثت حركة كبيرة من الدفع والشد لرفعه ، واحتاج الأمر الى المزيد من الجهد ، لأن هذا الشبح التعيس لم يكن فى حالة تسهل مساعدته •

فتوجه مضيفنا الى متعهد المؤن ، وقال له : « أقسم بخلاصى من ذنوبى وأؤكد أن هذا الانسان بسبب استسلامه للخمر سيروى لنا حكاية مبتذلة للغاية • وسواء أكان هذا الانسان قد احتسى النبيذ أم الجعة فالخلاصة أنه يتكلم كالأحنف ، ويشخر باستمرار ، ثم أن من الواضح أنه مصاب بزكام شديد ، عليه أن يبذل قصارى جهده ليمنع حصانه الكئيب من أن يخطو فى الوحل • واذا سقط ثانية من فوق حصانه فسوف نضطر الى العودة الى مساعدته ثانية وكفانا عناء رفع جثته الثملة من الأرض • فهيا اروِلنا أنت حكاية وسأصرف النظر عنه • أما أنت يا سيدى المتعهد فقسما بايمانى أنك لست مرهف الحساسية الى حد يزيد عن اللازم ، بحيث تعتب عليه مثل هذا العتاب علنا على ما به من رذائل • فقد يسائلك فى يوم تال ، وقد يطالبك بديون قديمة ، وقد يعيد النظر فى حسابات قديمة تفتقر الى الأمانة المطلقة ، لو أردنا أن ندخل فى دقائق الموضوع » • فقال المتعهد : « كلا اذا فعل ذلك فانها سوف تكون مصيبة كبيرة ! انه قادر على أن يجرنى الى الفخ بمهارة وحذق • وانه لأحب لى أن أشترى منه الفرس التى يمتطيها من أن يقاضينى أو يتشاجر معى • لا أريد أن أغضبه قسما بمستقبلى ! ان كل ما قلته على سبيل الدعابة والفكاهة أتعرفون ما هو ؟ ان معى هنا فى زمزميتى جرعة من النبيذ المعصور من كرم ناضج • واليكم اذن ما يجعلكم ترون منظرا مرحا ومرفها للغاية • فهذا الطاهى سيشرب من ذلك

النبيذ ، ولن يرفضـــه أبدا قسما بحياتى • » وحتى نكون واقعيين فى وصفنا أقول ان الطاهى شرب بسرعة فى شراهة من هذا النبيذ • ويلاه ، ما كانت هناك ضرورة لذلك ؟ اذ أنه كان قد شرب ما فيه الكفاية قبل ذلك • ولما انتهى من النفخ فى بوقه وزمر وزمجر أعاد الزمزمية للمتعهد • وسعد الطاهى أية سعادة لما شربه ، وشكر المتعهد بأجمل ما يعرفه من عبارات الشكر • ثم أخذ مضيفنا يطلق ضحكات عالية وقال : « أرى أنه من الضرورى أن نحمل معنا شرابا جيدا ، حينما ذهبنا ، لأنه قادر على تحويل الغضب والضيق الى وفاق وحب ، كما أنه قادر على تخفيف حدة كل شعور بالظلم • يا باكوس يا اله الخمر تبارك اسمك ، يا من تستطيع تحويل الجد الى مداعبة خفيفة ! فالحمد اذن لذلك الاله ، وله كل خشوع ! ولن أتكلم أكثر من ذلك فى هذا الموضوع ، ولذلك أرجوك أيها المتعهد أن تمضى فى رواية قصتك » • فقال المتعهد : « خيرا يا سيدى ، والآن انصتوا لما أقوله » •

حكاية متعهد المؤن

هنا تبدأ حكاية متعهد المؤن الخاصة بغراب وما حدث له

حينما كان فيبوس اله الشمس يقيم فى هذه الأرض الدنيا ، كما تذكر لنا ذلك الكتب القديمة ، كان هذا الاله شابا أعزب كثير المرح والعنفوان ، كما كان من أمهر الرماة بالقوس • وقد قتل « فيتون » (٣) الأفعى بينما كانت نائمة فى ضوء الشمس ذات يوم كما قام بمآثر كثيرة أخرى بقوسه حسبما يستطيع الناس أن يقرأوا عن ذلك •

وكان بارعا فى العزف على آلات موسيقية مختلفة كما كان يجيد الغناء ، الأمر الذى يجعل كل من يستمع الى صوته الرخيم ينشرح صدره طربا • ولا شك أن أمفيون نفسه (٤) ملك طيبة فى اليونان الذى شيد أسوار مدينته بسحر انشاده كان لا يستطيع منافسته فى الغناء • وبالاضافة الى ذلك كان لا يضارعه فى الوسامة أى رجل وجد منذ أن بدأت الدنيا • وهل أنا بحاجة الى وصف ملامح وجهه ؟ خلاصة الأمر أنه لم يوجد أبدا أحد أجمل منه • وكان ، زيادة على ذلك ، كامل الخلق المهذب مرهف الشعور والكرم السامى • وهذا الاله فيبوس ، الذى كان زهرة المرشحين للفروسية ، لكرم أخلاقه وفروسيته كان دائما يحمل فى يده قوسا ابتهاجا بنصره فى الصراع مع الأفعى « فايتون » ، وهذا ما تحكيه لنا كتب التاريخ • وكان لفيبوس هذا فى بيته غراب ، يربيه فى قفص على مر الأيام ، واستطاع أن يعلمه الكلام كما يفعل الناس مع طائر القيق (أبو زريق) • وكان هذا الغراب لونه أبيض يضارع بياض البجعة البيضاء ، وبياض الثلج ، وكان

يجيد تقليد كلام أى انسان يروى حكاية ما · وزيادة على ذلك لم يكن فى العالم بلبل يستطيع بحال من الأحوال أن يغنى بمثل هـذا الصوت الرخيم والروعة
وكانت لفيبوس هذا زوجة فى بيته ، يحبها أكثر من حياته ، وكان يبذل قصارى جهده ليلا ونهارا ، ليحوز رضاها ، وليعبر لها عما يكنه لها من تبجيل واحترام · ولكنه ، اذا جاز لى أن أقول الحق فى هذا المقام ، كان مع ذلك شديد الغيرة عليها وكان يريد أن يحتفظ بها محبوسة فى البيت دائما ، ولأنه كان يعز عليه أن يعرض نفسه للخداع ، وهذا هو حال أى مخلوق فى مثل منزلته · ومع ذلك فالمبالغة فى الحرص ليست الا عبثا ، لأن شدة اليقظة فى هذا الأمر لا طائل تحتها · ولا شك أن الزوجة الفاضـلة اذا كانت عفيفة العقـل والفكر ، يجب ألا توضع تحت المراقبة المستمرة · وعلى كل حال فان أية محاولة لحبس الانسان السيىء لا جدوى منها ، لأن حال الدنيـا ليست كذلك · وانى لأعتقد أن من الحماقة بمكان أن يبذل الجهد سدى لوضع الحراسـة على الزوجات : وهـذا موضوع كتب فيه الفقهاء القدامى فى سيرهم التى دونوها لمثل هؤلاء الأزواج ·
والآن فلنعد لفرضنا من حيث بداته : كان فيبوس الكريم يعمل كل ما يستطيع ليسعدها ، ظنا منه أن هذه المعاملة الحسنة بالاضافة الى سمو مروءته وكـرم خلقه ، كل ذلك مجتمعا يحول دون حرمانه من رضاها · ومع ذلك فالله يعلق أنه ليس بوسع انسان ما أن يتحكم فى أمر غرسته الطبيعة فى قلب مخلوق ما ·
فخذوا مثلا الطائر ، اذا وضعتموه فى قفص ، وبذلتم قصارى جهدكم ، وأظهرتم أصدق عواطفكم فى تربيته بحنان ، وفى اطعامه واشرابه ، ووضع كل ما لـذ وطاب فى متناوله ، والحفاظ على نظافته ، ان هذا الطائر يفضل عشرين ألف مرة ، حتى لو كان قفصه من الذهب المزخرف ، أن يعيش فى غابة ، ولو كانت باردة وموحشة ، لا يأكل فيها الا الديدان أو أمثال هذه القذارة · وسيبذل مثل هـذا الطائر كل جهده فى أن يهرب من قفصه ما استطاع لذلك سبيلا · اذ أن الطائر يحن دائما الى حريته · وخذوا مثلا القط ، وأطعموه على خير نحو باللبن واللحم الغريض ، واجعلوا فراشه من الحرير الخالص ، ثم دعوه يلمح فأرا مارا بالجدار ، فانه عندئذ يهجر اللبن واللحم وكل شيء مما لذ وطاب فى البيت من شدة شغفه بازدراد الفأر · وهنا تجدون بوضوح أن الرغبة الشديدة هى السائدة دائما وأن الاشتهاء القوى يذهب بالحصانة والحكمة ·

ولأنثى الذئب طبيعة شريرة أيضا اذ أنها اذا صادفت أكثر الذئاب دناءة ، أو أقلهم منزلة فى قطيعة تعلقت به اذا اعتراها الشبق والرغبة فى المضاجعة ·
وكل هذه الامثلة التى أوردتها ذكرتها لأدلل على غدر الرجال ولست أقصد بها النساء بأى حال من الأحوال اذ أن الرجال هم الذين يتميزون بالشبق وبالشهوة العـارمة فى أداء ما يريدونه من متع مع مخلوقة دنيئة بدلا من زوجاتهم مهما بلغن من جمال أو وفاء أو أخلاق مهذبة · فالجسد ، لعنة الله عليه ، تواق دائما الى ما هو جديد حتى اننا لا نسـعد طويلا بمعاشرة من يتميزون بالخلق القويم ·

وفيبوس هذا ، الذى لم يتصور أى فن من فنون الخداع صادفه الغدر ، بالرغم من كل صفاته الممتازة اذ كان لزوجته خليل أقل منزلة من زوجها ، ولا يرقى الى سمعته ، بأى شكل من الأشكال ٠ وأسوأ ما فى الأمر أن الحظ كثيرا ما يدبر الأمور على هذا النحو ، وهذا يترتب عليه أسى وأذى شديدان ٠ وحدث ذات يوم ، بينما كان فيبوس غائبا عن البيت ، أن أرسلت زوجته فى طلب خليلها ٠ أأقول خليلها ؟ لا شك أن هذا كلام بذىء لعين ! فاعذرونى لاستعمال هذه الكلمة ، بل أرجو صفحكم عن استعمالها ! ويمكنكم أن تقرءوا أن أفلاطون الحكيم (٥) قال ان الكلمة لابد أن تتناسب مع الأفعال ٠ فاذا أراد الناس أن يسردوا واقعة سردا مناسبا فلابد أن يكون اللفظ ابن عم للحدث المراد سرده ٠ وانى رجل فظ فى كلامه ، وأنا معترف بذلك ، وأقول انه لا يوجد فارق حقيقى بين زوجة من علية القوم تكون قد زنت بجسدها وبين فتاة فقيرة أتت نفس ما أتت الا فيما يلى (علما بأن الاثنتين ترتكبان مكروها) وهو أن المرأة العالية الشأن سيسميها خليلها « سيدة حبه » ٠ أما الأخرى فلأنها امرأة بائسة فستسمى رفيقته ، أو بغيا ٠ والله يعلم أن الناس يعتبرون الاثم دنيئا فى الحالتين ٠ وكذلك الحال اذا قارنا الحاكم الظالم بقاطع الطرق أو اللص الشرير فلا فرق بينهما ٠ وقد رويت ذات يوم للاسكندر (٦) العبارة الآتية وهى أن الظالم بصفته أقوى بمن يتبعونه من جنود وأقدر على القتل والاهلاك وحرق البيوت والمساكن والابادة التامة ، هذا الشخص يسمى قائدا عظيما ٠ أما قاطع الطرق فلأنه ليس عنده أتباع كثيرون ، ولأنه لا يقوى على أن يصيب أحدا بضرر بليغ ، ولا أن يدفع قطرا بأسره الى المصائب الكبرى ، لذلك يلقبه الناس بأنه مجرد لص أو شقى ٠ ومع ذلك فيما أننى لست فقيها بعلم النصوص ، فلن أستشهد بالكثير منها ، وأعود الى قصتى ، حيث شرعت فيها ٠

فلما دعت زوجة فيبوس خليلها الى جانبها قام الاثنـــان بكل ما تشتهى نفساهما من فسق عاهر ٠ أما الغراب الأبيض الذى كان أسير القفص المعلق فشاهد كل ما ارتكباه من اثم ، ولكنه لم ينبس ببنت شفة ٠ ولما عاد السيد فيبوس الى بيته انتفض الغراب وصاح « كو كو كو كو كو ! » فسأله فيبوس مستغربا : « ما هذا أيها الطائر ؟ ما هذا النشيد الذى تنشده ؟ ألم تكن قد عودتنى أن تغنى غناء مرحا تثلج به صدرى ، وتسعدنى بسماع صوتك ؟ ويلك ! ما هذا النشيد الحزين ؟ » ٠

فقال له الطائر : « أقسم بالله يا فيبوس أن غنائى مناسب للمقام ٠ اذ أن كل عظمتك وجمالك وكرم أخلاقك وكل قدرتك على الانشاد وعلى العزف الرقيق وكل خدمة المحب للحبيب ، أقول كل ذلك لم يحل دون انخداعك بامرأة حقيرة السمعة ، ليست أهلالك ، اذا قارناكما بأهلية الناموسة ، وذلك ما أقوله قسما بالنعمة ! لقد رأيته يضاجع زوجتك فى فراشك » ٠

وماذا بعد ذلك ؟ لقد قص له الغراب بالأدلة القاطعة وبالوصف الجرىء

كيف أن زوجته خانته وزنت ملصقة به العار والعيب • كما قال له انه رأى ذلك الاثم يتكرر أمام عينيه •

وعندئذ ترنح فيبوس وتمايل الى الوراء وظن أن قلبه ينفجر انفجارا • وشد قوسه ووضع فيه سهما قتل به زوجه ، وهو فى شدة الغضب • وبعد ذلك لا يبقى شىء يحكى • فان الحزن العميق جعله يهشم كل آلاته الموسيقية من قيثارة ومزهر وسنطور كما كسر قوسه وكل سهامه ، ثم التفت للغراب وقال له : « أيها الخائن يا من لسانك مثل لسان العقرب ، لقد دفعتنى الى نكبتى وبوارى • يا ويحى •• ليتنى لم أولد ! لماذا لم أهلك ؟ يا زوجتى العزيزة ! يادرة بهجتى ! يا من كنت حبى الجاد والمخلص ، ها أنت ذى جثة هامدة ، ووجهك شاحب للغاية وأنا واثق أنك بريئة براءة الذئب من دم ابن يعقوب مما ينسب اليك ! يا أيتها اليد الغاشمة المتسرعة ماذا جعلك تقومين بمثل هذه الجريمة ! أيها العقل القلق ، أيها الغضب الأحمق ! يا من ضربت البريئة ضربة قاضية من غير ترو ! أيتها الريبة يا من تتشككين شكا باطلا ، أين كان وقتئذ عقلك وحصانتك ؟ أيها الناس اياكم والريبة ! لا تصدقوا شيئا من غير سند قوى من الحقيقة • ولا تضربوا ضربتكم قبل أن تتأكدوا من سببها وكونوا على علم وثيق قبل الاقدام على أى عمل باعثه الغضب الناتج من الريبة • ويلاهم ؟ كم من الآلاف قضى عليهم الغضب المتسرع وهبط بهم حتى صاروا مستلقين فى الوحل • يا ويلى لأنى سأقتل نفسى حزنا وأسى ! » ثم التفت الى الغراب وقال له : « أيها اللص الغدار ! سأعطيك أجر وشايتك الباطلة لقد كنت فى الماضى تغنى مثلما يغنى البلبل • أما الآن فستفقد قدرتك على الغناء وكذلك ريشك الأبيض ، ولن تستطيع قط أن تنبس ببنت شفة • وهكذا سيأخذ الناس ثأرهم من خائن غدار ، وستكون أنت وسلالتك أسود اللون من الآن فصاعدا • ولن تطلقوا من أفواهكم صوتا عذبا ولكنكم ستنعقون دائما نذيرا بالعواصف والأمطار شاهدا بأن زوجتى قد قتلت بسببك » • ثم اتجه نحو الغراب ونتف ريشه وصبغه باللون الأسود وحرمه الغناء ومنعه من الكلام بتاتا ثم ألقى به خارج البيت حتى يذهب الى جهنم ، وأنا بدورى سأتركه حيث هو • وهذا هو السبب فى كون الغراب أسود اللون •

يا سادتى أرجو اذن أن تعتبروا بهذا المثل وأن تكونوا حريصين فيما تقولونه ، وألا تقولوا أبدا طوال حياتكم لأى رجل مهما كان أن رجلا غيره قد ضاجع زوجته • فلا شك عندئذ أنه سيكرهك كرها ذريعا • وأنه ، على حد قول الفقهاء ، السيد سليمان الحكيم يعلم الناس أن يصونوا ألسنتهم أتم صيانة • ومع ذلك فانى لست عالما بالكتب كما قلت لكم قبل ذلك ، وأن أمى كانت تعلمنى دائما وتقول ما يلى(٧) : « يا بنى أستحلفك بالله أن تتأمل الغراب ! يا بنى كن صائنا لسانك حتى تحتفظ بصديق لك • فان اللسان الشرير أسوأ من الشيطان نفسه ! يا بنى يجب على الناس أن يصونوا أنفسهم من أعمال الشيطان ! يا بنى ان الله لرحمته ، التى لا تنتهى ، قد وضع سورا من الأسنان والشفتين لحماية

اللسان ، لأن الانسان عليه أن يتروى قبل أن يتكلم • والفقهاء قد علمونا أن كثيرا من الناس قد هلكوا نتيجة للكلام الذى يتجاوز الحد • أما الذى لا يتعمد الاكثار من الكلام فانه لا يجلب لنفسه ولا لغيره ضررا بصفة عامة • يا ابنى ! عليك أن تتقيد لسانك فى كل وقت الا عندما تبذل جهدا فى الكلام فى شــأن الله تبجيلا وتضرعا • وخير الفضائل يا بنى أن تحكم لسانك وأن تصونه • وهذا ما يتعلمه الأطفال فى أول حياتهم • يا بنى ان الاكثار من الكلام الطائش ، حيث كان يكفى الاقلال منه يؤدى الى ضرر بليغ • وهذا ما لقن لى • ان الرذيلة تترعرع فى الثرثرة • أتعرف ما فائدة اللسان المتسرع ؟ انه مثل السيف يقطع ويبتر فى قسمة الصداقة الى نصفين متنافرين • وان الثرثار مكروه من الله واقرأ فى ذلك الأمر ما قاله سليمان الحكيم الكريم ، واقرأ مزامير داود النبى ، واقرأ الفيلسوف سينيكا • (٨) يا بنى لا تتكلم قبل أن تومىء برأسك • وكن كتوما كما لو كنت أصم ، اذا سمعت ثرثارا يتكلم فى أمور خطيرة • ويقول الفلمنكيون فى هــذا الصدد ان الاقلال من الثرثرة يسبب راحة كبيرة • يا بنى اذا لم تقل شــيئا شريرا فلا خوف عليك من أن تلام • أما الشخص الذى يكون قد أساء فى الكلام ، فانه لا يستطيع بعد ذلك أن يسترد ما قاله • وما يكون قد قيل يكون قد نفذ ، وانطلق حتى لو ندم عليه قائله • فانه يكون أسير قوله وعليه أن يدفع ثمن ما يكون قد فاه به شقاء وأسفا • يا بنى ! كن حذرا ولا تكن مصدر شائعات أو أخبار ، سواء أكانت حقيقية أم باطلة • وحيثما تذهب سواء أكان ذلك بين علية القوم أم بين متواضعيهم فصن لسانك جيدا واعتبر بحكاية الغراب ! » •

(هنا تنتهى حكاية المتعهد عن الغراب)

هوامش حكاية المتعهد

(١) حكاية المتعهد : مصدر هذه الحكاية ما جاء بالأبيات ٥٣١ الى ٦٣٢ بالكتاب الثانى من ملحمة « مسخ الكائنات للشاعر الرومانى أوفيد (انظر ترجمة الدكتور ثروت عكاشة : القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧١) ٠

وهناك موضوعات دالة فى هذه الحكاية لها جذور معروفة فى القصص الشعبى العالمى ، منها موضوع الطائر المفشى للسر وموضوع الحكاية التى تفسر سبب تشكل الحيوان بالشكل الذى اكتسبه ومن أمثال ذلك فى الوقت الحديث حكايات كبلنج (Kipling) عن حيوانات الغابة فى الهند باللغة الانجليزية وما جاء فى الأساطير عن الحيوان والنجوم والنبات فى القصص الشعبى العالمى ٠ ويسمى علماء الفولكلور مثل هذه الموضوعات « بقص الأسباب » Les pourquois أما الجزء الوعظى الذى ختمت به الحكاية فأغلبه من الكتاب المقدس أو من كتاب فى الحكمة باللاتينية كتبه قاض ايطالى فى القرن الثالث عشر اسمه ألبير تانودا بريشيا (Albertano da Brescia) وعنوان كتابه فى فن الكلام والامساك عن الكلام (De arte loquendi et tacendi) وقد ظهر سنة ١٢٤٣ ٠

وفى كتاب ألف ليلة وليلة حكاية عن الطائر المفشى للسر ، تتلخص فى أن تاجرا كان كثير الأسفار وكانت له زوجة جميلة يحبها ويغار عليها فاشترى لها درة وهى نوع من الطيور الناطقة فكانت تخبر التاجر بكل ما يجرى فى غيبته ٠ وأحبت امرأته غلاما وأخذت تواصله فى مدة غياب زوجها ٠ وعندما عاد التاجر من سفره أخبرته الدرة بما جرى ، فهم الرجل بقتل زوجته فقالت له ان هذه الدرة كاذبة وسوف أثبت لك ذلك بالبرهان ٠ وطلبت منه أن يمضى ليلته عند أحد أصدقائه ، وفى الصباح يأتى ويسألها ٠ وفى الليل عمدت الزوجة الى قطعة قماش غطت بها قفص الدرة وجعلت ترش على تلك القطعة شيئا من الماء وتروح عليها بمروحة وتقرب اليها السراج على صورة لمعان البرق ، وتدير الرحى لتقلد صوت الرعد ٠ وفى الصباح جاء زوجهاوسأل الدرة عن الليلة الماضية فقالت له انها كانت ليلة ممطرة ولم تسمع شيئا لكثرة الريح والرعد والبرق ، فكتبها التاجر وذبحها ، وصالح زوجته ٠ واكتشف الزوج فيما بعد خيانة زوجته وعرف أن الدرة كانت صادقة فيما أخبرته به فقدم على ذبحها ، وقتل زوجته انتقاما منها وأقسم ألا يتزوج بعدها (ألف ليلة وليلة ـ المجلد الثالث ص ١٥٨ ، ص ١٥٩) ٠

(٢) كانت هذه القرية تسمى Bobbe-up-and-doun ولكنها الآن تعرف باسم « هاربلداون » (Harbledown) وهى على الطريق لمدينة كانتربرى ٠

(٣) هذه الأفعى الأسطورية اسمها البايثون (Python) ويبدو أن تحريف الكلمة الى فايتون من خطأ الناسخ ٠ وجاء ذكر البايثون فى الكتاب الأول (البيت ٤٣٨ وما بعده) من ملحمة « مسخ الكائنات » للشاعر الرومانى أوفيد ٠

(٤) أمفيون (Amphion) فى الأســـاطير اليونانية هو ابن رب الآلهة زيوس وأنتيوبى (Antiope) وكان عازفا ملهما على القيثارة الى حد أنه بينما كان يشرف على بناء أسوار مدينة طيبة اليونانية تحركت الأحجار من نفسها لتبنى السور من شدة طربها بالاستماع الى عزفه ٠

(٥) الاشارة هنا الى محاورته المسماة « طيماوس » Timaeus (٢٩ ٠ ب)

(٦) جاء ذكر هذا القول المأثور للاسكندر فى مقال شيشرون « فى الجمهورية » (De Republica) (٣ : ١٣)

(٧) أغلب هذه النصائح وردت فى مقال ألبيرتانودا بريشيا المذكور أعلاه ، وحتى ما جاء عن الكتاب المقدس أغلب الظن أنه جاء من خلال مقال ألبيرتانو ٠

(٨) الاشارة هنا الى سفر الأمثال (١٠ : ١٩ و ١٧ : ٣٠ و ٣٦ : ٢٨) أما مزامير داود فالمرجع فيها الى ١٠: ٧ و ١٢ : ٣ و ٥٢ : ٢ و ٦٤ : ٣ و ١٢٠ :٢ ٠ والاشارة الى سينيكا قد تكون الى بحثه « فى الغضب » (De Ira)

حكاية القسيس

مقدمة القسيس(١)

وهنا تلى مقدمة حكاية القسيس :

عندما كان المتعهد قد انتهى من قص قصته كانت الشمس قد انحدرت من خطها الجنوبى انحدارا خفيضا ألى حدأنها لم تدرك فى نظرى الا تسعة وعشرون درجة من الارتفاع ٠ وأعتقد أيضا أن الساعة قد بلغت الرابعة بعد الظهر لأن ظلى فى ذلك الوقت قد امتد أحـد عشرة قدما أو ما يقـرب من ذلك ٠ وقدرت هذه المسافة بأن اعتبرت ارتفاعى أنا ستة أقدام تقريبا وقمت على ذلك باحتساب طـول الظـل ٠ زد على ذلك أن طالع القمر كان مســتمرا فى الطلوع ببرج الميزان(٣) ، وكان كل ذلك بينما كنا قادمين على طرف قرية صغيرة ٠ لذلك قام مضيفنا بصفته مرشدنا وهاديا لرفقتنا السعيدة وقال لنا : « أيها السادة الكرام لا تنقصنا من الحكايات الآن سوى واحـدة (٤) ٠ فقد نفـذت خطتى وأنجزت ما أمرت به وانى متأكد أننا قد سمعنا من كل طبقة من الطبقات الممثلة بيننا ٠ أما تصورى العـام لخطتنا فأعتقد أنه قد طبق تطبيقا كاملا ٠ وأتوسل الى الله أن يهب راوى قصتنا القادمة حظا ســعيدا وتوفيقا فى الحياة ٠ ثم اتجه الى القسيس وسأله على النحو التالى : « يا سيدى القسيس ، أأنت قمصا أم قسا ؟ قل لى الحق وأستحلفك على ذلك بايمانك ! وعلى أية حال كن ما تريد ، ولكن لا تفسد علينا لعبتنا اللطيفة ٠ فكل انسان هنا قد روى قصته ماعداك أنت ٠ فافتح جعبتك واظهر ما بداخلها ٠ وأعتقد حقيقة من رؤيتى لملامح وجهك أنك

قادر على أن تصنف موضوعا عظيما • فأستحلفك بعظام الديك أن تحكى لنا حكاية بعد قليل ! » فأجابه القسيس فى الحال قائلا : « لن تسمع حكاية خرافية منى فان بولس الرسول فى رسالته الى تيموثاوس(٥) يوبخ كل من ينحرف عن الصدق ، عندما يروى الخرافات والحكايات الباطلة ، وأمثال تلك المكروهات • ولم أبذر الحثافة بيدى ، ولم لا أبذر حب الغلة الصحيحة اذا كنت أريد ذلك ؟ لذلك أقول لكم ، اذا كنتم مستعدين للاستماع الى موضوع أخلاقى وبه فضيلة واضحة فكل ما بوسعى أن أقوله هو ما فيه تعبير عن الخشوع أمام سيدنا المسيح ، فانصتوا اذن الى الكلام المباح ، بقدر ما أستطيع روايته • وعلى أية حال كونوا مطمئنين ، فانى رجل من الجنوب ، ولا أعرف أنظم الشعر ، ولست ممن يلتزم الروى الاستهلالى على وزن « رام ــ رام ــ روف » (٦) والله يعلم أيضا أننى لا أقيم وزنا أكثر للكلام المقفى • ولذلك اذا أردتم ، فسأقص لكم حكاية لطيفة نثرا ، ولن أخدعكم فيما أستطيع القيام به • وهكذا أعتقد أننى سأستطيع ربط كل خيوط هذه المجالس المبهجة وأصل بكم الى الختام • ألهمنى المسيح من لطفه ذكاء وابتكارا ، لكى أكشف لكم معالم الطريق فى هذه الرحلة ، التى تأخذنا فى حج مجيد الى ذلك المقصد السامى الذى نسميه أورشليم أو القدس السماوى (٧) • واذا سمحتم فسأشرع فى حكايتى بعد قليل ، وأرجو أن تخبرونى برأيكم فيها بعد الاستماع اليها ، وهذا كل ما أعلمه من الحديث وما أقدر عليه • ومع ذلك فانى أضع دائما خلاصة تأملاتى هذه تحت مراقبة الفقهاء العلماء لأننى لست متبحرا فى العلم والكتب • واطمئنوا على أننى لا آخذ من حديثى الا عبرته ، ولذلك فدفاعى أمامكم هو أننى أضع نفسى تحت رقابة من المراقبين » •

ولما انتهى من حديثه هذا اتفقنا بالاجماع على ما قاله ، لأنه بدا لنا أن هذا الأمر هو عين المطلوب ، حتى ندرك خاتمة فيها عبرة حسنة ، وحتى نعطى له الوقت للكلام وأن نكون من المنصتين له انصاتا جادا • فطلبنا من مضيفنا أن يقول للقسيس اننا جميعا نتوسل اليه أن يحكى حكايته •

فأصبح مضيفنا ناطقا بلساننا جميعا ، عندما قال : « يا سيدى القس دمت سعيدا دائما ! فقل لنا ما أضمرته من تأمت ، ولكن اسرع لأن الشمس أوشكت أن تغرب • وكن مفيدا مثمرا فيما تقوله ، وكن مقتضبا باركك الله ببركات عنايته ! قل ما راقك ، ونحن سعداء بالاستماع اليك » • وعندئذ فاه القس ، وتكلم على النحو الآتى :

(هنا تأتى خلاصة Nevill Coghill مترجمة)

حكاية القسيس ما هى الا موعظة نثرية فى موضوع كيفية اعداد النفس للاعتراف فى الكنيسة ، كما يتناول الطبيعة الحقة للكبائر السبع • ويبدو أن هذه الموعظة تؤدى بطريق طبيعى الى استدراك تشوسر ، الذى يليها ، ويختم به « حكايات كانتربرى » واذا أخذناها بالمعنى الحرفى وجدناها بمثابة خاتمة مناسبة لرحلة الحج قبيل ادراك مزار القديس عموما • واذا أخذناها بالمعنى الرمزى ، الذى أشار اليه القسيس أول ما طلب منه أن يروى حكاية ، أمكن اعتبارها بمثابة اعداد للنفس عند الاعتراف الأخير قبل نهاية حياة الانسان ، التى ليست سوى رحلة حج نحو ما تسمى بالقدس السماوية (عند المتصوفة المسيحيين) •

وليكم الآن خلاصة موجزة لموعظة القسيس : ان الله يشاء ألا يفنى أى انسان نهائيا فهناك سبل روحية مختلفة للتوجه نحو المدينة السماوية وأحد هذه السبل وأشرفها سر التوبة أى التفجع على الخطيئة ، والتصميم على عدم ارتكاب الاثم ثانية • فان جزر شجرة التوبة هو الندم ، أما فروعها وورقها فهو الاعتراف ، وثمرتها الرضا ، وبذرتها النعمة الالهية • أما الحرارة التى تكمن فى هذه البذرة وتنميها فهى محبة الله •

والندم هو حسرة القلب للخيئة • والخطايا تكون اما عرضية أو مميتة • فالخطيئة العرضية هى أن يحب الانسان المسيح أقل مما هو جدير به • أما الخطيئة المميتة فهى أن يحب الانسان مخلوقا أكثر مما يحب الخالق • والخطيئة العرضية قد تؤدى الى الخطيئة المميتة • وهناك سبع خطايا مميتة وأولاها الخيلاء •

وللخيلاء مظاهر كثيرة • منها الصلف أو الغطرسة والوقاحة والتبجح والرياء والابتهاج باتيان الأذى وغيرها • وقد تكون الخيلاء كامنة أو ظاهرية • فالخيلاء الظاهرية مثلها مثل لافتة الحان الدالة على أن بالسرداب نبيذا • وقد يبدو ذلك فى الافراط من ارتداء الأردية أو فى الاقلال منها على نحو غير معقول أو فى وضع الهيئة الجثمانية كما هى الحال عندما يبرز عجز الانسان كأنه أليتا الدحية البارزة عند اكتمال القمر بدرا ويكون من أدلة الخيلاء ما حول الانسان من حشم وحاشية أو ما يبدو عليه الانسان من مبالغة فى الكرم أو ما يتميز به من قوة مغالى فيها أو من تظرف أو تكلف الدماثه ، وعلاج الخيلاء هو التزام التواضع أو معرفة قدر الذات حق المعرفة •

أما الحسد فهو الحسرة على سعادة الآخرين وتوفيقهم والابتهاج لآلامهم • فهو أرذل الخطايا لأنه يضع نفسه فى مجابهة جميع الفضائل والخير نفسه ، بل أنه من أعداء الروح القدس مصدر كل جود وخير • ويعتبر الشيطان بمثابة صلاة «أبانا الذى» فى كل أتجاه من الناس للهمن أو الهمهة • ودواء الحسد أن

تحب الله وجارك وعدوك • أما الغضب فهو الرغبة الشريرة لأخذ الثأر • الا أن الغضب الموجه ضد الشر والرذيلة حسن ومستحب ، على شرط أن يكون الغضب خاليا من المرارة • والغضب الشرير نوعان : اما مفاجىء أو عمد وثانيهما هو الأسوأ • أما سوء النية المبيت أو سبق الاصرار ، فيطرد الروح القدس من النفس • وانه عبارة عن أتون الشيطان ويشعل الكره والتقتيل والغدر والكذب والمداهنة والازدراء والخلاف والتهديد واللعنات • ودواء الغضب هو الصبر •

أما الكسل فأن يعمل الانسان مايعمله بتبرم وبتراخ وبدون سرور ويتأذى من عمل الخير • ويمنع الانسان من أداة الصلاة • فهو خطيئة الكسل البليد ، الذى امتلأ قلبه فسادا • وهداه اليأس • أما علاجه فيكون بالجلد والصبر على الشدائد •

والبخل شهوة فاسقة نحو أشياء الدنيا فهو بمثابة عبادة وثنية للأصنام• وكل جنيه يدخل خزانته يصبح صنما يتعبد له • ويؤدى الى ابتزاز أسياد الأرض لرقيقها كما يدفع الانسان نحو التدليس وبيع المناصب والمقامرة والسرقة والشهادة الزور والكفر ، أما الدواء فهو الشفقة والرحمة العطوفة •

أما النهم فهو رغبة لا غور لها للأكل والشراب • والثمل هو الضريح المفزع لعقل الانسان • ودواؤه التعفف عن الشراب والملذات والاعتدال فى تناول الطعام والصحو •

والشبق قريب للنهم • ويمكن أن يتخذ أشكالا كثيرة وهو أفظع خطيئة من خطايا السرقة يمكن تصورها ، لأنه يسرق الجسد والنفس معا • وعلاجه العفة والقناعة والامساك عن المغالاة فى الأكل والشراب • فاذا كانت محتويات الآنية تغلى أكثر مما يجب فخير علاج هو ابعاد النار عنها •

والاعتراف لابد أن يصدر عن ارادة حرة ، وأن يؤدى بايمان كامل • وعلى الانسان ألا يعترف الا بخطاياه هو ، وعليه أن يفعل ذلك بصدق وبلسانه مباشرة ، وألا يضع قناعا على كلامه من العبارات المستعظية على الفهم • ويجب أن يكون الاعتراف عملا يتم بعد روية وألا يصدر عن تسرع وحمق وأن يتكرر كثيرا •

أما الرضا فهو يكمن عادة فى الصدقات والكفارة والصوم والآلام الجثمانية • وأما ثماره فهى الغبطة الأبدية فى جنة الخلد •

وهنا يستأذن مؤلف هذا الكتاب

ويستودعكم الله(٨)

وحان الأوان الآن لأن أتوسل الى كل من أنصت الى هذا البحث القصير ، أو قرأه أن يحمدوا سيدنا يسوع المسيح منبع كل ذكاء وخير ، اذا وجدوا فيه ما يروقهم . أما اذا كان فيه أى شيء كدرهم فاننى أرجو أن ينسبوه الى عيب فى جهلى به لا لسوء فى نيتى التى كانت تود أن تدبر الأمر أحسن تدبير ، لو قدر لها ذلك . وجاء فى كتابنا ما يلى : « كل الكتاب موحى به من الله ونافع للتعليم والتوبيخ للتقويم والتأديب ... » (٩) وهذا هو قصدى حقا . لذلك أتوسل اليكم برحمة الله أن تصلوا من أجلى لكى يرحمنى المسيح ويغفر ذنوبى . وأعد خاصة من ذنوبى ترجماتى المختلفة وقرضى الشعر فى موضوعات دنيوية باطلة ، وها أنا ذا أتبرأ منها كلها فى استدراكى هــذا . ومن مؤلفاتى هــذه كتاب ترويلوس ، وأيضــا كتاب فى الشهرة ، وكتاب السيدات الخمس والعشرين ، وكتاب الدوقة ، وكتاب يوم القديس فالنتين فى مجلس شورى الطيور ، ومن حكايات كانتربرى تلك التى تنحو نحو الاثم ، وكتاب الأسد ، وكثير من الكتب الأخرى ، اذا استطعت أن أتذكر أسماءها ، وكثير من الأدوار الغنائية ، وأناشيد الفسق والفجور(١٠) ، فليغفر لى ذنوبى المسيح ذو الرحمة الكبرى .

أما ترجمتى لكتاب بويثيوس فى السـلوى(١١) وكتب أخرى فى ســير الأولياء والقديسين والمواعظ وكتب الأخلاق والعبادة فاننى أشكر عليها كلها السيد يسوع المسيح ووالدته المباركة وكل قديسى السموات . كمـا أتضرع اليهم جميعا أن يمنحونى (من الآن فصاعدا حتى آخر حياتى) نعمة القدرة على التحسر لذنوبى ، ومحاولة ادراك الخلاص الروحى ، ونعمــة التكفير الكامل ، والاعتراف والرضا بعمل كل ذلك فى هذه الحياة الدنيا . أرجو ذلك بنعمة ذلك الذى هو ملك الملوك وقسيس جميع القساوسة ، والذى خلصنا وافتدانا بدم قلبه ، حتى أصبح أحد هؤلاء الذين فى جانب الخلاص فى يوم الدينونة . وهو حقا ، الذى يعيش الى جانب الأب والروح القدس الله واحد عبر كل القرون . آمين .

وهنا اكتمل كتاب حكايات كانتربرى الذى ألفه جيفرى تشوسر رحم يسوع المسيح روحه . آمين .

هوامش حكاية القسيس

(١) هذه الحكاية ليست حكاية بمعنى الكلمة لأنها ، بالرغم مما يقال فى مقدمتها . تتحول الى موعظة فى موضوع التوبة وتلتزم بأسلوب الموعظة وبتقسيماتها حسب قواعد الخطابة الدينية السائدة حينذاك . وقد ظن بعض النقاد أنها ليست من تأليف تشوسر أصلا بل انها موعظة كتبها أحد أتباع وكليف (Wycliffe) المتطرفين فى التزمت الدينى ثم أضاف اليها تشوسر ما يجعلها تتمشى مع الفكر الكنسى الرسمى المحافظ . ولكن البحث المتعمق قد كشف عن تركيبات كثيرة فى الموعظة تميز بها تشوسر فى أسلوبه ولها أصداء فى مواضع أخرى من « حكايات كانتربرى » . ويلاحظ أن المصدر المباشر لهذه الموعظة لم يتفق على تحديده لأنها تشمل موضوعين دالين مختلفين ، التوبة والكبائر السبع مع تعريفها وتلقين كيفية مقاومتها . واجماع الآراء على أن تشوسر لجأ الى ثلاثة مصادر معروفة فى عصره : ١ ـ « الكتاب الشامل للرذائل والفضائل» Somme des Vices et des Vertus) لراهب فرنسى دومنيكى اسمه الأخ لورنس (Frère Lorens) الذى أهدى كتابه هذا الى الملك فيليب المقدام (Philippe le Hardi) وأهمية هذا الكتاب المكتوب بالفرنسية القديمة أنه يعطى فكرة واضحة عن الظروف الاجتماعية فى فرنسا فى القرن الثالث عشر الى جانب ما يلقنه من دروس فى الأخلاق . ويبدو أن تشوسر قد استمد الكثير مما كتبه فى موضوع الكبائر السبع من هذا الكتاب (Simma seu Tractatus de Viviis et Virtutibus

٢ ـ « الكتاب الشامل أو البحث فى الرذائل والفضائل » (Gugliemus Peraldus) الذى كتبه باللاتينية قس فرنسى اسمه جييوم بيرو (ويعرف باسمه اللاتينى الذى عاش من ١١٩٥ تقريبا الى سنة ١٢٥٥ م .

أما جزء الموعظة الخاص بالتوبة فمصدره ٣ ـ « الكتاب الشامل فى أحوال التوبة » (Summa Casuum Poenitentiae) لقس دومنيكى تابع للبابا جريجوريوس التاسع . ويرجع تاريخ هذا الكتاب الى النصف الأول من القرن الثالث عشر . وعلى أية حال فهناك رأى غالب بأن الجزء الخاص بالتوبة قد كتب مستقلا عن العرض للكبائر السبع ، وأن تشوسر مزجهما بعد ذلك .

ولم نحاول ترجمة الموعظة بأكملها لأنها طويلة جدا وخالية تماما من أى عنصر قصصى بل تتطلب شروحا لا حصر لها لتوضيح ما فيها من نظريات وتفصيلات دينية كنسية . لذلك آثرنا أن نكتفى بالخلاصة القصيرة التى وضعها المرحوم نفيل كوجهل (Nevill Coghill) لترجمته الشعرية لحكايات كانتربرى الى اللغة الانجليزية الحديثة .

(٢) كانت الشمس على ارتفاع ٢٩ درجة الأمر الذى يعنى أن الساعة كانت تقرب من الرابعة بعد الظهر .

(٣) هذا خطأ وصحته برج الثور ـ أما برج الميزان فلا ينطبق الا على كوكب زحل .

(٤) مهما كان عدد الحكايات التى كان ينوى تشوسر أن يكتبها بالفعل فانه مما لا شك فيه أنه كان ينوى أن يختــم مجموعته بموعظة القسيس حتى ينتهى بكلمة صـالحة تتفق مع ما يقتضيه الايمان الدينى ·

(٥) المصدران هنا هما الرسالة الأولى الى تيموثاوس ١ : ٤ و ٤ : ٧ والرسالة الثانية الى تيموثاوس ٤ : ٤ ·

(٦) الاشارة هنا الى القصص المنظومة فى مآثر الفرسان والأبطال التى كانت تلتزم الروى البدئى فى أوائل الكلمات فى البيت الواحد · ويتهكم تشوسر هنا من هذا الأسلوب بذكر هذه العبارة التى لا معنى لها ولكن يبدو فيها الالتزام بنفس الحرف الأول للكلمات وهو الراء ·

(٧) المصدر هنا رؤيا يوحنا اللاهوتى فى الانجيل ٢١ : ٢ : « وأنا يوحنـا رأيت المدينـة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله مهيأة كعروس مزينة لرجلها » ·

(٨) استدراك تشوسر :

هذه الخاتمة التى يلقيها تشوسر بنفسه لا على لسان أحد من الحجاج تسمى استدراك تشوسر أو تراجعه عما قاله (Retractation) لأنه يختم فيه حكايات كانتربرى مع التعبير عن الندم والأسف على كل ما كان قد ألفه فى حياته من قصص وأشعار دنيوية قد تبعد العابد عن التأمل فى الذات الالهية وفيما ينفع النفس أثناء رحلتها نحو الآخرة ويوم الدينونة · واذا كان وضع موعظة القسيس فى نهاية حكايات كانتربرى مقصودا به أن يختم هذه المجموعة القصصية باثبات لقيم الدين تماما مثلما تنتهى رحلة الحجاج بالصلاة أمام قبر القديس توما فى كانتربرى فان ذلك يبرز لنا ارتباط تشوسر بدينه بالرغم من استغراقه فى القصص الدنيوى من حكايات خفيفة أو عاطفية خيالية · وحذا تشوسر فى هذا الأسلوب الختامى حذو كثير من معاصريه وممن سبقوه مثل الشاعر الايطالى جيوفانى بوكاتشيو (Giovanni Boccaccio) الذى اتجه فى أواخر حياته الى الكتابة باللاتينية فى موضوعات جادة أخلاقية تكفيرا عما كتبه من قصص مرفهة بالايطالية فى عنفوان شبابه ·

وعرف الأدب العربى عددا من الشعراء ، اشتهروا بالمجون والخمر والانحراف فى السلوك ، وتغنوا بذلك فى شعرهم ، وتجاوزت أخبارهم الأدب الرسـمى الى الأدب الشعبى ، ثم ندمـوا فى آخريات أيامهم على ما قالوا وفعلوا ندما شديدا · ومن أشهر هؤلاء أبو نواس ، وهو الحسن بن هانىء الحكمى ، أحد فحول شعراء العرب فى العصر العباسى الأول ·

ولقد كان للخمر والغلمان شأن كبير فى حياة أبى نواس وشعره ، وله نوادر كثيرة ، ترددت فى الأدب الشعبى العربى · على أنه عزف فى شيخوخته عن ملاذ الدنيا ، وقصر فنه على الزهد · وأقر أبو نواس بخطيئاته فى صراحة ملحوظة ، وردد القول بأنه ارتكب كل الموبقات الا الشرك بالله ، وكثيرا ما دعا قرناءه لأن يتوبوا مثله ، ويندموا ندمه ·

(٩) رسالة بولس الرسول الثانية الى تيموثاوس ٣ : ١٦ ·

(١٠) كتاب ترويلوس هو ملحمة Troilus and Criseyde كتاب فى الشهرة هو قصيدة « دار الشهرة » (The House of Fame) وكتاب السيدات الخمس والعشرين هو

« سيرة الفاضلات The Legend of Good Women وكتاب الدوقة هو The Book of ihe Duchesse وكتاب يوم القديس فالنتين هو ما يسمى « يبرلمان الطيور (The Parlement of Foules أما كتاب الأسد فلا دليل على وجوده • وهناك احتمال أن يكون تشوسر قد ترجم قصيدة بعذا العنوان للشاعر الفرنسى جيوم دى ماشو (Guillamme de Machault)الذى كان معاصرا له وكثير التأثير على أسلوبه خاصة فى تلك القصائد المستوحاة من تقليد الحب الرفيع (amour courtois) ونرجو الرجوع الى المقدمة العامة لأخذ فكرة عن كل مؤلفات تشوسر المذكورة هنا •

(١١) هذا هو محاورة « سلوى الفلسفة » (Consolatio Philosophiae) لبويثيوس التى ترجمها تشوسر الى انجليزية عن أصلها اللاتينى • وهناك شرح وتقديم لهذه المحاورة فى المقدمة أيضا •

المراجع

دراسات خاصة بالمصادر الأدبية لحكايات كانتربرى

Pryan, W. F. and Germanie Dempster, eds. **Sources and Analogues of Chaucer's Canterbury Tales**. Chicago, 1940.

Cummings, H. M. **The Indebtedness of Chaucer's Works to the Italian Works of Boccaccio.** Menasha, 1916.

Fansler, D. S. **Chaucer and the Roman de la Rose.** New York, 1914.

Fletcher, J. B. **Chaucer and the Consolation of Philosophy of Boethius.** Princeton, 1917.

Shannon, E. F. **Chaucer and the Roman Poets.** Cambridge, Mass., 1929.

Tatlock, J. S. P. and A. G. Kennedy. **Concordance to the Complete Works of Geoffrey Chaucer and to the Romaunt of the Rose.** Washington, 1927.

دراسات نقدية عامة

Bowden, Muriel. **A Commentary on the General Prologue to the Canterbury Tales.** New York, 1948.

Coghill, Nevill. **The Poct Chaucer.** Oxford, 1949.

Curry, W. C. **Chaucer and the Mediaeval Sciences.** 2nd edition. New York and London, 1960.

French, R.D. **A Chaucer Handbook.** 2nd edition. New York, 1947.

Kittredge, G.L. **Chaucer and His Poetry.** Cambridge, Mass., 1915.

Lawrence, W. W. **Chaucer and the Canterbury Tales.** New York, 1950.

Lowes, J. L. **Geoffrey Chaucer and the Development of His Genius.** Boston and London, 1934.

Lumiansky, R. M. **Of Sundry Folk : The Dramatic Principle in the Canterbury Tales.** Austin, 1955.

Malone, Kemp. **Chapters on Chaucer.** Baltimore, 1951.

Manly, J. M. **Some New Light on Chaucer.** New York, 1926.

Muscatine, Charles. **Chaucer and the French Tradition : A Study in Style and Meaning.** Berkeley and Los Angeles, 1957.

Patch, Howard Rollin. **On Rereading Chaucer.** Cambridge, Mass., 1939.

Root, R. K. The Poetry of Chaucer. 2nd edition. Boston, 1922.

Tatlock J,. S. P. **The Mind and Art of Chaucer.** Syracuse, N.Y., 1950.

دراسات تاريخية:

Bennett, H. S. **Life on the English Manor.** Cambridge, 1948.

Chaucer's World. Compiled by Edith Rickert. Ed. Clair C. Olsen and Martin M. Crow. New York and London, 1948.

Coulton, G. G. **Chaucer and His England.** 6th edition. London, 1937.

________, **Life in the Middle Ages.** 4 vols. Cambridge, 1928.

________. **Medieval Panorama.** Cambridge, 1939.

Huizinga, Johan. **The Waning of the Middle Ages.** Trans. F. Hopman. London, 1924.

Lewis, C. S. **The Allegory of Love.** London, 1951.

McKisack, May. **The Fourteenth Century, 1307-1399.** Oxford, 1959.

Owst, G. R. **Literature and Pulpit in Medieval England.** 2nd edition Oxford, 1961.

Power, Eileen. **Mediaeval People**. London, 1924.

———... **Medieval English Nunneries, c. 1275 to 1535.** Cambridge, 1922.

Trevelyan, G. M. **England in the Age of Wycliffe.** 4th edition. London, 1909.

Unwin, George. **The Gilds and Companies of London,** London, 1938.

Workman, Herbert B. **John Wyclif.** 2 vols. Oxford, 1926.



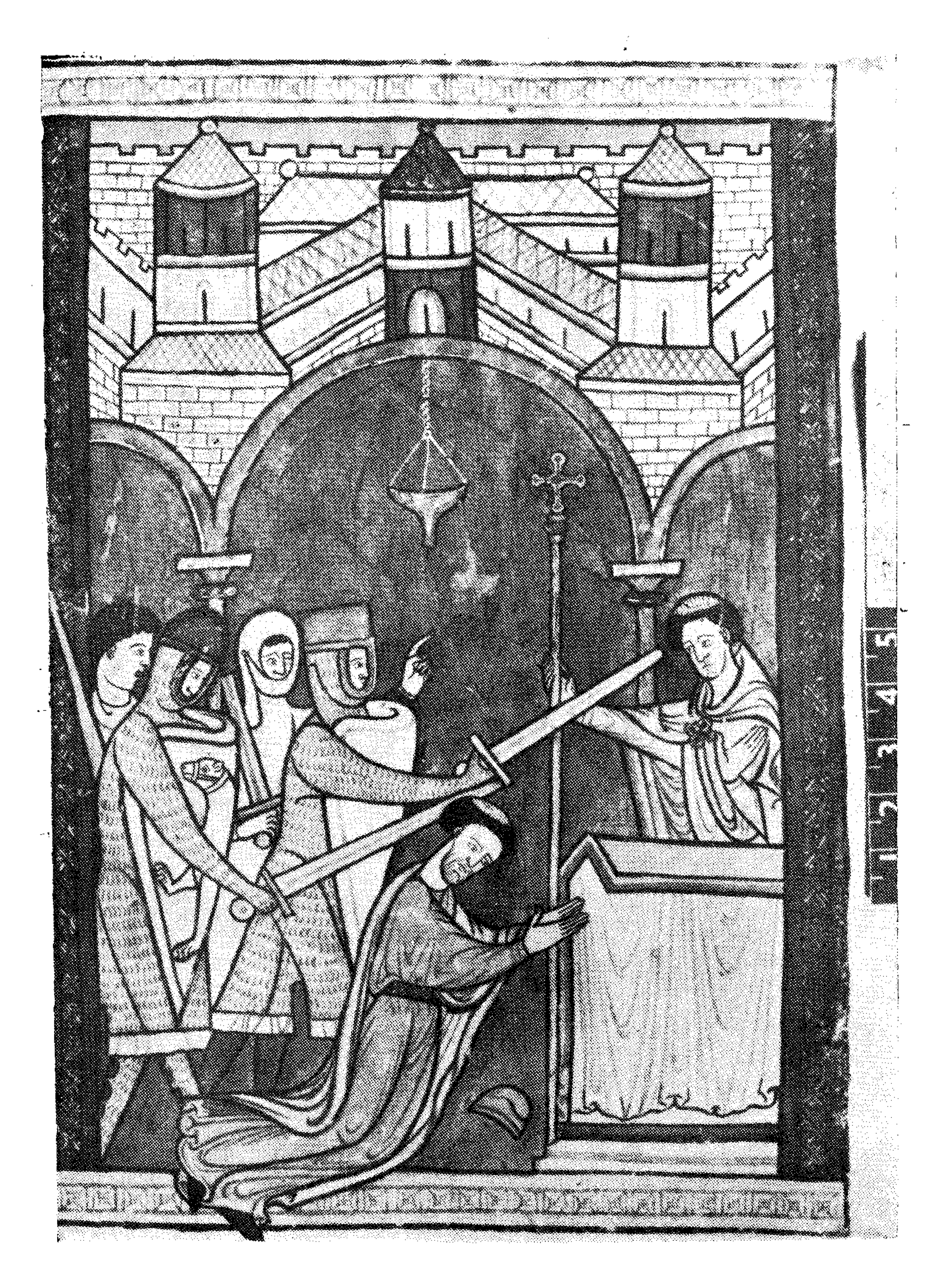
الشـاعر يحلم بحديقة الوردة ـ من مخطوطة بالمكتبة البريطانية في لندن



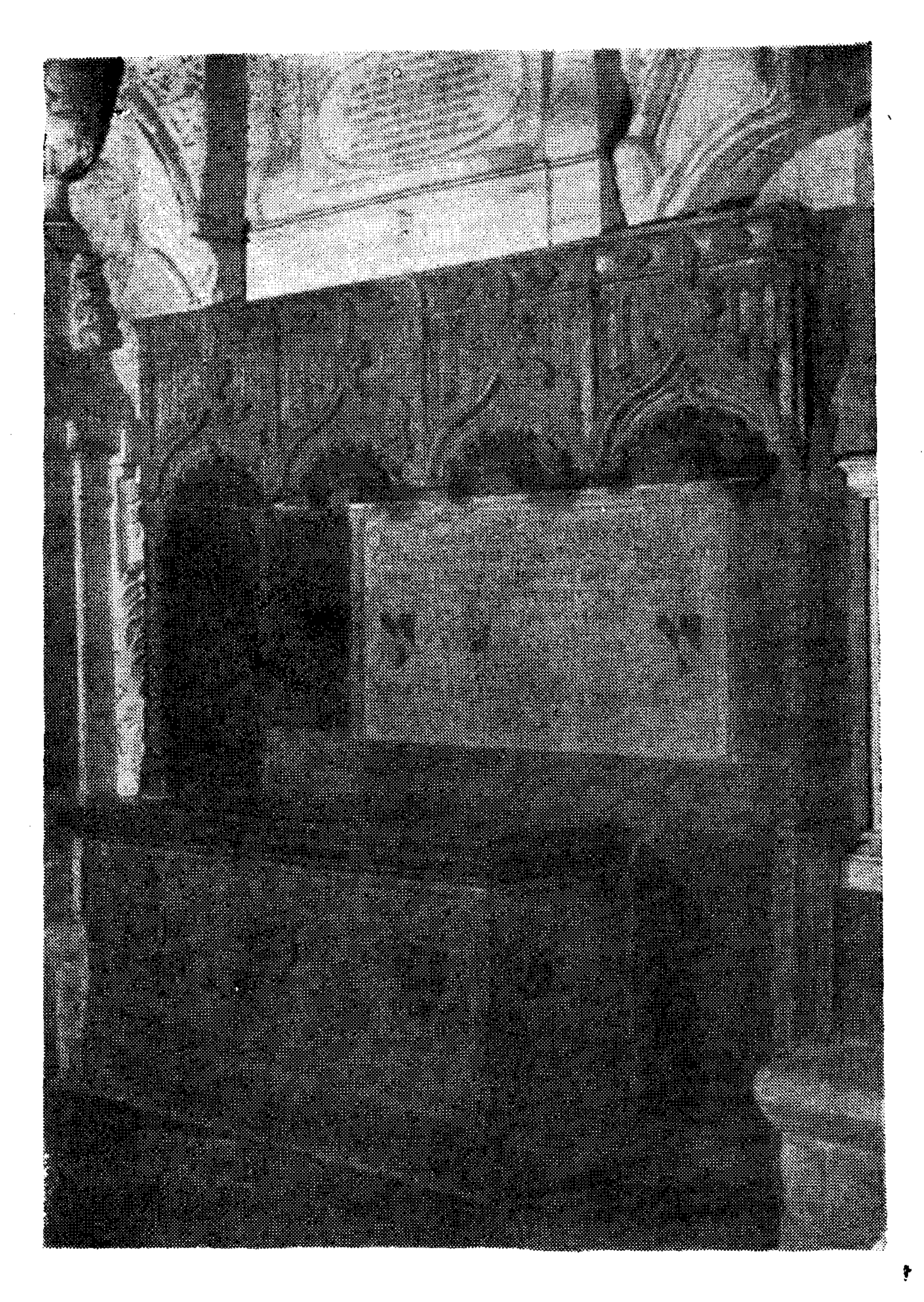
• ربة حسن الترحاب تقود العاشق الى الوردة » ـ من مخطوطة بالمكتبة البريطانية في لندن (مصدرها : البلاد الفلمنكية في اوائل القرن السادس عشر



العاشقان فى الحديقة ـ من مخطوطة بالمكتبة البريطانية فى لندن
ويرجع تاريخها الى أوائل القرن الخامس عشر فى فرنسا

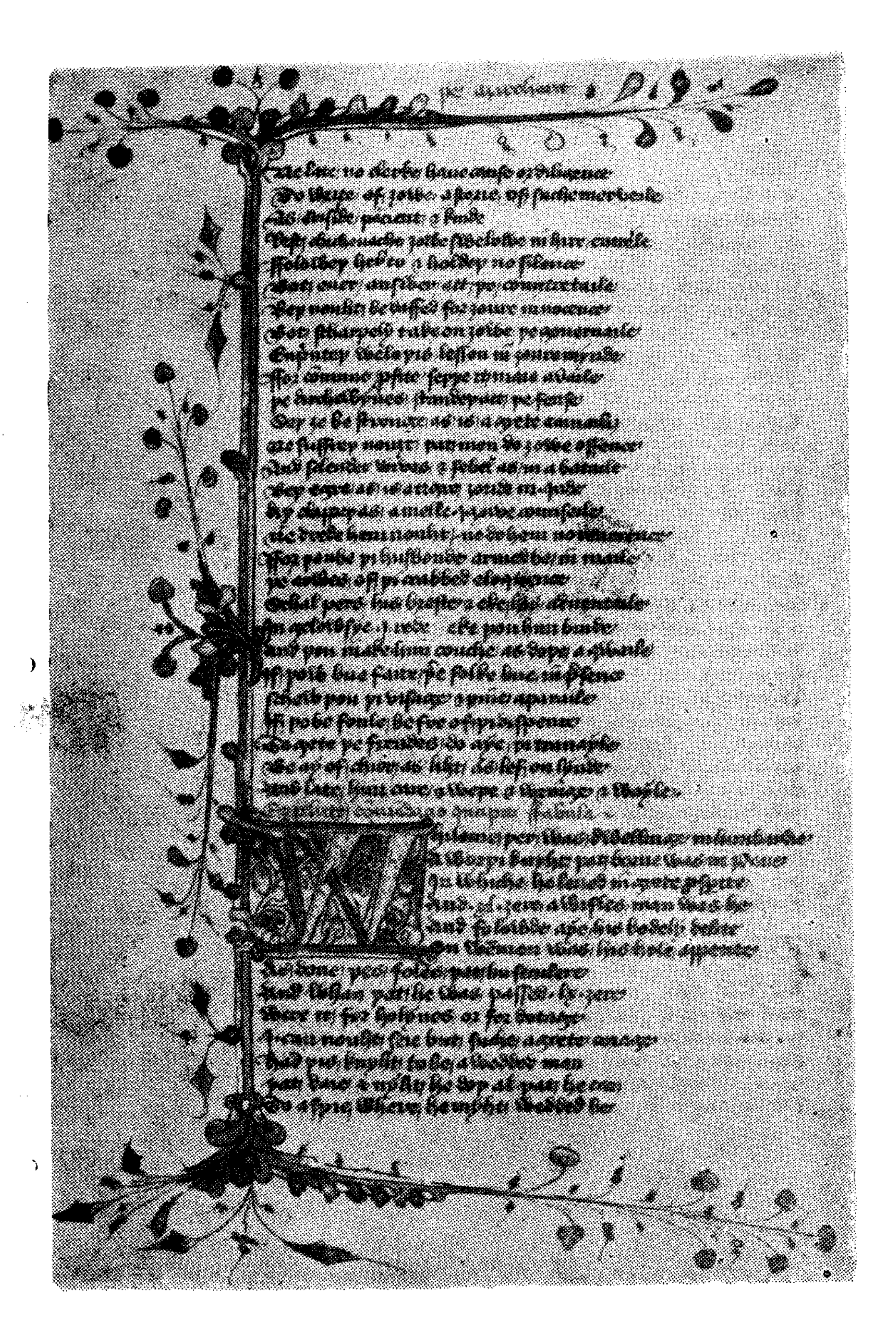


منمنمة فى مخطوطة بالمكتبة البريطانية فى لندن (ورقة رقم ٣٢)
أغلب الظن أن هذه المنمنمة قد رسمت سـنة ١١٧٣ تقريبا

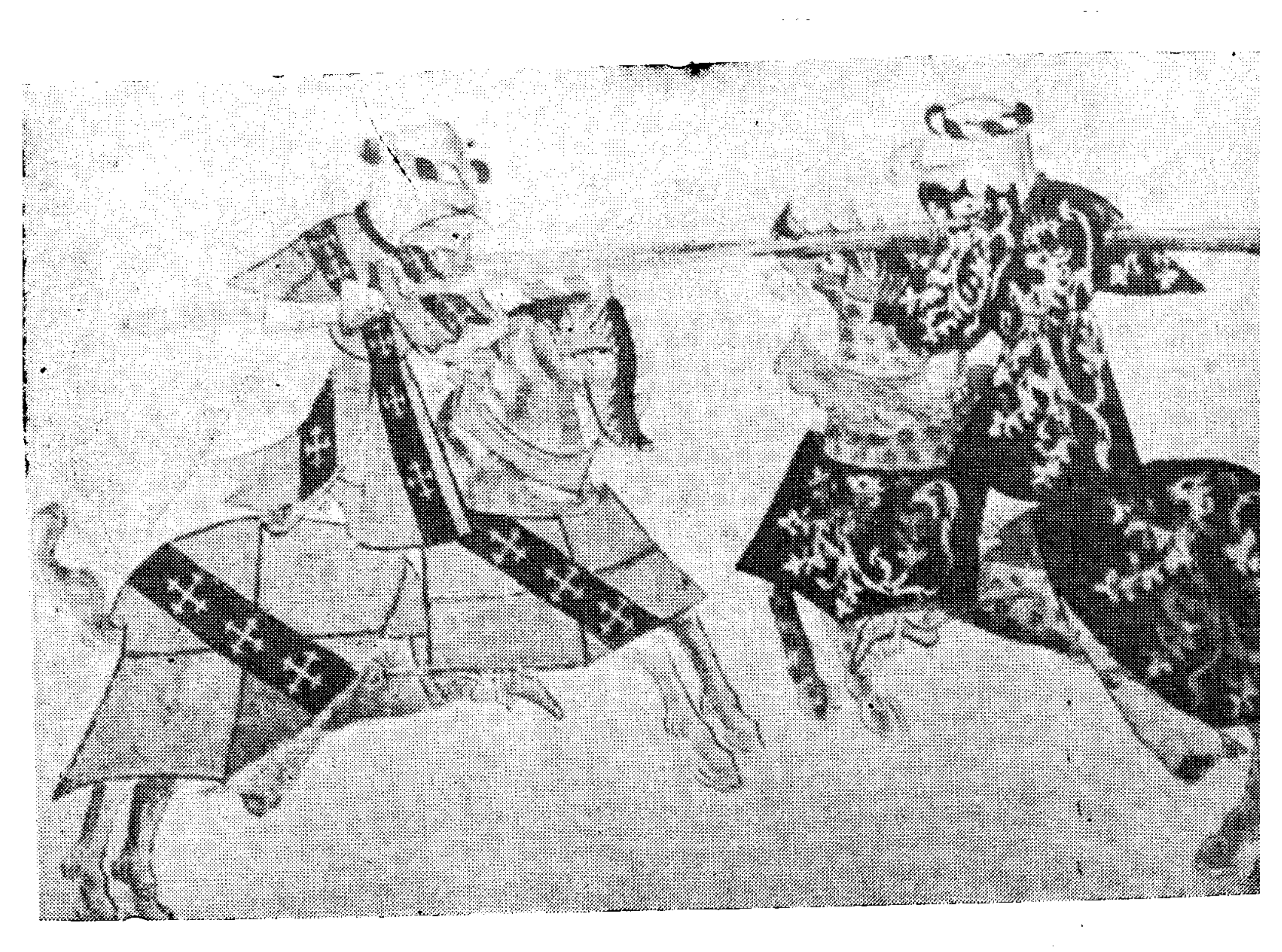


مقبرة تشوسر فى « ركن الشعراء » بكنيسة وستمنستر فى لندن

صورة للشاعر فى شيخوخته (من مخطوطة يرجع تاريخها الى أوائل القرن الخامس عشر فيها نص لكتاب توماس هوكليف فى نظام حكم الأمراء Regiment of Princes والمخطوطة فى المكتبة البريطانية بلندن



صفحة من مخطوطة يرجع تاريخها الى أوائل القرن الخامس عشر فيها بداية حكاية التاجر [مخطوطة بالمكتبة البريطانية فى لندن]

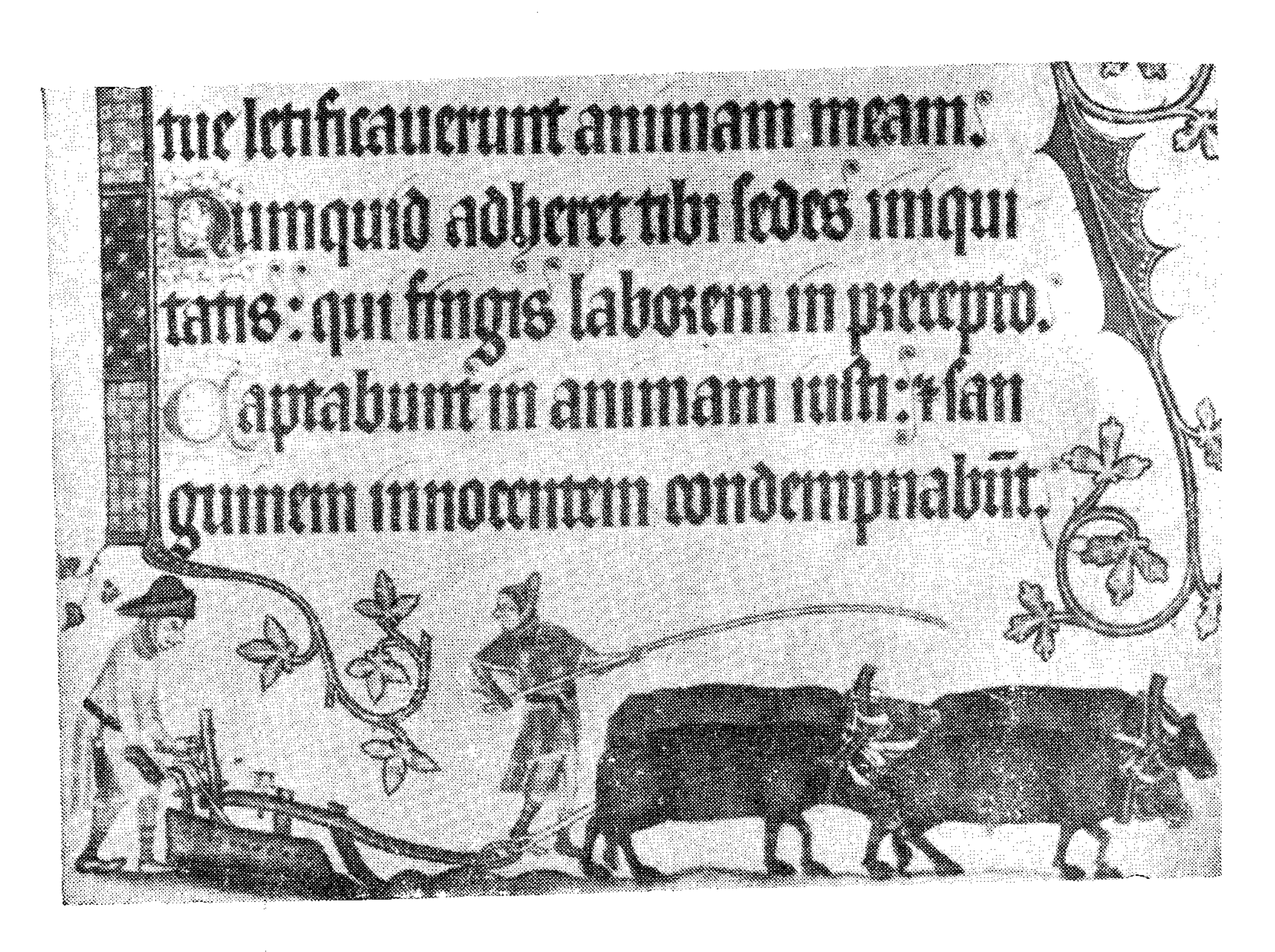


« مبارزة بين فارسين »

من مخطوطة بالمكتبة البريطانية فى لندن ، ويرجع تاريخها الى أوائل القرن الخامس عشر



الفارس سير هينوهيستنجر • (Hastings) المتوفى سنة ١٣٤٧
والصورة محفوظة بالمكتبة البريطانية فى لندن فى قسم المحفوظات



« حرث الحقل »

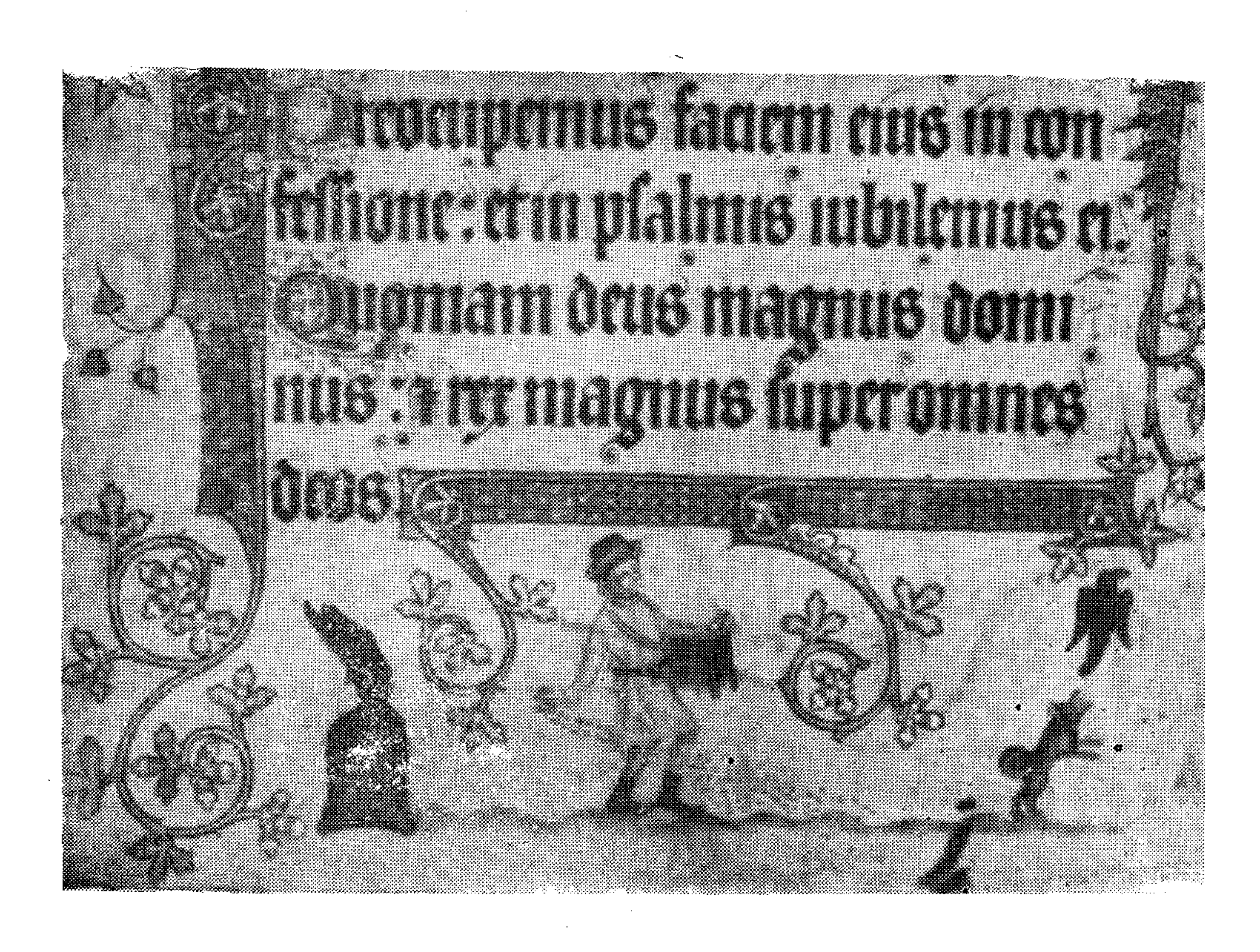
من مخطوطة كتاب المزامير للترل (Luttrell) الذى يرجع تاريخها الى سنة ١٣٤٠ تقريبا

(المكتبة البريطانية فى لندن)



« تمشيط الأرض »

(كتاب المزامير للترل)



« البذر نثرا »
(كتاب المزامير للترل)

محتويات الكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٣/٤٠٢٢

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ١٩٩ ـ ٠

مجموعة قصصية شعرية ألفها تشوسر فى القرون الوسطى، ضم فيها عدة حكايات من أنواع وموضوعات مختلفة فى إطار قصصى واحد ، ورسم فيها شخصيات بعض الحجاج المختلفين اجتماعيا وأخلاقيا عند زيارتهم الدينيه لمقبرة القديس الشهير توماس ا . بيكيت ورواها على ألسنة الحجاج . وقد حاول الشراح ترتيبها ، والتزمنا نحن بترتيب العالم الأمريكى روبنسون ، وقد بناه على أقوال الرواة أحيانا ، وعلى بعض الملاحظات الفلكية أحيانا أخرى . ومهما قيل من نظريات وافتراضات خاصة بالأجناس الأدبية التى تنتمى لها حكايات كانتربرى ، فإن هذه الحكايات قد أضفى عليها تشوسر من الطرافة ما جعلها تدخل التراث العالمى بوصفها رائعة أدبية قائمة بذاتها ، وهذا ما دفعنا إلى ترجمتها إلى اللغة العربية .

٥٠٠ قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب